

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾

ثم أردف سبحانه التهديد والوعيد بالوعد والترغيب، بقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدايته، وعبوديته ورسالتك ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ التي يكون الالتزام بها من وظائف الإيمان، وداوموا على العبادات والطاعات ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ الله، ويكمل لهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثواب إيمانهم وأعمالهم، من غير نقص ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم أشدّ بغض. وفيه بيان علة تعذيبه الكافرين، وتوفيته ثواب المؤمنين.

﴿ذَلِكَ نَشْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾

ثم استدلل سبحانه على نبوة خاتم النبيين بأن جميع هذه القضايا بما لا يمكن اطلاع محمد ﷺ عليها إلا بالوحي من الله، لا بالتعلم من عالم، ولا بالقراءة في كتاب، حيث قال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من نبي عيسى بدواً وختماً ﴿نَشْلُوهُ﴾ ونقرأه ﴿عَلَيْكَ﴾ بالوحي، وبتوسط جبرئيل، حال كونه المتلوق ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ والأدلة الدالة على صحة نبوتك، من حيث إعجاز البيان، وكونه من الأخبار المغيبات، ﴿وَوَ﴾ من ﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ والقرآن المحكم المصون من تطرق الخلل إليه ، أو المشتمل على الحكم البالغة في نظمه وتأليفه وكثرة علومه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ

نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٥٩) و (٦١)﴾

ثم أنه نقل المفسرون أنّ وفد نجران لما قالوا لرسول الله ﷺ : لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر ، وجب أن يكون أبوه هو الله ، فنزل دفعا لهذه الشبهة ^(١) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ وشأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ونحو خلقته العجيبة التي لا يرتاب فيها مراتب ، ولا ينازع فيها منازع.

(١) تفسير الرازي ٨ : ٧٤.

ثمَّ بيّن سبحانه وجه المماثلة بقوله : ﴿ خَلَقَهُ ﴾ الله بقدرته الكاملة ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وسوّى جسده من طين لازب ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ ﴾ بشرا وحيّا سويا ، وأراد أن يوجد إنسانا كاملا ﴿ فَيَكُونُ ﴾ ويوجد كما أراد من غير ريث ، فإن كنتم عجبتم من خلق عيسى بلا أب ، ولذلك قلتم : إنّه ابن الله ، فلا بدّ أن يكون تعجبكم من خلق آدم أكثر ، وقولكم بأنّه ابن الله أولى .

فذلك البناء من كَيْفِيَّةِ خلق عيسى هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ الثابت ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ لا قول النَّصَارَى ﴿ فَلَا تَكُنْ ﴾ بعد وحي الله إليك ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في كَيْفِيَّةِ خلق عيسى ، والشّاكّين فيها ، مع أنّه لا يمكن في حقّك الامتراء والشكّ .

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ في شأن عيسى وأمّه [و] جادلَكَ ﴿ فِيهِ ﴾ لجاحا وجهلا بالأقاويل الباطلة والآراء الزّائغة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بالحقّ وظهور الصّواب من الآيات البيّنات ، وأقمت الحجج عليهم ، فلم يرتدعوا عمّا هم عليه من الغي والضلال ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ تَعَالَوْا ﴾ وهلمّوا بالرأي والعزيمة ﴿ نَدْعُ ﴾ نحن وأنتم ﴿ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ وتخصيص الأبناء بالذكر ؛ لأنهم أعزّ من البنات ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ﴾ وذكرهنّ لكونهنّ من بعد الأبناء أعزّة الأهل ، ويجعل الإنسان نفسه وقاية لهنّ في المهالك ، ﴿ وَ ﴾ ندع ﴿ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ إلى المباهلة ، واحضروا حتّى نحمل نفوسنا ، ومن هو بمنزلة الرّوح منّا وألصق بقلوبنا ، على التّوطين للمهلاك ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ وتلاعن ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ ﴾ وعذابه ﴿ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ منّا ومنكم .
في (العلل) : عن الجواد عليه السلام قال : « ولو قال : (تعالوا نبتهل فنجعل لعنت الله عليكم) لم يجيبوا للمباهلة ، وقد عرف أن نبيّه ﷺ مؤدّ عنه [رسالته] وما هو من الكاذبين ، وكذلك عرف النبيّ ﷺ أنّه صادق فيما يقول ، ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه » (١) .

في شرح قضية المباهلة

روي أنّه ﷺ لما أورد الدلائل على النَّصَارَى ، ثمّ أمّهم أصرّوا على جهلهم ، فقال ﷺ : « إنّ الله أمرني إن لم تقبلوا الحجّة أن أباهلكم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، بل نرجع فننظر في أمرنا ثمّ نأتيك . فلمّا رجعوا قالوا للعاقب (٢) ، وكان ذا رأيهم : يا عبد المسيح ، ما ترى ؟ فقال : والله ، لقد عرفتم يا معشر النَّصَارَى أنّ محمّدا نبيّ مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام [الحقّ] في أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيّا قطّ ، فعاش كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم [إلّا] الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرّجل وانصرفوا إلى بلادكم .

(١) علل الشرائع : ١٢٩ / ١ ، عن الإمام الهادي عليه السلام .

(٢) العاقب : هو من يخلف سيّد القوم في الرتبة ، وهو صاحب الرأي .

وكان رسول الله ﷺ [قد] خرج وعليه مرط من شعر أسود - والمرط كساء من صوف - وكان ﷺ قد احتضن الحسين عليه السلام وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي علي عليه السلام خلفها ، وهو يقول : إذا دعوت فأمتنوا ، فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى ، إنني لأرى وجوها لو سألو الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله [بها] ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة .

ثم قالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا نباهلك ، وأن نتركك على دينك . فقال ﷺ : « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا ، يكن لكم ما للمسلمين ، وعليكم ما على المسلمين » فأبوا ، فقال : « فإنني أناجركم القتال » فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصلحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة ؛ ألفا في صفر وألفا في رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعتوا لمسحوا قرده وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير في رؤوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا » .

أقول : هذا عين ما رواه الفخر الرازي في تفسيره ^(١) ، وقريب مما رواه غيره من المفسرين ^(٢) .

وقال البيضاوي بعد نقله : هذا دليل على نبوته ، وفضل من أتى بهم من أهل بيته ^(٣) .

وأقول : هذا دليل على أن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه ^(٤) ، وأفضل من سائر البرية ، وأنه خليفته .

ثم قال الفخر : وروي أنه ﷺ لما خرج في المرط الأسود فجاء الحسن عليه السلام فأدخله ، ثم جاء الحسين عليه السلام فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي عليه السلام ، ثم قال ﷺ : « **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** » ^(٥) . ثم قال : واعلم أن هذه الرواية كالمُتَّفَقِ على صحتها بين أهل التفسير والحديث ^(٦) .

في (العلل) : عن الكاظم عليه السلام : « لم يدع أحد أنه أدخله النبي ﷺ تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام ، فكان تأويل قوله عز وجل : « **أَبْنَاءُنَا** » الحسن والحسين عليهما السلام ، و « **نِسَاءُنَا** » فاطمة عليها السلام و « **أَنْفُسُنَا** » علي بن أبي طالب عليه السلام » ^(٧) .

وعن القمي في رواية عن الصادق عليه السلام ، بعد ذكر آية « **فَمَنْ حَاجَّكَ** » فقال رسول الله ﷺ : « فباهلوني فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليكم ، وإن كنت كاذبا أنزلت علي » فقالوا : أنصفت . فتواعدوا

(١) تفسير الرازي ٨ : ٨٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ١٦٣ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٨ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١٦٣ .

(٤) أي نفس رسول الله ﷺ .

(٥) الأحزاب : ٣٣ / ٣٣ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ٨٠ .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٨٥ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٨ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام ، ولم نجده في العلل .

للمباهلة ، فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤسائهم ، السيد والعاقب والأهتَم : إن باهلنا بقومه باهلناه ، فإنه ليس نبيا ، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله ، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق .
فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن ، والحسين عليهما السلام ، فقال النصاري : من هؤلاء ؟ ف قيل لهم : إن هذا ابن عمه ووصيّه وختنه عليّ بن أبي طالب ، وهذه ابنته فاطمة ، وهذان ابناه الحسن والحسين عليهما السلام ، ففرقوا وقالوا لرسول الله ﷺ : نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة ، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وانصرفوا (١) .

في أن ابن البنت ابن حقيقة

قال الفخر : هذه الآية دالة على أنّ الحسن والحسين ابنا رسول الله ، حيث وعد أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين عليهما السلام فوجب أن يكونا ابنيه ، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله : ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ (٢) ومعلوم أنّ عيسى انتسب إلى إبراهيم بالأُمّ لا بالأب ، فثبت أنّ ابن البنت قد يسمّى ابنا (٣) .
أقول : عصبية منعت من أن يقول : فثبت أنّ ابن البنت ابن حقيقة ، وقال : قد يسمّى ابنا .

في أنّ علي بن أبي طالب عليّ أفضل من سائر الأنبياء

ثم قال : إنّه كان بالري رجل يقال له محمود بن الحسن الحمصي ، وكان معلّم الاثني عشرية ، وكان يزعم أنّ عليّا أفضل من جميع الأنبياء سوى محمّد ﷺ ، قال : والذي يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ وليس المراد بقوله : ﴿أَنْفُسَنَا﴾ نفس محمّد ﷺ ؛ لأنّ الإنسان لا يدعو نفسه ، بل المراد به غيره ، وأجمعوا على أنّ ذلك الغير كان عليّ بن أبي طالب عليّ ، فدلّت الآية على أنّ نفس عليّ هي نفس محمّد ﷺ .

ولا يمكن أن يكون المراد منه أنّ هذه النفس هي عين تلك النفس ، فالمراد أنّ هذه النفس هي مثل تلك النفس ، وذلك يقتضي الإستواء في جميع الوجوه ، ترك العمل بهذا العموم في حقّ النبوة وفي حقّ الفضل ، لقيام الدلائل على أنّ محمّدا ﷺ كان نبيا ، وما كان عليّ كذلك ، ولانعقاد الإجماع على أنّ محمّدا ﷺ كان أفضل من عليّ عليّ ، فيبقى فيما وراءه معمولا به ، ثمّ الإجماع دلّ على أنّ محمّدا ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء ، فيلزم أن يكون عليّ عليّ أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية (٤) .

ثمّ قال الفخر [نقلا عن محمود الحمصي المتقدم] : ويؤيد الاستدلال بهذه الآية ، الحديث المقبول

(١) تفسير القمي ١ : ١٠٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣١٨ .

(٢) الأنعام : ٦ / ٨٤ و ٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٨١ .

(٤) وللشيخ المفيد تفصيل في المقام ذكره في كتابه (تفضيل أمير المؤمنين عليّ) المنشور في ج ٧ من مصنفات الشيخ المفيد ، فراجع .

عند الموافق والمخالف ، وهو قوله ﷺ : « من أراد أن يرى آدم في علمه ، ونوحا في طاعته ، وإبراهيم في خلته ، وموسى في هيبته ، وعيسى في صفوته ، فلينظر إلى علي بن أبي طالب » . فالحديث دلّ على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقا فيهم ، وذلك يدلّ على أنّ عليّا أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ .
وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديما وحديثا يستدلّون بهذه الآية على أن عليّا أفضل من سائر الصحابة ؛ وذلك لأنّ الآية لما دلّت على أنّ نفس عليّ عليه السلام (١) مثل نفس محمد ﷺ إلا فيما خصّه الدليل ، وكان نفس محمد ﷺ أفضل من الصحابة ، فوجب أن يكون عليّ أفضل أيضا من سائر الصحابة . هذا تقرير كلام الشيعة .

في نقل كلام الفخر ورده

ثم قال الفخر : والجواب : أنّه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أنّ محمدا ﷺ أفضل من عليّ عليه السلام ، انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان على أنّ النبيّ أفضل ممّن ليس بنبيّ ، وأجمعوا على أن عليّا عليه السلام لم يكن نبيا ، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنّه مخصوص في حقّ محمد ﷺ ، فكذلك مخصوص في حقّ سائر الأنبياء . أنتهى كلام الفخر (٢) .

وفيه : أنّ دعوى الإجماع على أنّ كلّ نبيّ أفضل من غير النبيّ ، في غاية البطلان ، بل الإجماع على خلافه ، لوضوح أنّ مريم كانت أفضل من أنبياء بني إسرائيل ، ولم يكن في كمالاتها التّفنّسية قصور عن أهليّتها لمنصب التّبوّ ، غير أنّ صفة الأنوثية منعتها عن نيّله ، والشّاهد على ذلك أنّها كانت تحدّث الملائكة مشافهة ، وزكريّا مع كونه نبيا ، لم يعلم أنّه رأى ملكا ، وإنّما كان يسمع النّداء .
وكذلك لم يكن في كمالات عليّ عليه السلام قصور عن قابليّة رتبة التّبوّ ، ولو لا ختم التّبوّ بوجود خاتم النّبیین ﷺ لكان عليّ عليه السلام نبيا .

في إثبات أفضلية الصديقة الطاهرة على غير أبيها من الأنبياء

بل اعتقاد الإماميّة أنّ فاطمة عليها السلام ؛ التي كانت دون عليّ عليه السلام في الفضل ، كانت أفضل من سائر الأنبياء ، حيث قال النبيّ ﷺ : « فاطمة روعي التي بين جنبي » (٣) . وقال ﷺ أيضا : « لولا عليّ لما كان لفاطمة كفؤ ، آدم ومن دونه » (٤) .

وهذا الحديث والحديث السابق المتّفق عليه صريحان في أفضليّة عليّ عليه السلام من سائر الأنبياء ، نعم الإجماع منعقد على أنّ كلّ نبيّ أفضل من أمته وممّن هو تحت تبعيته وحكمه ، لا أنّه لا بدّ أن يكون

(١) (أفضل من سائر ... عليّ عليه السلام) ليس في المصدر .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٨١ .

(٣) أمالي الصدوق : ١٧٥ / ٢ .

(٤) الكافي ١ : ٣٨٣ / ١٠ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٤٩ / ١١٨٣ ، التهذيب ٧ : ٤٧٠ / ١٨٨٢ ، الفردوس ٣ : ٣٧٣ / ٥١٣٠ ، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١ : ٦٦ .

أفضل من كلٍّ من لا يكون نبياً ، ولو من سائر الأمم حتى أوصياء خاتم النبيين ﷺ .
والحاصل : أنَّ القائل بأفضليَّة عليٍّ عليه السلام لم يكن منحصرًا بذلك الفاضل الحمصي ، بل هو قول
جميع علماء الإماميَّة ، بل يمكن دعوى كونه من ضروريَّات مذهبهم .
ثمَّ أنَّ في واقعة المباهلة دلالة واضحة على صدق النبي ﷺ ، وصحَّة نبوِّته ، لوضوح أنَّه ﷺ كان
أعقل النَّاس ، وأتَّه أقدم على المباهلة وخوِّف النَّصارى بنزول العذاب عليهم بدعائه ، فلو لم يكن قاطعاً
بنبوِّته ، لكان ذلك منه سعيًا في ظهور كذبه ، ونقض غرضه ، وإهلاك نفسه ، حيث إنَّ النَّصارى إن كانوا
أقدموا على المباهلة ورأوا أنَّه لم ينزل عليهم العذاب ، كان يتَّضح عندهم كذبه ﷺ وفضاحته بين النَّاس ،
مع أنَّه لا شبهة أنَّ القوم تركوا مباہلته ، فلو لم يظهر لهم نبوِّته ، لم يمكن عادة امتناعهم عن مباہلته ، مع
شدَّة إصرارهم على تكذيبه ، وإبطال دعواه .

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ *

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٢) و(٦٣)

ثمَّ أكَّد الله سبحانه الحجج التي أقامها على النَّصارى بقوله : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور من نبأ عيسى
وأُمَّه ، وكوْنهما مخلوقين لله وعبيديه ، ومن الأدلَّة المفصلة عليها ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ والبيانات المقرونة
بالصدق والصَّواب التي نتيجتها قوله : ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده لا شريك له ، ولا ولد ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلِّ شيء ، القادر على جميع ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ العالم بجميع الأمور وعواقبها ،
وبحكم كافة الأشياء ومصالحها ، لا يشأه غيره في القدرة والحكمة حتى يشاركه في الألوهيَّة .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قبول الإسلام ، واستنكفوا عن الاعتراف بتوحيد الله ورسالتك ، فاعلم
أنَّه ليس ذلك التَّوَلَّى إلَّا عن العناد وإرادة الفساد ، فإذا لا تبال بهم ، ولا تحزن عليهم ، وأعرض عنهم ،
واقطع الكلام معهم ، وفوض أمرهم إلى الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ مطَّلع على خبث ذاتهم وسوء
نيتهم ، خبير بأهوائهم الزَّائغة وأغراضهم الفاسدة ، قادر على مجازاتهم بأسوأ الجزاء . وفي ذكر اسم الجلالة ،
تربية الرُّوعة والمهابة .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)

ثم أنه تعالى بعد أمر نبيه بمباهلة أهل الكتاب ، وإعراضه عن مجادلته - مع كونه ﷺ حريصاً في إيمانهم ، ومصرّاً على هدايتهم - أمره بأن يعدل في دعوتهم عن طريق المجادلة والمحاجة إلى فتح يشهد كل عقل سليم أنه عدل وإنصاف ، ليس فيه شائبة التعصب ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للنصارى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ واهلموا بالتصميم وتوطين النفس ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ ذات ﴿سَوَاءٍ﴾ وقول فيه عدل وإنصاف ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يتصور فيها لأحد جور وميل على صاحبه ؛ وهي توأمتنا على ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ أحدا من الخلق ، وشيئا من الموجودات ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ المستحق بالذات للالهية والعبادة ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ﴾ في عبادتنا ﴿شَيْئاً﴾ من مخلوقاته مسيحا كان ، أو صنما ، أو غيرها ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ ولا يختار ﴿بَعْضُنَا بَعْضاً﴾ آخر من الأحرار والرهبان ﴿أَرْبَاباً﴾ ومطاعين في تحليل الأشياء وتحريمها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه.

في بيان المراد من الأقانيم

فإن جميع هذه الأمور الثلاثة ^(١) مما تسالمت عليها العقول السليمة والطباع المستقيمة ، واتفقت عليها الرسل والكتب المنزلة ، ومع ذلك خالفت النصارى كلها ، إذ كان بعضهم يقولون بالوهية عيسى عليه السلام وحده ويعبدونه ، وبعضهم يشركون بالله غيره ، ويقولون بالأقانيم الثلاثة : أب ، وابن ، وروح القدس ، حيث قالوا : إن اقنوم الكلمة تدّرعت بناسوت المسيح ، واقنوم روح القدس بناسوت مريم ، ولولا [كون] هذين الاقنومين ذاتين مستقلتين ، لما جازت عليها مفارقة ذات الأب والتدّرع بناسوت عيسى ومريم عليهما السلام ، فلذا أثبتوا ذات ثلاثة مستقلة ، وكذا اتخذوا أحرارهم ورهبانهم أربابا ، حيث كانوا يطيعونهم في التحليل والتحرير ، ويسجدون لهم.

روي أنه لما نزلت ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ^(٢) قال عدي بن حاتم : ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، فقال ﷺ : « أ ليس كانوا يحلون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بقولهم ؟ » قال : نعم ، قال : « هو ذلك » ^(٣) .

قيل : إن من مذهبهم أن من صار كاملا في الرياضة والمجاهدة يظهر منه ^(٤) أثر حلول اللاهوت ، فيقدر على إحياء الأموات ، وإبراء الأكهم والأبرص. فإنهم وإن لم يطلقوا عليه اسم الرب ، إلا أنهم أثبتوا فيه ^(٥) معنى الربوبية ^(٦) .

وروي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ما تريد إلا أن نتخذك ربّا كما اتخذت النصارى عيسى ، وقالت

(١) أي الواردة في الآية.

(٢) التوبة : ٩ / ٣١ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٧ .

(٤) في تفسير الرازي : فيه .

(٥) في تفسير الرازي : في حقه .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ٨٦ .

التّصاري : يا محمّد ، ما تريد إلّا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز ، فأُنزل الله هذه الآية ^(١) . وعليها يكون الخطاب لأهل الكتابين.

ثمّ قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن سلوك طريق الإنصاف واتباع العقل ، واستنكفوا عن قبول ما دعوتهم إليه من التّوحيد وترك الإشراك ﴿ فَقُولُوا ﴾ أيّها الموحّدون لأهل الكتابين : ﴿ اشْهَدُوا ﴾ واعترفوا بعدما لزمتمكم الحجّة ﴿ بَأَنَّا ﴾ خاصّة ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ لله منقادون لما دعانا إليه من التّوحيد ، وعدم الإشراك في العبادة ؛ ببيان العقل ، ولسان الرّسل . وفيه دلالة ظاهرة على أنّ أصل جميع الدّيانات هو التّوحيد ، والإخلاص في العبادة.

في توقيع سيد الرسل إلى قيصر الروم

روي أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر الرّوم : « من محمّد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الرّوم ، سلام على من اتّبع الهدى ، أمّا بعد : فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين ، وإن تولّيت فإنّ عليك إثم الأولين ^(٢) ، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٣) .

روي أنّ هرقل سأل عن حال النبيّ ﷺ وعرفها ممّن جاء بكتابه ، فقال هرقل : لو كنت عنده لقبّلت قدميه ؛ لمعرفته صدق النبيّ ﷺ بعلاماته المعلومة له من الكتب القديمة ، لكن خاف من ذهاب الرئاسة.

ثمّ أنّه كتب جواب كتابه ﷺ : إنا نشهد أنّك نبيّ ، ولكنّا لا نستطيع أن نترك الدّين القديم الذي اصطفاه الله لعيسى . فعجب النبيّ ﷺ فقال : « لقد ثبت ملكهم إلى يوم القيامة أبدا » . وكتب إلى كسرى ملك فارس فمزّق كتابه ، ورجع الرّسول بعدما أراد قتله ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال : « خرّق الله ملكهم ، فلا ملك لهم أبدا » ، فكان كذلك ^(٤) .

في مبالغة النبي ﷺ في دعوة النصارى وحسن التدرّج في الحجاج

قال بعض : انظر ما روي في هذه القضية من المبالغة في الإرشاد ، وحسن التدرّج في الحجاج بين أوّل أحوال عيسى ، وما تعاور ^(٥) عليه من الأطوار المنافية للإلهية ، ثمّ ذكر كيفيّة دعوته للناس إلى التّوحيد والإسلام ، ثمّ ذكر ما يحلّ عقدتهم ، ويزيح شبهتهم ، فلمّا ظهر عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المبالغة بنوع من الإعجاز ، ثمّ لما

(١) تفسير الرازي ٨ : ٨٥ .

(٢) في تفسير روح البيان : الاريسيين ، وهم الخدم والخول ، أو هم عبدة النار ، أو الملوك والعشارون . انظر : مكاتيب الرسول : ١٠٥ - ١٠٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٤٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٦ .

(٥) تعاور : أي تداول عليه.

أعرضوا وانقادوا بعض الانقياد ، عاد عليهم بالإرشاد ، وسلك طريقا أسهل وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لما ظهر عدم إجدائه ، وعلم أن الآيات والتدبر لا تغني عنهم ، أعرض عن ذلك بقوله : ﴿ اَشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥)

ثم أنه - لما كان كل من اليهود والنصارى يدعون أن إبراهيم كان على دينهم ، ويستدلون بذلك على صحة ملتهم ، لتسالم جميع الفرق على علو مقام إبراهيم عليه السلام ، واستقامة طريقته ، وحسن سيرته ، وصحة عقيدته - رد الله عليهم بقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ لِمَ تُحَاجُّونَ ﴾ وتنازعون ﴿ فِي ﴾ دين ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أنه يهودي أو نصراني ﴿ وَ ﴾ الحال أنه ﴿ مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ﴾ اللذين بهما حدث الدينان ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بقرون كثيرة ، ولم يكونا في زمانه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذه الدعوى واضحة البطلان ؟ وكيف لا تفهمون أن هذا القول من الفساد بمكان .

قيل : إن بين إبراهيم وموسى عليه السلام ونزول التوراة ألف سنة ، وبين موسى وعيسى عليه السلام ونزول الإنجيل ألف سنة (١) .

وهم ودفع

إن قيل : إن المسلمين أيضا يدعون أن إبراهيم كان مسلما ، وهذه الدعوى كدعوى أهل الكتابين من المخالات ، حيث إنه ما أنزل القرآن والإسلام إلا من بعده ، فكل ما يقول المسلمون في توجيه دعواهم ، تقول الطوائفتان أيضا .

قلنا : المراد من الإسلام : هو التوحيد الخالص ، وتنزيهه تعالى عن التجسم والولد والحاجة . وهذا الدين كان من أول الدنيا ، ويكون إلى يوم القيامة . والمراد باليهودية : هو القول بالشرك ، والتجسم ، وإثبات الولد له تعالى . وكذا النصرانية .

وهذه العقائد الفاسدة كانت عندهم منسوبة إلى الكتابين ، أو حدثت في اعتقادهم بعد الكتابين ؛ لأن اليهود ذهبوا إلى القول بأن العزيز ابن الله لتلاوته التوراة بعد ذهابها من بين الناس عن ظهر القلب ، والنصارى قالوا : إن المسيح الجائي بالإنجيل كان هو الله أو شريكه أو ولده ؛ لأنه كان بلا أب ، أو كان عيسى عليه السلام يعبر في الإنجيل عن الله بالأب .

وأما العقائد الإسلامية فلم يكن حدوثها بنزول القرآن ، بل أخبر القرآن بأنها كانت من لدن آدم

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٤٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٨ .

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) وَ (٦٨)﴾

ثم إنه سبحانه وبخ أهل الكتاب على دعواهم الفاسدة بقوله : ﴿هَا﴾ تنبهوا يا أهل الكتاب ﴿أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ الحمقاء ، البعيدون عن العقل ، المتنازون بغاية السفاهة ، حيث إنكم ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ وجادلتم في كثير من الدعاوى الباطلة ، متمسكين بالتوراة والإنجيل المخرفين ، كدعوى كون كثير من أحكامهما مخالفا لدين الإسلام ، وتدعون أن جدالكم فيه جدال ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لوجود هذه المخالفة في الكتاب الذي تسمونه بالتوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وتجادلون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من دين إبراهيم ﷺ أنه كان يهوديا ، أو نصرانيا ، أو مسلما ، لعدم تعيينه في الكتابين المخرفين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور ، منها دين إبراهيم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئا إلا ما علمكم الله .

فإن أردتم أن تعلموا دين إبراهيم فاعلموا أنه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ فإن مقامه أرفع من التدين بالدينين الباطلين ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ ومائلا عن جميع العقائد الباطلة و﴿مُسْلِمًا﴾ منقادا لله وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأهم مشركون ، ورد على مشركي العرب ؛ حيث كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم ﷺ .

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾

ثم أنه تعالى عرف الذين هم على دين إبراهيم ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ﴾ وأحقهم بالاتصال ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾ برابط الدين ، فريقان : الأول : ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه والأعصار بعده ، في التوحيد الخالص ، والانقياد لله ، ﴿وَالثَّانِي﴾ الثاني : ﴿هَذَا النَّبِيُّ﴾ المعظم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المسلمين ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ﴾ اولئك ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ فينصرهم على مخالفيهم ، ويؤيدهم بالحجة ، ويوفقهم لكل خير في الدنيا ، ويجازيهم بأحسن الجزاء في الآخرة .

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾

ثم أنه تعالى - لما بين أن المؤمنين بالنبي ﷺ هم الذين يكونون على ملّة إبراهيم ، دون اليهود والنصارى - بين أنهم لا يقتصرون على ضلالة أنفسهم عن نصح الحق ، بل يريدون إضلال المؤمنين ، بقوله : ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وتمنوا ﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أيها المؤمنون عن دينكم الحق مع غاية ثباتكم عليه ، والحال أنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ عن سبيل الهداية وطريق الجنة ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لرسوخ الإيمان في قلوبكم ، وعدم تخطيهم الضلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ باختصاصهم به ، ورجوع وبال ذلك الضلال إليهم .
 قيل : نزلت هذه الآية في معاذ وعمّار بن ياسر وحذيفة [لما] دعاهم اليهود إلى دينهم (١) .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)﴾

ثم وجه سبحانه الخطاب التوبيخي إليهم بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الناطقة بصحة نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أمّا آيات الله في خلواتكم ، وقيل : المراد : لم تنكرون القرآن وأنتم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزا (٢) .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ (٧١)﴾

ثم وجههم ثانيا بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ وتخلطون ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وتجهدون في إلقاء الشبهات ، حتّى لا يتميّز الرشد من الغي ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ وتخفون دلائله الواضحة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بها وبدلالاتها ، وقبح الكتمان والتلبيس وبعقابهما الاخرى .

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ

وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى

هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ

بِإِذْنِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٢) و (٧٣)﴾

ثم بين الله أحد أنواع تلبيساتهم بقوله : ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ﴾ رؤساء ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لأتباعهم -

قيل : إنها كانت كعب بن أشرف ومالك بن الصيف من رؤساء اليهود ، لأتباعهما وأصحابهما ، لما

(١) جوامع الجامع : ٦١ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٩٢ .

تحوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة - : ﴿آمِنُوا﴾ في الظاهر بألستكم ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ، من تحويل القبلة ، وقولوا بأفواهكم : إنّه الحق ، وصلّوا إليها ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ وفي أوّله .

وعن العياشي : وهو صلاة الصّبح ^(١) ، حتّى يعتقد المؤمنون أنّكم اعتقدتم عن صميم القلب ﴿وَأَكْفُرُوا﴾ به وتجاهروا بإنكاره وصلّوا إلى الصّخرة ﴿آخِرُهُ﴾

عبّاس ^(٢) - كي يكون ذلك سببا لوقوع الشبهة في قلوبهم بأن يقولوا في أنفسهم : إنّ اليهود أعلم منا ، فأمنوا بالتحويل من غير تأمل وغرض ، ثمّ بعد التأمل والتفكّر ظهر لهم بطلانه فرجعوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بهذه الشبهة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن الإيمان بمحمّد ، وبتحويل القبلة .

وقيل : كانت الطائفة اثني عشر رجلا من أحبار خيبر ، حيث تفاولوا بأن يدخلوا في الإسلام أوّل النهار ، ويقولوا آخره : نظرنا في كتابنا ، وشاورنا علماءنا ، فلم نجد محمّدا بالنعته الذي ورد في التّوراة ، لعلّ أصحابه يشكّون فيه ^(٣) .

﴿وَوَقَالُوا لَا تَبِيعُوا﴾ ووصّوا إليهم بأن ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ إيمانا واقعيا ، ولا تصدّقوا عن صميم القلب لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من اليهود ، لا لمن تبع دين محمّد من المسلمين .

قيل : إنّ المراد : لا تظهروا الإيمان وجه النهار إلّا للمسلمين الذين كانوا على دينكم من قبل ، فإنّ رجوعهم أرجى وأهمّ ^(٤) .

وفي الإخبار بهذه الأسرار الخفية معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ، وحفظ قلوب المؤمنين عن الشكّ ، وردع المنافقين عن السعي في إلقاء الشبهات .

ثمّ لما سمّوا طريقتهم الباطلة بالدين والهداية ردّهم الله بقوله : ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى﴾ والذين ﴿هُدَى﴾ الله ودينه ، لا مذهب اليهودية . أو المراد : قل لهم إنّ الهداية والتّوفيق هداية الله وتوفيقه ، يهدي بها من يشاء إلى الإيمان ، ويثيبه عليه ، ولا يضرّه كيدكم وحيلكم .

ثمّ إنّ الأظهر أنّه تعالى - بعد الجملة الاعتراضية التي جاء بها ، لشدّة الاهتمام بالتنبيه بها - عاد إلى حكاية بقية كلام الرؤساء لاتباعهم ، وكأثمّ قالوا لهم : ولا تؤمنوا ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ من العرب أو غيرهم ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من المعجزات ، والكتاب ، والأحكام ، والعلوم ، فإنّ ذلك من المحالات غير

(١) تفسير الرازي ٨ : ٩٤ عن ابن عباس ، ولم نعثر عليه في تفسير العياشي .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٩٤ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ١٦٥ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٤٩ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ١٦٥ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٤٩ .

القابلة للتصديق ﴿أَوْ﴾ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ وَيَغْلِبُوا عَلَيْكُمْ ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَاثْبَتُوا بِغَايَةِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِكُمْ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَنْسُوخٍ . وَفِي الْآيَةِ اِحْتِمَالَاتٌ أُخَرُ يَكُونُ التَّكَلُّفُ فِيهَا أَكْثَرَ .

ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿إِنَّ الْفَضْلَ﴾ مِنَ النَّبَوَّةِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالْكِتَابِ ، وَالْهُدَايَةِ ، وَالتَّوْفِيقِ أَمْرُهُ ﴿بِإِدِّ اللَّهِ﴾ وَإِرَادَتُهُ وَمَشِئَتُهُ وَقُدْرَتُهُ ﴿يُؤْتِيهِ﴾ وَيَصِيبُ بِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى حَسَبِ قَابِلِيَّتِهِ وَكَمَالِ وَجُودِهِ ، وَلَا يَخْتَصُّ بِطَائِفَةٍ خَاصَّةٍ وَأَشْخَاصٍ مَخْصُوصَةٍ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ قُدْرَةً وَرَحْمَةً وَفَضْلاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بِاسْتِحْقَاقَاتِ الْخَلَائِقِ وَقَابِلِيَّاتِهِمْ ، وَمَطَّلَعٌ عَلَى جَمِيعِ مَصَالِحِ الْأُمُورِ وَمُفَاسِدِهَا .

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ سَعَةَ قُدْرَتِهِ وَفَضْلَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ مِنْ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ، قِيلَ : إِنَّ الرَّحْمَةَ أَعْلَى مِنَ الْفَضْلِ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بَحِثْ لَا نَفَادَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا نَهَايَةَ لِكَرَمِهِ .

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾

ثُمَّ لَمَّا كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ مَدْعِينَ أَوْلِيَّتِهِمْ بِمَنْصِبِ النَّبَوَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ ، نَفَى اللَّهُ أَهْلِيَّتَهُمْ لَهُ ، يَكُونُ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ خَائِنِينَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَأَضْرَابِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ﴾ قِيلَ : هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ الْكَثِيرِ ﴿يُودِّهِ﴾ وَيُرَدِّهِ ﴿إِلَيْكَ﴾ وَلَا يَخُونُهُ ^(١) شَيْئًا .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَوْدَعَ رَجُلٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَلْفًا وَمِائَتِي أَوْقِيَّةٍ ذَهَبًا ، فَأَذَاهُ إِلَيْهِ ^(٢) .
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ﴾ قِيلَ : هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ الْقَلِيلِ ﴿لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ وَيَخُونُكَ فِيهِ ، فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، وَأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ﴾ مِنْ حِينَ التَّأْمِينِ ﴿عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ وَلَهُ مَلَاذِمًا ، لَا تَفَارِقُهُ فِي وَقْتٍ أَوْ حَالٍ . قِيلَ : هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْمُبَالِغَةِ فِي الْمَطَالَبَةِ وَالتَّشْدِيدِ فِيهَا .
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ فَنَحَاصَ بْنَ عَازُورًا اسْتَوْدَعَهُ رَجُلٌ قَرْشِيَّ دِينَارًا فَجَحَدَهُ ^(٣) .

(١) خَانَ الْمَالَ : نَقَصَهُ .

(٢) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٨ : ١٠٠ .

(٣) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٨ : ١٠٠ ، تَفْسِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ ١ : ١٦٦ ، تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢ : ٥٠ .

وقيل : إنّ المراد من المأمونين : النصارى ، ومن الخائنين : اليهود ، لكون الغالب فيهم الخيانة ^(١) .
ثم ذكر سبحانه علّة خيانتهم بقوله : ﴿ ذَلِكْ ﴾ العمل القبيح من الخيانة ، وترك أداء الأمانة وشيوعه فيهم ، معلّل ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ تعصّبا وعنادا وغرورا : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ﴾ شأن ﴿ الْأُمِّيِّينَ ﴾ والعرب الذين ليسوا من أهل العلم والكتاب ﴿ سَبِيلٌ ﴾ ومؤاخذه وعتاب من الله . روي أنّ اليهود بايعوا رجلا في الجاهليّة ، فلمّا أسلموا طالبوهم بالأموال ، فقالوا : ليس لكم علينا حقّ ؛ لأنكم تركتم دينكم ^(٢) .
﴿ وَ ﴾ هم لخبث ذاتهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ ويفترون ﴿ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ حيث إنّهم كانوا ينسبون هذا القول الباطل إلى التوراة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ هذا القول والنسبة كذب وفرية .

في وجوب ردّ الأمانة ولو إلى الكافر

روي أنّه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « كذب أعداء الله ، ما من شيء كان في الجاهليّة إلّا وهو تحت قدمي ، إلّا الأمانة فإنّها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر » ^(٣) .
أقول : فيه دلالة على وجوب ردّ الأمانة ، ولو إلى الكافر الحربي غير المحترم المال .
وبعضه روايات أخر ، وقد عمل بها الأصحاب ، وادّعي عليه الشّهرة ، ونسب قول أبي الصّلاح - القائل بعدم الوجوب - إلى الشّدود ^(٤) .

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٦)

ثمّ لما كان هذا الافتراء مبنيا على ادّعائهم أنّهم أبناء الله وأحبّاءه ، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ بَلَى ﴾ عليكم في الأميين سبيل ، ولستم أحبّاء الله ، إنّما أحبّاءه كلّ ﴿ مَنْ أَوْفَى ﴾ وعمل ﴿ بِعَهْدِهِ ﴾ وتكاليفه وأحكامه ﴿ وَاتَّقَى ﴾ الشّرك والخيانة في الأمانة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ويشيب المتحرّزين عن الخيانة ونقض العهود .

عن رسول الله ﷺ : « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق ، حتّى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، [وإذا خاصم فجر] » ^(٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٥٠ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٠٢ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٠٢ .

(٤) راجع مفتاح الكرامة ٦ : ٤٠ ، جواهر الكلام ٢٧ : ١٢٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٥٢ .

أَلِيمٌ (٧٧)

ثم لما كانت الخيانة نقض عهد الله ، وإنكار أخذ الأمانة مستلزما للإيمان الكاذبة غالبا ، هدد الله عليهما بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ ويستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وميثاقه ، [سواء] كان على الإيمان بالرسول أو الوفاء بالأمانات أو غيرها ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ الكاذبة ، سواء كانت على إنكار أخذ الأمانة ، أو على أنهم يؤمنون بالرسول وينصرونه. ويأخذون بعوض الوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وبرّ اليمين ﴿ثَمَنًا﴾ وبدلا ﴿قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا ، والزنايات الباطلة.

﴿أُولَئِكَ﴾ المتخلقون بتلك الأخلاق الذميمة ، المتصفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَّاقَ﴾ ولا نصيب ﴿لَهُمْ﴾ من النعم والرحمة ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ والدار الباقية ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم ، أو بكلام أصلا ، وإنما يقع ما يقع من السؤال والتقريع والتوبيخ في أثناء الحساب ، من الملائكة. وقيل : إنّ المراد أنهم لا ينتفعون بكلمات الله وألطافه ، وقيل : إنّ الجملة كناية عن شدة الغضب والسخط ^(١) .

﴿وَلَا يَنْظُرُ﴾ الله ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بنظر الرحمة والرأفة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لغاية سقوطهم وهوانهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من أوساخ الأوزار ، ودنس الذنوب ، كما يطهر المذنبين من المؤمنين ﴿وَلَهُمْ﴾ بحسب الاستحقاق ﴿عَذَابٌ﴾ بالنار ﴿أَلِيمٌ﴾ وموجع في الغاية.

روي أنها نزلت في أبي رافع ، ولبابه بن الحقيق ، وحبي بن أخطب ، حرّفوا التّوراة ، وبدّلوا نعت الرسول ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك ^(٢) .

وقيل : نزلت في الأشعث بن قيس ، حيث كان بينه وبين رجل نزاع في بئر ، فاختصما إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : « شاهدك ، أو يمينه » فقال الأشعث : إذن يحلف ولا ييالي. فقال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين يستحق بها مالا ، هو فيها فاجر ، لقي الله وهو عليه غضبان » ^(٣) . وقيل : نزلت في رجل أقام سلعة في السوق ، فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به ^(٤) . والجمع بين الروايات أنّ جميع الوقائع لاقتراها كان شأن النزول.

﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٠٥ .

(٢ و ٣ و ٤) . تفسير أبي السعود ٢ : ٥١ .

ثم لما ذكر سبحانه أنهم نقضوا عهد الله بخيانتهم في أموال الناس ، ذكر أنهم نقضوا عهده بخيانتهم في التوراة التي هي أعظم ودائع الله في خلقه ، وتحريفهم إياها ، بقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ وطائفة ككعب بن أشرف وحيي بن أخطب وأضراهما ﴿يَلُؤُونَ﴾ ويفتلون ﴿أَلَسِنْتَهُمْ﴾ عند التلظظ ﴿بِالْكِتَابِ﴾ المنزل عليهم ، وحين قراءة آياته الدالة على نعوت النبي ﷺ بتغيير الحركات والإعراب ، وكيفيّة تأدية الحروف بحيث يوجب تحريف كلام الله ، وتغيير مدلوله المنزل إلى الحرف ﴿لِنَحْشِبُوهُ﴾ وتوهموه أنه بالنحو الذي يقرأونه ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْكِتَابِ﴾ المنزل ، ﴿وَوَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنْ﴾ جملة ذلك ﴿الْكِتَابِ﴾ في نفس الأمر ، وفي اعتقادهم ، ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿يَقُولُونَ﴾ بالصراحة ، لا بالكناية والتعريض لحرفهم : ﴿هُوَ﴾ الكتاب المنزل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ حتى في اعتقادهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بهذه النسبة ﴿عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ والافتراء تجرّيا وغرورا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون ، وفيه تسجيل عليهم بالتعمّد في الكذب .

عن ابن عباس رضى الله عنه : أنّ التفرّد الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، كتبوا كتابا شوشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ ، ثم قالوا : هذا من عند الله (١) .

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٧٩) وَ (٨٠)﴾

ثم لما كان كذب أهل الكتاب غير مختصّ بالله وتحريفهم بنعوت محمد ﷺ ، بل كانوا يكذبون ويفترون على أنبيائهم ويجرفون كلماتهم ، كافتراء التصارى على عيسى بأنه كان يدّعي الألوهية ، ويأمر الناس بعبادة نفسه ، نزه الله تعالى أنبياءه عن هذه الأباطيل ، ردّا على المفتزين ، بقوله : ﴿مَا كَانَ﴾ صالحا ﴿لِبَشَرٍ﴾ بلغ في كمال القوة النظرية والعملية إلى ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾ وبهبة ﴿الْكِتَابِ﴾ الناطق بالحق ، الأمر بالتوحيد ، التّاهي عن الشّرك ﴿وَوَ﴾ أن يؤتیه ﴿الْحُكْمَ﴾ قيل : هو كناية عن الفهم والعلم والسّنن ، ﴿وَوَ﴾ أن يهبه ﴿النُّبُوَّةَ﴾ التي هي منصب إلهي للنفوس الكاملة الطّيبة الرّكيّة كي يقوموا بمداية الخلق وتعليمهم وتربيتهم ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر ، مع كونه في مرتبة البشريّة المنافية للالوهيّة ، وبعد ما شرفه الله بما ذكر من التّشريفات ، وعزّفه الحقّ ، وأطلعه على شؤونه العالية ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا﴾

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٠٧ .

عِبَادًا خاضعين منقادين **﴿لِي﴾** وأطيعوني **﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** قيل : إنّ المراد : متجاوزين الله في العبادة. روي أنّ أبا رافع القرظيّ ، والسيد النجراني قالوا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك وننخذك ربّا ؟ فقال ﷺ : « معاذ الله أن نعبد غير الله ، وأن نأمر بعباده غيره » ^(١) فنزلت [الآية] . ونقل أنّه قال رجل من المسلمين : يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال ﷺ : « لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحقّ لأهله » ^(٢) .

أقول : يمكن كون مرجع ضمير (أهله) هو النبيّ ، لا (الحقّ) فيكون أمرا بمعرفة آله بالولاية ، ووجوب الطاعة.

﴿وَلَكِنْ﴾ البشر العالم المعلم للخلق ، يقول لهم : **﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾** والعلماء الكاملين في معرفة الله ، المتمسكين بدينه ، القائمين بطاعته ، المقبلين على عبادته ، وذلك الاهتمام في العلم والعمل **﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** الناس **﴿الْكِتَابَ﴾** السماوي المشحون بالمعارف والحكم والأحكام **﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾** كتاب الله وتقرأونه ، فإنّ دراسة كتاب الله وتلاوته - التي هي ذريعة المعرفة والعمل ، والتصدي لتربية الخلق وتكميلهم - سبب لاهتمام المربيّ بتربية نفسه. وإنّما قدّم التعليم على الدراسة لشرفه عليها.

﴿وَلَا﴾ يصلح أنّه **﴿يَأْمُرُكُمْ﴾** ويبيحكم ذلك البشر المبعوث لهداية الناس إلى **﴿أَنْ تَتَّخِذُوا﴾** وتختاروا لأنفسكم **﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾** وآلهة معبودين من دون الله كمشركي العرب والصّابئين حيث قالوا بأنّ الملائكة بنات الله ، وكاليهود حيث قالوا بأنّ العزيز ابن الله ، وكالنصارى حيث قالوا بأنّ المسيح ثالث ثلاثة ، أو ابن الله.

ثمّ لإظهار غاية شناعة نسبة هذه الأمور إلى النبيّ العارف بالله حقّ معرفته ، بل امتناع وقوعها منه ، أنكر سبحانه على القائلين بما بقوله : **﴿أَيَأْمُرُكُمْ﴾** النبيّ الداعي إلى الإسلام والتوحيد **﴿بِالْكُفْرِ﴾** والشرك ، لا سيّما **﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** موحدون.

قيل : فيه دلالة على أنّ المخاطبين كانوا مسلمين ، [وهم] الذين استأذنوا الرسول ﷺ [في] أن يسجدوا له ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٠٩ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٥٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٥٢ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١١٣ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨١) وَ (٨٢)﴾

ثم لما ظهر من الآية أنّ منصب النبوة ملازم للتوحيد والدعوة إلى الله وعبادته ، أشار [سبحانه] إلى أنّ كلّ نبيٍّ وأمته لا بد أن يكونوا مصدّقين لجميع الأنبياء ، وأنّ الله أخذ منهم العهد على ذلك بقوله : ﴿وَإِذْ﴾ قيل : إنّ المراد اذكر يا محمد حين ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ .

قيل : إنّ الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة أن يصدّق بعضهم بعضا ، وأخذ العهد على كلّ نبيٍّ أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء ، وينصره إن أدركه ، وأن يأمر قومه بالإيمان به وينصرته إن أدركوه ، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ، ومنهما أن يؤمنا بمحمد ﷺ . وقيل : المأخوذ منهم الميثاق أممهم .

عن (الجمع) : عن الصادق عليه السلام قال : « معناه : وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين ، كلّ أمة بتصديق نبيّها والعمل بما جاءهم به ، [وأنهم خالفوهم فيما بعد] فما وفوا به ، وتركوا كثيرا من شرائعهم ، وحرفوا كثيرا منها » (١) .

وعن الباقر عليه السلام ، في رواية قال : « هكذا أنزلها الله » يعني طرح منها (امم) (٢) . وكان ذلك الميثاق والعهد أنّه ﴿لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وشرفتمكم بالعلم بالأحكام والسنن والمعارف ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ وبعث إليكم في زمانكم ﴿رَسُولٌ﴾ من عندي ، وهو ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ ومعتزف بصحّة ما آتاكم الله من الكتاب والحكمة ، والله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ ولتصدقته ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ ولتعيننه على أعدائه .

في (الجمع) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « إنّ الله تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا أن يخبروا أممهم بمبعثه ونعته ، ويبشّروهم [به] ويأمرهم بتصديقه » (٣) . وعنه عليه السلام أنّه قال : « ما بعث الله نبيا ، آدم ومن بعده ، إلّا أخذ عليه العهد لئن بعث الله محمدا وهو حيّ ، ليؤمنن به ولينصرنّه ، وأمره أن يأخذ العهد بذلك على قومه » (٤) . وعن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « ما بعث الله نبيا ، من لدن آدم فهلمّ جزّا ، إلّا ويرجع إلى الدنيا

(١) مجمع البيان ٢ : ٧٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٥ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ٣٢٥ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٧٨٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٥ .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٧٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٥ .

وينصر أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو قوله : ﴿لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام « (١) .

أقول : توضيحه أنه بعد ما ثبت بآية المباهلة أن أمير المؤمنين عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله ، ثبت أن نصرته نصرته الرسول صلى الله عليه وآله ، مضافا إلى أنه لا معنى لنصرته إلا نصرته دينه ، ولا شبهة أن نصرته علي عليه السلام نصرته دين الرسول.

عن الباقر عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه : إن الله أحد واحد تفرد في وحدانيته ، ثم تكلم بكلمة فصارت نورا ، ثم خلق من ذلك النور محمدا صلى الله عليه وآله وخلقتي وذريتي ، ثم تكلم بكلمة فصارت روحا فأسكنه الله في ذلك النور ، وأسكنه في أبدانا ، فنحن روح الله وكلماته ، فبنا احتجب عن خلقه ، فما زلنا في ظلة (٢) خضراء ، حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف ، نعبده ونقدسّه ونسبحه ، وذلك قبل أن يخلق خلقه .

وأخذ ميثاق الأنبياء بالإيمان والنصرة لنا ، وذلك قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يعني لتؤمنن بمحمد صلى الله عليه وآله ولتنصرن وصيه ، وسينصرونه جميعا ، وإن الله أخذ ميثاقي مع ميثاق محمد صلى الله عليه وآله بنصرة بعضنا [لبعض] .

وقد نصرت محمدا ، وجاهدت بين يديه ، وقتلت عدوه ، ووفيت الله بما أخذ علي من الميثاق والعهد والنصرة لمحمد صلى الله عليه وآله ، ولم ينصرن أحد من أنبياء الله ورسله ، وذلك لما قبضهم الله إليه ، وسوف ينصرونني ويكون لي ما بين مشرقها ومغربها ، وليبعثهم الله أحياء ، من آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله كل نبي مرسل ، يضربون بين يدي بالسيف هام الأموات والأحياء والتقلين جميعا .

فيا عجباه ! وكيف لا أعجب من أموات يبعثهم الله أحياء ، يلبّون زمرة زمرة بالتلبية : لبّيك لبّيك يا ولي (٣) الله ، قد أظّلوا بسكك الكوفة ، قد شهروا سيوفهم على عواتقهم ، يضربون بها هام الكفرة وجبابرهم وأتباعهم من جبابرة الأولين والآخرين ، حتّى ينجز الله ما وعدهم في قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (٤) أي يعبدونني آمنين لا يخافون أحدا في عبادتي ، ليس عندهم تقية ، وأنّ لي الكرة والرجعة (٥) ،

(١) تفسير القمي ١ : ١٠٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٥ .

(٢) في النسخة : ظلمة .

(٣) في تفسير الصافي : داعي .

(٤) النور : ٢٤ / ٥٥ .

(٥) في تفسير الصافي : الكرة بعد الكرة والرجعة بعد الرجعة .

وأنا صاحب الرجعات والكُرَات ، وصاحب الصُّلوات والتَّقِمات والدُّولات العجيبات ، وأنا قرن من حديد
« الحديث (١) .

في توضيح الرواية الباقية

أقول : يحتمل أن يكون المراد من التَّكَلَّمَ بالكلمة : هو إشراق فيض الوجود ، ومن صيرورتها نورا :
وجود العقل الكلِّي ، ومن خلق محمّد وعليّ وذريّته ﷺ من ذلك النور : جعل قوام حقيقتهم به ، ومن
إسكان أرواحهم الطّيبة في النور : إحاطة العقل بأرواحهم واتّصالها وتكميلها به ، ومن إسكان أرواحهم في
أبدانهم : تعلّقها بقوالبهم المثاليّة في عالم الأشباح والصُّور ، ومن قوله : « فنحن روح الله وكلماته » : كون
أرواحهم أشرف الأرواح وأكمل بدائعه تعالى ، ومن احتجابه تعالى بهم عن خلقه : جعلهم وسائط فيوضاته
بينه وبين جميع الموجودات ، فكأنّهم قائمون بينه وبينهم ، وهم الأولون وسائر الخلق من ورائهم ، ومن ثباتهم
في ظلّة (٢) خضراء : بقاؤهم في عالم الأشباح حيث لا وجود لعالم الأجسام ، وكان أخذ الميثاق عن الأنبياء
في عالم الذّرّ أو عالم الأرواح ، وتكون نصرتهم له ووفائهم بالعهد في زمان الرجعة.

ثمّ **﴿قَالَ﴾** الله للأنبياء وحيا ، ولأئمّهم بلسانهم تقريرا وتأكيدا للعهد عليهم : **﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾** بذلك
الميثاق والإيمان والتّصرة لمحمّد ﷺ ولسائر الأنبياء **﴿وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ﴾** الميثاق **﴿إِصْرِي﴾** وعقدي
الذي عقدته عليكم والتزمتم بالعمل به **﴿قَالُوا﴾** إنّ الجواب : ربّنا **﴿أَقْرَرْنَا﴾** بذلك العهد والتزمنا بالوفاء
به.

ثمّ **﴿قَالَ﴾** سبحانه : **﴿فَاشْهَدُوا﴾** أيّها الأنبياء والأئمّ بعضكم على بعض. ثمّ قال تأكيدا وتحذيرا
عن الرجوع : **﴿وَأَنَا﴾** أيضا **﴿مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** على إقراركم ومصاحب لكم **﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾** منكم
عن العهد ، وأعرض عن الوفاء به **﴿يَعُدْ ذَلِك﴾** الميثاق المؤكّد بالإقرار به والإشهاد عليه **﴿فَأُولَٰئِكَ﴾**
المعرضون **﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** الخارجون عن طاعة الله وانقياده ، المتجاوزون عن حدود العقل ، المنحرفون عن
طريق الخير.

أقول : بعد ثبوت عصمة الأنبياء ، وعدم إمكان نقضهم عهد الله وإعراضهم عن الميثاق ، لا بدّ من
الالتزام بكون التّهديد راجعا إلى الأئمّ خاصّة ، وكان أجراهم عليه بنو إسرائيل ، حيث إنهم بعدما أخذ الله
عليهم الميثاق بالإيمان بمحمّد ﷺ ونصرته ، خالفوه وعارضوه ونصروا أعداءه.

﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

(١) تفسير الصافي ١ : ٣٢٥.

(٢) في النسخة : ظلّمة.

وَالَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

ثمّ أنّه تعالى لما بيّن أنّ دين محمّد ﷺ ونصرته دين الله الذي لو كان موسى بن عمران وعيسى بن مريم في زمانه كان عليهما متابعتة ، كما روي عنه ﷺ ، قال : « لقد جئتكم بما بيضاء نقيّة ، أما والله لو كان موسى بن عمران حيّا لما وسعه إلاّ اتباعي » (١) .

وظهر أنّ الله أخذ على الامم الميثاق باتباعه ، وكان ذلك الميثاق المذكور في التّوراة وسائر الكتب السّماوية ، وكانوا عارفين به ، وكانوا عالمين بصدق محمّد ﷺ في دعوى التّبوّة ، بشهادة الكتب السّماوية ، ودلالة المعجزات ، فلم يكن سبب لكفرهم وجحودهم إلاّ كونهم طالبين ديناً غير دين الله .

وهذا في غاية الشّناعة والعجب من العاقل ، ولذا وبّجهم سبحانه عليه بقوله : ﴿ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ ﴾ من الوثنيّة واليهوديّة والنّصرانيّة ﴿ يَبْغُونَ ﴾ ويطلبون ، مع أنّ حقيقة دين الإسلام هو التّوحيد الخالص ، والتّسليم والانقياد لله ، ﴿ وَ ﴾ الحال أنّ ﴿ لَهُ ﴾ وحده ﴿ أَسْلَمَ ﴾ وأخلص وانقاد ﴿ مَنْ ﴾ هو كائن ﴿ فِي ﴾ السّماوات ﴿ من الكروبيّين والملائكة المقربين ﴾ ﴿ وَ ﴾ من في ﴿ الْأَرْضِ ﴾ من الجنّ والإنس ﴿ طُوعاً ﴾ ورغبة بالمشاهدة والبراهين ﴿ وَكَرْهاً ﴾ بما فيهم من آثار الصّنع ، فإنّ اقتضاء الحدوث والإمكان والمعلوليّة نفوذ قدرته فيهم ، بتصريفهم كيف يشاء إلى صحّة ومرض ، وغنى وفقر ، وسرور وحزن ، بحيث لا يمكنهم دفع قضائه وقدره .

﴿ وَالَيْهِ ﴾ وإلى حكمه بالموت والبعث في الآخرة ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ فلا يملكون لأنفسهم في محكمة عدله وقضائه نفعاً ولا ضرّاً ، فيعذّب من أعرض عن دينه وطلب غيره بالعذاب الشّديد الدّائم .

روي أنّ فريقين من أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ في ما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ، فقالوا : ما نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك ، فنزلت هذه الآية (٢) .

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٤)

ثمّ لما كان ميثاقه تعالى على الأنبياء ، أو على أمّهم أن يؤمنوا برسول مصدّق لما معهم ، أمر سبحانه نبيّه بأن يعلن بأنّ دينه دين الله ، وبتصديقه جميع الأنبياء وما أنزل عليهم ، بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد من قبل نفسك ، وعن جميع المؤمنين بك : نحن ﴿ آمَنَّا بِاللّهِ ﴾ وحده ، واعترفنا بأنّه المستحقّ بالذّات

(١) تفسير الرازي ٨ : ١١٥ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٢٢ .

للعادة ، لا إله ولا معبود سواه - وإِثْمًا قَدَّمَهُ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الدِّيَانَاتِ ﴿وَوَ﴾ آمَنَّا بِجَمِيعِ ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ من عند الله ﴿عَلَيْنَا﴾ من القرآن والمعارف والعلوم والأحكام.

وقيل : إِنَّ المراد من الضميرين نفسه المقدسة ، وإِثْمًا امر أن يعبر عن نفسه بضمير الجمع لإظهار جلالة قدره ، ورفعته محلّه ، كما هو الدّأب في تكلم الملوك ^(١) .

وإِثْمًا قَدَّمَ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ عَلَى الْاعْتِرَافِ بِصَدَقِ مَا أَنْزَلَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ قَبْلِ ؛ لِأَنَّهُ الْمَعْرُوفُ لَهُ ، والمبتلى به فعلا.

ثمّ شهد بصدق ما انزل على غيره من الأنبياء بقوله : ﴿وَوَ﴾ آمَنَّا بِكُلِّ ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ من الله ﴿عَلَى﴾ أنبيائه ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ﴾ من الصّحف والأحكام والستن ﴿وَوَ﴾ على ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر ؛ حفدة يعقوب ، وفيهم كثير من الأنبياء.

﴿وَوَ﴾ آمَنَّا بِكُلِّ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من التّوراة والإنجيل ، والمعجزات التي ظهرت بأيديهما - وتخصيصهما بالذّكر ، مع كونهما من الأسباط ، لعلّ شأهما ، وكون الكلام مع اليهود والنّصارى - ﴿وَوَ﴾ بما أُوتِيَ ﴿التّيّونَ﴾ غير المذكورين ﴿مِنْ﴾ مواهب ﴿رَبِّهِمْ﴾ ومليكمهم اللّطيف بهم.

ولما لم يكن فرق بينهم في دلائل صدق التّبوّة ، وشواهد الرّسالة ، فنحن أيضا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتّصديق ، كما فرّق اليهود والنّصارى بينهم ، بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض ؛ وذلك لأنّا لله منقادون ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ بخلاف أهل الكتابين فإنّهم لهوى أنفسهم متّبعون ، وبالله مشركون. ثمّ لا يذهب عليك أنّه لا منافاة بين الإيمان بنبوّة الأنبياء السّابقة وصحة دينهم ، وبين الاعتقاد بانقضاء مدّة نبوّتهم ونسخ دينهم ، لوضوح أنّ المراد من الإيمان الاعتراف بصحّة نبوّتهم المؤقّته ، ووجوب الالتزام بدينهم على جميع أممهم.

وفي الاختصار على تصديق الأنبياء السّابقين إشعار بختم التّبوّة والدّين به ﷺ وبدينه.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾

ثمّ قرّر سبحانه كون الإسلام دين الله دون غيره ، بتشديد التّهديد على مخالفته والتّدبّين بغيره ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ ويختار لنفسه ﴿غَيْرَ﴾ دين ﴿الْإِسْلَامِ﴾ الذي قد سبق أنّ حقيقته التّوحيد الخالص ، والتّسليم لأحكام الله وطلب مرضاته ﴿دِينًا﴾ ينتحل إليه ، كالوثنيّة واليهوديّة والنّصرانيّة وغيرها ﴿فَلَنْ﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٥٨ .

يُقْبَلُ ذلك الدّين الباطل **﴿مِنْهُ﴾** أبداً ، ولا يؤجر عليه شيئا **﴿وَهُوَ﴾** مع ذلك **﴿فِي الْآخِرَةِ﴾** محسوب **﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** المغبونين ، حيث إنّهُ ضيّع فطرته السّليمة التي فطر النّاس عليها ، وحرّم على نفسه الثّواب الجزيل الدائم ، والنّعم العظيمة الباقية ، ثمّ اشترى العذاب الشّديد الأبدي ، فدخله من التأسّف والتّحسّر على ما فاتهُ في الدّنيا من الأعمال الصّالحة وحلاوة العبادة ، وعلى ما تحمّله من التّعبد والمشقّة في تحصيل الخطام الدّنيوي وتقرير ذلك الدّين الباطل ما لا يتصوّر ولا يعلمه إلا الله.

في أن ولاية آل الرسول داخلة في الاسلام الحقيقي المرادف للإيمان

ثمّ أعلم أنّ لفظ الإسلام كان مرادفا للإيمان ، وحقيقته حقيقته ، وهو الإقرار بالشّهادتين ، والتّصديق بجميع ما جاء به النّبي ﷺ ، عن صميم القلب ، فدخل فيه ولاية آل الرّسول صلوات الله عليهم وخلافة علي والمعصومين من ذرّيّته.

فمن أنكر ولايتهم ووجوب طاعتهم ، فقد اختار لنفسه دينار غير الإسلام ، حيث إنّ من أنكر واحدا ممّا جاء به الرّسول يكون كمن أنكر جميعه.

نعم ، يكون لمن أقرّ بالشّهادتين ، ولو كان منافقا على الأظهر ، أحكام خاصّة من طهارة الجسد ، واحترام المال ، وجواز المناكحة ، ووجوب غسل ميّته وتكفينه ودفنه ، دون غيرها من الأحكام كحرمة غيبته ، وجواز الاقتداء به ، وإعطائه الرّكاة الواجبة والكفّارات ، وقبول الرواية والشّهادة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد بيان عظمة دين الإسلام ، وأنّه دينه الذي ارتضاه ملائكته وسائر خلقه ، والمبالغة في تهديد المعرضين عنه ، وعدّهم من الخاسرين - بالغ في التّوعيد والتّهديد على من خرج عنه بعد دخوله فيه ، وجحدّه بعد ما أقرّ به ، بقوله استعجابا وإنكارا : **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾** إلى طريق الحقّ ، ويوفّق للرّشاد بالعنايات الخاصّة **﴿قَوْمًا﴾** ورهطا **﴿كَفَرُوا﴾** بالرّسول ، وارتدّوا عن دين الإسلام **﴿بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾** بهما.

قيل : هم عشرة رهط ارتدوا بعدما آمنوا ولحقوا بمكّة ^(١) ، وقيل : هم يهود قريظة والتّضير ومن دان بدينهم ، وأنّهم كفروا بالنّبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ، وكانوا يشهدون له بالنّبوة ، فلمّا بعث ﷺ وجاءهم بالبّيّنات والمعجزات كفروا به بغيا وحسدا ^(٢) . وكلاهما مروى عن ابن عبّاس.

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٢٦ .

ثمَّ يَبَيِّنُ سبحانه ما يوجب استبعاد كفرهم بقوله : ﴿وَشَهِدُوا﴾ قيل : إنّ المراد وبعد أن شهدوا وأعترفوا في مجامع النَّاس ومشاهدهم ، أو الحال أنّهم اعترفوا ﴿أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾ ودعواه صدق ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ من القرآن وسائر المعجزات وخوارق العادات ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ والشواهد الواضحات على صدقه ، بحيث لم يتوهم في حقهم الشبهة فيه ، وفي صحّة دينه ، فكان ارتدادهم من أقبح القبائح ؛ لأنّ زلّة العالم أقبح من زلّة الجاهل ، وكفرهم ورجوعهم عن الإسلام غاية الظلم على النفس ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحق ، ولا يوفق للخير ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المتمرّنين على الظلم ، المصّرّين على الفساد ، المنهمكين في الشهوات ، لغاية خبث ذاتهم ، ورذالة صفاتهم.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ

فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٧) و (٨٨)

ثمّ بالغ سبحانه في التهديد والوعيد بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المرتدّون ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المقرّر على مقتضى استحقاقهم ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ استقرّت ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ والبعد عن رحمته ، الموجب للحرمان عن النعم الأخروية ، وللعذاب بالنار ﴿وَعَلَى﴾ عليهم لعنة ﴿الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

قيل : إنّ المراد خصوص المؤمنين منهم ، وقيل : إنّ المراد هو العموم ، حيث إنّ الكفار أيضا يلعنون في الدّنيا كلّ مبطل كافر ، غير أنّهم يدعون أنّهم أنفسهم مؤمنون محقّقون.

كما أنّ ظالمي آل محمد ﷺ يلعنون ظالمهم ويدعون أنّهم غيرهم ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قيل : أي مقيمين في اللّعة ، وعن ابن عباس رضی الله عنه : خالدين في جهنّم ^(١) أبدا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ في جهنّم ﴿الْعَذَابُ﴾ الشّدید ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ويمهلون ساعة ، ولا يؤخّرون لحظة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩)

ثمّ دفع الله سبحانه توهّم أنّ اللّعة الدائمة والعذاب الخالد لكلّ من تلبّس بالكفر والارتداد ، وإن تاب وأسلم بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الإسلام الحقيقي ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر والارتداد ، وآمنوا عن صميم القلب ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ قلوبهم وأعمالهم الفاسدة ، فإنّهم تقبل توبتهم ، ويتفضّل عليهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده الصّالحين.

عن الصادق عليه السلام : « نزلت الآيات في رجل من الأنصار يقال له الحارث بن سويد بن الصّامت ،

وكان

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٢٩ .

قتل المجذّر بن زياد ^(١) البلوي غدرا ، وهرب وارتدّ عن الإسلام ولحق بمكة ، ثمّ ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت فحملها رجل من قومه إليه ، فقال : إني لأعلم أنّك لصدوق ، ورسول الله ﷺ أصدق منك ، وأن الله تعالى أصدق الثلاثة. ورجع إلى المدينة ، وتاب وحسن إسلامه» ^(٢).

والظاهر أنّ الآيات في المرتدّ الذي تاب عن ارتداده حقيقة ، ورجع إلى الإسلام واقعا وخالصا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

الضَّالُّونَ (٩٠)﴾

ثمّ أنّه سبحانه بعد بيان هذا القسم من المرتدّين ، ذكر القسم الثاني منهم ؛ وهم الذين استمروا على ارتدادهم باطنا ، ولكن تابوا نفاقا ، أو حين الاحتضار ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ به ، وارتدّوا عن دين الإسلام بعد اعترافهم به ، ودخولهم فيه ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ استمروا عليه. وقيل : إنّ المراد : الذين كفروا بعبسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتّوراة ، ثمّ ازدادوا كفرا بحدودهم نبوة محمد ﷺ وكتابه.

وقيل : الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد بعثته ، بعد إيمانهم به قبلها ، ثمّ ازدادوا كفرا بالإصرار عليه ، والطعن فيه ، والصّدّ عن الإيمان به ، ونقض الميثاق.

وروي أنّ الآية نزلت في الذين ارتدّوا وذهبوا إلى مكة ، وازديادهم الكفر أنّهم قالوا : نقيم بمكة نترّص بمحمد رب المنون ^(٣) ، أو قالوا : نرجع إليه فنناقفه.

فهؤلاء ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ عن ذنب ارتدادهم أبدا ، لعدم إخلاصهم فيها ، أو عدم صدورها عنهم إلّا عند الاحتضار ومعاناة عالم الآخرة.

وقال جمع من العامة : إنّ تعالى لما قدّم ذكر من كفر بعد الإيمان ، وأنّه تقبل توبته ، ذكر في هذا الآية أنّه لو كفر مرّة أخرى بعد [تلك] التّوبة ، فإنّ التّوبة الاولى تصير غير مقبولة ، وتصير كأنّها لم تكن ^(٤) . وفيه نظر ظاهر.

ثمّ بعد تهديد هم بعدم قبول توبتهم ، ذمهم بقوله : ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المرتدّون لتناهيهم في الضلال ،

(١) كذا في اسد الغابة ١ : ٣٣٢ ، وفي جمهرة أنساب العرب ١ - ٢ : ٣٣٧ : المجذّر بن زياد ، وفي النسخة : المجذّر بن زياد.

(٢) مجمع البيان ٢ : ٧٨٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٧.

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٣٠.

(٤) تفسير الرازي ٨ : ١٣٠.

وفُرضَ ثباتهم فيه كآته ﴿هُمُ الصَّالُّونَ﴾ عن طريق الحق والصواب ، لا ضالَّ غيرهم. وفيه غاية المبالغة في ضلالهم لكما لهم فيه ، وعدم توقُّع اعتدائهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا

وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾

ثم ذكر القسم الثالث من المرتدين ؛ وهم الذين لا يتوبون ، لا ظاهرا ولا واقعا حتَّى يموتوا ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله وارتدّوا عن دين الإسلام ﴿وَوَ﴾ بعد ارتدادهم ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ غير تائبين عن كفرهم وارتدادهم إلى الموت ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ لدفع العذاب عنهم في الآخرة ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ﴾ شرقها وغربها على الفرض الحال ﴿ذَهَبًا﴾ خالصا ، وهو كناية عن أعزّ الأموال ﴿وَلَوْ افْتَدَى﴾ الكافر ﴿بِهِ﴾ لخلاص نفسه.

قيل : إنّما أثر التعبير بالافتداء على الإهداء لأنّ الفداء أثر في العفو من الهدية ، حيث إنّ المولى قد لا يقبل الهدية من عبده ، ولكن يقبل الفداء منه.

وحاصل المراد : أنّ الكافر لو فرض قدرته يوم القيامة على أعزّ الأموال ، وكان بالغاً إلى غاية الكثرة ، فبذله - ولو بعنوان الفدية ، ليتوسّل بذلك إلى تخلص نفسه من عذاب الله - لا يفيد في نيل مقصوده. ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بأشنع الصفات ؛ وهو الكفر ، البعيدون عن رحمة الله ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقوبة موجعة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب ، فهم آيسون من تخلص أنفسهم ؛ لانقطاع جميع الوسائل العادية للخلاص من الشدائد عنهم.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾

ثم لما ظهر من الآية أنّ بذل المال في الآخرة غير نافع في الخلاص من العذاب ، بيّن سبحانه أنّ وسيلة الخلاص منه ، وموجب نيل كلّ خير ، هو الإنفاق من أحبّ الأموال في الدنيا ، بقوله : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ ولا تصلون إلى الخير والثواب في الدنيا والآخرة أبداً ، بوجه من الوجوه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ وتبذلوا في سبيل الله وطلب مرضاته شيئا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وبعضاً ممّا يعجبكم من كرائم الأموال ، أو منها ومن غيرها مهجة كان ، أو عملاً ، أو علماً ، أو جاهاً ، أو غيرها.

ومن الواضح أنّ الإنفاق بالحبوب لا يكون إلّا إذا أيقن المنفق بأنّ إنفاقه وسيلة النيل بالأحبّ والأشرف من المبذول ، فالإنسان لا ينفق محبوبه في الدنيا لوجه الله إلّا إذا أيقن بالمبدأ والمعاد

وبالجزء الجزيل على إنفاقه ، وعلى هذا يلزمه القيام بطاعة الله والتجَنُّب عن معاصيه ، أو التَّخَلُّق بالأخلاق الجميلة.

في بيان فضيلة الإنفاق

ثم رَغِبَ سبحانه في الإنفاق ، وبالع في قوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ تحبونه ، أو حيث تكرهونه ، أو كثير في العلانية ، أو قليل في الخفية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ حيث إنَّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فيجازيكم بحسبه جيِّداً كان المال أو رديئاً ، قليلاً كان أو كثيراً ، خفية كان الإنفاق أو علانية.

قيل : فيه غاية التحذير من بذل الرديء ، والترغيب في بذل الطَّيِّب ، فإنَّ الآخرة هي عالم النَّور والبقاء ، فلا وقع فيه للأمور الظلمانية. فالوصول إلى المحبوب لا يكون إلَّا ببذل المحبوب بنحو محبوب ، من خلوص النية ، واستجماع الخصال المرضية.

روي أنه لما نزلت جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله ، إنَّ أحبَّ أموالِي إليَّ بئر حاء ؛ وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد النبي ﷺ (١) .

وفي رواية : قال : لي حائط بالمدينة ، هو أحبُّ أموالِي ، أنا أتصدَّق به.

وفي رواية : قال : فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح » (٢) أو رائج ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين « فقسمها في أقاربه » (٣) .

وفي رواية : أنه جعلها بين حسن بن ثابت وأبي بن كعب (٤) .

وروي أنَّ زيد بن ثابت جاء عند نزول الآية بفرس له كان تحته ، فجعلها (٥) في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة ، فوجد [زيد] في نفسه ، فقال ﷺ : « إنَّ الله قد قبلها » (٦) .

وعن (المجمع) : اشترى عليّ بن أبي طالب ثوباً فأعجبه ، فتصدَّق به وقال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من آثر على نفسه آثره الله يوم القيامة بالجنة ، ومن أحبَّ شيئاً فجعله الله ، قال الله يوم القيامة : قد كان العباد يكافئون فيما بينهم بالمعروف ، وأنا أكافيك اليوم بالجنة » (٧) .

وعن الحسين بن عليّ ، وعن الصادق عليه السلام : « إنَّه أحبُّ الأشياء إلينا ، وقد قال الله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ » (٨) .

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٣٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٦٣ .

(٢) في النسخة : رائج .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٧٩٢ ، تفسير الرازي ٨ : ١٣٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٦٣ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ١٣٤ .

(٥) في تفسير الرازي : كان يحبه وجعله .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ١٣٤ .

(٧) مجمع البيان ٣ : ٧٩٢ .

(٨) تفسير الصافي ١ : ٣٢٨ .

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾

ثم عطف الله سبحانه كلامه المجيد إلى ما كان من محاجة اليهود والتصارى. وكان من شبهاتهم واعتراضاتهم على دين الإسلام [أولا] : وقوع النسخ فيه ، مع كونه محالا على الله في أحكامه ؛ لرجوعه إلى البداء المستلزم لجهله تعالى بمصالح الأشياء ومفاسدها.

وثانيا : أن محمدا يدعي أن دينه دين إبراهيم ، والحال أنه مغاير له ، حيث إن النبي ﷺ أحل في دين الإسلام لحوم الإبل وألبانها ، مع حرمتها في دين إبراهيم ، فمن تحليلها يلزم النسخ والمغايرة.

فرد الله عليهم بقوله : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ وكافة المطعومات من المأكولات والمشروبات ﴿كَانَ﴾ في دين إبراهيم ﴿حَلَالًا﴾ ومباحا لجميع الناس ، و﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى مدة بعد بعثة موسى بن عمران عليه السلام .

نقل أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾^(١) الآية ، وقوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ﴾^(٢) أنكر اليهود ، وغاضبهم ذلك وبرأوا ساحتهم من الظلم ، وجحدوا بما نطق به القرآن ، وقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه تلك المطعومات ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده ، وهلم جرا حتى انتهى التحريم إلينا.

وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم ، والصّد عن سبيل الله ، وأكل الربا ، وما عدّد من مساوئهم التي كلّما ارتكبوا منها كبيرة ، حرّم عليهم نوعا من الطيّبات عقوبة لهم^(٣) .

فكذّبهم الله وردّهم بأن جميع ما يطعمه الإنسان كان حلالا في الأديان السابقة على دين موسى ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ يعقوب ، ولقبه ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ من لحم الإبل ولبنها ، بسبب النذر ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ .

روي من طريق العامة أن يعقوب عليه السلام نذر إن وهب الله له اثني عشر ولدا ، وأتى بيت المقدس صحيحا ، أن يذبح آخرهم ، فتلقاه ملك من الملائكة ، فقال له : يا يعقوب ، إنك رجل قويّ ، فهل لك في الصّراع ؟ فعالجه فلم يصرع واحدا منهما صاحبه ، فغمزه الملك ، فعرض له عرق النساء من ذلك ، ثم قال الملك : أما إنّي لو شئت أن أصرّعك لفعلت ، ولكن غمزتك هذه الغمزة ؛ لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولدك ، فجعل الله لك بهذه الغمزة مخرجا من ذلك الذّبح.

ثم أن يعقوب عليه السلام لما قدم بيت المقدس ، أراد ذبح ولده ونسي قول الملك ، فأناه الملك فقال : إنما

(١) النساء : ٤ / ١٦٠ .

(٢) الأنعام : ٦ / ١٤٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٦٤ .

غمزتك للمخرج ، وقد وفي نذكرك ، فلا سبيل لك إلى ذبح ولدك.

ثم أنه حين ابتلي بذلك المرض لقي من ذلك بلاء شديدا ، وكان لا ينام الليل من الوجع ، فحلف
لئن شفاه الله ، لا يأكل أحب الطعام إليه ، فحرّم لحوم الإبل وألبانها ، إمّا حمية للدين ، أو حمية للتقوى
(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه : أنّ النبي ﷺ قال : « إنّ يعقوب مرض مرضا شديدا ، فنذر
لئن عافاه الله ليحرّم من أحب الطعام والشراب عليه ، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحب الشراب
إليه ألبانها » (٢) .

ونقل أنّ في التّوراة : أنّ يعقوب لما خرج من حرّان إلى كنعان ، بعث بريدا إلى عيص أخيه ، إلى
أرض ساعير ، فانصرف الرّسول إليه وقال : إنّ عيص هو ذا يتلقّاك ومعه أربعمئة رجل ، فذعر يعقوب
وحزن جدّا ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، [وذكر القصّة] إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة
رجل ، فدنا ذلك الرجل ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فחדرت تلك العصبية وجفت . فمن أجل
هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق (٣) .

وقيل : إنّ في بعض الروايات : أنّ الذي حرّم يعقوب على نفسه زوائد الكبد والشحم إلّا ما على
الظهر (٤) .

وعن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « أنّ إسرائيل كان إذا أكل لحم الإبل هيّج عليه وجع
الخاصرة ، فحرّم على نفسه لحم الإبل . وهذا قبل أن تنزل التّوراة » (٥) .

وعن القمي عليه السلام : أن يعقوب كان يصيبه عرق النسا ، فحرّم على نفسه لحم الجمل (٦) الخبز .
ومن الواضح أنّ هذا التحريم كان ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ ﴾ على بني إسرائيل ﴿ التّوراة ﴾ وقبل بعثة
موسى وتشريع دينه .

وكانت تلك الأشياء حلالا على غير يعقوب ما دام بقاء دين إبراهيم وفي برهة بعد بعث موسى ، ثم
حرّم الله عليهم طيبات أحلت لهم ، منها : لحم الإبل ، وشحم البقر والغنم إلّا ما حملت ظهورهما .
فإن ادّعت اليهود حرمة هذه الأشياء في دين نوح وإبراهيم وموسى ، فقد ادّعوا خلاف ما في التّوراة
، التي هم معترفون بصحتها وصدق ما فيها ، وإن استندوا [في] دعواهم إلى التّوراة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ فَأَتُوا
بِالتّوراة ﴾ وأحضروها على رؤوس الأشهاد ﴿ فَاتْلُوهَا ﴾ وقرأوها بمحضر منّا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في
دعواكم قدمة هذه الأشياء ، فإنّها ناطقة بأنّ حرمتها حدثت في دين موسى عقوبة على

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٦٤ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٣٨ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٣٩ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ١٣٩ .

(٥) الكافي ٥ : ٣٠٦ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٩ .

(٦) تفسير القمي ١ : ١٠٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٢٩ .

ظلم بني إسرائيل.

روي أنهم لم يجسروا على إحضار التّوراة ، فبهتوا وانقلبوا صاغرين ^(١) .

فثبت جواز النّسخ ، وموافقة دين الإسلام لدين إبراهيم ، وأنّضح كذب اليهود ، وأنّهم نسبوا إلى التّوراة ما ليس فيها ، وظهر صدق النّبي ﷺ في دعوى النّبوة ؛ لأنّ هذا الإخبار منه ﷺ ، مع كونه أمّياً ، كان إخباراً بالغيب .

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إلزامهم وتبكيّتهم ، هدّدهم بقوله : ﴿فَمَنْ افْتَرَى﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بقوله حرمة هذه الأشياء في دين إبراهيم ، ومن قبله ، ومن بعده ، ونسبته إلى إخبار الله به في التّوراة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التّبكيّ والإلزام ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المجترئون على الله ، المفترون عليه ، ﴿هُمُ﴾ بالخصوص ﴿الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالضلال ، وتعريضها للهلاك والعذاب ، وتفضيحها للدّنيا والآخرة ، وعلى غيرهم بالإضلال ، وتقريبهم إلى النّار ، وتبعيدهم عن رحمة الله .

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات موافقة دين الإسلام لدين إبراهيم ، أمر نبيّه ﷺ بتصديق الله في إخباره ، بموافقة دين الإسلام لدين إبراهيم ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ في إخباره بحليّة لحوم الإبل وألبانها ، في دين إبراهيم ، وموافقة دين الإسلام ، وكذبتم أيّها اليهود في دعوى حرمتها فيه ، ومخالفة دين الإسلام له ، إذن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ باتّباع دين الإسلام ، الموافق لها اصولاً مطلقاً ، وفروعاً كذلك أو بحسب الغالب ، وانصرفوا عن اليهودية المخالفة لملة إبراهيم ؛ لأنّ في دين اليهوديّة كثيراً من الأباطيل ، وكان إبراهيم ﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن كلّ باطل ، ومعرضاً عن كلّ زائغ ؛ ولأنّ في دين اليهوديّة والنّصرانيّة الإشراك بالله ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم محسوباً ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان من أفضل الموحّدين . فثبت أنّه ﷺ ما كان يهودياً ولا نصرانياً .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ

بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٥٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ٦٥ .

اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٦) و (٩٧) ﴿﴾

ثم استشهد سبحانه على مغايرة دين اليهود لملة إبراهيم بإعراض اليهود عن تعظيم الكعبة ، الذي هو من أعظم شعائر ملته ﷺ ، بقوله : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ من جانب الله ، وجعل معبدا ﴿لِلنَّاسِ﴾ وقبله لكافة الخلق ، والله ^(١) ﴿لِلَّذِي﴾ هو كائن ﴿بِبَكَّةَ﴾ والبلد الحرام ، واسمه المعروف مكة .

عن الباقر ﷺ : « إِنَّمَا سَمِيَتْ مَكَّةَ بِكَّةَ ، لِأَنَّهُ يَبْكُ ^(٢) بِهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، وَالْمَرْأَةُ تَصَلِّي بَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَ[عَنْ] شِمَالِكَ ^(٣) وَمَعَكَ ، وَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ ، إِنَّمَا يَكْرَهُ فِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ » ^(٤) .

وقيل : لِأَنَّهَا تَبْكُ أَعْنَاقَ الْجَابِرَةِ ، يَعْنِي تَدْقُهَا ^(٥) .

وقيل : إِنَّ بَكَّةَ هِيَ عَيْنُ الْكَعْبَةِ ^(٦) .

وعن الصادق ﷺ ، في رواية ، « الْبَيْتُ بِكَّةَ ، وَالْقَرْيَةُ مَكَّةَ » ^(٧) .

وفي (العلل) : عنه ﷺ : « إِنَّمَا سَمِيَتْ مَكَّةَ بِكَّةَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُونَ ^(٨) فِيهَا » ^(٩) يعني يزدهمون .

وفي رواية أخرى : « لِبُكَاءِ النَّاسِ حَوْلَهَا » ^(١٠) .

وعن الباقر ﷺ قال : « لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضْرِبَتْ مَتْنِ ^(١١) الْمَاءِ حَتَّى صَارَ مَوْجًا ، ثُمَّ أَزِيدَ فَصَارَ زَيْدًا وَاحِدًا ، فَجَمَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ جَعَلَهُ جَبَلًا مِنْ زَيْدٍ ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ ^(١٢) .

وزاد في (الفقيه) : « فَأَوَّلُ بَقْعَةٍ خَلَقَتْ مِنَ الْأَرْضِ الْكَعْبَةُ ، ثُمَّ مَدَّتْ الْأَرْضُ مِنْهَا » ^(١٣) .

وفي (الكافي) : عن الصادق ﷺ قال : « كَانَ مَوْضِعُ الْكَعْبَةِ رِبْوَةً مِنَ الْأَرْضِ بَيْضَاءَ ، تَضِيءُ كَضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، حَتَّى قَتَلَ ابْنَا آدَمَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَاسْوَدَّتْ ، فَلَمَّا نَزَلَ آدَمُ ﷺ رَفَعَ اللَّهُ لَهُ الْأَرْضَ كُلَّهَا حَتَّى رَأَاهَا ، ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ كُلُّهَا لَكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ ، مَا هَذِهِ الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ الْمُنِيرَةُ قَالَ : هِيَ حَرَمِي ^(١٤) فِي أَرْضِي ، وَقَدْ جَعَلْتُ عَلَيْكَ أَنْ تَطُوفَ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِمِائَةَ طَوَافٍ » ^(١٥) .

(١) لقسم على أن البيت كائن في مكة ، لكن في روح البيان ٢ : ٦٦ (لذي بككة) خبر لأن.

(٢) أي يزدهم الرجال والنساء فيها لكثرةهم.

(٣) زاد في النسخة : وعن يسارك.

(٤) علل الشرائع : ٣٩٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٠ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٠ .

(٦) جوامع الجامع : ٦٤ .

(٧) علل الشرائع : ٣٩٧ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٠ .

(٨) في المصدر : يتباكون .

(٩) علل الشرائع : ٣٩٧ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٠ .

(١٠) علل الشرائع : ٣٩٧ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٠ .

(١١) في الكافي : فضرين وجه .

(١٢) الكافي ٤ : ١٨٩ / ٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٠ .

(١٣) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٥٦ / ٦٧٠ .

(١٤) (حرمي) ليس في المصدر .

(١٥) الكافي ٤ : ١٨٩ / ٤ .

وعن الصادق عليه السلام ، قال : « إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ ^(١) لِآدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَكَانَتْ ^(٢) دَرَّةً بَيضاءَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ وَبَقِيَ اسْمُهُ ، وَهُوَ بِحَيَالِ هَذَا الْبَيْتِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِنِيانَ الْبَيْتِ عَلَى الْقَوَاعِدِ » ^(٣) .

في بدو بناء الكعبة في أن ولاية آل الرسول داخلة في الاسلام الحقيقي المرادف للإيمان

وروي أنّ الله وضع تحت العرش بيتا ؛ وهو البيت المعمور ، وأمر الملائكة أن يطوفوا به ، ثمّ أمر الملائكة الذين هم سكّان الأرض أن يبنوا على الأرض بيتا على مثاله فبنوا ، وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماوات بالبيت المعمور ^(٤) .

وروي أنّ الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام ، فلمّا اهبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت ، فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام ، فطاف به آدم ومن بعده إلى زمن نوح عليه السلام ، فلمّا أراد الله الطوفان حمل إلى السماء الرابعة ، وهو البيت المعمور بحيال الكعبة يطوف به ملائكة السماوات ^(٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنّه أوّل بيت بناه آدم في الأرض . وعلى هذا فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم ؛ لرفعه قواعدها ، وإحياء ما درس منها ، حيث إنّ موضع الكعبة اندرس بعد الطوفان ، وبقي مختفيا إلى أن بعث الله جبرئيل إلى إبراهيم ، ودلّه على مكان البيت ، وأمره بعمارته ^(٦) .

قيل : لما كان الأمر بالبناء هو الله ، والمبلّغ والمهندس هو جبرئيل ، والباني هو الخليل ، والتّلميذ المعين له إسماعيل عليه السلام ، فليس في العالم بناء أشرف منه ^(٧) .

وروي عن النبي ﷺ أنّه سئل عن أوّل بيت وضع للناس ، فقال : « المسجد الحرام ، ثمّ بيت المقدس » وسئل كم بينهما ؟ فقال : « أربعون سنة » ^(٨) .

وروي أنّه لما تحوّلت القبلة إلى الكعبة ، طعن اليهود في نبوة النبي ﷺ وقالوا : إنّ بيت المقدس أفضل من الكعبة ، وأحقّ بالاستقبال ؛ لأنّه وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحشر ، ومهاجر الأنبياء وقبلتهم ، والأرض المقدّسة التي بارك الله فيها للعالمين ، وفيها الجبل الذي كلّّم الله موسى عليه ، فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل . فتزلت ردّا عليهم ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ الآية ^(٩) .

ثمّ وصف الله البيت بكونه ﴿ مُبَارَكًا ﴾ كثير الخير والتّفع لمن حجّه واعتمره واعتكف فيه وطاف

(١) في المصدر : أنزل الحجر .

(٢) في المصدر : وكان البيت .

(٣) الكافي ٤ : ١٨٨ / ٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٦٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٦٧ .

(٦) نفس المصدر .

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ٦٧ .

(٨) وأيضا .

(٩) تفسير روح البيان ٢ : ٦٦ .

حواله ، لتحصيلهم بهذه الأعمال تكفير الذنوب ، والثواب العظيم ، ونفي الفقر ، وسعة الرزق ﴿و﴾ كونه ﴿هُدًى﴾ ورشادا إلى رضوان الله ومعرفته ؛ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومعبدهم .

وفيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته ، وسعة حكمته ، كما نبّه عليه بقوله : ﴿فِيهِ آيَاتٌ﴾ كثيرة ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ وشواهد واضحات على عظمة قدرته ، كانحراف الطيور عن موازاته مدى الأعصار ، ومخالطة ضواري السباع الطيور ^(١) في الحرم من غير تعرّض لها لحرمته ، وقهر الله لكلّ جبار قصده بسوء ، كاصحاب الفيل .

وقيل : إنّ المراد من الآيات العديدة هو ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكونه بمنزلة الآيات الكثيرة ، لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله ونبوة إبراهيم ، وعظمة شأنه وشأن البيت .

ثمّ ذكر سبحانه من فضائله وفضائل البيت كونه آمنا ، بقوله : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ من التعرّض له بحرمته في نفسه ، ولدعاء إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ^(٢) قيل : إنّ من سكن مكة أمن من التّهب والغارة .

وقد مرّ في سورة البقرة ذكر روايات دالة على أنّ المراد كونه آمنا من عذاب الآخرة ^(٣) .

وفي الحديث : « من مات في أحد الحرمين ، بعث يوم القيامة آمنا » ^(٤) .

وعنه ﷺ : « الحجون ^(٥) والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينشران في الجنة » ^(٦) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : وقف رسول الله ﷺ على ثنية ^(٧) الحجون ، وليس بها يومئذ مقبرة فقال : « يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا » ^(٨) الخبر .

وعنه ﷺ : « من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار ، تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام » ^(٩) .

ولا يذهب عليك أنّ الأمان من العذاب مختصّ بالعصاة من أهل الإيمان ، لدلالة الأدلة القطعية ، وقيام الضرورة على أنّ الكفار ، ومن في حكمهم من منكري الولاية وظالمي آل محمد ﷺ ، خالدين فيه ، ولو كانوا مدفونين في مكة أو مسجد النبي ﷺ .

وفي (العلل) : عن الصادق عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة : « أخبرني عن قول الله : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أين ذلك من الأرض ؟ » قال : الكعبة قال : « أفتعلم أنّ الحجاج بن يوسف حين وضع المنحنيق على

(١) في النسخة : الصيود ، وما أثبتناه من روح البيان ٢ : ٦٧ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٢٦ .

(٣) راجع تفسير الآية .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٦٨ .

(٥) الحجون : جبل بمكة .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٦٨ .

(٧) الثنية : الطريق في الجبل .

(٨) تفسير روح البيان ٢ : ٦٨ .

(٩) تفسير الرازي ٨ : ١٥١ .

ابن الزبير في الكعبة فقتله ، كان آمنا فيها ؟ » فسكت .

فسئل عائشة عن الجواب ، فقال : « من بايع قائمنا ، ودخل معه فيه ، ومسح على يده ، ودخل في عقدة ^(١) أصحابه كان آمنا » ^(٢) .

أقول : الظاهر أنّ المراد من الرواية بيان البطن والتأويل .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان فضائل البيت ، أمر الناس بحجّه ، بقوله : ﴿وَلِلّٰهِ﴾ ثابت ﴿عَلَى﴾ عهده كافة المكلفين من ﴿النَّاسِ﴾ رجالهم ونسائهم ومؤمنهم وكفارهم ﴿حِجُّ﴾ ذلك ﴿الْبَيْتِ﴾ وقصد زيارته ، للنسك المخصوصة .

قيل : حج ، بالكسر : لغة أهل نجد ^(٣) .

روي عن الصادق عائشة : « يعني به الحج والعمرة ؛ لأتهما مفروضان » ^(٤) .

ثمّ خصّ سبحانه تكليف عموم العباد بالحج بخصوص ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ﴾ منهم استطاعة عرفيّة ﴿إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وأطاق إلى البيت ذهابا . ولا شبهة أنّها بوجدان الزاد ، والراحلة ، وصحة البدن ، وتحلية السرب ^(٥) . وأما الاختصار في رواية أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ - على ذكر الزاد والراحلة ^(٦) ؛ فلوضوح اعتبار القوة البدنية ، وعدم الخوف على النفس والمال ، من حكم العقل ، وأدلة نفي الحرج .
عن العياشي : عن الصادق عائشة أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « الصّحة في بدنه ، والقدرة في ماله » ^(٧) .

وعنه عائشة ، في رواية أخرى : « من كان صحيحا في بدنه ، مخلى سربه ، له زاد وراحلة ، فهو ممّن يستطيع الحج » ^(٨) .

وفي رواية ثالثة ، بعد السؤال عن الآية ، فقال : « ما يقول الناس ؟ » فقيل : الزاد والراحلة . فقال : « قد سئل أبو جعفر عائشة عن هذا فقال : هلك الناس إذا ، لمن كان من كان له زاد وراحلة قدر ما يقوت عياله ، ويستغني به عن الناس ، ينطلق إليهم فيسألهم إياه [ويحج] لقد هلكوا [إذا] » .

فقيل له : فما السبيل ؟ قال : فقال : « السّعة في المال ، إذا كان يحجّ ببعض ، ويبقى بعضا يقوت به عياله ، أليس قد فرض الله الزّكاة فلم يجعلها إلّا على من يملك مائتي درهم » ^(٩) .

(١) في المصدر : عقد .

(٢) علل الشرائع : ٩٠ و ٩١ / ٥ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٥٢ .

(٤) الكافي ٤ : ٢٦٤ / ١ .

(٥) السرب : الطريق ، يقال : خلّ له سربه ، أي طريقه ، وفلان مخلى السرب : أي موسّع عليه غير مضيق عليه .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٣٣٢ / ٧٥٦ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ٣٣١ / ١١١ .

(٩) تفسير العياشي ١ : ٣٣١ / ٧٥٢ .

أقول : بل الأظهر اعتبار عوده إلى الكفاية ، فمن كان له ما يكفيه للذهاب والإياب ، ولمونة عياله في سفره ، ولكن إذا رجع لا يمكنه الإعاشة إلا بالعسر والدّلة ، لا يجب عليه الحجّ ، لعدم صدق (المستطيع) عليه عرفا ، ولنفي العسر والخرج شرعا ، ولمنافاته لسماحة الدين وسهولته .

وما عن العياشي : عن الصادق عليه السلام أنّه سئل ما السبيل ؟ قال : « أن يكون له ما يحجّ » قال : قلت : من عرض عليه ما يحجّ به فاستحي من ذلك ، أهو ممن يستطيع إليه سبيلا ؟ قال : « نعم ، ما شأنه يستحي ! ولو يحجّ على حمار أجدع أبتّر ، فإن كان يطيق أن يمشي بعضا ويركب بعضا فليحجّ » ^(١) . وفي رواية : « يخرج ويمشي إن لم يكن عنده » . قيل : لا يقدر على المشي ؟ قال : « يمشي ويركب » .

قيل : لا يقدر على ذلك ؟ قال : « يخدم القوم ، ويخرج معهم » ^(٢) فمحمول على الاستحباب على الأظهر .

في ذكر وجوه دلالة الآية على تأكّد وجوب الحجّ

ثمّ بالغ سبحانه في تأكيد الوجوب بالتهديد الشديد على تركه ، بقوله : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وترك ذلك الواجب المهمّ ، مع القدرة عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه و﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وعن جميع ما في السمّوات والأرضين ، فلا يحتاج إلى حجّكم وعباداتكم .

وفي التعبير عن ترك الحجّ ب (من كفر) تنبيه على أهمّهما - في خبث الدّات ، وشناعة العمل ، وشدة العقوبة - واحد . وفي ذكر الغناء عنه إشعار بغاية الإعراض عنه ، ونهاية السخط عليه .

وعن الصادق عليه السلام ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال : « يعني : من ترك » ^(٣) ، وفي رواية ، قال : « هو كفر النعم » ^(٤) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : قال : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي جحد فرض الحجّ ، أنّه ليس بواجب .

وعن سعيد بن المسيّب : نزلت في اليهود ، قالوا : الحجّ ليس بواجب ^(٥) .

وفي (الفقيه) : في وصيّة النبي ﷺ لعليّ عليه السلام : « يا عليّ ، تارك الحجّ وهو مستطيع كافر ، قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يا عليّ ، من سوف الحجّ حتّى يموت بعثه الله ^(٦) يهوديًا أو نصرانيًا » ^(٧) .

وعنه عليه السلام قال : « من لم تجسه حاجة ظاهرة ، أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحجّ ، فليمت ^(٨) يهوديًا أو نصرانيًا » ^(٩) .

وعن (الكافي) و (التهذيب) : عن الصادق عليه السلام : « من مات ولم يحجّ حجة الإسلام ، ولم

يمنعه من

(١) الكافي ٤ : ٢٦٦ / ١ عن الباقر ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٤ .

(٢) تفسير الصافي ١ : ٣٣٤ . (٣) التهذيب ٥ : ١٨ / ٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٥ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٣٢ / ٧٥٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ . (٦) زاد في المصادر : يوم القيامة .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٦٦ / ٨٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٤ .

(٨) زاد في تفسير روح البيان : إن شاء . (٩) تفسير روح البيان ٢ : ٦٨ .

ذلك حاجة تححف ، أو مرض لا يطيق فيه الحج ، أو سلطان يمنعه ، فليمت يهوديًا أو نصرانيًا » ^(١) .
 روي أنه لما نزل صدر الآية ، جمع رسول الله ﷺ أرباب الملل ^(٢) ، فخطبهم فقال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحَجُّوا » فأمنت به ملة واحدة ، وهم المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، فنزلت [الآية] ^(٣) .

قيل : لقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج ، والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه ، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق ، وبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في ذم الناس ، لا انفكك لهم عن أدائه والخروج عن عهده .

وسلك بهم أولاً مسلك التعميم ، ثم التخصيص والإلزام ثانياً ، ثم التبيين والإجمال ثالثاً ، ثم التفصيل ، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير ، وعبر عن تركه بالكفر ، وجعل جزاءه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظيم السخط ، لا من تاركه فقط - فإنه قد ضرب عنه صفحا ، إسقاطا له عن درجة الاعتبار ، واستهجانا بذكره - بل من جميع العالمين ممن فعل وترك ، ليدل على نهاية شدة الغضب ^(٤) .

روي عن النبي ﷺ ، قال : « حَجُّوا قَبْلَ أَنْ لَا تَحْجُّوا ، فَإِنَّهُ قَدْ هَدَمَ الْبَيْتَ مَرَّتَيْنِ ، وَيَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ فِي الثَّلَاثَةِ » . وروي عنه ﷺ ، قال : « حَجُّوا قَبْلَ أَنْ يَمْنَعَ الْبَرَّ جَانِبَهُ » ^(٥) .
 وعن ابن مسعود رضي الله عنه : حَجُّوا هَذَا الْبَيْتَ قَبْلَ أَنْ يَنْبِتَ فِي الْبَادِيَةِ شَجَرَةٌ لَا تَأْكُلُ مِنْهَا دَابَّةٌ إِلَّا نَفَقَتْ ^(٦) .

وروي عن النبي ﷺ ، قال : « لَوْ تَرَكَ النَّاسُ الْحَجَّ عَامًا وَاحِدًا مَا نَظَرُوا » ^(٧) .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾

ثم أنه تعالى بعد ما أزال الشبهات ، ونبه على ما في البيت من الآيات البيِّنات ، وجحد أهل الكتاب جميعها ، أمر نبيه ﷺ بأن يلومهم على ذلك بلسان لين ، بقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وحفاظ التوراة والإنجيل ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وحججه التي أقامها على صدق نبيه ﷺ ، وشرافة بيته ؟ ولأي سبب وداع تحذونها بعد عرفانكم بها ، وعلمكم بصحتها ، ووضوح صدق محمد ، وشرف الكعبة

(١) الكافي ٤ : ٢٦٨ / ١ ، التهذيب ٥ : ١٧ / ٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٤ .

(٢) في تفسير أبي السعود : أهل الأديان كلهم .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٢ .

(٧) جوامع الجامع : ٦٤ .

بدلالاتها ؟ ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم الغالب الشديد العقاب ﴿شَهِيدٌ﴾ ومطلع ﴿عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح ، وما يصدر منكم من جحود آياته ، ومعارضة رسوله ، فيجازيكم أسوأ الجزاء ، ويعذبكم في الآخرة أشدّ العذاب . فاطّلاعه على أعمالكم ، والخوف من عقوبته على عصيانكم من أقوى الزّواجر وأتمّ الرّوادع عمّا تأتونه وترتكبونه .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ

شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر نبيّه بتوبيخهم على كفرهم وضلالهم ، أمره بتوبيخهم على إضلالهم عباده المؤمنين ، وصدّهم عن سبيله ، بقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وبأ تالة الصّحف والزّير المنزلة وغيرها ، جزنا عن اللّوم على ضلالتكم ﴿لَمْ تَصُدُّونَ﴾ وتصرفون ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ودينه الحقّ الموصّل إلى السّعادة الأبدية ؟ وتضلّون عنه بإلقاء الشّبهات والحيل والتسويّلات ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بالرّسول ودين الإسلام ، ولم تطلبون لتلك السّبيل و﴿تَبْغُونَهَا﴾ مع كمال استقامتها ، وكونها أقوم السّبيل ﴿عِوَجًا﴾ وانحرافا عن القصد والاستقامة ، وتوهمون أنّ في تلك السّبيل ميلا عن الحقّ ، وتسعون في صرف النّاس عنها ؟ بسبب تغيير صفات النبيّ وعلائمه المذكورة في الكتب السّماوية ، وإلقاء شبهة امتناع نسخ دين موسى أو عيسى في قلوب العوامّ ، وتقريب أفضليّة بيت المقدس من الكعبة في الأذهان .

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ قيل : إنّ المراد : والحال أنّ النّاس يستشهدونكم في القضايا والأمور العظام ، فشأنكم الصّدق وتأدية الحقّ ، لا تضييعه .

وقيل : إنّ المعنى : أنّكم شاهدون بأنّ دين الإسلام سبيل الحقّ لا تحوم حولها شائنة الإعوجاج ، وأنّ الصّدّ عنها إضلال عن نهج الحقّ والطريق المستقيم .

عن ابن عبّاس رضى الله عنه : أي أنّتم شهداء على أنّ في التّوراة : أنّ دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام ^(١) .

فمن كان كذلك ، لا يليق به الإصرار على الكفر ، والسّعي في إضلال النّاس .

ثمّ أخذ سبحانه في تهديدهم بقوله : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من إضلال النّاس ، وإلقاء الشّبهات في قلوب المؤمنين ، وصدّهم عن سبيل الحقّ ، وكتمان الشّهادة بصفات النبيّ ﷺ .

قيل : لما كان كفرهم بآيات الله بطريق العلانية ، ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون ، ولما كان صدّهم عن سبيل الله بطريق الخفية ، ختمت هذه الآية بما يقطع وسائل حيلهم ، عن علمه

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٥٨ .

وإطلاعهم بجميع أعمالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ
وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠٠) و (١٠١) ﴿

ثم لما بين سبحانه أنَّ أهل الكتاب يصدّون المؤمنين عن سبيل الله ، ويحتالون في صرفهم عن الحق ،
وردهم إلى الأعقاب صرف الخطاب إلى المؤمنين تكرّما لهم ، ونهاهم عن اتّباعهم لطفا بهم ، بقوله : ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسول وبدين الإسلام ﴿إِنْ تَطِيعُوا﴾ وتتبعوا ﴿فَرِيقًا﴾ وطائفة كافرة ﴿مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ دون فريق المؤمنين بمحمّد ﷺ كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ يحيلهم وتليّساتهم
﴿بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ بمحمّد ودينه ومع ثباتكم عليه ، إلى أعقابكم ، وأخلاق جاهليّتكم ، حال كونهم
﴿كَافِرِينَ﴾ بمحمّد ﷺ مرتدين عن دين الإسلام.

ثم أنكر سبحانه عليهم الكفر ، واستبعد منهم الارتداد تثبيتا لهم على الدّين ، بقوله : ﴿وَكَيفَ
تَكْفُرُونَ﴾ وأي سبب يبعثكم في الارتداد ، وأي داع يدعوكم إليه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ في حال وشأن مقتض للثّبات
على الإيمان ، وهو أنّه ﴿تُتْلَى﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حيناً بعد حين ، وساعة بعد ساعة ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾
القرآنيّة المشتملة على إعجاز البيان والحكم والعلوم ، والمواعظ البالغة من ربّكم ، وهي نور لقلوبكم ، وشفاء
لما في صدوركم ، وضياء لأبصاركم ، وهدى ورحمة لكم ، ﴿وَرَوْ﴾ مع ذلك يكون ﴿فِيكُمْ﴾ ومعكم
﴿رَسُولُهُ﴾ الذي يقرّر لكم كلّ حجة ، ويزيل عنكم كلّ شبهة بعبارة وافية ، ويزجركم عن كلّ سوء بمواعظ
شافية.

ومن الواضح أنَّ هاتين التّعمتين من أعظم موجبات الثّبات ، وأقوى على الإيمان ، وأقوى الزّواجر
عن الكفر والارتداد.

ثمّ حثّهم إلى الإلتجاء إلى رسوله عند توارّد الشّبهات ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ بالالتجاء إلى
رسوله في موارد الفتن ، والاستمسك بذيله عند تلاطم أمواج البلايا والشّبهات ، وفي مزال الأقدام عند
منازلة أعداء الدّين وجهاد النّفس والشّياطين ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ بتوفيق الله ، وارشد بدلالته ﴿إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم موصل إلى كلّ خير مؤدّ إلى رضوان الله والنّعم الدّائمة.

في وقوع التنازع بين الأوس والخزرج في زمان النبي ﷺ وبيان قوة تأثير القرآن في

النفوس

روي أنّ نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدّثون ، فمرّ بهم شاس بن قيس

اليهودي وكان شديد الحسد للمسلمين ، فغاضه ما رأى منهم من تآلف القلوب ، واتحاد الكلمة ، واجتماع الرأي ، بعد ما كان فيهم ^(١) من العداوة والشتان ، فأمر شاباً يهودياً كان معه بأن يجلس إليهم ويدكرهم يوم بعث ^(٢) - وكان ذلك يوماً عظيماً اقتتل فيه الحيان ، و[كان] الظفر فيه للأوس - وينشدهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل ، فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواتبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فاجتمع من القبيلتين خلق كثير .

فعند ذلك جاءهم النبي ﷺ وأصحابه فقال : « أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بينكم ؟ ! » ، فعملوا أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح واستغفروا ، وعانق بعضهم بعضاً ، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ . ^(٣)

وقال الواحدي : اصطفوا للقتال ، فنزلت الآيات إلى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ^(٤) فجاء النبي ﷺ حتى وقف بين الصّقين فقرأهم ورفع صوته ، فلما سمعوا صوت رسول الله ﷺ أنصتوا له ، وجعلوا يستمعون له ، فلما فرغ ألقوا السلاح ، وعانق بعضهم بعضاً ، وجعلوا ييكون ^(٥) . فما كان أقبح أولاً ، وأحسن آخر من ذلك اليوم !

أقول : انظروا إلى قوة تأثير القرآن في النفوس ، كيف انقلبوا باستماعه من أسوأ الأحوال إلى أحسنها ! وحاصل معنى الآيتين : أنه إن لان المؤمنون لليهود وقبلوا قولهم ، أدى ذلك حالا بعد حال إلى أن يعودوا كفّاراً ، والكفر موجب للهلاك في الدنيا والآخرة .

أمّا في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء ، وهيجان الفتن ، وثوران المحاربة المؤدي إلى سفك الدماء ، وتلف النفوس . وأمّا في الآخرة فبعذاب الأبد ، ومع أنه يكفي وجود هذه المفاسد العظيمة فيه ، الموجبة لعدم توجه العاقل إليه ، تكون الصّوارف والزّواجر الخارجية عنه موجودة لكم ، فعند ذلك لا يتوقع صدوره منكم ، بل لا يعقل اختياره من العاقل المختار إلّا للجهل ، واتباع هوى النفس ، وتأثير وساوس الشيطان ، ولا عاصم منه إلّا الاعتصام بالله وبرسوله ، فمن اعتصم بهما حصل له الاهتداء إلى كلّ خير ، والفوز بجميع النعم ، وانسدّ عليه باب الضلال ، والوقوع في المهالك .

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من

(١) في تفسير أبي السعود : كان بينهم ما كان .

(٢) بعث : موضع قرب يثرب ، وفيه اقتتل الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٤ .

(٤) آل عمران ٣ : ١٠٣ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٦٤ .

النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد أمره بالتَّقوى والثَّبات على الدِّين ، بيَّن طريق الاعتصام بالله وبرسوله الذي جعله وسيلة للهداية ، بقوله : ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ وتمسَّكوا ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ ودينه ، أو كتابه المجيد ، حال كونكم ﴿جَمِيعًا﴾ ومتَّفِقين في الاعتصام بحيث لا يشذَّ منكم أحد.

فشبَّه سبحانه دين الإسلام أو القرآن بالحبل الوثيق المأمون من الانقطاع والانقسام ، فكما أنَّ المتمسَّك بذلك الحبل مأمون من التَّردِّي من المكان المرتفع ، كذلك المتمسَّك بدين الإسلام أو القرآن العزيز مأمون من الوقوع في الكفر والضلال في الدُّنيا ، ومن التَّردِّي في نار جهنَّم في الآخرة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام ، عن النبي ﷺ أنَّه قال : «أما أمَّا ستكون فتنة» قيل : فما المخرج منها ؟ قال : «كتاب الله ؛ فيه نَبَأٌ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو حبل الله المتين» (١).

ويحتمل أن يكون مراده ﷺ من الفتنة فتنة السقيفة ، وغصب الخلافة ، ومن قوله : «فيه نَبَأٌ من قبلكم» : قضية السَّامريِّ والعجل.

وعن ابن مسعود : عن النبي ﷺ قال : «هذا القرآن حبل الله تعالى» (٢) .
وروى الفخر الرَّازي في تفسيره : عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ أنَّه قال : «إني تارك فيكم الثَّقَلَيْنِ : كتاب الله تعالى حبل ممدود من السَّماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي» (٣) .

عن القمِّي رحمه الله : الحبل : التَّوحيد والولاية (٤) .
وعن الباقر عليه السلام : «آل محمد ﷺ حبل الله المتين الذي أمر بالاعتصام به» (٥) .
وعن الكاظم عليه السلام : «علي بن أبي طالب عليه السلام حبل الله المتين» (٦) .
وعن الصادق عليه السلام : «نحن الحبل» (٧) .

وعن السَّجَّاد عليه السلام قال : «الإمام منَّا لا يكون إلَّا معصوما ، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ، ولذلك لا يكون إلَّا منصوبا» ف قيل له : يا بن رسول الله ، فما معنى المعصوم ؟ فقال : «المعتصم بحبل الله ، وحبل الله هو القرآن» (٨) ، والقرآن يهدي إلى الإمام ، وذلك قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٦٢ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٦٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٠٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٧ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٣٤ / ٧٦٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٧ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٣٣٣ / ٧٦١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٨ .

(٧) أما لي الطوسي : ٢٧٢ / ٥١٠ .

(٨) زاد في معاني الأخبار : لا يفترقان إلى يوم القيامة ، والإمام يهدي إلى القرآن .

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿١﴾ .

أقول : مآل جميع الروايات واحد.

ثمَّ أنَّه تعالى بعد أمره بالاجتماع على الحقِّ ، نهي عن التفرُّق عنه ، بقوله : ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾ عن الحقِّ كتفرُّق أهل الكتاب ، ولا تختلفوا أنتم كما اختلفوا على مذاهب كثيرة.

روى الفخر الرازي في تفسيره : عن النبي ﷺ أنَّه قال : « ستفرق (٢) أمِّي على نيف وسبعين فرقة ، النَّاجي منهم واحد ، والباقي في النَّار » ، فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « الجماعة » . وفي رواية : « السَّواد الأعظم » . وفي أخرى : « ما أنا عليه وأصحابي » (٣) .

أقول : لا ريب أنَّ ذيل التَّواية من المجعولات ، لوضوح مخالفة عليٍّ والمعصومين من ذرِّيَّته مع الجماعة ، وقد اتَّفَق الفريقان على رواية قوله ﷺ : « عليٌّ مع الحقِّ ، والحقُّ مع عليٍّ » (٤) . وقوله : « إنِّي تارك فيكم الثَّقَلَيْنِ ؛ كتاب الله ، وعترتي ... » (٥) الخبر ، وقوله : « مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » (٦) .

وقيل : إنَّ المراد لا تفرَّقوا كتفرَّق أهل الجاهليَّة ، يحارب بعضكم بعضا .

وقيل : أي لا تحدثوا ما يوجب الافتراق ، ويزيل الالفة التي أنتم عليها (٧) .

أقول : كنصب أبي بكر للخلافة ، حيث إنَّه أحدث بعد النبي ﷺ خلافا وافتراقا عظيما بين الصَّحابة ، ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، مع أنَّ النبي ﷺ أوصى باتِّباع عليٍّ عليه السلام وأهل بيته ، وجعلهم أحد الثَّقَلَيْنِ ، وحبلا من حبلي الله الممدودين . ومن المسلم بين الأئمة أنَّ عليًّا عليه السلام أفضل عترته ، وأشرف أهل بيته .

ثمَّ لما كان الاعتصام بحبل الله من مشاقِّ الأعمال ، لتوقُّفه على ترك الرِّئاسات ، ومخالفة الأهوية (٨) والشَّهوات ، بالغ سبحانه في التَّغْيِيب إليه بتذكيرهم نعمه ، بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ثمَّ لما كانت نعمة الأمن والاتِّحاد والاتِّلاف من أعظم النِّعم ، خصَّها بالتذكير بقوله : ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ في زمان الجاهليَّة والأعصار المتماذية ﴿أَعْدَاءً﴾ متباغضين ، يقتل بعضكم بعضا ، ويغير

(١) معاني الأخبار : ١٣٢ / ١ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٣٨ ، والآية من سورة الإسراء : ١٧ / ٩ .

(٢) في النسخة : ستفرق .

(٣) تفسير الرازي : ٨ : ١٦٣ .

(٤) تاريخ بغداد : ١٤ : ٣٢١ ، ترجمة عليٍّ عليه السلام من تاريخ دمشق : ٣ : ١٥٣ / ١١٧٢ .

(٥) صحيح مسلم : ٤ : ١٨٧٣ ، سنن الترمذي : ٥ : ٦٦٢ ، مسند أحمد : ٣ : ١٤ و ١٧ و ٤ : ٣٦٧ و ٣٧١ .

(٦) مستدرک الحاكم : ٢ : ٣٤٣ و ٣ : ١٥١ ، الخصائص الكبرى : ٢ : ٤٦٦ ، الجامع الصغير : ٢ : ٥٣٣ .

(٧) تفسير أبي السعود : ٢ : ٦٦ .

(٨) كذا ، والظاهر الأهواء ؛ لأنَّ الأهوية جمع هواء ، والأهواء جمع هوى ، ومراد المصنف الأخير .

بعضكم على بعض ﴿فَأَلَفَ﴾ الله سبحانه بفضله ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ المختلفة ، حيث وثّقكم للإيمان بمحمد ﷺ ، وهداكم إلى دين الإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ وصرتم بعد التباعد ﴿بِعِمَّتِهِ﴾ العظيمة ، من بعثة محمد ﷺ ، وديانة الإسلام ، وألفة القلوب ، واتحاد الكلمة ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين ، متحابين في الله ، متفقين على الحق ، متراحمين متناصحين متدللين بعضكم لبعض.

قيل : إنّ الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأمّ واحد ، ف وقعت بينهم العداوة ، وتناولت الحروب مائة وعشرين سنة ، إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ^(١) .

وعن (المجمع) : عن مقاتل : افتخر رجلان من الأوس والخزرج فقال الأوسي : منا خزيمة ، ومنا حنظلة ، ومنا عاصم ، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتزّ عرش الرحمن له ، ورضي الله بحكمه في بني قريظة ، وقال الخزرجي : منا أربعة أحكموا القرآن : أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، ومنا سعد بن عبادة. ف جرى الحديث بينهما ، فغضبا وتفاخرا وناديا ، فجاء الأوس إلى الأوسي ، والخزرج إلى الخزرجي ، ومعهم السلاح ، فبلغ [ذلك] النبي ﷺ فركب حمارا فأتاهم ، فأنزل الله [هذه] الآيات ، فقرأها عليهم فاصطلحوا ^(٢) .

ثم بعد تذكيرهم النعمة العظيمة الدنيوية ، ذكرهم الله تعالى أعظم نعمه الأخروية ، بقوله : ﴿وَكُنْتُمْ﴾ في زمان كفركم مقيمين ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ وطرف ﴿خُفْرَةٍ﴾ مملوءة ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وفي شفير جهنم ، حال كونكم مشرفين على الوقوع فيها بالموت ﴿فَأَنْقَذَكُمْ﴾ الله ونجّاكم ﴿مِنْهَا﴾ بسبب تأخير موتكم ، وتوفيقكم لقبول الإسلام.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، قال : « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، هكذا والله نزل بها جبرئيل على محمد ﷺ » ^(٣) .

أقول : الظاهر أنّه بيان المراد من الآية ، لا أنّ كلمة (محمد) كانت جزءا منها ، والمراد من قوله : (نزل بها جبرئيل) أنّه أنزلها بهذا التفسير ، لبطلان القول بالتحريف.

﴿كَذَلِكَ﴾ البيان والتوضيح الوافي ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ المنزلة الدالة على المعارف والأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، أو المراد لكي تثبتوا على ما أنتم عليه من الإسلام ، والازدياد في كمال الإيمان وقوة اليقين.

﴿وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٦٤ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨٠٤ .

(٣) الكافي ٨ : ١٨٣ / ٢٠٨ .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٤) و (١٠٥)

ثمَّ أَمَّا تَعَالَى - لِمَا ذَمَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ، بِكُونِهِمْ ضَالِّينَ فِي أَنْفُسِهِمْ مُضِلِّينَ لغيرِهِمْ - أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّعْيِ فِي إِرْشَادِ غَيْرِهِمْ ، وَالاهْتِمَامِ بِهَدَايَةِ أَبْنَاءِ نَوْعِهِمْ ، بَعْدَ أَمْرِهِمْ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَالسَّعْيِ فِي تَكْمِيلِ أَنْفُسِهِمْ ، وَالْقِيَامِ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ ، عَلَى خِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَنْتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ وَجَمَاعَةُ كَامِلَةِ النَّفْسِ ، عَالِمَةُ بِالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿يَدْعُونَ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ وَمَا فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، مِنَ التَّدِينِ بِالْإِسْلَامِ ، وَالتَّزَامِ الطَّاعَاتِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَالتَّنَزُّهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ الْعِبَادَ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَمَا اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ الْجَهْلَالَ ﴿عَنِ﴾ ارْتِكَابِ ﴿الْمُنْكَرِ﴾ وَمَا اسْتَقْبَحَهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ . وَفِي تَخْصِيصِهِمَا بِالذِّكْرِ إِذْ بَانَ بِغَايَةِ فَضْلِهِمَا .
ثُمَّ وَعَدَهُمْ بِأَفْضَلِ الثَّوَابِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الْجَمَاعَةُ الْقَائِمَةُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِأَصْنَافِهَا ﴿هُمْ﴾ الْمُفْلِحُونَ وَالْفَائِزُونَ إِلَى كُلِّ (١) مَطْلُوبٍ .

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ [كَانَ] خَلِيفَةً لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ ، وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ » (٢) .
وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ (ع) : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » .
وَعَنْهُ (ع) : « مَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفًا ، وَلَمْ يَنْكُرْ مِنْكَرًا ، نَكَسَ وَجْعَلْ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ » (٣) .
وَعَنِ الصَّادِقِ (ع) : « الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللَّهُ » (٤) .
أَقُولُ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : (خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ) أَكْثَمَا حَكَمَانِ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ ، أَوْ أَكْثَمَا مَوْجُودَانِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْجَوْهَرِيَّةِ فِي عَالَمِ الصُّورِ ، يَظْهَرَانِ فِي الْقِيَامَةِ بِصُورَتَهُمَا الْمَثَالِيَّةِ ، كَمَا تَظْهَرُ الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ بِصُورَةٍ ، وَالْقُرْآنُ بِصُورَةٍ .
وَعَنِ (التَّهْذِيبِ) : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ [وَالتَّقْوَى] ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ نَزَعَتْ مِنْهُمْ الْبَرَكَاتُ ، وَسَلَّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى

(١) كَذَا ، وَالظَّاهِرُ : وَالْفَائِزُونَ بِكُلِّ .

(٢) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٨ : ١٦٨ .

(٣) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٨ : ١٦٨ .

(٤) الْكَافِي ٥ : ٥٩ / ١١ ، تَفْسِيرُ الصَّائِي ١ : ٣٣٩ .

بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء » ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام ، في رواية : « أَنَّ الأَمْرَ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنْهَا جِزَاءُ الصَّادِقِينَ ، وَفَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تَقَامُ الْفَرَائِضُ ، وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ ، وَتَحُلَّ الْمَكَاسِبُ ، وَتَرُدُّ الْمَظَالِمُ ، وَتَعْمَرُ الْأَرْضُ ، وَيَتَنَصَّفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَيَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ ، فَأُنْكَرُوا بِقُلُوبِكُمْ ، وَالْفُظُوءُ بِاللِّسَانِ ، وَصُكُّوا بِهَا جَبَاهِهِمْ ، وَلَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً ، فَإِنْ اتَّعَظُوا ، وَإِلَى الْحَقِّ رَجَعُوا ، فَلَا سَبِيلَ عَلَيْهِمْ **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِحَقِّ أَوْلِيائِهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ^(٢) هُنَالِكَ فَجَاهِدُوهُمْ بِأَيْدِيكُمْ ، وَابْغُضُوهُمْ بِقُلُوبِكُمْ ، غَيْرِ طَالِبِينَ سُلْطَانًا ، وَلَا بَاغِينَ مَالًا ، وَلَا مُرِيدِينَ بِالظَّلَمِ ظَفَرًا ، حَتَّى يَفِيضُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَيَمْضُوا عَلَى طَاعَتِهِ » .

قال أبو جعفر عليه السلام : « وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعَيْبِ النَّبِيِّ : إِنِّي مُعَذِّبٌ مِنْ قَوْمِكَ مِائَةَ أَلْفٍ ، أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ شَرَارِهِمْ ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : إِنَّهُمْ دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي ، وَلَمْ يَبْغُضُوا لِعُصِيِّي » ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوَاجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ جَمِيعًا ؟ فَقَالَ : « لَا » ، فَقِيلَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : « إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْقَوِيِّ ، الْمَطَاعِ ، الْعَالِمِ بِالْمَعْرُوفِ مِنَ الْمُنْكَرِ ، لَا عَلَى الضَّعِيفَةِ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا إِلَى أَيٍّْ مِنْ أَيٍّْ - يَعْنِي إِلَى الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ - وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ **﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾** - إِلَى أَنْ قَالَ - : فَهَذَا خَاصٌّ غَيْرُ عَامٍّ » ^(٤) الْخَبَرُ .

وعنه عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ » مَا مَعْنَاهُ ؟ قَالَ : « هَذَا عَلَى أَنْ يَأْمُرَهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ مِنْهُ » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ [مُؤْمِنٌ] فَيَتَّعِظُ ، أَوْ جَاهِلٌ فَيَتَعَلَّمُ ، فَأَمَّا صَاحِبُ سَيْفٍ وَسُوطٍ فَلَا » ^(٦) .

وفي (نَحْجِ الْبَلَاغَةِ) قَالَ عليه السلام : « وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أَمْرُكُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي » ^(٧) .

وَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّارِكِينَ [لَهُ ، التَّاهِينَ] عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ » ^(٨) .

(١) التهذيب ٦ : ١٨١ / ٣٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

(٢) الشورى : ٤٢ / ٤٢ .

(٣) الكافي ٥ : ٥٥ / ١ ، التهذيب ٦ : ١٨١ / ٣٧٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٠ .

(٤) الكافي ٥ : ٥٩ / ١٦ ، التهذيب ٦ : ١٧٧ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٨ .

(٥) الكافي ٥ : ٦٠ / ١٦ ، التهذيب ٦ : ١٧٨ / ٣٦٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

(٦) الكافي ٥ : ٦٠ / ٢ ، التهذيب ٦ : ١٧٨ / ٣٦٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

(٧) نَحْجِ الْبَلَاغَةِ : ١٥٢ / ١٠٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

(٨) نَحْجِ الْبَلَاغَةِ : ١٨٨ / ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

وعن القمي : عن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية ، قال : « فهذه لآل محمد صلى الله عليهم ومن تابعهم يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » ^(١) .

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في حبث النفس ، وحب الدنيا ، واتباع الشهوات ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالقلوب ، وتباينوا بالأخلاق ، وتشتتوا بالأهواء ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في العقائد كاليهود والنصارى ؛ حيث صاروا فرقا كثيرة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والدلائل الواضحات على الحق ، من التوحيد والتنزيه وأحوال المعاد ، مع أن كثرة الدلائل على شيء ووضوحها موجبة للاتفاق عليه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المتفرقون بالقلوب ، المختلفون في العقائد الفاسدة معدّ ﴿لَهُمْ﴾ عند الله ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عقوبة على تفرقهم واختلافهم.

في نقل كلام بعض العامة في عدم تحقق الاتفاق إلا بالإمام

وقال بعض العامة : لما أمر الله هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وذلك لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قادرا على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغلبين ، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين - فلا جرم حذرهم الله عن التفرق والاختلاف ، لكيلا يصير [ذلك] سببا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف.

فعلى المؤمنين أن يتركوا مقتضى طباعهم من اتباع الهوى ، ويتفقوا على كلمة واحدة باتباع إمام داع إلى الله على بصيرة ، كالرسول وأصحابه ، يجمعهم على طريقة واحدة ، فإن لم يكن مقتدى وإمام تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلمتهم وعاداتهم وآهواؤهم لمحبتته وطاعته ، كانوا متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغنم تكون للدئب.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا بد للناس من إمام بار أو فاجر ، ولم يرسل رسول الله صلى الله عليه وآله رجلين فصاعدا لشأن إلا وأمر أحدهما على الآخر ، وأمر الآخر بمتابعته وطاعته ، ليتحد الأمر وينتظم ، وإلا وقع المهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل [نظام] المعاش والمعاد » ^(٢) .

قال صلى الله عليه وآله : « من فارق الجماعة قيد شبر لم ير بحبوة ^(٣) الجنة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « يد الله مع الجماعة » ، فإن الشيطان مع الفد ^(٤) ، وهو من الاثنين أبعد ، ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب وطاعة العقل كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق

(١) تفسير القمي ١ : ١٠٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٣٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٧٥ .

(٣) بحبوة الشيء : وسطه وخياره .

(٤) الفد : الفرد المنفرد .

الموجب لخسارة الدنيا والآخرة (١) .

أقول : إذا كان وجود الإمام مرتبطا بالنظام الأتم - كما أنّ وجود القلب والعقل مرتبط بنظام الجمعية الإنسانية - كان واجبا على الله نصبه ، والدلالة عليه ، وإيجاب طاعته ، وإلا لزم خلاف الحكمة واللطف ، ولا يمكن تفويض تعيينه ونصبه إلى الخلق ؛ لأنه موجب للاختلاف والفرقة ، ونقض الغرض ، كما وقع ذلك في السقيفة وفي الصحابة بعد النبي ﷺ .

وأما نفيه ﷺ عن مفارقة الجماعة فلا شبهة في أنّ مقصوده الجماعة التي تكون على الحق ، لا كل جماعة ، لوضوح أنّ إبراهيم فارق جماعة أهل العالم ، ولم يكن ملوما مذموما ، وبعد دلالة الأدلة القاطعة على نصب الله عليا ﷺ للخلافة تعين أنّ الجماعة الذين أمرنا باتّباعهم ، وبالدّخول فيهم ، هم : سلمان ، وأبو ذرّ ، ومقداد ، وعمرّار ، وأضرابهم لا الجماعة الذين بايعوا أبا بكر ، ونقضوا البيعة .

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٦) و (١٠٧)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في الوعد على الاجتماع ، والوعيد على التفرّق والاختلاف ، بقوله : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة بنور الإيمان وضياء الملكات الجميلة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة بظلمة الكفر ، وكدرّة الأخلاق السيئة .

ونصب (يوم) إمّا لكونه ظرفا لمتعلّق الجار ، أو لكونه مفعولا ل (اذكروا) المقدّر .
قيل : يوسم أهل الحقّ ببياض الوجه ، والصّحيفة ، وسعي الثور بين أيديهم وبأيمانهم . وأهل الباطل بأضداد ذلك .

وقيل : إنّ بياض الوجه كناية عن الفرح والسرور بالفوز بالمطلوب ، وسواده كناية عن الخيبة منه ووصول المكروه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ (٢)

ثمّ بعد بيان سيماء الفريقين من الحسن والقباحة بيّن سبحانه معاملته معهما بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ يقال لهم توبيخا وتقريعا : ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ بالرسول ﷺ وبدين الإسلام ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وتصديقكم عن صميم القلب ، واعترافكم لسانا وجنانا بهما ؟ !
عن أبيّ بن كعب : أي في عالم الدّر (٣) .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٧٦ .

(٢) النحل : ٥٨ / ١٦ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٨٠٨ .

وقيل : يعني قبل بعثة محمد ﷺ أو بعد إيمان أسلافكم به (١) .

وعلى الوجهين الأخيرين يكون العتاب خاصاً بأهل الكتابين.

وقيل : أريد خصوص بني قريظة والتّضير.

وقيل : عموم أهل البدع من هذه الأمة (٢) ، أو المرتدّين في زمان النبي ﷺ وبعده.

عن الثعلبي في تفسيره : عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، ليردّ عليّ الحوض ممّن صبحني أقوام ، حتّى إذا رأيتهم اختلجوا دوني ، فلاقولنّ : أصحابي أصحابي ، فيقال لي : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، إنّهم (٣) ارتدّوا على أعقابهم » (٤) .

وفي روايات كثيرة : ارتدّ الناس بعد رسول الله ﷺ إلّا خمسة (٥) .

وعلى أي تقدير يقال لهم : **إِذْ ﴿فَذُوقُوا﴾** واطعموا **﴿الْعَذَاب﴾** في هذا اليوم **﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** .

قيل : إنّ الفصحاء متفقون على أنّ من المحسنات البديعية أن يكون مطلع الكلام ومقطعه ما تسر به القلوب (٦) ؛ ولذا بدأ في الآية ببيض الوجه وختمها بذكر حالهم ، بقوله : **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾** بنور الإيمان والطاعة **﴿فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ﴾** من جنّته ونعمه مستقرّون ، و**﴿هُمْ﴾** خاصّة **﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾** دائمون ، لا يخرجون منها ، ولا يموتون.

قيل : في الآية إشعارات بغلبة جانب الرحمة ؛ حيث ابتدأ فيها بذكر أهل الرحمة وختمها بهم ، وعبر عن تعذيب الكفار بالدّوق ، وعن إثابة المؤمنين بالاستقرار في الرحمة ، وعلّل العذاب بالكفر المستند إلى أنفسهم ، والثّواب بالرحمة المضافة إلى ذاته المقدّسة ، ولم يصرّح بخلود الكفار في العذاب ، مع كونهم خالدين فيه ، وصرّح بخلود أهل الرحمة فيها.

عن القمّي رحمه الله ، عن أبي ذرّ رضی الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُ وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ﴾** قال رسول الله ﷺ : « تردّ عليّ أمّتي يوم القيامة على خمس رايات ؛ فراية مع عجل هذه الأمة ، فأسألهم : ما فعلتم بالتّقلين [من] بعدي ؟ فيقولون : أما الأكبر فحرّفناه (٧) ونبدناه وراء ظهورنا ، وأما الأصغر فعاديناها

(١) مجمع البيان ٢ : ٨٠٨ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨٠٩ ، تفسير الرازي ٨ : ١٧٣ .

(٣) في المصدر : بعد إيمانهم .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٨٠٩ .

(٥) راجع : رجال الكشي : ٨ / ١٧ و ١١ / ٢٤ وفيه : ارتدّ الناس إلّا ثلاثة .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ١٧٢ .

(٧) الظاهر أنه ليس المراد بالتحريف هنا الزيادة والنقصان ، للاجماع على سلامة القرآن الكريم من التحريف بهذا المعنى ، بل لعل المراد بالتحريف هنا التّأويل الباطل الذي يخرج بالنص القرآني عن معناه الصحيح الموافق لمراعاة تعالى ، ويؤيد ذلك حديث الإمام الباقر عليه السلام في مراسلته لسعد الخير والتي جاء فيها : « وكان من نبذهم الكتاب أن

وأبغضناه وظلمناه ، فأقول : ردوا النار ظماء مظمئين مسوذة وجوهكم.

ثم ترد عليّ راية مع فرعون هذه الأمة ، فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أمّا الأكبر فحرقناه ومزقناه وخالفناه ، وأمّا الأصغر فعادينا وقاتلناه ، فأقول : ردوا النار ظماء مظمئين مسوذة وجوهكم.

ثم ترد عليّ راية مع سامري هذه الأمة ، فأقول [لهم] : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أمّا الأكبر فعصيناه وتركناه ، وأمّا الأصغر فخذلناه وضيّعناه ، فأقول : ردوا النار ظماء مظمئين مسوذة وجوهكم.

ثم ترد عليّ راية ذي الندية مع أول الخوارج وآخرهم ، فأقول : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أمّا الأكبر فمزقناه وبرئنا منه ، وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه ، فأقول : ردوا النار ظماء مظمئين مسوذة وجوهكم.

ثم ترد عليّ راية إمام المتقين ، وسيد الوصيين ، وقائد الغر المحجلين ، ووصي رسول رب العالمين ، فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أمّا الأكبر فاتبعناه وأطعناه ، وأمّا الأصغر فأحببناه وواليناه ونصرناه ، حتّى اهريق في دماؤنا ، فأقول : ردوا الجنة رواء مرويين ، مبيضة وجوهكم ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى قوله ﴿خَالِدُونَ﴾^(١).

وفي هذه الرواية شهادة على أنّ المراد بالآية أهل البدع والأهواء الزائغة من هذه الأمة ، وقد روي ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام . أو المراد عموم المرتدين وأهل البدع منهم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٨) و (١٠٩)﴾

ثم أشار سبحانه إلى دلالة هذه الآيات على صدق النبوة ، بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المبشرة للمؤمنين بياض الوجه في الآخرة والتعم الأبدية والمنذرة للكافرين بسواد الوجه والعذاب الدائم ، العالي شأنها من أن يطّلع عليها أحد إلّا بالوحي ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ ودلائله القاطعة ، التي أنزلها لإثبات كونك بشيرا ونذيرا من جانب الله ، حيث إنّها - لعلو معانيها وإعجاز عباراتها - تنادي بأنّها ليست من البشر ، بل ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقرؤها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بوساطة جبرئيل ، حال كونها ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل ،

أقاموا حروفه وحرفوا حدوده ، فهم يروونه ولا يراعونه - إلى أن قال عليه السلام - : وكان من نبيهم الكتاب أن ولوه الذين لا يعلمون فأوردوهم الهوى ، وأصدروهم إلى الردى ، وغيروا عرى الدين « الحديث . الكافي ٨ : ٥٣ / ١٦ .

(١) تفسير القمي ١ : ١٠٩ .

ليس فيها شائبة الجور من انتقاص الثواب عن حد الاستحقاق ، وزيادة العقاب عليه ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ الحكيم الغني المنزه من كل نقص وعيب ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ بوجه من الوجوه ولو مثقال ذرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الأولين والآخرين ، فإذا لم يمكن تحقق إرادته منه تعالى لكونه من أقبح القبائح ، فكيف يمكن صدوره منه تعالى ؟ لوضوح أنَّ العاقل لا يرتكب القبيح إلا للجهل ، أو شدة الضرورة والحاجة.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده بالملكية الحقيقية الإشراقية ﴿مَا﴾ وجد ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع كلها ﴿وَمَا﴾ يكون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كافة من الموجودات الخارجة من الحصر ﴿وَالِإِلَى اللَّهِ﴾ وإلى حكمه وقضائه خاصة ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، والتصرف والتربية ، والإثابة والعقوبة ، لا يشركه فيها نذ ، ولا يزاومه فيها ضد ، فإذا كان علمه بلا نهاية ، وقدرته بلا غاية ، وغناؤه غير محدود ، وعطاؤه غير مجذوذ.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾

ثمَّ أنه تعالى - بعد أمر المؤمنين بالاتفاق على الحق ، والدعوة إلى طاعته ، ونهيهم عن الفرقة والاختلاف ، ووعد المطيعين ، ووعيد العاصين - مدح المتفقيين الساعين في الإرشاد منهم ، بقوله : ﴿كُنْتُمْ﴾ في علمي ، وفي اللوح المحفوظ عندي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ من الامم ، وأفضلهم في العالم.
عن الصادق عليه السلام قال : « يعني الأئمة (١) التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام ، فهم الأمة التي بعث الله فيها ومنها وإليها ، وهم الأمة الوسطى ، وهم خير أمة أخرجت للناس » (٢) .
وعن العياشي : عنه عليه السلام قال : « في قراءة عليّ : (كنتم خير أئمة أخرجت للناس) ، قال : هم آل محمد ﷺ » (٣) .

وعنه عليه السلام قال : « إنما نزلت هذه الآية على محمد فيه وفي الأوصياء خاصة ، فقال : (أنتم) (٤)
خير أئمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) هكذا نزل بها جبرئيل ، وما عني بها إلا محمدا وأوصيائه » (٥) .

(١) في تفسير العياشي : الأمة.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٣٥ / ٧٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٣٥ / ٧٦٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٢ .

(٤) في تفسير العياشي : كنتم.

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٣٥ / ٧٦٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٢ .

أقول : قد مرَّ أنَّ المراد من إنزال جبرئيل تفسيره حين إنزالها (خير أمة) بالأئمة ، لا وقوع التحريف فيها ، وعليه تحمل سائر الروايات .

وعن القمي رحمه الله عنه عليه السلام أنه قرئ عليه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فقال [أبو عبد الله عليه السلام] : « خير أمة [يقتلون أمير المؤمنين ، والحسن والحسين عليه السلام] ؟ ! » فقال القارئ : جعلت فداك ، كيف نزلت ؟ فقال : « نزلت ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ ﴾ أئمة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ألا ترى مدح الله لهم : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

وعن (المناقب) : عن الباقر عليه السلام أنه : « خير أمة (٢) بالألف ، نزل بها جبرئيل ، وما عني بها إلا محمدا وعليًا والأوصياء من ولده » (٣) .

قال بعض العامة : لو شاء الله تعالى لقال : (أنتم خير أمة) حتى يشمل جميع الأمة إلى يوم القيامة ، ولكن قال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ليختص بالخصوصين ، وقوم معينين من أصحاب الرسول ﷺ ؛ وهم السابقون الأولون .

وروي من طريق عامي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة (٤) .

وعن الضحاك : أنهم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة (٥) .

أقول : لا ريب أنَّ المراد من (الأمة) في الآية ليس جميعهم إلى يوم القيامة ، ولا جميع الحاضرين في زمان الخطاب من الصحابة ، للقطع بفسق كثير منهم ؛ كأبي سفيان ومعاوية . ولا دليل على تعيين خصوص المهاجرين ، بعد القطع بعدم إرادة المعنى الحقيقي وهو العموم ، فلا بدَّ من حملها على المتقين وهو أمير المؤمنين ومن يحذو حذوه .

في بيان عدم حجية الاجماع إلا بموافقة رأي المعصوم

وقال الفخر الرازي في تفسيره : احتج أصحابنا بهذه الآية على أنَّ إجماع الأمة حجة (٦) . وفيه مضافا إلى منع الدلالة : أنَّ المراد إن كان اتفاق جميع الأمة - كما هو ظاهر اللفظ - فنحن نقول به ، لكن لا من حيث الاتفاق ، بل لوجود الإمام المعصوم الذي هو أفضل الأمة فيهم . وإن كان المراد اتفاق بعضهم ، فمع أنه ليس بإجماع حقيقة [فإنَّ] إرادة خصوص أهل البيت - الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وقال النبي ﷺ : « إثم حبل الله » (٧) ،

(١) تفسير القمي ١ : ١١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٢ .

(٢) في المصدر : أنتم خير أمة اخرجت للناس .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٣ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٧١ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٧١ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ١٧٨ .

(٧) كتاب سليم بن قيس : ١٣٤ .

وأوجب حبهم وولايتهم - أولى من إرادة غيرهم ، مع أن قوله تعالى : ﴿أُخْرِجَتْ﴾ وأبرزت من كنتم العدم ، نفعا ﴿لِلنَّاسِ﴾ قرينة ظاهرة على إرادة خصوص جماعة يكون وجودهم نافعا لعامة الخلق ، ولطفًا تامًا من الله تعالى بكافة الأنام إلى يوم القيامة ، وليست إلا الأئمة الاثني عشر الذين نعتقد بأنهم أوصياء الرسول ، وحجج الله على العباد.

وما رواه الترمذي عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ : « أنتم ^(١) تتّمون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله » ^(٢) فمحمول - على تقدير صحتها - على كون هذه الأمة أكرم من حيث كرامة نبيّها ، وكمال دينها ، وأفضليّة أئمّتها. فلا ينافي كون كثير منهم أشقى الأمم.

ومن شواهد كون (خير أمة) خصوص الهداة المهديّين : تعليله تعالى خيريتهم بقوله : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فإنّه يخصّ الوصف بالذين يكون همهم في تربية الخلق وتكميل نفوسهم. ثم بقوله : ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيمانًا خالصًا عن شوب الشكّ الجليّ والخفيّ والأخفى ، ومن المعلوم أنّه كما لا يكون إلّا للأوحد من هذه الأمة.

قيل : إنّ تأخير الإيمان بالله في الذكر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدّمه عليهما في الوجود ، لكون دلالتهم على خيرهم ونفعهم للناس أظهر من دلالته عليه ، ولأنّ يقترن به قوله : ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى بوحداية الله ، ورسالة رسوله ، وبدين الإسلام ، عن صميم القلب ، كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأنفع في الدّنيا والآخرة من الكفر والرّثاسات الباطلة والزّخارف الدّنيويّة ؛ حيث إنّ بالإيمان يجمع لهم حظوظ الدّارين.

ثمّ لما كان لفظ (أهل الكتاب) في القضيّة الشرطية ظاهرًا في عمومهم ، نصّ الله سبحانه بإيمان بعضهم بقوله : ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون عن طاعة الله ، المصدّون على مخالفته ، الخارجون عن حدود دينه ، في اعتقادهم وعند أهل ملّتهم.

﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذَى ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)﴾

ثمّ لما كان توصيف الكافرين بالكثرة موهمًا لقوّتهم وغلبتهم ، بشّر الله المؤمنين اطمئنانًا لقلوبهم بأنهم ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ أبداً بوجه من الوجوه ، مع كثرتهم ﴿إِلَّا أذىً﴾ قليلا ، وألما يسيرا ، لا عبرة به

(١) في المصدر : قال : إنكم.

(٢) سنن الترمذي ٥ : ٢٢٦ / ٣٠٠١.

ولا التفات إليه ، كالتعنى باللسان ، والإساءة بالقول ، والسعي في الإضلال .
﴿وَأِنْ يُفَاتِلُوكُمْ﴾ يتظاهروا على حربكم ، لا يقاوموكم ، بل ﴿يُؤَلُّوكُمُ الْأَذْبَارَ﴾ ويلجئهم الخوف
من بأسكم إلى الفرار ، من غير أن يصيبوكم بقتل ، أو جرح ، أو أسر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهمالهم ﴿لَا يُنْصِرُونَ﴾
من جهة أحد ، ولا يتقوون بمدد ، ولا يتوقع لهم شوكة ، ولا ينتظر لهم قوة .
وفيه تثبيت لمن آمن منهم وبشارة بأنهم لا يفارقون الخذلان ، ولا ينهضون بجناح ، ولا ترجع إليهم
سلطة ونجاح ، كما كان من حال بني قريظة ، والنضير ، وقينقاع ، ويهود خيبر .

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَأْوُ
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾

ثم أكد خذلانهم بقوله : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ وأحاطت بهم ﴿الذَّلَّةُ﴾ والمهانة ، كإحاطة الفسطاط
المضروب بأهله ﴿أَيْنَ مَا تُثْقِفُوا﴾ وفي أي مكان كانوا ، وإلى أي حال تحولوا ﴿إِلَّا﴾ إذا تمسكوا ﴿بِحَبْلِ﴾
وثيق كائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ واعتصموا بدينه القويم ، وكتابه الحكيم ﴿وَحِجْلٍ﴾ متين ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهو ولاية
أهل بيت النبي صلوات الله عليهم ومتابعتهم ، لنص النبي ﷺ في خبر الثقلين ، المتفق على روايته بأن
كتاب الله والعترة حبلان ممدودان ، من تمسك بهما لن يضل أبداً ^(١) .

وعن العياشي : عن الصادق عليه السلام قال : « الحبل من الله : كتاب الله ، والحبل من الناس : علي بن
أبي طالب عليه السلام » ^(٢) .

والعجب من مفسري العامة أنهم فسروا الحبل من الناس بذمة المسلمين ^(٣) ، ولم يحتملوا إرادة العترة
الطاهرة منه ، مع أن دأبهم في التفسير التمسك بأضعف الشواهد .

ثم أعلم أن في هذه الآيات دلالة ظاهرة على صدق النبي ﷺ في دعوى النبوة ، لأنها أخبار صادقة
بالمعيات ، لوقوع جميع ما أخبر به كما أخبر ، حيث إن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا انهزموا ، وما أقدموا
على محاربة ، ولا طلبوا رئاسة إلا خذلوا .

إن قيل : أهل الكتاب شامل للتصاري ، مع أنهم لم يزالوا في شوكة وسلطنة القاهرة إلى عصرنا هذا ،

فكيف طابق الخبر المخبر ؟

(١) مجمع البيان ٢ : ٨٠٥ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٣٦ / ٧٧٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٢ ، تفسير روح البيان ٢ : ٧٩ .

قلنا : اتفق المفسرون على أنّ المراد من الآيات خصوص اليهود ، ويشهد لذلك ما روي في شأن نزولها : من أنّ مالك بن الصيّف ووهب بن يهوذا اليهوديّين ، مرّا بنفر من أصحاب النبي ﷺ وفيهم ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى حذيفة ، فقالا لهم : نحن أفضل منكم وديننا خير ممّا تدعوننا إليه . فنزلت [الآية]^(١) .

ثمّ بيّن الله سبحانه سوء حالهم في الآخرة بقوله : ﴿وَبَاءُ﴾ ورجعوا في الآخرة ، أو المراد تمكّنوا واستقرّوا ﴿بِعِصَابٍ﴾ وعذاب عظيم كائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ العظيم . وفيه أشدّ التهديد .

ثمّ لما كان همّ اليهود في الرئاسات الباطلة والحطام الدنيوي ، زاد سبحانه في تهديدهم بالأخبار بحرمانهم منها في الدّنيا بقوله : ﴿وَضُرِبَتْ﴾ واشتملت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ اشتمال القبّة على من فيها ﴿الْمُسْكَنَةُ﴾ والفقر والمقهورية ، في أيدي المسلمين وسائر الملل ، فلا يكون لهم ملك وسلطان ورئاسة وثروة ظاهرة ، حيث إنهم وإن كثرت ثروتهم يظهرون الفقر بين الناس .

وقيل : إنّ المراد بالمسكنة هي الجزية^(٢) .

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة هذه العقوبات بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الشّدائد الدّنيويّة والاخرويّة معلّل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ من زمان بعثة محمد ﷺ على الاستمرار ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الناطقة بنبوّته ، وينكرون علائمه المذكورة في التّوراة ، ويحرفون عباراتها المبشّرة ببعثه ، الدّالة على أوصافه وعلائمه ، ويحجّدون إعجاز القرآن وسائر معجزاته ﴿وَوُ﴾ بأنهم كانوا ﴿يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ من بني إسرائيل ، كزكريّا ، ويحيى وغيرهما ، مع علمهم بأنّ قتلهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يوجب له أو يجوّزه .

قيل : إنّ إسناد القتل إلى الذين كانوا في زمان النبي ﷺ لرضاهم بفعل أسلافهم ، وتصويهم له^(٣) .

عن (الكافي) والعيّاشي : عن الصادق عليه السلام : « والله ما قتلوهم بأيديهم ، ولا ضربوهم بأسياهم ، ولكنهم سمعوا أحاديثهم فأضاعوها ، فاحذوا عليها فقتلوا »^(٤) .

أقول : الظاهر أنّ المراد من الرواية بيان وجه نسبة قتلهم إلى مؤمني بني إسرائيل ، مع وضوح عدم مباشرتهم له ، وإنّما كان المباشر منهم .

ثمّ بيّن الله علّة بلوغهم إلى هذه الدّرجة من الشّقاوة بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الكفر والطّغيان معلّل ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ الله وخالفوا أوامره ونواهيه ، ومسبّب عن الإصرار على صغائر الذّنوب وكبائرها ،

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٧١ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٨٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٧٩ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٧٥ / ٦ ، تفسير العياشي ١ : ٣٣٦ / ٧٧٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٣ .

﴿وَ﴾ بما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [على] حدود الله ، ويدأومون على التّجاوز عنها ، من غير مبالاة ، ولا ارعواء.

فإنّ الإصرار على الصّغائر مفض إلى مباشرة الكبائر ، والاستمرار على الكبائر موجب لزيغ القلب وطبعه الملازم للكفر والطّغيان ، وإليه أشار سبحانه بقوله : ﴿كَأَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) وقوله : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوَاى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ﴾^(٢).

قال بعض العرفاء : من ابتلي بترك الأدب وقع في ترك السنن ، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة ، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقات الشريعة ، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر^(٣) .
وعن النبي ﷺ قال : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتّى يدع ما لا بأس به حذرا ممّا به البأس »^(٤) .

وعنه ﷺ في رواية : « ومن ارتكب الشّبهات وقع في الحرمات ؛ كالزّاعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه »^(٥) .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٣) و (١١٤)

ثمّ أنّه تعالى - بعد ذمّ أكثر أهل الكتاب بسوء اعتقادهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وتهديدهم على كفرهم وطغيانهم - ذكر التّباين بينهم وبين المؤمنين منهم بقوله : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ في الاتّصاف بالكفر والقبائح ، ولا يكونون مشاركين ولا مشابحين فيها.

ثمّ شرع في مدح من آمن منهم بالرّسول ﷺ ، وبيان عدم المساواة بينهم بقوله : ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه.

روي أنّه لما أسلم هو وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود : لقد كفرتم وخسرتم ، فأنزل الله ليبان فضلهم هذه الآية^(٦) .

وقيل : إنّها نزلت في أربعين من نصارى نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، وثلاثة من الرّوم كانوا

(١) المطففين : ٨٣ / ١٤ .

(٢) الروم : ٣٠ / ١٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٨٠ .

(٤) سنن الترمذي ٤ : ٦٣٤ / ٢٤٥١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٨٠ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ١٨٧ .

على دين عيسى ، وصدّقوا محمدا ﷺ ، وكان جمع من الأنصار - قبل قدوم النبي ﷺ - منهم : أسعد بن زرارة ، والبراء بن معرور ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو قيس صرمة بن أنس ، كانوا موحدّين يغتسلون من الجنابة ، ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفيّة ، حتّى بعث الله النبي ﷺ فصّدّقوه ونصروه (١) .

وعلى أي تقدير ، ذكر الله سبحانه وجه عدم المساواة بين المؤمنين منهم والكافرين ، وهو أنّ المؤمنين منهم ﴿أُمَّةٌ﴾ وجماعة ﴿قَائِمَةٌ﴾ بالعدل ، مستقيمة في العقائد والأعمال ، لا يتحرّفون إلى الباطل ، ولا يميلون إلى الفساد ، وهم ﴿يَتْلُونَ﴾ ويقرأون بخلوص النّيّة ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآنية ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ وساعاته ﴿وَهُمْ﴾ في حال تلاوتهم ﴿يَسْجُدُونَ﴾ .

قيل : إنّ السّجود كناية عن الصّلاة لعدم الفضيلة لتلاوة القرآن في السّجود ، بل ثبوت كراهيّتها لقول النبي ﷺ : « ألا إني نهيته أن أقرأ راکعاً وساجداً » (٢) .

ووجه التعبير عن الصّلاة بالسّجود كونه أعظم أجزائها ، وأشرف أركانها ، وأدّل على كمال الخضوع . وإتّما صرّح بتلاوتهم القرآن في الصّلاة ، مع اشتمال كلّ صلاة عليها ، لزيادة تحقيق المخالفة بين هؤلاء وغيرهم من منكري القرآن ، لتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفهم الله - آنفاً - بالكفر بالنبي وكتابه .

ولعلّ هذا هو الوجه في تقديم هذا الوصف في الذّكر على توصيفهم بالإيمان بقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً حقيقياً ، مطابقاً لما نطق به الشّرع ، ورضي به الله .

فيدخل في الإيمان الحقيقي بالله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله وبخاتم النبيّين ﷺ وبالقرآن المجيد . وفي الإيمان بالآخرة تصديق خلافة أمير المؤمنين ووجوب طاعته وطاعة المعصومين من ذرّيته ، والبراءة من أعدائهم ، والقيام بأداء الفرائض ، والتّحرّز عن المحرّمات .

وحاصل الآيتين من قوله : ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ إلى هنا ، مدحهم بكمال القوة النظرية والعملية . ثمّ بعد مدحهم بكمالهم في أنفسهم ، مدحهم بأنّهم غير مقتصرين على ذلك ، بل يكون همّهم معدّ إلى إرشاد النّاس وتكميلهم ، بقوله : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بتوحيد الله ، وبنبوة محمد ﷺ . ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي ينهون عن الشّرك بالله ، وعن إنكار نبوة محمد ﷺ (٣) . أقول : الظّاهر أنّ المراد من المعروف والمنكر هو الأعمّ من العقائد والأعمال .

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨١ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٩٠ .

ثم مدحهم بصفة جامعة لفنون المحاسن ، بقوله : ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ بأصنافها ؛ لخوف الفوت بالموت ، ولفرط الرغبة ، ويبادرون إليها لغاية الشوق.

وفي ذكر الأوصاف تعريض على الفساد من أهل الكتاب ، فإنهم أمة قائمة بالجور والفساد ، منحرفة العقائد ، مائلة إلى الفساد ، ساعية في إضلال الناس ، متباطئة في الخيرات ، مسارعة في الشرور ، كافرة بالله واليوم الآخر.

ثم مدحهم الله تعالى بأكرم الصفات ، بقوله : ﴿وَأُولَئِكَ﴾ النفوس المقدسة ، الكريمة الصفات معدودون ﴿مِنْ﴾ زمرة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ ومن جملة من حسنت أحوالهم عند الله ، واستحقوا رضاه وثناؤه.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥)

ثم بشرهم بالثواب العظيم بقوله : ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمل صالح ؛ كائنا ما كان ، من قليل أو كثير ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ ولن يعدموا ثوابه ، ولم ينقصوا من أجره شيئا.

وفي التعبير عن ترك الإثابة بالكفران الذي هو محال على الله ، دلالة واضحة على أن الثواب بالاستحقاق كدلالة إطلاق الشكر على الإثابة.

ثم قرّر الله سبحانه وعده بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مطلع على أحوالهم وضمائرهم ، فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة.

عن الصادق عليه السلام : « إن المؤمن مكفر ، وذلك أن معرفه يصعد إلى الله فلا ينتشر في الناس ، والكافر مشهور ، وذلك أن معرفه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد إلى السماء » (١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

ثم - لما ذكر الله سبحانه حسن حال المؤمنين في الآخرة ، وعظم ثوابهم - ذكر سوء حال الكفار فيها ، وشدة عقابهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تجزي ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ تعالى ﴿شَيْئاً﴾ يسيرا ، فلا وسيلة لهم إلى النجاة منه.

وتخصيص المال والأولاد بالذكر لكونهما أنفع الأمور ، وأوثق الوسائل في دفع المكروه

(١) علل الشرائع : ٥٦٠ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٤ .

﴿وَأُولَئِكَ﴾ المتباعدون عن رحمة الله ، الخارجون عن وظائف الإنسانيّة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبدا ، لا مناصّ لهم ولا خلاص .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : يريد بني قريظة والنضير ؛ لأنّ مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرّسول ما كان إلّا المال والولد (١) .

وقيل : إنّما نزلت في أبي سفيان ، فإنّه أنفق مالا كثيرا على المشركين يوم بدر وأحد في عداوة النّبي ﷺ (٢) .

وقيل : إنّما نزلت في مشركي قريش ، فإنّ أبا جهل كان كثير الافتخار بماله (٣) .
وقيل : إنّها عامّة لجميع الكفّار ، فإنّ جميعهم كانوا يتعزّزون بكثرة الأموال والأولاد ، وكانوا يعيرون النّبي ﷺ وأصحابه بالفقر ، ويقولون : لو كان محمد على الحقّ لما تركه ربّه في هذا الفقر والشّدّة (٤) .

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ

قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

ثمّ لما بيّن الله تعالى أنّ أموال الكفّار لا تفيدهم شيئا - وهم كثيرا ما كانوا ينفقون أموالهم في الخيرات ؛ كالصدقة على الفقراء ، وإعانة الضّعفاء - فكان مجال توهم أنّهم ينتفعون بأموالهم في الآخرة ، فأزال الله ذلك التّوهم بقوله : ﴿مَثَلُ﴾ كفرهم في إبطال ﴿مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قرينة ، أو مفاخرة ، أو سمعة وطلبا لحسن الذّكر بين النّاس ، أو رياء وخوفا كإنفاق المنافقين ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وبرد شديد مهلك .

وقيل : إنّ المعنى : فيها نار محرقة ، للهبها صرّ وصوت . وكلاهما مروى عن ابن عباس (٥) .
﴿أَصَابَتْ﴾ تلك الرّيح المهلكة ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ وزرع طائفة ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ واستأصلته ، بحيث لم يبق لهم ثمر ولا نفع بوجه من الوجوه ، ولم يحصل لهم إلّا الخيبة والحسرة .
وقيل : إنّ المراد تشبيه ما أنفق الكفّار - في وجوه الخيرات والقربات ، أو في معارضة الرّسول ﷺ ، وقتال المسلمين ، كإنفاق أبي سفيان في بدر واحد ، وسائر أعمالهم الحسنة التي يرجى منها النّفع ولو كان دنيويّا - في الهلاك والضّياع والبطلان ، بما يجرّثه الكفّار ، فضربته صرّ فأبادته بحيث لم يكن لهم

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٩٢ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ١٩٣ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ١٩٢ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ١٩٣ .

(٥) تفسير الرازي ٨ : ١٩٥ .

فيه منفعة. فهو من التشبيه المركب.

وإنما وصف القوم بكونهم كفارا ، لأن الإهلاك عن السخط أقطع وأفظع ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاك ما أنفقوا من الأموال ، وبإحباط ما عملوا من الخيرات ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث إنهم أنفقوها مع الكفر ، أو عصيان الله وطغيانا عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾

ثم - لما بين الله المباينة بين المؤمنين والكفار ، وتضاد قلوبهم وأخلاقهم - حذر المؤمنين من مخالطتهم وموالاتهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾ وخليطا كأننا ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ ولا تودعوا أسراركم عند الأجانب من دينكم ، فإنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ ولا يقصرون لكم ﴿خَبَالًا﴾ وفسادا بمكرهم وخديعتهم ، ولا يتركون جهدهم في الإضرار بكم ، في ما يورثكم الشرر ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وتمنوا مشقتكم ، وشدة ضرركم في دينكم ودنياكم.

قيل : إن معنى الجملتين : أنهم لا يقصرون ضررا في أمر دينكم ودنياكم ، فإن عجزوا فحب ذلك ثابت في قلوبهم ^(١) .

حتى أنهم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وظهرت شدة عداوتهم في كلامهم ، حيث إنهم لا يتمالكون - مع مبالغتهم في حفظ أنفسهم - أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وفيه غاية المبالغة ؛ حيث فرض كلامهم - من ظهور العداوة والبغض فيه - عين البغضاء ، لا دالا عليها ، فخرج الكلام من أفواههم ، لامتلاء قلوبهم بالبغض ، نفس خروج البغض ، ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّ﴾ ما تخفي صُدُورُهُمْ ﴿وما تستر في قلوبهم من البغض والحسد﴾ أكثر مما بدأ وظهر.

عن ابن عباس رضي الله عنه : كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف ، فأُنزل الله هذه الآية ^(٢) .

وعن مجاهد : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين ، فنهوا عن ذلك ^(٣) .

وقيل : إن المسلمين كانوا يشاورون اليهود في أمورهم ويؤانسوهم لما كان بينهم من الرضاع

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٨٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٦ .

والحلف ^(١) .

والظاهر أنّ المراد التّهي عن موالاة عموم الكفّار ، وإن كان مورد التّزول خاصاً .
ثمّ لما كان الإخبار بالضّمائر والأسرار إخباراً بالمغيّبات ، الخارج عن طوق البشر ، ومتوقّفاً على
الوحي ، نبّه الله سبحانه على كون هذا الإخبار من علائم صدق النّبوة ، بقوله : ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ آيَاتِهَا
الْمُؤْمِنُونَ﴾ الدّالة على صدق محمّد في دعواه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتعدّون من زمرة أهل الفهم
والإدراك .

﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُّوكُمْ قَالُوا
آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ إِنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تنبيه المؤمنين على خطئهم في اعتقاد النّصح في اليهود ، بالغ في الرّدع عن موالاتهم
بقوله : ﴿هَا﴾ أيّها المؤمنون وتنبّهوا ﴿أَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ المشتبهون فيهم ، حيث إنكم ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ بتخيّل أنّهم
يحبّونكم ، ﴿وَوَ﴾ الحال أنّهم ﴿لَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ولا يريدون خيركم وصالح حالكم ، ﴿وَوَ﴾ أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ
بِالْكِتَابِ﴾ المنزل من الله ﴿كُلِّهِ﴾ [سواء] كان هو التّوراة والإنجيل ، أو القرآن ، وتعتقدون أنّ جميعها حقّ
، وهم لتصلّبهم في دينهم لا يؤمنون بكتابكم .

قيل : فيه توبيخ شديد بأنهم أصلب في باطلهم منكم في حقّكم .

ثمّ ذكر الله تعالى من جملة الرّوادع عن مخالطتهم شدّة نفاقهم بقوله : ﴿وَإِذَا لُفُّوكُمْ﴾ وواجهوكم
﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم نفاقاً : نحن ﴿آمَنَّا﴾ بنبّيكم وكتابكم كيما نكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وتفرّدوا منكم أظهروا
شدّة العداوة والغيط عليكم ، حتّى تبلغ الشدّة إلى أن ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ﴾ واستمسكوا بشدّيدا بالأسنان
﴿الْأَنَامِلَ﴾ ورؤوس الأصابع ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿الْغَيْظِ﴾ وشدّة الغضب تأسّفا وتحسّراً ، حيث لم يجدوا إلى
التّشقيّ سبيلاً ، كما هو فعل من اشتدّ غضبه ، وعظم تحسّره على حرمانه من مطلوبه .

قيل : إنّما حصل لهم هذا الغيط الشّديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين ، واجتماع كلمتهم ، وصالح

ذات بينهم ^(٢) .

ثمّ أمر الله نبيّه بتقريعهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، لهؤلاء الحاسدين الغائظين : ﴿مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ
وَاهْلِكُوا بسبب شدّة عداوتكم وحسدكم .

(١) تفسير الرازي ٨ : ١٩٧ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٠١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨٥ .

قيل : إنه كناية عن أنه لا وسيلة للخلاص من هذا الغيظ إلا الموت ، فمن رام التخلص منه فليتمى الموت وقيل : إنه دعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمونه ^(١) .

ثم أمره ﷺ بتهديدهم ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومطلع على جميع ما تخفونه وتكتمونه في قلوبكم من نيات السوء ، والحقد والحسد على المؤمنين ، ويجازيكم بأشد العذاب. وقيل : إنه جملة مستأنفة.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠)

ثم بين الله تعالى شدة حسدهم ، وتناهي عداوتهم للمؤمنين ، بقوله : ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ وتصل إليكم ﴿حَسَنَةً﴾ وخير من رتكم من قوة دينكم ، وضعف أعدائكم ، وظهوركم عليهم ، والغنيمة منهم ، والألفة والمحابة بينكم ، وخصب معيشتكم ، وسعة رزقكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ﴾ وترد عليكم ﴿سَيِّئَةً﴾ وبليّة من مرض أو فقر أو جرح أو قتل ﴿يَفْرَحُوا﴾ ويسرّوا ﴿بِهَا﴾ ويشتموكم منها. ثم لما كانت هذه المرتبة من العداوة والحسد موجبا للخوف منهم ، أمّن الله سبحانه المؤمنين بقوله : ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا﴾ على عداوتهم ، وامتنال أحكام دينكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ رتكم في مخالفة تكاليفه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومكرهم وحيلتهم - التي يحتالونها لأجلكم - ﴿شَيْئاً﴾ من الضرر ، فإنكم في حفظ الله الموعود للصابرين والمتقين.

قال بعض العلماء : إنّ الله تعالى إنّما خلق الخلق للعبودية كما قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٢) فمن وفى بعهدهم العبوديّة ، فالله سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهدهم الربوبيّة ، في حفظه عن الآفات والمخافات ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ^(٣) وقوله : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ^(٤) إشارة إلى أنه يوصل إليه كلّ ما يسره.

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك ، فاجتهد في اكتساب الفضائل ^(٥) .
ثم سلّى سبحانه قلوب المؤمنين بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عداوتكم من الكيد والإيذاء ﴿مُحِيطٌ﴾ علما ، ومدرك له كاملا ، فيعاقبهم عليه أشد العقاب.

(١) تفسير الرازي ٨ : ٢٠١ .

(٢) الذاريات : ٥١ / ٥٦ .

(٣) الطلاق : ٦٥ / ٢ .

(٤) الطلاق : ٦٥ / ٣ .

(٥) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٣ .

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢١) و (١٢٣)﴾

ثم أنه تعالى لما وعد الحفظ والنصرة مطلقا ، على الصبر والتقوى ، المستلزم لانتفاهما عند انتفاهما ، أتبعه بقضية احد الشاهدة عليه ، بقوله : ﴿و﴾ ذكر المؤمنين ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ يا محمد ، وحين خرجت أول النهار ﴿مِنْ﴾ عند ﴿أَهْلِكَ﴾ وزوجتك قاصدا للذهاب إلى أحد ، كي ﴿تُبَوِّئَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وتنزلهم ، أو تهيء لهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ وأماكن ينتظرون فيها للعدو ، ويقفون فيها ﴿لِلْقِتَالِ﴾ وإنما سميت تلك الأماكن بالمقاعد ؛ لأنهم كانوا يقعدون فيها منتظرين للعدو ، فإذا جاءهم قاموا للمحاربة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقال أصحابك في مشاورتك إياهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من النيات الحسنة والسيئة.

في سبب وقعة احد

عن القمي رحمه الله : عن الصادق عليه السلام قال : « سبب غزوة احد أن قريشا لما رجعت من بدر إلى مكة - وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر ؛ لأنه قتل منهم سبعون ، واصر منهم سبعون - قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، لا تدعوا نساءكم ييكن على قتلاكم ، فإن الدمة إذا خرجت أذهبت الحزن ^(١) والعداوة ل محمد ^(٢) ، فلما غزوا رسول الله صلى الله عليه وآله [يوم احد] أذنوا لنسائهم بالبكاء والتوح ، وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس ، وألفي راجل ، وأخرجوا معهم النساء ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله جمع أصحابه وحثهم على الجهاد ... » ^(٣) .

وروي أن المشركين نزلوا باحد يوم الأربعاء ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه ، ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ، ولم يدعه قط قبلها باستشارة ^(٤) ، فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم والله ، ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخل عدو علينا إلا أصابنا منه ، وكيف وأنت فينا ، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ^(٥) .

وقال سعد بن معاذ وغيره من الأوس : يا رسول الله ، ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام ، فكيف يظفرون بنا وأنت فينا ؟ ! لا حتى لا نخرج إليهم ونقاتلهم ، فمن قتل منا فهو شهيد ،

(١) زاد في المصدر : والحرقة.

(٢) زاد في المصدر : ويشمت بنا محمد وأصحابه.

(٣) تفسير القمي ١ : ١١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٥ .

(٤) في تفسير الرازي : فاستشاره.

(٥) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٥ .

ومن يحيا ممّا كان مجاهدا في سبيل الله ^(١) ، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب ^(٢) لفلّا يظنّوا أنّا خفناهم.

فقال ﷺ : « إنيّ قد رأيت في منامي بقرة ^(٣) تذبح حولي ، فأولتها خيرا ، ورأيت في ذباب ^(٤) سيفي ثلما ، فأولته هزيمة ، ورأيت كأنيّ أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم [أن] تقيموا بالمدينة وتدعوهم » .

فقال قوم من المسلمين ؛ من الذين فاتتهم بدر ، وأكرمهم الله بالشهادة يوم احد : اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتّى دخل بيته ولبس لامته ، فلما لبس ندم القوم وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه ، فقالوا له : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : « لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لأمته فيضعها حتّى يقاتل » ^(٥) .

وفي رواية القميّ رحمه الله : وخرج ﷺ مع نفر من أصحابه يتبوّأون ^(٦) موضع القتال ^(٧) .

في نقل كلام الفخر في طهارة عائشة وردّه

قال الفخر الرازي في تفسيره : يروى أنّه ﷺ غدا من منزل عائشة ، فمشى على رجله إلى احد.

وهذا قول مجاهد والواقدي ، فدلّ هذا النصّ على أن عائشة كانت أهلا للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وقال تعالى : ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ ^(٨) ، فدلّ هذا النصّ على أنّها كانت مطهّرة مبرّأة من كلّ قبيح. ألا ترى أنّ ولد نوح لما كان كافرا قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ^(٩) وكذا امرأة لوط ؟ ^(١٠) .

أقول : في كلامه خلل لا يكاد يخفى على عاقل ، فضلا عن فاضل ، فإنّ إطلاق (الأهل) على عائشة - على تقدير إرادتها منه - غير مشعر أصلا بكمال وشرف لها زائدا على شرف الانتساب إليه ﷺ ؛ كما كان هذا الشرف لزوجة نوح ولوط ، بل الإشعار فيه بإسلامها ، لوضوح أنّ الزوجة - في اللغة والعرف - أحد المصاديق الحقيقية للأهل.

ومن الواضح أنّ الله تعالى أطلق اسم الأهل على زوجة لوط ، حيث قال : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فلو لم تكن زوجته داخلية في (الأهل) لم يصحّ الاستثناء بقوله : ﴿إِلَّا أَمْرَاتَكَ﴾ ^(١١) فصحة الاستثناء دليل على شمول لفظ (الأهل) لها حقيقة ، وإخراجها منه حكما. وكذا أطلق نوح اسم الأهل على ابنه بقوله : ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي﴾ ^(١٢) مع علمه بكفره.

(١) تفسير القميّ ١ : ١١١ .

(٢) الأكلب : جمع كلب.

(٣) في تفسير الرازي : بقرا.

(٤) ذباب السيف : حدّ طرفيه.

(٥) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٥ .

(٦) في تفسير القميّ : يتبعون.

(٧) تفسير القميّ ١ : ١١١ .

(٨) النور : ٢٤ / ٢٦ .

(٩) هود : ١١ / ٤٦ .

(١٠) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٦ .

(١١) هود : ١١ / ٨١ .

(١٢) هود : ١١ / ٤٥ .

وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(١) فلا شبهة أنه مجاز في السلب بعلاقة انتفاء الآثار ، كما يقال : يا رجال ولا رجال .

وأما قوله تعالى : ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فقد قيل في تفسيره : إنَّ المراد : الطَّيِّبَاتُ من القول والكلم ، أو المبرأة من الزَّنا ، فيكون مثل قوله : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

ويؤيد ذلك أنَّ الآية^(٣) بعد آية رمي المحصنات من قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٤) ولا شبهة أنَّ أزواج الأنبياء بريئات من الزَّنا ، وإن كُنَّ كافرات ، لوضوح أنَّ هذا الفحش منهنَّ شين عليهم ، مع أنَّ البراءة من كلِّ قبيح يساق العصمة ، مع أنَّه لم يقل أحد في سائر أزواجه ﷺ ذلك .

مع أنَّه لا شبهة أنَّ الخطاب في قوله تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) لحفصة وعائشة ، وفيه دلالة واضحة على عصيانهما ، وعدم تنزههما من القبيح ، مع تواتر أنَّهما تبرَّجت بعد النبي ﷺ تبرَّج الجاهليَّة ، وخرجت على إمام زمانها . وقد ذكر ابن أبي الحديد أنَّ منشأ عداوة أبي بكر وعمر لفاطمة وعليٍّ ﷺ شدة حسد عائشة وحفصة عليهما ، وسعايتهما عليهما عند أبييهما^(٦) .

والحاصل : أنَّه لا ينبغي لذي مسكة أن يتخيَّل أنَّ عائشة كانت مبرأة من كلِّ قبيح^(٧) .

في ذكر وقعة احد

ثمَّ إنَّ الآية والروايات وإن دلَّتا على خروجه من بيت أهله أول التَّهَار ، إلَّا أنَّ في بعض

(١) هود : ١١ / ٤٦ . (٢) النور : ٢٤ / ٣ .

(٣) أي ﴿آيَةُ الطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ﴾ .

(٤) النور : ٢٤ / ٢٣ . (٥) التحريم : ٦٦ / ٤ .

(٦) أي عائشة .

(٧) راجع : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ : ١٩٢ - ١٩٩ .

(٨) واعلم أنَّ التطهير من الرِّجْس يشمل أهل الكساء الذين نزلت فيهم آية التطهير من سورة الأحزاب : ٣٣ وهم أهل البيت : النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ وليس غيرهم ، وقد روى ذلك مسلم في صحيحه ٤ : ١٨٨٣ / ٢٤٢٤ ، والحاكم في المستدرک ٣ : ١٤٦ ، وقال الفخر الرازي في تفسيره ٨ : ٨٥ إن هذه الرواية كالمُتَّفَق على صحتها بين أهل التفسير .

واعلم أنَّ النبي ﷺ أخرج أم سلمة مع جلاتها من أهل البيت فقال لها : إنك على خير ولم يقل إنك منهم ، أخرجه الترمذي في السنن ٥ : ٣٥١ / ٣٢٠٥ ، والحاكم في المستدرک ٢ : ٤١٥ . كما أنَّ السيرة العملية لبعض نساء النبي ﷺ تخرجهن عن دائرة العصمة والطهارة من الذنوب فقد قال تعالى في بعضهن : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ [التحريم : ٦٦ / ٤] والآية تدلُّ على وقوع المعصية ، لأنَّ التوبة مترتبة على المعصية ، وقال تعالى في نفس الآية : ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت عن الحق ، وقال تعالى في نفس الآية : ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ والمراد حفصة وعائشة ، كما في البخاري ٦ : ٢٧٧ / ٤٠٧ ، والكشاف ٤ : ٥٧١ . وذلك يخرج صاحبه عن حد الطهارة والعصمة من الآثام ، وعليه فإن التطهير لا يشمل نساء النبي ﷺ بل مخصوص بالخمس أهل الكساء من أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم .

الروايات أنه ﷺ خرج من المدينة يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بالشَّعب من احد يوم السبت للنَّصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة ، فمشى على رجليه ، وجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم ^(١) القدح ، إن رأى صدرا خارجا قال : تأخَّر. وكان نزوله في جانب الوادي ، وجعل ظهره عسكره إلى احد ، وأمر عبد الله بن جبير على الرِّمَّة وقال : « ادفعوا عَنَّا بالنَّبل ، حتَّى لا يأتونا من ورائنا » ، وقال ﷺ : « اثبتوا في هذا المقام ، فلن نزال غالبين ما ثبتم في مكانكم » .

ثم إنَّ الرِّسول ﷺ لما خالف [رأي] عبد الله بن أبيّ ، شقَّ عليه ذلك وقال : « أطاع الولدان وعصاني » ثم قال لأصحابه : إنَّ محمداً إنّما يظفر بعدوه بكم ، وقد وعد أصحابه أنّ أعداءه إن عاينوهم اخزموا ، فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا ، فيتبعونكم فيصير الأمر على خلاف ما قاله محمّد.

فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين ، وكان جملة عسكر المسلمين ألفا ، أو تسعمائة وخمسين ، فانهزم عبد الله بن أبيّ مع ثلاثمائة ، بقيت سبعمائة أو ستمائة وخمسين ، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال : أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم ، فقال عبد الله : لو نعلم قتالا لا تبعنكم.

وكان حيّان من الأنصار ؛ بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، جناحين من عسكر رسول الله ﷺ ، فهم الحَيَّان باتِّباع عبد الله ، فتفضّل الله عليهما وعلى المؤمنين بأن تثبتهما وقوى قلوبهما ^(٢) ، فذكر المؤمنين هذه النعمة بقوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ وتضعفا عن القتال جبنا وترجعا إلى المدينة. عن ابن عباس رضى الله عنه قال : أضمرنا أن يرجعوا ، فعزم الله لهم على الرِّشد ^(٣) .

﴿ وَاللَّهُ ﴾ بفضله عليهما وعلى المؤمنين ﴿ وَلِيُثَبِّتَهُمَا ﴾ وعاصمهما من اتِّباع تلك الخطرة ^(٤) ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ وحده دون من عداه استقلالاً واشتراكاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلْ ﴾ وليعتمد ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع أمورهم ، فإنّه حسبهم ونعم الوكيل.

فإنّ من آمن وتيقن بقدرة الله ولطفه بعباده المؤمنين ، وعونه ونصرته لهم ، لا يعرضه الفشل في الأمور ، ولا يطروه الخوف من غيره تعالى ، سيّما في الجهاد في سبيله ونصرة دينه.

ثم استشهد سبحانه على نصرته المؤمنين عند الصَّبْر والتَّقوى ، بنصرته لهم في وقعة بدر ، حيث قال تعالى تذكيرا لهم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ على أعدائكم ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ قيل : هو اسم ماء بين مكّة والمدينة ، كان لرجل اسمه بدر بن كلدّة ^(٥) ، فسَمِّي باسمه ، وقيل : سَمِّي به لصفائه [كالبدر] واستدارته، ^(٦)

(١) في النسخة : به.

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٥ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٧٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨٨.

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٩.

(٤) الخطرة : ما يخطر على القلب.

(٥) الذي في معجم البلدان ١ : ٤٢٥ : ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة ، أو بدر بن قريش بن الحارث بن يخلد.

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٩.

وقيل : هو اسم الموضع أو الوادي ^(١) .

وكانت الوقعة في السابع عشر من شهر رمضان ، سنة اثنتين من الهجرة ، وكانت الوقعة آية عظيمة ، ولذا بين الله عظمتها بقوله : ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون في تلك الوقعة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ضعفاء من حيث قلة العدد والمال والسلاح والمركوب ، ومع ذلك قهرتم خصومكم ، وظفرت على أعدائكم ، مع كثرة عددهم وسلاحهم وشوكتهم ، وفزتم بمطلوبكم بفضل الله ونصره.

ولما شاهدتم النصر الخارق للعادة في تلك الوقعة عند صبركم في نصرته الرسول وطاعتكم لله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات في هذه الوقعة أيضا ، واصبروا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بنصرته لكم فيها ، وبنعمته عليكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ كما شكرتم ما أنعم عليكم من النصر في تلك الوقعة.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين (١٢٥ و ١٢٤)

ثم وجه الله سبحانه الخطاب إلى النبي ﷺ تشريفا له ، وإيذانا بأن النصر كان ببشارته ﷺ ، وعين وقت وقوعه بقوله : ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد تبشيرا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يوم بدر ، حين أظهروا الضعف والعجز عن المقاتلة. وذلك منسوب إلى أكثر المفسرين.

وعن ابن عباس ، والواقدي ، وجماعة : أنه ﷺ حين غدا من منزل أهله للخروج إلى احد ^(٢) ، قال للمؤمنين تقوية لقلوبهم : ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ ويعنيكم للنصر والغلبة على أعدائكم ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾ ويعينكم ﴿رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حال كونهم ﴿مُنْزَلِينَ﴾ من السماء بأمره تعالى لنصرهم.

في ذكر الاختلاف في أن التبشير بامداد الملائكة كان في بدر أو احد

قيل : إن الله أنزل الملائكة يوم احد لنصرة المؤمنين ، ولما كان النصر مشروطا بالصبر والتقوى ، وهم في ذلك اليوم لم يصبروا ، ولم يتقوا ، فلم يمدوهم.

وعن مجاهد والواقدي ، قالا : حضرت الملائكة يوم احد ، ولكنهم لم يقاتلوا. ويؤيده ما روي من أن الرسول ﷺ أعطى اللواء مصعب بن عمير فقتل مصعب ، فأخذه ملك في صورة مصعب ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مصعب » فقال الملك : لست بمصعب ، فعرف الرسول ﷺ أنه ملك امد به ^(٣) .

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٩ .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢٠٩ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٢١٠ .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : كنت أرمي السهم يومئذ ، فبرده إلي رجل أبيض حسن الوجه ، وما كنت أعرفه فظننت أنه الملك (١) .

وأما القائلون بأن هذه البشارة كانت في بدر ، [فقد] جمعوا بينها وبين قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٢) بأن الله تعالى أمد الرسول ﷺ وأصحابه أولاً بألف ، ثم زاد فيهم ألفين [فصاروا ثلاثة آلاف] ، ثم زاد ألفين آخرين ، فصاروا خمسة آلاف ، فكأنه ﷺ قال لهم : « أ لن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة ؟ » فقالوا : بلى ، ثم قال : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ ... ﴾ (٣) .

ثم بلغ أصحاب بدر أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير ، ونقل أنه بلغهم أن كرز بن جابر المحاري يريد أن يمد المشركين ، فشق ذلك على المسلمين (٤) ، فبشروهم الله تعالى لطمأنة قلوبهم بقوله : ﴿ بَلَىٰ يَكْفِيكُمْ ذَلِكَ . ﴾

ثم وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما ، وتقوية لقلوبهم بقوله : ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ أيها المؤمنون على منازلة الأعداء ومناهضتهم ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ معصية الله ، ومخالفة الرسول ، ﴿ وَ ﴾ المشركون ﴿ يَأْتُوكُمْ ﴾ بخيلهم ورجلهم ﴿ مِّنْ قُوَرِهِمْ هَذَا ﴾ وساعتهم هذه ، بلا ريث وتأخير ﴿ يُمِدُّكُمْ ﴾ ويقويكم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ الذي هو بلطفه ناصركم وحافظكم حين إتيانهم ﴿ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ حال كونهم ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ معلمين (٥) أنفسهم أو حيولهم .

روي أنهم كانوا بعمائم بيض إلا جبرئيل فإنه كان بعمامة صفراء (٦) . وفي رواية : أنهم كانوا قد أعلموا (٧) في نواصي الخيل . وعن النبي ﷺ قال لأصحابه : « تسوّموا فإنّ الملائكة [قد] تسوّمّت » (٨) .

قالوا : إنّ العرب كانوا يجعلون في الحروب لأنفسهم علامة يعرفون بها . ونقل أنّ حمزة بن عبد المطلب كان يعلم بريش نعامة ، وأنّ عليّاً كان يعلم بصوفة بيضاء ، وأنّ الزبير كان يتعصّب بعصابة صفراء ، وأنّ أبا دجاجة (٩) كان يعلم بعصابة حمراء (١٠) .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(١) تفسير الرازي ٨ : ٢١١ .

(٢) الأنفال : ٨ / ٩ .

(٣) تفسير الرازي ٨ : ٢١١ .

(٤) تفسير الرازي ٨ : ٢١٢ .

(٥) أي جاعلين لها علامة مميزة .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٠ .

(٧) زاد في تفسير أبي السعود : بالعهن .

(٨) تفسير أبي السعود ٢ : ٨١ .

(٩) أبو دجاجة ، هو سماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري ، صحابي ، من الشجعان ، شهد بدر ، وثبت يوم احد ، واصيب بجراحات كثيرة ، واستشهد باليمامة سنة ١١ هـ . الأعلام / الزركلي ٣ : ١٣٨ .

(١٠) تفسير الرازي ٨ : ٢١٥ .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٦)

ثم بيّن سبحانه علّة إمداد المؤمنين ونصرتهم بالملائكة ، مع كونه تعالى قادرا عليها بلا واسطة ؛ بقوله : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ بإنزال الملائكة ، لعلّة من العلل ﴿إِلَّا﴾ لكونه ﴿بُشْرَى﴾ وسرورا ﴿لَكُمْ﴾ بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وتسكن إليه أفئدتكم من الخوف ، كما كانت السكينة لبني إسرائيل ، حيث إنّ نظر العامة إلى الأسباب ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ والغلبة لأحد على عدوّه ﴿إِلَّا﴾ وهو كائن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وحده ، لا من العدة والعدد ؛ لأنّه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في حكمه وقضائه ، لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ العالم بحقائق الأمور ، لا يفعل ما يفعل إلّا بالنظر إلى الحكمة البالغة ، والصّلاح الأتمّ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (١٢٧)

ثم أنّه تعالى بعدما بيّن علّة نصر الرّسول والمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة - الذي هو من قبيل الأسباب ، مع عدم حاجته تعالى في فعله إليها بوجه من الوجوه ؛ لأنّه المسبّب للأسباب - بيّن سبحانه وتعالى علّة أصل نصره المؤمنين على الكفّار ، بقوله : ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وينقص ﴿طَرَفًا﴾ وطائفة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر ، فإنّه قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ﴾ ويغضهم بخزيهم وقهرهم ﴿فَيُنْقَلِبُوا﴾ إلى أماكنهم ، ويرجعوا إلى منازلهم ﴿خَائِبِينَ﴾ محرومين من الظّفر ، منهزمين عن القتال. وكلمة (أو) هنا للتّنويع ، لا التّرديد.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨)

ثمّ إنّّه تعالى - لإظهار شدّة الغضب على قريش ، أو خصوص الحاضرين منهم في بدر أو احد ، ولإعذار النبي ﷺ عند أرحامه وعشيرته - سدّ باب شفاعته لهم ، بقوله : ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ مع كونك أقرب الخلق إليّ ، وأحبّهم لديّ ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ الراجع إلى هؤلاء الكفّار ﴿شَيْءٌ﴾ من الدّخالة والشفاعة فضلا عن غيرك ، بل الأمر كلّهُ لله المالك القاهر.

فإذن يتعامل معهم بأحد هذين الأمرين ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن يتوبوا ويسلموا ، ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ بالقتل والأسر والدّل والفقر والمرض في الدّنيا ، وبالنّار والرّقوم والضّريع في الآخرة ، إن أقاموا على الكفر ، وأصرّوا على الضّلال. وليس لأحد الاعتراض على الله في تعذيبهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ على رسوله وعلى المؤمنين ، والظلم لكونه أشدّ القبائح ، موجب لاستحقاق أشدّ العذاب.

في ذكر ما أصاب النبي ﷺ في أحد

روي أن عتبة بن أبي وقاص شج النبي ﷺ في أحد ، وكسر رباعيته ^(١) ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، وسالم مولى حذيفة يغسل الدم عن وجهه ، وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم » ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت ^(٢) .

وروي أنه دعا على عتبة بأن لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرا ، فمات كافرا قبل أن يحول الحول ^(٣) .

وقيل : إنه أراد أن يدعو عليهم ، فنهاه الله تعالى لعلمه بأن منهم من يؤمن ^(٤) .

وفي رواية : أنه ﷺ كان يمسح الدم عن وجهه ويقول : « اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون » ^(٥) . وعن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقواما ، فقال : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن حارث بن هشام ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية : ﴿ **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم ^(٦) .

أقول : يعلم حال ابن عمر من تحسينه إسلام أبي سفيان المعروف بين الفريقين بالفسق والتفاق ، ولعل مقصوده أن إسلامه كان أحسن من إسلام نفسه .

وقيل : إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال : « لأمثلنّ منهم بثلاثين » فنزلت . وقيل : إنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره ، والذين انهزموا ، فمنعه الله من ذلك ، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه ^(٧) .

ولعل حكمة المنع مع كونهم مستحقين له ، تأليف قلوبهم ، وازدياد شوكة الإسلام بظاهر إسلامهم . وقيل : إن (أو) في قوله : ﴿ **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ بمعنى إلا أن ، والمراد : أنه ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم ^(٨) .

وعن الباقر عليه السلام أنه قرئ عنده ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ قال : « بلى والله ، إن له من الأمر شيئا وشيئا ، وليس حيث ذهبت ، ولكن اخبرك : أن الله تعالى لما أخبر نبيه ﷺ أن يظهر ولاية علي ، فكفر في عداوة قومه له ؛ في ما فضله الله به عليهم في جميع خصاله ، وحسدهم له عليها ، ضاق عن ذلك ، فأخبر الله أنه ليس له من هذا الأمر شيء ، إنما الأمر فيه إلى الله أن يصير عليا وصيه وولي الأمر بعده .

(١) الرباعية : السنن بين الثنية والناصب ، وهن أربع ، رباعيتان في الفك الأعلى ، ورباعيتان في الفك الأسفل .

(٢) تفسير الرازي ٨ : ٢١٧ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٠ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٨٣١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٣ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٨٣١ .

(٦) تفسير الرازي ٨ : ٢١٧ .

(٧) تفسير الرازي ٨ : ٢١٧ .

(٨) تفسير الرازي ٨ : ٢١٩ .

فهذا عنى الله ، وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوّض الله إليه أن جعل ما أحلّ فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ؟ ! » ^(١) .

﴿وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّٰهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾

ثمّ أنّه [تعالى] - لما ذكر أنّ أمر المغفرة والتّعذيب إليه ، ولا دخل لغيره فيه - ذكر أنّ جميع امور الموجودات راجعة إليه ، بقوله : ﴿وَلِلّٰهِ﴾ بالملكية التامة ؛ بلا مشارك ولا مضادّ ﴿مَا﴾ وجد ﴿فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا﴾ خلق ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فامور جميع الموجودات - إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وتصرفا وترتيبا - راجعة إليه ، لا مدخل لغيره فيها ، فهو سبحانه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ، بحسب الحكمة والتفضّل ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذّبه ، بحسب العدل والاستحقاق .

وإنّما قدّم المغفرة على التعذيب ، للدلالة على غلبة جانب الرحمة على الغضب ، وللاشعار بأنّ المغفرة أصل في الغرض من الخلقة ، والتّعذيب مقصود بالعرض .

ولذا ختم الآية بتوصيف ذاته المقدّسة - بعد ذكر التعذيب - بالمغفرة والرحمة ، بقوله : ﴿وَاللّٰهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعباد . وتقدّم المغفرة على الرحمة ، لتقدّم الأمن من العذاب على الوعد بالرحمة والثواب .

قيل : إنّ الآية صريحة في نفي وجوب التعذيب ^(٢) ، لتعليقه على مشيئته [تعالى] . وفيه : إنّ مشيئته [تعالى] لا تكون إلّا عن حكمة بالغة ، ومعنى الوجوب : عدم إمكان تخلفه عن مقتضاها ، لا الوجوب التكليفي ، كما هو واضح على ذي مسكة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

* وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ (١٣٠) و (١٣٢)﴾

في حرمة الربا

ثمّ أنّه تعالى بعد ما أناط السّلامة من كيد العدوّ وضرّه بالصّبر والتّقوى ، وهدّد الكفّار بأنّه يعدّهم في الآخرة إن لم يتوبوا ويسلموا ، نبّه على إناطة السّلامة من عذاب النّار في الآخرة باجتناّب أكل الرّبا والتّقوى ، وأنّ للمؤمنين معصية تشارك الكفر في العقوبة ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٣٧ / ٧٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ١٧٩ .

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ولا تأخذوا **الرِّبَا** حال كونه **﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾** ورياءات كثيرة متكررة. قيل : كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، ولم يكن المديون واجدا لذلك المال ، قال : زدي في المال حتى أزيدك في الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حلّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ^(١) .

وتقييد الربا بهذه الحال ليست لتقييد النهي بها ، حتى تنتفي الحرمة بانتفائها ، بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة ، مع زيادة التشنيع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما نهى عنه ، ومنه الربا **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** بالتقوى ، وترك أكل الربا **﴿تُقْلِدُونَ﴾** وتفوزون بأهم المقاصد وتنالون خير الدارين **﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ﴾** وهيئت في الآخرة **﴿لِلْكَافِرِينَ﴾** ولا تشاركوهم بأكل الربا في التعذيب بنارهم.

ثم أكد الأمر بالتقوى بالأمر بالطاعة بقوله : **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** في ما أمركم به من الجهاد وسائر العبادات ، وما نهىكم عنه من أخذ الربا الذي يماثل الكفر ، وغيره من المحرمات **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** بالطاعة **﴿تُرْحَمُونَ﴾** فإنها موجبة لرجاء الرحمة.

في دلالة الآية على غاية التغليظ في حرمة الربا

قيل : إنّ في الآيات من المبالغة في التهديد على الربا ما لا يخفى على الفطن حيث أتى سبحانه ب (لعل) في فلاح من أتقاه واجتنبه ؛ لأنّ تعليق إمكان الفلاح ورجائه بالاجتناب منه ، يستلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه ويتقوه مع إيمانهم ، ثم أوعده عليه بالنار التي أعدت للكافرين ، مع كونهم مؤمنين. فما أعظمها من معصية توجب عقاب الكفار للمؤمنين ، وما أشدّه من تغليظ عليه ! ثم أيدّ التغليظ بالأمر بإطاعة الله ورسوله ؛ تعريضا بأنّ أكل الربا منهمك في المعصية ولا طاعة له.

ثم علّق رجاء المؤمنين رحمة الله بالطاعة ؛ إشعارا بأنّه لا رجاء للرحمة مع هذا النوع من العصيان ، فهو يوجب اليأس من رحمته للمؤمنين لانتفائها لهم معه. فانظر كيف درّج التغليظ في التهديد ، حتى ألحقه بالكفار في الجزاء والعقاب ، انتهى ^(٢) .

قال رسول الله ﷺ : « لعن الله آكل الربا ، وموكله ، وشاهده ، وكاتبه ، والحلّل » ^(٣) .

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ﴾

(١) تفسير الرازي ٩ : ٢ ، تفسير روح البيان ٢ : ٩٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٩٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٩٣ .

لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

ثم بعد أمره سبحانه بالاجتناب عن الرِّبَا والتَّحَرُّز عن النَّار ، أمر بالمسارعة إلى العبادات الموجبة للمغفرة والدَّخول في الجنَّة ، بقوله : ﴿وَسَارِعُوا﴾ وبادروا ﴿إِلَى﴾ تحصيل ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ، بالمبادرة إلى موجباتها من الإسلام والتَّوبَة والإخلاص ، وأداء الواجبات وترك المحرَّمات. وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « إلى أداء الفرائض » (١).

﴿و﴾ إلى ﴿جَنَّةٍ﴾ وسِعة ﴿عَرْضُهَا﴾ ووسعتها ﴿السَّمَاوَاتُ﴾ السَّبع ﴿وَالْأَرْضُ﴾ قيل : ذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسَّعة على طريق التَّمثيل ، فإنَّ العرض في العادة يكون أدنى وأقصر من الطَّول (٢).

أقول : هذا الوجه مبني على إرادة العرض المقابل للطَّول ، لا إرادة مطلق السَّعة منه. عن العياشي : عن الصادق عليه السلام قال : « إذا وضعوهما (٣) » ، وبسط يديه إحداها مع الأخرى (٤).

وعن ابن عباس : كسبع سماوات ، وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض (٥). روي أن رسول هرقل (٦) سأل النبي صلى الله عليه وآله وقال : إنك تدعو إلى جنَّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النَّار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : « سبحانه الله ! فأين اللَّيْل إذا جاء النَّهار ؟ » (٧). قال الفخر الرازي في تفسيره : والمعنى ، والله أعلم : أنه إذا دار الفلك حصل النَّهار في جانب [من العالم] ، واللَّيْل في ضد ذلك الجانب (٨).

وقال الطبرسي رحمه الله : هذه معارضة فيها إسقاط المسألة ؛ لأنَّ القادر على أن يذهب اللَّيْل حيث يشاء ، قادر على أن يخلق النَّار حيث يشاء (٩). وقال الفيض رحمه الله : والسَّتر فيه أنَّ إحدى الدَّارين لكلِّ إنسان ، إمَّا تكون مكان الأخرى بدلا عنها ، كما في اللَّيْل والنَّهار (١٠).

ولعلَّ المراد أنَّه ليس بين العالمين في الآخرة تزاحم كتزاحم الأجسام الكثيفة ، فكلٌّ مشغول بعالمه ، ولا يكون له عالم آخر ، وفي الآية دلالة على وجود الجنَّة فعلا.

ثم وصف سبحانه تلك الجنَّة الوسيعة بأنَّها ﴿أَعْدَتْ﴾ وخلقت مهيةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للتنبيه بأنَّه لا حظَّ للعصاة فيها ، فمن رجاها بغير التَّقوى فهو مغرور.

(١) مجمع البيان ٢ : ٨٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٩٤.

(٣) في المصدر : وضعوها كذا.

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٣٩ / ٧٨١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١.

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٥.

(٦) اسم ملك الروم.

(٧) تفسير الرازي ٩ : ٦.

(٩) مجمع البيان ٢ : ٨٣٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١.

(١٠) تفسير الصافي ١ : ٣٥١.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « فإتكم لن تنالوها إلا بالتقوى » ^(١) .

﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

ثم وصف المتقين بصفات جميلة هي أعظم وسائل نيل المغفرة والجنة ، بقوله : ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ﴾ ما يقدرون على إنفاقه ﴿فِي﴾ حالتي ﴿السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ وفي وقت سرورهم بالإففاق ؛ كوقت الغنى والسعة ، وفي وقت كراحتهم له ، كوقت الفقر والضيق. والمراد أنهم ينفقون في جميع الأحوال ؛ لأنّ الإنسان لا يخلو عن إحدى الحالتين.

﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ الكاتمين له على امتلائهم منه ، المسكين عليه ، الكافين عن إمضائه ، مع القدرة عليه. قيل : الغيظ توقّد حرارة القلب من الغضب ^(٢) .

عن النبي صلى الله عليه وآله : « من كظم غيظا ، وهو قادر على إنفاذه ، ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » ^(٣) . وعن الصادق عليه السلام قال : « من كظم غيظا ، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه ^(٤) رضاه » ^(٥) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « من كظم غيظا ، وهو يستطيع أن ينفذه ، زوج الله من الحور العين حيث يشاء » ^(٦) .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بحسن صبر وعزاء ، ومن جرعة غيظ كظمها » ^(٧) .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ليس الشّدِيد بالصّرّة ، لكنّه الذي يملك نفسه عند الغضب » ^(٨) .
﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ التّاركين عقوبة من استحقّها منهم ويحتمل كون ذكر الوصفين بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وآله على من فرّ من الرّحف يوم احد ، فندب إلى كظم الغيظ والعفو عنهم ، أو بسبب غضبه صلى الله عليه وآله حين مثّلوا بحمزة رضى الله عنه وقال : « لأمثّلنّ بهم » وكان عفوّه تركه للمثلة.
عن النبي صلى الله عليه وآله : « أنّ هؤلاء في امتي قليل إلّا من عصمه الله ، وقد كانوا كثيرا في الامم التي مضت » ^(٩) .

عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : عليكم بالعفو ، [فإنّ العفو] لا يزيد العبد إلّا عزّا ، فتعافوا يعزّكم الله » ^(١٠) .

(١) الخصال : ٦٣٣ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٩٤ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٧ .

(٤) زاد في الكافي : يوم القيامة .

(٥) الكافي ٢ : ٩٠ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١ .

(٦ و ٧) . تفسير الرازي ٩ : ٧ .

(٨) تفسير الرازي ٩ : ٨ .

(٩) تفسير روح البيان ٢ : ٩٥ .

(١٠) الكافي ٢ : ٨٨ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١ .

وروي أنه ينادي مناد يوم القيامة : أين الذين كانت أجورهم على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا ^(١) .
وإنما ذكر سبحانه الإنفاق بصيغة المضارع لكونه مما يتجدد ويحدث ، والكظم والعفو بصيغة الفاعل
لكونهما من الملكات المستمرة.

ثم أشار سبحانه إلى علة تخصيصه الجنة بالمتقين وتهيئتها نزولا لهم ، بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين تمت فضائلهم ، وعمت فواضلهم ، فاستحقوا بحبه إيتاهم هذا التشريف والتكريم ،
وبإحسانهم إلى الغير ، بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو والإحسان الجسيم من الله.
وقيل : إن الصفات الثلاث لما كانت مشتركة في كونها إحسانا إلى الغير ، خص المتصفين بها بثواب
أعظم من الجنة ونعيمها ، وهو حب الله لهم.

وقيل : إن الآية جامعة لجميع جهات الإحسان إلى الغير ، فإنه إما يكون بإيصال النفع إليه ، أو
بدفع الضرر عنه أما إيصال النفع إليه ، فهو المراد بقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فإنه
يدخل فيه إنفاق العلم بتعليم الجاهلين ، وهداية الضالين ، وإنفاق القوى بالسعي في قضاء الحوائج ، وإنفاق
المال في وجوه الخيرات وأما دفع الضرر عن الغير ، فهو إما في الدنيا ، وهو أن لا يشتغل بإساءة في مقابل
إساءة ، وإما في الآخرة ، فهو أن يبرئ ذمته من التبعات والمطالبات.

روى بعض العامة أن خادما كان قائما على رأس الحسن بن علي عليه السلام ، وهو مع أضيفه في
المائدة ، فأخرفت قصعة كانت في يد الخادم ، فسقط منها شيء على الحسن فقال : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال عليه السلام : « قد عفوت عنك » فقال : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ . قال عليه السلام :
« أنت حرّ لوجه الله ، وقد زوجتك فلانة فتاتي ، وعلي ما يصلحكما » ^(٢) .

وعن السجاد عليه السلام من طرق أصحابنا : أن جارية له صبت على يديه الماء ، فسقط الإبريق من
يدها فشجّه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال عليه السلام لها : « كظمت غيظي
» . فقالت : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال عليه السلام : « عفا الله عنك » . فقالت : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾ . قال عليه السلام : « ارجعي ، أنت حرّة لوجه الله » ^(٣) .

أقول : يستفاد من الروایتين أنّ التذليل لبيان صفة رابعة ؛ وهي الإحسان إلى المسيء ببذل المال ،
وإيصال النفع إليه ، أو دفع الضرر عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٩٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٩٥ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٨٣٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥١ .

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد بيان اهتمامهم بالطَّاعة ، وصفهم بالمسارعة إلى التَّوبة عند الزَّلة والتَّقصير في الطَّاعة ، بقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ وارتكبوا فعلة ﴿فَاحِشَةً﴾ ومعصية شديدة القباحة ، كالزَّنا ، وقتل النَّفس ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب الصَّغائر من الذُّنوب ، كالنَّظر إلى الأجنبية وأمثاله ، أو بالتَّقصير في الطَّاعة.

وقيل : إنَّ المراد بالفاحشة : الظَّلم على الغير ^(١) ؛ كالغيبة والبهتان ، ومن الظَّلم على النَّفس : الذُّنوب التي لا تضرَّ بالغير ، كشرب الخمر وأضرابه.

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ والتفتوا إلى عظمتهم وعظيم حقِّه الموجبين للحياء منه ، أو إلى وعيده وسخطه المورثين للخشية.

وقيل : إنَّ المراد : ذكر الله بالتَّناء والتَّعظيم ، فإنَّ من موجبات كمال الدَّعاء وقربه إلى الإجابة ، التَّناء على الله قبله.

﴿فَاسْتَغْفِرُوا﴾ وطلبوا السَّتر ﴿لِلذُّنُوبِ﴾ بلا تأخير وتسويف ، وتابوا توبة خالصة ، ناشئة عن حقيقة النَّدَم الملازم للعزم على التَّرك في المستقبل.

ثمَّ حثَّ سبحانه على الاستغفار والإنابة إليه بقوله : ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ﴾ ويتجاوز عنها ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإنَّه يستحيل غفرانها من غيره ، فلا مفرَّج للمذنبين إلَّا فضله وكرمه. وفيه بشارة لهم بوصف ذاته بسعة الرَّحمة ، وقبول التَّوبة ، وقرب المغفرة.

عن ابن عبَّاس رضى الله عنه : أنَّ هذه الآية نزلت في رجلين أنصاري وثقفي ، والرَّسول ﷺ [كان قد] آخى بينهما ، وكانا لا يفترقان في أحوالهما ، فخرج الثَّقفي مع الرَّسول ﷺ بالقرعة في السَّفر ، وخلف الأنصاري على أهله ليتعاهدهم ، فكان يفعل ذلك ، ثمَّ قام إلى امرأته ليقبِّلها ، فوضعت كفَّها على وجهها فندم الرَّجل ، فلمَّا وافى الثَّقفي مع الرَّسول ﷺ لم ير الأنصاري ، وكان قد هام في الجبال للتَّوبة ، فلمَّا عرف الرَّسول ﷺ سكت حتَّى نزلت ^(٢) .

وقيل : إنَّ نيهان ^(٣) التَّمار أَّتته امرأة حسناء تطلب منه تمرا ، فقال لها : هذا التَّمر ليس بجيِّد ، وفي البيت تمر أجود منه ، فذهب بها إلى بيته فضمَّها إلى نفسه وقبَّلها ، فقالت له : اتَّق الله ، فتركها وندم على ذلك. وأتى [الرَّسول] ﷺ وذكر له ذلك ، فنزلت ^(٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٦ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٩ .

(٣) في النسخة : نيهان ، راجع : اسد الغابة ٥ : ١٣ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٦ .

في ذكر توبة الشاب النبّاش

وروي أنّ معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ باكياً فسلم ، فردّ عليه وقال : « ما يبكيك يا معاذ ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنّ بالباب شاباً طريّ الجسد ، نقيّ اللون ، حسن الصورة ، يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها ، يريد الدّخول عليك ، فقال النبيّ ﷺ : « أدخل عليّ الشاب يا معاذ » فأدخله عليه فسلم ، فردّ عليه ثمّ قال : « ما يبكيك يا شاب ؟ » . قال : كيف لا أبكي ، وقد ركبت ذنوباً إن أخذني الله عجزت ببعضها أدخلني نار جهنّم ! ولا أراي إلا سيأخذني بها ، ولا يغفر لي أبداً .

فقال رسول الله ﷺ : « هل أشركت بالله شيئاً ؟ » ، قال : أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئاً ، قال : « أقتلت النفس التي حرّم الله ؟ » . قال : لا . فقال النبيّ ﷺ : « يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرّواسي » . قال الشاب : فإنّها أعظم من الجبال الرّواسي .

فقال النبيّ ﷺ : « يغفر الله [لك] ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السّبع ، وبحارها ، ورمالها ، وأشجارها ، وما فيها من الخلق » . قال الشاب : فإنّها أعظم من الأرضين السّبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق .

فقال النبيّ ﷺ : « يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السّماوات ونجومها ، ومثل العرش والكرسي » . قال : فإنّها أعظم من ذلك .

قال : فنظر إليه النبيّ ﷺ كهيفة الغضبان ، ثمّ قال : « ويحك يا شاب ، ذنوبك أعظم أم ربّك ؟ » ، فخرّ الشابّ لوجهه وهو يقول : سبحان ربّي ، ما من شيء أعظم من ربّي ، ربّي أعظم - يا نبيّ الله - من كلّ عظيم [فقال النبيّ ﷺ : « فهل يغفر الذّنب العظيم إلاّ الربّ العظيم » قال الشاب : لا والله يا رسول الله . ثمّ سكت الشاب] .

فقال النبيّ ﷺ : « ويحك يا شاب ، ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك ؟ » . قال : بلى أخبرك : إنّني كنت أنبش القبور سبع سنين ، أخرج الأموات وأنزع الأكفان ، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار ، فلمّا حملت إلى قبرها ودفنت ، وانصرف عنها أهلها ، وجنّ عليها اللّيل ، أتيت قبرها فنبشتها ، ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها ، وتركته مجردة على شفير قبرها ، ومضيت منصرفاً ، فأتى^(١) الشّيطان فأقبل يزنيّها لي ويقول : أما ترى بطنها وبياضها ؟ أما ترى وركيها^(٢) ، فلم يزل يقول لي هذا حتّى رجعت [إليها] ولم أملك نفسي حتّى جامعته وتركته مكافها ، فإذا أنا بصوت من ورائي

(١) في أمالي الصدوق : فأتاني .

(٢) الورك : ما فوق الفخذ .

يقول : يا شاب ، ويل لك من ديان يوم الدين يوم يقضيني وإياك ^(١) ، تركتني عريانة في عساكر الموتى ، ونزعتني من حضرتي ، وسلبتني إهابي ^(٢) ، وتركنتني أقوم جنبه إلى حسابي ، فويل لشبابك من النار . فما أظن أيّ أشمّ ريح الجحّة أبدا ، فما ترى يا رسول الله ؟

فقال النبي : « تنح عني يا فاسق ، إنّي أخاف أن احترق بنارك ، فما أقربك من النار ! » ، ثم لم يزل يقول ويشير إليه حتّى أمعن من بين يديه فذهب .

فأتى المدينة فتزوّد منها ، ثم أتى بعض جبالها فتعبّد فيها ولبس مسحا ^(٣) ، وغلّ يديه جميعا إلى عنقه ونادى : يا ربّ ، هذا عبدك يهلول بين يديك مغلول ، يا ربّ أنت الذي تعرفني وزلّ متي ما تعلم سيّدي ، يا ربّ إنّي أصبحت من النّادمين ، وأتيت نبيّك تائباً فطرديني وزادني خوفاً ، فأسألك باسمك وجلالك وعظم سلطانتك أن لا تحيّب رجائي سيّدي ، ولا تبطل دعائي ، ولا تقتطبي من رحمتك . فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة ، تبكي له السباع والوحوش .

فلما تمت له أربعون يوماً وليلة ، رفع يديه إلى السّماء وقال : اللهمّ ما فعلت في حاجتي ؟ إن كنت استجبت دعائي ، وغفرت خطيئتي ، فأوح إلى نبيّك ، وإن لم تستجب دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي ، فعجلّ بنار تحرقني ، أو عقوبة في الدّنيا تهلكني ، وخلّصني من فضيحة يوم القيامة .

فأنزل الله تعالى على نبيّه **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾** يعني الزّنا **﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾** يعني بارتكاب ذنب أعظم من الزّنا ، وهو نبش القبور ، وأخذ الأكفان **﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾** يقول : خافوا الله فعجلّوا التّوبة **﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾** يقول الله : أتاك عبدي يا محمّد تائباً فطرده ، فأين يذهب ، وإلى من يقصد ، ومن يسأل أن يغفر له ذنبه غيري ؟ ثمّ قال تعالى : **﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾** يقول : لم يقيموا على الزّنا ، ونبش القبور ، وأخذ الأكفان .

إلى أن قال : ولما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، خرج وهو يتلوها ويتبسّم ، فقال لأصحابه : « من يدلّني على ذلك الشّباب التّائب ؟ » . فقال معاذ : يا رسول الله ، بلغنا أنّه في موضع كذا وكذا ، فمضى رسول الله ﷺ مع أصحابه ، حتّى انتهى إلى ذلك الجبل ، فصعدوا إليه يطلبون الشّاب ، فإذا هم بالشّاب قائم بين صخرتين مغلوله يده إلى عنقه ، قد اسودّ وجهه ، وتساقطت أشجار عينيه من البكاء ، وهو يقول : سيّدي قد أحسنت خلقي ، وأحسنّت صورتي ، وليت شعري ما ذا تريد بي ، أيّ النار تحرقني ، أم في جوارك تسكنني ؟ اللهمّ إنّك قد أكثرت الإحسان إليّ وأنعمت عليّ ، فليت شعري

(١) في أمالي الصدوق : يقفني وإياك كما .

(٢) في أمالي الصدوق : أكفاني .

(٣) المسح : هو كساء من شعر يلبسه الراهب .

ماذا يكون آخر أمري ، إلى الجنة ترقي ، أم إلى النار تسوقي ، اللهم إنَّ خطيئتي أعظم من السماوات والأرض ، ومن كرسيك الواسع ، وعرشك العظيم ، فليت شعري تغفر خطيئتي ، أم تفضحني بها يوم القيامة.

فلم يزل يقول نحو هذا [وهو يبكي] ويخثو التراب على رأسه ، وقد أحاطت به السباع ، وصفت فوقه الطير ، وهم ييكون لبكائه ، فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه من عنقه ، ونفض التراب عن رأسه ، وقال : « يا بهلول ، أبشر فانك عتيق الله من النار » . ثم قال لأصحابه : « هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول » ، ثم تلا عليه ما أنزل الله عز وجل فيه ، وبشّره بالجنة ^(١) .

عن البرقي عن الصادق عليه السلام قال : « لما نزلت هذه الآية صعد إبليس جبلا ^(٢) ، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته ، فاجتمعوا إليه فقالوا : يا سيدنا لماذا دعوتنا ؟ قال : نزلت هذه الآية ، فمن لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا وكذا ، فقال : لست لها ، فقام آخر فقال مثل ذلك ، فقال : لست لها ، فقال الوسواس الخناس : أنا لها ، فقال : بماذا ؟ قال : أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة ، فإذا وقعوا في الخطيئة أنسيتمهم الاستغفار ، فقال : أنت لها ، فوكل بها إلى يوم القيامة » ^(٣) .

وعن ابن مسعود : قال المؤمنون للنبي ﷺ : كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا ، فكان أحدهم إذا أذنب ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره : اجدع أنفك ، افعل كذا ، فأنزل الله هذه الآية ويبيّن أنهم أكرم على الله منهم ؛ حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار ^(٤) .

ثم أكد الله سرعة المؤمنين إلى الاستغفار ، وعزمهم على عدم العود في المعصية ، بقوله : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يديموا ﴿عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ من الذنب غير مستغفرين.

عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام قال : « الإصرار : أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ، ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك الإصرار » ^(٥) .

وعن النبي ﷺ : « ما أصرّ من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة » ^(٦) .
وعن الصادق عليه السلام قال : « والله ، ما خرج عبد من ذنب بإصرار ، وما خرج عبد من ذنب إلا بإقرار » ^(٧) .

وعنه عليه السلام : « لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » ^(٨) .
ثم قيّد سبحانه قبح الإصرار بقوله : ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ موضوع المعصية وقبحه وحرمة ؛ لأنّ الجهل -

(١) أمالي الصدوق : ٩٧ / ٧٦ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٥٢ . وراجع : اسد الغابة ١ : ٢١٠ ترجمة بهلول بن ذؤيب .

(٢) زاد في الأمالي : بمكة يقال له ثور .

(٣) أمالي الصدوق : ٥٥١ / ٧٣٦ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٥٢ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٩ .

(٥) الكافي ٢ : ٢١٩ / ١ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٥٢ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٨٧ .

(٧) الكافي ٢ : ٣١٢ / ٤ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٥٢ .

(٨) الكافي ٢ : ٢١٩ / ١ ، تفسير الصافي : ١ : ٣٥٢ .

بالموضوع مطلقا ، وبالحكم إذا كان عن قصور - عذر ، ومرفوع في الشريعة ، بخلاف ما إذا كان الجهل بالحكم عن التقصير في التعلم ، فإنّ الجاهل المقصّر بمنزلة العامة إجماعا .

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٣٦)

ثمّ أكّد سبحانه تخصيص الجنة بالمتقين الواحدين للصفات الحميدة ، المستلزم لتخصيص المغفرة لهم ، بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المتقون المتصفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ وثوابهم على التقوى والاتّصاف بها ، أولا : ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الرّؤوف بهم ، ﴿وَوَجَنَّاتٌ﴾ ثانيا : ﴿جَنَّاتٌ﴾ عديدة كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدا ، لا تنقضي ساعاتها ، ولا تمضي لذاتها . وإنّما قدّم المغفرة ، لأنّها دفع الضرر المقدّم على جلب النفع .

ثمّ مدح سبحانه ما أعدّ لهم من الجزاء لزيادة التّغيب إليه ، بقوله : ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بمروضة الله ، المبالغين في طاعته . وفي التّعبير عن تفضّله بالأجر ، دلالة على أنّه بالاستحقاق واللياقة .

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكْذِبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٧) و (١٣٨)

ثمّ حثّ الله عباده على طاعته وطاعة رسوله ، ورغبهم في تربية نفوسهم وجهاد أعدائهم ، بتذكيرهم أحوال العصاة من الامم الماضية بقوله : ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت في الامم الّذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في القرون الخالية ﴿سُنَنٌ﴾ ومعاملات من الله ، ووقائع عظيمة ، من الخسف ، والغرق ، والإهلاك بالصّيحة ، والصّاعقة ، والرّجفة ، لمخالفتهم الأنبياء والرّسل حرصا على الدّنيا ، واتّباعا للهوى ، وطلباً للدّات ، وانغمارا في الشّهوات ، وحفظا للرئاسات .

وقيل : إنّ المراد من السّنن السيرة المستقيمة الجارية فيهم ، من إهلاك عصاتهم وطمعهم بعذاب الاستئصال .

ثمّ لم يبق منهم أثر ، وبقي عليهم اللّعن والعذاب الدّائم المستقرّ ، فإنّ أردتم الاطلاع على سوء حالهم ووخامة مآلهم ﴿فَسِيرُوا﴾ وسيحوا ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ لتعرفوا أحوالهم بمشاهدة آثارهم ، فإنّ أثر المشاهدة أقوى في القلب من أثر السّماع .

وقيل : إنّ المراد المسافرة والمشّي بالأقدام ، بل المراد تتبّع ما يوجب العلم بوقائعهم ،

وتحصيل اليقين بفجائعتهم ، ولو بسير الكتب .

﴿فَانظُرُوا﴾ فيها حتى تعلموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل ، المعارضين للحق وأوليائه . عن الصادق عليه السلام : « انظروا في القرآن » (١) .

ولعله تعالى أشار إلى هذا المعنى بقوله : ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ﴾ وإيضاح لسوء عاقبة الامم الماضية ، وحنة قاطعة للعدو ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ﴿وَهُدًى﴾ ورشدا إلى الصواب ، ودلالة إلى الحق ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ زاجرة عن الضلال ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة ، حيث إنهم المنتفعون به ، المستضيئون بنوره .

ثم إنه قيل : إن الآيتين مقدمة للرجوع إلى قضية احد ، حيث إنه تعالى بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح ، وترتيب مقدمات الفوز والفلاح ، ذكر المؤمنين أحوال القرون الماضية ، ونبههم بأن أهل الباطل وإن كانت لهم الصولة في اليد ، ولكن صار مآل أمرهم إلى الضعف والخزي والهلاك ، وأهل الحق بعد الضعف صارت دولتهم غالبة ، وكلمتهم عالية .

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ

مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٣٩) و (١٤٠)﴾

ثم نهاهم عن الضعف والحن في قتال أهل الباطل بقوله : ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا في جهاد المشركين ، لما ترون من صولتهم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لما أصابكم من القتل والجرح في قتالهم ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ المستولون عليهم بالمآل ، وهم مقهورون لكم في العاقبة حسب ما شاهدتم في أحوال أسلافهم ، وهذه البشارة من الله كافية لقوة قلوبكم ، وسرور خاطركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما يعدكم ويشركم من النصر والغلبة عليهم ، حيث إن من لوازم الإيمان الثقة بالله ، وتصديق وعده ، والتوكل عليه ، وعدم المبالاة بأعدائه .

ثم سلى سبحانه قلوبهم بقوله : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ﴾ ويصحبكم منهم ﴿قَرْحٌ﴾ وجرح ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ المشركين وأصاحبكم منكم ﴿قَرْحٌ﴾ وجرح ﴿مِثْلُهُ﴾ ببدر ، ولم يضعف ذلك قلوبهم ، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، بل زاد ذلك في جدتهم فيه .

قيل : قتل المسلمون من المشركين ببدر سبعين ، وأسروا سبعين ، وقتل المشركون من المسلمين باحد سبعين ، وأسروا سبعين (٢) .

(١) الكافي ٨ : ٢٤٩ / ٣٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٩٩ .

وحاصل المعنى : إن نالوا منكم يوم احد ، فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر مثل ما نالوا ، ثم لم تضعف قلوبهم ، مع أنكم أولى بأن لا تضعفوا ؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون.

وقيل : إنَّ المراد : إن نال المشركون في احد منكم آخر النهار ، فقد نلتهم منهم أول النهار ، فقتل من المشركين في احد أولا نيف وعشرون رجلا ، وقتل صاحب لوائهم طلحة بن أبي طلحة ، وعقرت عامة خيولهم بالنبل ، وكانت الهزيمة عليهم أول النهار.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ والوقائع الجارية في الامم الماضية والأقوام الآتية من الصّولة والجولة والقاهرة والمقهورة امور ﴿نُداوِلُهَا﴾ ونصرَفُها ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ من الأولين والآخرين ، ونجعل الغلبة تارة لطائفة ، واخرى لأخرى.

فإنه لو كانت المحنة والشدة على الكفار في جميع الأوقات ، والغلبة والفتح والسلامة للمؤمنين في جميع الأوقات ، لحصل العلم الضّروري والاضطراري لجميع الناس بأنّ الإيمان حق ، وما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب.

فلهذا يسلط الله المحنة على أهل الإيمان تارة ، وعلى أهل الكفر اخرى ، لتكون الشبهات باقية ، والمكلف - بالنظر في الدلائل ، بالاجتهاد الصائب - يدفعها حتى يعظم ثوابه.

ثم بين سبحانه أنّ غلبة الكفار على المؤمنين - لهذا الوجه ولغيره - من الحكم الخفية ، والمصالح المكنونة ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واخلصوا إيمانهم ، وثبتوا عليه ، ويميّزهم بين الناس من غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ لأن الله ويختار طائفة ﴿مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ في سبيل الله ، مقتولين في ترويج دينه ، وإعلاء كلمته ، وهم الذين أكرمهم الله في احد بالشهادة ، ونالوا بهذه الكرامة درجة يغبطهم بها الأولون والآخرين غير البدرين والطفين.

ثم أنه تعالى - لتقرير أنّ غلبة المشركين لم تكن من التفضّل عليهم واللطف بهم ، بل كانت لابتلاء المؤمنين عامة ، ولتكريم طائفة منهم خاصة - أعلن بالغضب على المشركين بقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم.

وإنما عدل سبحانه عن التعبير ب (المشركين) إلى التعبير ب (الظالمين) ، للإشارة إلى علّة الغضب وهو الظلم على أنفسهم ، وعلى النبي ﷺ ، ولأن يشمل العنوان جميع من عصى الله ، [سواء] كان العصيان بالشرك ، أو الفرار من الزحف.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد بيان علّتين لغلبة المشركين : من امتحان من يظهر الإيمان ، وتمييز الثابتين عليه من غيرهم ، وإكرام جماعة من المؤمنين بالشّهادة - ذكر العلّة الثالثة بقوله : ﴿وَلِيَمْخَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويظهرهم من دنس الذّنوب ، بسبب ما أصابهم من المحن والجراحات ، فإنّ الشّدائد الدنيويّة أدب لهم ، وكفّارة لزلّاتهم.

ثمّ أشار سبحانه إلى العلّة الرابعة بقوله : ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين حاربوا رسوله ﷺ ويهلكهم قليلا قليلا ، بسبب شدّة استحقاقهم لعذابه إن لم يسلموا ، ولم يتوبوا من ظلمهم على النّبيّ والمؤمنين ، وأصرّوا على كفرهم وشقاقهم.

قيل : إنّ الله محقّهم جميعا ، فظهر من الآية : أنّ الدّولة إذا كانت على المؤمنين ، كان هلاكهم تطهيرا لذنوبهم ، ورفعاً لدرجاتهم عند الله.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصّابِرِينَ (١٤٢)﴾

ثمّ لما كان الامتحان هو الغاية القصوى من المداولة ، أكّده سبحانه وقّره بقوله ، مخاطبا للمنهزمين من المؤمنين يوم احد : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ قيل : إنّ التقدير : أعلمتم أنكم لا تنالون خيرا إلّا بشباتكم في الإيمان ، وصبركم على جهاد أعداء الله ؟ أم توهمتم ﴿أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ وتنالوا أعلى درجات الخيرات ، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يميّز ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ - في سبيل الله ، بخلوص النّيّة ، والإيمان الراسخ - من غيرهم الذين انهزموا لحبّ الدّنيا وضعف الإيمان ، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ الصّابِرِينَ﴾ في طاعة الله ، ومشاقّ التكاليف ، ويميّزهم ممّن يتّبع هواه ، ويستريح إلى لذّاته وشهوته.

وحاصل المراد ، والله العالم : أتتوقعون أيّها المؤمنون أن تدخلوا الجنّة ، وتفوزوا بنعيمها ، وتصلوا إلى كرامة الله وقرية ، والحال أنّه لم يتحقّق منكم الجهاد في سبيل الله ، والصّبر على الشّدائد في مرضاته. فإنّه لا يكون ذلك في حكمة الله أبدا ، لاستحالة اجتماع خبث الدّات ، وظلمة القلب - المستبعين لحبّ الدّنيا ولذّاتها - مع السّعادة الاخرويّة ، والكرامات الأبدية ، والنّعم الدائمة ، لغاية التّباين والتّضادّ بينهما.

عن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية قال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ يَكُونُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، وَعِلْمُ وَهْمٍ ذَرٌّ ^(١) مِنْ يَجَاهِدُ وَمَنْ لَا يَجَاهِدُ » ^(٢) الخبر .

والظاهر أَنَّ المراد من الرواية أَنَّ نفي العلم ليس على معناه الحقيقي ، بل هو كناية عن عدم المعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي الجهاد للتأكيد والمبالغة ؛ لأنَّ وقوع الشيء مستلزم لكونه معلوماً لله تعالى ، فانتهاء اللازم برهان على انتفاء الملزوم .

ثمَّ أَنَّهُ كَانَ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ لَمْ يَشْهَدُوا بِدَرٍّ ، وَكَانُوا يَتَمَنُّونَ أَنْ يَشْهَدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُشْهَدًا يَنْالُوا فِيهِ مَا نَالَ شُهَدَاءُ بَدْرٍ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَلِذَا أَحْوَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْمَشَاوِرَةِ ، فِي الْخُرُوجِ إِلَى أَحَدٍ ، فَخَرَجَ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ وَنَزَلَ أَحَدَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّهُ ﷺ أَمَرَ الرِّمَاءَ أَنْ يَلْزَمُوا أَصْلَ الْجَبَلِ ، وَلَا يَنْتَقِلُوا عَنْ ذَلِكَ ، سِوَاكَانِ الْأَمْرِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا وَحَمَلُوا عَلَى الْكُفَّارِ هَزَمُوهُمْ ^(٣) .

في قتل أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب لواء قريش في أحد ، وقتل خالد أصحاب الشعب وانهمام المسلمين

وفي رواية : كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام صَاحِبَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَاتَلَ قِتَالًا عَظِيمًا ، حَتَّى التَوَّى سَيْفُهُ ^(٤) ، وَقَتَلَ عليه السلام طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ صَاحِبَ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَحَمَلَ التَّزْيِيرَ وَالْمَقْدَادَ وَشَدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ ، فَهَزَمُوا أَبَا سَفْيَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ ، وَحَمَلَ أَبُو دَجَانَةَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا ، فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وفي رواية : وَوَقَعَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ فِي سِوَادِ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى مِيمَنَةِ الْكُفَّارِ فَانْحَطَّ فِي مَائَتِي فَارِسٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ مِنْ قَبْلِ الشَّعْبِ ، فَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالسَّهَامِ فَرَجَعَ ، وَنَظَرَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْتَهَبُونَ سِوَادَ الْقَوْمِ ، فَقَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ : غَنَمَ أَصْحَابُنَا وَبَقِيَ نَحْنُ بِلاَ غَنِيمَةٍ ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ : اتَّقُوا اللَّهَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَبْرَحَ ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَأَقْبَلُوا يَنْسِلُ رَجُلٌ فَرَجَلَ ؛ حَتَّى أَخْلَوْا مَرَكَزَهُمْ ، وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا . وَكَانَتْ رَايَةُ قُرَيْشٍ مَعَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدِيِّ ^(٥) فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ عليه السلام ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ أَبُو سَعِيدَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ عليه السلام ، فَسَقَطَتِ الرَّايَةُ فَأَخَذَهَا مَسَافِعُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ عليه السلام ، حَتَّى قَتَلَ تِسْعَةَ

(١) في تفسير العياشي : بما هو مَكُونُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَهْمٌ ذَرٌّ ، وَعِلْمٌ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٤٠ / ٧٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٦ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٢٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٩٣ .

(٥) العبدري : نسبة إلى بني عبد الدار .

من بني عبد الدار ، فصار لواؤهم إلى عبد لهم أسود يقال له صواب ، فانتهى إليه عليّ عليه السلام ففقطعه يده ، فأخذ الزاية بيده اليسرى ، فضرب يسراه فقطعها ، فاعتنقها بالجدماوين ^(١) إلى صدره ، ثم التفت إلى أبي سفيان فقال : هل أعذرت في بني عبد الدار ؟ فضربه عليّ عليه السلام [على رأسه] فقتله ، فسقط اللواء فأخذته عمرة بنت علقمة الكنانية فرفعته .

وانحطّ خالد بن الوليد على عبد الله بن جبير وقد فرّ أصحابه وبقي [في] نفر قليل ، فقتلهم على باب الشعب ، ثم أتى المسلمين من أدبارهم .

ونظرت قريش في هزيمتها إلى الزاية قد رفعت فلاذوا بها ، وانحزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله هزيمة عظيمة ، وأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كلّ وجه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله الهزيمة كشف البيضة عن رأسه ، وقال : « إني ^(٢) أنا رسول الله ، أين تفرون عن الله وعن رسوله ؟ » ^(٣) .

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣)

فظهر عند ذلك كذب جماعة ، كانوا يتمنون الشهادة ويلحون على النبي صلى الله عليه وآله في الخروج عن المدينة لجهاد المشركين ، فوبّخهم الله تعالى بقوله : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ﴾ قبل الوقعة ﴿تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ بالشهادة ، وتظهرون اشتياقكم إليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وتشاهدوه بمشاهدة مباديه ، وتعرفوا هوله وشدّته ، فإن كنتم صادقين في إظهار التّمنيّ ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ برؤية أسبابه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ لفرط قربه إليكم كأنتكم ﴿تَنْظُرُونَ﴾ إليه وتعاينونه حين قتل بين أيديكم من قتل [من] إخوانكم وأقاربكم ، وشارفتم على أن تقتلوا ، فلم هزمتهم وفعلتم ما فعلتم وتركتم الرسول بين أعدائه ؟ وفيه غاية التّوبيخ والتّفريع .

في وقعة احد ، وشهادة حمزة عليه السلام

وروي أنّه كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان في وسط العسكر ، وكلّمّا انحزم رجل من قريش دفعت إليه ميلا ومكحلة وقالت : إنّما أنت امرأة فاكتحل بهذا ، وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه انحزموا ، ولم يثبت له أحد ، وكانت هند [قد] أعطت وحشيّا عهدا : لئن قتلت محمّدا أو عليّا أو حمزة لاعطيّتك كذا وكذا - وكان وحشيّ عبدا لجبير بن مطعم ، حبشيّا - فقال وحشيّ : أمّا محمّد فلا أقدر [عليه] ، وأمّا عليّ فرأيتّه حذرا كثير الالتفات فلا مطمع فيه ، وأمّا حمزة فلعلّي أقتله .

(١) الجدماوين : مثني الجذمة ، وهي الأصل الباقي من اليد المقطوعة .

(٢) في مجمع البيان : إنيّ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٨٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٦ .

فكمن لحمزة ، قال : فرأيتُه يهْدُ (١) النَّاسَ هَذَا ، فمرَّ بي فوطئ على طرف (٢) نهر فسقط ، فأخذت حربي فهزرتها ، ورميته فوقعت في خاصرته وخرجت من ثنته (٣) فسقط ، فأتيته وشققت بطنه ، فأخذت كبده وجئت به إلى هند فقلت : هذه كبد حمزة ، فأخذتها في فمها فلاكتها ، فجعلها الله مثل الدَّاعِصَة ؛ وهي عظم رأس الرِّكبة ، فلفظتها ورمت بها.

قال رسول الله ﷺ : « فبعث الله ملكا فردّها إلى موضعها » . قال وحشيّ : فجاءت هند إليه فقطعت مذاكيره [وقطعت اذنيه] وقطعت يده ورجله.

ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلّا عليّ ؓ ، وأبو دجانة سماك بن خرشة ، فكلمّا حملت طائفة على رسول الله ﷺ استقبلهم عليّ ؓ فدفعهم حتّى انقطع سيفه ، فدفع [إليه] رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار . وانحاز رسول الله ﷺ إلى ناحية فوقف ، وكان القتال من وجه واحد ، فلم يزل عليّ ؓ يقاتلهم حتّى أصابه في وجهه ورأسه ويديه (٤) ورجليه سبعون جراحة.

قال : فقال جبرئيل ؑ : إنّ هذه هي المواساة يا محمد ، فقال له : « إنّّه مَيّ وأنا منه » . وقال الصادق ؑ : « نظر رسول الله ﷺ إلى جبرئيل ؑ بين السّماء والأرض على كرسيّ من ذهب ، وهو يقول : لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتى إلّا عليّ » (٥) .

وفي رواية : بقي معه ﷺ عليّ ؓ وسماك بن خرشة أبو دجانة رضى الله عنه ، فدعاه النبيّ ﷺ فقال : « يا أبا دجانة ، انصرف ، أنت في حلّ من بيعتك وبيعتي ، وأما عليّ فهو أنا وأنا هو » ، فتحوّل وجلس بين يدي النبيّ ﷺ وبكى وقال : لا والله ، ورفع رأسه إلى السّماء وقال : لا والله ، لا جعلت نفسي في حلّ من بيعتي ، إنّّي بايعتك فإلى من انصرف يا رسول الله ، إلى زوجة تموت ، أو إلى ولد يموت ، أو دار تخرب ، أو مال يفنى ، وأجل قد اقترب ؟ فرقّ له النبيّ ﷺ فلم يزل يقاتل حتّى أثخنه الجراح ، وهو في وجهه ، وعليّ ؓ في وجهه ، فلمّا سقط احتمله عليّ ؓ فجاء به إلى النبيّ ﷺ فوضعه عنده ، فقال : يا رسول الله ، أوفيت ببيعتي ، قال ﷺ : « نعم » . وقال له النبيّ خيرا (٦) . وقال ابن عبّاس : إنّّه كثر القتل في المسلمين (٧) .

وفي رواية : وكان النَّاس يحملون على النبيّ ﷺ الميمنة ، فيكشفهم عليّ ؓ ، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبيّ ﷺ ، فلم يزل كذلك حتّى قطع سيفه بثلاث قطع ، فجاء إلى النبيّ ﷺ فطرحه بين

(١) هَدْ : قطع بسرعة.

(٢) في مجمع البيان : حرف.

(٣) في النسخة : ثنيته ، وثنته ، أي أسفل بطنه.

(٤) زاد في مجمع البيان : وبطنه.

(٥) مجمع البيان ٢ : ٨٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٤٧ .

(٦) الكافي ٨ : ٣١٨ / ٥٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٧ .

(٧) تفسير الرازي ٩ : ٢٠ .

يديه وقال : « هذا سيفي قد تقطع » ، فيومئذ أعطاه النبي ﷺ ذا الفقار ، ورأى احتلاج ساقيه من كثرة القتال ، فرفع رأسه الى السماء وهو يبكي وقال : « يا رب ، وعدتني أن تظهر دينك ، وإن شئت لم يعبك » (١) .

في ارتداد جمع من الصحابة في احد

وقال ابن عباس : ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباطه ، وشج وجهه ، وأقبل يريد قتله ، فذبت عنه مصعب بن عمير ، وهو صاحب الزاية يوم بدر ويوم احد ، حتى قتله ابن قميئة ، وظن أنه قتل رسول الله ﷺ قال : قد قتلت محمداً ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ، وكان الصارخ الشيطان لعنه الله ، ففشا في الناس خبر قتله ﷺ .

فهناك قال بعض المسلمين : ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، وقال قوم من المنافقين : لو كان نبياً لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم ، وقال أنس بن النضر رضى الله عنه - عم أنس بن مالك - : يا قوم ، إن كان قد قتل محمد ﷺ فإن رب محمد حي لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ ، قاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه (٢) .

وفي رواية بعض المفسرين من العامة : أن أنس بن النضر أقبل إلى عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبد الله ، في رجال من المهاجرين والأنصار ، فقال لهم : ما يحبسكم ؟ قالوا : قتل محمد ﷺ ، فقال رضى الله عنه : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا كراماً على ما مات عليه نبيكم . ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه (٣) .

وروي أنه مر بعض المهاجرين بأنصارٍ يتشخط في دمه فقالوا : يا فلان ، أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال : إن كان قد قتل فقد بلغ ، قاتلوا على دينكم (٤) .

قال كعب بن مالك : أنا أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين ، رأيت عينيه من تحت المغفرة (٥) تهران ، ينادي بأعلى صوته : « إني عباد الله » (٦) . فاجتمعوا إليه ، فلامهم رسول الله ﷺ على هزيمتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، فدينك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر سوء فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين (٧) .

(١) الكافي ٨ : ٣٢٠ / ٥٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٧ ، ولم يعبك ، بمعنى لم يعجزك ولم يتعبك.

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٢٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٣ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٢٠ .

(٥) المغفرة أو المغفر : درع منسوج من حلق على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة.

(٦) زاد في تفسير روح البيان : إني عباد الله.

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٤ .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾

وروي أنه ارتدّ في أحد جمع من المهاجرين والأنصار ، معتذرين بأنّ النبي ﷺ قد قتل (١). ولم يتفحصوا عن صدق الخبر ، مع أنه لم يكن بين مقامهم ومقامه ﷺ مسافة بعيدة ، فوجههم الله سبحانه على ارتدادهم بعد توبيخهم على فرارهم ، بقوله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كسائر الرسل يأكل ويمشي ويموت ويقتل ، وليس أمتيازه من سائر البشر إلا بكمال النفس ومنصب الرسالة.

ومن الواضح أنه ليس من لوازم هذا المقام الخلود في الدنيا ، ألا ترون أنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت من الدنيا بالموت والقتل ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثته ﴿الرُّسُلُ﴾ المبعوثون على الامم ، ثم لم يرجع المؤمنون بهم عن دينهم ، ولم ينقطع تمسكهم عن شريعتهم ، بل كانوا مستمرين عليها ، فإن الغرض من بعث الرسول الهداية ، وتبليغ الدين ، وتبيين الحق ، وإلزام الحجة ، لا وجوده بين أمته أبداً.

فالارتداد عن دين الرسول ، ورفع اليد عن شريعته بعد موته أو قتله من البدائع المستنكرة ، ولذا أنكر سبحانه على المرتدّين في أحد ذلك بقوله : ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ محمد ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ على حسب الفرض ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ورجعتم إلى ما كنتم عليه من الكفر والشرك.

ثم أعلم أنه قد اتفقت العامة والخاصة على أنّ عمر كان من الفائزين من الرّحف ، المولّين الدّبر.

وقال ابن أبي الحديد :

فإن أنس لم أنس اللذين تقدّما و فرهما والفرّ قد علما حوب (٢)

ومراده من اللذين تقدّما : أبو بكر وعمر.

ومن العجب مع ذلك أنه روى الفخر الرازي في تفسيره : أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ، ثم قال : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ وأين ابن الخطّاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وأنا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم ، والأيام دول ، والحرب سجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، فقال أبو سفيان : إن كان كما تزعمون ، فقد خبنا إذن وخسرنا (٣).

وليت شعري ؛ متى حصل لعمر اعتقاد أنّ قتلى المسلمين في الجنة ، أقبل الفرار أم بعد حصول الأمن ؟ فإن كان قبل الفرار ، فكيف لم يردعه هذا الاعتقاد ، وكيف يمكن معه أن يحتبس عن القتال

(١) جوامع الجامع : ٧٠.

(٢) القصائد العلويات : ٩١ ، وفيه : وما أنس لا أنس.

(٣) تفسير الرازي ٩ : ١٥.

حتى يقول أنس بن النضر : ما يجبسكم عن القتال ؟ فيقول : قد قتل محمد ﷺ^(١) ، وإن كان بعد حصول الأمن ، ورجوع الفارين من الزحف إلى النبي ﷺ ، وخيبة المشركين ، وتوبيخ النبي إياهم ، واعتذارهم بأنه أتنا خبر سوء فرعبت قلوبنا^(٢) ، فهذا إيمان بعد الارتداد ، والظاهر أنه كان بعد رجوع أبي سفيان وحزبه إلى مكة .

ثم اعلم أن المهاجرين والأنصار الذين كان إيمانهم في زمان النبي صلى الله عليه وآله بهذه المثابة ، لا يبعد منهم الارتداد بعد وفاته ﷺ للأحقاد الجاهلية وطمع الرئاسة .

ثم أنه قال الفخر الرازي : إن الله تعالى بين في آيات كثيرة أنه ﷺ لا يقتل ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣) ، وقال : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٤) ، وقال : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٥) .

في ذكر اعتذار بعض العامة لتجويز عمر قتل النبي ﷺ وبيان فساده

ثم اعتذار أبو السعود في تفسيره لتجويز عمر وجمع من المهاجرين والأنصار قتله ﷺ ، وقال : تجويزهم لقتله ؛ مع قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لما أن كل آية لا يسمعها كل أحد ، ولا كل من يسمعها يستحضرها في كل مقام ، لا سيما في مثل ذلك المقام الهائل^(٦) .

أقول : في إصلاح الاعتذارين فساد ما صدر من عمر ما لا يخفى ، أما الاعتذار بأن عمر لم يسمع الآيات ، فمما لا يمكن قبوله - سيما من المعتذر وأصحابه من أهل السنة - لاعتقادهم في عمر أنه كان من بطانة الرسول ﷺ ومع ذلك ، كيف يمكن القول بعدم اطلاعه على هذه الآيات ، وعدم سماعه لها ، مضافا إلى أنه لا يمكن أن يعتقد المؤمن برسالة محمد ﷺ قتله في أحد ، مع إخباره ﷺ قبل خروجه إلى أحد برجوعه حيا إلى المدينة ، حيث قال عند ذكره رؤياه : « ثم إني رأيت أتي أدخلت يدي في درع حصينة ، أولتها أتي أرجع إلى المدينة »^(٧) .

وأما الاعتذار بعدم استحضار الآيات ، ونسيانها والغفلة عنها ، ففي غاية البعد ، مع كون تلاوة القرآن والتدبر في آياته من أعظم عبادات المؤمنين ، وأهم مشاغلهم ، بحيث كان مدلول ظواهرها نصب أعينهم راسخا في قلوبهم .

في زلة عمر بعد وفاة النبي ﷺ ورد الاعتذار له

ومن الغرائب : استشهاد أبي السعود على غفلة الصحابة عن تلك الآيات ، بغفلة عمر عن هذه الآية بعد وفاة النبي ﷺ^(٨) ، وتبعه صاحب تفسير (روح البيان) حيث قال :

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٤ .

(٣) الزمر : ٣٩ / ٣٠ .

(٤) المائدة : ٥ / ٦٧ .

(٥) تفسير الرازي ٩ : ٢١ ، والآية من سورة الصف : ٦١ / ٩ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٩٣ .

(٧) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٨٧ .

(٨) تفسير أبي السعود ٢ : ٩٣ .

لما توفّي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون ، فمنهم من دهش ، ومنهم من اقعد ولم يطق القيام ، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ، ومنهم من أنكر موته بالكليّة ، حتّى غفل عمر عن هذه الآية الكرّمة عند وفاته ﷺ ، وقام في التّاس فقال : إنّ رجالا من المنافقين يزعمون أنّه ﷺ توفّي ، إنّ رسول الله ما مات ، ولكنّه ذهب إلى ربّه ، كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثمّ رجع ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، ولاقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات.

ولم يزل يكرّر ذلك إلى أن قام أبو بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أيّها التّاس ، من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت ، ثمّ تلا : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. قال الراوي : والله ، لكأنّ التّاس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتّى تلاها أبو بكر ، فاستيقن التّاس كلّهم بموته (١) .

وفي رواية أبي السّعود : قال عمر : والله ما هو إلّا أن سمعت أبا بكر يتلو فعقرت حتّى لا تحملي رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات (٢) ، انتهى.

[وذلك] (٣) لوضوح أنّ ضعف إيمان كثير من الصّحابة ونفاق كثير منهم وحبّهم للحياة ، صار سببا لفرارهم في احد قبل سماع خبر قتله صلوات الله عليه ، لا غفلتهم عن آية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ فإنّ الآية لم تنزل بعد ، وإنّما نزلت في حجة الوداع.

وأما إنكار عمر موت النبي ﷺ فلم يكن لغفله عن آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ بل لتغافله عنها ، وتديبره في إلقاء الشبهة في قلوب التّاس وتفرّقهم عن باب بيت النبي ﷺ ، ليتمكّن في برهة من الزّمان إلى أغراضه الفاسدة لوضوح أنّ الاعتقاد بموت النبي ﷺ لم يكن متوقفاً على إخبار الله بأنّه يموت ، وعلى الالتفات للآية الكرّمة.

بل كان موت الأنبياء من ضروريّات جميع أهل الملل والأديان ، مع إخبار الله بموتهم في مواضع من الكتاب الكريم ، مضافا إلى كفاية عموم قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٤) مع عدم ظهور مخصّص له وإخباره ﷺ بموته مكرّرا ، حتّى سأل أبو بكر وعمر منه ﷺ وقالوا له : يا رسول الله ، إذا حدث حدث فإلى من نرجع ؟

وقوله ﷺ ، في الحديث المتفق بين الفريقين : «إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فاجيب،

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٤ .

(٢) تفسير أبي السّعود ٢ : ٩٣ .

(٣) في النسخة : بياض ، وما أثبتناه يقتضيه السياق .

(٤) آل عمران : ٨٣ / ١٨٥ .

وإني تارك فيكم الثقلين : أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي خيرا » ^(١) . مضافا إلى تراكم القرائن القطعية على موته ، من صراخ أهله ، واشتغال عليّ عليه السلام بتجهيزه ، إلى غير ذلك.

وليت شعري ، كيف لم يجوز هنا موت النبي صلى الله عليه وآله وأنكره حتى اختلق من قبل نفسه أنه صلى الله عليه وآله ذهب ليناجي ربه ... إلى آخر ما نقله شيعته عنه.

وجوز موته صلى الله عليه وآله في يوم أو يومين قبله ، حين دعا صلوات الله عليه وآله بدواة وكتف كي يكتب كتابا لا يختلفون فيه ولا يضلّون بعده ، حيث قال : حسبنا كتاب الله ^(٢) - يعني : بعد موته -

بل قطع بقتله في احد ، بمجرد سماع قول القائل : قد قتل محمد ، من غير فحص وتحقيق ، مع قرب مكانه من مقام النبي صلى الله عليه وآله ، وقال لأنس بن النضر معتذرا عن فراره من الرّحف : قد قتل محمد صلى الله عليه وآله ^(٣) .

وقال بعد توبيخ الرسول صلى الله عليه وآله أصحابه الفارّين من الرّحف : إنّه أتنا خبر قتلك ، فاستولى الرعب على قلوبنا ، فولينا مدبرين ^(٤) .

ثم أنّه لا يمكن الاعتذار عن إنكاره موت النبي صلى الله عليه وآله بنسيانه آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ حيث إنّها نزلت في شأنه وشأن أصحابه ، بعد فرارهم من الرّحف في واقعة احد ؛ لأنّ نسيان تلك الآية كان مشروطا بنسيان تلك الواقعة ، وهو من المحالات العادية في حقّه. ولا بغفلته عنها لاضطراب خاطره ، لدلالة ما اختلقه على جمعيّة حواسّه ، وسكون خاطره ، وقوّة فكره ، وكمال تدييره.

فحصل من جميع ما تقدّم : أنّ الوجه في صدور هذا القول الشّنيع منه منحصر في كونه حيلة احتالها ، لتفريق النّاس عن باب بيت النّبوة ، وصرف القلوب عن التّوجّه إلى عليّ عليه السلام ، وجمع النّاس في السّقيفة. فلمّا التفت أبو بكر إلى أنّ هذا القول فسادا أظهر من أن يخفى على ذي مسكة ، بادر إلى إظهار خلافه ، وصرف عمر عنه ، لئلاّ تزداد فضيحتهما.

عن الصادق عليه السلام : « أتدرون ، مات النبي صلى الله عليه وآله أو قتل ؟ إنّ الله يقول : ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ - ثمّ قال عليه السلام - : [فسمّ قبل الموت] إنّهما سقتاه قبل الموت » يعني الامرأتين لعنهما الله ^(٥) .

ثمّ هدّد الله سبحانه المؤمنين على ارتدادهم بقوله : ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ ويرجع إلى كفره الأصليّ ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ﴾ بارتداده ورجوعه إلى الكفر ﴿شَيْئاً﴾ من الأشياء ؛ لأنّه تعالى منزّه عن النّفع

(١) صحيح مسلم ٤ : ١٨٧٣ / ٢٤٠٨ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٦٢ / ٣٧٨٦ و ٣٧٨٨ ، مستدرک الحاكم ٣ : ١٤٨ .

(٢) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ / ٢٢ ، صحيح البخاري ٧ : ٢١٩ / ٣٠ ، مسند أحمد ١ : ٣٢٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١٠٣ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٢١ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٠٤ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٤٢ / ١٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٩ .

والضَّرَّ ، بل يضَرُّ نفسه أشدَّ الضَّرِّ ، من خسران الدُّنيا ، وعذاب الآخرة.

عن (الجمع بين الصَّحيحين) ، في مسند سهل ^(١) ، من المتَّفَق عليه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ [أبدا] ، وليردَّن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثمَّ يحال بيني وبينهم » ^(٢) .

أقول : قوله : « أعرفهم ويعرفوني » قرينة على إرادة الصَّحابة .

فيقول ﷺ : « إثم من أمتي ! فيقال : إنَّك ما تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول : سحقا سحقا لمن بدَّل بعدي » .

وعنه أيضا - من المتَّفَق عليه - عن ابن عبَّاس رضی الله عنه ، قال : إنَّ النِّبيَّ ﷺ قال : « ألا إنَّه سيحجَّ رجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربَّ ، أصحابي ! فيقال : إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصَّالح : ﴿ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ﴾ ^(٣) » قال : فيقال لي : إثم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم منذ فارقتهم » ^(٤) .

في ارتداد النَّاس بعد الرسول ﷺ إلَّا ثلاثة

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « كان النَّاس أهل ردَّة بعد رسول الله ﷺ ، إلَّا ثلاثة » قيل : ومن الثلاثة ؟ قال عليه السلام : « المقداد ، وأبو ذرَّ ، وسلمان الفارسي عليه السلام ، ثمَّ عرف اناس بعد يسير » وقال : « هؤلاء الذين دارت عليهم الرِّحا ، وأبوا أن يبايعوا حتَّى جاءوا بأمر المؤمنين عليه السلام مكرها فبايع ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ الآية » ^(٥) .

وفي خطبة الوسيلة لأُمير المؤمنين صلوات الله عليه : « حتَّى إذا دعا الله نبيَّه ورفعهُ إليه لم يك ذلك بعده إلَّا كلمحة من خفقة ، أو وميض ^(٦) من برقة ، إلى أن رجعوا إلى الأعقاب ، وانتكصوا على الأدبار ، وطلبوا بالأوتار ، وأظهروا الكتائب وردموا الباب ، وفلَّو الدماء ^(٧) ، وغَيَّروا سنن ^(٨) رسول الله ﷺ ، ورغبوا عن أحكامه ، وبعَدوا عن أنواره ، واستبدلوا بمسئله بديلا اتَّخذوه وكانوا ظالمين ، وزعموا أنَّ من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول الله ﷺ ممَّن اختاره الرسول ﷺ لمقامه ، وأنَّ مهاجر آل أبي قحافة خير من المهاجري الأنصاري الرِّباني ؛ ناموس هاشم بن عبد مناف ... » إلى

(١) هو سهل بن سعد.

(٢) الطرائف : ٣٧٦ ، بحار الأنوار ٢٨ : ٢٦ .

(٣) المائدة : ٥ / ١١٧ و ١١٨ .

(٤) الطرائف : ٣٧٦ ، صحيح البخاري ٩ : ٨٣ / ٢ و ٣ ، مسند أحمد ٥ : ٣٣٣ ، صحيح مسلم ٤ : ١٧٩٦ / ٢٢٩٧ ، مستدرک الحاكم ٤ : ٧٤ - ٧٥ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٤١ / ٧٨٧ ، الكافي ٨ : ٢٤٥ / ٣٤١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٩ .

(٦) الخفقة : التَّعاس ، والوميض : اللَّمع الخفي .

(٧) في الكافي : الدِّيار .

(٨) في الكافي : آثار .

آخره (١) .

فعلم من الروايات الخاصة والعامة أنّ كثيرا من الصحابة الذين كان يعرفهم النبي ﷺ وهم يعرفونه ، ارتدّوا بعد وفاته ﷺ ، وغيّروا أحكامه ، وأحدثوا في دينه . ومن الضروري المتفق عليه أنّهم غير أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأتباعه كسلمان ، وأبي ذرّ ، والمقداد ، وعمّار ، وأضرابهم ممّن يحدّوا حدّوه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « علي مع الحقّ ، والحقّ مع عليّ » (٢) .

وفي (الجمع بين الصحاح) : عن النبي ﷺ قال : « رحم الله عليّا ، اللهم أدر الحقّ معه حيث دار » (٣) .

وروى الجمهور : قال صلوات الله عليه لعمّار : « سيكون في أمّتي بعدي هنات (٤) واختلاف ، حتّى يختلف السيف بينهم حتّى يقتل بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض . يا عمّار ، تقتلك الفئة الباغية ، وأنت إذ ذاك مع الحقّ ، والحقّ معك ، إنّ عليّا لن يدليكَ في ردى ، ولن يخرجك من هدى . إلى أن قال : وإن سلك النَّاس كلَّهم واديا فاسلك واديا سلكه عليّ ، وحلَّ النَّاس طرّا . يا عمّار ، إنّ عليّا لا يزال على هدى . يا عمّار ، إنّ طاعة عليّ من طاعتي ، وطاعتي من طاعة الله » (٥) .

وعن الجمهور بعدّة طرق ، عن عائشة : أنّ رسول الله ﷺ قال : « الحقّ مع عليّ ، وعليّ مع الحقّ ، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الخوض » (٦) . فإذا لا بدّ من كون المرتدّين المفتريين المحدثين مخالفين . وقال فضل بن رزيهان : إنّهم أهل الرّدة الذين قاتلهم أبو بكر ، وكان بعضهم أصحاب رسول الله ﷺ .

وفيه : أنّ الذين قاتلهم أبو بكر لم يكونوا مرتدّين مستحلّين للرّكاة ، بل كانوا ممتنعين عن تأديتها لأبي بكر ، لإنكارهم خلافته ، مع أن الظّاهر أنّ المراد من قول القائل : « لا تدري ما أحدثوا بعدك » هم الذين أحدثوا بدعا باقية مستمرة في الأمّة ، كغصب الخلافة ، وتحريم المتعة ، وصلوات التّراويح ، والمسح على الخفّ ، والتكثّف في الصّلاة ، وغير ذلك من البدع ، لا منع الرّكاة ، والذي لم يتجاوز عن مالك بن نويرة وأصحابه ، ولم يصّر فعلهم سنّة باقية .

ثمّ بشرّ الله الثّابتين على الإيمان بقوله : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه من تعريفهم الحجّة

(١) الكافي ٨ : ٢٩ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢١ ، ترجمة الإمام علي عليه السلام لابن عساكر ٣ : ١٥٣ / ١١٧٢ .

(٣) مناقب الخوارزمي : ٥٦ ، الطرائف : ١٠٢ .

(٤) أي شرور وفساد .

(٥) تاريخ بغداد ١٣ : ١٨٦ ، بحار الأنوار ٣٨ : ٣٧ / ١٣ و : ٣٨ / ١٤ .

(٦) تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢١ ، ترجمة الإمام علي عليه السلام ٣ : ١٥٣ / ١١٧٢ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٣٣ / ٣٧١٤ ، مستدرک الحاكم ٣ : ١٢٤ .

والهداية لدين الله ، والتوفيق لقبوله بالثبات على الحق ، والقيام بوظائف العبودية ، والعمل بأحكام الإسلام .
وفيه إشعار بأن الارتداد والخروج عن الإسلام كفران لنعم الله .

عن (الاحتجاج) ، في خطبة الغدير : « معاشر الناس ، أنذركم أي رسول الله إليكم ، قد حلت من قبلي الرسل ، أفإن مت أو قتلت انقلبتم على أعقابكم » ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ألا وإن عليا هو الموصوف بالصبر والشكر ، ثم من بعده ولدي من صلبه^(١) .
وعن ابن عباس رضي الله عنه : أن المراد الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار^(٢) .
وروى الفخر الرازي في تفسيره : عن الطبري ، عن علي عليه السلام أنه قال : « المراد بقوله : ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أبو بكر وأصحابه »^(٣) .

وروي عنه صلوات الله عليه أيضا أنه قال : « أبو بكر من الشاكرين ، وهو من أحبباء الله »^(٤) .
وفي الروايتين من الضعف والوهن ما لا يخفى .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾

ثم لما أرحف المنافقون بأن محمدا ﷺ قد قتل ، ولو كان نبيا ما قتل ، وقالوا : إن الذين قتلوا من أصحاب النبي لو كانوا عندنا ، ولم يخرجوا من المدينة إلى أحد ما ماتوا وما قتلوا ، رد الله عليهم بقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ من النفوس ، وحي من الأحياء ﴿أَنْ تَمُوتَ﴾ بسبب من الأسباب ، أو بإرادة مريد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته ، وبسبب أمره ملك الموت بقبض روحه ، فلا يؤثر تراكم الأسباب العادية للموت - من الخروج عن الحصن ، وتهاجم الأعداء ، وتحاذل الأنصار ، وغير ذلك - في موت أحد ما لم تكن إرادة الله ومشيئته ، فإنه كتب الموت ﴿كِتَابًا﴾ وقدره تقديرا ﴿مُؤَجَّلًا﴾ مؤقتا ، لا يؤخره التحصن في البلد والفرار من الزحف ، ولا يقدمه الثبات في الجهاد والخروج إلى العدو ، فالجاهد لا يموت بغير أجله ، والقاعد لا يسلم مع حضور أجله .

وفيه تعريض على أكثر^(٥) أصحاب الرسول ﷺ ، وتحريض للمؤمنين على القتال ، وتشجيع لهم ، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل .

(١) الاحتجاج : ٦٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٩٤ .

(٣) ٤ و ٣ . تفسير الرازي ٩ : ٢٢ .

(٥) كذا ، والظاهر : تعريض بأكثر ، أو لأكثر .

ثم أنه تعالى - بعد تحقيق أنّ الحياة والموت دائران مدار إرادة الله ومشيئته ، وليس لغيره فيهما مدخل وصنع - بيّن أنّ ثواب الجهاد وسائر الأعمال دائر مدار نية العبد وإرادته ، بقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بجهاده وسائر عباداته ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من الغنيمة وحسن الذكر ﴿نُؤْتِهِ﴾ ونوّه نصيبه ﴿مِنْهَا﴾ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ : « أنّ الله تعالى يقول يوم القيامة لمقاتل في سبيل الله : في ما ذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول تعالى : كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان محارب ^(١) ، ثم أنّ الله تعالى يأمر به إلى التّار » وفيه تعريض لمن شغلته الغنائم يوم احد عن الجهاد.

﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ ويطلب بجهاده ، أو بجميع أعماله الحسنة ﴿ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ من الجنة ، والرحمة المتصلة ، والتّعم الدائمة ﴿نُؤْتِهِ﴾ ونوّه حظاً وافراً ﴿مِنْهَا﴾ على حسب أهليّته واستحقاقه ، وقابليّته للتّفضّل ، ومرتبة خلوصه في النّية.

وفيه دلالة على أنّ الأعمال الخيريّة لا تخلو عن الأجر والثّواب إمّا الدّنيوي وإمّا الآخروي . ثم أكدّ الله الوعد بقوله : ﴿وَسَنَجْزِي﴾ عن قريب جزاء جزيل لا يسعه البيان ، ولا يحويه الكلام ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمه ، من القوى والصّحة ، وتوفيق الهداية إلى الإسلام ، والعلم بالمعارف والأحكام وغيرها ، بصرف ما آتاهم الله في مرضاته وطاعته ، لا يصرفهم عن ذلك صارف أبداً ، فيدخل فيهم المجاهدون والشّهداء.

في ذكر معجزة للنبي ﷺ

عن (الجمع) : عن الباقر عليه السلام : « أنّه أصاب عليّاً عليه السلام يوم احد ستون جراحة ، وأنّ النبي ﷺ أمر أمّ سليم وأمّ عطية أن تدواياه فقالتا : إنّنا لا نعالج منه مكاناً إلّا انفتق منه مكان ، وقد خفنا عليه ، ودخل رسول الله ﷺ والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة ، فجعل يمسحه بيده ويقول : إنّ رجلاً لقي هذا في الله ، فقد أبلى وأعذر ، فكان القرحة الذي يمسحه رسول الله ﷺ يلتئم ، فقال عليّ عليه السلام : الحمد لله ، إذ لم أفرّ ، ولم أولي الدّبر ، فشكر الله له ذلك في موضعين من القرآن ، وهو [قوله : ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ^(٢) من الرزق في الدّنيا] ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ^(٣) .

﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا

(١) تفسير الرازي ٩ : ٢٥ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٠٦ .

(٢) آل عمران : ٣ / ١٤٤ .

(٣) مجمع البيان ٢ : ٨٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٩ .

ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)

ثم ذكر الله شدة اهتمام المؤمنين من الأمم السابقة في جهاد الكفار ، ونصرة أنبيائهم ودينهم ، وتحملهم الشدائد في ذلك ، تقريرا للمتنهزمين في احد على تقصيرهم في الجهاد ونصرة الإسلام ، وسوء صنعهم مع الرسول ﷺ بقوله : ﴿وَكَايْنٌ﴾ قال جمع من المفسرين : إن هذه الكلمة مستعملة في الكثير (١) ، فيكون المعنى : وكم ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء في القرون السابقة قاتل أعداء الدين ، لترويج دينه ، وإعلاء كلمة الحق ، و﴿قَاتِلَ مَعَهُ﴾ وجاهد الكفار ، مصاحبا له ﴿رَبِّيُونَ﴾ وعلماء اتقياء ﴿كَثِيرٌ﴾ !
وقيل : إن المراد من (الرَبِّيُونَ) الجموع الكثيرة (٢) .

وعن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « الرَبِّيُونَ : عشرة آلاف (٣) » .

وعن الصادق عليه السلام قال : « الوف والوف » (٤) .

﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ في منازلة الأعداء ، وما فتروا في مقاتلة الكفار ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ﴾ من البلى والشدائد ، ولكثرة ما نالهم من القتل والجرح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ، وإعزاز دينه ، وطلب مرضاته ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في دينهم وعقائدهم ، وما تقاعدوا عن مقاتلة أعدائهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا عندهم لطلب الصلح والمداينة.

فإذا كانت سيرة المؤمنين بسائر الأنبياء ، ودأب أتباعهم ذلك ، فلا ينبغي لكم الوهن في الجهاد ، والضعف في الإيمان ، والفرار من التحف ، بل الارتداد عن الإسلام وأنتم أتباع خاتم النبيين .

وفيه تعريض عليهم بقولهم : لو كان محمد نبيا لما ورد عليه ما ورد . وباستكانتهم لعدوهم حيث قالوا : ليت ابن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان .

وعن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « بين الله سبحانه أنه لو كان قتل كما أرحف بذلك يوم احد لما أوجب ذلك أن يضعفوا أو يهتوا ، كما لم يهن من كان مع الأنبياء بقتلهم » (٥) .

أقول : هذا التفسير مبني على قراءة (قتل معه) (٦) كما هي مروية عن الصادق عليه السلام (٧) .

ثم بشر سبحانه أهل الثبات في الجهاد ، بل مطلق الصابرين على الطاعات بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على ما أصابهم من البأساء والضراء ، في سبيله ومرضاته ، واحتبسرين أنفسهم على طاعته . فعليه تعالى أن يكرمهم إكرام الأحرار ، ويجزئهم في الدنيا والآخرة أحسن الجزاء .

(١) تفسير الرازي ٩ : ٢٦ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٩٥ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٠٦ .

(٢) و (٣) . مجمع البيان ٢ : ٨٥٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٠ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٤٢ / ٧٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٠ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٨٥٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٠ .

(٦) في المصحف الشريف قَاتِلَ مَعَهُ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٣٤٢ / ٧٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٠ .

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ
أَقْدَامُنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ
ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بعد بيان كمال استقامتهم على الدِّين ، وشِدَّة ثباتهم في الجهاد ونصرة التَّيَّيِّين ، وقوَّة صبرهم على الشدائد والأهوال - بَيَّنَّ أَهَمَّ مع ذلك لا هَمَّ لهم ولا مطلوب بعد المغفرة عندهم ، إِلَّا ازدياد الثَّبات والصَّبر ، والغلبة على أعداء الحقِّ بقوله : ﴿وَمَا كَانَ﴾ في حال من الأحوال أو عند لقاء العدو ، واقتحام مضائق الحرب ، والخوض في غمرات الموت ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ومسؤولهم شيئاً من الأشياء ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ متضرِّعين إلى ملكهم اللَّطيف بهم ﴿رَبَّنَا﴾ ويا من إليه تربية نفوسنا ، وإصلاح جميع أحوالنا وامورنا ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ صغائرها وكبائرها ثمَّ بعد التَّعميم خصَّصوا الكبائر بالذِّكر لعظمها بقولهم : ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ وتجاوزنا عن حدودك ﴿فِي أَمْرِنَا﴾ وعملنا.

وإِنَّمَا أَضَافُوا إلى أنفسهم الإسراف مع كونهم ربَّانِيَّين برَّاء من التَّفريط ، استحقاقاً لها ، وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم ، وإِنَّمَا قَدَّمُوا الدَّعَاءَ بِالمَغْفِرَةِ لكون النَّجاة من سخط الله وعذابه أَهَمَّ المقاصد في نظرهم.

ثمَّ الأهمَّ ما سألوه بقولهم : ﴿وَتَبَّتْ﴾ بتأييدك لنا ، وتقوية قلوبنا و يقيننا ﴿أَقْدَامُنَا﴾ على دينك القيم وصراطك المستقيم ، وفي مجاهدة النَّفس ، ومداغة الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ونصرة الأنبياء ، ومنازلة الأعداء ﴿وَانْصُرْنَا﴾ بالحجَّة والسَّيف ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ حتَّى تعلو كلمتك ، وتتمَّ حجَّتكَ .
ففيه دلالة على أَنَّ المقصد الأعلى عند المؤمنين مغفرة الذُّنُوب ، والثَّبات على الدِّين ، ونصرة الحقِّ .
وفيه تعريض بالمنهزمين والمرتدِّين في احد.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم بسبب حسن حالهم ، وكمال ضراعتهم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من انشراح الصدر ، وقوَّة اليقين ، والنَّصرة على أعداء الدِّين والغنيمة ، وحسن الذِّكر بين المؤمنين ﴿وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ من الجنَّة العالية ، والنَّعم الباقية ، واللَّذَات الدَّائِمَةُ ، والخور والقصور ، والكرامة والسُّرور .
وإِنَّمَا خَصَّ الله سبحانه ثواب الآخرة بالحسن ، للإيذان بفضله ومزيَّته على الدُّنيا وما فيها ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى لكونه حسن الصِّفَات والفعال ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويرضى عنهم ، ويزيد لهم خير الدَّارين .
ففيه دلالة على أَهَمَّ بلغوا - بثباتهم في الدِّين ، وخضوعهم لربِّ العالمين وعدَّ أنفسهم في المذنبين والمسرفين - إلى درجة المقرِّين ، والعباد المرضيِّين .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٤٩) وَ (١٥٠)﴾

ثم لما دعا الكفار والمنافقون - بعد انتشار خبر قتل النبي ﷺ - بعض ضعفاء المؤمنين إلى الكف والرجوع إلى ما كانوا عليه من الشرك ، وألقوا بعض الشبهات فيهم ، نهى الله المؤمنين عن اتباعهم ، والاعتناء بشبهاتهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تطيعوا المنافقين - في قولهم : ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ، ولو كان محمد نبيًا لما غلب وقتل - فإياكم ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأبي سفيان وغيره من المشركين واليهود والمنافقين ، وتتبعوا قولهم في أمر الدين ، وتصغوا إلى الشبهات التي يلقونها في قلوبكم ، خصوصاً بعد وقعة احد ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ويخرجوكم عن دينكم ، ويصيروكم كفاراً ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ وترجعوا إلى الشرك ، بعد اهتدائكم إلى التوحيد ودين الإسلام ، حال كونكم ﴿خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة ، محرومين من كرامتهما وسعادهما ، لا بتلائكم بذل الانقياد للعدو بدلا من عز الإسلام ، وبعباد الخلد بدلا من الثواب المؤبد ، فلا تتبعوا بطاعتهم موالاةهم ونصرهم.

﴿بَلِ اللَّهُ﴾ وحده ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ، ناظر في صلاحكم ، معط لما فيه خيركم ونفعكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ والأعوان لكم ، فإنه الجواد الذي لا يخل ، والعالم الذي لا يجهل ، والقادر الذي لا يعجز ، وهو الكافي من كل شيء ، ولا يكفي منه شيء ، فلا ينبغي للمؤمن أن يرجو غيره ، ولا ينظر إلى ما سواه ، وعليه أن يخصه بالطاعة والاستعانة.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا

وَمَاوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾

في أن النبي ﷺ كان منصوراً بالرعب

ثم أعلم أن الله تعالى نصر النبي ﷺ والمؤمنين ، كما قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ^(١) ولذا هزموا على ضعفهم وقلة عددهم عسكر المشركين على كثرتهم وشوكتهم في بدر وفي احد ، ما داموا في طاعة الله ورسوله ﷺ ، فلمّا عصوا الله ورسوله ﷺ في احد سلب الله الرعب عن قلوب المشركين ، حتى رجعوا وفعلوا ما فعلوا ، فلمّا عادوا إلى طاعة الرسول ﷺ بشرهم الله بالنصر بالرعب في احد وغيرها من المواطن بقوله : ﴿سَنُلْقِي﴾ ونقذف عن قريب ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أو يستولي عليهم الخوف منكم ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ ولأجل كفرهم بوحدانيته وإشراكهم في الوهيته وعبادته ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ ولم

(١) مجمع البيان ٢ : ٨٥٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦١ .

يقم على الوهيته ، واستحقاق عبادته ﴿سُلْطَانًا﴾ وحجة وبرهانا.

روي أنّ الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم ، أوقع الله الرعب في قلوبهم ، فتركوهم وفرّوا منهم من غير سبب ، حتّى أن أبا سفيان صعد الجبل وقال : أين ابن أبي كبشة ، وأين ابن أبي قحافة ، وأين ابن الخطّاب ؟ فأجابه عمر ، ودارت بينهما كلمات ، وما تجاسر أبو سفيان أن ينزل من الجبل والذهاب إليهم^(١) .

ونقل أنّ الكفار لما ذهبوا إلى مكّة ، قالوا حين كانوا في بعض الطّريق : ما صنعنا شيئا ، قتلنا الأكثرين منهم وتركناهم ونحن ظاهرون ، ارجعوا حتّى نستأصلهم بالكليّة ، فلمّا عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في رواية : « ثمّ انهزم الناس ، فقال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام : يا عليّ ، امض بسيفك حتّى تعارضهم ، فإن رأيتهم ركبوا القلاص^(٣) وجنّبوا الخيل فإنّهم يريدون مكّة ، وإن رأيتهم قد ركبوا الخيل وهم يجتنبون القلاص فإنّهم يريدون المدينة ، فأتاهم عليّ عليه السلام فكانوا على القلاص ، فقال أبو سفيان لعليّ عليه السلام : ما تريد ؟ هو ذا نحن ذاهبون إلى مكّة ، فانصرف إلى صاحبك ، فاتبعهم جبرئيل عليه السلام ، فلمّا سمعوا وقع حافر فرسه جدّوا في السّير وكان يتلوهم ، فإذا ارتحلوا قالوا : هو ذا عسكر محمّد قد أقبل ، فدخل أبو سفيان مكّة فأخبرهم الخبر ، وجاء الرّعاء والخطّابون فدخلوا مكّة فقالوا : رأينا عسكر محمّد كلّما رحل أبو سفيان نزلوا يقدمهم فارس على فرس أشقر يطلب آثارهم ، فأقبل أهل مكّة على أبي سفيان يوبّخونه^(٤) .

أقول : وعليه ، فلا بدّ من كون نزول الآية في أثناء الحرب ، أو عند انقضائها.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حال المشركين في الدّنيا ، بيّن سوء حالهم في الآخرة بقوله : ﴿وَمَا أَوَاهُمُ﴾ ومسكنهم في الآخرة ﴿النّارُ﴾ لا غيرها ﴿وَبُئْسَ﴾ المثوى والمقرّ ﴿مَثْوًى الظّالِمِينَ﴾ ومقرّهم وساء المكان الذي حصّهم الله به في القيامة ، بسبب ظلمهم على أنفسهم بالشّرك ، وعلى النّبي ﷺ والمؤمنين بالمقاتلة.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ

(١) و (٢) . تفسير الرازي ٩ : ٣٢ .

(٣) قلاص وقلاص : جمع قلوص : وهي الإبل الفتيّة.

(٤) الكافي ٨ : ٣٢١ / ٥٠٢ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٥٨ .

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

ثم قيل : إنه لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وقد أصابهم ما أصابهم من الجراح والمصيبة قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا ، وقد وعدنا الله النصر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ** ﴾ وأنجز لكم ﴿ **وَعْدَهُ** ﴾ إيتاكم بالنصر والغلبة على لسان نبيه ﷺ ، ولكن كان ذلك الوعد مشروطا بالتقوى والصبر ، وأنتم ما دمتم على طاعة الرسول ﷺ نصرتم وغلبتم على المشركين ﴿ **إِذْ تَحْسُبُونَهُمْ** ﴾ وتقتلونهم قتلا ذريعا بتيسير الله و﴿ **يَاذُنِهِ** ﴾ وتأيده.

روي أن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة من المسلمين يرشقونهم بالببل ، والباقون يضربونهم بالسيف ، وقتل عليّ عليه السلام طلحة بن أبي طلحة كعب قريش ، وتسعة من أصحاب لوائهم فانهزم المشركون ، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا.

فكأنه قال سبحانه : كنتم على هذه الحالة من النصر والغلبة ﴿ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ** ﴾ وضعفتم رأيا في طاعة الرسول ﷺ ؛ لغلبة الحرص على الغنيمة ، وملتم إليها ﴿ **وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ من الثبات والإقامة في المركز ، والذهاب لأخذ الغنيمة.

روي أن بعض الرماة - حين انهزم المشركون وولّوا هارين ، والمسلمون على أعقابهم ضربا وقتلا - قالوا : فما موقفنا هنا بعد هذا ؟ وقال أميرهم عبد الله بن جبير : لا تخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فإنه قال : « لا تبرحوا مكانكم ، فإننا لا نزل غالبين ما دمتم في هذا المكان » فثبت عبد الله في نفر دون العشرة في مكانه ، ونفر الباقيون للتهب.

والله أشار سبحانه بقوله : ﴿ **وَعَصَيْتُمْ** ﴾ الله ورسوله ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ** ﴾ الله تعالى ﴿ **مَا تُحِبُّونَ** ﴾ من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدو. وقد مرّ أنه لما رأى المشركون قلة الرماة في الشعب حملوا عليهم ، وقتلوا أمير الرماة ومن معه.

ثم حملوا على المسلمين من ورائهم ، فظهرت سرائر القوم كما يتّنها سبحانه بقوله : ﴿ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا** ﴾ وهم الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ ، وتركوا المركز طمعا في الغنيمة ، وأقبلوا على النهب. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما علمت أن أحدا منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية ^(١) . ﴿ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** ﴾ بجهاده ، وهم الذين ثبتوا على طاعة الرسول ﷺ ولم يخلوا مراكزهم

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١١٠ .

حتى نالوا شرف الشهادة ، وحازوا على درجة السعادة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد عصيان الرّماة ﴿صَرَفَكُمْ﴾ الله ، وكفّ أيديكم ﴿عَنْهُمْ﴾ وهزمكم منهم بأن أوجد فيكم مقتضى الهزيمة من زوال الرّعب عن قلوب المشركين ، وإلقائه في قلوبكم ﴿لِيَتْلِيَكُمْ﴾ ويمتحنكم في الثّبات على الإيمان ، والصّبر في الجهاد ، حتى يمتاز المخلصون الكاملون ، والصّابرون المحتسبون من غيرهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله ﴿عَنْكُمْ﴾ تفضّلا عليكم ، أو لما علم من ندمكم على عصيانكم بالفرار من الرّحف ، والهزيمة من الجهاد.

ثمّ لما كان امتياز الثّابتين في الإيمان من غيرهم ، والعفو عن العصاة ، تفضّلا من الله تعالى ، وصف ذاته المقدّسة بقوله : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كآفة بتكميل نفوس المطيعين منهم ، وتعليق درجاتهم ، وتوفيق العاصين منهم للتّوبة ، وتكفير ذنوبهم.

وقيل : إنّ المراد ذو فضل عليهم في جميع أحوالهم [سواء] كانت الدّولة لهم أو عليهم.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا

يَعْمَلُونَ لَكَيْلًا تَخَزِنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾

ثمّ بيّن الله تعالى وقت صرفهم عنهم بقوله : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ وحين تذهبون في السّهل والجبل منهزمين من بأس المشركين ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ من شدّة الخوف ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾ من النّاس ، ولا تلتفتون إلى من في يمينكم وشمالك وورائكم.

وقيل : إنّ المراد : لا يقف بعضكم لبعض ، ولا ينظر نفس إلى نفس أنّه والد أو ولد ، قريب أو بعيد ، صديق أو عدوّ.

﴿وَالرَّسُولُ﴾ في هذا الحال ، بأعلى صوته ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ وينادىكم - حال كونه واقفا ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ وسافقتكم ^(١) ، أو في جماعة أخرى منكم ، أو في آخركم - بقوله : « إني عباد الله ، أنا رسول الله ، أين تفرون عن الله ، وعن رسوله ؟ » .

وفي رواية : يقول : « من كثر فله الجنّة » ^(٢) أمرا بالمعروف وهو الكرّ ، ونهيا عن المنكر وهو الانحزام ، لا استعانة بهم .

﴿فَأَتَابَكُمْ﴾ الله ، وجازاكم عن عصيانكم وانحزامكم ﴿عَمَّا﴾ متّصلا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ آخر.

(١) السّاقفة : مؤخّرة الجيش.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١١٠ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٦٢.

قيل : إنّ الغموم كانت في احد كثيرة من غلبة العدو ، وقتل الاحبة ، وما نزل على النبي ﷺ وغير ذلك .

وعن القمي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام : « فأما الغم الأول : فالهزيمة والقتل ، والغم الآخر : فإشراف خالد بن الوليد عليهم » (١) .

وقيل : إنّ المراد : غمّا شديدا ، بسبب شجّة وجه الرسول ﷺ وكسر ربايعته ، وقتل عمّه حمزة ، بعوض غم الرسول بسبب عصيانكم أمره .

في أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا من المنهزمين في احد

ثمّ أن الفخر الرازي قال في تفسيره الكبير : ومن المنهزمين عمر ، إلّا أنّه لم يكن من أوائل المنهزمين ، ولم يعد بل ثبت على الجبل إلى أن صعد النبي ﷺ (٢) .

أقول : ليت شعري ، من أين علم أنّه لم يكن من أوائل المنهزمين ؟ ! ثمّ أنه بعدما ثبت أنّه كان من المنهزمين ، كيف يصلح فساد عمله عدم كونه من أوائلهم ؟

ثمّ قال : ومنهم أيضا عثمان ، انهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة ، انهزموا حتّى بلغوا موضعا بعيدا ، ثمّ رجعوا بعد ثلاثة أيام - إلى أن قال - : وأما الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رجلا ؛ سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، فمن المهاجرين أبو بكر وعليّ عليه السلام (٣) .

أقول : قال بعض : إنّ أبا بكر أيضا كان من المنهزمين (٤) .

وقال ابن أبي الحديد :

فإن أنس لم أنس اللذين تقدّما و فرهما والفرّ قد علما حوب (٥)

والظاهر أن مراده أبو بكر وعمر ، ويؤيد ذلك الاعتبار وشهرته بين الشيعة (٦) .

ثمّ قال فخر الدّين : وذكر أنّ ثمانية من هؤلاء - أي من الأربعة عشر - بايعوه يومئذ على الموت ؛ ثلاثة من المهاجرين عليّ عليه السلام ، وطلحة ، والزبير ... (٧) .

أقول : فعلم أنّ أبا بكر - على تقدير كونه من الثّابتين - لم يكن من الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، ثمّ أنّ عدّ طلحة منهم مناف لما روي من اعتراض أنس بن النضر عليه وعلى عمر ، بقوله : ما يحبسكم عن القتال ؟ فقالوا : قد قتل محمد ﷺ .

ثمّ أنّ الله تعالى بيّن علّة تراكم الغموم عليهم بقوله : ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من المنافع

(١) تفسير القمي ١ : ١٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٥٠ .

(٤) راجع : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ : ٢٩٣ .

(٥) القصائد العلوية : ٩١ ، وفيه : وما أنس لا أنس ...

(٦) راجع : إرشاد المفيد ١ : ٨٣ ، مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ١٢٣ ، كشف الغمة ١ : ١٩٣ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ : ٢١ .

(٧) تفسير الرازي ٩ : ٥١ .

والخيرات الدنيوية ﴿وَلَا﴾ على ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ من البلايا والمصائب ، فَإِنَّ التَّمَرُّنَ على عدم الاعتداد بالمنافع والمضار ، والاعتیاد عليه ، يهون فوت المنافع والابتلاء بالمضار الدنيوية.

وقيل : إِنَّ المراد : لئلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من قتل إخوانكم ، أو على ما فاتكم من التصبر ، ولا على ما أصابكم من الجراح.

وقيل : إِنَّ التعليل للعفو ، فَإِنَّ السرور بالعفو يزيل غمّ فوت الغنيمة وإصابة الجراح ، وغمّ الابتلاء بالمعصية.

ثم زجرهم الله تعالى عن جميع المعاصي بقوله : ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ خفيّه وجليّه ، فيجازيكم به ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾

ثم - لما كان أصحاب النبي ﷺ في احد طائفتين ؛ إحداها المؤمنون الصادقون المخلصون ، والاخرى المنافقون الكاذبون في دعوهم الإيمان - بيّن الله تعالى حسن حال المؤمنين منهم ، وتفضّله عليهم ، أولا لشرفهم ، بقوله : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأعطاكم ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ الذي اعتراكم بسبب الخوف والهزيمة ﴿أَمَنَةً﴾ وسكينة في قلوبكم ، واطمئنانا لنفوسكم من بأس العدو وضربه ، بأن ألقى عليكم لغاية سكون خاطرهم في ذلك الوقت ﴿نُعَاسًا﴾ ووسنا ، ولكن لا على جميعكم ، بل كان ﴿يَغْشَى﴾ ويعرض ﴿طَائِفَةً﴾ خاصّة ﴿مِنْكُمْ﴾ وهم المؤمنون المخلصون.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : المراد من الطائفة : المهاجرون ، وعامة الأنصار ^(١) .

وفي إدخال كلمة (عامة) على الأنصار دون المهاجرين ، إشعار بعدم كون جميعهم خلّصين ^(٢) في الإيمان ، بل كان بعضهم من المنافقين ، أو كان بعضهم في قوّة الإيمان بحيث لم يطرأ عليه خوف ^(٣) ، ولم

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠١ .

(٢) كذا والظاهر : مخلصين.

(٣) كذا والظاهر : لم يطرأ عليه خوف.

يألف عينيه نوم اهتماما بطاعة الله وحفظ النبي ﷺ كأمر المؤمنين علياً .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمْنَةٌ ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ^(١) . وذلك لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ من الدنيا ، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله.

في غشيان النعاس طائفة من الصحابة

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : آمنهم بنعاس يغشاهم بعد خوف ، وإنما ينعس من آمن ، والخائف لا ينام ^(٢) .

وعن عبد الرحمن بن عوف ، قال : ألقى النوم علينا يوم احد ^(٣) .

نقل أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع ، فلم يأمنوا كرتهم ، وكانوا تحت الحنف ^(٤) متأهبين للقتال ، فأنزل الله عليهم الأمانة فأخذهم النعاس .
وروي أنه غشبهم النعاس في المصاف ، حتى كان السيف يسقط من يد أحدهم فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه.

وروي أنه قال طلحة ^(٥) : رفعت رأسي يوم احد ، فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلا هو يمتد تحت حنفته من النعاس ، قال : وكنت ممن القي عليه النعاس يومئذ ، فكان السيف يسقط من يدي فأخذه ، ثم يسقط السوط من يدي فأخذه ^(٦) .

وعن الزبير ، أنه قال : كنت مع النبي ﷺ حين اشتد الخوف ، فأنزل الله علينا النوم ، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ، ما أسمع إلا كالحلم ، يقول : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ ^(٧) .

ثم بين الله تعالى سوء حال المنافقين منهم بقوله : ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أخرى منهم وهم المنافقون كعبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ وأوقعتهم ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ في تدبير النجاة ، لا هم لهم غيره ، وذلك لكونهم في حال ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ من غاية جهلهم وحمقهم ظننا ﴿غَيْرَ﴾ الظن ﴿الْحَقِّ﴾ والصواب ، بل يكون ظنهم ﴿ظَنٌّ﴾ أهل ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾ .

قيل : وجه الشبه كونه من أقبح أنواع الظنون.

وقيل : إن المراد أنهم يظنون ظننا ناشئا عن غاية الجاهلية والسفاهة ؛ لأنهم اعتقدوا أن أمر النبي

ﷺ يضمحل قريبا ، ولن ينصره الله أبدا.

(١) تفسير الرازي ٩ : ٤٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠١ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٤٥ .

(٤) الحنف : جمع حنفية : وهي الترس من الجلد . وفي النسخة : الحنف .

(٥) في تفسير أبي السعود وروح البيان : أبو طلحة .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠١ ، تفسير روح البيان ٢ : ١١٢ .

(٧) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠١ .

وكانوا **﴿يَقُولُونَ﴾** للنبي ﷺ ، على صورة الاسترشاد ، وإن كان مقصودهم في الواقع الإنكار : **﴿هَلْ لَنَا﴾** يا رسول الله **﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾** الذي وعدتنا ، وهو النصر والغلبة ، وقيل : إن المراد : هل لنا من التدبير في الإصلاح **﴿مِنْ شَيْءٍ﴾** قليل ، وحظ يسير قط ؟

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن **﴿قُلْ﴾** لهم جوابا : **﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾** من النصر والظفر والتدبير **﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾** وهو بالآخرة ينصر أوليائه ، ويخذل أعداءه ؛ كما قال : **﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** (١).

ثم أنه تعالى بعد بيان ظاهر حالهم ومقالمهم ، كشف عن سرهم ، وما في قلوبهم بقوله : **﴿يُخْفُونَ﴾** ويضمرون **﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾** وفي قلوبهم من الإنكار والتكذيب ، وقيل : إن المراد يقول بعضهم لبعض خفية وسرا **﴿مَا لَا يُبْدُونَ﴾** وضميرا أو كلاما لا يظهرون **﴿لَكَ﴾** خوفا ونفاقا.

ثم لما كان مقام السؤال عما يخفون ، فأجاب سبحانه قبل المسألة بقوله : **﴿يَقُولُونَ﴾** بطريق حديث النفس ، أو بألستهم فيما بينهم سرا : **﴿لَوْ كَانَ لَنَا﴾** في هذه الحرب **﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾** الموعود ، وهو النصر والغلبة ، أو من التدبير والرأي **﴿شَيْءٍ﴾** من الحظ والتصيب **﴿مَا قُتِلْنَا﴾** بسيف الأعداء ، وما غلبنا **﴿هَاهُنَا﴾** .

قيل : إن نظرهم إلى ما رأى عبد الله بن أبي عند مشاورة النبي ﷺ من الإقامة بالمدينة وعدم الخروج منها إلى العدو ، فأمر الله نبيه ﷺ بقوله : **﴿قُلْ﴾** ردّا عليهم : **﴿لَوْ كُنْتُمْ﴾** مقيمين مستترين **﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾** وفي خبايا منازلكم في المدينة ، وحتمت على أنفسكم أن لا تخرجوا **﴿لَبَرَزَ﴾** وخرج الأشخاص **﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾** في اللوح المحفوظ ، وحتم في تقدير الله وقضائه **﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾** بسبب من الأسباب ، وداع من دواعي الخروج **﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾** ومصارعهم التي قدر الله قتلهم فيها ، وقتلوا هنالك ألبنة ، ولم ينفعهم التصميم والعزيمة على الإقامة ، فإن قضاء الله لا يرد ، وحكمه لا يعقب ، والأجل المحتوم لا يؤخر.

روي أنّ ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه السلام ، فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة ، فلما قام قال الرجل : من هذا ؟ فقال سليمان : ملك الموت ، قال : أرسلني مع الريح إلى عالم آخر ، فإني رأيت [منه] مرأى هائلا ، فأمرها عليه السلام ، فألقته في قطر سحيق من أقطار العالم ، فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان فقال : كنت امرت بقبض روح ذلك الرجل في هذه الساعة في أرض كذا ، فلما وجدته في مجلسك قلت : متى يصل هذا إليها ، وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان ، فوجدته هناك ، فقضي أمر الله في مكانه وزمانه (٢) .

(١) المائدة : ٥ / ٥٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠٢ .

ثم - لما كان في زعم المنافقين أنّ الخروج من المدينة ، وقتل من قتل ، مفسدة محضة ، لم يكن فيها جهة خير وصالح - بين الله تعالى حكمه ومصالحه ، والتقدير : أنّ الأمر بالخروج ، ووقوع ما وقع ، لتبلغوا إلى مصالح كثيرة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ ويمتحن بما هو كائن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الإخلاص والتفان ، والنّيّات السيّئة والحسنة ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ وليخلص ما هو كائن ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من العقائد الحقّة عن الشكوك والشبهات والوساوس ﴿وَاللَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ أزلا ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وما في الضمائر من الأسرار والخفّيات ، فلا يحتاج إلى الاختيار والامتحان ، وإنّما يبرز صورة الابتلاء ، لتمرين المؤمنين ، وإظهار حال المنافقين.

نقل أنّ ثلث عسكر الرسول ﷺ كانوا مجروحين ، وثلثهم منهزمين ، وثلثهم ثابتين مع الرسول ﷺ (١) .

وروي أنّ سعد بن عثمان ورد المدينة وأخبر أنّ النبي ﷺ قتل ، ثمّ ورد بعده رجال ودخلوا على نسائهم فجعل النساء يقلن عن رسول الله ﷺ تفرون ! وكئنّ يحثن التراب في وجوههم ويقلن : هاك المغزل واغزل به (٢) .

وروي أنّه أصيب مع رسول الله ﷺ نحو من ثلاثين ، كلّهم يجيء ويجثو بين يديه ويقول : وجهي لوجهك الفداء ، ونفسي لنفسك الفداء ، وعليك السلام غير مودّع (٣) .

وروي أنّ ثمانية بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، ثلاثة من المهاجرين : عليّ ؓ ، وطلحة ، والزبير ، وخمسة من الأنصار : أبو دجانة ، والحارث بن الصّمة ، وخبّاب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، ثمّ لم يقتل منهم أحد (٤) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا

كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد بيان علل إيراد البليّات والمصائب على المؤمنين واستيلاء المشركين عليهم - بيّن علّة انهزام المنهزمين ، وعدم ثباتهم في الجهاد بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ عن القتال ، وانهمزوا عند النزال ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وتصادف الفريقان من المسلمين والكفار ، لم يكن تولّيهم وانهمزواهم بعلة خروجهم من المدينة كما توهم المنافقون ، ولا لقوّة المشركين وكثرة شوكتهم ، بل ﴿إِنَّمَا﴾ كان بسبب أنّه ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ودعاهم إلى الوقوع في الخطيئة ، وارتكاب المعصية

(١) تفسير الرازي ٩ : ٥٠ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٥١ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٥١ .

الكثيرة ، فأجابوه وأسلموا له ، وإنما كان تسليمهم له معللاً **﴿بِعَظْمِ مَا كَسَبُوا﴾** وارتكبوا من الذنوب والمعاصي التي كانت دون ذلك ، من مخالفة أمر الرسول ﷺ في حفظ الشعب ، والحرص على الغنيمة ، فصارت تلك الذنوب موجبة لكثرة استيلاء الشيطان عليهم ، حتى أوقعهم في أعظم المعاصي من الفرار من التحف وتسليم الرسول ﷺ إلى الأعداء حفظاً لأنفسهم.

ثم بعد التوبيخ بشّرهم سبحانه بالعمو بقوله : **﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ﴾** بعد تلك الزلات والمعاصي **﴿عَنْهُمْ﴾** بفضل وسعة رحمته **﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾** للذنوب **﴿حَلِيمٌ﴾** عن العاصيين ، لا يعاجل بعقوبتهم ، كي يتوب من في قلبه نور الإيمان ، ويجري قضاؤه بمن لا نصيب له منه ، ويقع ما في مكنون علمه من الفتن التي منها غصب

خلافة الرسول ﷺ وتقدم المنهزمين في الرئاسة الإلهية على من بايعه على الموت .
روي أنّ عثمان عوتب في هزيمته يوم احد ، فقال : إنّ ذلك وإن كان خطأ ، لكنّ الله عفا عنه ^(١)

ففي توصيف ذاته المقدسة بالمغفرة والحلم إشعار باختلاف المنهزمين ، فبعضهم غفر لهم ذنوبهم ، وبعضهم حلم عنهم وأخر عقوبتهم إلى ما بعد الموت .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾

ثم أنّه تعالى - بعد بيان سوء عقائد المنافقين وشناعة أقوالهم - نهى المؤمنين عن موافقتهم ومماثلتهم ، بقوله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا﴾** في فساد العقائد ، وشناعة القول **﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بقلوبهم وآمنوا بألستهم نفاقاً ، كعبد الله بن أبيّ ، ومعتب بن قشير ، وأضربهما ، **﴿وَالَّذِينَ قَالُوا﴾** - في أنفسهم ، أو تذاكروا فيما بينهم تلهفاً **﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾** التسيية والاعتقادية والمذهبية **﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾** وسافروا في البراري والجالل للتجارة وغيرها من الأغراض ، فماتوا في سفرهم **﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾** وخرجوا من بلادهم مقاتلين فقتلوا في المعركة - : **﴿لَوْ كَانُوا﴾** مقيمين **﴿عِنْدَنَا﴾** في المدينة **﴿مَا مَاتُوا﴾** في السفر **﴿وَمَا قُتِلُوا﴾** في الغزو . فإثمهم إنّما قالوا ذلك ، واعتقدوا تلك العقيدة الفاسدة **﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾** القول والاعتقاد **﴿حَسْرَةً﴾** وندامة شديدة مستقرة **﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾** في الدنيا والآخرة .

(١) تفسير الرازي ٩ : ٥١ .

وفي جعل القول الذي هو سبب للحسرة عين الحسرة مبالغة في سببها لها وعدم انفكاكه عنها ، وفي ذكر هذه الغاية للقول دلالة على عدم ترتب فائدة وأثر عليه غيرها .

قيل : إنّ وجه كون هذا الكلام حسرة لهم في الدنيا ، زعمهم أنّ من مات أو قتل منهم إنّما مات أو قتل بسبب تقصيرهم في حفظ القتلى ، ومنعهم من السفر والقتال ، ومن اعتقد ذلك لا شك أنّه تزداد حسرته وتلهفه .

وقيل : إنّ المراد : لا تكونوا مثلهم في هذا القول الصادر عن الاعتقاد الفاسد السيّء ، ليكون ذلك القول والاعتقاد حسرة لهم خاصّة دونكم . أو المراد : لا تكونوا مثلهم ، ليكون عدم مماثلتكم حسرة لهم ، أنا في الدنيا فلاّهم يرونكم منصورين ، مستولين على الأعداء ، فائزين بالأمان ، حائزين للغنائم الكثيرة ، وفي الآخرة يرونكم مخصّوصين بكرامة الله ونعمه ، وهم بسبب تثبّطهم عن الجهاد لهذا الاعتقاد ، حرموا عن جميع ذلك .

ثمّ ردّ الله سبحانه قولهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي﴾ كلّ نفس ، لا الإقامة في البلد والبقاء عن القتال ، ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ هو ﴿يُمِيتُ﴾ كلّ حيّ ، لا السفر والقتال . فإذا أراد الله حياة مسافر أو مقاتل يرجعان سالمين وإن تورّطا في المهالك ، وإذا أراد الله موت مقيم أو قاعد يموتان وإن راعيا جميع أسباب السلامة .

ثمّ بالغ سبحانه في زجر المؤمنين عن مماثلة الكفار ، وبعد نهيهم عنها بتهديدهم عليها بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جعل أنفسكم مماثلة لهم ، وموافقكم إياهم في العقائد والأقوال والأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلع ، لا يخفى عليه سرّكم وعلا نيتكم ، فيعاقبكم على سيئاتكم بأشدّ العقوبة .

﴿وَلَنُفْتِلَنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْمَلْغَفَرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا

يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾

ثمّ رغب سبحانه في الجهاد بوعد الثواب بعد الزجر عن التّقاعد ، والتّهديد عليه بقوله : ﴿وَلَنُفْتِلَنَّ﴾ أيّها المؤمنون في الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه ﴿أَوْ مُتْمَلْغَفَرَةً﴾ في المسافرة في طلب مرضاته ، من الهجرة إلى الرّسول ، وتحصيل العلم ، وغير ذلك ، يكون ذلك القتل والموت مستلزمين للمغفرة عن الذّنوب ، والرحمة الدّائمة من الجنّة والنّعم و﴿لَمَغْفَرَةً﴾ كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ونجاتكم من عذابه ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة منه تعالى ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ، وأنفع ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هؤلاء الكفرة ، من الزّخارف الدّنيويّة التي يحسبونها من الخيرات ، في مدّة أعمارهم .

عن ابن عباس رضي الله عنه : خير من طلاع الأرض ^(١) ذهبة حمراء ^(٢) .

﴿وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨)

ثم بالغ سبحانه في الوعد بقوله : ﴿وَلَيْنَ مُتُّمٌ﴾ في السفر لوجه الله ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في سبيله ﴿لَإِلَى اللَّهِ﴾ العظيم الشأن ، الواسع الرحمة ، الجزيل الإحسان ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتوفدون ، ومن الواضح أن الحشر إلى الله والوفود عليه ونيل رضوانه ، أعلى وأنبأ من الحشر إلى مغفرته ورحمته .

قيل : في الآية إشارة إلى مراتب العبودية ، ففي قوله ﴿لَمْغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى من يعبده خوفاً من العقاب ، وفي قوله : ﴿وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى من يعبده طمعا في الثواب ، وفي قوله : إلى ﴿اللَّهُ تُحْشَرُونَ﴾ إشارة [إلى] من يعبده حباً ذاته ، ولكونه مستحقاً للعبادة .

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام أنه سئل عمّن قتل أو مات ، قال : « لا ، الموت موت ، والقتل قتل » قيل : ما أحد يقتل إلا وقد مات ، فقال : « قول الله أصدق من قولك ، ففرق بينهما في القرآن قال : ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ ^(٣) وقال : ﴿وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وليس كما قلت ، الموت موت ، والقتل قتل » .

قيل : فإن الله يقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ^(٤) ؟ قال : « من قتل لم يذوق الموت - ثم قال - : لا بدّ من أن يرجع حتى يذوق الموت » ^(٥) .

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

ثم أنه قيل : لما عاد المنهزمون لم يخاطبهم رسول الله ﷺ بالتعليق والتشديد ، وإنما خاطبهم بكلام لين ^(٦) ، فمدحه الله تعالى بقوله : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ العظيم ، شاملة لك ، وربطه على قلبك ، وتخصيصك بمكارم الأخلاق ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾ وعاملت بالرفق معهم ، وتلطّفت بهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمرك ، وتسليمك إلى أعدائك .

قيل : إنّ كلمة (ما) في قوله : ﴿فَبِمَا﴾ زائدة جيء بها للتأكيد ، وقيل : استفهامية في مقام التعجب ^(٧) ،

(١) طلاع الأرض : ملؤها .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٠٤ .

(٣) آل عمران : ٣ / ١٤٤ .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٨٥ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٤٤ / ٧٩٩ عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ١ : ٣٥٧ .

(٦) تفسير الرازي ٩ : ٦٠ .

(٧) تفسير الرازي ٩ : ٦١ .

والمعنى : فبأيّ رحمة عظيمة من الله عليك ظهر منك هذا الخلق الحسن ! وفي إسناده إلى رحمة الله دلالة على أن جميع الأخلاق الحسنة بإفاضة الله ؛ لأنّها من قبل كمال الوجود المفاض منه تعالى .
روي أنّه ﷺ اغتمّ لهم بعد أن خالفوه .

وروى الفخر الرازي في تفسيره : أنّ امرأة عثمان دخلت على رسول الله ﷺ وهو وعليّ ﷺ كانا يغيلان السّلاح ، فقالت : ما فعل ابن عثّان ؟ أما والله ، تجدونه ^(١) أمام القوم ، فقال لها عليّ ﷺ : « ألا إنّ عثمان فضح الزّمان » . فقال ﷺ : « مه » ^(٢) .
وفي رواية : قال ﷺ حينئذ : « أعياني أزواج الأخوات أن يتحابّوا » . ثمّ لما دخل عليه عثمان مع صاحبيه ما زاد على أن قال : « لقد ذهبتُم فيها عريضة » ^(٣) .

ثمّ أشار سبحانه إلى مصلحة اللّين ، ومفسدة خلافه بقوله : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ في القول والفعل ، جافيا في العشرة ، كرهه الخلق مع أصحابك ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ وقاسيه ، غير رفيق بهم ولا رحيم ﴿لَا تَقْضُوا﴾ وتفرّقوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وجوانبك ، ولم يسكنوا إليك ، حتّى تتمّ فائدة الرّسالة ، فإنّ حكمة البعثة هي هداية الخلق ، وتبليغ الشّريعة .

ومن الواضح أنّه لا يتمّ إلّا إذا مالت القلوب إلى الرّسول ، وسكنت النّفوس إليه ، وذلك متوقّف على كون الرّسول عطوفا ، رحيفا ، مداريا ، رفيقا ، يتجاوز عن سيّئاتهم ، ويخصّهم بالبرّ والشفقة والمكرمة ، ولذا قال ﷺ : « لا حلم أحبّ إلى الله من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله من جهل إمام وخرقه » ^(٤) .

وروي عنه ﷺ ، قال : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » ^(٥) .
وقيل : لرسول الله ﷺ : ما الشّؤم ؟ قال : « سوء الخلق » ^(٦) .
وعنه ﷺ ، قال : « ألا أنبئكم بشرّ النّاس ؟ » قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : « من نزل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده » . ثمّ قال : « ألا أنبئكم بشرّ من ذلك ؟ » قالوا : بلى . قال : « من لم يقل عشرة ، ولم يقبل معذرة » ^(٧) .

ثمّ اعلم أنّ الله تعالى خصّ عليّ بن أبي طالب ﷺ بخلق رسول الله ﷺ ، حيث كان له من لين الجانب والرّفق بالنّاس ما لم يكن لغيره ، واختصّ عمر بخلافه ، فإنّه كان له من الغلظة والفظاظة

(١) في المصدر : لا تجدونه .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ٩ : ٦١ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٦١ .

(٥ و ٦) . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٣٧ .

(٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٣٨ .

وسوء الخلق ما لم يكن لأحد.

في نقل كلام لابن أبي الحديد في فظاظه عمر

روى ابن أبي الحديد : عن الزبير بن بكار ، أنّ عمر كان إذا غضب على بعض أهله ، لم يسكن غضبه حتّى يعضّ يده عضّاً شديداً^(١) ، قال : ولقوة هذا الخلق فيه أضمر عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالعلو^(٢) ، وأظهره بعده ، فقليل له : هلا قلت هذا في أيام عمر ؟ فقال : هبته . وقد ارتدّ جبلة بن الأيهم عن الإسلام لتهديد عمر له ، ووعيدة إتياء أن يضربه بالدرة^(٣) .

وكفى في شراسة خلق عمر وفظاظته ، ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ؛ توجيهها لقدح عمر في عليّ عليه السلام ، بقوله : لكنّه امرؤ فيه دعابة^(٤) .

من قوله : واعلم أنّ الرجل ذا الخلق المخصوص ، لا يرى الفضيلة إلّا في ذلك الخلق ، ألا ترى أنّ الرجل يبخل فيعتقد أنّ الفضيلة في الإمساك . والبخل يعيب أهل السّماح والجود ، وينسبهم إلى التّبذير ، وإضاعة الحزم ، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء ، وينسبهم إلى ضيق النّفس ، وسوء الظّنّ ، وحبّ المال . والجبان يعتقد أنّ الفضيلة في الجبن ، ويعيب الشّجاعة ، ويعتقد كونها خرقاً وتعرياً بالنّفس ، والشّجاع يعيب الجبان ، وينسبه إلى الضّعف ، ويعتقد أنّ الجبن ذلّ ومهانة . وهكذا القول في جميع الأخلاق والسّجايا المقسّمة بين نوع الإنسان .

ولما كان عمر شديد الغلظة ، وعمر الجانب ، خشن الملمس ، دائم العبوس ، كان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة ، وأنّ خلافه نقص ، ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق ، لكان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة وخلافه نقص ، حتّى لو قدرنا أنّ خلقه حاصل لعلّي عليه السلام ، وخلق عليّ عليه السلام حاصل له ، لقال في عليّ عليه السلام : لو لا شراسة فيه .

فهو غير مطعون^(٥) عندي في ما قاله ، ولا منسوب إلى أنّه أراد التّقصيص^(٦) من عليّ عليه السلام والقدرح فيه ، ولكنه أخبر عن خلقه ظانّاً أنّ الخلافة لا تصلح إلّا لشديد الشّكيمة ، العظيم الوعورة ، ومقتضى ما كان يظنّه من هذا المعنى تمّ خلافة أبي بكر بمشاركته إتياء في جميع تدبيراته وسياسته وسائر أحواله ، لرفق وسهولة كانت في أخلاق أبي بكر .

ومقتضى هذا الخلق المتمكّن عنده ، كان يشير على رسول الله ﷺ في مقامات كثيرة وخطوب

(١) زاد في المصدر : ٣٤٢ : حتّى يدميها .

(٢) العول : أن تزيد السهام في الأرث على المال الموجود .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٤٣ ، والدرة : السوط يضرب به .

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٢٦ ، والدعابة : اللّعب والممازحة .

(٥) في المصدر : غير ملوم .

(٦) في المصدر : الغضّ .

متعدّدة ، بقتل قوم كان يرى قتلهم ، وكان النبي ﷺ يرى استبقاءهم واستصلاحهم ، فلم يقبل ﷺ مشورته على هذا الخلق ، كما أشار ^(١) عليه يوم بدر بقتل الأسرى ، حيث أشار أبو بكر بالفداء ، فكان الصّواب مع عمر ، ونزل القرآن بموافقته ، فلمّا كان في اليوم الثاني ، وهو يوم الحديبية ، أشار بالحرب وكره الصّلاح ، فنزل القرآن بضدّ ذلك ، فليس كلّ وقت يصلح تجريد السيّف ، ولا كلّ وقت يصلح إغماده ، والسّياسة لا تجري على منهاج واحد ، ولا تلزم نظاما واحدا ^(٢) .

إلى أن قال : ونحن نذكر كلاما كلّيا في سبب الغلظة والفظاظة ، وهو الخلق المنافي للخلق الذي عليه أمير المؤمنين ﷺ ، فنقول : إنّّه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسماني ، وقد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسماني ، وقد يكون لإمر راجع إلى النّفس ، فأما الأوّل فإنّما يكون لغلبة الأخلاط السّوداوية وترمّدها ^(٣) ، وعدم صفاء الدّم وكثرة كدورته وعكره ، فإذا غلظ الدّم وتخنّ ، غلظ الرّوح النّفساني وتخنّ أيضا ؛ لأنّه متولّد من الدّم فيحدث منه نوع ممّا يحدث لأصحاب الفطرة من الاستيحاش ، والنّبوة ^(٤) عن النّاس ، وعدم الاستئناس والبشاشة ، وصار صاحبه ذا جفاء ، وأخلاق غليظة ، ويشبهه أن يكون هذا سببا ماديا . فإنّ الذي يقوى [في نفسي أنّ النّفوس] إن صحّت وثبتت ، مختلفة بالذّات .

وأما الرّاجع إلى النّفس فإنّ يجتمع عندها أقساط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة ، نحو أن تكون القوّة الغضبيّة عندها متوقّرة ، [وينضاف إليها تصوّر الكمال في ذاتها وتوهمّ النقصان في غيرها ، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب وأن الصّواب ما توهمه] وينضاف إلى ذلك لجاح وضيق [في] النفس ، وحدّة واستنشاق ^(٥) وقلة صبر عليه ، فيتولّد من مجموع هذه الأمور خلق ديني ، وهو الغلظة ، والفظاظة ، والوعورة ، والبادرة المكروهة ، وجبّهم محنة ^(٦) النّاس ، ولقاؤهم بالأذى ، وقلة المراقبة لهم ، واستعمال القهر في جميع الأمور ، وتناول الأمر من السّماء وهو قادر على أن يتناوله من الأرض .

وهذا الخلق خارج عن الاعتدال ، وداخل في حيّز الجور ، ولا ينبغي أن يسمّى بأسماء المدح ، وأعني بذلك أنّ قوما يسمّون هذا النوع من العنف والخلق الوعر رجوليّة وشدة وشكيمة ، ويذهبون به مذهب قوّة النّفس وشجاعته ، [الذي] هو بالحقيقة مدح . وشتان ما بين الخلقين ، فإنّ صاحب هذا

(١) في المصدر : وأما إشارته .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٢٧ .

(٣) أي صيرورتها بلون الرّماد .

(٤) النّبوة : الجفوة والابتعاد .

(٥) في المصدر : استنشاق .

(٦) في المصدر : المكروهة ، وعدم حبّه .

الخلق الذي ذمناه ، تصدر عنه أفعال كثيرة يجور بها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم الأقرب فالأقرب ^(١) ، حتى ينتهي إلى عبيده وحرمة ، فيكون عليهم سوط عذاب ، لا يقللهم عثرة ، ولا يرحم لهم عبدة ، وإن كانوا برآء من الذنوب ، غير مجرمين ، ولا مكتسبي سوء ، بل يتجرّم عليهم ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم حتى ييسط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم ، بل يدعون له ، ويقترّون بذنوب لم يقترفوها ، استكفاً لعاديته ، وتسكيناً لغضبه ، وهو في ذلك يستمرّ على طريقته ، لا يكفّ يدا ولا لساناً.

وأصل هذا الخلق الذي ذكرناه أنّه مركّب من قوى مختلفة شدّة : القوّة الغضبيّة ، فهي الحاملة لصاحب هذا الخلق على ما يصدر عنه من البادرة المكروهة ، والجبه والقحة ^(٢) ، ولهذا رأينا وشاهدنا من تشدّد القوّة الغضبيّة فيه فيتجاوز الغضب عن نوع الإنسان إلى البهائم التي لا تعقل ، وإلى الأواني التي لا تحسّ ، فربما قام إلى الحمار والبرذون فضرّهما ولكرهما ، وربما كسر الآنية لشدّة غضبه ، وربما عضّ القفل إذا تعسّر عليه ، وربما كسر القلم إذا تعلّقت به شعرة من الدّواة واجتهد في إزالتها فلم تزل.

ثم حكى عن الزبير بن بكار بعض سيّئات عمر عند غضبه والشّنان ^(٣) الذي كان بينه وبين طلحة ، حتى همّ أن يوقع به ، وحتى همّ طلحة أن يجاهره ، وطلحة هو الذي قال لأبي بكر عند موته : ماذا تقول لربك وقد وليت فينا فظاً غليظاً ؟ وهو القائل له : يا خليفة رسول الله ، إنّا كنّا لا نحتمل شرّاسته وأنت حيّ تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّت وهو الخليفة ؟

ثم قال ابن أبي الحديد : واعلم أنّا لا نريد بهذا القول ذمّه رضى الله عنه ، وكيف نذمّه وهو أولى الناس بالمدح والتّعظيم ، ليمن نقيته ، وبركة خلافته ، وكثرة الفتوح في أيّامه ، وانتظام أمور الإسلام على يده ، ولكنّا أردنا أن نشرح حال العنف والرّفق ، وحال سعة الخلق وضيقه ، وحال البشاشة والعبوس ، وحال الطّلاقة والوعورة ^(٤) .

في نقل كلام ابن أبي الحديد في حسن خلق أمير المؤمنين عليه السلام وحلمه

إلى أن قال : في حلم أمير المؤمنين عليه السلام وصفحه ولينه ، حلمه وصفحه عن مروان بن الحكم بعد وقعة الجمل ، وظفره عليه ؛ مع أنّه من أشدّ الناس عداوة له ، وصفحه عن عائشة وإرجاعها إلى المدينة محترمة مكرّمة ، ومعاملته مع أهل البصرة معاملة رسول

(١) في المصدر : على الأقرب فالأقرب من معاليه.

(٢) الجبه : المقابلة بما يكره الآخر ، والقحة : هي قلة الحياء والاحتراء على فعل المساوئ.

(٣) في المصدر : الشّان.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٣٤٠ - ٣٤٤.

الله ﷺ مع أهل مكة بعد الفتح ، مع أنهم حاربوه وضربوا وجهه ووجه أولاده بالسيف ، وواجهوه بالشتم واللعن ^(١) .

وقال أيضا في مقدمة شرحه : إنه ﷺ كان أحلم الناس . ثم استشهد بحلمه عن هؤلاء وغيرهم من أعدائه ، مع قدرته على الانتقام . إلى أن قال : وأما سجاحة الأخلاق ^(٢) ، وبشر الوجه ، فإنه ﷺ المضروب به المثل ، حتى عابه بذلك أعداؤه ... ^(٣) إلى آخره .

وإنما بسطنا الكلام وخرجنا عما هو المقصود من وضع الكتاب في المقام ؛ لأن يشهد الورق عند الله على ولايتي لأوليائه ، وبراءتي من أعدائه يوم القيامة .

ثم أنه تعالى بعد مدح نبيه باللين والرفق ، رتب عليه الأمر بلوازمه اهتماما به ، بقوله : ﴿فَاعْفُ﴾ وتجاوز ﴿عَنْهُمْ﴾ في ما يتعلق بحقوقك ، كما عفا الله عنهم في ما تعلق بحقوقه من الذنب ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَهُمْ﴾ في جميع معاصيهم ، إتماما للشفقة عليهم ، وإكمالا للبر بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ واستطلع آراءهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ المهم عندك ، حربا كان أو غيره ، لتطيب قلوبهم ، والإحاطة بمراتب عقولهم وخلوصهم وحبهم ، وتعليمهم المشورة في الأمور ، وإجراء تلك السنة في الأمة .

روى الفخر الرازي : عن الواحدي ، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : الذي أمر النبي ﷺ بمشاورته في هذه الآية أبو بكر وعمر ^(٤) .

ثم قال : وعندي فيه إشكال ؛ لأن الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم في هذه الآية هم الذين أمره بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم ، وهم المنهزمون . فهب أن عمر كان منهم فدخل تحت الآية ، إلا أن أبا بكر ما كان منهم ، فكيف يدخل تحت هذه الآية ؟ ^(٥) .

في استفادة قدح الشيخين من رواية ابن عباس

أقول : وبعد أنه نفسه روى أن عمر كان من المنهزمين ^(٦) ، واتفاق أكثر أصحابه عليه ، لم يكن مجال لقوله : (هب أنه كان منهم) لدلالة هذا الكلام على عدم التسليم . ثم بعد تسليمه دلالة رواية ابن عباس بالالتزام على أن أبا بكر كان من المنهزمين ، لا وجه لإنكاره ، وجعله وجها للأشكال في الرواية ، مع أن ابن عباس كان أتقن من غيره ، وتأيدها بالاعتبار ، لوضوح عدم كون أبي بكر أقوى إيمانا وأربط جأشا من عمر ، ولدلالة الإخاء الذي جعله الرسول ﷺ بينهما على أهما فرسا رهان .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) سجاحة الأخلاق : ليونتها وسهولتها .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢٥ .

(٤) و٥ . تفسير الرازي ٩ : ٦٧ .

(٦) تفسير الرازي ٩ : ٥٠ .

ثم أنّ الرواية دالة على قدح عظيم فيهما ، حيث إنّها - لدلالاتها على تخصيص المشورة بهما ، مع وضوح أنّ مشورة النبي ﷺ كانت لتطيب القلوب - دالة على أنّ حفظ الإسلام كان موقوفاً على تطيب قلوبهما ، وحفظ خاطريهما أزيد من تطيب قلوب المنهزمين ؛ لأنّه لا يؤمن مع ملالة خاطريهما على النبي ﷺ من إخلالهما في أمره ، وإفسادهما في دينه ، فافهم.

وعن العياشي رحمه الله : كتب الجواد عليه السلام إلى علي بن مهزيار « أن سل فلانا أن يشير عليّ ويتخيّر لنفسه ، فهو يعلم ما يجوز في بلده ، وكيف يعامل السلاطين ، فإنّ المشورة مباركة ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ في محكم كتابه - وتلا هذه الآية وقال - : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني : الاستشارة » (١) .

في (نهج البلاغة) : « من استبدّ برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها » (٢) .

وفيه : « الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « وشاور في أمرك الذين يخشون الله » (٤) .

ثم نبّه سبحانه على وجوب التوكّل على الله في إنجاح المقصود بعد المشاورة ؛ بقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وأحكمت الرأي بعد المشاورة على عمل ، واطمأنت به نفسك ، فلا تعتمد عليه ، بل إذا أردت إنفاذه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واعتمد عليه فيه ، حتّى يرشدك إلى ما هو أصلح وأرشد لك ، حيث إنّّه لا يعلم ما هو الأصلح من جميع الجهات في الواقع إلّا الله ، لا أنت ولا من تشاوره.

في معنى التوكّل

ثم بيّن سبحانه فضيلة التوكّل ترغيباً إليه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ في أمورهم عليه ، حيث إنّ التوكّل على الله ، وتفويض الأمور إليه ، لا يكون إلّا بعد معرفته ، ومعرفته ملازمة لمحبتّه ، ومن أحبّ الله أحبّه الله ، ومن أحبّه الله نصره وهداه إلى كلّ خير وصالح.

قيل : إنّ الآية دالة على أنّ التوكّل ليس معناه أن يهمل الإنسان نفسه ، ولا يراعي الأسباب الظاهرة ، كما توهمه كثير من الجهّال ، وإلّا لكان أمره تعالى بالمشاورة منافياً لأمره بالتوكّل ، بل معناه أن يراعي الإنسان جميع الأسباب والمعدّات الظاهرية ، ولكن لا يعوّل بقلبه عليها ، بل يعوّل على لطف الله وعصمته.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٤٨ / ٨٠٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٤ .

(٢) نهج البلاغة : ٥٠٠ / ١٦١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٤ .

(٣) نهج البلاغة : ٥٠٦ / ٢١١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٤ .

(٤) الحصال : ١٦٩ / ٢٢٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٤ .

ثم بالغ سبحانه في حث المؤمنين على التَّوَكُّل ، بتوجيه الخطاب إليهم تشريفا لهم وتحبيبا ، بقوله : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون على أعدائكم ، كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الموجودات ، ولا قاهر عليكم من الممكنات ، بل أنتم الغالبون القاهرون ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ الله ، ويترك نصركم ، ويخلي بينكم وبين الأعداء ، كما خذلكم يوم احد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ على الأعداء ، ويقدر على عونكم في الأمور ﴿مَنْ بَعْدِهِ﴾ وعند خذلانه.

ثم بعد التنبيه على أنَّ جميع الأمور من التَّصَرُّع ، والخذلان ، وغيرهما ، بإرادة الله وقضائه ، أكد وجوب التوكل على عباده ، بقوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده دون غيره استقلالاً وتشريكا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كلهم في كلِّ الأمور ، وليعتمد على لطفه العارفون ، لاستلزام العرفان والإيمان به ، سلب القدرة عن النفس ، وتفويض الأمور إليه ، والاعتماد بلطفه وفضله.

في فضيلة التوكل

عن عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل سبعون ألفا من أمّتي الجنة بغير حساب » . قيل : يا رسول الله ، من هم ؟ قال : « هم الذين لا يكيّدون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

فقال عكاشة بن محصن : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . قال ﷺ : « أنت منهم » ، ثم قام آخر ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « سبقك بها عكاشة » . وقال ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله ، يرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا » ^(١) .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلَ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١)

ثم أنه روي أنَّ الرّماة الذين تركوا المركز يوم احد ، وأفاضوا في طلب الغنيمة ، قالوا : نخشى أن يقول رسول الله ﷺ : من أخذ شيئا فهو له ، ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتّى يأتيكم أمري ؟ » . فقالوا : تركنا بقيّة إخواننا وقوفا ، فقال ﷺ : « بل ظننتم أننا نغلّ ^(٢) ولا نقسم بينكم » ^(٣) .

فنزّه الله تعالى نبيّه عن الغلول والخيانة بقوله : ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصحّ وينبغي ﴿لِنَبِيِّ﴾ ولا يستقيم له ،

مع

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١١٧ .

(٢) الغلّ : الخيانة .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

كونه أمين الله في أرضه ﴿أَنْ يَغْلُ﴾ المسلمين ، ويخونهم في الغنيمة ، لغاية التناهي بين ذلك المنصب ، الذي هو أعلى درجة كمال الإنسانية ، وبين الخيانة التي هي سبب للعار في الدنيا ، والنار في الآخرة .
وروي أنه ﷺ بعث طلّاع ، فغنم النبي ﷺ بعدهم ، فقسّمها بين الحاضرين ، ولم يترك للطلّاع شيئا ، فنزلت (١) .

والمعنى : ما كان لنبي أن يعطي قوما من العسكر الغنيمة ، ويمنعها من الآخرين ، بل عليه أن يقسّمها بين الكلّ بالسوية . وإثما عبّر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول للتغليظ في النهي .
وعن ابن عباس رضي الله عنه : أن أشرف الناس طمعوا أن يخصّهم النبي ﷺ من الغنائم بشيء زائد ، فنزلت (٢) .

وروي أنه ﷺ غنم في بعض الغزوات وجمع الغنائم ، وتأخّرت القسمة لبعض الموانع ، فجاء قوم فقالوا : ألا تقسّم غنائمنا ؟ فقال النبي ﷺ : « لو كان لكم مثل احد ذهباً ما حبست عنكم درهما ، أتحيسون أنّي أغللكم مغنمكم ! » فأُنزل الله هذه الآية (٣) .

وعن القمي رحمه الله : نزلت في حرب بدر ، وكان سبب نزولها أنه كان في الغنيمة التي أصابوها يوم بدر قطيفة حمراء ففقدت ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : ما لنا لا نرى القطيفة ؟ ما أظنّ إلّا رسول الله أخذها ! فأُنزل الله في ذلك هذه الآية ، فجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : إنّ فلانا غلّ قطيفة ، فاحفرها (٤) هنالك ، فأمر رسول الله ﷺ بحفر ذلك الموضع ، فأخرج القطيفة (٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ رضا الناس لا يملك ، وألسنتهم لا تضبط ، ... ألم ينسبوه يوم بدر إلى أنّه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتّى أظهر الله القطيفة ، وبرأ نبيّه من الخيانة ، وأنزل في كتابه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ الآية (٦) . وعن عكرمة ما يقرب منه (٧) .

وروي أنّها نزلت في أداء الوحي ، [حيث] كان ﷺ يقرأ القرآن ، وفيه عيب دينهم ، وسبّ أهّتهم ، فسألوه أن يترك ذلك ، فنزلت (٨) .

ثمّ أنّه تعالى بعد تنزيه الأنبياء عن الغلول بيّن شدّة قبحه وحرّمته تأكيدا لنزاهتهم عنه ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ ويخون في مال في الدنيا ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ وخان فيه بعينه ، حاملا [له] على ظهره ﴿يَوْمَ﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

(٤) في المصدر : فاحبأها .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٢٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٥ .

(٦) أما لي الصدوق : ١٦٤ / ١٦٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٥ .

(٧) تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

(٨) تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

في حرمة الخيانة وشدة عذابها

عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه قال : يمثل له ذلك الشيء في قعر جهنم ، ثم يقال له : أنزل إليه فخذ ، فينزل إليه ، فإذا انتهى إليه حمله على ظهره ، فلا يقبل منه ^(١) .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « ألا لأعرفن أحدكم يأتي ببيعير له رغاء ، وببقرة لها حوار ، وبشاة لها ثغاء ، فينادي : يا محمد ، يا محمد ! فأقول : لا أملك لك من الله شيئا ، فقد بلغتك » ^(٢) .

وعنه ﷺ قال : « من بعثناه على عمل فغلّ شيئا ، جاء يوم القيامة يحمله على عنقه » ^(٣) .
 قيل لأبي هريرة : كيف يأتي بما غلّ وهو كثير كبير ، بأن غلّ أموالا جمّة ؟ فقال : أ رأيت من كان ضرسه مثل احد ، وفخذه مثل جبل ^(٤) ، وساقه مثل ودقان ^(٥) ، ومجلسه ما بين المدينة وريدان ^(٦) ، يحمل مثل هذا ؟ وقيل : إنّ المراد : يأت بما احتمل من إثمه ^(٧) .

﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ وتعطى كاملا ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت في مدّة عمرها من جزاء عملها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ شيئا ، لا بزيادة العذاب ، ولا بتقصيص الثواب .

قيل : كان المناسب أن يقال : ثم يوفى الغال ما كسب ^(٨) ، وإنما عدل عنه إلى حكم عموم الناس ليكون كالبرهان على المقصود ، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كلّ كاسب مجزيّا بعمله ، فالغال مع عظم جرمه أولى بذلك ^(٩) .

روي أنّ النبي ﷺ جعل سلمان رضوان الله عليه على الغنيمة ، فجاءه رجل وقال : يا سلمان ، كان في ثوبي خرق ، فأخذت خيطا من هذا المتاع فخطته به ، فهل عليّ جناح ؟ فقال سلمان : كلّ شيء بقدره ، فسلّ الرجل الخيط من ثوبه ، ثم ألقاه في المتاع ^(١٠) .

وروي أنّ رجلا جاء النبي ﷺ بشراك ^(١١) أو شراكين من الغنم ، فقال : أصبت هذا يوم خير ، فقال النبي ﷺ : « شراك أو شراكان من نار » ^(١٢) .

وروي أنّ رجلا رمي بسهم في خير ، فقال القوم لما مات : هنيئا له الشّهادة ، فقال [النبي ﷺ] : « كلاً .

(١) تفسير الرازي ٩ : ٧٣ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٧٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٦٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

(٤) جبل : منطقة يراد بها العراق .

(٥) ودقان : اسم موضع .

(٦) ريدان : حصن باليمن .

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

(٨) في النسخة : توفى الغال ما كسبت .

(٩) تفسير روح البيان ٢ : ١١٨ .

(١٠) تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

(١١) الشّراك : سير التعل على ظهر القدم .

(١٢) تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

والذي نفس محمد بيده، إنّ الشّملة^(١) التي أخذها من الغنائم قبل قسمتها لتلهب^(٢) عليه نارا^(٣) .
وعنه عليه السلام قال : « هدايا الولاة غلول »^(٤) .

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسْ

الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾

ثم أكد سبحانه تنزه النبي صلى الله عليه وسلم عن الخيانة ببيان التناهي بين مرتبة النبوة المستلزمة للتمحّض في طاعة الله وطلب مرضاته ، وبين ارتكاب الظلم الذي هو أشدّ القبائح وأكبر المعاصي ، بقوله : ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وسعى في العمل بطاعته ، من الإيمان به وباليوم الآخر ، وامتثال أحكامه التي منها حرمة الغلول.

وقيل : إنّ المعنى : أمن اتقى فاتبع رضوان الله يمكن أن يكون ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ ورجع إلى محضر عدله ملتبسا ﴿بِسَخَطِ﴾ عظيم ، وغضب شديد ، ومستحقا للعذاب الأليم الكائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ العظيم بسوء أعماله ، وعظم معاصيه ؟

عن الصادق عليه السلام : « الذين اتّبعوا رضوان الله هم الأئمة عليهم السلام »^(٥) .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « والذين باءوا بسخط من الله هم الذين جحدوا حقّ علي عليه السلام ، وحقّ الأئمة منّا أهل البيت ، فباءوا لذلك بسخط الله »^(٦) .

﴿و﴾ كان ﴿مَأْوَاهُ﴾ ومستقرّه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ والدرك^(٧) من النار ، ﴿و﴾ هي ﴿يُسْ الْمَصِيرُ﴾ قيل : الفرق بين المصير والمرجع : أنّ المصير يجب أن يخالف المقرّ الأول ، وليس كذلك المرجع.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾

ثم أنّه تعالى - بعد بيان المبانيّة بين المطيع والعاصي - نبّه على أنّ النفوس الإنسانية مختلفة بالماهية والحقيقة ، كما عليه جمع من الحكماء ، ودلّت عليه روايات الطيّنة^(٨) ، وحديث : « الناس كمعادن الذهب والفضة »^(٩) بعضها نورانية ، وبعضها ظلمانية ، وبعضها زكية ، وبعضها بليدة.

ولما كان اختلافها في درجات القرب والبعد دائرا مدار هذا الاختلاف ، عبّر عنه بنفس الدرجات

(١) الشّملة : ثوب أو كساء من صوف أو شعر ، يتغطّى به أو يتلفّف به.

(٢) في تفسير الرازي : لتلهب.

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٧٠ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٦٩ .

(٥ و ٦) . تفسير العياشي ١ : ٣٤٩ / ٨٠٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٦ .

(٧) الدّرك : أسفل كل شيء.

(٨) انظر الكافي ٢ : ٢ باب ١ .

(٩) بحار الأنوار ٦١ : ٦٥ / ٥١ .

بقوله : ﴿هُم﴾ بسبب اختلاف أحوالهم وتباين أخلاقهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ وطبقات متفاوتة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه وحكمه ، فكما أنّ أهل الجنة مختلفون في الدرجات ، كذلك أهل النار مختلفون في الدرجات .
عن الرضا عليه السلام : « الدرجة ما بين السماء والأرض » (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « الأئمة والله ، درجات للمؤمنين ، وبموالاتهم ومعرفتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم ، ويرفع لهم الدرجات العلى » (٢) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « [أن] أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل يخذى له نعلان من نار يغلي من حرهما دماغه ، ينادي : يا ربّ ، وهل أحد يعذب عذابي ؟ » (٣) .

قيل : في الآية حذف ، والتقدير : لهم درجات ، أو : هم ذوو درجات .
ثم لما كان توفية جزاء الأعمال ، وعطاء الدرجات بها ، متوقفة على العلم بها ، بين سعة علمه بقوله : ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ ومحيط علما ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات ، بحيث لا يعزب عنه مثقال ذرة .

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ (١٦٤)﴾

ثم بالغ سبحانه في الزجر عن نسبة الغلول وكلّ ما لا يليق بساحة نبيه إليه ، ووجوب حفظ حرمة ، والالتزام بطاعته ، ومعرفة قدره ، ببيان كونه صلى الله عليه وآله من أعظم نعم الله على أهل العالم ، بقوله : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ وتفضل بنعمة عظيمة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غير توقع عوض . وتخصيصهم بالامتنان لزيادة انتفاعهم بها ، وإن كانت نعمة على المؤمن والكافر ، بل نعمة على العالمين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم ﴿رَسُولًا﴾ عظيم الشأن .

في فوائد كون الرسول صلى الله عليه وآله من العرب

ومن كمال تلك النعمة أنّ ذلك الرسول كان ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومن جنسهم ليأنسوا به ، ومن أهل لسانهم ليفهموا لسانه ، ومن قبيلتهم ليكونوا واقفين على أخلاقه وكمالاته ، ويفتخروا على العالم بالانتساب إليه ، أو كونهم قومه ، حيث إنّ حصل للعرب بكونه صلى الله عليه وآله عربيا شرف عظيم بعد كونهم قبل بعثته من أذلّ الناس وأبعدهم من شؤون الإنسانية .

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٠ / ٨٠٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٦ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٤٩ / ٨٠٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٧٦ .

قيل : إنّ من فوائد كونه ﷺ من أنفسهم وجوه :

الأول : أنّه ﷺ ولد فيهم وفي بلدهم ، ونشأ فيما بينهم ، وهم كانوا عارفين بأحواله ، مطّلعين على جميع أقواله وأفعاله ، فما شاهدوا منه من أوّل عمره إلى آخره إلّا الصّدق والعفاف ، وعدم الالتفات إلى الدّنيا ، والبعد عن الأخلاق الرّذيلة والكذب. ثم ادّعى النّبوة والرّسالة ، التي يكون الكذب في مثل هذه الدّعوى من أقبح أنواع الكذب ، فمن عرفه بهذه الكمالات يغلب على ظنّه ، بل يتيقّن أنّه صادق في هذه الدّعوى.

الثاني : أنّهم كانوا عالمين بأنّه ﷺ لم يتلمذ لأحد ، ولم يقرأ كتابا ، ولم يمارس درسا ولا تكرارا ، وأنّه إلى تمام الأربعين لم ينطق قطّ بحديث النّبوة والرّسالة. ثمّ أنّه بعد الأربعين ادّعى الرّسالة ، وظهر على لسانه من العلوم ما لم يظهر على لسان أحد من العالمين ، وذكر قصص المتقدّمين وأحوال الأنبياء الماضين على الوجه الذي كان موجودا في كتبهم ، فكلّ من له عقل سليم علم أنّ هذا لا يتأتّى إلا بالوحي السّماوي ، والإلهام الإلهي.

الثالث : أنّه بعد ادّعاء النّبوة ، عرضوا عليه الأموال الكثيرة والأزواج ليترك هذه الدّعوى ، فلم يلتفت إلى شيء من ذلك ، بل قنع بالفقر وصبر على المشقّة ، ولما علا أمره ، وعظم شأنه ، وأخذ البلاد ، وعظمت الغنائم ، لم يغيّر طريقه في البعد عن الدّنيا ، والدّعوى إلى الله. والكاذب إنّما يقدم على الكذب ليجد الدّنيا ، فإذا وجدها تمتّع بها ، وتوسّع فيها ، فلمّا لم يفعل شيئا من ذلك علم أنّه كان صادقا.

الرابع : أنّ الكتاب الذي جاء به ليس فيه إلّا تقرير التّوحيد ، والتّنزيه ، والعدل ، والنّبوة ، وإثبات المعاد ، وشرح العبادات ، وتقرير الطّاعات. ومعلوم أنّ كمال الإنسان في أن يعرف الحقّ لذاته ، والخير لأجل أن يعمل به ، ولما كان كتابه ليس إلّا في تقرير هذين الأمرين ، علم كلّ عاقل أنّه صادق في ما يقوله. الخامس : أنّ قبل مجيئه كان دين العرب أرذل الأديان ، وهو عبادة الاوثان ، وأخلاقهم أرذل الأخلاق ، وهي الغارة ، والنّهب ، والقتل ، وأكل الأطعمة الرّديئة. ثمّ لما بعث الله محمّدا ﷺ نقلهم الله ببركة مقدمه ^(١) ، من تلك الدّرجة التي هي أحسن الدّرجات ، إلى أن صاروا أفضل الامم في العلم والزّهد والعبادة ، وعدم الالتفات إلى الدّنيا وطبّياتها. ولا شكّ أنّ فيه أعظم النّعمة والمنّة.

إذا عرفت هذه الوجوه ، فنقول : إنّ محمّدا ﷺ ولد فيهم ، ونشأ فيما بينهم ، وكانوا مشاهدين

لهذه

(١) في النسخة : بلغهم الله بتركه مقدمة.

الأحوال ، مطلّعين على هذه الدلائل ، فكان إيمانهم مع مشاهدة الأحوال أسهل ممّا إذا لم يشاهدوها ، ولم يطلّعو عليها ^(١) .

وروي عن أبي طالب رضوان الله عليه أنّه قال في خطبته ، عند تزويج خديجة : ثم إنّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، من لا يوزن به فتى من قريش إلّا رجح به ، وهو والله له نبأ ^(٢) عظيم ^(٣) .

ثم بيّن الله سبحانه أعظم فوائد بعثته من تكميل قوّتي العلميّة والعمليّة فيهم ، بقوله : ﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أولاً ، لإثبات صدق دعوته ، وكونه مبعوثاً من جانب الله ﴿آيَاتِهِ﴾ القرآنيّة المشتملة على علوم كثيرة ، مع إعجاز البيان الدالّ على كونها ممّا أوحى إليه بعدما كانوا جهّالاً لم يسمعوا الوحي ، ﴿وَوُكِّلَ لَهُ﴾ بعد ذلك ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من أدناس العقائد الفاسدة ، والأهواء الرّائغة ، والأرجاس الجاهليّة ، وأنجاس الأخلاق الرّذيلة ، والأعمال السيّئة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بعد التّلاوة ذلك ﴿الْكِتَابَ﴾ المنزل ، ويبين لهم حقائقه وتأويلاته ، ويوضّح متشابهاته ، ﴿وَيُؤْتِيهِمُ﴾ يدرّسهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ والسّنن الإلهيّة .

ثم بالغ سبحانه في إيضاح كمال النّعمة بقوله : ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ كلّهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بعثته ، وفي الأزمنة المتطاولة السّابقة على طلوع شمس نبوّته ، وإشراق نور هدايته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وتيه الجهالة متحيّزين ، يرعون كالبهائم في مرعى الشّهوات ، ويتردّدون عمى العيون في الظّلمات .

في نقل رؤيا عبد المطلب

روى العامّة من طرقهم : أنّ عبد المطلب جدّ النبي ﷺ ، بينما هو نائم في الحجر انتبه مذعورا ، قال العباس : فتبعته ، وأنا يومئذ غلام أعقل ما يقال ، فأتى كهنة ^(٤) قريش فقال : رأيت كأنّ سلسلة من فضّة خرجت من ظهري ، ولها أربعة أطراف : طرف قد بلغ مشارق الأرض ، وطرف قد بلغ مغاربها ، وطرف قد بلغ عنان السّماء ، وطرف قد جاوز الثّرى ، فبينما أنا أنظر عادت شجرة خضراء لها نور ، فبينما أنا كذلك إذ قام عليّ شيخان فقلت لأحدهما : من أنت ؟ قال : أنا نوح نبيّ ربّ العالمين ، وقلت للآخر : من أنت ؟ قال : إبراهيم خليل ربّ العالمين ، ثمّ انتبهت .

قالوا : إن صدقت رؤياك ، ليخرجنّ من ظهرك من ^(٥) يؤمن به أهل السّماوات وأهل الأرض ، ودلّت السّلسلة على كثرة أتباعه وأنصاره وقوّتهم ، لتداخل حلق السّلسلة ، ورجوعها شجرة تدلّ على ثبات أمره وعلوّ ذكره ، وسيهلك من لم يؤمن به كما هلك قوم نوح ، وستظهر به ملّة إبراهيم ﷺ ^(٦) .

أقول : هذه الرّواية والرّواية السّابقة دالتان على إيمان عبد المطلب ، وأبي طالب ﷺ به ﷺ قبل

(١) تفسير الرازي ٩ : ٧٩ و ٨٠ .

(٢) في النسخة : بناء ، وفي روح البيان : والله له بعد هذا نبأ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١٢٠ .

(٤) الكهنة : جمع كاهن ، وهو المنجم عند العرب .

(٥) في تفسير روح البيان : نبيّ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ١٢١ .

﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بعد ما نَزَّهَ نَبِيَّهَ عَنِ الْغُلُولِ ، وَبَيَّنَّ امْتِنَاعَ صُدُورِ ذَلِكَ الْفِعْلِ الشَّنِيعِ مِمَّنْ لَهُ مَنْصِبُ النَّبَوَّةِ - أَشَارَ سَبْحَانَهُ إِلَى الشَّبَهَةِ الَّتِي أَلْقَاهَا الْمُنَافِقُونَ بَيْنَ الضَّعْفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَيَحْتَمُّ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ : ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ﴾ قالوا : الاستفهام للتوبيخ ، والمعنى : أحياناً أصابتكم من المشركين في احد ﴿مُصِيبَةٍ﴾ وبليَّةٍ ؛ من القتل والجرح ، مع أنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ في يوم بدر منهم ﴿مِثْلَيْهَا﴾ وأوردتم عليهم من القتل والجرح والأسر ضعف ما ورد عليكم ، جزعتم ؟ و﴿قُلْتُمْ﴾ إنكاراً للنَّبَوَّةِ ، أو استبعاداً لما وقع ﴿أَنَّى هَذَا﴾ البلاء ؟ ومن أين هذه الغلبة للمشركين ؟ ولأَيِّ وجه صاروا منصورين ؛ مع شركهم وكفرهم ؟ ونحن ننصر رسول الله . وقال المنافقون : لو كان مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لما أصيب المؤمنون ، ولما انهزم عسكره من الكُفَّار .

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائة وأربعين رجلاً ؛ قتلوا سبعين رجلاً ، وأسروا سبعين ، فلَمَّا كان يوم أحد أصيب من المسلمين سبعون رجلاً ، فاغتموا لذلك » (١) .
ثمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ بِأَنْ يبيِّنَ لَهُمْ سَبَبَ الْإِصَابَةِ ، رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَتَنْبِيْهًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ﴾ لهم : لا تشكُّوا في نبوّتي لأجل ما أصابكم ، إذ ﴿هُوَ﴾ كائن ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ . ونازل عليكم بسوء فعالكم وعصيانكم .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « هو باختياركم الفداء يوم بدر » (٢) .
عن القمّي رحمه الله : كان الحكم في الأسارى يوم بدر القتل ، فقامت الأنصار فقالوا : يا رسول الله ، هبهم لنا ولا تقتلهم حتّى نفاذهم ، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال : إنّ الله قد أباح لهم الفداء بأن يأخذوا من هؤلاء القوم ويطلقوهم ، على أن يستشهد منهم في عام قابل بعدد من يأخذون منهم الفداء ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بهذا الشرط ، فقالوا : قد رضينا به ، فأخذ العام الفداء من هؤلاء ونتقوى به ، ويقتل منا في عام قابل بعدد من نأخذ منه الفداء ، وندخل الجنة .
فأخذوا منهم الفداء وأطلقوهم ، فلَمَّا كان يوم أحد قتل من أصحاب رسول الله ﷺ سبعون ، فقالوا :

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٠ / ٨٠٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٦ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨٧٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٧ .

يا رسول الله ، ما هذا الذي أصابنا ، وقد كنت تعدنا النصر ؟ فأنزل الله : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ﴾ إلى قوله : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي بما شرطتم يوم بدر ^(١) .

وروى الفخر الرازي في تفسيره ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يقرب منه ^(٢) .

ثم أنه تعالى لزيادة الروعة في قلوب المؤمنين ، وارتداعهم عن المعصية ، نبههم بقدرته الكاملة ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من العقوبة بالقتل والمصائب ، والنصر والخذلان ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه شيء عن إنفاذ إرادته ، ولا يحتاج إلى شيء في إجراء مشيئته .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمْ
الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٦) (١٦٧)﴾

ثم أشار سبحانه إلى عدم انحصار سبب المصيبة في ما ذكر بقوله : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ من المصائب ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ وحين تلاقى العسكران ؛ عسكر المسلمين ، وعسكر المشركين عند جبل احد ﴿فَيَاذَنْ اللَّهُ﴾ وتقديره وإرادته التي هي عين العلم بحكم كثيرة ﴿وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويظهر إيمانهم ﴿وَلْيَعْلَمْ
الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ مع الرسول أصحابه ، ويظهر كفرهم ، وهم عبد الله بن أبي ، ومعتب بن قشير وأصحابهما ، حيث خذلوا المسلمين ، وانصرفوا يوم احد عن رسول الله ﷺ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عند ذلك ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ والقاتل عبد الله بن حزام ، أبو جابر ، قال : يا قوم ، اذكروا الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ﴿تَعَالَوْا﴾ وارجعوا إلى الجهاد و﴿قَاتِلُوا﴾ المشركين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه إن كنتم تحبون الله ورسوله ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ عنا الأعداء بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا ، فإن كثرة السواد مما يروّع العدو ، ويزيد في الهيبة والعظمة في نظرهم .

وقيل : إن المراد : ادفعوا العدو عن بلدكم وأهلكم وحريمكم ، وقاتلوا دونهم إن لم تقاتلوا في سبيل الله .

وعلى أي تقدير ، فلما رأوا إلحاح عبد الله بن حزام وإصراره في منعهم عن الانصراف ﴿قَالُوا﴾ في جوابه دغلا واستهزاء بالرسول والمؤمنين : ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾ ما يصح أن يسمى ﴿قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وساعدناكم عليه ، إلا أنه ليس بقتال ، لعدم كونه عن تدبير ورأي متين ، بل هو إلقاء النفس في التهلكة . وإنما قالوا ذلك لأن عبد الله بن أبي كان يرى الإقامة في المدينة ، ولم يستصوب الخروج إلى احد .

(١) تفسير القمي ١ : ١٢٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٨٢ .

ثم كشف الله سريرتهم بقوله : ﴿هُم لِلْكَفْرِ﴾ لكونه راسخا في قلوبهم ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين انصرفهم ، وقولهم ما قالوا ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لكونه لعقة على ألسنتهم وقيل : المراد أنّ هؤلاء المنافقين لأهل الكفر أقرب نصرة يوم احد منهم لأهل الإيمان ؛ لأنهم بالانعزال عن عسكر المسلمين أعانوا المشركين عليهم .

وفيه نصّ من الله تعالى على كفرهم في الباطن ، وإن كانوا بالإقرار بالشهادتين في الظاهر بحكم المسلمين .

ثم بالغ سبحانه في تثبيت نفاقهم بقوله : ﴿يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المنافقون ، ويتكلمون نفاقا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألسنتهم ﴿مَا لَيْسَ﴾ معناه وحقيقته ، من الإيمان بالله والرسول ، أو أتباعكم في القتال ، داخلا وثابتا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بل ما يظهرونه من الإيمان والموافقة مبين لما يضمرونه من الكفر والمخالفة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ، بل من أنفسهم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ عنكم ، وما يسترون في ضمائرهم ، من الكفر بالله والرسول ، ومن بغضكم ومخالفتكم .

عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه حال ضعفاء الإيمان : « ومن ضعف يقينه أنّه يتعلّق بالأسباب ، ويرخص نفسه بذلك ، ويتّبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة ، ويسعى في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها ، يقرّ باللسان أنّه لا مانع ولا معطي إلا الله ، وأنّ العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ^(١) .

أقول : فيه دلالة على أنّ إظهار كلّ مرتبة من الإيمان يكون خلاف ما في مكنون القلب ، نفاق ، ومشمول للآية الكريمة .

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾

ثم بالغ سبحانه في تفضيح المنافقين ، بإفشاء ما كانوا أسروه من قول سيء آخر ، بقوله : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ والموافقين معهم في التّفاق ، وعداوة الرسول ﷺ ﴿وَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ عن الجهاد ، وتحلفوا عنه : إنّ الجماعة الذين قاتلوا في احد وقتلوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ واتبعوا رأينا في الإقامة في المدينة ، وقعدوا عن القتال ، كما قعدنا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نقتل .

(١) مصباح الشريعة : ١٧٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٧ .

ثم أمر الله نبيه ﷺ بردهم ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ؛ تبكيئا لهم ، وإثباتا لفساد ظنهم ، وإظهارا لكذبهم : ﴿فَادْرُوا﴾ وادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بالحيل والتدابير ﴿الْمَوْتَ﴾ الذي تكرهونه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ما يبنى عنه قولكم ، من أن الحذر يدفع القتل عمن كتب عليه ، ويطيل الأجل المحتوم ، فإذا التزمتم بأن الموت مما لا يمكن دفعه بالحذر والتدبير ، لكونه بقضاء الله وإرادته ، فكذلك القتل وخصوصياته ، من زمانه ومكانه ، يكون بقضاء الله ، لا ينفذ الحذر منه في دفعه ، ولا يفيد الفرار في تأخيرها . فكل من قتل كان قتله بسبب كونه مكتوبا عليه ، لا بسبب عدم حذره ، وكل من لم يقتل لم يكن القتل مكتوبا عليه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩)

ثم لما كان تحرز المنافقين عن الشهادة مبنيا على حساب أن القتل موت ، وانقطاع حياة ، وحرمان من النعم واللذائذ ، ردهم الله سبحانه بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونالوا الشهادة في طريق مرضاته وطاعته ، من الجهاد وغيره ، كشهداء احد ، ولا تظنهم ﴿أَمْواتًا﴾ منقطعين عن الحياة ، محرومين عن النعم ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءُ﴾ بالحياة الأبدية ، مقرَّبون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مستغرقون في رحمة مليكهم ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من ثمار الجنة ، ويتنعمون بالنعم الدائمة ، ويتلذذون بما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين .

فلو فرض أن التدبير يكون مفيدا في دفع القتل ، إلا أن القتل في سبيل الله مما يجب على العاقل السعي في تحصيله ، والمصارعة إليه ، لكثرة فوائده . وإثما وجه الخطاب إلى النبي ﷺ ؛ مع أن المقصود أمته ، ونهاه عن الحساب مع أنه منزّه عنه ، لشرافته ولإشعاره بأن التبشير من وظائفه .
عن الباقر عليه السلام : « أُنْزِلَتْ فِي شَهَادَةِ (١) اِحْدِ (٢) » .

وروي أنهم كانوا سبعين ، أربعة من المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن شهاب ، والبقية من الأنصار رضوان الله عليهم (٣) .
وعنه عليه السلام قال : « أتى رجل رسول الله ﷺ ، قال : إني راغب نشيط في الجهاد ، قال : فجاهد في سبيل

(١) زاد في تفسير الصافي : بدر و .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨٨١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ١١١ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٢٣ .

الله ، فإنّك إن تقتل كنت حيّا عند الله ترزق ، وإن تموت فقد وقع أجرك على الله ، ولكن رجعت خرجت من الذنوب إلى الله. هذا تفسير ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ الآية « (١) » .

في حال أرواح المؤمنين في البرزخ

وعن النبي ﷺ : « أرواحهم في أجواف طيور خضر ، وأنهم يرزقون ، يأكلون ويتنعمون » (٢) .
وعنه ﷺ ، قال : « لما أصيب إخوانكم باحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ، تدور في أنهار الجنة » (٣) .

وفي رواية : « ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلّ العرش » (٤) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه قيل له : يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش ، فقال : « لا ، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حواصل طير ، ولكن في أبدان كأبدانهم » (٥) .
أقول : يمكن أن يكون وجه اختلاف الروايات ، اختلاف المؤمنين في مراتب الكمال.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ

خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في بيان حسن حال الشهداء ، بأنهم - مع عدم دخول الحزن في قلوبهم على ما فاتهم من حياة الدنيا ونعيمها - يكونون ﴿فَرِحِينَ﴾ مسرورين غاية السرور ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وحباهم من الكرامات الكائنة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه الخاصّ بهم من شرف الشهادة الموجبة لحسن الذكر في الدنيا ، والمحبة الشديدة في قلوب المؤمنين ، والزلفى من الله تعالى ، ونيل النعم الدائمة غير المتناهية في الآخرة.
عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أبشرك أنّ أباك حيث أصيب باحد أحياء الله ، ثمّ قال : ما تريد يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك ؟ فقال : يا ربّ اريد أن تردني إلى الدنيا فاقتل فيك مرة أخرى » (٦) .

في بيان بقاء الأرواح بعد الموت

ثمّ اعلم أنّه قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية ، بل بالضرورة من جميع الأديان ، أنّ الأرواح باقية بعد موت الأجساد وانحلالها ، ودلت الروايات الكثيرة على أنّ لها

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٠ / ٨٠٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٨ .

(٢ و ٣) . تفسير أبي السعود ٢ : ١١٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ١١٢ .

(٥) الكافي ٣ : ٢٤٤ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٩ .

(٦) تفسير الرازي ٩ : ٩٠ .

تعلّقاً بالأجساد المثاليّة التي هي جواهر تلك الأجساد ، سارية فيها سريان النّار في الفحم ، والدّهْن في السّمسم ، والماء في الورد.

فالروح بهذا التعلّق تلتدّ باللذائذ الجسمانيّة من الأكل والشّرب وغيرهما ، وتعذّب بالنّار والعقارب والسّلاسل وغيرها ، فإذا لم يدلّ دليل قاطع على امتناع ذلك التعلّق والحياة ، والتّنعّم والتّعذيب ، وجب المصير إليه والالتزام به ، ولا يصغى إلى الشّبّهات التي اوردت على ثواب القبر والتّنعّم البرزخيّة بل الظّاهر أنّ أرواح الشّهداء والكاملين من المؤمنين لها تعلّق خاصّ بأبدانهم العنصريّة ، به تحفّظ من البلاء.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنّه لما أراد معاوية أن يجري العين على قبور الشّهداء ، أمر بأن ينادى : من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع. قال جابر : فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان ، فإن أصابت المسحاة إصبع رجل منهم قطرت دما ^(١) . وفي ذلك روايات وحكايات كثيرة لا تحصى.

ثمّ أخبر الله سبحانه بلدّهم الرحانيّة ، بقوله : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويسرّون بالبشارة ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وبحسن حال إخوانهم وأقربائهم الذين لم يقتلوا معهم في الجهاد ، وبقوا في الدّنيا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ومن بعد شهادتهم ، وتقرّ عينهم بالإخبار بأنّ من حسن حالهم ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نيل مكروه إنّ قتلوا ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ على فوات مطلوب إن لم يقتلوا ؛ حيث إنّهم أيضا يفوزون بالحياة الأبدية والتّنعّم الدّائمة إن ماتوا.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه ، في رواية : فلمّا رأوا طيب مسكنهم ومطعمهم ومشربهم قالوا : يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من التّنعّم ، وما صنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد ، فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ، ومبلّغ إخوانكم ، وفرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله هذه الآية ^(٢) .

وعن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام ، قال : « هم والله شيعتنا ، حين صارت أرواحهم في الجنّة ، وأسقبلوا الكرامة من الله عزّ وجلّ ، علموا واستيقنوا أنّهم كانوا على الحقّ ، وعلى دين الله عزّ وجلّ ، فاستبشروا بمن لم يلحقوا بهم من إخوانهم من خلفهم من المؤمنين » ^(٣) .

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾

(١) تفسير الرازي ٩ : ٩٣ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٩٠ .

(٣) الكافي ٨ : ١٥٦ / ١٤٦ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٦٩ .

ثم أخبر سبحانه بأن استبشارهم بحسن حال إخوانهم ليس بصرف فراغ قلوبهم من الخوف والحزن ، بل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مع ذلك في حق إخوانهم ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لا يقادر قدرها ﴿وَفَضْلٍ﴾ عظيم أو زيادة كثيرة على ما يتوقع لهم من ثواب الأعمال ، لا يعلمها إلا الله .
وقيل : إن البشارة الأولى فقط متعلقة بإخوانهم ، وأما الثانية فإنها متعلقة بأنفسهم ، وبيان ما أجمل في قوله : ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ﴾ .

ثم أكد تلك البشارة بقوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى بكرمه ، ولتعالى ذاته عن ارتكاب القبيح ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يبطل ثواب من تنور قلبه بنور اليقين ، [سواء] قتل في سبيل الله أو بقي حيا في طاعة الله .

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾

ثم أنه روي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من احد وبلغوا الروحاء ^(١) ندموا ، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا قليل فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم ، فهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يهرب الكفار ويريه من نفسه ومن أصحابه قوة ، فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان ، وقال : « لا اريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال ، فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه - قيل : كانوا سبعين رجلا - حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهو [موضع] من المدينة على ثلاثة أميال ، فألقى [الله] الرعب في قلوب المشركين فانهمزوا ^(٢) .

فمدح الله المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ بقوله : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وأطاعوا أمرهما بالخروج في طلب قريش ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ وأنختهم الجراح في وقعة احد .
عن القمي رحمه الله : أن النبي ﷺ لما دخل المدينة ، من وقعة احد ، نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ، ولا يخرج معك إلا من به جراحة ، فأمر رسول الله ﷺ مناديا ينادي : يا معشر المهاجرين والأنصار ، من كان به جراحة فليخرج ، ومن لم يكن به جراحة

(١) الروحاء : موضع على ستة وثلاثين ميلا من المدينة .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٩٧ .

فليقم ، فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويدأوونها ، فخرجوا على ما بهم من الألم والجراحات .
 فلما بلغ رسول الله ﷺ حمراء الأسد ، وقريش قد نزلت الرّوحاء قال عكرمة بن أبي جهل ،
 والحارث بن هشام ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد : نرجع ونغير على المدينة ، قد قتلنا سراهم ،
 وكبشهم - يعنون : حمزة - فوافاهم رجل من المدينة فسأله الخبر فقال : تركت محمّدا وأصحابه بحمراء
 الأسد يطلبونكم جدّ الطلب ، فقال أبو سفيان : هذا التّكد والبغي ، فقد ظفرنا بالقوم وبغيها ، والله ما
 أفلح قوم قطّ بغوا .

فوافاهم نعيم بن مسعود الأشجعي ، فقال أبو سفيان : أين تريد ؟ قال : المدينة ، لأمتار لأهلي
 طعاما ، قال : هل لك أن تمرّ بحمراء الأسد ، وتلقى أصحاب محمّد ، وتعلمهم أنّ حلفاءنا وموالينا قد
 وافونا من الأحابيش ، حتّى يرجعوا عنّا ، ولك عندي عشرة قلائص أملاها تمرا وزيبيا ؟ قال : نعم .
 فوافى من غد ذلك اليوم حمراء الأسد ، فقال لأصحاب رسول الله ﷺ : ما تريدون ؟ قالوا : قريشا
 ، قال : ارجعوا ، إنّ قريشا قد اجتمعت إليهم حلفاؤهم ، ومن كان تخلف عنهم ، وما أظنّ إلّا أنّ أوائل
 خيلهم يطلعون عليكم السّاعة ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما نبالي ، فنزل جبرئيل ﷺ على رسول
 الله ﷺ فقال : ارجع يا محمّد فإنّ الله قد أربع قريشا ، ومروا لا يلوون على شيء ، فرجع رسول الله
 ﷺ إلى المدينة ، وأنزل الله ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية (١) .

وروي أنّه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ، ثمّ كان المحمول يحمل حامله ساعة اخرى ،
 وكان فيهم من يتوكّأ على صاحبه ساعة ، ويتوكّأ عليه صاحبه ساعة ، كلّ ذلك لإثخان الجراحات فيهم
 .(٢)

وقيل : إنّ الآية نزلت في يوم احد لما رجع النّاس إليه ﷺ بعد الهزيمة ، فشدّ بهم حتّى كشف
 المشركين ، وكانوا قد همّوا بالمثلّة ، فدفعهم عنها بعد أن مثلوا بحمزة ﷺ فقذف الله في قلوبهم الرّعب
 فانهزموا ، وصلى عليهم رسول الله ﷺ ودفنهم بدمائهم (٣) .
 وروي أنّ صفية جاءت لتتنظر إلى أخيها حمزة ، فقال النبي ﷺ للزّبير : « ردها لئلا تجزع من مثله
 أخيها » فقالت : قد بلغني ما فعل به ، وذلك يسير في جنب طاعه الله تعالى فقال ﷺ للزّبير : « فدعها
 تنظر إليه » . فقالت خيرا واستغفرت له (٤) .

وقيل : جاءت امرأة قد قتل زوجها وأبوها وأخوها وابنها ، فلما رأت النبي ﷺ وهو حيّ قالت :

إنّ

(١) تفسير القمي ١ : ١٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٦٩ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ٩ : ٩٧ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٩٨ .

كلّ مصيبة بعدك هدر^(١) .

في قضية بدر الصغرى

ثمّ أنّه تعالى بعد الثناء عليهم وعدهم بقوله : ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعة أوامر الله ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله في مخالفة نواهية ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسع البيان وصفه.

ثمّ أنّه روي عن الباقر عليه السلام : « أنّ أبا سفيان قال يوم احد ، حين أراد أن ينصرف : يا محمد ، الموعد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى ، القابل^(٢) إنّ شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك بيننا وبينك » ، فلمّا كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكّة حتّى نزل مجنّة من ناحية مرّ الظّهان^(٣) ، ثمّ ألقى الله عليه الرّعب ، فبدا له في الرّجوع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي^(٤) - وفي رواية اخرى : فمرّ به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للميرة - فقال له أبو سفيان : إيّ واعدت محمّدا وأصحابه أن نلتقي موسم بدر الصغرى ، وإنّ هذا عام جذب ، ولا يصلحنا إلّا عام نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي أن لا نخرج إليها ، وأكره أن يخرج محمّد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة ، فالحق بالمدينة وثبتهم ، ولك عشرة من الإبل أضعها على يد سهيل بن عمرو .

فأتى نعيم بن مسعود المدينة فوجد النّاس يتجهّزون لميعاد أبي سفيان ، فقال لهم : بئس الرّأي رأيكم ، أتوكم في قراركم فلم يفلت منكم إلّا شريد ، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم ، فو الله لا يفلت منكم أحد ، فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لأخرجنّ ولو وحدي ، وأما الجبان فإنّه رجع . وأما الشّجاع فإنّه تأهّب للقتال . وقال : حسبنا الله ونعم الوكيل »^(٥) .

فمدحهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الذين استقبلوا من بني عبد قيس ، أو المراد نعيم بن مسعود ، وإطلاق (النّاس) عليه لكونه من جنسهم وكلامه كلامهم ، أو لأنّه انضمّ إليه ناس من منافقي المدينة وأذاعوا كلامه : ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ وهم أبو سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا﴾ حلفاءهم ومواليهم ﴿لَكُمْ﴾ وتظاهروا إلى حربكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ أيّها المسلمون ، ولا تخرجوا إليهم فتهلكوا ، فلم يلتفت المؤمنون المخلصون إلى قولهم ﴿فَرَادَهُمْ﴾ التّرهيب ﴿إِيمَانًا﴾ وبقينا وثباتا على نصره الإسلام ، وخلوصا في التّيّة ، وتأهبوا للقتال ﴿وَقَالُوا﴾ عند التّخويف ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكفانا مؤنة الأعداء ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ربّنا .

(١) تفسير الرازي ٩ : ٩٨ .

(٢) في النسخة : نقاتل .

(٣) مجنّة : اسم سوق للعرب في الجاهلية ، قرب جبل يقال له : الأصغر بأسفل مكّة ، ومرّ الظّهان : موضع على مرحلة من مكّة .

(٤) مجمع البيان ٢ : ٨٨٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٠ .

(٥) مجمع البيان ٢ : ٨٨٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧١ ، وصدر الرواية في تفسير روح البيان ٢ : ١٢٧ .

روي أنه هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ^(١) .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ووافي بدر الصغرى ، وهو ماء لبني كنانة ، وكان موضع سوق للعرب في الجاهلية يجتمعون إليه في كل عام ثمانية أيام ، فأقام صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان ، وقد أنصرف أبو سفيان من مجنة إلى مكة فسمّاهم أهل مكة جيش السّويق ^(٢) ؛ ويقولون : إنّما خرجتم تشربون السّويق .

ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ببدر ، ووافق السوق ، وكانت لهم تجارات ، فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ ورجعوا من بدر الصغرى إلى المدينة مصاحبين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من العافية والسلامة والزيادة في الإيمان واليقين ﴿وَفَضْلٍ﴾ وزيادة كثيرة في المال ، بسبب الرّيح في التجارة ، مضافا إلى أنه ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ ولم يصيبهم مكروه أصلا ولو أقلّ قليل ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ في سفرهم ذلك ، وطاعتهم الرّسول في الأفعال والأقوال ﴿رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدّنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ﴾ بحبه للمؤمنين ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عليهم من توفيقهم للتّبات على الإيمان ، والتّوطين على لقاء الأعداء ، والجهد في سبيل الله ، والتّصلّب في الدّين ، وحفظهم من كلّ سوء في الدّنيا ، وذو عطاء جسيم عليهم بالجنة والتّعمة الدّائمة ، وحفظهم من كلّ مكروه في الآخرة .

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥)

ثمّ ذمّ الله سبحانه الّذين خوّفوا المسلمين ، وقرّع المتبّطين ^(٣) الّذين تخلفوا وعصوا الرّسول صلى الله عليه وسلم جينا ، بقوله : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المضلّ المغوي بوسوسته وشيطنته ، وإلقاءه على لسان الرّكب ، أو نعيم بن مسعود ﴿يُخَوِّفُ﴾ من سطوة المشركين ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ ومطيعيه من المنافقين وضعفاء المؤمنين .

وقيل : إنّ المراد : الشّيطان يخوّفكم أيّها المؤمنون من أوليائه المشركين ، كأبي سفيان وأصحابه ، لتقعدوا عن قتالهم .

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾ في مخالفة أوامري ، وأوامر رسولي ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بي وبرسالة

(١) مجمع البيان ٢ : ٨٨٩ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١١٤ .

(٢) طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمّي بذلك لانسياقه في الحلق .

(٣) في النسخة : المتبّطين

رسولي ؛ لأنّ عذابي في الآخرة شديد.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾

ثمّ لما كان سعي الكفار - في تخويف المؤمنين ، وتضعيف أمر الإسلام ، وارتداد قوم من المسلمين الضّعفاء خوفا من قريش - موجبا لحزن النبي ﷺ ، وكسر قلبه الشريف ، أخذ الله في تسليته بقوله : ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ﴾ المنافقون وضعفة المسلمين ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ لشدة حرصهم على الدنيا ، وحبهم الحياة ، في الدّخول ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ بالارتداد ، أو بمظاهرة الكفار ، والسّعي في إبطال أمر رسالتك. قيل : إنّ المنافقين كانوا بعد وقعة احد يخوّفون المؤمنين من المشركين ، ويؤيسونهم من النصر والغلبة ، ويقولون : إنّ محمّدا طالب ملك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا ما غلب وهذه الأقوال كانت تنقّر المسلمين عن الإسلام.

وقيل : إنّما نزلت في كفّار قريش ، والله جعل رسوله آمنا من شرهم ، والمعنى ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بأن يقصدوا جمع العساكر ﴿إِنَّهُمْ﴾ بهذا الصّنع ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ وأوليائه ﴿شَيْئًا﴾ بل إنّما يضرون أنفسهم به أشدّ الضّرر ، ويهلكونها أسوء هلاك.

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة تركه إيتاهم على ما هم عليه من الانهماك في الكفر ، والسّعي في إطفاء نوره الحقّ ، والجدّ في مشاقّة النبي ﷺ ومعارضته بقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أن يظهر ما في ذواتهم من الخباثة ، ويصل استعدادهم الدّائي بأعمالهم السيّئة إلى مقام الفعلية حتّى لا تبقى فيهم قابلية التّفصّل ، و﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ﴾ بسبب عدم الأهلية ﴿حَظًّا﴾ وإن كان قليلا ، ونصييا وإن كان يسيرا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ والدّار الباقية من الرّحمة والثّواب ﴿وَلَهُمْ﴾ مضافا إلى الحرمان الكلّي من الثّواب ، بدلا منه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم عظّمته إلّا الله العظيم ، فإنّ عظمة عذابهم لعظمة شأن المسارعة في الكفر عندهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾

ثمّ أكّد الوعيد بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾ واستبدلوا ﴿الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بأن اختاروا لأنفسهم الكفر ، وتركوا الإيمان الذي كان لوضوح دلائله وسهولة مآخذه كأثّه في ملكهم وقبضتهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ ورسوله والمؤمنين أبدا ﴿شَيْئًا﴾ يسيروا من الضّرر ، بل يضرون أنفسهم ضررا كثيرا ،

ويخسرون بصفقتهم خسرانا مبينا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

قيل : لما كانت العادة باغتيال المشتري بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وبتألمه عند كونها خاسرة ، وصف الله عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك .

﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا

﴿إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨)

ثم لما كان تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ يتوهم أن البقاء في الدنيا خير من القتل في سبيل الله ، وأن حياتهم وطول تعيشتهم أنفع من شهادة شهداء احد ، أبطل الله ذلك التوهم بقوله : ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتخلّفوا عن رسول الله ﷺ حباً للحياة ، ولم يطيعوه في الخروج إلى الجهاد ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ونطيل في أعمارهم في الدنيا ، وتعيشهم فيها .

قيل : إنّ (ما) موصولة ، وقيل : مصدرية . وعليه يكون المعنى لا يتوهمون أنّ إمهالهم في الدنيا وإبقاءهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأصلح ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ ولا تسرّ قلوبهم بطول عيشتهم فيها ، لأنّ إمهالنا إياهم ليس بداعي الإحسان إليهم ، بل ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ونطيل أعمارهم ﴿لِيَزْدَادُوا﴾ بازدياد خبثهم في كلّ آن من الآثام ﴿إِنَّمَا﴾ على آثامهم من الاستمرار على الكفر والطغيان ، واشتداد بغضهم للحقّ ، وجدهم في محقّ الدين ومحو آثاره ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصّة بتلك الآثام في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم زائداً على ما في عذاب غيرهم من المهانة والذلّ .

قيل : إنّما وصف سبحانه عذابهم بالوصف لأنّه كان غرضهم من البقاء في الدنيا التعرّز والتكبر فيها ، والتمنّع بطبيعتها وزينتها .

عن النبي ﷺ : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشرّ الناس من طال عمره وساء عمله » (١) .

وعن العياشي : عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن الكافر ، الموت خير له أم الحياة ؟ فقال : « الموت خير للمؤمن والكافر ؛ لأنّ الله يقول : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ » (٢) ، ويقول : ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ » (٣) .

روي أنّه قال الله تعالى لرسول الله ﷺ ليلة المعراج : « إنّ من نعمي على أمتك أيّ قصّرت أعمارهم كي لا تكثّر ذنوبهم ، وأقللت أموالهم كي لا يشتدّ في القيامة حسابهم » (٤) .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٣٠ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٩٨ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٥١ / ٨١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ١٣٠ .

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾

ثم أكد الله سبحانه علّية امتحان المؤمنين في التكليف بالمشاق ، من أمرهم بتعقيب المشركين مع ما بهم من ألم الجراحات ، وبالخروج في العام القابل إلى بدر الصغرى بقوله : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ بحكمته البالغة يريد ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين منكم أيها المسلمون ويتركهم ﴿عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الاختلاط واستتار الحال ، بل عليه تعالى أن يقدر الأمور ، ويسبب الأسباب من جعل التكليف الشاقة ، وتسلط الكفار ، وإيراد المحن والبليّات ، والبعث إلى الغزوات وغيرها ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ المنافق ﴿الْخَيْثَ﴾ الذّات ، السيء السّرية ﴿مِنْ﴾ المؤمن المخلص ﴿الطَّيِّبِ﴾ النفس ، المنور الفكر ويظهر حال كلّ منهما بظهور ما في قلوبهم من الكفر والإيمان ، والغدر والصدق ، وما في ضمائرهم من النّيّات الحسنة والسيّئة .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ لما في علمة من النّظام الأتم ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأن يعلمكم بما في القلوب والضّمائر بغير الأسباب الظاهرية والعادية ، وليس من حكمته أن يوحى إلى كلّ أحد : أنّ هذا مؤمن خالص ، وهذا كافر منافق ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ ويصطفى ﴿مِنْ﴾ بين جماعة ﴿رُسُلِهِ﴾ وأنبيائه العظام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلامه بالمعيبات فيخصّه بعلمها ، ويوحى إليه : أن هذا مؤمن مخلص ، وذاك منافق غادر . وقيل : إنّ المراد : ولكنّ الله يمتحن الفريقين بأن يجتبي من يشاء من خلقه للرّسالة ، ويخصّه بالشرّعة ، وأحكام شاقّة بإطاعته وعصيانته يمتاز الفريقان .

ثم بعد ذكره سبحانه مصلحة الابتلاء بالمكاره والتكاليف الشاقّة ، وأنّ التفاق لا ينتج إلاّ الفضيحة في الدارين ، أمر الناس بالإيمان الخالص عن شوب التفاق بقوله : ﴿فَأَمِنُوا﴾ أيها الناس إيمانا خالصا ﴿بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ لظهور دلائل التّوحيد والتّبوّة ، بحيث لم يبق لأحد عذر في التّشكيك والامتناع . قيل : في ذكر جميع الرّسل هنا إشعار بأنّ ملاك الإيمان بجميع الرّسل واحد ، وهو ظهور المعجزة ، فمن آمن برسول كان عليه الإيمان بالجميع .

ثم أردف سبحانه أمره بالإيمان بالوعد بالثّواب تأكيدا وإشعارا بعظم فائدته ، بقوله : ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسله عن صميم القلب ﴿وَتَتَّقُوا﴾ التفاق ، وعصيان الله ، ومخالفة أوامر الرّسل ﴿فَلَكُمْ﴾ بمقابل الإيمان والتّقوى في الدّنيا والآخرة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ من الله لعظم شأن الإيمان والتّقوى عنده تعالى

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠)

ثم - لما كان من دأب الله تعالى في كتابه العزيز أنه كلما أمر بالجهاد أردفه بالحث على إنفاق المال ، لكمال الارتباط بينهما ، وتوقف الحرب على المال ، وقد بالغ سبحانه في الآيات السابقة في التحريض على بذل النفس في الجهاد ، وفي دفع توهم أن الحياة خير منه - شرع في الحث على بذل المال ، والردع من توهم أن البخل ومنع حقوق الله خير منه ، بقوله : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الْمُؤْتِرُونَ﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴿وَوَهَبَ لَهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ﴾ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَإِحْسَانَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَدْخَلٌ فِيهِ وَاسْتِحْقَاقٌ ، البخل بما وجدوه من المال ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ وأنفع ﴿لَهُمْ﴾ من صرفه في سبيل الله ، فإنه حسابان باطل ؛ لأنه ليس في البخل وجمع المال ومنع حقوق الله خير أصلاً ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ محض ﴿لَهُمْ﴾ لأنه موجب لابتلائهم بأشدّ العقوبات ، حيث إنهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ﴾ وسيجعل ذلك المال - الذي امتنعوا من إنفاقه في سبيل الله حباً له وشحاً عليه - طوقاً في عنقهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

عن (الكافي) : عن الباقر والصادق عليهما السلام ، قال : « ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ، ينهش من لحمه ، حتى يفرغ من الحساب ، وهو قول الله : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ما بخلوا به من الزكاة » (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : تجعل تلك الزكاة الممنوعة في عنقهم كهيئة الطوق ، شجاعاً (٢) ذا زبيبتين (٣) يلدغ بهما خديّه ، ويقول : أنا الزكاة [التي] بخلت في الدنيا بي (٤) .

أقول : ظاهر الروايتين أن عين مال الزكاة بصورتها الواقعية البرزخية يصير طوقاً في عنق البخيل . وقيل : المراد : سيطوقون وبال ما بخلوا به . ويؤيده ما روي عن الصادق عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : ما من ذي زكاة مال ، نخل أو زرع أو كرم [يمنع زكاة ماله] ، إلا قلده الله تربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين إلى يوم القيامة » (٥) .

(١) الكافي ٣ : ٥٠٢ / ١ و : ٥٠٤ / ١٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٣ .

(٢) الشجاع : الحيّة .

(٣) الزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة والكلب .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ١١٤ .

(٥) الكافي ٣ : ٥٠٣ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٣ .

وقيل : إنّ المعنى : سيكلفون أن يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة.

وقيل : إنّ المعنى سيلزمون إنّم ما بخلوا به في الآخرة. وهذا على طريق التمثيل.

ثمّ لما كان للجاهل مجال توهم أنّ مبالغته تعالى في الحثّ على إنفاق المال لمكان حاجته ، دفع ذلك التوهم بالتنبيه على غنائه المطلق ، بقوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده من غير شريك ﴿مِيراثُ﴾ أهل ﴿السَّمَاوَاتِ وَ﴾ أهل ﴿الْأَرْضِ﴾ وما يخلفونه عند موتهم ، فلا يبقى لأحد ملك إلّا له ، وكلّ ملك باطل إلّا ملكه سبحانه.

ويحتمل أن يكون ذكر هذه القضية للإشعار بأنّه إذا كانت الأملاك زائلة غير باقية لأحد ، يكون منع الحقوق والبخل به خلاف العقل. وفيه تأكيد في الحثّ على الإنفاق.

ثمّ بالغ سبحانه في الوعيد على ترك الإنفاق ، بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الحرص على جمع الأموال والتعزّز بها ، ومنع الحقوق الواجبة فيها ﴿خَيْرٌ﴾ ومطلّع لا يخفى عليه خافية. وحاصل المضمون : أنّه ما لهم ييخلون بالزّكاة والحقوق الماليّة الواجبة ، مع كونه في غاية الضّرر عليهم ، وعدم بقاء الأموال لهم ، وغنائه تعالى عنهم ، وشدّة حاجتهم إلى الأداء ، وإحاطته تعالى بخفّيات أعمالهم ، واشتداد غضبه تعالى على سيئاتهم.

وقيل : إنّ قراءة (تعملون) بالتاء - على الالتفات إلى الخطاب - أبلغ في الوعيد.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد الحثّ على الإنفاق ، وذمّ البخل ، ودفع توهم الحاجة إلى الخلق عن ساحته المقدّسة - تعرّض لقول من نسب إليه الحاجة ، بقوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وعلم ، كعلمكم بالمسموعات ﴿قَوْلَ﴾ اليهود ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ استهزاء بالقرآن ، أو إلزاما للمسلمين : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ عديم المال ، محتاج إلى أموالنا ، حيث سأل منّا الصدقات ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لاستقراضه منّا.

قيل : في التعبير عن العلم بهذا القول الشنيع بالسمع إيذان بأنّه من الشناعة والقباحة بمكان لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع^(١) .

روي أنّ النبي ﷺ كتب مع أبي بكر إلى يهود [بني] قينقاع يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى إقامة الصلّة ، وإيتاء الزّكاة ، وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم^(٢) ، فوجد

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٣٥ .

(٢) المدراس : بيت تدرس فيه التوراة.

ناسا كثيرا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص بن عازوراء ، وكان من علمائهم ، ومعه خبر آخر يقال له : أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ، فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا ، يدخلك الجنة ، ويضاعف لك الثواب. فقال فنحاص : يا أبا بكر ، تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا ! وما يستقرض إلا الفقير من الغني ، فإن كان ما تقول حقا فإن الله فقير ونحن أغنياء ، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة. وقال : والذي نفسي بيده ، لو لا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكاه ووجد ما قاله ، فنزلت الآية ردا عليهم (١) .

وقيل : القائل حيي بن أخطب (٢) .

وعن القمي رحمه الله ، قال : والله ، ما رأوا الله فيعلموا أنه فقير ، ولكنهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا : لو كان غنيا لأغنى أوليائه ؛ ففخروا على الله بالغنى (٣) .

وعن (المناقب) : هم الذين زعموا أن الإمام يحتاج (٤) إلى ما يحملونه إليه (٥) .

ثم هدّد الله سبحانه القائلين على قولهم الشنيع بقوله : ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ في صحيفة الكتبة أو المراد: سنثبت في القرآن ، أو نحفظ في علمنا ، للاهتمام بالحفظ ﴿ مَا قَالُوا ﴾ من هذا القول السيئ ، لتعذيبهم عليه ، أو لإبقاء شينته عليهم إلى آخر الدهر. وقيل : إن المراد : سنثبت عليهم إثم هذا القول وعقوبته. و(السين) دال على التأكيد.

ثم أردف سبحانه أقوالهم الشنيعة بأعمالهم التي في الشناعة كأقوالهم ، بقوله : ﴿ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ المقرّين ، مع كونهم عالمين أنه ﴿ يَغْيِرُ حَقِّ ﴾ وجرم.

وفيه تنبيه على أن من كان في الجهالة والشقاوة بدرجة يكون قاتلا للأنبياء ، أو راضيا بفعل من قتلهم ، أو من نسلهم ، لا يعد منه هذا القول الشنيع الذي في العظمة مثل ذلك الفعل.

ثم بالغ في التهديد بقوله : ﴿ وَنَقُولُ ﴾ لهم عند الموت ، أو في المحشر ، أو بعد قراءتهم الكتاب: ادخلوا النار ، و ﴿ ذُوقُوا ﴾ واطعموا ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ وأنظروا كيف طعمه ، كما أذقتهم المرسلين والمسلمين مرارة الكرب والغصص.

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٣٤ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٨٩٨ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٢٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٣ .

(٤) زاد في المصدر : منهم .

(٥) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٤٨ .

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾

ثمّ نبّههم بأنّه حقّ عليكم ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الشّدِيد الدّائم ، وصرّتم مستحقّين له جزاء ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ وبما عملت جوارحكم في الدّنيا من قتل الأنبياء ، وھتك الحرّمات ، وإخافة الأولياء ، والتّفوّه بمثل هذا القول الشّنيع ، والتّجري على الله باقتراف المعاصي .

﴿وَوَاعِلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ حكيم ، عدل ﴿لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وليس بمعذّب بغير ذنب ، لتنافي الحكمة والعدل مع الظّلم والإيلام بغير الاستحقاق ، حيث إنّ مقتضى الحكمة وضع الشّيء في ما وضع له ، ومقتضى العدل إعطاء كلّ شيء ما يستحقّه ، وهما مع الظّلم - الذي هو التعذيب من غير أهليّة واستحقاق - متضادّان .

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا الْآلَ نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (١٨٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد اليهود على قولهم الذي فيه هتك حرّمته وحرمة كتابه ، هدّدهم على قولهم الآخر الذي فيه إبطال رسالة رسوله ، بقوله : ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ قيل : التّقدير : لقد سمع الله أيضا قول اليهود الذين قالوا إبطالا لدعوى الرّسول ، واعتذارا من عدم الإيمان به ، مع مشاهدتهم المعجزات الباهرات ، واستماعهم الآيات التّيّرات : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بتوسّط أنبيائه ﴿عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ وأخذ الميثاق الأكيد منّا ﴿الْآلَ نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ﴾ من الرّسل ، ولا نصدّق دعوى أحد منهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ مدّعي الرّسالة ﴿بِقُرْآنٍ﴾ وتفدية الله ، وصدقة مال يجعله له ويتقرّب إليه ، فيقبله الله منه ، و﴿تَأْكُلُهُ﴾ وتحرقه ﴿النّارُ﴾ وكان ذلك علامة القبول ، ودليل صدقه ، كما كان عليه أمر أنبياء بني إسرائيل .

عن عطاء ، أنّه قال : كان بنو إسرائيل يذبحون لله ، فيأخذون الثّروب وأطايب اللّحم فيضعونها في وسط بيت والسّقف مكشوف ، فيقوم النّبي في البيت ويناجي ربّه ، وبنو إسرائيل خارجون واقفون حول البيت ، فتنزل نار بيضاء لها دويّ خفيف ولا دخان لها ، فتأكل ذلك القرّبان ^(١) .

وعن ابن عبّاس رضی اللّٰه عنہ ، قال : نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، ومالك بن الصّيف ، ووهب بن يهوذا ، وزيد بن التّابوب ^(٢) ، وفنحاص بن عازوراء ، وغيرهم ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمّد ، تزعم أنّك رسول الله ، وأنّه تعالى أنزل عليك كتابا ، وقد عهد الله إلينا في التّوراة أن لا

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٢١ .

(٢) في النسخة : التّابوبوت .

نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار ، ويكون لها دويّ خفيف ، تنزل من السماء ، فإن جئتنا بهذا صدّقناك. فنزلت هذه الآية (١).

ثم لما كان ذلك السؤال من باب التّعنت بهذه المعجزة ، وأنّ أنبياءهم أتوهم ومع ذلك قتلوهم ، كزكريّا ، ويحيى ، وعيسى ، باعتقادهم ، مع أنّ العهد الذي ادّعوه كان من مفترياتهم وأباطيلهم ؛ لوضوح أنّه لا ينحصر دليل صدق النبيّ في هذه المعجزة ، بل كلّ معجزة كافية في إثبات التّبوّة لاشتراك الجميع في كونه خارجا عن طوق البشر ، وتصديقا من الله لدعوى من أتى بها.

ومن الواضح أنّ السؤال التّعنتي لا يحسن إجابته ، أمر الله نبيّه ﷺ بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، تبكيتا لهم ، وإظهارا لكذبهم في أنّ عدم إيمانهم بك لعدم إتيانك بقرآن تأكله النار : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ وأتى أسلافكم الذين تتخلقون أنتم بأخلاقهم ، وتتبعون آثرهم ﴿رُسُلٌ﴾ كثيرة العدد ، عظيمة الشّأن ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ بِالْبَيِّنَاتِ والمعجزات الباهرات ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ وسألتم بعينه من القرآن الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ بعدما أتوكم بما أفترحتموه عليهم ، مضافا إلى غيره من المعجزات الدّالة على صدقهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ما دلّ عليه قولكم من أنّكم ملتزمون بالإيمان بنبيّ يأتيكم بقرآن.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ

الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾

ثم لما كانت مقالات المفكرين واليهود سببا لكدورة قلب النبيّ ﷺ وتحزّنه ، أخذ في تسليّة حبيبه بقوله : ﴿فَإِنْ﴾ عارضك اليهود والمشركون و﴿كَذَّبُوكَ﴾ في دعوى نبوتك ، وصحّة شريعتك ، وفي ما تحزّهم به من سوء صنع أسلافهم ، فإنّ هذا التّكذيب والمعارضة ليس أمرا يخصّك ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ﴾ كثيرة العدد ، كبيرة المقدار ، كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ كنوح ، وإبراهيم وموسى وأضرابهم ، وهم صبروا على التّكذيب ، وما نالهم من المكذّبين ، مع أنّهم ﴿جَاءُوا﴾ وأتوهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الظّاهرات التي لم يبق لأحد معها مجال للتّكذيب ﴿وَالزُّبُرِ﴾ والصّحف السّماوية المشتملة على الأحكام والمواعظ والزّواجر ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الموضّح للحقائق من التّوراة ، والإنجيل.

وتخصيص الكتاب بالذّكر مع كونه داخلا في عموم الزّبر ، للإشعار بكونه أشرف منها. وعطف جميعها على البيّنات ، للدّلالة على عدم كون واحد منها معجزا لأنبياء ، وأنّ كون نفس الكتاب معجزا ، من خصائص خاتم التّبيين ﷺ ، وكتابه المجيد. ووجه كون الآية تسليّة وضوح أنّ البليّة إذا

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٢١.

عمت طابت.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في تسليّة قلبه الشّريف بتذكيره الموت الذي ذكره يهون الخطوب ، ويسهل جميع المصائب ، ويزيل الكرب ، بقوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البشريّة والحيوانيّة بالآخرة ﴿ذَائِقَةُ﴾ طعم ﴿الْمَوْتِ﴾ وزهوق الروح ، بل كلّ موجود من الجسمانيّات ، وكلّ مرّكب من المركّبات ايل أمره إلى الانحلال والانعدام ، فلا يبقى إلّا وجهه الكريم.

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، أنّه قال : « يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد ، ثمّ يموت أهل السّماء حتّى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت ، وحملة العرش ، وجبرئيل ، وميكائيل » قال : « فيجيء ملك الموت حتّى يقوم بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول له : من بقي ؟ - وهو أعلم - فيقول : يا ربّ ، لم يبق إلّا ملك الموت ، وحملة العرش ، وجبرئيل ، وميكائيل. فيقال له : قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا. فتقول الملائكة عند ذلك : يا ربّ ، رسولك واميناك. فيقول : إنيّ قضيت على كلّ نفس فيها الرّوح الموت. ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ فيقال له : من بقي ؟ - وهو أعلم - فيقول : يا ربّ ، لم يبق إلّا ملك الموت ، وحملة العرش. فيقول : [قل] لحملة العرش فليموتوا ثمّ يجيء كئيبا حزينا لا يرفع طرفه فيقول : من بقي ؟ - وهو أعلم - فيقول : يا ربّ ، لم يبق إلّا ملك الموت. فيقول له : مت يا ملك الموت ، فيموت.

ثمّ يأخذ الأرض بيمينه والسّماوات بيمينه ، فيقول : أين الذين كانوا يدعون معي شريكا ؟ أين (١) الذين كانوا يجعلون معي إلها آخر ؟ » (٢) انتهى. فإذا كان ذلك ، فلا ينبغي للعاقل أن يغتمّ في المصائب. ثمّ أنّه سبحانه بعدما كتّى عن الدّار الاخرى بذوق الموت ، بيّن توفية ثواب المصدّق ، وعقاب المكذّب ، بقوله : ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾ وتعطون على نحو الكمال جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قيل : إنّ في لفظ التّوفية إشعارا بأنّ بعض اجورهم يصل إليهم قبل القيامة ، كما ينبي عنه قوله ﷺ : « القبر روضة من رياض الجنّة ، أو حفرة من حفر النيران » (٣).

﴿فَمَنْ زُحْرِحَ﴾ وأبعد ﴿عَنِ النَّارِ﴾ ونحي منها يومئذ ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿فَقَدْ﴾

(١) في النسخة : من ، بدل أين.

(٢) الكافي ٣ : ٢٥٦ / ٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ١٢٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٣٨.

فَارَ ﴿﴾ بالمقصد الأعلى ، وظفر بالبغية العليا.

روي عن النبي ﷺ أنه قال : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، وقرأ : ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ^(١) .

وعنه ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليوت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » ^(٢) .

وعن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « خياركم سحّاؤكم ، وشراركم بخلاؤكم ، ومن خالص الإيمان البرّ بالإخوان ، والسعي في حوائجهم ، وإنّ البارّ بالإخوان ليحبّه الرحمن ، وفي ذلك مرّجة ^(٣) الشيطان ، وتزحزح عن التّيران ، ودخول في الجنان » ^(٤) .

وعن النبي ﷺ ، في حديث : « قال الله تعالى : فبِعِزَّتِي حلفت ، وبجلالي أقسمت أن لا يتولّى عليّاً عبد من عبادي إلّا زحزحته عن النار ، وأدخلته الجنة ، ولا يغيضه عبد من عبادي إلّا أبغضته ، وأدخلته النار وبئس المصير » ^(٥) .

ثمّ أنّه تعالى - بعد ما بيّن أنّ أعلى المقاصد التّجاة من النار ، والدّخول في الجنة - بيّن أن أردأ المطالب وأدنى المقاصد هو الدّنيا ، بقوله : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وعيشها ولذاتها وزخارفها بشيء ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وسلعة مدلّسة. فشبه سبحانه الدّنيا بالمتاع الذي يدلس على المستام ^(٦) ويغترّ حتى يشتريه. عن سعيد بن جبير : أنّ هذا في حقّ من آثر الدّنيا على الآخرة ، وأما من طلب الآخرة بها ، فإنّها نعم المتاع ^(٧) .

﴿تَبْلُؤُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ

الْأُمُورِ (١٨٦)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد تسليّة النبي ﷺ عن تكذيب الكفّار وأقوالهم السيّئة المقرحة للقلب - شرع في تسليّة المؤمنين عمّا يلقونه من الكفّار فيما بعد ؛ ليوطنوا أنفسهم على احتمالها عند وقوعه ، ويستعدّوا للقائه ويقابلوه بحسن الصّبر والثّبات ، فإنّ هجوم الآجال يزلزل أقدام الرّجال ، والاستعداد للركوب

(١ و ٢) . تفسير الرازي ٩ : ١٢٦ .

(٣) في المصدر : مرغمة.

(٤) الكافي ٤ : ٤١ / ١٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٥ .

(٥) أمالي الصدوق : ٢٩٢ / ٣٢٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٥ .

(٦) المستام : المشتري.

(٧) تفسير الرازي ٩ : ١٢٦ .

مما يهون الخطوب ن فقال تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ البتة من جانب الله أيها المؤمنون ، ولتعاملن معاملته المختبر ؛ ليظهر ما عندكم من الثبات على الإيمان ولوازمه بما يقع ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ من ضروب الآفات والمضار ، ﴿وَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من القتال ، والجرح ، والأسر ، وسائر المتاعب والشدائد والمصائب .
عن الرضا عليه السلام : ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ : بإخراج الزكاة ، ﴿وَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ : بالتوطين على الصبر « (١) .

﴿وَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ : أقوالا سيئة ﴿مِنْ﴾ اليهود والتصارى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السماوي من التوراة والإنجيل ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وفي زمان سابق على نزول القرآن عليكم ﴿وَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ : أقوالا ﴿مِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله وعبدوا الأصنام ، كأبي جهل وأبي سفيان وأضرابهما ، فيها ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ لكم ، وإيلا من شديد في قلوبكم ، كالطعن في دين الإسلام ، والقدح في أحكامه ، وإلقاء الشبهات ، وتخطئة المؤمنين وهجائهم ، وتحريض المشركين على مضادة الرسول ﷺ ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ على ما يصيبكم من المكار ، وتقابلوه بحسن العزاء والتحمل ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في مخالفة مرضاته من الإقدام على ما يليق بالمؤمن ، ومن المداينة معهم ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من الصبر والتقوى يكون ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وصواب التدبير ، ومما ينبغي أن يعزم العازمون ويتنافس فيه المتنافسون ، لما فيه من كمال المرتبة عند الله ، وإنفاذ المقصود من الإرشاد والهداية ؛ لأنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين .

ولذا كان رسول الله ﷺ مداريا للناس صبرا على الأذى أكثر من أن يحصى ، بل كان مداراته وصبره من كراماته ومعجزاته .

روي أنه بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فنحاص اليهودي يستمده ، فقال فنحاص : قد احتاج ربك إلى أن نمده ، فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف وكان رسول الله ﷺ قال له حين بعثه : « لا تغلبن على شيء حتى تؤدّي إلي » فتذكر أبو بكر ذلك وكف عن الضرب ، فنزلت (٢) .

قيل : أمر الله سبحانه بالصبر قليلا لمضار الدنيا ، وأمر بالتقوى قليلا لمضار الآخرة ، فكانت الآية جامعة لآداب الدنيا والآخرة (٣) .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾

(١) علل الشرائع : ٣٦٩ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٦ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ١٢٨ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ١٢٩ .

ثم - لما كان كتمان اليهود والنصارى ما في التوراة والإنجيل من دلائل نبوة خاتم النبيين ﷺ وصفاته وعلائمه ، من أشد أنواع إيدائهم للرسول والمؤمنين ، وأظهر مصاديقه - تعرّض سبحانه لذلك بقوله : **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾** قيل : إنّ المراد : وتذكّر يا محمد وقتاً أخذ الله **﴿مِيثَاقَ﴾** اليهود والنصارى **﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾** والعهد المحكم المبرم عليهم على لسان الأنبياء والرسل ، حيث قالوا لأممهم - بعد ما بيّنوا لهم ما في الكتاب من صفات نبي آخر الزمان وعلائمه - : يا عباد الله ، بالله عليكم **﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾** ولتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي منها أمر نبوة محمد ﷺ **﴿لِلنَّاسِ﴾** الذين لا يطلعون بما فيه كما أوضحناه وبيّناه لكم **﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾** عن العوامّ بوسيلة تحريف عباراته ، أو إبدائه التأويلات ، أو إلقاء الشبهات .

هذا حاصل العهد الأكيد بفنون التأكيدات ، ومع ذلك **﴿فَتَبَدُّوهُ﴾** وطرحوه لحبهم الدنيا وألقوه **﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾** ولم يراعوه ، ولم يلتفتوا إليه مع قبوله والالتزام بالعمل به **﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ﴾** وأخذوا بدل الميثاق والوفاء **﴿ثَمَنًا﴾** وعوضاً **﴿قَلِيلًا﴾** من الترحارف الدنيوية والحطام الفانية ، وأخفوا الحق ، واستهانوا بالعهد الأكيد الإلهي طمعا في أموال سفلتهم ، وحفظا للرئاسة على جهلتهم **﴿فَيَسَّ مَا يَشْتُرُونَ﴾** وساء ما يستبدلون به .

وفيه دلالة على نهاية قباحة كتمان الحق ، وشدة حرمة على العالم به ، للأغراض الدنيوية والأهواء الفاسدة ، ولو كان الكاتم من المسلمين .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا » (١) .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨)

ثم بالغ سبحانه في تهديد الكاتمين لعلائم النبي ﷺ المدلسين للحق ، بقوله : و **﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾** يا محمد ، ولا تتوهّم الكاتمين **﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾** ويسرّون **﴿بِمَا أَتَوْا﴾** من الأموال والرئاسات ، أو بما فعلوا من نقض العهد ، وكتمان آيات نبوتك **﴿وَيُجِبُونَ﴾** بقلوبهم ويتمنون **﴿أَنْ يُحْمَدُوا﴾** بين الناس **﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** من الوفاء بالعهد ، والصدق في الإخبار ، والتّقوى في الدين .

ثم أكّد سبحانه التّهي عن الحسابان بقوله : **﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾** متمكّنين **﴿بِمَفَازَةٍ﴾** ومنجاة **﴿مِنْ﴾**

(١) مجمع البيان ٢ : ٩٠٥ ، تفسير الرازي ٩ : ١٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٦ .

العَذَابُ ﴿﴾ في القيامة.

وعن القمي ، عن الباقر عليه السلام : « أي يبعد من العذاب » ^(١) .

﴿وَلَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿عَذَابٌ﴾ بالتأثر ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته ، بسبب كفرهم ، وكنماهم ، وتدليسهم .
عن ابن عباس رضي الله عنه : هم اليهود ، حَرَفُوا التَّوْرَةَ ، وفرحوا بذلك ، وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل ^(٢) .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه سأل اليهود عن شيء مما في التَّوْرَةِ فكتُموا الحقَّ ، وأخبروه بخلافه ، وأروه أنهم قد صدَّقوه ، واستحمدوا إليه ، وفرحوا بما فعلوا ^(٣) .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : نزلت في رجال من المنافقين كانوا يتخلَّفون عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الغزو ، ويفرحون بقعودهم ، فإذا قدم اعتذروا إليه فيقبل عذرهم ، فطمعوا أن يثني عليهم كما كان يثني على المسلمين المجاهدين ^(٤) .

أقول : يحتمل أنه قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية في أولئك المنافقين ، فتوهم ^(٥) أنها نزلت فيهم .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)

ثم أعلن سبحانه بعظم سلطانه ، وسعة قدرته ازديادا للرهبة في القلوب ، بقوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة الاستقلالية التامة فيهما ، بحيث لا يخرج من سلطانه شيء من الأشياء ، وذرة من الذرات ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من القهر والغلبة والتعذيب ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يدفعه شيء عن إنفاذ إرادته ، ومع ذلك كيف يجترى العاقل على عصيانه ؟

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠)

ثم أكد سبحانه تخصيصه بالسلطنة التامة ، والقدرة الكاملة ، بقوله : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ السَّبْعِ أو التسع ، وإنشائها على ما هي عليه من ذواتها ، وصفاتها ، وكواكبها ، وحركاتها ، وسائر أمورها التي تحار فيها العقول .

عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال في صفة السَّمَاوَاتِ : « جعل سفلاهنَّ موجا مكفوفاً ، وعليهنَّ سقفا

(١) تفسير القمي ١ : ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٧ .

(٢ و ٣) . تفسير أبي السعود ٢ : ١٢٥ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ١٣٢ .

(٥) أي أبو سعيد الخدري .

محفوظا ومحمكا مرفوعا ، بغير عمد يدعمها ، ولا دسار ^(١) يتظلمها ^(٢) ، ثم زيتها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب ، وأجرى فيها سراجا مستطيرا ، وقمر منيرا في فلك دائر ، وسقف سائر ، ورقيم مائر ^(٣) .

﴿وَوَ﴾ في خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ على ما هي عليه في ذاتها ، وصفاتها ، وأجزائها ، وما خلق فيها من البحار والجبال والمعادن والأشجار ، ﴿وَوَ﴾ في ﴿اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وتعاقبهما ، وقيل : اختلاف لونهما وتفاوتهما بازدياد كل منهما ونقص الآخر ، بحسب اختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قريبا وبعدا ﴿لَايَاتٍ﴾ عظيمة ، ودلائل واضحة على وحدة خالقها ، وكمال قدرته ، وسعة علمه ، وبلوغ حكمته ، وعظم سلطانه ، وعلو شأنه ، ولكن لا لجميع الخلق لعمى قلوب أكثرهم ، وعدم تفكيرهم فيهان بل ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ منهم ، وذوي العقول السليمة ، والأفهام المستقيمة الخالصة عن شوائب الأوهام والشهوات الحيوانية ، والأهواء الزائغة النفسانية خاصة ، لتتور قلوبهم ، ونفوذ بصيرتهم.

قيل : لما كان رسول الله ﷺ يدعو أهل مكة إلى عبادة الله وحده سألوه أن يأتيهم بآية تصحح دعواه ، فنزلت .

قيل : إنه تعالى ذكر في سورة البقرة في نظير الآية ، الآيات الثمانية ، واكتفى هنا بذكر الثلاثة منها ؛ لأن السالك إلى الله في أول الأمر لا بد له من تكثير الدلائل ، فإذا استنار قلبه بنور المعرفة صار اشتغاله بالدلائل كالحجاب له عن استغراق القلب في المعرفة ، فيصير طالبا لتقليلها .

ففي الآية الأولى إشارة إلى مبدأ السلوك ، ولذا قال هناك : ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ^(٤) وهنا : ﴿لَايَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن لبّ العقل خالصه ومصفاه وكماله .

عن ابن عمر ، قال : قلت لعائشة : ما أعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ! فبكت فأطالت ، ثم قالت : كل أمره عجيب ، أتاني في ليلة فدخل لحافي حتى ألصق جلده بجلدي ، ثم قال لي : « يا عائشة ، هل لك أن تأذني لي في عبادة ربي ؟ » ، فقلت : يا رسول الله ، إنني لأحبّ قريبك وأحبّ مرادك ، قد أذنت لك ، فقام إلى قرية من ماء في البيت فتوضأ ، ولم يكن من صب الماء ، ثم قام يصلي فقرأ من القرآن فجعل يبكي ، ثم رفع يديه وجعل يبكي ، حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فراه يبكي ، فقال له : يا رسول الله أتبكي ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ! فقال : « يا بلال ، أ فلا أكون عبدا شكورا ؟ » ثم قال : « ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

خَلْقِ

(١) الدّسار : المسمار .

(٢) في نهج البلاغة : ينظّمها .

(٣) نهج البلاغة : ٤١ الخطبة ١ .

(٤) البقرة ٢ : ١٦٤ .

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿ ثُمَّ قَالَ : « وِلْ لِمَنْ قَرَأَهَا ، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » ^(١) .

وروي أَنَّهُ قَالَ : « وِلْ لِمَنْ لَآكَهَا بَيْنَ فَكَّيْهِ ، وَلَمْ يَتَأَمَّلْ فِيهَا » ^(٢) .

وعن عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَسَوَّكُ ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقُولُ :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) .

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ (١٩١) ﴾

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَوَّلِي الْأَلْبَابِ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ حَالِ كَوْنِهِمْ

﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا وَ ﴾ مُضْطَجِعِينَ ﴿ عَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ .

قِيلَ : إِنَّهُ ثَبَتَ فِي الطَّبِّ : أَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ مُسْتَلْقِيًا عَلَى قَفَاهُ ، يَمْتَنِعُ عَنْ اسْتِكْمَالِ الْفِكْرِ وَالتَّدَبُّرِ

، بِخِلَافِ الْاضْطِجَاعِ عَلَى الْجَنْبِ ، وَأَنَّ الْاضْطِجَاعَ عَلَى الْجَنْبِ يَمْنَعُ مِنَ النَّوْمِ الْمَغْرُوقِ ^(٤) .

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيَكْثِرْ ذِكْرَ اللَّهِ » ^(٥) .

وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ [اللَّهُ] » ^(٦) .

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « [لَا يَزَالُ] الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ قَائِمًا وَجَالِسًا وَمُضْطَجِعًا ،

إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ الَّذِي يَكُونُ أَوْعَفَّ مِنَ الْمَرِيضِ الَّذِي

يُصَلِّي جَالِسًا » ^(٧) .

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ [فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ

[فَعَلَى جَنْبٍ تَوَمَّى إِمَاءً » ^(٨) .

ثُمَّ لَمَّا كَانَ كَمَالُ الذِّكْرِ بِكَوْنِهِ مَعَ التَّفَكُّرِ ، وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ﴾

وَأَنْشَأَهَا ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ وَإِيجَادَهَا ، وَيَعْتَبِرُونَ بِهَمَا .

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ : يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالتَّجُومِ ، وَفِي مَا خَلَقَ

اللَّهُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْوَحُوشِ وَالطَّيُورِ .

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٣٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٤٥ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ٩ : ١٣٤ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ٩ : ١٣٦ .

(٦) الكافي ٢ : ٣٦٢ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٧ .

(٧) العياشي ١ : ٣٥٧ / ٨٢٩ و ٨٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٧ عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٨) تفسير أبي السعود ٢ : ١٢٩ .

وإنّما حصّ التّفكّر بالخلق ؛ لأنّ معرفة حقيقة ذاته تعالى غير ممكنة للبشر ، فلا فائدة لهم في التّفكّر في ذاته المقدّسة ، ولذا قال النّبي ﷺ : « تفكّروا في الخلق ، ولا تتفكّروا في الخالق » (١) .

قيل : لما كان الإنسان مركّبا من النّفس والبدن ، كانت العبوديّة بحسب النّفس والبدن ، فأشار إلى عبوديّة البدن بقوله : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ ...﴾ فإنّ ذلك لا يتمّ إلّا باستعمال الجوارح والأعضاء وأشار إلى عبودية القلب والروح بقوله : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ .

في فضيلة التّفكّر وفوائده

ثمّ - لما كان نتيجة التّفكّر في المخلوقات تنوّر القلب ، وزيادة المعرفة بسعة قدرة الله وكمال حكمته - وصفهم بعد التّفكّر في عجائب صنع السّماوات والأرض بإظهار المعرفة بقولهم : ﴿رَبَّنَا﴾ اعترفنا بأنّك ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الخلق العظيم ، والمصنوع العجيب ﴿بِاطِلًا﴾ وعبثا ، بل فيه حكم بالغة وأسرار عظيمة لا تحيط بأقلّ قليل منها عقول الكائنات ، ولا يمكن ان يبلغ إلى عشر من أعشارها إدراك الممكنات .

ثمّ لما كان من لوازم التّفكّر في الخلق ، تنزيه خالقه عن التشبيه به ، يبادرون بعد التّفكّر إلى تنزيهه تعالى من الصّفات الإمكانية بقولهم : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يكون لك خصائص الممكنات ، ونقدّسك عن نقائص المخلوقات ، ونزّهك عمّا لا يليق بك من العبث ، وفعل ما لا حكمة فيه .

عن النّبي ﷺ ، قال : « تفكّر ساعة خير من عبادة ستّين سنة » (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « تبه بالتّفكّر قلبك ، وجاف عن اللّيل جنبك ، واتّق الله ربّك » (٣) .

وعن الرضا عليه السلام : « ليس العبادة كثرة الصّلاة والصّوم ، وإنّما العبادة التّفكّر في أمر الله » (٤) .

وروي أنّه كان أكثر عبادة أبي ذرّ التّفكّر [والاعتبار] (٥) .

ويشهد على كون التّفكّر أفضل العبادات ، وضوح أنّ الغرض من الخلق المعرفة ، وهي موقوفة على التّفكّر في صنائع الله عزّ وجلّ ، فإنّ من تفكّر فيها - على ما هي عليه من النّمط البديع - قضى باتّصاف صانعها بالوجوب الدّاتي ، لامتناع انتهاء وجود الممكن إلّا إلى الواجب . ومن اتّساقها على النّظام الأتمّ ، علم بوحدانيّته الدّاتيّة ، وقدرته الكاملة ، وعلمه الواسع ، وحكمته البالغة .

ومن لوازم حكمته جعل التّكاليف ، ولازمه جعل الثّواب والعقاب ، ولازمه إيجاد عالم آخر ، وبعث المكلفين فيه ، ليتعامل معهم على حسب استحقاقهم ، وأنّ من قدر على إنشائهم بلا مثال كان على

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٣٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٤٥ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٥ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٧ .

(٤) الكافي ٢ : ٤٥ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٧ .

(٥) الخصال : ٤٢ / ٣٣ ، بحار الأنوار ٢٢ : ٤٣١ / ٣٩ .

إعدادهم أقدر. فظهر أنّ معرفة المبدأ والمعاد ، ووظائف العبوديّة ، ووجوب القيام بها نتيجة التّفكّر في الآفاق والأنفس.

ثمّ لما كان على المؤمن بعد معرفة الله ، وظهور عظّمته في قلبه ، غاية التّخضّع ، وإظهار ذلّة العبوديّة - ومن الواضح أنّ أحبّ أنواعه عند الله الضّراعة وسؤال الحاجة ، وأنّ أهمّ الحوائج للعباد ، المؤمنين بالمعاد ، النّجاة من العذاب ، والسّلامة من العقاب - حكى الله بعد مدحهم بالتّفكّر والمعرفة والتّسبيح ، ضراعتهم ومساءلتهم النّجاة من النّار بقوله : ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الذي أعدّته للكافرين بك ، والجاحدين لربوبيّتك ، واحفظنا منه بالتّوفيق للاجتناب عن الزّلات والمعاصي ، حيث إنّ لا تسلم نفس من اقتراف الذّنوب مع خذلانك ، ولا يرجى النّجاة من المهالك إلّا بحفظك ، فإنّ النّفس أمانة بالسّوء ، والشّيطان عدوّ مبين. قيل : في ذكر (الفاء) إشعار بترتّب هذا السّؤال على الذّكر والفكر ، وحصول المعرفة الكاملة ، كأثّم قالوا : وإذ عرفنا سرّك ، وأطعنا أمرك ، ونزهنّاك عمّا لا يليق بك ، فاحفظنا من عذاب النّار الذي هو جزاء من لا يعرفك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢)

ثمّ لما كان الالتفات بعظم الحاجة موجبا لقوّة الدّاعي في الطلب والإلحاح ، حكى عنهم ذكر عظمة مطلوبهم بقوله : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ غاية الخزي ، وأبعدته من مقام قربك ، وحرّمته من ساحة رحمتك ، وأهنته بين خلقك ، وفضحته على رؤوس الأشهاد ، وأهلكته أبد الآباد. وفي التّصديّر بالتّداء مبالغة في التّضرّع ، والإلحاح في الدّعاء ، وفي توصيفه بالترّويّة وإضافتها إلى ضمير المتكلّم استرحام واستعطاف. وفي التّأكيد ب (إنّ) إظهار لكمال اليقين بمضمون الجملة ، وإيدان بشدّة الخوف. وفي ذكر النّار موضع الإضممار إشعار بتهويل أمرها. وفي ذكر (تدخّل) بدل (تعذب) تعيين كيفة التعذيب ، وتبيين غاية فظاعته. وفي ترتيب الخزي على التعذيب بالنّار دلالة على أنّ العذاب الرّوحاني أشدّ من الجسماني ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « هبني صبرت على عذابك ، فكيف أصبر على فراقك ؟ » (١).

ثمّ بالغوا في إظهار نهاية فظاعة حالهم تأكيدا لاستدعائهم ، بقوله : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بعضيانتك ، حين دخولهم في النّار ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان كي يدفعوا عنهم العذاب.

(١) مصباح المتّجهّد : ٨٤٧.

وفيه إشعار بخلود عذابهم ، بفقدان من يقوم بنصرتهم وتخليصهم. وفي ذكر الظالمين موضع الضمير
الراجع إلى المدخلين دلالة على ذمهم ، وعلة استحقاقهم لأشد العذاب.
ثم لما كان المراد بالتأصر هو المدافع بالقهر ، فلا دلالة في نفيه على نفي الشفاعة التي هي ضراعة
الشفيع في التخليص.

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام : « ما لهم من أئمة يسمونهم بأسمائهم » (١) .

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٩٣)

ثم - لما كان الانقياد وحسن الخدمة والطاعة دخیلاً في تعطف المسؤول ، وإقدامه في قضاء حاجه
السائل ، وإجابة دعائه - حكى الله عن المؤمنين إظهار إيمانهم وطاعتهم له ولرسوله بقوله : ﴿رَبَّنَا﴾
ومليكننا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وداعياً عظيم الشأن ، كثير الاهتمام بالدعوة ، بحيث يرفع صوته بها ، وهو
﴿يُنَادِي﴾ ويدعو عامة الناس بصوت عال ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بك وبوحدانيتك ، وكمال صفاتك ، وصحة
شريعتك ، ويدعوهم إلى سبيل مرضاتك ، والالتزام بطاعتك بكلمة جامعة لجميع هذه الأمور ، هي ﴿أَنْ
آمِنُوا﴾ أيها الناس ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللطيف بكم ، والرزوف المتولي لجميع أموركم ، الحافظ لمصالحكم ،
لوضوح أنّ معرفته تعالى بصفة الربوبية والإيمان به ملازم للإيمان برسوله وكتابه وشريعته.
ويحتمل أن يكون وجه تخصيص الأمر بالإيمان بالرب ، تفخيم شأنه.

﴿فَآمَنَّا﴾ به بلا مفاطلة امتثالاً لأمره ، وبادرنا إلى الإقرار به إجابة لدعوته ﴿رَبَّنَا﴾ إذن ﴿فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا﴾ وتجاوز عن كبائر معاصينا ، جزاء لإيماننا بك ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ وامح صفائر زلاتنا. وقيل : إنّ
الجملة تأكيد للاولى.

ثم بعد سؤال المغفرة والتماس الأمن من العقوبة ، يتوجهون الى النعم واللذائذ ، ويسألون أتمها
وأعلاها بقولهم : ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ واقبض أرواحنا ، وأخرجنا من الدنيا حال كوننا مصاحبين ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾
محظوظين بجوارهم ، ملتذّين بمرافقتهم وصحبته ، فإنّ صحبة الأحبة أتم اللذائذ وأعلا المحظوظ.
وقيل : إنّ المراد : حال كوننا معدودين في زمرة المطيعين ، أو التابعين لهم في أعمالهم ، حتّى نكون
في درجاتهم.

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٧ / ٨٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٨ .

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

ثم بعد طلب الأمن من العقوبة ، وسؤال أهم النعم ، يعمّون السؤال ، ويستدعون جميع المثوبات الموعودة للمؤمنين ، بقولهم : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾ برحمتك ، وأعطنا بجودك وكرمك ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ من الثواب والأجر الدنيوي والآخرى ﴿عَلَى﴾ تصديق ﴿رُسُلِكَ﴾ . وقيل : إنّ المراد : ما وعدتنا بالوعد الكائن على ألسنة رسلك ، ووسائط تبليغ وحيك.

وفي تكرير النداء بقولهم : ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار المبالغة في الضراعة.

عن الصادق عليه السلام : « من حزيه ^(١) أمر فقال : رَبَّنَا ؛ خمس مرّات ، أنجاه الله ممّا يخاف ، وأعطاه ما أراد » ^(٢) .

وفي ذكر جميع الرسل - مع كون المراد من المنادي للإيمان خصوص خاتم النبيين ﷺ - إشعار باتفاقهم في الوعد ، وتأكده بكثرة الشهود ، وإظهار كمال الثقة بإنجازه.

ثم أنّه تعالى - بعدما حكى عن المؤمنين تقدّم سؤال المغفرة والأمن من العقوبة على سؤال الجنة وسائر النعم والمثوبات ، إظهاراً لأهميته وكونه أصلاً ، وغيره فرعاً وتبعاً - حكى عنهم ختم دعواتهم به تثبيتاً لذلك ، بقوله : ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ ولا تهنا بين الناس ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالعذاب الدائم.

وقيل : إنّ السؤال الأوّل - وهو الوقاية من النار - طلب الأمن من العذاب الجسماني ، والسؤال الآخر من قولهم : ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ طلب السلامة من الخزي والهوان ؛ وهو العذاب الروحاني ، حيث يظهر يوم القيامة لبعض العباد أنّ اعتقاده كان ضلالاً ، وعمله كان ذنباً ؛ كما قال تعالى : ﴿وَنِدَا لَهُمْ سَبِيثًا مَا كَسَبُوا﴾ ^(٣) ، فعند ذلك يحصل لهم حجلة عظيمة ، وحسرة كاملة ، وأسف شديد ، وذلك هو العذاب الروحاني ، وهو أشدّ من العذاب الجسماني.

وقيل : إنّ المراد : لا تهنا حين إعطاء الثواب ، بل عظّمنا وأكرمنا. فإنّه يمكن أن يكون إعطاء الثواب مقروناً بالتوهين.

ثم حكى الله سبحانه عن المؤمنين إظهار اليقين بامتناع صدور خلف الوعد منه تعالى ، بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لإظهار أنّ سؤال الوفاء بالوعد ليس لخوف صدور خلف الوعد منه تعالى ، بل لإظهار الاستكانة ، أو احتمال التقصير من قبلهم ، والخوف من أنّهم لا يكونون من جملة الموعودين ، لسوء العاقبة ، أو القصور في الامتثال ، فمرجعها إلى الدّعاء بالتّثبت على الإيمان والطّاعة.

(١) حزيه الأمر : اشتدّ عليه.

(٢) تفسير الرازي ٩ : ١٥١ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٣٣ .

(٣) الزمر : ٣٩ / ٤٨ .

عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه البعث بعد الموت ^(١) . يعني : المراد من الميعاد : البعث الموعود.

في ذكر آداب الدعاء وكيفيته

ثم اعلم أنّ الله تعالى علّم عباده - في هذه الآيات من قوله : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ ^(٢) إلى قوله : ﴿لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ - آداب الدّعاء وكيفياته ، حيث ظهر منها أنّه لا بدّ للدّاعي قبل الدّعاء [من] التّفكّر في آيات الله ، وتحصيل المعرفة به ، ثمّ ثنائه بالتّسبيح والتّهلّيل ، ثمّ مخاطبته بخطاب فيه كمال الضّراعة ، وإظهار العبوديّة والاستكانة ، ثمّ ندائه بما فيه جلب العطفة ؛ كقول : يا ربّ ، يا رحيم ، يا رؤوف ، وأمثال ذلك ، ثمّ تذكّر ما فيه اشتداد شوقه إلى الدّعاء ، وما يؤثّر في تقوية داعي المدعوّ إلى الإجابة ، ثمّ يخصّ دعاءه بالمهمّات ، ويكون نظره إلى الحوائج الاخرويّة ، ولا يعتني إلى الدّنيا وما فيها ، ولا يطلب في دعائه شيئا منها ، ويقدم أولا طلب المغفرة ؛ لأنّها - مع كونها من أهمّ الحوائج - لها أثر تامّ في إجابة الدّعاء به.

عن ابن عباس رضي الله عنه ، عن النّبىّ ﷺ : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجا ، ومن كلّ ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » الخبر ^(٣) .
ويسأل النّجاة من النّار والمهوان في الآخرة ، ثمّ يطلب النّعم والدّرجات الرّفيعة في الجنان - لتقدّم التّخلية على التّحلية - وأن يكون على يقين بكرم الله ، وأنّه يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه حسب ما وعد ، وأنّه لا يخلف الوعد ، ولا يسوء ظنّه به تعالى.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾

ثمّ ربّ الله على دعواتهم الجامعة لآدابها الإجابة السّريعة بقوله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وتحقّق إنجاح مسؤولهم من مليكهم اللّطيف بهم ، المكتمل لنفوسهم.
وقيل : إنّ (استجاب) أخصّ من (أجاب) ، فإنّ (أجاب) معناه : أعطاه الجواب ، وهو أعمّ من إعطاء المطلوب ، وإنّما يقال : (استجاب) إذا حصل المطلوب.

(١) تفسير البيضاوي ١ : ١٩٦ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٣٣ .

(٢) آل عمران : ٣ / ١٩١ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ١٤٩ .

واستجابته كانت بإنجاز وعده بالتَّوَاب على الإيمان وأعمالهم الصَّالحة المستلزمة للمغفرة والوقاية من التَّار ، موجَّها الخطاب إليهم تشريفا لهم ، وتطيبيا لقلوبهم ، بقوله : ﴿أَنْتِي لَا أَضِيعُ﴾ ولا ابطل ﴿عَمَلٍ عَامِلٍ﴾ أيَّ عامل كان ﴿مِنْكُمْ﴾ من الكاملين في الإيمان ، أو الضَّعفاء ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي﴾ ومن خسيس التَّسبب أو شريفه ؛ لأنَّه ﴿بَعْضُكُمْ﴾ منشعب ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾ آخر ، وكلَّكم من أصل واحد ، فلا مزيَّة لأحد على أحد عند الله إلَّا بالتَّقوى والعمل الصَّالح ، فمع تساوي النَّسبة إلى الله ، وكون التَّفاوت والمزيَّة بالإيمان والقيام بوظائف العبودية ، لا يمكن إثابة بعض دون بعض.

وقيل : إنَّ المراد من قوله : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أنكم متوافقون في الدِّين والأعمال ؛ كما قال في حق المنافقين : ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(١) .

وقيل : إنَّ (من) بمعنى : (الكاف) والمعنى : بعضكم كبعض^(٢) ، والمقصود : بيان شركة النَّساء مع الرِّجال في ما وعد للأعمال.

روي أنَّ أمَّ سلمة قالت لرسول الله ﷺ : إنِّي أسمع الله يذكر الرِّجال في الهجرة ، ولا يذكر النَّساء ، فنزلت الآية^(٣) .

ثمَّ ذكر الله تفصيل أعظم الأعمال التي يستحقُّ بها غاية الثَّواب ، بقوله : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم حفظا لدينهم ، واختيارا لخدمة الرِّسول ﷺ ، وشوقا إلى صحبته - عن القمِّي رحمه الله يعني : أمير المؤمنين ، وسلمان^(٤) - أو لم يهاجروا اختيارا ﴿وَو﴾ لكن ﴿أَخْرَجُوا﴾ قهرا وجبرا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ التي ولدوا فيها وتوطنوها ، واضطروا إلى ترك الإقامة بها بسبب إيذاء المشركين ، والخوف على أنفسهم وأعراضهم ، ﴿وَو﴾ الَّذِينَ ﴿أُودُوا﴾ من الكفَّار ، بأيِّ نوع من أنواع الإيذاء ﴿فِي سَبِيلِي﴾ لأجل تحصيل مرضاتي من الإقرار بالتَّوحيد ، والدَّخول في الملة الحنيفية ﴿وَو﴾ الَّذِينَ ﴿قَاتَلُوا﴾ أعداء الدِّين ، وجاهدوا معهم نصرته للإسلام ﴿وَقُتِلُوا﴾ في ترويج الشريعة ، تالله ﴿لَا كُفْرَنَ﴾ وأمحون ﴿عَنْهُمْ﴾ ومن صحيفة أعمالهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وخطاياهم ﴿وَلَا دُخِلَتْهُمْ﴾ في القيامة برحمتي وفضلي ﴿جَنَّاتٍ﴾ عديدة ، تكون من محسناتها وصفاتها أنَّه ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، ولا يبينهم وفاء بالوعد ﴿ثَوَاباً﴾ عظيما على هذه الأعمال وغيرها ، حال كون ذلك الثَّواب تشريفا لهم ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ومن قبل فضله وجوده.

ثمَّ بالغ سبحانه في تأكيد الوعد ، وتشريف الثَّواب بقوله : ﴿وَاللَّهُ﴾ مذخور ﴿عِنْدَهُ﴾ وفي خزائن

(١) التوبة : ٩ / ٦٧ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ٩ : ١٥٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٩ .

جوده ﴿حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ وأكمل الجزاء على طاعته ، لا يعادله ثواب ، ولا يشابهه جزاء .
 قيل : في تصدير الوعد الكريم بعدم الإضاعة ، ثم تعقيبه بهذا الإحسان الجسيم الذي لا يقادر قدره
 من لطف المسلك المنبئ من عظم شأن المحسن ما لا يخفى .
 ثم أنّ ظاهر الآية وإن كان ثبوت هذا الأجر العظيم للذين اجتمعت لهم جميع هذه الأمور من الهجرة
 ، والإخراج من الاوطان ، والإيذاء ، والمقاتلة والقتل ، ولكن يحتمل أن يكون لمن له أحدها ، ويؤيده سعة
 رحمة الله وفضله .

عن (الأماي) : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما هاجر من مكة إلى المدينة ليلحق النبي ﷺ ؛ وقد قارع
 الفرسان من قريش ، ومعه فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وفاطمة بنت الزبير ، فصار
 ظاهرا قاهرا حتى نزل ضحنان ^(١) فتلّوهم بها يوما وليلة ، ولحق به نفر من ضعفاء المؤمنين ، وفيهم أم أيمن
 مولاة رسول الله ﷺ ، وكان يصلي ليلته تلك هو والفواطم ويذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فلن
 يزالوا كذلك حتى طلع الفجر ، فصلّى بهم صلاة الفجر ، ثم سار لوجهه .
 فجعل هو وهنّ يصنعون ذلك منزلا بعد منزل ، يعبدون الله عزّ وجلّ ويرغبون إليه كذلك حتى قدموا
 المدينة ، وقد نزل الوحي بما كان من شأنهم قبل قدومهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ ^(٢) الآيات ،
 إلى قوله : ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَى﴾ الذكر : على عليه السلام ، والانثى : الفواطم ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني :
 عليّ من فاطمة ، أو قال : من الفواطم ، وهنّ من عليّ ^(٣) .
 وعن القمي رحمه الله : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني : أبا ذرّ حين اخرج وعمرار
 اللذين اودوا في سبيل الله ^(٤) .

أقول : الظاهر أنّ الرواية بيان لأظهر مصاديق الآية وأكملها ، لا أنّها تفسير لها ، بل هي عامّة لكلّ
 من اتّصف بتلك الصفات .

﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ (١٩٧)﴾

ثمّ لما وعد الله سبحانه الثّواب العظيم على الإيمان والهجرة ، وكان المهاجرون في شدّة الفقر والفاقة ،
 صاروا معرضا للطعن بأنّه لو كان لهم منزلة عند الله لأعطاهم من الدّنيا ما يعيشون به في

(١) ضحنان : جبل على بريد من مكة .

(٢) آل عمران ٣ / ١٩١ .

(٣) أماي الصدوق : ٤٧١ / ١٠٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٧٩ .

الراحة ، فدفع الله ذلك الطعن ، وسلى قلوب المؤمنين مخاطبا للنبي ﷺ تشريفا له ، وإيذانا بكونه المسلي عن الله والمبلغ ، بقوله : ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ ولا يلقينك في اعتقاد خلاف الواقع - وقيل : إن الخطاب لكل أحد - ﴿تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ وتصرفهم في المكاسب والمتاجر ، وتبسطهم في المعيشة ، والمؤمنون في شدة الفاقة - أو المراد : سيرهم في الأرض آمنين ، والمؤمنون في خوف - أن للكفار منزلة عند الله دون المؤمنين ، فإن الغنى أو الأمن الذي يكون للكفار ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا ، وانتفاع يسير فيها ، يزول بسرعة ولو كانت مدته طويلة ، لوضح أن أمد الدنيا - بالنسبة إلى طول مدة الآخرة - أقل من دقيقة بالإضافة إلى أضعاف عمر الدنيا ، وأنه لا قدر لنعمها في جنب أقل قليل من نعم الآخرة.

عن النبي ﷺ ، قال : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم ، فلينظر ما (١) يرجع ! » (٢) .

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أجلهم يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم إلى الأبد ﴿جَهَنَّمَ﴾ يصلونها ﴿وَيُسْـَٔوْنَ الْمِهَادَ﴾ تلك جهنم ، وساء ما مهّدوا وهيئوا لأنفسهم من النار بسبب كفرهم بالله ، وحبهم للدنيا.

قيل : إن مشركي مكة كانوا يتجرون ويتنعمون ، وإن بعض المسلمين كانوا يرونهم في رخاء ولين عيش فيقولون : [إن] أعداء الله في ما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ، فنزلت (٣) .

وقيل : إن اليهود كانت تضرب في الأرض فتصيب الأموال ، فنزلت (٤) ، فبين الله تعالى أن الدنيا مع قتلها وخساستها مورثة للعذاب الدائم . ومن الواضح أن النعمة القليلة لا تعدّ نعمة إذا كانت مستتبعة للمضرة الشديدة ، بل يجب على العاقل أن يتحرّز منها ، ويفرّ عنها.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

ثم أتبع الله سبحانه وعيد الكفار المنهمكين في حب الدنيا بوعد المؤمنين المهتمين بأمور الآخرة ، بالثواب العظيم ، وبين حسن حالهم فيها ، غب (٥) بيان كثر ذكره إثر ما قرّر ، مع زيادة بيان خلودهم في الجنّات العالية والنعم الباقية ، ليتّم بذلك سرورهم ، ويتزايد به إيضاح سوء حال مخالفينهم ، بقوله : ﴿لَكِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وخافوا من عصيان مليكهم ، واحترزوا عن الإشراف به

(١) في تفسير أبي السعود : بم .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٣٥ .

(٣) (٤) . تفسير الرازي ٩ : ١٥٢ .

(٥) الغب : بمعنى بعد .

والكفران لنعمه ، يكون ﴿لَهُمْ﴾ خاصة بالاستحقاق ﴿جَنَاتٍ﴾ عديدة ، وبساتين عالية ذوات أشجار وفيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً ، آمنين من الخروج منها ، وتكون تلك النعم العظيمة ﴿نُزُلًا﴾ وهيئة تشريفية ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ للنازلين عليه ، والوافدين لديه .

وقيل : إنّ المراد أنّها تكون رزقا وعطاء لهم من فضله .

﴿وَمَا﴾ هو مذكور ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي خزائن رحمته من النعم ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع ؛ لكثرة ودوامها ، وخلوصها من شوب المكاره ﴿لِلْأَبْرَارِ﴾ والمطيعين لله ، مما يتقلب فيه الكفار ، ويكتسبون من الأموال ، ويتمتع به الفجار ، ويتنفعون من متاع الدنيا ؛ لقلته ، وسرعة زواله ، وشوبه بأنواع المكاره والآلام ، مع وخامة تبعاته ووباله .

عن ابن مسعود رضي الله عنه : ما من نفس برّة ولا فاجرة إلّا والموت خير لها ، أمّا البرّة فإنّ الله تعالى يقول : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وأمّا الفاجرة فإنّه يقول : ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾^(١) . وعن ابن الخطاب ، قال : جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة^(٢) ، وإنّه لعلّى حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف ، وعند رجله قرظا مصبورا^(٣) ، وعند رأسه اهب^(٤) معلقة ، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت ، فقال ﷺ : « ما يبكيك ؟ » فقلت : يا رسول الله ، إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : « أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة »^(٥) .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ (١٩٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعدما بين سوء حال الكفار ، الذين منهم أهل الكتابين ، بشر بحسن حال من آمن منهم بدين الإسلام ، بقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الذين دخلوا في دين الإسلام عن صميم القلب ، كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويصدق بوحدايته ﴿وَو﴾ يعترف بأنّ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من الدين والقرآن حق ، وأنهما من الله .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ١٥٤ ، والآية من سورة آل عمران : ٣ / ١٧٨ .

(٢) المشربة : الغرفة .

(٣) القرظ : ورق السلم يديغ به ، ومصبور ، أي مجموع مكوم .

(٤) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد قبل الدبغ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ١٥٤ .

وتقديمه ^(١) على قوله : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ، في الذكر - مع أنَّ الأمر في الوجود بالعكس - للإشعار بأشرفيّة الإيمان بالأول من الثاني ، وأنَّ الإيمان بالكتابين متوقّف على ثبوتهما بالقرآن ، لانقطاع التواتر عنهما ، وثبوت التحريف فيهما ، حسب ما حَقَّق في محلّه ، فلو لم يكن إخبار القرآن بكونهما من عند الله لم يكن طريق إلى الإيمان بهما .

ثمَّ وصفهم الله بكونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ متواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه ، أو تعظيما له ، وبكونهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ ولا يستدلون ﴿بآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة في الكتابين ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضا يسيرا ، ولا يحرفوهما ، ولا يكتمون ما فيهما من شواهد نبوة محمد ﷺ استجلابا لحطام الدّنيا ، وحفظا لرئاستهم ، كما هو دأب من لم يسلم من أحبارهم وقسيسيهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المتّصفون بهذه الصّفات الكريمة الفارقة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ العظيم الموعود ، وثوابهم المذخور ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللّطيف بهم ، يصل إليهم في الآخرة بلا تأخير ولا تسويف ، بسبب طول الحساب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لسعة علمه بجميع الأشياء ، فلا حاجة له في تعيين جزاء العاملين إلى فكر ووعي صدر ، ومدة وتحقيق وكتب ، فيكون أحر كلّ أحد سريع الوصول إليه .

عن ابن عباس : أنّها نزلت في النّجاشي ، فإنّه لما مات نعاه جبرئيل للنبي ﷺ فقال ﷺ لأصحابه : « اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم » ، فخرج إلى البقيع ، ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النّجاشي ، وصلى عليه واستغفر له ، فقال المنافقون : انظروا إلى هذا ، يصلّي على علج ^(٢) نصراني لم يره قطّ ، وليس على دينه ، فنزلت ^(٣) .

وقيل : نزلت في أربعين رجلا من أهل نجران ، وآثنين وثلاثين رجلا من الحبشة ، وثمانية من الرّوم ، كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا ^(٤) .

وقال بعض : نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلّهم ^(٥) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

ثمَّ أنّه تعالى لما ذكر في السّورة المباركة كثيرا من الاصول كالتوحيد والعدل والنّبوة والمعاد ، وكثيرا من الفروع كالحجّ والجهاد وغيرها ، ختمها ببيان ما يوجب المحافظة عليها ، والقيام بالعمل بها ،

(١) أي تقدّم قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ عَلَى﴾ قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ .

(٢) العلج : الكافر من العجم .

(٣) و (٤) . مجمع البيان ٢ : ٩١٦ .

بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ على مشاقِّ التَّكاليف ، وما يصيبكم من الشَّدائد كالقحط ، والفقر ، والبلايا ، والأمراض ، وسائر المصائب ، أو على أداء الواجبات ﴿وَصَابِرُوا﴾ في قتال أعداء الله في مواطن الحروب ، وفي أداء حقوق النَّاس وتحمل المكاره منهم ، أو على ترك المحرَّمات .
وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصَّبْر ، لاختصاصها بمزيد التعب والمشقة .

عن القمِّي : عن الصادق عليه السلام : « اصبروا على المصائب ، وصابروا على الفرائض » ^(١) .

وعن العياشي : عنه عليه السلام : « اصبروا على المعاصي ، وصابروا على الفرائض » ^(٢) .

وفي رواية : « اصبروا على دينكم ، وصابروا عدوكم ممَّن يخالفكم » ^(٣) .

وعن (المعاني) : عنه عليه السلام : « اصبروا على المصائب ، وصابروهم على الفتنة » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « وصابروهم على التقية » ^(٥) .

﴿وَرَابِطُوا﴾ على الأئمة ، كما عن الصادق عليه السلام ^(٦) . وفي رواية أخرى : « ورابطوا إمامكم » ^(٧) .

. وفي أخرى : « رابطوا على ما تقتدون به » ^(٨) .

أو المراد : رابطوا الصَّلوات ، أي انتظروها واحدة بعد واحدة ، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام ، معللاً بأنَّ المراقبة لم تكن حينئذ ^(٩) .

وعن أبي سلمة ، أنه قال : لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يربط فيه ، وإنما نزلت هذه الآية في انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة ^(١٠) .

ونقل أنه ذكر انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة ، فقال أبو هريرة : فذلكم الرِّباط ، ثلاث مرَّات ^(١١) .

ويحتمل إرادة القدر المشترك بين المعاني المذكورة ، ويؤيده ما عن النبي ﷺ أنه قال : « من الرِّباط

انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة » ^(١٢) .

ويحتمل أنَّ يكون المعنى : أقيموا في الثَّغور رابطين خيلكم فيها ، مترصدين للغزو والجهاد ، كما هو ظاهر اللَّفظ عند العرف .

عن القمِّي رحمه الله : عن السَّجاد عليه السلام : « نزلت في العباس وفينا ، ولم يكن الرِّباط الذي امرنا به ،

وسيكون

(١) تفسير القمي ١ : ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٥٨ / ٨٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٥٩ / ٨٣٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٤) معاني الأخبار : ٣٦٩ / ١ ، وفيه : على التقية ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٥) معاني الأخبار : ٣٦٩ / ١ ، عن الصادق عليه السلام ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٦) الكافي ٢ : ٦٦ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٣٥٩ / ٨٣٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٨) معاني الأخبار : ٣٦٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٠ .

(٩) مجمع البيان : ٩١٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨١ .

(١٠ و ١١) . تفسير الرازي ٩ : ١٥٦ .

(١٢) مجمع البيان ٢ : ٩١٨ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨١ .

من نسلنا المرابط ، ومن نسله المرابط » ^(١) . انتهى .

والظاهر أنّ المراد : المرابطة في زمان القائم المنتظر صلوات الله عليه .

ثمّ - لما كان الإقدام على تلك المشقّات ، والتّحمّل لهذه المرات شديداً على النّفس ، محتاجاً إلى قوّة الدّاعي - ذكر الله تعالى أقوى الدّواعي ، وهو التّقوى والخوف من الله ، بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه في مخالفة أوامره وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وكي تفوزوا بأعلى المقاصد من النّجاة من النّار ، والتّنعّم والراحة في دار القرار .

عن النّبي ﷺ : « ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدّرجات ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة ، فذلكم الرّباط » ^(٢) .

ونقل عن أصحاب التذكير أنّهم قالوا : إنّ المراد من الآية المباركة : اصبروا عند قيام اليقين على احتمال الكرب ، وصابروا على مقاساة العناء والتّعب ، وربطوا في ديار أعدائي بلا هرب ، واتّقوا الله في الالتفات إلى السّبب ، لعلّكم تفلحون غداً بلفظي على نشاط وطرب .

وقال السّرقسطي : اصبروا على الدّنيا رجاء السّلامة ، وصابروا عند لقاء أعدائي بالثّبات والاستقامة ، وربطوا هوى النّفس اللّوامة ، واتّقوا ما يعقب النّدامة ، لعلّكم تفلحون غداً على بساط الكرامة .
وقيل : اصبروا على النّعماء ، وصابروا على البأساء والضّراء ، وربطوا في دار الأعداء ، واتّقوا إله الأرض والسّماء ، لعلّكم تفلحون في دار البقاء .

وقيل : اصبروا على مضض الطّاعات ، وصابروا على رفض العادات ، وربطوا السّرّ على جناب واهب العطيّات ، واتّقوا الله بالتّبرّي ممّا سواه من الكائنات ، لعلّكم تفلحون في الدّنيا بأعلى المقامات ، وفي الآخرة بأرفع الدّرجات .

أقول : اعلم أنّ القلب الإنساني إذا زكا بالريّاضة - من الصّبر على الطّاعة ، وترك اتّباع الهوى ، وقطع علاقة الدّنيا ، والمصابرة على البأساء والضّراء ، والثّبات في مكايده الأعداء ، وتحمل الشّدائد في سبيل الله وفي تحصيل رضاه - ونقي عن التّفاق وخبائث الأخلاق ، وطهر عن دنس الشّهوات بالتّقوى ، يفاض عليه أولاً خواطر الخير ، ونور الهداية إلى حقائق الأمور من خزائن الملكوت وعالم الجبروت ، فيصرف عقله إلى التّفكّر في ما فيه خيره وصلاحه ، وما به كمال نفسه ، والقرب إلى رحمة ربّه ، والنّظر في مقدّماته ومحصّلاته ، فعند ذلك يطّلع على أسرار الطّاعات ، وينكشف له بنور البصيرة حقائق

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٣ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٨٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ١٥٧ .

الخيرات والحسنات ، فيلزمه عقله بفعلها ، ويزجره عن أضدادها من الشرور والقبايح ، فيتقرب إلى كل خير ويلتزم به ، ويتباعد عن كل سوء ويجتنب عنه.

فإذا نظر الملك المرشد والمعلم للحقائق إلى هذا القلب - المعبر عنه بالنفس الناطقة - ووجده طيباً بجوهره ، طاهراً بتقواه ، نقياً من خواطر السوء ، مستنيراً بضياء العقل ، أفاض عليه أنوار المعرفة والحكمة والهدى ، وأيده بجنود لا ترى ، وأرشده إلى خيرات أخرى ، وسدده بإلهامات تترى فيشرق في تلك اللطيفة (١) الربانية حيناً بعد حين نور على نور ، من مشكاة نور الأنوار ، حتى لا يبقى فيه من ظلمة الشرك شيء ، ولو كان أخفى من ديب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، فلا يؤثر فيه شيء من مكائد الشيطان ودسائسه ، ولا يلتفت إلى حيله ومكائده ، بل يتوجه بشرائره (٢) إلى ربه ، ويستغرق بكّله في ذكره.

وهذا هو معنى الفلاح الحقيقي في الدنيا المستعقب للفلاح الأبدي في الآخرة من الرحمة والرضوان ، والسّعم الدائمة الباقية في الجنان ، ومرافقة الأنبياء والشهداء ، ومصاحبة الأولياء والصّالحاء ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣) .

وإنما قال سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ولم يقل : كي تكونوا مفلحين ، إشعاراً بأنّ الإنسان ما دام فيه الروح ، ويكون في عالم الطبيعة ، من قبل النفس الأمّارة ، وشياطين الإنس والجن ، في خطر عظيم وإن كان من المخلصين ، فإذا فارق الدنيا مقالاً من الزّلات ، سليماً من الهفوات (٤) بتأييد الله وتوفيقه ، حتم له الفلاح وأتقن (٥) به ، كما قال سبحانه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٦) .

فعلى العبد المؤمن أن يكون خائفاً من مكائد الشياطين المغوية وغلبة الهوى المردية ، في جميع حالاته وآنات عمره ، ويستعيز بالله السميع العليم من شرّ أعدى عدوّه ، ويلتجئ إلى ربه ، ويتضرّع إليه أن يحفظه من الضلال وسيئات الأعمال بلطفه وعنايته ، وأن لا يخذله بإيكاله إلى نفسه.

قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٧) ، وقال : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨) ، وقال : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٩) .

(١) أي القلب.

(٢) شراشر القلب : أطرافه ، أو كل القلب بجملة.

(٣) الفجر : ٨٩ / ٢٧ - ٣٠ .

(٤) في النسخة : الهوات.

(٥) كذا ، والظاهر : وأيقن.

(٦) المؤمنون : ٢٣ / ١ .

(٧) فاطر : ٣٥ / ٦ .

(٨) النساء : ٤ / ٨٣ .

(٩) النور : ٢٤ / ٢١ .

فليحذر العبد أن يعجب بنفسه ، ويغترّ بعمله ، ويأمن من زلّه ، إلى زمان حلول أجله. لقد كان في قصص كثير من العباد عبرة لاولي الألباب.

قال الله تعالى : ﴿وَأْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) ، إلى أن قال : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢) .

ولذا ورد الأمر بالإكثار من قول : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾^(٣) إلى آخر الآية.

عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة آل عمران اعطي بكل آية منها أمانا على جسر جهنم »^(٤) .
وعنه ﷺ : « من قرأ السّورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحتجب الشمس »^(٥) .

وفّقنا الله وجميع المؤمنين لأداء حقّه.

(١) الأعراف : ٧ / ١٧٥ و ١٧٦ .

(٢) الأعراف : ٧ / ١٧٨ .

(٣) آل عمران : ٨ / ٣ .

(٤ و ٥) . تفسير البيضاوي ١ : ١٩٨ .

في تفسير سورة النساء

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾

في وجه نظم سورة النساء

ثم اردفت السورتان - المتضمنتان لإثبات التوحيد ، والرسالة ، ومحاجة اليهود والنصارى ، وبيان
مهمات حقوق الله ، كوجوب الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، وأمثال ذلك - بسورة النساء
المشتملة لبيان مهمات حقوق الناس ، كاليتامى والأزواج والسفهاء والوزرات وغير ذلك ، فافتتحها بالبسملة
ليتعلم العباد التبرك بها عند الشروع في كل أمر ذي بال.

ثم لما ختم سورة آل عمران بآية فيها الأمر بالتقوى معللاً برجاء الفلاح في المعاد - ولذا خاطب
المؤمنين بالمبدأ والمعاد لتوقف هذا الرجاء على الإيمان بهما - أكد ذلك الأمر بالتقوى ثانياً معللاً بمعرفة المبدأ
، والخوف من سعة قدرة الله ، ونفوذ إرادته ، ولذا خاطب جميع الناس بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الظاهر في
إرادة جميع الموجودين منهم في زمان الخطاب ، وإن قال ابن عباس : إنه خطاب لأهل مكة ^(١) . وعليه
يشترك معهم غيرهم ، وإن كانوا معدومين في الحكم الذي ذكره تعالى بقوله : ﴿اتَّقُوا﴾ وخافوا ﴿رَبَّكُمْ﴾
ومكمل وجودكم ، في مخالفة أحكامه التي سببها لكم وغيرها.

وفي توصيف ذاته المقدسة بالربوبية تنبيه على كمال رأفته وقدرته ، اللتين هما علتان تامتان للقيام إلى
طاعته والاجتناب عن معصيته.

في مبدأ خلق حواء

ثم بالغ في تعريف رأفته وقدرته بتوصيف ذاته المقدسة بقوله : ﴿الَّذِي﴾ بجوده وحكمته ﴿خَلَقَكُمْ﴾
وقدر وجودكم الذي هو أصل النعم وأعاليتها ، الموجب لغاية

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٥٧.

الشكر ، والتمحّض للطّاعة ، والقيام بوظائف العبوديّة.

ثمّ لما كان التّرهيب أدخل من التّغيب في البعث على امتثال التّكاليف ، وتحمل المشاقّ ، أوضح كمال قدرته بقوله : ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وشخص فارد ، كان إيجاد جميع الخلائق التي لا تحصى كثرة [منه] وهو آدم.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه : سمّي به لأنّه خلق من أديم الأرض كلّها ، أحمرها وأسودها ، طيّبها وخبيثها ، فلذلك كان في ولده الأحمر والأسود ، والطّيب والخبيث ^(١) .

أقول : يمكن كون المراد من الأحمر والأبيض ؛ لأنّه ^(٢) من الأضداد.

عن الصادق عليه السلام : « إنّ الله خلق آدم من الماء والطّين ، فهمة ابن آدم في الماء والطّين » ^(٣) .

ثمّ قرّر سبحانه انتهاء الخلق إلى أصل واحد ، ونفس واحدة ، بقوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء ، فزوّجها من فرعها ، فلا يتوهم أنّ الخلق كان من أصلين ، ومن نفسين.

عن الصادق عليه السلام ، في رواية : « أنّ الله خلق حواء من آدم ، فهمة النّساء في الرّجال » ^(٤) .

عن القمّي : « برأها من أسفل أضلاعه » ^(٥) .

عن العياشي : عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « خلقت حواء من قصيرى جنب آدم - والقصيرى

: هو الضّلع الأصغر - فأبدل الله مكانه لحما » ^(٦) .

وعن النّبى صلى الله عليه وآله وسلم : « أنّ المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمعت بها » ^(٧) .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه ، في رواية : وإنا سمّيت المرأة بحواء ؛ لأنّها خلقت من ضلع من

أضلاع آدم ، فكانت مخلوقة من شيء حيّ ، فلا جرم سمّيت بحواء ^(٨) .

ورواها في (معاني الأخبار) أيضا ^(٩) .

في بيان حكمة خلق حواء من الضّلع الأيسر

ولعلّ حكمة جعل مبدأ خلق حواء الضّلع الأيسر ، تأثيره في تعطف الرّوج بالرّوجة ^(١٠) ، وحصول الالفة بينهما ، وتعلّق قلب الرّوج بها ، ويسر دخولها تحت يد الزوج وسلطانه ، وتمكينها من مضاجعة الرّوج : حيث إنّ الضّلع الأيسر جزء منعطف

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٦١ .

(٢) كذا ، والظاهر : أنّه .

(٣) و٤) . تفسير العياشي ١ : ٣٦١ / ٨٤٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٢ .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٣٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٢ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٣٦١ / ٨٤٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٢ .

(٧) و٨) . تفسير الرازي ٩ : ١٦١ .

(٩) معاني الأخبار ٤٨ / ١ .

(١٠) كذا ، والظاهر : على الرّوجة .

واقع في الجنب ، قريب من القلب ، تحت اليد اليسرى التي بها تبطش بالامور السهلة ، وينام عليه غالبا ، هذا هو المشهور بين العامة ، وعليه حلّ مفسريهم.

وفي عدّة روايات - من طرق الخاصة عن الصادق عليه السلام - تكذيبه ، وتأويل الضلع الأيسر بالطينة التي فضلت من ضلعه الأيسر. ^(١) وردّ علمه إلى الراسخين في العلم أولى - بعد عدم حجّة أمثال هذه الروايات التي لا ربط لها بالحكم الشرعي - من تكلف الجمع بينهما بما في حاشية (أسرار التنزيل) ^(٢) ، وتبعه الفيض في (الصافي) ^(٣) .

في تزويج حواء من آدم

ثمّ أنّه روي عن الصادق عليه السلام : « أنّ الله تبارك وتعالى لما خلق آدم من طين ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، ألقى عليه السّبات ، ثمّ أبدع له حواء ، فجعلها في مواضع التّقرة التي بين وركبيه ، لكي تكون المرأة تبعا للرجل ، فأقبلت تتحرّك فانتبه ، فلمّا انتبه نوديت أن تنحّي عنه ، فلمّا نظر إليها نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنّها انثى ، فكلمها فكلمته بلغته ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : خلق خلقتني الله كما ترى ، فقال آدم عند ذلك : يا ربّ ، من هذا الخلق الذي أنسني قربه والنظر إليه ؟ فقال الله : يا آدم ، هذه أمّتي حواء ، أفتحبّ أن تكون معك فتؤنسك وتحذّثك وتأتمر لأمرك ؟ فقال : نعم يا ربّ ، ولك عليّ بذلك الشّكر والحمد ما بقيت. فقال الله تبارك وتعالى : فاخطبها إليّ فإنّها أمّتي وقد تصلح لك أيضا زوجة للشّهوة.

وألقى الله عليه الشّهوة ، وقد علّمه قبل ذلك المعرفة بكلّ شيء ، فقال : يا ربّ فإنّي أخطبها إليك ، فما رضاك لذلك ؟ فقال : رضاي أن تعلّمها معالم ديني. فقال : ذلك لك يا ربّ عليّ ، إنّ شئت ذلك بيّ ^(٤) ، فقال : قد شئت ذلك ، وقد زوجتكما ، فضمّها إليك ، فقال لها آدم : إليّ فأقبلي. فقالت : لا ، بل أنت فأقبل إليّ ، فأمر الله تعالى آدم أن يقوم إليها فقام ، ولو لا ذلك لكان النّساء يذهبن حتّى يخطبن على أنفسهنّ » ^(٥) .

وفي (الاحتجاج) : عن السّجاد عليه السلام يحدث رجلا من قريش ، قال : « لما تاب الله على آدم واقع حواء ، ولم يكن غشيتها منذ خلق وخلقت إلّا في الأرض ، وذلك بعدما تاب الله عليه ، وكان آدم يعظّم البيت وما حوله من حرمة البيت ، فكان إذا أراد أن يغشى حواء خرج من الحرم وأخرجها معه ، فإذا

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٦٣ / ٨٤٩ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٤٠ / ١١٣٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٣ .

(٢) يريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، والحاشية للشيخ البهائي ، ذكرها المؤلف ضمن مصادر هذا التفسير .

(٣) تفسير الصافي ١ : ٣٨٣ .

(٤) في من لا يحضره الفقيه : لي .

(٥) علل الشرائع : ١٧ / ١ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٣٩ / ١١٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٢ .

جاز الحرم غشيتها في الحلّ ، ثمّ يغتسلان إعظاما منه للحرم » . الخير ^(١) .

فتناسلا ﴿وَبَثَّ﴾ الله ونشّر في الأرض ﴿مِنْهُمَا﴾ بالولادة ﴿رَجَالاً كَثِيراً﴾ بنينا ﴿وَنِسَاءً﴾ كثيرة بناتا ، وإنّما لم يصفهنّ بالكثرة لوضوح أنّ الحكمة مقتضية لكونهنّ كثيرات ^(٢) ، بل أكثر .
ولما كان التّفَرّع والتّشعّب من أرومة ^(٣) واحدة موجبا لرعاية حقوق النّاس سيّما الأقارب ، داعيا لحفظها ، نبّه عليه توطئة للنّهي عن تضييعها ، وإشعارا بكمال الاهتمام [بها] ، كما يدلّ جعله قرينا للنّهي عن تضييع حقوق نفسه ، المستفاد من إعادة الأمر بالتّقوى تأكيدا ، بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ترك أداء حقوقه . وذكر اسم الجلالة هنا لتربية المهابة .

في وجوب صلة الأرحام

ثمّ وصف ذاته المقدّسة بقوله : ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ فيما بينكم ، وتقولون عند طلب الحاجة من الغير : أسألك بالله ، للأشعار بأنّه كما تعظّمونه بالسنتكم وأقوالكم عظّموه بطاعتكم وأعمالكم .
ثمّ عطف عليه الأمر بحفظ حقوق الأرحام بقوله : ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ والمنتسبين إليكم بالولادة اتّقوهم من أن تقطعوا عنهم - كما عن الباقر ^(٤) عليه السلام - وتتركوا رعاية حقوقهم .
عن الصادق عليه السلام : «هي أرحام النّاس، إنّ الله أمر بصلتها وعظّمها، ألا ترى أنّه جعلها معه» ^(٥) .
وعن (الكافي) : عنه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « صلوا أرحامكم ولو بالتّسليم » ، ثمّ تلا هذه الآية ^(٦) .

وعن (العيون) : عنه عليه السلام : « أنّ الله أمر بثلاثة مقرون [بها] ثلاثة - إلى أن قال - : وأمر باتّقاء الله وصلة الرّحم ، فمن لم يصل رحمه لم يتّق الله » ^(٧) .
وعن الرضا ، عن أبيه ، عن آبائه ، عن عليّ عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : لما اسري بي إلى السّماء رأيت رحما معلقة بالعرش تشكو رحما إلى ربّها ، فقلت : كم بينك وبينها من أب ؟ فقالت : نلتقي في أربعين أباً » ^(٨) .

وعن القميّ ، قال : تساءلون يوم القيامة عن التّقوى هل اتّقيتم ، وعن الأرحام هل وصلتموها؟ ^(٩) .

(١) الاحتجاج : ٣١٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٦ .

(٢) في النسخة : كثيرة .

(٣) الأرومة : أصل الشجرة ، والمراد أصل نسب الإنسان .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٧ .

(٥) الكافي ٢ : ١٢٠ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٧ .

(٦) الكافي ٢ : ١٢٤ / ٢٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٧ .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٥٨ / ١٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٨ .

(٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٥٤ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٨ .

(٩) تفسير القمي ١ : ١٣٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٧ .

أقول : يمكن القول بشمول الآية لرحم آل محمد ﷺ ولو بالفحوى والأولوية ، ويدل عليه ما روي عن الرضا عليه السلام : « أن رحم آل محمد : الأئمة عليهم السلام معلقة بالعرش تقول : اللهم صل من وصلني ، وأقطع من قطعني ، ثم هي جارية بعدها في أرحام المؤمنين » ، ثم تلا هذه الآية (١) .

ثم وعد [تعالى] الثواب على رعاية الحقوق ، وأوعد على تضييعها ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وحفيظا ، مراقب لأعمالكم وأقوالكم ، ومطلع على ضمائركم وسرائركم ، فيجازيكم بها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

عن النبي ﷺ : « ما من شيء أطيع الله به أعجل ثوابا من صلة الرحم » (٢) .
وعنه عليه السلام : « أن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بها في العمر ، ويدفع بها ميتة السوء ، ويدفع الله بها المحذور والمكروه » (٣) .

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ خُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢)

ثم لما كان المقصود الأهم في السورة المباركة - كما ذكرنا في وجه التظم - بيان أحكام حقوق الناس من الأرحام والضّعفاء والمؤمنين ، ولذا بدأ سبحانه فيها بذكر بدء خلقه البشر ، وكون جميعهم من أصل واحد براعة للاستهلال ، وحثا على الامتثال ، بدأ عند ذكر الأحكام بإيجاب رعاية حقوق أضعف الناس وأحوجهم إلى الرعاية ؛ وهم الصغار الذين مات آباؤهم ، لإظهار كمال العناية بأمرهم وملاستهم بالأرحام ، بقوله : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أيها الكافلون لهم القيمون بأمورهم ، بعد بلوغهم ورشدهم ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ وأموالهم التي تكون عندكم ، بلا نقص وبخس .

وقيل : إنَّ المراد : اقطعوا الطمع عن أموالهم ، وكفوا عن التعدي والتفريط فيها .
﴿وَلَا تَبْدَلُوا﴾ ما لهم ﴿الْخَيْثَ﴾ والمحرم عليكم ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ والحلال من أموالكم ، بل أعطوهم أعيان أموالهم .

وقيل : هو النهي عن أخذ الرفيع من أموالهم ، وجعل الخسيس مكانه .
وقيل : إنَّ المراد : لا ترتزقوا بأموالهم المحرمة ، فينقطع عنكم الرزق الحلال الذي قدر لكم .
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ ولا تنصرفوا فيها منضمة ﴿إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ بأن تخلطوها ، فإنَّ حرمة الحرام لا تنزل بخلطه بالحلال .

(١) الكافي ٢ : ١٢٥ / ٢٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٧ .

(٢) و٣ . تفسير الرازي ٩ : ١٦٦ .

ثم أتته تعالى علل ردعه عن صرف أموال اليتامى والانتفاع بها بجميع الوجوه ، بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾
عند الله ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ وإنما عظيما ، فيعاقب عليه عقابا شديدا .

روي أنها نزلت في رجل من غطفان ، كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ طلب المال
فمنعه عنه ، فتراجعا إلى النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ،
نعوذ بالله من الحوب الكبير ، ودفع إليه ماله ، فقال النبي ﷺ : « ومن يوق شح نفسه ، ويطلع ربه هكذا
، فإنه يحلّ داره ، أي جنته » فلما قبض الصبيّ ماله أنفقّه في سبيل الله ، فقال ﷺ : « ثبت أجر الغلام
(١) ، وبقي الوزر على والده » (٢) .

أقول : في نهيته تعالى عن أكل مال اليتيم مختلطا بمال نفسه ، بعد النهي عن مطلق التصرف والتبديل
فيه ، اشعار بأنّ أكل مال اليتيم لدى اليسار أقبح وأشنع ، وأما النهي عن التبديل - بناء على التفسير
الأول - فهو مخصوص بما لم يكن فيه الغبطة لليتيم .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَشْيًى
وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى
أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾

ثم لما كان تولّي أمر اليتيم وحفظ ماله في الأغلب لازما لكفالاته وعشرته ، ومن المعلوم أنّ للصغير
غالبا اقتراحات على من هو في حجره وتربيته ، وكثيرا ما لا يجوز أو لا يمكن موافقته في مراداته ومسؤولاته ،
ولا يهتدي الرجال إلى الحيل في صرفه عنها وترضية خاطره ، سيما إذا كان لجوجا ، سيء الخلق ، فحينئذ
قد لا يحلم الوليّ أو القيم فيبتلي بضربه وشتمه والتعدي عليه ، مع أن من حقوق الأيتام المداواة معهم ،
فعلم الله كافيهم بطريق الأمن من إيذائهم وظلمهم ؛ بقوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ بسبب قلّة الحلم ، وضيق
الصدر ﴿أَلَّا تُفْسِطُوا﴾ ولا تعدلوا ﴿فِي﴾ شأن ﴿الْيَتَامَى﴾ الذين تلون أمورهم ، وتكفلون تربيتهم
﴿فَانكِحُوا﴾ وتزوجوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ومن يوافق ميل قلوبكم ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ فإنّ شأنهنّ حضانة
الأطفال ، والرفق بهم ، والمداواة معهم (٣) ، والتدبير في رضائهم ، وإعمال الحيل في صرفهم عن اقتراحاتهم
، وإسكاتهم عن البكاء بأفعال مضحكة ، وأصوات هائلة ، ونعمات ملهية ، وكلمات لاغية .

(١) في تفسير الرازي : « ثبت الأجر وبقي الوزر » فقالوا : يا رسول الله ، لقد عرفنا أنه ثبت الأجر ، فكيف بقي الوزر وهو ينفق في
سبيل الله ؟ فقال : ثبت أجر الغلام ...

(٢) تفسير الرازي ٩ : ١٦٩ .

(٣) كذا ، والظاهر : مداراتهم .

ومن الواضح أنّ التصبّي وارتكاب أمثال ذلك ، في غاية الصّعوبة على الرجال لأكمليّة عقولهم ، وفي كمال السّهولة على النساء لضعف عقولهنّ ، ولذا عبّر سبحانه عنهنّ في الآية بكلمة (ما) التي تستعمل في غير ذوي العقول ، تنزيلا لهنّ منزلته ^(١) .

ثمّ لما أمر بالنّكاح بيّن العدد الذي يجوز تزوّجه من الحرائر بالعقد الدّائم ، ولا يجوز التّجاوز عنه ، بقوله : ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فأذن سبحانه للنّاس في الجمع بين النساء في التّزوّج اثنين اثنين ، وثلاث وثلاث ، وأربع أربع.

فيكون الحاصل جواز اختيار أيّ عدد شاءوا من الأعداد ، متفقين أو مختلفين ، بأن اختار واحد اثنين ، وواحد ثلاث ، وواحد أربع. ولو كان (أو) بدل (الواو) لم يجز الاختلاف.

ثمّ أشار سبحانه إلى أنّه كما يجب العدل في حقّ الأيتام ، يجب العدل في حقّ الأزواج ، بقوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ في صورة اختيار المتعدّد ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بينهنّ ، ولا تقوموا بحقوقهنّ - وعن الصادق عليه السلام : « يعني : في النّفقة » ^(٢) - ﴿فَوَاحِدَةً﴾ من النساء اختاروا للتّزويج ، وأكتفوا بها ، وتركوا الجمع ﴿أَوْ﴾ اختاروا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء ، وإن تعدّدن وبلغن أربعين وأزيد ، لعدم كون حقوقهنّ على مواليهنّ كحقوق الحرائر على الأزواج ، من التّسوية والقسم ^(٣) وغيرهما ، فلا تبتلون بترك العدل.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الاكتفاء بالمهيرة ^(٤) الواحدة أو بالملوكة ، وإن كنّ متعدّدات ﴿أَذْنَى﴾ وأقرب طريق إلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ ولا تميلوا إلى الجور والظلم ، أو لا تموتوا ؛ لأنّ وجوب القسم والمجامعة وغيرهما مختصّ بالنّكاح الدّائم دون الملك والتّمتع.

عن القمّي : أي لا يتزوّج ما لا يقدر أن يعول ^(٥) .

ثمّ أعلم أنّ ما ذكرته من وجه النّظم ، هو الذي سنح بخاطري وقوي في نظري. ومن طريق العامّة روايات في شأن نزولها ، ووجه نظمها :

أحداها : عن عائشة ، قال عروة : قلت لها : ما معنى قول الله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي

الْيَتَامَى﴾

(١) أي منزلة غير العاقل ، وقد ذكر في (ما) هنا وجوه ، أحدها : أنه أراد بها الجنس ، كما تقول : ما عندك ؟ فيقال : رجل أو امرأة ، وثانيها : أن (ما) وما بعدها في تقدير المصدر ، أي فانكحوا الطيب من النساء ، وثالثها : أن (ما) و(من) ربما يتعاقبان ، قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ وقال : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وقال : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ راجع : تفسير الرازي ٩ : ١٧٢ .

(٢) الكافي ٥ : ٣٦٣ / ١ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٨٩ .

(٣) القسم : نصيب الزوجة من المبيت.

(٤) المهيرة : الحرّة الغالية المهر.

(٥) تفسير القمي ١ : ١٣٠ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٨٩ .

فقلت : يابن أحتي ، هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ، إلا أنه يريد أن ينكحها بأدنى من صداقتها ، ثم إذا تزوج بها عاملها معاملة رديئة ، لعلمه بأنه ليس لها من يذب عنها ويدفع شر ذلك الزوج عنها ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أن تظلموا اليتامى عند نكاحهن ﴿فَانْكَحُوا﴾ من غيرهن ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(١) .

واخرى : عن عكرمة ، أنه قال : كان الرجل عنده النسوة ويكون عنده الأيتام ، فإذا أنفق مال نفسه على النسوة ولم يبق له مال وصار محتاجا ، أخذ في إنفاق أموال اليتامى عليهن ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي﴾ أموال ﴿الْيَتَامَى﴾ عند كثرة الزوجات ، فقد حظرت عليكم أن تنكحوا أكثر من أربع ، كي يزول هذا الخوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ في الأربع أيضا ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فذكر الطرف الزائد وهو الأربع ، والناقص وهو الواحدة ، وبته بذلك على ما بينهما ، فكأنه تعالى قال : فإن خفتن من الأربع فثلاث ، فإن خفتن فاثنتان ، فإن خفتن فواحدة^(٢) .

وثالثة : أنه لما نزلت الآية المتقدمة في اليتامى ، وما في أكل أموالهن من الحوب الكبير ، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى ، فتحرجوا من ولايتهم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج وأكثر ، فلا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهما ، فقبل لهم : إن خفتن ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرجتم منها ، فكونوا خائفين من ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات ، لأن من تخرج من ذنب وتاب عنه وهو مرتكب لمثله ، فكأنه غير متحرج^(٣) .

وقيل : إنهم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ، فقبل : إن خفتن في حق اليتامى ، فكونوا خائفين من الزنا ، فانكحوا ما حل لكم من النساء ، ولا تخوموا حول المحرمات^(٤) .

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا﴾ (٤)

ثم بين الله سبحانه وجوب إعطاء مهر النساء بقوله : ﴿وَأَتُوا﴾ أيها الأزواج ﴿النِّسَاءَ﴾ اللاتي تزوجتموهن ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ ومهورهن التي استحللتم بها فروجهن ، لكونها ﴿نِحْلَةً﴾ وفريضة فرضها الله في دينه ، أو عطية من الله لهن ، حيث إن الله أمر بإعطاء الزوج المهر ، مع أنه والمرأة مشتركان في منافع النكاح ، من قضاء الشهوة والتوالد.

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٧١ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ١٧١ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ٩ : ١٧١ .

وقيل : إنّها عطية من الأزواج لمن مجانا بلا عوض ؛ لأنهم لا يملكون البضع ، وإنما يباح لهم الانتفاع .
 عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أحقّ الشرط أن يوفى به ^(١) ، ما استحللتم به الفروج » ^(٢) .
 وعن الصادق عليه السلام : « من تزوّج امرأة ولم ينو أن يوفيه صداقها ، فهو عند الله زان » ^(٣) .
 عن الباقر عليه السلام : « أنّ الخطاب فيه للأولياء ؛ لأنّ الرجل منهم كان إذا زوّج أئمة ^(٤) أخذ صداقها
 دونها فنهاهم الله عن ذلك » ^(٥) . وعليه جمع من مفسري العامة .

وقيل : إنّ العرب كانت في الجاهلية لا تعطي النساء شيئا ، ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت
 : هنيئا لك النافجة . ومعناه : إنّك تأخذ مهرها إبلا فتضمّها إلى إبلك ، فتنفج مالك ، أي تعظمه ^(٦) .
 ثم رخص سبحانه في أخذه منهم بشرط الرضا والطيب ، بقوله : ﴿ فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ ﴾ أيها الأزواج ،
 أو الأولياء ﴿ عَنْ شَيْءٍ ﴾ قليل أو كثير ﴿ مِنْهُ نَفْسًا ﴾ ورضين بأكلكم منه ، وتصرفكم فيه ، وتملككم له ؛
 قلبا من غير أن يكون عطاؤهنّ فداء عن أنفسهنّ ، لسوء أخلاقكم ورداءة صحبتكم ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ أكلا
 ﴿ هَنِيئًا ﴾ سائغا لذيذا ﴿ مَرِيئًا ﴾ بلا غصة ولا داء ، وتصرفوا فيه كتصرفكم في أموالكم ، بلا تبعة عليكم في
 الدنيا ولا في الآخرة . وفيه غاية المبالغة في التحليل وعدم التبعة .

روي أن ناسا كانوا يتأثّمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا ممّا ساقه إليها ، فنزلت ^(٧) .
 فالآية دالة على تملك المرأة مهرها بالعقد وجواز مطالبتها ، وعدم جواز تصرف غيرها فيه ، إلّا
 بطيب نفسها ، ولها التصرف فيه بالتأمليك وأنواع الانتفاعات قبل الدخول وبعده .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا

وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٥)

ثم أنّه تعالى - بعد بيان وجوب رعاية حقوق الضّعيفين ؛ اليتيم والزوجة التي هي كالأسيرة - بيّن
 وجوب رعاية حقّ ثالث الضّعفاء وهو السفهية ، بقوله : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ ﴾ والأشخاص الذين لا رشد
 لهم في إصلاح مالهم ، ولا يميّزون لضعف عقولهم بين الخير والشرّ ، والتفّع والضّرر ، أموالهم

(١) في من لا يحضره الفقيه : إنّ أحقّ الشروط أن يوفى بها ...

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٥٢ / ١٢٠١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٩ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٥٢ / ١٢٠٠ ، تفسير الصافي ١ : ٣٨٩ .

(٤) الأئمة : المرأة غير المتزوجة بكرا أو ثيبا ، جمعها أيامى .

(٥) مجمع البيان ٣ : ١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٠ .

(٦) الكشف ١ : ٤٧٠ ، تفسير الرازي ٩ : ١٧٩ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٦٣ .

(٧) تفسير الصافي ١ : ٣٩٠ .

التي يجب أن تعدّوها ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ في كمال الرّعاية ، وشدّة العناية والاهتمام بالحفظ ؛ لأنّها ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ﴾ إِيَّاهَا ﴿لَكُمْ﴾ بحكمته ﴿قِيَامًا﴾ تقومون بها ، وقواما تتقوّمون بمنافعها ، ومعاشا تتعيشون بالارتزاق منها ، فلا تفسدوها بتسليطهم عليها ، بل اقطعوا أيديهم عنها ، واتّجروا بها واستربخوا منها ﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾ من الرّيح الذي يكون ﴿فِيهَا﴾ بالأتجار ﴿وَأكْسُوهُمْ﴾ به .

والحاصل أنّ على الأولياء أن يجعلوا أموال السّفهاء محلّ ارتزاقهم ، وأرباحها مدار نفقاتهم ؛ حتّى يعيشوا في ظلّ ولايتهم ورأفتهم برحب وسعة ، مع بقاء أصل مالهم مدى أعمارهم .

وقيل في وجه التّظلم : إنّ لما أمر الله سبحانه برّد أموال اليتامى ومهور الرّوجات ، ذكر في الآية أنّ وجوب الرّد والإيتاء يكون حال كونهم رشيدين ، وأمّا إذا كانوا سفهاء فلا تؤتوهم .

عن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « هم اليتامى ، لا تعطوهم حتّى تعرفوا منهم الرّشد » ، قيل : فكيف تكون أموالهم أموالنا ؟ فقال : « إذا كنت أنت الوارث لهم » ^(١) .

وعن (الفقيه) : عن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « لا تؤتوها شراب الخمر ، ولا النّساء » ثمّ قال : « وأيّ سفيه أسفه من شارب الخمر » ^(٢) .

وفي رواية : « كلّ من يشرب الخمر فهو سفيه » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية ، قال : « السّفهاء : النّساء والولد ، إذا علم الرّجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة ، وولده سفيه مفسد ، لا ينبغي له أن يسلّط أحدا منهما على ماله الذي جعل الله [له] قِيَامًا ، يقول : معاشا » ^(٤) .

وقيل : إنّ في الآية نهيّا لكلّ أحد أن يعتمد إلى ما حوّله الله من المال فيعطي امرأته وأولاده ، ثمّ ينظر إلى أيديهم ، وإمّا سّمّاهم الله سفهاء استخفافا بعقلهم ، واستهجانا لجعلهم قواما على أنفسهم .

أقول : لا يبعد حمل الآية على التّهي من تسليط السّفهاء على الأموال مطلقا ، سواء كانت لهم أو لغيرهم من الأولياء ، وبه يجمع بين الروايات ، والله العالم .

ثمّ أمر سبحانه بالتّلطّف بهم وترضيتهم وتطبيب قلوبهم بقوله : ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ إذا اقترحوا عليكم أمرا ، وسألوا منكم ما لا يجوز أو لا يمكن إجابتهم فيه ﴿قَوْلًا﴾ وجوبا ﴿مَعْرُوفًا﴾ ومستحسنا عند الشّرع والعقل من عدة جميلة ، وكلام لئّن طيّب لا يكون فيه كذب ولا إيذاء ، بل تطيب به نفوسهم .

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٦٨ / ٨٦٥ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٠ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ١٦٨ / ٥٨٦ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٠ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٦٨ / ٨٦٤ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٣١ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٠ .

عن الباقر عليه السلام : « المعروف العدة » (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : هو مثل أن يقول : إذا ربح في سفري هذه فعلت بك ما أنت أهله ، وإن غنمت في غزاتي أعطيتك (٢) .

قيل : إن الله أمر بذلك ؛ لأنّ القول الجميل يؤثّر في القلب ، فيزيل السّفه ، وأما خلاف القول المعروف فإنّه يزيد السّفه سفيها ونقصا (٣) .

وقيل : إنّ المراد : علّموهم - مع إطعامكم وكسوتكم - أمر دينهم ممّا يتعلّق بالعلم والعمل (٤) .

﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى
بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾

ثمّ - لما أمر الله سبحانه بإعطاء أموال اليتامى ، ونهى عنه إذا كانوا سفهاء - أمر الأولياء باختبار عقلهم ورشدهم قبل البلوغ ، بقوله : ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ أيّها الأولياء ، واختبروا رشدهم إذا لم يكن بينكم وبينهم بلوغهم بتتبع أحوالهم في أمور الدّين والمعاملات ، والاهتداء إلى حفظ المال عن الضّرر ، وحسن التصرف فيه ، والتحرّز عن الإسراف والتبذير ، وأدبوا بتجربتهم ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا﴾ واستأهلوا ﴿النِّكَاحَ﴾ وصلحوا للازدواج بالاحتلام أو استكمال خمس عشرة سنة إن كانوا ذكرا ، ورؤية الحيض أو استكمال تسع سنين إن كنّ إناثا ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ وأحرزتم بالاختبار والتجارب ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ وصلاحا بتسليطهم على المال ، واهتداء إلى وجوه التصرفات العقلانيّة فيه ، واحترازا عن السرف والتبذير ﴿فَادْفَعُوا﴾ وسلّموا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بلا تأخير ومطل ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ التي تكون بأيديكم كلّها.

في بيان المراد من الرّشد

عن الصادق عليه السلام : « إيناس الرّشد : حفظ المال » (٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « الرّشد : العقل ، وإصلاح المال » (٦) .

عن القمي رحمه الله : عنه عليه السلام في هذه الآية قال : « من كان في يده مال بعض اليتامى ، فلا يجوز أن يعطيه حتّى يبلغ النّكاح ويحتلم ، فإذا احتلم وجب عليه الحدود وإقامة الفرائض ، ولا يكون

(١) تفسير القمي ١ : ١٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ٩ : ١٨٦ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ١٨٦ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٤ : ١٦٤ / ٥٧٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٦) مجمع البيان ٣ : ١٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

مضيعة ، ولا شارب خمر ، ولا زانيا » .

إلى أن قال : « وإن كانوا لا يعلمون أنه قد بلغ فإنه يمتحن بريح إبطه ، أو نبت عانته ، فإذا كان ذلك فقد بلغ ، فيدفع إليه ماله إذا كان رشيدا ، ولا يجوز له أن يحبس عنه ماله ، ويعتل عليه أنه لم يكبر بعد » ^(١) .

ثم أكد سبحانه التهي عن أكل أموالهم بقوله : « **وَلَا تَأْكُلُوا** » حال كون أكلكم منها **إِسْرَافًا** وزيادة على استحقاقكم منها **«وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا»** واستباقا بلوغهم .
أو المراد : لا تأكلوها لإسراف ومبادرة كبرهم بأن تفرطوا في أموالهم وتقولوا : ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى وينتزعوها من أيدينا ، كذا قيل ^(٢) .

في بيان جواز أكل الولي من مال اليتيم

وفيه إشعار بجواز الأكل - إذا لم يكن إسرافا وبدارا ، بل كان بمقدار الحاجة ، مع رعاية الغبطة - وإجمال لما فصله بعد ، بقوله : « **وَمَنْ كَانَ** » من الأولياء والأوصياء **«غَنِيًّا»** ذا ثروة كافية لمعاشه **«فَلَيْسَ سَعْفُفٌ»** وليتنزه عن الأكل من مال اليتيم ، وليقنع بما آتاه الله إشفاقا عليه ، وإبقاء لما له **«وَمَنْ كَانَ»** منهم **«فَقِيرًا»** ومحتاجا في معاشه إلى الأكل من مال اليتيم ، لاشتغاله بإصلاح ماله ، وعدم فراغه له لكسب معيشة نفسه وعياله وتحصيل مؤنتهم **«فَلْيَأْكُلْ»** ذلك الفقير من مال اليتيم ، وليصرف منه في حوائجه **«بِالْمَعْرُوفِ»** وبقدر حاجته وكفايته من غير إسراف ، أو بمقدار اجرة عمله وسعيه .
عن (الكافي والعياشي) : عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « من كان يلي شيئا لليتامى ، وهو محتاج ليس له ما يقيمه ، وهو يتقاضى أموالهم ويقوم في ضيعتهم ، فليأكل بقدر ولا يسرف ، فإن كانت ضيعتهم لا تشغله عما يعالج لنفسه فلا يرزأ من أموالهم شيئا » ^(٣) .
أقول : الظاهر أن المراد من (قدر) : قدر الحاجة والضرورة العرفية ، ومن قوله (لا يرزأ) لا ينقص .

وعنه عليه السلام ، في هذه الآية : « هذا رجل يحبس نفسه لليتيم على حرث أو ماشية ، ويشغل فيها نفسه ، فليأكل بالمعروف ، وليس له ذلك في الدنانير والدراهم التي عنده موضوعة » ^(٤) .
وعنه عليه السلام : « ذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة ، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم أموالهم ، فإن كان المال قليلا فلا يأكل منه شيئا » ^(٥) .

(١) تفسير القمي ١ : ١٣١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٦ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٧٠ / ٨٧٢ ، الكافي ٥ : ١٢٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٧٠ / ٨٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٣٦٩ / ٨٧١ ، الكافي ٥ : ١٣٠ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٢ .

أقول : الظاهر أنَّ المنع من المال القليل في الرواية ، ومن الدنانير والدراهم في السابقة ، لعدم الرِّحمة في حفظها ، وعدم مزاحمته لاشتغاله بكسبه ، وعليه لو أُتجر بالتقدين ، أو بالمال القليل ، وكان الاتجار بهم شاغلا له عن التَّكسُّب لنفسه ، فلا بأس بالأكل منها.

وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « المعروف هو القوت ، وإِنَّمَا عَنِ الوَصِيِّ والْقِيَمِ في أموالهم وما يصلحهم » (١) .

عن الباقر عليه السلام : « من كان فقيرا فليأخذ من مال اليتيم قدر الحاجة والكفاية ، على جهة القرض ، ثُمَّ يردَّ عليه ما أخذ إذا وجد » (٢) .

أقول : على تقدير كون المراد هو الوليِّ أو القيمِّ الفقير دون غيرها ، لا بدَّ من حمله على التدبُّ ، كما أنَّه يمكن حمل النَّهي عن أكل الوليِّ الغنيِّ على الكراهة ، لإشعار مادَّة الاستعفاف ، ومعنى التَّنَزُّه بها ، وأدلة احترام عمل المسلم ، ونفي الضَّرر . وعليه يجوز للغنيِّ الأكل بمقدار اجرة عملة ، والأحوط التَّجَنُّب .

ثمَّ أمر الله تعالى الأولياء - لطفًا بهم ، وحفظًا لهم عن التَّهمة ، وسدًّا لباب الخصومة - بالإشهاد على دفع أموال اليتامي إليهم ، بقوله : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ ﴾ وسَلَّمْتُمْ ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ بعد البلوغ والرَّشد ﴿ أَمْوَالَهُمْ ﴾ جميعا بلا نقص وتفريط ﴿ فَأَشْهَدُوا ﴾ شاهدين عدلين ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بأنَّكم سَلَّمْتُمْ إليهم جميع ما كان لهم عندكم ، وأنَّهم تسَلَّموه وبرئتم ذمكم عنه ، حتَّى لا ترموا بالخيانة ، ولا تبتلوا بالخصومة .

أقول : الظاهر أنَّ الأمر بالإشهاد للإرشاد ، لا الإيجاب المولوي . قيل : بدلالته على عدم قبول دعوى الرَّدِّ من الوليِّ والقيمِّ إلَّا بالبيِّنة ، وفيه تأمُّل .

ثمَّ نبَّه سبحانه على أنَّ الإشهاد طريق التَّخلُّص من خصومة الخلق لا الخالق ، بقوله : ﴿ وَكَفَى ﴾ لليتيم ﴿ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ فيحاسبكم في محضر عدله ، ويخاصمكم على ما صدر منكم من الخيانة ، ويؤاخذكم بالنِّقير والقطمير ، ويعاقبكم على ما دقَّ وخفي من التَّفريط والخيانة في أموال النَّاس وحقوقهم ، فلا تقصَّروا في حفظ أموال الأيتام وغيرهم ، ولا تخونوا في أمانة الله ، ولا تتجاوزوا ما حدَّ لكم في دينه وشريعته .

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (٧)

(١) الكافي ٥ : ١٣٠ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩١ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٢ .

ثم لما بين الله سبحانه حقوق اليتامى والزوجات والسفهاء ، شرع في بيان حقوق الأولاد والأقارب ، قيل : إن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والأطفال ، وكانوا يقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرمح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ^(١) ، فأبطل الله تعالى هذا الحكم ، وشرك النساء مع الرجال في الإرث بقوله : ﴿لِلرِّجَالِ﴾ من الأولاد والأقارب ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوارثون من الأموال والحقوق المالية ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ منهم أيضا ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظ معلوم ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ وخلف ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ .

وفي ذكر حكم إرث النساء استقلالاً بعد ذكر حكم الرجال ، إيدان بكمال العناية بشأنهن ، ومبالغة في إبطال حكم الجاهلية.

ثم أكد سبحانه تعميم نصيبهن في جميع التركة بقوله : ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ ودق أو جل . قيل : فيه إبطال لحكم بعض العرب من عدم توريث النساء من آلات الكسب والحرب ، وتخصيصهما بالرجال .

ثم بالغ سبحانه في تأكيد ثبوت النصيب لكل من الفريقين بقوله : ﴿نَصِيبًا﴾ وقسما ﴿مَفْرُوضًا﴾ وثانيا واجبا من الله لهم ، لا يسقط بإسقاطهم ، ولا بوصية الميت بعدم إعطائهم.

في بيان شأن نزول الآية

عن ابن عباس رضي الله عنه ، في شأن نزول الآية : أن أوس بن ثابت الأنصاري توفي عن ثلاث بنات وزوجة يقال لها أم كحة ، فجاء رجلان من بني عمّة ، وهما وصيّان له ، يقال لهما سويد وعرفجة - وفي رواية : اسمهما قتادة وعرفطة - وأخذوا ماله ، فجاءت أم كحة زوجة أوس إلى رسول الله ﷺ وذكرت القصة ، وذكرت أن الوصيّين ما دفعوا ^(٢) إلى بناته شيئا من المال ، فقال النبي ﷺ : « ارجعي إلى بيتك حتى انظر ما يحدث الله في أمرك » .

فنزلت الآية ، ودلت على أن للرجال نصيبا ، وللنساء نصيب ، ولكنه تعالى لم يبين المقدار في هذه الآية ، فأرسل الرسول ﷺ إلى الوصيّين وقال : « لا تقربا من مال أوس شيئا . ثم نزل بعد ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ ^(٣) وفرض الزوج ، وفرض المرأة ، فأمر رسول الله ﷺ الوصيّين أن يدفعوا إلى المرأة الثمن ويمسكا نصيب البنات ، وبعد ذلك أرسل إليهما « أن ادفعنا نصيب بناتنا إليها » فدفعاه إليها ^(٤) .

قيل : لما كانت عادة العرب عدم توريث النساء ، وكان نقلهم عن تلك العادة دفعة إلى التوريث بالسهم المفروضة ثقيلًا على طباعهم ، عظيما في قلوبهم ، ذكر سبحانه أولا في هذه الآية نصيبهن

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٩٤ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٦ .

(٢) زاد في تفسير الرازي : إلي شيئا ، وما دفعنا .

(٣) النساء : ٤ / ١١ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ١٩٤ ، تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٢ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٧ .

بنحو الإجمال ، وفي الآية الآتية بنحو التفصيل ، ليسهل عليهم القبول بهذا التدريج ^(١) .

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد حكمه بحرمان بني الأعمام من مال الميت إرثاً ، مع وجود بنت الوارث ، بتطبيب قلوب غير الوارث من الأقارب بالإحسان إليهم ، وحسن العشرة معهم ، بقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ للتركة ، وشهد إفراز الأنصباء ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ وذوو الأرحام الذين لا يرثون من الميت ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ من الأجانب والأبعدين ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ ممَّا رزقكم من المال المقسوم ، وأعطوهم شيئاً ﴿مِنْهُ﴾ تطيب به قلوبهم ، للأرحام صلة ولغيرهم صدقة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ مع الإعطاء وبعده ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وكلاماً حسناً من الاعتذار إليهم من قلة العطاء ببيان لطيف ، والدعاء لهم ، وإظهار الامتنان من قبولهم القليل ، ونحو ذلك.

وقد مرَّ في الطَّرْفَةِ العشرين قولاً بأنَّها منسوخة بآية الإرث بالنسب ، وروايات دالة عليه ، وذكرنا أنَّها لو صحَّت ، محمولة على نسخ الوجوب دون الاستحباب ، فيستحبُّ للورثة - حين قسمتهم للتركة - الرِّضْخ ^(٢) لمن لا سهم له من الأقارب والأيتام والمساكين .
وقيل : إنَّ ذلك مختصٌّ بالعين ، وأمَّا الأرضون والرقيق فلا يستحبُّ الإعطاء ، بل عليهم الاعتذار ، والقول بالمعروف ^(٣) .

وقيل : إنَّ القول بالمعروف والاعتذار إليهم فيما لو كان في الورثة صغير ، فلا يجوز إعطاؤهم من سهمه ، بل يعتذر إليهم وليه بأن يقول لهم : لو كان لي لأعطيتكم ^(٤) .
قيل : إنَّ الخطاب في الآية للمريض - إذا حضرته أمارات الموت ، وأراد قسمة أمواله ، والإيصاء بها - أن يفعل ذلك (٥) . والأوَّل أشهر بين المفسرين .

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ (٩)

ثمَّ لما كان ضعف الأيتام إلى الغاية ، أظهر الله بهم كمال العناية بعد الأمر بإرزاقهم عند القسمة ،

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٩٤ .

(٢) في النسخة : الوضع ، والرِّضْخ : الشيء اليسير .

(٣ و ٤) . كنز العرفان ٢ : ٣٣٧ .

والإحسان إليهم بالتأكيد في إيجاب حفظ أموالهم ، والاهتمام في رعاية صلاحهم ، والمبالغة في حسن العشرة معهم ، والتهديد على تضييع مالهم والإساءة إليهم بالعقوبة بالمثل في الدنيا ، بقوله : ﴿وَلْيَحْشَ﴾ كافلوا اليتامى ﴿الَّذِينَ﴾ يكون حالهم أنه ﴿لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أو خلفوا من بعد موتهم ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وأولادا صغارا ﴿ضِعَافًا﴾ لا يقومون إلا بكافل شفيق ﴿خَافُوا﴾ عند وفاتهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الضياع والفقر بعدهم ، وعدم الكافل لهم ، أو إساءة الكافل العشرة معهم ، إن ظلموا الأيتام الذين في حجورهم وفي كفالتهم وضيعوهم ، وأتلفوا أموالهم ، وأساءوا العشرة معهم ، من أن يفعل بذرتهم بعدهم مثل ما فعلوا بهم.

فيذا تبين لهم أنَّ أثر الإساءة بأيتام الغير ، وتضييع مالهم ، الإساءة بأيتام أنفسهم ، وتضييع حقوقهم ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تضييع يتامى غيرهم ، وترك الشفقة والرحمة بذراري إخوانهم المؤمنين . وحاصل المراد أنه تعالى حثَّ كافلي اليتامى على حفظ مالهم ، وتنزيلهم أنفسهم في حفظ أموالهم والإحسان إليهم ، منزلة كافل يتيم أنفسهم لو فاتوا ^(١) وخلفوا لهم مالا . ولا يخفى أنه من أقوى الدواعي في الشفقة بالأيتام .

ثم بالغ سبحانه في الوصية إلى الأولياء برعاية الأيتام وحسن صحبتهم ، بقوله : ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ في مكالمتهم اليتامى ومخاطبتهم ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وكلاما صوابا . قيل : هو بأن يكلموهم باللطف والترحيب ، ويخاطبوهم كما يخاطبون أولادهم من قول : يا بني ، ويا قرّة عيني ^(٢) .

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « من يظلم يتيما سلّط الله عليه من يظلمه ، أو على عقبه ، أو على عقب عقبه » ^(٣) .

وقيل : إنّ المقصود بالخطاب في الآية الذين يجلسون عند المريض فيقولون : إنّ ذرّيتك لا يغنون عنك من الله شيئا فافوض بمالك لفلان ولفلان ، فلا يزالون يأمرونه بالوصية للأجانب حتّى لا يبقى من ماله للورثة شيئا ، فقال الله تعالى لهم : كما تكرهون ابتلاء أولادكم بعدكم بالجوع والضعف والفقر ، فاحشوا الله ، ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله ^(٤) .

عن النبي ﷺ : « لا يؤمن العبد حتّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(٥) .

وقيل : إنّ المقصود هو من قرب موته ، فنهاه الله عن الإكثار في الوصية بماله لئلا يبقى ورثته

(١) فاتوا : مضوا ، ويريد هنا ماتوا .

(٢) الكشف ١ : ٤٧٨ ، تفسير الرازي ٩ : ١٩٩ ، وفيهما : يا بني ، ويا ولدي .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٧١ / ٨٧٩ ، الكافي ٢ : ٢٥٠ / ١٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ .

(٤) و (٥) . تفسير الرازي ٩ : ١٩٨ .

ضائعين^(١) .

ويؤيده ما رواه الكليني رحمه الله مرسلًا : عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لرجل من الأنصار أعتق مملوكه لم يكن له غيرهم : « ترك صبية صغارًا يتكففون الناس »^(٢) .

والأظهر هو التفسير الأول ، وإن أمكن القول بعموم الملاك لمن له رعاية الأيتام من الأولياء والأوصياء والأجانب والموصين .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا (١٠)﴾

ثم بالغ سبحانه في تأكيد وجوب حفظ أموال الأيتام بتهديد آكلي أموالهم ظلماً بالعقوبة بالنار في الآخرة ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ في محابيحهم على وجه يكون أكلهم وصرفهم ﴿ظُلْمًا﴾ على اليتامى ، وتعدّيًا عن الحق ، مثل كون الأكل زائدًا على اجرة المثل ، فهم ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ﴾ ويدخلون ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ ويملاؤن أجوافهم ﴿نَارًا﴾ لا توصف شدة حرها .

وقال كثير من المفسرين : إنّ المراد بالنار ما يؤدي إليها مجازًا بعلاقة السببية^(٣) . وفيه : أنه لا وجه له مع إمكان إرادة الحقيقة ، لما ثبت من أنّ لكل شيء صورة برزخية ، فكما أنّ للصلاة صورة وللصوم صورة ، وللقرآن صورة ، يمكن أن تكون مال اليتيم المحرم صورة التارئة ، فأهل البصيرة يرون أنّ من يأكله يأكل النار^(٤) .

عن أبي بردة ، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفوههم نارا ، فقيل : من هم ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « أ لم تر أنّ الله يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾^(٥) .

وعنه صلى الله عليه وآله : « أنّ أكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه واذنيه وعينه ، فيعرف الناس أنّه أكل مال اليتيم »^(٦) .

وعن القمي رحمه الله : عن الصادق عليه السلام ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لما اسري بي إلى السماء رأيت قوما تقذف في أجوافهم النار وتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء [الذين]

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٩٩ .

(٢) الكافي ٧ : ٩ / ١٠ .

(٣) راجع : تفسير الرازي ٩ : ٢٠٠ ، تفسير روح البيان ٢ : ١٧٠ .

(٤) جوامع الجامع : ٨٠ ، تفسير الرازي ٩ : ٢٠٠ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٣ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٨ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٨ .

يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» (١) .

وفي (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « أَنَّ أَكَلَ مَالِ الْيَتِيمِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالتَّارُ تَلْهَبُ فِي بَطْنِهِ حَتَّى يَخْرُجَ لَهَبُ النَّارِ مِنْ فِيهِ ، يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ أَنَّهُ أَكَلَ مَالِ الْيَتِيمِ » (٢) .
﴿وَسَيَصْلُونَ﴾ وعن قريب يدخلون مع ذلك في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾ ذات لهب لا يعرف شدتها غير الله.

روي أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس ، فاحتزوا عن مخالطة اليتامى بالكليّة ، فصعب الأمر على اليتامى ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ (٣) .
ثم لما كان منشأ انتزاع الحقوق الواجبة للرعاية ، النسبة الحاصلة بين الأشخاص ، ومن المعلوم أنّ أبقاها هي النسبة الحاصلة بالولادة ، وأضعفها الحقوق الحاصلة بالولاية والوصاية والمصاهرة. وقدم الولاية والوصاية لإظهار الاهتمام بشأنها.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾

ثم شرع سبحانه في بيان حقوق الولادة ، فابتدأ بذكر ما هو أولى بالرعاية منها من حقوق الأبوين والأولاد ، بقوله : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ أيها الناس ويعهد إليكم ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ وأمر حقوقهم. وإتّما قدمهم على الآباء والامهات والكلالة وسائر الأرحام ، لكونهم أقرب وألصق ، ولأنّ تعالى ذكر حقهم في آية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ (٤) إجمالاً ، فبدأ في الآية بذكر تفصيله بقوله : ﴿لِلذَّكَرِ﴾ منهم حظّ ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وما يساوي نصيب البنتين من جميع أموالكم وحقوقكم. وإتّما خصّ الذكر بالتنصيص على حظّه للإشعار بفضيلته ، وبأنّ تضعيف حظّه لها.

(١) تفسير القمي ١ : ١٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ .

(٢) الكافي ٢ : ٢٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٣ .

(٣) تفسير الرازي ٩ : ٢٠٢ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٤٨ ، والآية من سورة البقرة ٢ : ٢٢٠ .

(٤) النساء : ٤ / ٧ .

في بيان وجوه استفادة نصيب البنيتين من الآية

ثم أنّ هذا في صورة اجتماع الصّنفين ، وأمّا نصيب الذّكور في صورة الانفراد عن الإناث فجميع التّركة ، لدلالة تعيين نصيب الإناث في حال انفرادها عن الذّكور ، بقوله : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وبناتا فإن كان عددهنّ اثنتين ، أو عدداً ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ وزائداً عليه ، بلغن ما بلغن ﴿فَلَهُنَّ﴾ بالفرض ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وخلف المتوفّى من المال ، والثّلت الباقي لهنّ ردّاً ، إن لم يكن وارث غيرهنّ.

وهذا ممّا لا إشكال ولا شبهة فيه عندنا نصّاً وفتوى ، إنّما الإشكال في استفادة حكم إرث البنيتين من الآية المباركة ، وقد ذكروا لها وجوها ثلاثة : الأوّل : أنّه لما بيّن الله تعالى أنّ حظّ الذّكر الواحد - إذا كانت معه انثى واحدة - مثل حظّ الانثيين ، وهو الثّلاثان ، علم أنّ فرض الانثيين الثّلاثان في صورة الانفراد. الثاني : أنّه لما علم من قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أنّ حظّ الانثيين أزيد من حظّ الانثى الواحدة ، علم أنّ حظّ الانثيين الثّلاثان ، لعدم القول بالفرق.

الثالث : أنّه لما علم أنّ نصيب البنت الواحدة - إذا كانت مع الذّكر الواحد - الثّلت ، علم أنّه إذا لم يكن معها الذّكر ، وكانت معها الانثى الاخرى ، كان نصيبها الثّلت لأقوائية الذّكر. وأحسن الوجوه الوجه الأوّل.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ البنت ﴿وَاحِدَةً﴾ ليس معها غيرها من الأولاد ، ذكورا وإناثا ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ ممّا ترك الميت بالفرض ، والنّصف الآخر بالردّ ، إذا لم يكن معها من الوالدين والزّوجين أحد. ثمّ بيّن الله تعالى حكم إرث والدي المتوفّى حال اجتماعهما مع أولاده ، بقوله : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لكن لا مجموعاً ، بل ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ أبا كان أو أمّاً ﴿السُّدُسُ﴾ فرضاً ، ولكليهما السّدسّان ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ المتوفّى ، قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِنْ كَانَ لَهُ﴾ حين وفاته ﴿وَلَدٌ﴾ وإن نزل ، ذكراً كان أم انثى ، واحداً كان أو متعدّداً.

نعم ، في صورة انحصار الولد في بنت واحدة ، وفي صورة تعدّدها ووجود أحد الأبوين ، يردّ ما زاد على الفروض إلى جميعهم على حسب سهامهم.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أصلاً ، لا ذكراً ولا انثى ، بلا واسطة أو معها ﴿وَوَرِثَهُ﴾ من الأقارب النّسبي ﴿أَبَوَاهُ﴾ فقط ، وإن كان معهما الزّوج والزّوجة ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ ممّا ترك ولأبيه الثّلاثان ، إن لم يكن الزّوج أو الزّوجة ، فإن كان أحدهما فله النّصيب الأعلى ، وللامّ فرضها ، وما بقي من فرض الامّ وأحد الزّوجين فلأب.

ولكن كون نصيب الأمّ الثلث مشروط بعدم وجود الإخوة للميت ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ للأب أو للأبوين ، كانوا اثنين أو أكثر ﴿فَإِلَّا مِمَّا﴾ إذا كان أبوه حيّاً ﴿السُّدُسُ﴾ ولأبيه بقية التركة ، لكونه ذا عيلة ^(١) بوجودهم ، فاقترضت الحكمة التوفير عليه لمكان نفقتهم. والأختان للأب تقومان مقام أخ واحد له. في (الكافي) و(التهذيب) : عن الصادق عليه السلام : « أنه لا يحجب الأمّ عن الثلث إلا أخوان ، أو أخ واختان ^(٢) ، أو أربع أخوات لأب وام ، أو لأب » ^(٣) . وعن زرارة قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في الإخوة من الأمّ : « لا يحجبون [الأمّ] عن الثلث » ^(٤) .

ثمّ بين الله سبحانه أنّ الإرث والفروض لا محلّ لها إلاّ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي﴾ الميت ﴿بِهَا﴾ من التركة - قيل : فائدة توصيف الوصية بقوله : ﴿يُوصِي بِهَا﴾ الترغيب بها ، والنّذوب إليها - ﴿أَوْ﴾ بعد إخراج ﴿دَيْنٍ﴾ ثابت على الميت وإن لم يوص به ، كان ثبوته بإقراره به حال صحته ، أو بالبيّنة ، أو بغيرهما.

وفي إشار كلمة (أو) على (الواو) دلالة على تساويهما ^(٥) في وجوب الإخراج ، إذا وسعتهما التركة ، ولم يكن الدّين مستوعبا لها. وفي تقديم ذكر الوصية على الدّين مع تأخرها عنه في الرّتبة ، إشعار بكمال العناية والاهتمام بتنفيذها.

روى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « إنكم لتقرأون الوصية قبل الدّين ، وإن رسول الله ﷺ قضى بالدّين قبل الوصية » ^(٦) .

ثمّ لما جعل الله سبحانه هذا التفاوت بين نصيب الآباء والأولاد في الإرث ، وقد لا تساعده العقول الضّعيفة والاعتبارات السّخيفة ، نبّه الله تعالى على قصور العقول عن إدراك حكمة هذا التفاوت ، ووجوب العمل بوصيته تعالى في نصيبهم ، بقوله : ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الذين يرثونكم ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ولا تدرك عقولكم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ في الدّنيا ، وأكثر فائدة لكم ، من جهة التّربية والإنفاق والنّصرة وغيرها ، فقد تتخيّلون أنّ أحدهما أنفع لكم من الآخر ، وربّما يخطر ببالكم أنّ القسمة بغير هذا الوجه أصلح ، وهو خلاف الواقع ، فسلموا لحكم الله - العالم بالمغيبات وحقائق الأمور - بأقربيّة بعض من بعض ، وبتوفير القسمة على بعض دون بعض ، وأطيعوا أمر الله في التّقديرات التي قدرها

(١) العيلة : الفقر والحاجة.

(٢) (أو أخ واختان) ليس في الكافي والتهذيب.

(٣) الكافي ٧ : ٩٢ / ٥ ، التهذيب ٩ : ٢٨١ / ١٠١٧ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٤.

(٤) الكافي ٧ : ٩٣ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٤.

(٥) أي تساوي الوصية والدّين.

(٦) تفسير الرازي ٩ : ٢١٦.

في أموالكم ، وأتركوا موافقة هوى أنفسكم في قسمة الموارث.

وقيل : إنّ المراد : أقرب لكم نفعا في الآخرة ^(١) .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال : إنّ الله ليشقّق بعض المؤمنين في بعض ، فأطوعكم الله عزّ وجلّ من الأبناء والآباء أرفعكم درجة في الجنّة ، وإن كان الوالد أرفع درجة في الجنّة من ولده رفع الله إليه ولده بمسألته ليقترّ بذلك عينيّه ، وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله إليه والديه ، فقال : ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ لأنّ أحدهما لا يعرف أن انتفاعه في الجنّة بهذا أكثر أم بذلك ^(٢) .

أقول : يمكن القول بإرادة النفع الأعمّ من الدنيوي والاخروي.

وقيل : إنّ الخطاب للورثة ، والمراد أنّه لا تدرون أيّها الورثة ، أيّ مورثكم من الاصول والفروع أقرب لكم نفعا ، أمن وصّى ببعض ماله فيعرضكم لشواب الآخرة بتنفيذ وصيّته ، أم من لم يوص بشيء فوفّر عليكم حظكم من تركته ، فإنكم تحكمون بأنّ الثاني أنفع ، والواقع خلافه ، بل الأول أنفع لأنّه لا يعدل ثواب الآخرة جميع الدّنيا وما فيها.

ثمّ أكّد سبحانه وجوب الالتزام بما فرضه في الموارث بقوله : ﴿فَرِيضَةً﴾ كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ التزموها ، وقسمة قسّمها الله فلا تعدلوا عنها إلى ما تميل إليه طباعكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ في الأزل ﴿عَلِيمًا﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمًا﴾ في كلّ ما فرض وقدر ، فإذا كان كذلك كانت قسّمته أصلح وأحكم. وفي ذكر اسم الجلالة وتكراره مبالغة في تربية مهابته في القلوب.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ
الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ
فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه حكم إرث أقرب القربات التّسبيّة وأقواها ؛ وهي القرابة بالولادة التي تكون بين الوالدين والأولاد ، أردفه ببيان إرث أقرب القربات التّسبيّة ، وهي التّسبة بالمزوجة التي تكون شريكا للتّسبيّة في جميع الطبقات في الإرث.

(١) تفسير الرازي ٩ : ٢١٨ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٢١٨ .

قيل : إنّ العرب كانوا في الجاهليّة لا يورثون الزّوجة من تركة زوجها ، فنسخه الله سبحانه بحكمه بالتّوارث.

ولما كان الحكم بإرث الزّوجة ثقيلا على الطّباع ، قدّم بيان حكم إرث الأزواج ، تطبيعا لقلوبهم ، وإظهارا لفضلهم بقوله : ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها الأزواج بجهة الإرث ﴿نَصْفٌ﴾ جميع ﴿مَا تَرَكَ﴾ وخلف ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ ونساؤكم المنكوحات بالنّكاح الدّائم ، دون المنقطع على الأصحّ ، من الأموال كانت عقارا أو غيرها ، منقولة أو غيرها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ﴾ حين موتهنّ ﴿وَلَدٌ﴾ وارث أصلا منكم ، أو من غيركم ، ذكور أو إناث ، بلا واسطة أو معها ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ﴾ حين موتهنّ منكم أو من غيركم ﴿وَلَدٌ﴾ وارث ، وإن كان انثى واحدة سافلة ^(١) ﴿فَلَكُمْ﴾ إرثا وفرضا ﴿الرُّبْعُ﴾ من جميع ما ﴿تَرَكَنَّ﴾ وخلفن من الأموال ، إذا لم يكن لهنّ وصيّة بمال ، أو عليهنّ دين ، وإن كانا فالإرث ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كنّ ﴿يُوصِيَنَّ بِهَا﴾ في حياتهنّ ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ ثابت في ذمتهنّ.

ثمّ بيّن سبحانه نصيب التّوجّات الدّائمت من تركة أزواجهنّ ، بقوله : ﴿وَلَهُنَّ﴾ إن متّمتّ وبقين بعدكم ﴿الرُّبْعُ﴾ من جميع ما ﴿تَرَكَنَّ﴾ وخلفتم من الأموال المنقولة عينا ، ومن الأبنية والأشجار قيمة لا عينا ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ﴾ بعد موتكم منهنّ أو من غيرهنّ ﴿وَلَدٌ﴾ وارث أصلا ، وإن كان انثى نازلة. والباقي لغيرهنّ من ورثتهنّ ، فإن لم يكن لكم وارث غيرهنّ فللإمام عليه السلام ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ ولو من الأمة ، أو المنقطعة ، أو في الحمل بشرط الانفصال حيّا ، وإن نزل ﴿فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ من المال ، سوى الأراضي وأعيان الأبنية والأشجار ، دون قيمتها - كما مرّ - على الأصحّ ، ولكن ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كنتم ﴿تُوصُونَ بِهَا﴾ في حياتكم ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ كان عليكم.

قيل : لما فضّل الله تعالى الرّجال على النّساء في التّصيب ، تبه على فضيلتهم عليهنّ بذكرهم في الآية على سبيل المخاطبة سبع مرات ، وذكرهنّ على سبيل المغايبة أقلّ من ذلك ^(٢) .

في بيان علل تفضيل الرجال على النساء في النصيب

وقد علّل ائمتنا صلوات الله عليهم تفضيل الرّجال على النّساء في التّصيب بوجوه ، على ما في روايات أصحابنا رضوان الله عليهم أجمعين : منها : ما روي عن الرضا عليه السلام ، في جواب من سأله عن ذلك من : « أنّ المرأة إذا تزوّجت أخذت ، والرّجل يعطي ، ولذلك وقرّ على الرّجل ، ولأنّ الانثى في عيال الذّكر إن احتاجت ، وعليه أن يعولها وعليه نفقتها ، وليس على المرأة أن تعول الرّجل ولا تؤخذ بنفقتها إن احتاج ، فوقرّ

(١) سافلة : أي نازلة ، مثل بنت البنت أو بنت الولد.

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٢٢٠ .

على الرجل لذلك ، وذلك قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ الآية « (١) » .

ومنها : ما روي عن الصادق عليه السلام ، في جواب عبد الله بن سنان حين سأله عن علّة التّوفير ، حيث قال عليه السلام : « لما جعل لها من الصّدق » (٢) .

ومنها : ما روي عن العسكري سلام الله عليه ، في جواب الفهفكي ، لما قال له عليه السلام : ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهمها ويأخذ الرجل القوي سهمين ؟ فقال عليه السلام : « لأنّ المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا معقلة » (٣) ، إنّما ذلك على الرجال » .

فقلت في نفسي : قد كان قيل لي : إنّ ابن أبي العوجاء سأل الصادق عليه السلام عن ذلك ، فأجابه مثل هذا الجواب ، فأقبل عليه السّلام عليّ فقال : « نعم ، هذه مسألة ابن أبي العوجاء ، والجواب ممّا واحد » (٤) .

ثمّ أنّه تعالى بعدما بيّن حكم إرث أقوى الانتسابات النّسبيّة ، وهو القرابة بالولادة كقرابة الأبوين والأولاد ، وأقوى الانتسابات السّببيّة ، وهو المزاوجة كالزّوجين ، ولذا يرثان مع جميع طبقات الوارث ، شرع سبحانه في بيان حكم إرث أضعف القرابات النّسبيّة ، وهي القرابة من قبل الأمّ إلى الميّت ، بقوله : ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ مَيِّتٌ يُورِثُ﴾ منه ، لكونه أو حال كونه ﴿كَالَالَةٍ﴾ وذا قريب ، ليس بينه وبين ذلك القريب نسبة أبوة وبنة ، كما عن الصادق عليه السلام فإنّه فسّرها بمن ليس بولد ولا والد (٥) ، ﴿أَوْ﴾ كانت ﴿امْرَأَةً﴾ متوقّاه كذلك.

قيل : إنّ الكلالة في اللّغة بمعنى الإحاطة ، وسمّي من عدا الوالد والولد من القرابات بالكلالة لإحاطتهم بالشّخص.

ثمّ كتّى سبحانه عن الرجل دون المرأة إظهاراً لشرفه وفضله ، بقوله : ﴿وَلَهُ﴾ وقيل : إنّ المراد من (الضمير) الميّت ، الصّدق على الرجل والمرأة ﴿أَخٌ﴾ واحد ﴿أَوْ أُخْتُ﴾ واحدة ، من قبل الأمّ ﴿فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ في تلك الصّورة ﴿السُّدُسُ﴾ ممّا ترك الميّت من المال ﴿فَإِنْ كَانُوا﴾ هؤلاء الأقرباء الأميون ﴿أَكْثَرَ﴾ وأزيد ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ العدد الوحداني بواحد أو بأكثر ، [سواء أ] كانوا متّفقين في الذّكورة والانوثة ، أو مختلفين ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ من المال يتساوون فيه لا فضيلة للذكور منهم على الإناث في التّصيب . وتعليقه بكون الانتساب بمحض الانوثة - كما عن بعض العامة (٦) - عليل.

(١) علل الشرائع : ٥٧٠ / ١ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٣٤ .

(٢) علل الشرائع : ٥٧٠ / ٢ .

(٣) المعقلة : دية القتل تدفع من الإرث .

(٤) الكافي ٧ : ٨٥ / ٢ ، التهذيب ٩ : ٢٧٤ / ٩٩٢ .

(٥) الكافي ٧ : ٩٩ / ٢ و٣ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ١٧٥ .

ثم بين سبحانه أنّ هذين الفرضين أيضا كسائر الفروض ، يكونان في التركة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ حال كون الموصي ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ لورثته بوصية زائدة على الثلث ، أو بالإقرار بالدين كذبا لإيصال النفع إلى المقر له وتنقيص حق الورثة.

ثم أكد سبحانه وجوب توريث الأزواج والكلالة على النحو المذكور ، بقوله : ﴿وَصِيَّةٌ﴾ كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ قيل : إنّ التقدير : يوصيكم الله بتوريث هؤلاء الأقارب وصية لا يجوز تغييرها. ويمكن أن يكون المراد : تلقوا أيها الناس هذه الأحكام بعنوان كونها وصية أكيدة من الله إليكم ، فمن بدلها فيما إنمى على الدين يبدلونه.

قيل : إنّ تعالى ختم آية إرث الوالدين والأولاد بقوله : ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾^(١) ، وهذه الآية بقوله : ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ للدلالة على أنّ رعاية الوالدين والأولاد أهم وأولى من رعاية غيرهم ، لأنّ لفظ الفرض أقوى وأكد من لفظ الوصية^(٢) .

ويمكن أن تكون التكتة أنّ توريث الأبوين والأولاد لما كان موافقا لطباعهم شدد عليهم في الحكم ، بخلاف توريث الزوجات والأباعد فإنّه كان مخالفا لطباعهم فأكد به فيه تطيب لقلوبهم واستمالة لخواطهم أولا ثم أرفه بالتهديد على المخالفة ، بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿حَلِيمٌ﴾ على من خالفه وعصاه ، لا يعاجله بالعقوبة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)

ثم بالغ سبحانه في التأكيد في العمل بجميع الأحكام السابقة ، بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة المفصلة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدّها ، فلا يرضى بالتجاوز عنها ، والقوانين التي فنّنها ، فلا يجوز مخالفتها. ثم رغب في إطاعة جميع أحكامه بالوعد بالثواب الجزيل عليها ، بقوله : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وامثل أوامرهما ونواهيهما التي منها ما فصله في السورة المباركة ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة برحمته وفضله ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذوات أشجار ملتفة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدا ﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والظفر الأتم بأعلى المقاصد ، والتجاح الكامل بأسنى المطالب.

(١) النساء : ٤ / ١١ .

(٢) تفسير الرازي ٩ : ٢٢٦ .

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ

مُهِينٌ (١٤)﴾

ثم أردف الوعد بأشدّ الوعيد ، ترهيباً من المعصية ، وتطييباً للطف ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويخالف أحكامه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ويتجاوز حماه ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله ﴿نَارًا﴾ لا توصف شدة حرّها ، حال كونه ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ لا يعرف كنهه أحد إلا الله ﴿مُهِينٌ﴾ له ، لاستهانتة بأحكام الله وحدوده.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ

شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ

سَبِيلًا (١٥)﴾

ثم أنّه تعالى بعدما بيّن وجوب رعاية النساء ، والعدل بينهما ، وإيتائهنّ مهورهنّ ، وتوريثهنّ من أزواجهنّ وأرحامهنّ ، شدّد عليهنّ في ما يأتيه من الفاحشة ، بقوله : ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ﴾ ويرتكبن ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ والعمل الذي هو في غاية القباحة ، وهو الزّنا ، وهنّ الكائنات ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وزوجاتكم ، أو الحرائر والمؤمنات ﴿فَاَسْتَشْهَدُوا﴾ واطلبوا للشهادة ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ من قاذفهنّ ﴿أَرْبَعَةٌ﴾ من الرجال الذين يكونون ﴿مِنْكُمْ﴾ وعلى دينكم ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عليهنّ بارتكاب الفاحشة ، وكانوا عدولا ﴿فَأَمْسَكُوهُنَّ﴾ واحبسوهنّ أيّها المؤمنون ﴿فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ﴾ ويقطع من الدّنيا علاقتهنّ ﴿الْمَوْتُ﴾ وقيل : إنّ المراد : ملك الموت بحذف المضاف ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ للخلاص من الحبس.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ...﴾ قال : « هذه منسوخة » ، قيل : كيف كانت ؟ قال : « كانت المرأة إذا فحرت فقام عليها أربعة شهود ، ادخلت بيتا ولم تحدّث ولم تكلم ولم تجالس ، واوتيت بطعامها وشرابها حتّى تموت » ، ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ قال : « جعل السبيل : الجلد والرجم » ^(١).

وعن النبي ﷺ : « خذوا عني ، قد جعل الله لهنّ سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والنتيب بالنتيب جلد مائة والرجم » ^(٢).

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٧٧ / ٩٠٣ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٨.

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٤ ، تفسير الصافي ١ : ٣٩٨.

قد مرّ في بعض الطرائف أنّ المراد بالنسخ هنا غير معناه المصطلح ^(١) .

قيل : إنّ المراد بالسبيل هو النكاح المغني عن السفاح ^(٢) .

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ

تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان العقوبة المختصّة بالمرأة الزّانية ، بيّن العقوبة المشتركة بين الرجل والمرأة إذا زنيا بقوله : ﴿وَالَّذَانِ﴾ يرتكبان الفاحشة و﴿يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ سواء كانا بكرين أو ثيبين ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتّعيير .

عن ابن عباس رضى الله عنه : [هو التعبير باللسان و] الضرب بالنعال ^(٣) .

﴿فَإِنْ تَابَا﴾ وندما عن فعلهما القبيح ﴿وَأَصْلَحَا﴾ والتزما بحسن العمل ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ وتركوا إيذاءهما ؛ فإنّه يرتفع بالتوبة استحقاق العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ بكرمه ﴿تَوَّابًا﴾ مبالغا في قبول التوبة ، عائدا على الثّابّين بالفضل والمغفرة ﴿رَحِيمًا﴾ بهم .

قيل : إنّ المراد من الآية الاولى الثّيبات ، ومن الثانية الأكار من الرجال والنساء ^(٤) ؛ لأنّ العذاب في الثانية أخفّ من الاولى .

وقيل : إنّ الاولى في السّخاقيات ، والثانية في أهل اللواط ^(٥) .

والقولان مخالفان لروايات الخاصة والعامة ، وعلى أيّ تقدير لا شبهة في أنّ الآية الثانية منسوخة بآيات الحدّ .

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)

ثمّ أنّه تعالى لما ذكر أنّ التوبة ماحية للذنوب رافعة للعقوبة ، حتّى العصاة عليها ببيان إيجابه قبول التوبة على نفسه ؛ بقوله : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ واجبة القبول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لكمال حسنه عقلا ، واقتضاء كرمه ، وسعة رحمته ، قبولها وامتناع ردّها - وهذا أشدّ مراتب الوجوب - ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ والعصيان صغيرا كان أو كبيرا ، ولكن إذا كان ارتكابهم له ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وسفاهة ، وغلبة الهوى ، وإعانة النفس ،

(١) راجع الطرفة (٢٠) .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٥ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٣٥ .

(٤) تفسير الرازي ٩ : ٢٣٥ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٦ .

والغفلة عن سوء العاقبة ، لا بسبب الكفر والطغيان ، وعدم الاعتقاد بالمبدأ والمعاد ؛ فإنّ الكافر لا تقبل توبته من الأعمال السيئة مع بقاءه على الكفر.

فتحصّل من تقييد قبول التّوبة عن المعصية بكونها مسببة عن جهالة أنّ تحتمّ القبول على الله مشروط بكون العمل السيء صادرا عن السفاهة ، وعدم التدبّر في سوء عاقبته ، لا عن الجهل المركّب بالمبدأ والمعاد ، أو البسيط.

عن الصادق عليه السلام : « كلّ ذنب عمله العبد وإن كان عالما فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربّه ، فقد حكى الله سبحانه قول يوسف لإخوته : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (١) .

ثمّ بيّن سبحانه الشّرط الثّاني بقوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ ﴾ ويرجعون إلى النّدم والتّوجّه إلى الله في جزء ﴿ مِنْ ﴾ زمان ﴿ قَرِيبٍ ﴾ من المعصية ، ولا يؤخّرونها إلى زمان حضور الموت ، ومشاهدة عالم البرزخ ، ومعاناة أهواله.

وتسمية هذا الزّمان قريبا ، لأنّه آت ، وكلّ آت قريب ، ولوجوب انتظار الإنسان موته في كلّ آن ، ويجسبه قريبا ، ويبادر إلى التّوبة.

روي أنّ إبليس لما هبط قال : وعزّتك [وجلالتك] وعظمتك ، لا افارق ابن آدم حتّى تفارق روحه جسده ، فقال الله عزّ وجلّ : وعزّتي وعظمتي [وجلالي] لا أحجب التّوبة عن عبدي حتّى يرغّر (٢) بها (٣) . وفي (الفقيه) : قال رسول الله ﷺ ، في آخر خطبة خطبها : « من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه » ثمّ قال : « وإنّ السّنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه » ثمّ قال : « وإنّ الشّهر لكثير [من تاب قبل موته بجمعة تاب الله عليه » ثمّ قال : « إنّ الجمعة لكثير [من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه » ثمّ قال : « وإنّ اليوم بكثير ، من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه » ثمّ قال : « وإنّ السّاعة لكثير ، من تاب [قبل موته] وقد بلغت نفسه هذه » وأهوى بيده إلى حلقه « تاب الله عليه » (٤) . قيل : إن كلمة (من) هنا ، ليس للتّبعض ، بل هي لابتداء الغاية ، والمعنى : يجعل مبتدأ توبته زمانا قريبا من المعصية ؛ لئلا يقع في زمرة المصيرين (٥) .

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٦ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٨ ، والآية من سورة يوسف : ١٢ / ٨٩ .

(٢) في النسخة : يرغّر ، ومعنى الغرغرة هنا تردد الروح في الحلق .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٣٧ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ١ : ٧٩ / ٣٥٤ ، تفسير الصّافي ١ : ٣٩٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٥٠ .

وقيل : إنّ المراد من قوله تعالى : (من) زمان قريب قبل أن يشرب في قلوبهم حبه ، فيطبع عليها ، فيعتذر ^(١) عليهم الرجوع ^(٢) .

ثم أكد سبحانه وعده بقبول التوبة ، بقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ الواجدون لشرطي قبول التوبة ﴿ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ عملا بما كتب على نفسه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بضمائر التائبين من الإخلاص ، وحقيقة التدم ، والعزم على عدم العود ﴿ حَكِيمًا ﴾ في فعله ، لا يمكن صدور عقوبة التائبين منه ؛ لمنافاتها حكمته وكرمه .

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴾ (١٨)

ثم بين الله سبحانه زمان عدم قبوله التوبة فيه ، والمعصية التي لا تقبل التوبة منها ، بقوله : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ ﴾ المقبولة ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ويشغلون بالذنوب ويدمرون عليها ، لاهين عن ذكر الله وعن التوبة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ وشاهد علاماته ، وعان أهواله ، وصار معرفته بالله وعلمه بدار الجزاء ضروريا ، ﴿ قَالَ ﴾ عند رؤية بأس الله : ﴿ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ من ذنوبي ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ ﴾ حين موتهم ومعاينتهم الآخرة ﴿ كُفَّارٌ ﴾ وغير مستأهلين لقبول توبتهم وإن آمنوا بعده ، لقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا ﴾ ^(٣) ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الفريقان ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ وهيناً ﴿ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابًا ﴾ دائما ﴿ أَلِيمًا ﴾ موجعا في الغاية .

فسوى سبحانه بين المؤمن الفاسق المسوّف للتوبة إلى وقوعه في سكرة الموت ، وبين الكافرين الذين لا يؤمنون ولا يتوبون إلى رؤية ملك الموت ، في عدم قبول التوبة واستحقاق العذاب الأليم .

قيل : إنّ المراد من الذين يعملون السيئات المنافقون ، لدلالة قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٥) ، ولدلالة روايات كثيرة على شمول الرحمة والشفاعة لعصاة المؤمنين .

أقول : يمكن أن يكون المراد منه خصوص من أخرجته سيئات أعماله من الإيمان إلى الكفر عند

(١) في النسخة : فيعتذر .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٦ .

(٣) المؤمن : ٤٠ / ٨٥ .

(٤) الزمر : ٣٩ / ٥٣ .

(٥) النساء : ٤ / ٤٨ .

موته ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوَاىَ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١) فَإِنَّ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ التَّمَادِي فِي الْعَصِيَانِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مُوجِبٌ لَطَبْعِ الْقَلْبِ وَقِسَاوَتِهِ ، ومُخْرِجُ الْمُعَاصِي مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ إِلَى ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ ، بل فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ أَثَرَ بَعْضِ الْمُعَاصِي - كَتَرْكِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْعِ الزَّكَاةِ - ذَلِكَ ، مِثْلُ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ يُقَالُ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَوْتِهِ : مِتَّ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا^(٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ التَّشْدِيدِ عَلَى النِّسَاءِ فِي إِرْتِكَابِ الْفَاحِشَةِ ، وَالْوَعْدِ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ ، وَبَيَانِ شُرُوطِ قَبُولِهَا ، عَادَ إِلَى بَيَانِ وَجُوبِ رِعَايَةِ النِّسَاءِ وَالتَّنْهِي عَنْ التَّعْدِي عَلَيْهِمْ بِإِجْبَارِهِنَّ عَلَى التَّزْوِيجِ ، وَمَنْعِهِنَّ مِنْ اخْتِيَارِهِنَّ الْأَزْوَاجَ ، بِقَوْلِهِ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ فِي شَرْعِ الْإِسْلَامِ ﴿أَنْ تَرِثُوا﴾ مِنْ أَقَارِبِكُمْ ﴿النِّسَاءَ﴾ وَالزَّوْجَاتِ ، وَتَتَمَلَّكُوا أَزْوَاجَهُمْ لِلْإِسْتِمْتَاعِ ، كَمَا تَتَمَلَّكُونَ أَمْوَالَهُمْ بِعَنْوَانِ الْمِيرَاثِ ﴿كَرِهًا﴾ مِنْهُمْ ، وَبَغَيْرِ رِضَاهُنَّ بِالتَّكَاحِ .

قِيلَ : كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ ، جَاءَ ابْنُهُ مِنْ غَيْرِهَا ، أَوْ بَعْضُ أَقَارِبِهِ فَأُلْقِيَ ثَوْبُهُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ : وَرِثْتُ زَوْجَتَكَ كَمَا وَرِثْتُ مَالَهُ . فَصَارَ

أَحَقُّ بِهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ وَمِنْ نَفْسِهَا ، فَإِنْ شَاءَ تَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ إِلَّا الصَّدَاقَ الَّذِي أَصْدَقَهَا الْمَيِّتَ ، وَإِنْ شَاءَ زَوَّجَهَا مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ ، وَأَخَذَ صَدَاقَهَا وَلَمْ يُعْطِهَا مِنْهُ شَيْئًا ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْ إِرْثِ عَيْنِ النِّسَاءِ^(٣) .

وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ لَوَارِثُ الْمَيِّتِ أَنْ يَحْبِسَ زَوْجَتَهُ حَتَّى تَمُوتَ وَيَرِثَ مَالَهَا ، أَوْ يَضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ بِمَا وَرِثَتْ مِنْ زَوْجِهَا^(٤) ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وَتَحْبِسُوهُنَّ وَتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴿لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ وَأَعْطَيْنَهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ وَالْمِيرَاثِ ، وَتَأْخُذُوهُنَّ مِنْهُنَّ فِدَاءً مِنْ أَنْفُسِهِنَّ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَرِهَ زَوْجَتَهُ أَسَاءَ عَشْرَتَهَا ، وَضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَهْرِهَا ، فَنَهَى اللَّهُ

(١) الروم : ٣٠ / ١٠ .

(٢) المحاسن : ٨٧ / ٢٨ ، عقاب الأعمال : ٢٣٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ١٨١ .

عن التَّزْوِجِ بَعْدَ الْإِكْرَاهِ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِسَاءَةِ الْعَشْرَةِ مَعَهُنَّ بَعْدَ التَّزْوِجِ لِفَتْدَيْنٍ بِصَدَاقِهِنَّ أَوْ بَعْضِهِ^(١) .

فَإِنَّ أَخْذَ صَدَاقِهِنَّ وَمَالِهِنَّ لَا يَجُوزُ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿الَّا﴾ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ﴿أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ وَفَعْلَةُ قَبِيحَةٍ فِي الْغَايَةِ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ ظَاهِرَةٌ ، كَعَدَمِ التَّعَقُّفِ ، أَوْ النَّشُوزِ وَشَكَاةِ الْخَلْقِ وَإِسَاءَةِ الْعَشْرَةِ مَعَ الزَّوْجِ وَأَهْلِهِ .

عن الباقر عليه السلام ، فِي تَفْسِيرِ الْفَاحِشَةِ ، قَالَ : « كُلُّ مَعْصِيَةٍ »^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « إِذَا قَالَتْ لَزَوْجَهَا : لَا أَغْتَسِلُ لَكَ مِنْ جَنَابَةٍ ، وَلَا أَبْرُ لَكَ قِسْمًا ، وَلَا وَطْئًا فَرَأَشَكَ مِنْ تَكْرِهِهِ ، حَلَّ لَهُ أَنْ يَخْلَعَهَا ، وَحَلَّ لَهُ مَا أَخَذَ مِنْهَا »^(٣) .

ثُمَّ أَكَّدَ سَبْحَانَهُ وَجُوبَ الرِّفْقِ بِالزَّوْجَاتِ ، وَحَسَنَ عَشْرَتِهِنَّ بِقَوْلِهِ : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَبِمَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ عِنْدَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ ، مِنَ الْإِنْصَافِ فِي الْمَبِيتِ وَالتَّقَفُّةِ ، وَالْإِجْمَالِ فِي الْقَوْلِ ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ طَبْعًا ، وَسَمْتَمَ مِنْ صَحْبَتِهِنَّ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ عَصِيَانَةٍ وَنَشُوزَةٍ ، فَلَا تَبَادُرُوا فِي التَّفْرِيقِ بِمَحَرِّدِ كِرَاهَةِ النَّفْسِ ، بَلْ امْسِكُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاصْبِرُوا عَلَى مَعَاشِرَتِهِنَّ ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ وَتَتَنَقَّرُوا مِنْ أَمْرِ ﴿وَوَ﴾ الْحَالِ أَنَّهُ ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فِي الدُّنْيَا كَوَلَادَةٍ وَلَدٌ صَالِحٌ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، وَفِي الْآخِرَةِ كَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى مَخَالَفَةِ النَّفْسِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمَكْرُوهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ التَّهْيِ عَنْ مُضَارَاةِ التَّسَاءِ ، وَأَخَذَ شَيْءًا مِنْ مَهْرِهِنَّ بِأَيِّ سَبَبٍ ، أَكَّدَ التَّهْيِ عَنْهُ فِي صُورَةِ إِرَادَةِ الْاسْتِبْدَالِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ وَاخْتِيَارَ زَوْجَةٍ ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾ وَامْرَأَةٍ كَانَتْ لَكُمْ ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ سِوَاءَ كَانَتْ الْمَرْأَةُ الْأُولَى أَوِ الثَّانِيَةَ ﴿قِنطَارًا﴾ وَمَالًا كَثِيرًا غَايَتَهُ ، عَنْ الصَّادِقِينَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : « الْقِنْطَارُ مِلٌّ مَسْكٌ^(٤) ثَوْرٌ ذَهَبِيٌّ^(٥) » ﴿فَلَا تَأْخُذُوا﴾ وَلَا تَنْقُصُوا ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ وَلَوْ كَانَ فِي غَايَةِ الْقَلَّةِ .

رَوَى أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا مَالَ إِلَى التَّزْوِجِ بِامْرَأَةٍ أُخْرَى ، رَمَى زَوْجَتَهُ نَفْسَهُ بِالْفَاحِشَةِ حَتَّى يَلْجِئَهَا إِلَى الْاِفْتِدَاءِ مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا ، لِيَصْرِفَهُ إِلَى تَزْوِجِ الْمَرْأَةِ الَّتِي يَرِيدُهَا^(٦) .

(١) تفسیر الرازی ٩ : ١١ .

(٢) مجمع البیان ٣ : ٤٠ ، تفسیر الصافي ١ : ٤٠١ .

(٣) من لا یحضره الفقیه ٣ : ٣٣٨ / ١٦٣٠ ، تفسیر الصافي ١ : ٤٠١ .

(٤) المسک : الجلد .

(٥) مجمع البیان ٢ : ٧١٢ ، تفسیر الصافي ١ : ٤٠١ .

(٦) تفسیر الرازی ١٠ : ١٣ .

فنهى سبحانه عن ظلم المرأة بالأخذ من مهرها ، وإن كان في غاية الكثرة ، وأنكر على الأزواج أخذهم من مهوهرن بسبب رميهن بالفاحشة ، بقوله : ﴿ **تَأْخُذُونَهُ** ﴾ بسبب أن تتهموهن ﴿ **بِهْتَانًا** ﴾ وترتكبن بالبهتان ، ورميهن بالفاحشة ، وبظلمهن بأخذ صداقهن ﴿ **إِثْمًا مُبِينًا** ﴾ وذنباً ظاهراً عظيماً ، فإن البهتان والظلم من أكبر الكبائر.

في دلالة الآية على جواز المقالات في المهر

قالوا : الآية تدلّ على جواز المغالاة في المهر ^(١) .

وروى الفخر الرازي : أنّ عمر قال على المنبر : ألا لا تغلوا ^(٢) في مهوور نسائكم ، فقامت امرأة فقالت : يا بن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنعنا ! وتلت هذه الآية ، فقال عمر : كلّ الناس أفتقه من عمر ، ورجع عن كراهة المغالاة ^(٣) .

أقول : تقريب دلالة الآية على الجواز أنّ التّهي عن الأخذ منه دالّ على صحّة جعل القنطار مهراً وتملكهنّ له بالعقد ، ولا معنى للجواز وعدمه في المقام إلّا الصّحّة وعدمها ، والحرمة للأمر الخارج والجهة العرضيّة ، كحرمة البيع وقت النّداء وإن كان ممكناً ، إلّا أنّها محتاجة إلى الدّليل المعتبر ^(٤) ، بل في الآية إشعار بعدمها ، ويشهد لما ذكر فهم المرأة وجميع الحاضرين في المسجد ذلك ، ورجوع عمر عن قوله . ولا معنى للدّلالة إلّا فهم العرب من الكلام ، والعجب مع ذلك من الفخر أنّه بعد نقل الرواية قال : وعندي أنّ الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة ^(٥) ... إلى آخره.

﴿ **وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا** ﴾

غَلِيظًا (٢١) ﴿

ثمّ بالغ سبحانه في إنكار الأخذ من المهر بجعله لشدة الشّناعة محلاً للتّعجب ، بقوله : ﴿ **وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ** ﴾ منهنّ ، ولأيّ سبب تستردّون شيئاً ممّا استحللتم به فروجهنّ بطيب أنفسكم ؟ ! والحال أنّه ﴿ **وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ** ﴾ واستمتع كلّ منكما - بالجماع وغيره من وجوه الاستمتاع - من الآخر ، وحصلت بينكما اللفة التّامة والقرابة الكاملة ، حيث إنّ العرب يقولون : صحبة عشرين يوماً قرابة ^(٦) . فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟

﴿ **وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ** ﴾ على الصّدق مع ذلك الإفضاء والاتّصال ﴿ **مِيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ وعهداً وكيداً . عن

ابن

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٣ .

(٢) في المصدر : تغالوا .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٣ .

(٤) زاد في النسخة : وليس ، ولا يصح .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ١٧ .

عبّاس رضى الله عنه : الميثاق الغليظ : كلمة النّكاح المعقودة على الصّدّاق ، وتلك الكلمة كلمة يستحلّ بها فروج النّساء (١) .

قال ﷺ : « اتقوا الله في النّساء ، فانّكم أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله » (٢) .
وعن عكرمة : هو قولهم : زوّجتك هذه المرأة على ما أخذ الله للنّساء على الرّجال ، من إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، فإذا ألجأها إلى أن بذلت المهر ، فما سرّحها بإحسان ، بل سرّحها بالإساءة (٣) .

وعن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « الميثاق هي الكلمة التي عقد بها النّكاح ، والغليظ هو ماء الرّجل يفضيه إليها » (٤) . ولعلّ بعض مفسّري العامّة تبعوا هذه الرواية ، حيث قالوا : أخذن منكم - بسبب إفضاء بعضكم إلى بعض - ميثاقا غليظا ، فوصفه بالغلظة لقوّته وعظّمته (٥) .

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعدما منع من إرث أعيان النّساء ، وكان الرّجل في الجاهليّة يرث زوجة أبيه كما يرث ماله وينكحها ، نهى الله سبحانه عن نكاح زوجة الأب ، بقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ وإن علوا ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولا تتزوّجوا بزواجهم ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من هذا النّكاح منكم .
قيل : إنّ التّقدير : إنّ هذا النّكاح قبيح حرام يعاقبكم الله عليه ، إلّا النّكاح الذي سلف منكم في الجاهلية ، فإنّه لجهلكم كنتم معذورين فيه .

عن القمّي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام ، قال : « كان في الجاهليّة في أوّل ما أسلموا في قبائل العرب إذا مات حميم الرّجل وله امرأة ، ألقى الرّجل ثوبه عليها ، فورث نكاحها بصدّاق حميمه الذي كان أصدّقها كما يرث ماله ، فلمّا مات أبو قيس بن الأسلت ألقى محصن بن أبي قيس ثوبه على امرأة أبيه ؛ وهي كبيشة بنت معمر بن معبد ، فورث نكاحها ، فتركها لا يدخل بها ولا ينفق عليها ، فأنت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، مات أبو قيس بن الأسلت فورث ابنه محصن نكاحي ، فلا يدخل عليّ ، ولا ينفق عليّ ، ولا يخلي سبيلي فألحق بأهلي . فقال رسول الله ﷺ : « ارجعي إلى بيتك ، فإن يحدث الله في شأنك

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٠ : ١٦ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٨٠ / ٩١٠ ، الكافي ٥ : ٥٦٠ / ١٩ ، تفسير الصّافي ١ : ٤٠٢ ، ولم نجده في المجمع ، والظاهر أن المصنف أخذه من تفسير الصّافي .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٧ .

شيئا أعلمتكم « فنزلت الآية ^(١) .

ثم بالغ سبحانه في الردع عنه بيان علل التحريم بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في جميع الملل ﴿فَاحِشَةً﴾ شديدة القباحة لكونه تهجما على فراش الآباء الذين حقوقهم أعظم من حق كل أحد ، وكان ﴿مَقْتَنًا﴾ وموجبا لغضب الله ، وغضب ذوي المروءات - قيل : إن العرب كانوا يسمون من تولد منه بالمقتي ^(٢) - ﴿وَوَإِنَّهُ﴾ سَاءَ سَبِيلًا ﴿وَبِئْسَ طَرِيقًا﴾ ، حيث إنها تنتهي إلى النار .

قيل : أشار بالفاحشة إلى القبح العقلي ، وبالمقت إلى القبح الشرعي ، ويقول : ﴿سَاءَ سَبِيلًا﴾ إلى القبح العادي ^(٣) ، فبين سبحانه أن فيه جميع جهات القبح ومراتبه .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَزَوَّجْتُمْ فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣)

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر حرمة منكحة الأب على ابنه ، شرع في بيان حرمة نكاح أصناف اخر من النساء ، بقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في شرع الإسلام ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ نكاحا واستمعا ، وإن غلن كالجدا ، وجدات الجدات ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وإن سفلن ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ من الأب ، أو من الأم ، أو منهما ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ من قبل الأب ، أو من قبل الأم ، وإن علن ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ للأب ، أو للأم ، أولهما ، وإن نزلن ، ﴿وَوَإِنَّهُ﴾ كذا ﴿بَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ بالتفصيل المذكور .

ثم بعد ذكر المحرمات السبع السببية ، ذكر المحرمات بالرضاع بقوله : ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وتدخل فيها الجدات ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ فنزل سبحانه الرضاع منزلة النسب ، حيث سمي المرضعة أمًا ، والمرأضة اختًا ، فنبه بذلك على حرمة العناوين السبعة الحاصلة بالرضاع .

كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « الرضاع لحمه كلحمه النسب » ^(٤) وقال : « يحرم من الرضاع

ما يحرم

(١) تفسير القمي ١ : ١٣٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٧ ، مجمع البيان ٣ : ٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٢٤ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٦٠ .

(٤) تفسير الصافي ١ : ٤٠٣ .

من النسب « (١) .

ثم شرع في المحرمات بالمصاهرة ، بقوله : ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وزوجاتكم الدائمات ، أو المنقطعات المدخول بهنّ أولاً ، وإن علت الأمهات وكنّ رضاعيات ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي﴾ يكنّ ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ وإن سفلن ، إذا كنّ ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وأزواجكم ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ وباشرتموهنّ .
سمّيت بنت الزّوجة إذا كانت من الزّوج الآخر ربيبة ؛ لأنّ الغالب أنّ الإنسان يريّها كما يريّ ولده . واستعير الحجر للتّربية ؛ لأنّه يجلس الطّفل الذي يربّيه في حجره . وفي تقييد الرّبائب باللّاتي في الحُجُور ، مع كونه تخصيصاً ، إشعار بأنّه بمنزلة البنات .

﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ ولم تجامعوهنّ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تزوّج بناتهنّ ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ سواء كانت حليّة الابن زوجة دائمة له ، أو منقطعة ، أو ملك يمين ، وسواء كان الابن نسبياً ، أو رضاعياً ، بلا واسطة أو معها ، والتّقييد بكونه من الصّلب لإخراج الأديعاء .

قيل : إنّ الرّيب المتبّي كان في الجاهليّة بمنزلة الابن الصّلي ، لا ينكح المتبّي زوجة المتبّي ولذا عيّر المشركون رسول الله ﷺ حين تزوّج زينب بنت جحش بعدما فارقت زوجها زيد بن حارثة ، وكان ﷺ تبناه ودعاه ابناً ، فنزل و﴿مَا مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ (٢) وقال : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ (٣) إلى آخره .

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا﴾ في النّكاح ، أو في ملك اليمين مع الوطء ﴿بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ ثم استثنى من لازم الحكم بقوله : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسبق منكم من الجمع في زمان الجاهليّة . والمعنى : أنكم تعاقبون على الجمع بين الأخنتين إلّا على الجمع في زمان الجاهليّة ، فإنّه لجهلكم معفو ومغفور ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ للمذنبين ﴿رَحِيماً﴾ بالمؤمنين .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (٢٤)

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٢٩ ، تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٣ .

(٢) الأحزاب : ٣٣ / ٤٠ .

(٣) الأحزاب : ٣٣ / ٤ .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والمزوجات ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللَّاتِي أَحْصَنَ فُرُوجَهُنَّ بِالتَّزْوِيجِ ﴿إِلَّا مَا﴾ كانت من المزوجات اللَّاتِي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إِيَّاهُنَّ واسترققتموهنَّ بالشرء أو الاستيهاب أو الأسر ، فإنه يجوز للمالك فسخ عقد نكاحهنَّ إذا كنَّ مزوجات الغير ، ووطأهنَّ بعد العدة أو الاستبراء ، بل روي أنَّ بيعهنَّ طلاقهنَّ (١) .

وعن أبي سعيد الخدري : أنَّ المسلمين أصابوا في غزاة أوطاس نساء ، ولهنَّ أزواج في دار الحرب ، فنَادَى منادي رسول الله ﷺ : ألا لا توطأ الحبالي حتى يرضعن ، ولا [غير] الحبالي حتى يستبرئن بحیضة (٢) .

ثمَّ أكَّد سبحانه تحريم المحرمات المذكورة ، بقوله : ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قيل : إنَّ التقدير : الزموا كتاب الله الذي كتبه عليكم ، وفريضته التي فرضها عليكم .
ثمَّ صرَّح بعموم حلِّ التَّزْوِيجِ بغير الأصناف المذكورة ، بقوله : ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ﴾ في دين الله ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وما سوى هؤلاء النسوة لإرادة ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا نكاحهنَّ ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وبصرفها في مهورهنَّ أو أثمانهنَّ ، حال كونكم بتزويجهنَّ أو تملكهنَّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ ومحرزين فروجهنَّ من الزنا .
ثمَّ أكَّد سبحانه وجوب الإحصان والتَّعَقُّفِ عن الزنا بقوله : ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ وغير زانين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ به من النساء ، ومن انتفعتنَّ ﴿بِهِ مِنْهُنَّ﴾ بجماع أو عقد ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ ومهورهنَّ ، لكون المهور ﴿فَرِيضَةً﴾ من الله التي فرضها عليكم .

قيل : إنَّ (فريضة) مصدر مؤكَّد ، والتقدير : فرضها الله فريضة (٣) .
في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « إِمَّا نَزَلَتْ : (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) » (٤) .
أقول : الظاهر أنَّ المراد : إِمَّا نَزَلَتْ بهذا التفسير ، لا أنَّها نزلت بهذا التعبير ، لبطلان القول بالتحريف ، ولا شبهة أنَّ المراد بها المتعة ، وهي التَّكاح المؤقت . ونقله الفخر الرازي عن جماعة من العامة (٥) .
ثمَّ بيَّن سبحانه جواز تحديد المتعة بعد انقضاء المدة ، بقوله : ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إذا أردتم تحديد العقد على المتمتع بها ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ من الأجل والمهر ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ الأولى ، وهي الأجل والمهر المقرَّان في العقد الأول .

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٤١ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٥١ .

(٣) الكشف ١ : ٤٩٨ ، تفسير الرازي ١٠ : ٥٤ .

(٤) الكافي ٥ : ٤٤٩ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٥١ .

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام : « لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما ، تقول : استحللتك بأجل آخر ، برضى منها » الخبر ^(١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ في ما شرع من الأحكام.
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
 فَانكِحُوهُنَّ بِأُذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ
 مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا
 خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان جواز نكاح الحرائر دوما ومتعة ، أذن في نكاح الإماء ، بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ ولم يقدر ﴿مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ وغنى - كما عن الباقر عليه السلام ^(٢) - ﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ النساء ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحرائر العفيفات ، لغلاء صداقهن ، وكثرة نفقاتهن ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وإمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ تزوجوا واقنعوا منهن بظاهر الحال في الإيمان ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ القليبي الحقيقي ، مطلع على سرائركم ، ففوضوا الإيمان الباطن إلى علمه تعالى.
 ثم ردع سبحانه عن التآفف من تزويجهن لدناءة نسبهن ، بقوله : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ منشعب ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾ وكلكم من أرومة واحدة ، لا فضل لبعضكم على بعض من جهة الأصل والتسبب ، وإنما الفضل بالإيمان.

وقيل : إنّ المراد : كلكم مشتركون في الإيمان ، وهو أعظم الفضائل ، وغيره لا يلتفت إليه ^(٣) . ففيه ردع عن الافتخار بالأنساب.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والفخر بالأحساب ، والاستسقاء بالأنواء ، ولا يدعها الناس في الإسلام » ^(٤) .

ثم نبّه سبحانه على شرط صحّة هذا النكاح ، بعد الإشعار بإشرافها بالإيمان ، بقوله :

﴿فَانكِحُوهُنَّ﴾

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٨٥ / ٩٢٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٦ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٥٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٦٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٦١ .

بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ ومواليهِنَّ ، فَإِنَّهِنَّ مملوكات لهم عينا ومنفعة ، فلا يجوز التصرف فيهنّ إلا برضاهم السابق على التصرف ، وإن قلنا بصحة العقد بالإجازة اللاحقة ، كما هو الحق.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل : هل يتزوج الرجل بالأمة بغير علم أهلها ؟ قال : « هو زنا ، إنّ الله تعالى يقول : **﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ﴾** ^(١) . ولا فرق بين كون المولى رجلا أو امرأة ، ولا بين النكاح الدائم والمنقطع.

فما في (الكافي) ، عن الصادق عليه السلام : « لا بأس بأن يتمتع الرجل بأمة المرأة ، وأمّا أمة الرجل فلا يتمتع بها إلا بأمره » ^(٢) فلعله لا عمل به.

﴿وَأَتَوْهُنَّ﴾ بأذن مواليهِنَّ **﴿أُجُورُهُنَّ﴾** ومهورهنّ ، وتسمية المهر أجرا لكونه عوض البضع ، وهو المنفعة . وأمّا قيّدنا الإيتاء بأذن مواليهِنَّ لكونها ملكا لهم ، وليكن الإيتاء ملابسا **﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾** وهو عدم المطل والضّرر والتقص . وقيل : في إطلاق إيجاب إعطاء المهر دلالة على وجوبه وإن لم يسم لها مهرا ، فيجب في الصورة مهر المثل بالدخول . والمراد من قوله : **﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾** ما هو المتعارف في مثل هذه المرأة من المهر.

ثمّ أشار سبحانه إلى أنّ وجوب إيتاء المهر فيما إذا كنّ **﴿مُحْصَنَاتٍ﴾** عفيفات . وقيل : إنّ جواز نكاح الأمة أو استحبابه مقيد به ، وعليه يكون المعنى : فانكحوهنّ حال كونهنّ عفائف غير زانيات.

ثمّ أنّه قيل : إنّ العرب كانوا يفرّقون بين المتجاهرات بالزنا والمستترات ، ولذا نصّ الله سبحانه على عدم الفرق بقوله : **﴿غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ﴾** ومتجاهرات بالزنا **﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾** ومصاحبات للأصدقاء في السرّ ، يزنون بهنّ.

ثمّ ذكر سبحانه حكم حدّهنّ في الزنا بقوله : **﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾** بالتزويج **﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾** بعد النكاح والإحصان **﴿بِفَاحِشَةٍ﴾** وارتكبن الزنا سرا أو علانية **﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾** ثابت شرعا **﴿نِصْفُ مَا﴾** ثبت **﴿عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾** والنساء الحرائر **﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾** والحدّ ، وهو الجلد دون الرّجم ، للإجماع ولعدم تبعّض الرّجم . فلا يزداد حدّها على خمسين جلدة إذا كانت محصنة فضلا عما إذا كانت بكرا.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ هذا النكاح المحرّم في الأصل على قول ، أو المكروه على آخر ، جائز لا حرّاة فيه **﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ﴾** على نفسه **﴿الْعَنَتَ﴾** والمشقة **﴿مِنْكُمْ﴾** لغلبة الشهوة وعدم الصبر عليها ،

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٨٧ / ٩٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٨ .

(٢) الكافي ٥ : ٤٦٤ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٨ .

حتى خاف من نفسه الوقوع في الزنا ، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَنْ تَصْبِرُوا﴾ على المشقة ، وتكفوا عن الزنا ، ونكاح الإماء فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دينا ودنيا من الإقدام على نكاحهن لكثرة مفسده ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعباد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)﴾

ثم أنه تعالى - بعد ذكر هذه الآيات المقرونة بأعلى درجة الفصاحة ، وبيان هذه الأحكام المشتملة على المصالح الكثيرة - أظهر المنّة وغاية اللطف بالعباد ترغيبا لهم في الطاعة بقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بإنزال هذه الآيات وبيان تلك الأحكام ﴿لِيُبينَ لَكُمْ﴾ ما فيه صلاح آخرتكم ودنياكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾ الأنبياء والمؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في الأزمنة السالفة.

قيل : فيه دلالة على أنّ هذه الأحكام كانت في جميع الشرائع ^(١) .

﴿و﴾ أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لوضوح أنه لو لم تكن الأحكام لم يتحقق العصيان ، ولولاه لم تتحقق التوبة ، ولولاها لم تظهر صفة توابيته ، وعفويته ، ولطفه في توفيقه للتوبة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضع أحكامه.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)﴾

ثم أعاد ذكر الحكمة الثالثة اهتماما بإظهار سعة رحمته بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ ويحب ﴿أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويعفو عنكم إثر ندمكم على عصيانكم ﴿وَيُرِيدُ﴾ أعداء الله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ وينهمكون فيها ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ إلى الباطل بعد إعراضكم عنه وقبولكم الحق ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وتضلوا بعد الهداية ضلالا بعيدا.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾

ثم تحبب إلى عباده بإعلامهم بغاية رأفته بهم ، وإحسانه إليهم بقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بتشريعة الحنيفية السهلة السهلة التي منها تحليل نكاح الإماء ﴿أَنْ يُخَفِّفَ﴾ ويضع ﴿عَنْكُمْ﴾ التكاليف الشاقة،

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٦٦ .

والآصار والأغلال التي كانت على الامم الماضية.

ثم أشار إلى علة هذا التخفيف بقوله : ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ في نفسه وعقله وقواه ، عاجزا عن احتمال المشاق ، جزوعا عند الشدائد ، لا يصبر عن الشهوات ، ولا يحتمل مشقة الطاعات .
عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعًا﴾^(١) ، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ... إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾^(٣) ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾^(٤) ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾^(٥) ، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾^(٦) ، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ...﴾^(٧) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ

تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)﴾

ثم لما أجاز سبحانه في التصرف في النفوس بالزكاح ، وأمر بابتغائه بالأموال ، وإيفاء المهور والتفقات ، نهي عن التصرف في الأموال بغير الوجه العقلائي والنحو المحلل في الشرع أولا بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ ولا تتصرفوا فيها ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالأسباب غير المبيحة للمال ، كالقمار والرشوة والغصب والسرقة ونحوها . وعلى هذا التفسير تكون الآية مجملة .
عن الباقر عليه السلام : « الرِّبَا والقمار والبخس والظلم »^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام : « عني بما^(٩) القمار ، وكانت قريش تقامر [الرجل] بأهله وماله فنهاهم [الله] عن ذلك »^(١٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : إنَّ الباطل [هو] كل ما يؤخذ من الإنسان بغير عوض^(١١) .
﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ التجارة ﴿تِجَارَةً﴾ كائنة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بها . وعليه لا يكون الاستثناء منقطعا لعدم كون التجارة من جنس الباطل ، ويكون المعنى : ولكن محل أكلها بالتجارة عن التراضي ويمكن توجيه الآية بنحو يكون الاستثناء متصلا .
ثم بعد النهي عن التصرف في الأموال بغير الوجه المحلل ، نهي عن التصرف في النفوس بالقتل - ثانيا - بقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ .

(١) النساء : ٤ / ٢٦ .

(٢) النساء : ٤ / ٢٧ .

(٣) النساء : ٤ / ٣١ .

(٤) النساء : ٤ / ٤٨ .

(٥) النساء : ٤ / ٤٠ .

(٦) النساء : ٤ / ١١٠ .

(٧) تفسير الرازي ١٠ : ٦٨ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ١٤٧ .

(٨) مجمع البيان ٣ : ٥٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٩ .

(٩) في تفسير العياشي : نهي عن .

(١٠) تفسير العياشي ١ : ٣٩٠ / ٩٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٠٩ .

(١١) تفسير الرازي ١٠ : ٦٩ .

قيل : إنّ المراد لا يقتل بعضكم بعضاً ^(١) .

وقيل : إنّ المراد التّهي عن قتل الشّخص نفسه ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام : « أنّ معناه : لا تخاطروا نفوسكم في القتال فتقاتلوا من لا تطيقونه » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « كان المسلمون يدخلون على عدوّهم في المغارات ، فيتمكّن منهم عدوّهم فيقتلهم كيف يشاء ، فنهاهم الله أن يدخلوا عليهم في المغارات » ^(٤) .

وعن القمي قال : كان الرّجل إذا خرج مع رسول الله ﷺ في الغزو يحمل على العدوّ وحده من غير أن يأمره رسول الله ﷺ ، فنهى الله أن يقتل نفسه من غير أمره ^(٥) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، قال : « سألت رسول الله ﷺ عن الجبائر تكون على الكسير ، كيف يتوضّأ صاحبها ، وكيف يغتسل إذا أجنب ؟ قال : يجزيه المسح ^(٦) بالماء عليها في الجنابة والوضوء ، قلت : فإن كان في برد يخاف على نفسه إذا أفرغ الماء على جسده ؟ فقرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ^(٧) .

أقول : يمكن باستعمال لفظ (القتل) و (النفس) في عموم المجاز إرادة تعريض نفسه ونفس غيره للهلاك الدّنيوي والاخروي.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ التّهي عن إتلاف المال والنّفس لمحض رحمته بالعباد ، حتّى على الطّاعة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ لا يرضى بتلف أموالكم ونفوسكم ، وبوقوعكم في الضّرر والمشقة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرًا (٣٠)﴾

ثمّ أخذ سبحانه بالتهديد على المخالفة بقوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ﴾ ويرتكب ذلك المذكور من إتلاف الأموال والأنفس ، حال كون ارتكابه ﴿عُذْوَانًا﴾ على الغير ، وتجاوزا عن الحدود الإلهيّة ﴿وُظْلَمًا﴾ على العباد ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ وندخله ﴿نَارًا﴾ لا توصف شدّة حرّها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ التعذيب والتّصلية ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿يَسِيرًا﴾ وسهلاً.

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٧٢ ، مجمع البيان ٣ : ٥٩ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٥٩ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٦٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٠ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٩٠ / ٩٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٠ .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٠ .

(٦) في تفسير العياشي : المسّ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٣٨٩ / ٩٤٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٠ .

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ﴾

﴿كَرِيمًا (٣١)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار رحمته ورأفته بالمؤمنين ، وترغيبه في الطاعة بقوله : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا﴾ وتحتزوا ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ من القبائح ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ ونغفر لكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الصّغيرة ، وذنوبكم الحقيرة ﴿وَنُدْخِلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿مُدْخَلَ﴾ ومنزلاً ﴿كَرِيمًا﴾ وحسناً مرضياً .
قيل : إنّ المراد : إدخالاً مع كرامة ^(١) .

في بيان الكبائر وعددها

عن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل عن الكبائر ، فقال : « كلّ ما أوعده الله عليه النار » ^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « الكبائر التي أوجب الله عليها النار » ^(٣) .
وعنه عليه السلام ، في هذه الآية : « من أجنب ما أوعده الله عليه النار ، إذا كان مؤمناً ، كفر الله عنه سيئاته ويدخله مدخلاً كريماً ، والكبائر السبع الموجبات : قتل النفس الحرام ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، والتعرّب بعد الهجرة ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الرّحف » ^(٤) .
أقول : لا شبهة في وجود المعصية الصّغيرة ، وبطلان ادّعاء أنّ جميع المعاصي كبائر ، لظهور الكتاب ، وصراحة كثير من الأخبار في وجود القسمين للمعاصي .
وما عن ابن عباس رضي الله عنه : - من أنّ كلّ ما عصي الله فيه فهو كبيرة ، فمن عمل منها شيئاً فليستغفر الله ^(٥) - فمحمول على إرادة وجوب احتراز العبد عن جميع المعاصي ، والاستغفار منه إذا ارتكب شيئاً منها ، ولا يجوز له التّهاون بها .
ثمّ لا ريب أنّ جميع الكبائر ليست على حدّ واحد ، بل بعضها أكبر من بعض ، لوضوح أنّ قتل النفس أكبر من أكل مال اليتيم ، ولعلّ أكل مال اليتيم أكبر من أكل الربا ، والفرار من الرّحف أكبر من قذف المحصنة ، إلى غير ذلك .
فالميزان الثّابت بالأخبار للكبائر هو ما أوعده الله عليه النار ، وإن كان الوعيد بالدلالة الالتزامية ، وما ذكر في الأخبار من عدد الكبائر من السّبع ، فمحمول على بيان أكبر الكبائر .
وهذا القول منقول عن ابن عباس أيضاً ، واعتراض الفخر الرازي عليه - بأنّ كلّ ذنب متعلّق للذّم في العاجل والعقاب في الآجل ^(٦) ، فلا تبقى صغيرة - شطط من الكلام ، لوضوح عدم ذكر كثير من

(١) تفسير الصافي ١ : ٤١١ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٩٣ / ٩٥٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤١١ .

(٣) الكافي ٢ : ٢١١ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١١ .

(٤) ثواب الأعمال ١٣٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤١١ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٧٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ٧٤ .

المحرمات كالاستمنا والقبلة وأمثالهما في القرآن.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾

ثم - لما كان عدم الرضا بما قسمه الله لخلقه موجبا للحسد ، وأخذ الأموال بالباطل ، وقتل النفوس المحترمة بغير الحق - نهي الله سبحانه عن الطمع في ما في أيدي الناس وتمنيته ، بقوله : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الأموال والأولاد والجاه مما يجري التنافس فيه ، فإن ذلك قسمة من الله صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد ، مترتبة على الإحاطة بجلائل شؤونهم ودقائقها.

فكل ما كنتم فاقدين له من الأمور الدنيوية وكان غيركم واجدا له ، فلعل عدمه خير لكم ، فعلى كل أحد من المفضل والمفضل عليه أن يرضى بما قسم له ، ولا يتمنى المفضل عليه حظ المفضل ، ولا يحسده عليه ؛ لأنه معارضة لحكمة المقدر ، فإن الأنصباء كالأشكال والصور ، وكما أن الأشكال والصور واختلافهما بمقتضى الحكمة الإلهية لا يطلع على سرها أحد ، فكذلك الاقسام والأنصباء.

عن الصادق عليه السلام ، في تفسير الآية : « أي لا يقل أحدكم : ليت ما أعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان لي ، فإن ذلك يكون حسدا ، ولكن يجوز أن يقول : اللهم أعطني مثله » (١).

أقول : ومما ينبغي أن يقول : اللهم أعطني ما فيه صلاح دنيائي وآخرتي ، بل أحسن الأدعية ما علمه الله عباده في كتابه المجيد من قوله : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (٢).

وقيل : إن وجه النظم أنه تعالى بعدما أمر بتطهير الجوارح من أقبح القبائح ، وهو أخذ المال بالباطل ، وقتل النفس المحترمة ، أمر بتطهير القلب من أرذل الصفات ، وهو الحسد على ما أعطاه الله غيره ، ليصير الباطن موافقا للظاهر في الطهارة من الذمائم (٣).

ثم علل سبحانه النهي عن التمني بقوله : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ وحظ معين لا يتخطاه ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بأعمالهم وصلاح حالهم ، من النعم الدنيوية والآخرية ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ أيضا ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظ ﴿مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فاطلبوا ما تريدون بالأعمال ، لا بالتمني والحسد ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ﴾ بعضا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ والتمسوا من جميع ما تحبونه وتحتاجون إليه من خزائن جوده ورحمته التي لا تنفد ، فإن أعطاكم وأجاب سؤلكم فاشكروه ، وإن منعكم فارضوا بما قسمه لكم ، فإنه ليس إلا لعلمه بصلاحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾

(١) مجمع البيان ٣ : ٦٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٣ .

(٢) البقرة : ٢ / ٢٠١ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٨٠ .

كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿مِّنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ﴾ عَلِيمًا ﴿٣٣﴾ خبيراً.

عن النبي ﷺ : « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبُّ شَيْئًا لِنَفْسِهِ وَأَبْغَضُهُ لَخَلْقِهِ ، أَبْغَضَ عَزَّجَلَّ لَخَلْقِهِ الْمَسْأَلَةَ ، وَأَحَبُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يُسْأَلَ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ ، فَلَا يَسْتَحِي أَحَدَكُمْ أَنْ يُسْأَلَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَلَوْ شَسِعَ نَعْلُهُ » (١) .

وعن الباقر عليه السلام : « لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَهَا رِزْقًا حَلَالًا يَأْتِيهَا فِي عَافِيَةٍ ، وَعَرَضَ لَهَا بِالْحَرَامِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، فَإِنْ هِيَ تَنَاوَلَتْ شَيْئًا بِالْحَرَامِ قَاصَّهَا بِهِ مِنَ الْحَلَالِ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَهَا ، وَعِنْدَ اللَّهِ سَوَاهُمَا فَضْلٌ كَثِيرٌ » (٢) وهو قوله : ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

ثم قال : « وَذَكَرَ اللَّهُ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَبْلَغَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ مِنَ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ » (٣) .
قيل : إِنَّ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو ، وَلَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ ضَعْفٌ مَا لَنَا ، فَلَيْتَنَا كُنَّا رِجَالًا ، فَنَزَلَتْ (٤) .
وقيل : لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْمِيرَاثَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، قَالَتِ النِّسَاءُ : نَحْنُ أَحْوَجُ لَأَتَا ضَعْفَاءَ ، وَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى طَلَبِ الْمَعَاشِ (٥) .

في بيان طبقة الوراث

وقيل : أَتَتْ وَاحِدَةً مِنَ النِّسَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَتْ : رَبِّ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَاحِدٌ ، وَأَنْتَ الرَّسُولُ إِلَيْنَا وَإِلَيْهِمْ ، وَأَبُونَا آدَمُ وَأَمَّنَا حَوَاءُ ، فَمَا السَّبَبُ فِي أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ وَلَا يَذْكُرُنَا ؟ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ، فَقَالَتْ : وَقَدْ سَبَقْنَا الرِّجَالَ بِالْجِهَادِ ، فَمَا لَنَا ؟

فَقَالَ ﷺ : « إِنَّ لِلْحَامِلِ مِنْكِ أَجْرَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، فَإِذَا ضَرَبَهَا الطَّلَقُ لَمْ يَدْرَ أَحَدٌ مَا لَهَا مِنَ الْأَجْرِ ، فَإِذَا أَرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بِكُلِّ مَصَّةٍ أَجْرُ إِحْيَاءِ النَّفْسِ » (٦) .

وقيل : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْمَوَارِيثِ قَالَ الرِّجَالُ : نَرْجُو أَنْ نَفْضَلَ عَلَى النِّسَاءِ فِي الْآخِرَةِ كَمَا فَضَّلْنَا فِي الْمِيرَاثِ ، وَقَالَتِ النِّسَاءُ : نَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْوِزْرُ عَلَيْنَا نَصْفَ مَا عَلَى الرِّجَالِ كَمَا فِي الْمِيرَاثِ ، فَنَزَلَتْ (٧) .

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ

فَاتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾

ثم أَنَّهُ تَعَالَى ، بَعْدَ ذِكْرِ مِيرَاثِ الْأَقْرَابِ وَالْأَزْوَاجِ ، وَالْمَنْعِ عَنْ إِرْثِ نِسَاءِ الْمَيِّتِ ، خُصُوصًا زَوْجَةَ الْأَبِ وَحَرَمَةَ نِكَاحِهَا ، وَحَرَمَةَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ آخَرَ بِالنِّسَابَةِ ، عَادَ إِلَى بَيَانِ

(١) الكافي ٤ : ٢٠ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٣ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٩٤ / ٩٦١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٩٤ / ٩٦٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٣ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٠ : ٨٢ .

(٦ و ٧) . تفسير الرازي ١٠ : ٨٢ .

حكم الإرث وذكر طبقات الوراث بقوله : ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أفراد نوع الإنسان ، ذكرا كان أو انثى ﴿جَعَلْنَا﴾ وقرنا ﴿مَوَالِي﴾ وورثا يرثونه ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بعد موته.

وهم أولا : ﴿الْوَالِدَانِ﴾ وفي طبقتهم الأولاد والأزواج ، ولعلّه لم يذكرنا هنا لمعلومية ذلك من الآيات السابقة ، ولتعظيم شأنهما في الطبقة الاولى. ثم ذكر الطبقة الثانية بقوله : ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ .

عن الصادق عليه السلام : « إنما عني بذلك اولي الأرحام في الموارث ، ولم يعن أولياء النعمة ، فأولاهم بالميت أقرهم إليه من الرحم التي تجرّه إليها » (١) .

ثم الطبقة الثالثة ؛ بقوله : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ .

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « إذا والى الرجل الرجل فله ميراثه ، وعليه معقلته » (٢) ، يعني

: دية جنابة خطئه.

وعن الرضا عليه السلام : « عني بذلك الائمة عليهم السلام بهم عقد الله عزّ وجلّ أيمانكم » (٣) .

في نقل كلام الفاضل المقداد عليه السلام

وقال الفاضل المقداد في (آيات الأحكام) : الأيمان هنا جمع : يمين اليد ؛ لأنهم كانوا عند العهد يمسحون اليمين باليمين ، فيقول العاقد : دمك دمي ، وثأرك ثأري ، وحربك حربي ، وسلمك سلمتي ، ترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك ، فيكون للحالف السدس من ميراث حليفه. وهذا من إسناد الفعل إلى آله. وقيل : الأيمان جمع يمين الحلف ، فيكون من إسناد الفعل إلى سببه (٤) . إذا عرفت ذلك فهنا فوائد :

الاولى : كانوا في الجاهلية يتوارثون بهذا العقد دون الأقارب ، فأقرهم الله عليه في مبدأ الإسلام ثم نسخ ذلك ، فكانوا يتوارثون بالإسلام والمهجرة.

روي أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار لما قدم المدينة ، فكان المهاجر يرث الأنصاري وبالعكس ، ولم يرث القريب ممن لم يهاجر ، ونزل في ذلك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ (٥) ، ثم نسخ ذلك بالقرابة والرحم والأنساب والأسباب بقوله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (٦) .

(١) التهذيب ٩ : ٢٦٨ / ٩٧٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٣ .

(٢) الكافي ٧ : ١٧١ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٣٩٥ / ٩٦٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ .

(٤) كنز العرفان ٢ : ٣٢٤ .

(٥) الأنفال : ٨ / ٧٢ .

(٦) كنز العرفان ٢ : ٣٢٤ ، والآية من سورة الأنفال : ٨ / ٧٥ .

الثانية : هذا الحكم - أعني : الميراث بالمعاهدة والمعاقدة ، وهو المسمى بضمان الجريرة - منسوخ عند الشافعي مطلقا ، وقال : لا إرث به ، وعند أصحابنا ليس كذلك ، بل هو ثابت عند عدم الوارث النسبي والسببي لما روي عن النبي ﷺ ، أنه خطب يوم الفتح فقال : « ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به ، فإنه لم يزد الإسلام إلا شدة ، ولا تحدثوا حلفا في الإسلام » .

إلى أن قال الفاضل : على ما قلناه من بقاء حكم الإرث بالتعاهد ، فتكون الآية غير منسوخة جملة ، بل تكون محكمة ، لكن الإرث فيها يحمل مفتقر إلى شرائط ومخصصات تعلم من موضع آخر من الكتاب ، أو من السنة الشريفة .

وقال بعضهم : المعاقدة هنا هي المصاهرة ، فيكون إشارة إلى إرث الزوجين ، واختاره المعاصر ^(١) ، وفيه بعد ؛ لأنه عدول عن الظاهر ، وعن قول الأكثر ، انتهى ^(٢) .

وقد سبق في طرفة من الطرائف بعض التحقيق في ذلك ^(٣) .

وقيل : إن المراد من قوله تعالى : ﴿ فَأَتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ ﴾ النصرة والنصيحة ، والمصافاة في العشرة ، والمخالصة في المخالطة ، لا التوارث .

ثم وعد سبحانه المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الجزئيات والكليات وجميع أعمال العباد ﴿ شَهِيدًا ﴾ وخبرا يجازيهم على حسب أعمالهم إن خيرا فخييرا ، وإن شرا فشرًا .

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ (٣٤)

في بيان فضل الرجال على النساء

ثم لما كان شأن نزول آية : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ^(٤) - على ما ورد في بعض الروايات - في ردع النساء عن التكلم في تفضيل الرجال على النساء في الميراث ، وتمنيهن المساواة لهم في النصيب ، أشار سبحانه إلى وجه

(١) مراد الفاضل المقداد من (المعاصر) هو ابن المتوج ، وهو فخر الدين أحمد بن عبد الله بن سعيد بن المتوج البحراني صاحب كتاب (النهاية في تفسير الخمسمائة آية) . الذريعة ٢٤ : ٤٠٢ / ٢١٣٧ .

(٢) كنز العرفان ٢ : ٣٢٤ .

(٣) راجع : الطرفة (٢٠) .

(٤) النساء : ٤ / ٣٢ .

التفضيل بقوله : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ مهيمنون عليهن ، مهتمون بتنظيم أمورهن ، مبالغون في حفظهن ، ناظرون في صلاحهن .

ثم علل سبحانه هذه القيمة بأمرين :

الأول : ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾ الغالب ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ الأغلب من النساء ، من العقل والحزم ، والقوة والفتوة ، والشجاعة والسماحة ، والعلم ، [وغيرها] من الفضائل الداخلية والكمالات النفسانية .
والثاني : ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في نكاحهن ، كالمهر والتفقة والإحسان وغيرها من الفضائل العملية . وفيه دلالة على وجوب نفقتهن على الأزواج .

عن النبي ﷺ أنه سئل : ما فضل الرجال على النساء ؟ فقال : « كفضل الماء على الأرض ، فبالماء تحيا الأرض ، وبالرجال تحيا النساء ، ولو لا الرجال ما خلقت النساء » ثم تلا هذه الآية ، ثم قال : « ألا ترى إلى النساء كيف يحضن ولا يمكنهن العبادة ؛ من القذارة ، والرجال لا يصيبهم شيء من الطمث » (١) .

روي أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها ، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ وشكا ، فقال صلوات الله عليه : « لنقتصن منه » . فنزلت الآية ، فقال ﷺ : « أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذي أراد الله خير ، ورفع القصاص » (٢) .

ثم أنه تعالى بعدما أشار إلى وظيفة الرجال ، بيّن وظيفة النساء بقوله : ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ الخيرات منهن ﴿قَانِتَاتٌ﴾ لله ، مطيعات له ولأزواجهن ، قائمات بأداء حقوقهم ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ من الأزواج بحفظ أنفسهن من الأجانب ، وأموال أزواجهن من التلّف والتبذير في غيابهم .

عن الصادق عليه السلام عن آبائه ، عن النبي ﷺ : « ما أستاذ امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة ، تسره إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمرها ، وتحفظه إذا غاب عنها ، في نفسها وماله » (٣) .
وقيل : إنّ المراد : حافظات لما يكون بينهما وبين أزواجهن في الخلوات من الأسرار (٤) .

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هنّ ، وبعبوض الحقوق التي جعلها الله هنّ رعاية هنّ على أزواجهن ، من العدل والإحسان إليهنّ ، وإيجاب إمساكنهنّ بالمعروف ، وإعطائهنّ المهور والنفقات وغيرها .

وحاصل المعنى : أنّ حفظهنّ لحقوق الأزواج يكون في مقابل حفظ الله حقوقهنّ على الأزواج .

وقيل : إنّ المعنى : كونهنّ حافظات للغيب يكون بسبب حفظ الله هنّ من الزلل ، وتوفيق الله إياهنّ للقيام بحقوق الأزواج (٥) .

(١) علل الشرائع : ٥١٢ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٠٢ .

(٣) الكافي ٥ : ٣٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٤ .

(٤) كنز العرفان ٢ : ٢١٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٨٩ .

حكم نشوز الزوجة

ثم لما بيّن سبحانه وظيفة الزوجة من التمكين والطاعة للزوج ، بيّن حكم خروجها عن الطاعة بقوله : **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾** وترفعهن عن الطاعة بظهور أماراته في أقوالهن وأفعالهن **﴿فَعِظُوهُنَّ﴾** وخوفهن بسوء عاقبة النشوز ، وعقاب الله عليه ، وانصحوهن بالترغيب إلى حسن العشرة والقيام بالطاعة **﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾** وتباعدوا منهن **﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾** والمراقد ، إن لم يفد الوعظ والتصح. قيل : هو أن لا يبيت معها في فراشها ، بل في فراش آخر ^(١) .

وقيل : هو أن يوليها ظهره في الفراش ^(٢) .

وقيل : هو أن لا يجامعها ^(٣) . ولا يبعد أن يكون من الوجوه امتناعه عن التكلّم معها.

﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ إن لم يفد الهجران ، ضرباً غير جارح لحماً ، أو كاسر عظماً.

عن الباقر عليه السلام : « أَنَّهُ الضَّرْبُ بِالمِسْوَكِ » ^(٤) . ولا يبعد أنه بيان أقله ووجوب رعاية ما يوجب ردعها في الحجر والضرب ، وعدم جواز التعدي عنه.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ وقمن بحقوقكم بالضرب ، ورجعن عن النشوز إلى الطاعة **﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾** ولا تطلبوا إلى إبدائهن طريقاً بالتوبيخ والضرب وغيرهما.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « يَعْضُهَا بِلِسَانِهِ ، فَإِنْ انْتَهَتْ فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنْ أَبَتْ هَجَرَ مَضْجَعَهَا ، فَإِنْ أَبَتْ ضَرْبَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَتَّعْظْ بِالضَّرْبِ بَعَثَ الْحَكَمِينَ » ^(٥) .

ثم رغب سبحانه الأزواج بعد انتهائهن بالرفق بهن ، واستمالة قلوبهن ، وقبول توبتهن ، بقوله : **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾** شأناً **﴿كَبِيراً﴾** قدرة.

ففيه إشارة إلى أنه تعالى مع علوّ شأنه ، وكمال قدرته ، يعاملكم مع عصيانكم بالرفق ، ويخاطبكم بالشفقة ويستميل قلوبكم ، ويقبل توبتكم ، فعاملوا أزواجكم بعد ندمهم على النشوز معاملة ربكم العليّ معكم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا

إِصْلَاحًا يُؤَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (٣٥)

ثم أنه تعالى - بعد بيان حكم النشوز من طرف الزوجة - بيّن حكم النشوز ، وعدم القيام بالحقوق ، إذا كان من الزوجين ، مخاطباً للحكام بقوله : **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾** أيها الحكام **﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾** والنشوز،

(١) و٢ (٣) . كنز العرفان ٢ : ٢١٢ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٦٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٩١ .

وتجاوز الحدود الشرعية منهما ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾ عادلا منصفا ، صالحا للحكومة من طرف الزوج كائنا ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ وأقاربه إلى الزوجة ﴿وَحَكَمًا﴾ آخر ، على صفة حكم الزوج من طرف الزوجة ، كائنا ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وعشيرتها إلى الزوج لإصلاح ذات البين.

قيل : تعيين أهل الزوجين للحكمية لكونه أعرف بحالهما (١) .

وقيل : هو على سبيل التدب ، ويجوز البعث لغير أهل لحصول الغرض (٢) .

وعلى أي حال وتقدير فالحكمان المعينان ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ وقصدا ﴿إِصْلَاحًا﴾ وتوفيقا بين الزوجين بالشروط والالتزامات نظرا إلى صلاحهما ﴿يُوفِّقُ اللَّهُ﴾ ويؤلف بقدرته ﴿بَيْنَهُمَا﴾ قيل : إن ضمير التثنية الأولى أيضا راجع إلى الزوجين (٣) ، وقيل : الثانية أيضا راجعة إلى الحكمين (٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالكليات ﴿خَيْرًا﴾ بالجزئيات ، أو عليما بالبواطن خبيرا بالظواهر من الأقوال والأفعال.

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « الحكمان يشترطان إن شاء فترقا وإن شاء جمعا ، فإن جمعا فجائز ، وإن فترقا فجائز » (٥) .

[و] قال : « ليس لهما أن يفرقا حتى يستأمرهما » (٦) .

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا﴾ (٣٦)

ثم أنه تعالى لما أرشد الزوجين إلى طريق الإصلاح بينهما ، أرشد الناس إلى طريق الإصلاح بينهم وبين الله بقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأطيعوه أيها الناس جوانحا وجوارحا ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من الإشراك جليا وخفيا ، ﴿وَوَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ وإن علوا ﴿إِحْسَانًا﴾ لائقا بعظيم حقوقهما . وفي إقران ذكر وجوب برهما بوجوب عبادة ذاته المقدسة تنبيه على كمال العناية بهما ، وعلو قدرهما ، والتأكيد في وجوب طاعتهما ، والقيام بخدمتهما ، والسعي في حوائجهما ، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة ، والخضوع لهما ، وتليين الكلام معهما .

روي أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ من اليمن فاستأذنه في الجهاد ، فقال صلوات الله عليه : « هل لك أحد باليمن ؟ » فقال : أبوي ، فقال : « أبوك أذن لك ؟ » فقل : لا ، فقال : « فارجع فاستأذنهما ، فإن أذنا

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٩٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧٥ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧٥ .

(٥) الكافي ٦ : ١٤٦ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ .

(٦) الكافي ٦ : ١٤٧ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ .

لك فجاهد ، وإلا فبرهما » (١) .

وعن العياشي : عنهما عليهما السلام ، في هذه الآية : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله أحد الوالدين ، وعليهما عليهما السلام الآخر » (٢) .

ثم بعد الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، أمر بالإحسان إلى الأرحام بقوله : ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والأرحام القريب منكم والبعيد ، فإنهم أحق بالإحسان من غيرهم. ﴿وَوَالِدَيْهِ﴾ بعدهم ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ لضعفهم ، وصغرهم ، وعدم الكافل لهم ، ﴿وَوَالِدَيْهِ﴾ بعدهم ﴿الْمَسَاكِينَ﴾ والفقراء ، ﴿وَوَالِدَيْهِ﴾ بعدهم ﴿الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ومن له قرب الدار ، ﴿وَوَالِدَيْهِ﴾ بعدهم ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ ومن يكون له بعد الدار .

بيان حدّ الجار وحقوقه

في (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « حدّ الجوار أربعون داراً من كلّ جانب ، من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كلّ أربعين داراً جيران من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله » (٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق . حقّ الجار وحقّ القرابة وحقّ الإسلام ، وجار له حقان : حقّ الجار ، وحقّ الإسلام ، وجار له حق واحد : حقّ الجار (٥) ، وهو المشرك من أهل الكتاب » (٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « حسن الجوار يزيد في العمر » (٧) .

وقال : « حسن الجوار يعمر الديار ، ويزيد في الأعمار » (٨) .

وعن الكاظم عليه السلام : « ليس حسن الجوار كفت الأذى ، ولكن حسن الجوار صبرك على الأذى » (٩) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله ، قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يؤدّي حقّ الجار إلّا من رحم الله ، وقليل ما هم ، أتدرون ما حقّ الجار ؟ إن افتقر أغنيته ، وإن استقرض أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه شرّ عزّيته ، وإن مرض عدته ، وإن مات شيعت جنازته » (١٠) .

وقيل : عنى بالجار ذي القربى : القريب النسب ، وبالجار الجنب : الجار الأجنبي (١١) .

ثم ذكر الصنّف السابع بقوله : ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ قيل : هو الذي صحبتك وحصل في جنبك ،

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٩٥ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٩٧ / ٩٧١ و ٩٧٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٩١ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ . (٤) الكافي ٢ : ٤٩١ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٥ .

(٥) في مجمع البيان : الجوار . (٦) مجمع البيان ٣ : ٧٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٦ .

(٧) الكافي ٢ : ٤٨٩ / ٣ ، وفيه : يزيد في الرزق ، تفسير الصافي ١ : ٤١٦ .

(٨) الكافي ٢ : ٤٨٩ / ٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٦ . (٩) الكافي ٢ : ٤٨٩ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٦ .

(١٠) تفسير الرازي ١٠ : ٩٦ . (١١) تفسير الرازي ١٠ : ٩٦ .

إمّا بكونه رفيقا في سفر ، أو جارا ملاصقا ، أو شريكا في تعلّم أو حرفة ، أو قاعدا بجنبك في مجلس أو مسجد ، أو غير ذلك ممّن له أدنى صحبة التأمّت بينك وبينه ، فعليك أن [ترعى ذلك الحقّ ولا تنساه و] تجعله ذريعة إلى الإحسان إليّه ^(١) .

وقيل : إنّ المرأة فإنّما تكون معك وتضعج إلى جنبك ^(٢) .

﴿وَوَعَدَهُمُ الْبَيْنُ السَّيْلُ﴾ وهو المسافر المنقطع عن بلده وماله ، والإحسان إليه بأن تؤويه وتروّده ، وقيل : هو الضيف ^(٣) . ﴿وَوَعَدَهُ﴾ بعده ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء .

عن القمي عليه السلام قال : الصّاحب بالجنب يعني صاحبك في السّفر ، وابن السبيل يعني أبناء الطّريق الذين يستعينون بك في طريقهم ، وما ملكت أيمانكم يعني الأهل والخادم ^(٤) .

وقيل : هو كلّ حيوان تملكه ^(٥) . وعلى كلّ تقدير ، فإنّ الإحسان إلى الكلّ طاعة عظيمة .

قيل : كانوا في الجاهليّة يسيئون إلى المملوك ، فيكلّفون الإماء بالبغي ^(٦) والتكسّب بفروجهنّ ^(٧) . ثمّ لما كان عمدة الموانع عن الإحسان والتّوجّه إلى الفقراء والضّعفاء والمماليك التّكبّر والتّطاول ، هدّد الله التّاركين للإحسان إليهم بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ ومتكبرا ﴿فَخُورًا﴾ ومتطاولا على الناس .

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧)

ثمّ قسّمهم سبحانه قسمين ، وعرف القسم الأوّل بقوله : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بأموالهم ولا ينفقوها في سبيل الله ووجوه البرّ من الجهاد ، وإعانة الفقراء ، وصلة الأرحام ، وأمثال ذلك .

ثمّ بالغ سبحانه في [بيان] حبّهم البخل بقوله : ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويرغبوهم فيه ، ولا يرضون بإنفاق أحد إلى أحد ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾ ويسترون من الناس ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده ، بأن يظهروا الفقر والإعسار مع كونهم أغنياء موسرين لئلا يتوقّع منهم البذل أحد .

ثمّ لما كان هذا الخلق الرّذيل ملازما للكفر - ولو بسبب إنكار حقوق الله من الرّكاة ، وصلة الرّحم ،

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٩٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ٩٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٩٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٣٨ ، تفسير الصّافي ١ : ٤١٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٩٧ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢٠٦ .

(٦) كذا ، وفي تفسير الرازي : البغاء .

(٧) تفسير الرازي ١٠ : ٩٧ .

والإحسان إلى الفقراء - وإظهار الشكاية من الله وصفهم الله بالكفر ، وهددهم بقوله : ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيئنا في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بالله ونعمه والدَّار الآخرة ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ لهم لاستهانتهم بأحكام الله وعباده .
عن النبي ﷺ : « خصلتان لا تجتمعان في مسلم : البخل ، وسوء الخلق » (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « ما كان في شيعة فلا يكون فيهم ثلاثة : لا يكون فيهم من يسأل بكفه ، ولا يكون فيه بخيل ... » (٢)

عن ابن عباس : أتهم اليهود ، بخلوا أن يعترفوا بما عرفوا من نعت محمد ﷺ وصفته في التوراة ، وأمروا قومهم أيضا بالكتمان ، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من العلم بما في كتابهم من صفة محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة لليهود ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣) .

وقيل : إن اليهود كانوا يقولون للأ نصار بطريق النصيحة : لا تنفقوا أموالكم ، فإننا نخشى عليكم الفقر (٤) .

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ

يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)﴾

ثم عرّف الله القسم الثاني بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ في وجوه البر ، ولكن لا لغرض طاعة الله ، والقرب إليه ، وطلب الآخرة ، بل يكون غرضهم من البذل والإنفاق ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ولتحصيل الجاه بينهم ، والمدح في ألسنتهم .

ثم أشار سبحانه إلى علّة ريائهم بالإنفاق بقوله : ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن صميم القلب حتّى يقصدوا بإنفاقهم التّقرب إلى الله وطاعته ، والتّجاة في الآخرة .

ومن البين أنّ هؤلاء المرائين قراء الشيطان يضلّهم عن الصّراط المستقيم ، ويهديهم إلى الجحيم ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ ومصاحبا في الدّنيا ، لا يرجى منه خير ، ولا يكون له فلاح ﴿فَسَاءَ﴾ إذن الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ وبئس مصاحبا ، حيث إنّه يحرم قرينه من النّعم الدّائمة ، ويدخله بتسويلاته الجحيم الحاطمة .

قيل : نزلت في المنافقين لذكر الرياء في إنفاقهم ، وهو التّفاق (٥) .

وقيل : نزلت في مشركي مكة المنفقين على عداوة رسول الله ﷺ (٦) .

(١) الخصال : ٧٥ / ١١٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٧ .

(٢) الخصال : ١٣١ / ١٣٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٩٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ١٧٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٩٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ٩٩ .

وعلى أيّ تقدير ، تدلّ الآية على أنّ المنفق رياء والبخلاء الذين لا ينفقون بشيء مشاركون في الذّم والعقاب لاشتراكهم في ترك الإنفاق في ما ينبغي وكما ينبغي.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ

عَلِيماً (٣٩)﴾

ثمّ لام الله سبحانه كلا الفريقين على ترك الإيمان والإنفاق لوجه الله وفي سبيله الذي فيه نفع عظيم ، وفي تركه ضرر كثير ، بقوله : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ من الضرر المتصور ﴿لَوْ﴾ أنّهم ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مع وضوح دلائل التوحيد والمعاد ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله شيئاً ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من المال مع كثرة منافعه ، وعدم تصوّر الضرر فيه. وفيه غاية الحثّ والتحريض إليهما.

ثمّ هدّد سبحانه على تركهما بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ﴾ وبأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والخفية ﴿عَلِيماً﴾ ومن الواضح أنّ الاعتقاد بأنّ الله القادر ، المنتقم ، الشديد العقاب ، مطلع على ظاهره وباطنه من أقوى الزوابع عن الكفر والعصيان والتفاد والرياء.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً

عَظِيماً (٤٠)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في ترغيب الناس إلى الإيمان والإنفاق في سبيله بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ أحداً عمل عملاً بزيادة عقاب ، أو بنقص ثواب ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وبقدر ثلّة صغيرة لاستحالة صدور الظلم منه ، مع كمال حكمته ، وعدم حاجته. وفيه مبالغة في تنزيه ساحته عن الظلم. ثمّ أعلن عن سعة رحمته وعظمة فضله بقوله : ﴿وَإِنْ تَكَ﴾ زنة الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ وفعله خير ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ الله بإضعاف ثوابها ﴿وَيُؤْتِ﴾ صاحبها ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ ومن خزائن رحمته ، زائداً على ما يستحقّه في مقابل عمله ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثواباً جسيماً لا يعرف أحد عظمة هذا الفضل وجسامته. وفي توصيفه بالعظمة دلالة على أنّه أضعاف الدّنيا وما فيها ، حيث إنّ وصف الدّنيا وما فيها في كتابه بالمتاع القليل.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد تهديد الكفار والمنافقين والبخلاء والمنفقين رياء بعلمه بسرّائهم وبواطن امورهم ، وتعذيبهم من غير ظلم - هدّدهم بأنّه يقطع عذرهم ، ويتمّ عليهم الحجّة ، مضافاً إلى علمه

بإقامة الشهود عليهم من الأنبياء والرسل ؛ بحيث لا يمكن لأحد منهم الإنكار ودعوى العذر ، بقوله : ﴿فَكَيْفَ﴾ ترون حال الكفرة والعصاة في القيامة ، من شدة الهول والفرع ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الامم ﴿بِشَهِيدٍ﴾ عليهم من أنفسهم ، وهو رسولهم ، يشهد بفساد عقائدهم ، وعنادهم لله ورسله ، وارتكابهم السيئات طغيانا وكفرا ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ، بعد شهادة الرسل ﴿عَلَى﴾ صدق ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الرسل ﴿شَهِيدًا﴾ تشهد بصدقهم في ما شهدوا به .

وقيل : إن كلمة (هؤلاء) إشارة إلى المكذبين ، والمعنى : أنك تشهد بكفرهم ، كما شهدت الأنبياء عليهم السلام .

روي أن النبي ﷺ قال لابن مسعود : « اقرأ القرآن عليّ » قال : فقلت : يا رسول الله ، أنت الذي علمتني . فقال : « أحب أن أسمع من غيري » قال ابن مسعود : فأفتحت سورة النساء ، فلما انتهيت إلى هذه الآية ، بكى الرسول ﷺ ، قال ابن مسعود : فأمسكت عن القراءة (١) .

وفي حديث ، قال : « فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى امهم ، فأخبروا أنهم قد أدوا ذلك إلى امهم وتسأل الامم فيجحدون ، كما قال الله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) ، فيقولون : ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ فتشهد الرسل رسول الله ﷺ فيشهد بصدق الرسل ، ويكذب من جحدها من الامم ، فيقول لكل أمة منهم : بلى قد ﴿جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) ، أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم ، بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم .

ولذلك قال الله لنبيه ﷺ : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فلا يستطيعون ردّ شهادته خوفا من أن يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون . ويشهد على منافقي (٤) أمته وكفارهم بإلحادهم ، وعنادهم ، ونقضهم عهدهم (٥) ، وتغييرهم سنته « (٦) الخبر .

وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة ، في كل قرن منهم إمام [منا] شاهد عليهم ، ومحمد شاهد علينا » (٧) .

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٥ .

(٢) الأعراف : ٦ / ٧ .

(٣) المائدة : ١٩ / ٥ .

(٤) زاد في الاحتجاج : قومه و .

(٥) في الإحتجاج : عهده .

(٦) الإحتجاج : ٢٤٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٨ .

(٧) الكافي ١ : ١٤٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٨ .

اللَّهُ حَدِيثاً (٤٢)

ثم كآته قيل : ما شدة حالهم التي أشرت إليها بقولك : ﴿فَكَيْفَ﴾ إلى آخره ، فقال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿يُودُّ﴾ ويتمى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوْا الرُّسُولَ﴾ وخالفوا أحكامه ، وعارضوه بالتكذيب ﴿لَوْ تَسَوَّى الْأَرْضُ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ وتنطبق عليهم بعد انشقاقها ، وسقوطهم في بطنها ، بحيث لا يبقى منهم أثر فوقها .

وقيل : إنَّ المراد : يودون أنهم لم يعيشوا ، وأنهم كانوا والأرض سواء ^(١) .

وقيل : يودون أنهم صاروا كالبهائم ترابا ، كما حكى الله أنَّ الكافر يقول يومئذ : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ ^(٢) .

وعن القمى رحمته الله ، قال : يتمى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا [فيه] على غصبه ^(٣) .

﴿وَوَإِذْ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ لعدم قدرتهم على الكتمان بعد ظهور أعمالهم وعقائدهم عند الله ، وثبوت كفرهم وعصيانهم بشهادة الرسل .

عن الصادق عليه السلام ، عن جدّه أمير المؤمنين صلوات الله عليه في خطبة يصف فيها هول يوم القيامة : « ختم على أفواههم ، وتكلمت الأيدي ، وشهدت الأرجل ، ونطقت الجلود بما عملوا ، فلا يكتُمون الله حديثاً » ^(٤) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : يودون لو تنطبق عليهم الأرض ، ولم يكونوا كتموا أمر محمد صلوات الله عليه وآله ، ولا كفروا به ولا نافقوا ^(٥) .

وعن القمى : [يتمى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا فيه على غصبه ، و] أن لم يكتُموا ما قاله رسول الله صلوات الله عليه وآله في علي عليه السلام ^(٦) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنْباَ إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٦ ، والآية من سورة النبأ : ٧٨ / ٤٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٣٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٨ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٩٨ / ٩٧٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٦ .

(٦) تفسير القمي ١ : ١٣٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٨ .

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

ثم لما أمر الله سبحانه الناس بعبادته ، والإحسان إلى الأقارب والضعفاء ، ورغب في ما أمر ، ورهب عن المخالفة ، بين شرائط أهم عباداته ، وهي الصلاة ، بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾ ولا تشتغلوا بها ، وقيل : إن المراد : لا تدخلوا مواضع الصلاة ، وهي المساجد ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ من الخمر ، أو من النوم ^(١) ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا ﴾ وتفهموا ﴿ مَا تَقُولُونَ ﴾ في حال الصلاة .

روي أن جماعة من الصحابة صنع لهم عبد الرحمن بن عوف طعاما وشرابا ، حين كانت الخمرة مباحة ، فأكلوا وشربوا ، فلما ثملوا جاء وقت صلاة المغرب ، فقدموا أحدهم ليصلي بهم ، فقرأ : (أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد) ، فنزلت . فكانوا لا يشربون [في] أوقات الصلاة ، فإذا صلوا العشاء شربوها ، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر ، وعلموا ما يقولون ^(٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنه : نزلت في جماعة من أكابر الصحابة قبل تحريم الخمر وكانوا يشربونها ، ثم يأتون المسجد للصلاة مع رسول الله ﷺ ، فنهاهم الله عنه ^(٣) .

وعن الكاظم عليه السلام : « أن المراد سكر الشراب ، ثم نسخها تحريم الخمر » ^(٤) .
وعن النبي ﷺ : « إذا نعس أحدكم ، وهو في الصلاة ، فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ينعس لعلة يذهب يستغفر فيسب نفسه » ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « لا تقم إلى الصلاة متكاسلا ولا متناعسا ولا متثاقلا ، فإنها من خلال التفاق ، وقد نحى الله أن تقوموا إلى الصلاة وأنتم سكارى » قال : « سكر النوم » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « سكر النوم » ^(٧) .
وعنه عليه السلام ، أنه سئل عن هذه الآية ، قال : « يعني سكر النوم ، يقول : بكم نعاس يمنعكم أن تعلموا ما تقولون في ركوعكم وسجودكم وتكبيركم ، وليس كما يصف كثير من الناس يزعمون أن المؤمنين يسكرون من الشراب ، والمؤمن لا يشرب مسكرا ولا يسكر » ^(٨) .

تحقيق في جميع الأخبار

وقد تصدّى شيخنا البهائي لجمع الأخبار في حاشية (أسرار التنزيل) ، ونقله الفيض عليه السلام في (صافيه) بعين عباراته ، فراجع ^(٩) .

(١) مجمع البيان ٣ : ٨١ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٠٨ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٨٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١١٠ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٣٩٨ / ٩٧٧ ، علل الشرائع : ٣٥٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

(٧) الكافي ٣ : ٣٧١ / ١٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

(٨) تفسير العياشي ١ : ٣٩٩ / ٩٨٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

(٩) تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

والتحقيق والأولى في الجمع أنّ العامة خصّوا الآية بالسّكر من الخمر ، وأنكروا شمولها لسكر النّوم لكونه مجازا. فتلك الأخبار الواردة عن المعصومين ناظرة إلى المنع عن تخصيص الآية بالسّكر من الخمر ، وتعميمها بالدلالة المطابقة أو الالتزامية والفحوى لجميع أحوال عدم إلتفات الإنسان لما يقول ، ولو كان من جهة غلبة النّوم.

ومعنى قوله **عَلَيْهِ** : « نسخها تحريم الخمر » . منع تحريم الخمر عن وجود سكر الخمر للمؤمن ، وانحصار السّكر في السّكر من النّوم. ولعلّ ما ذكرنا كان مراد الشّيخ. ثمّ ذكر سبحانه الشّروط الآخر لصحة الصّلاة ، أو للقرب إلى مكانها ، بقوله : **﴿وَلَا جُنُبًا﴾** في حال من الأحوال **﴿إِلَّا﴾** حال كونكم **﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾** ومجتازين من المسجد **﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾** من الجنابة.

عن الباقر **عَلَيْهِ** ، والقمي عن الصادق **عَلَيْهِ** : « الحائض والجنب لا يدخلان المسجد إلا مجتازين ، فإنّ الله يقول : **﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾** ^(١) .

وقد صحّح إرادة الأركان المخصوصة من **﴿لَا تَقْرَأُوا الصّلاة﴾** بقرينة قوله : **﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾** وإرادة موضع الصّلاة ، وهو المسجد ، بقرينة قوله : **﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾** وهذا الوجه وإن كان خلاف الظاهر إلّا أنّه لا بدّ منه بعد ثبوت إرادة الحكمين من القضيتين بدلالة الروايات المعتمدة.

ثمّ ذكر حكم تعدّد الطّهارة المائيّة بقوله : **﴿وإن كُنْتُمْ﴾** في حال الجنابة **﴿مَرْضَى﴾** يضرّكم استعمال الماء والاعتسال **﴿أَوْ﴾** كنتم **﴿على سَفَرٍ﴾** ومتلبّسين به ، في طريق لا يوجد فيه الماء **﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾** والمكان المنخفض من الأرض ، كتيّ به عن الحدث ، لغلبة وقوعه فيه **﴿أَوْ لَا مَسْتُمْ﴾** وباشرتم **﴿النِّسَاء﴾** بالجماع قبلا أو دبّا ، كما في المستفيض من الأخبار **﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾** بعد الحدث الأصغر أو الأكبر **﴿ماء﴾** كافيا للوضوء أو الغسل ، أو لم تتمكّنوا من استعماله للضرر أو الحرج **﴿فَتَيَمَّمُوا﴾** وتعمّدوا **﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾** وأرضا طاهرة.

في بيان معنى الصّعيد

عن الصادق **عَلَيْهِ** : « الصّعيد : الموضع المرتفع ، والطّيّب : الذي ينحدر منه الماء » ^(٢) . أقول : قال الفاضل المقداد ، في (آيات الأحكام) ، في تفسير الآية : واقصدوا شيئا من وجه الأرض - إلى أن قال - : ولذلك قال أصحابنا : لو ضرب المتيّم يده على حجر صلب ومسح أجزأه ، وبه قال أبو حنيفة ... إلى آخره ^(٣) . وعن الرّجّاج أنّه قال : الصّعيد : وجه الأرض ؛ ترابا [كان] أو غيره ^(٤) ، ولا أعلم خلافا بين أهل اللّغة ^(٥) .

(١) تفسير القمي ١ : ١٣٩ ، تفسير العياشي ١ : ٣٩٩ / ٩٨١ ، علل الشرائع : ٢٨٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤١٩ .

(٢) معاني الأخبار : ٢٨٣ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٠ .

(٣) كنز العرفان ١ : ٢٦ / ٩ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٨٠ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٨٢ .

وقال الفخر الرازي : الصَّعِيد الطَّيِّب : هو الأرض التي لا سبخة فيها ^(١) .
 وقال البيضاوي ، في تفسير الآية : فتعمدوا شيئا من وجه الأرض [طاهرا] ^(٢) .
 والحاصل : أنه لا شبهة في أنَّ لفظ الصَّعِيد في اللغة : مطلق وجه الأرض ، وعليه جلَّ اللُّغَوِيَّين
 وأكثر المفسِّرين ، وأنه قد يستعمل في خصوص التُّراب إما مجازا وإما من باب إطلاق الكلِّي على الفرد.
 وعليه يحمل كلام بعض اللُّغَوِيَّين ممَّن قال إنَّه التُّراب ، لوضوح أن مقصود اللُّغوي بيان مورد
 الاستعمال ، لا خصوص المعنى الموضوع له اللَّفْظ ، ولذا نقل ذلك البعض استعماله في مطلق وجه الأرض
 أيضا ، كما لا ريب أنَّه المراد من قوله تعالى : ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيداً زَلَقاً﴾ ^(٣) ومن قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا
 لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ ^(٤) . وعليه جميع المفسِّرين ، وإنَّما فسَّره بعضهم بالتُّراب في الآية بتوهم
 كون كلمة (منه) في آية المائدة ^(٥) قرينة على إرادة التُّراب منه في الآية ^(٦) . وهو ممنوع للإجماع على جواز
 التَّيَمُّم بالترمل والحجر والمدر وسائر أجزاء الأرض عند فقد التُّراب . وكلمة (منه) - على فرض إرادة
 التَّبَعِيز منها - تدلُّ على اعتبار العلوق ^(٧) ، ولا يلزم منه إرادة التُّراب ^(٨) ، لإمكان كون العلوق من غيره.
 وليس في أغلب أخبار بيان التَّيَمُّم إلَّا لفظ الأرض ، وما في قليل منها من لفظ التُّراب لا مفهوم له
 يوجب تقييد مطلقات لفظ الأرض.

وأما الأخبار الامتنائية ، فما هو الثَّابِت من طريق أصحابنا فهو قوله صلى الله عليه وآله : «
 جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » ^(٩) وأما ما روي من قوله : « جعلت لي الأرض مسجدا ، وترايبها
 طهورا » ^(١٠) فلم تثبت صحَّته ، مع وضوح بطلان مضمونه ، لما ذكرنا من اتِّفاق النَّصوص والفتاوى على
 جواز التَّيَمُّم بغير التُّراب عند فقد ، فالأرض جميعها طهور ، لا خصوص ترايبها ، إنَّما الكلام في الترتيب بينه
 وبين غيره من أجزاء الأرض وعدمه ، نعم لو كان قوله : « وترايبها طهورا » صحيحا من حيث السَّنَد ، أو
 مقبولا عند الأصحاب ، حملناه على صورة وجدانه ، والأخبار المطلقة على صورة فقدانه.

ثم بيَّن سبحانه كيفية التَّيَمُّم بقوله : ﴿فَامْسَحُوا﴾ بباطن كفِّكم ، بعد ضربهما على الأرض مرَّة
 ﴿بِأُجْوهِكُمْ﴾ من قصاص الشَّعر إلى طرف الأنف ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ من الزَّند إلى رؤوس الأصابع ﴿إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ .

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١١٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢١٧ .

(٣) الكهف : ١٨ / ٤٠ .

(٤) الكهف : ١٨ / ٨ .

(٥) المائدة : ٥ / ٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ١١٤ .

(٧) العلوق : ما يعلِّق باليد من التراب وغيره ، بعد الضرب عند التَّيَمُّم .

(٨) زاد في النسخة : منه .

(٩) أمالي الطوسي : ٥٧ / ٨١ .

(١٠) تفسير الرازي ١٠ : ١١٤ .

قيل : هذا التذليل إشارة إلى أنه تعالى إذا كان مسهلاً على العصاة بالعفو والغفران ، كان بالتسهيل على المطيعين في أحكامه وأوامره أولى ^(١) .

عن الصادق عليه السلام في كيفية التيمم : فضرب بيديه على الأرض ، ثم رفعهما فنفضهما ، ثم مسح على جبينه وكفيه مرة واحدة ^(٢) .

وفي رواية أخرى : ثم مسح كفيه إحداهما على ظهر الأخرى ^(٣) .

وفي رواية ثالثة : ولم يمسح الذراعين بشيء ^(٤) .

أقول : لا شبهة في كفاية المسح على الجبين وظهر الكفين مع تقديم مسح ظهر الكف اليمنى بباطن اليسرى ، وعدم وجوب مسح تمام الوجه والذراعين كما يفعله بعض العامة ^(٥) ، بل لا ريب في حرمة بقصد المشروع ، إنما الإشكال في كفاية الضرب الواحد للوجه واليدين مطلقاً ، أو وجوب الضربتين ، إحداهما للوجه والأخرى لليدين مطلقاً ، أو الضرب الواحد في ما هو بدل عن الوضوء ، والضربتان في ما هو بدل عن الغسل . ومنشأ الإشكال اختلاف الأخبار .

والأظهر في الجمع هو الاجتزاء بالضرب الواحد مطلقاً ، واستحباب الزيادة ، والأفضل مرتان للوجه ومرتان لليدين مطلقاً ، ودونه في الفضل مرتان للوجه ومرة لليدين ، ودونه مرة للوجه ومرة لليدين ، وتأكد في ما هو بدل عن الغسل ، فنزل الزيادة في الضرب منزلة الإسباغ في الوضوء .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٤٤)

ثم - لما ذكر سبحانه من أول السورة إلى هنا كثيراً من حقوق الناس من الأرحام والأيتام والأزواج والسفهاء والأبوين والكلالة ، وسائر الناس من المساكين والجار والصاحب والمماليك وغيرهم ، والترغيب في الطاعة والترهيب في المخالفة ببيان فيه غاية الإعجاز ، ومع ذلك كان أهل الكتاب الذين هم أهل العلم مصرين على الكفر والضلال - أظهر سبحانه وتعالى التعجب من ضلالهم بعد وضوح آيات صدق النبي ، وصحة دين الإسلام ، بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى﴾ اليهود ﴿الَّذِينَ أُوتُوا﴾

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١١٤ .

(٢) الكافي ٣ : ٦١ / ١ ، والتهذيب ١ : ٢٠٧ / ٦٠١ ، عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ١ : ٤٢١ .

(٣) الكافي ٣ : ٦٢ / ٣ ، التهذيب ١ : ٢٠٧ / ٦٠٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢١ .

(٤) التهذيب ١ : ٢٠٨ / ٦٠٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢١ .

(٥) راجع : تفسير الرازي ١٠ : ١١٤ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٨١ .

نَصِيًّا وحظا قليلا **﴿مَنْ﴾** علم **﴿الْكِتَابِ﴾** الذي انزل إليهم ، وهم مع ذلك **﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَهَ﴾** لأنفسهم بعوض الهداية التي جاءتهم من الله وبواسطتك ، بل الأعجب من ذلك أنهم لا يقنعون بضلالة أنفسهم **﴿وَيُرِيدُونَ﴾** أيها المؤمنون بكتمان نعوت محمد ﷺ وإلقاء الشبهات والحيل والتسويات **﴿أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾** المستقيم ، وترجعوا عن الحق ، وتكفروا بدين الإسلام.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه : أنها نزلت في حبرين من أحبار اليهود كانا يأتیان رؤس المنافقين عبد الله بن ابي ورهطه يثبطانهم ^(١) عن الإسلام ^(٢) .

وقيل : إن المراد من الذين يشترون الضلالة : عوام اليهود ، فإنهم كانوا يعطون علماءهم بعض أموالهم ، ويطلبون منهم أن ينصروا اليهودية ويتعصبوا لها ، فهم بمنزلة من يشتري الضلالة بماله ^(٣) .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)﴾

ثم نبه الله المؤمنين بعداوتهم ، بقوله : **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾** جميعا منكم ، بل أنتم لا تعلمون بهم ، فتوالون اليهود الذين هم أعدى عدوكم ، وتتوقعون منهم أن ينصروكم **﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾** لكم **﴿وَلِيًّا﴾** وكافلا لكافة امورك ، ومجبا **﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾** لكم **﴿نَصِيرًا﴾** ومعينا في دفع أعدائكم ، فلا تحتاجون إلى ولي وناصر غيره ، فتوكلوا عليه ولا تبالوا بعداوة غيره.

**﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾**

ثم بين الله سبحانه كيفية إضلالهم ، وشدة عداوتهم للرسول ﷺ ودينه ، بقوله : **﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾** قوم **﴿يُحَرِّفُونَ﴾** ويميلون **﴿الْكَلِمَ﴾** الذي وضعه الله في التوراة **﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾** التي وضعه فيها إلى غير تلك المواضع.

قيل : إن تحريفهم كان بإزالة الكلم عن مواضعه ، وإثبات غيره مكانه ^(٤) .

وقيل : إنه كان بتأويلها إلى المعاني الفاسدة ^(٥) .

(١) في النسخة : ليبطوهم.

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١١٥ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٨١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢١٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١١٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ١١٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١١٨ .

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرهم الرسول بأمر ﴿سَمِعْنَا﴾ أمره ﴿وَعَصَيْنَا﴾ هـ استحقاراً به ، وإظهاراً لمخالفتاه ، ﴿وُ﴾ يقولون : ﴿اسْمَعْ﴾ كلامنا يا محمد ، حال كونك ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ كلاماً ترضاه .
وقيل : إن معناه : غير مجاب إلى ما تدعو إليه ^(١) .

وقيل : إنه دعاء عليه بالصمم ، أو الموت ^(٢) .
ويقولون : ﴿رَاعِنَا﴾ حين مخاطبتهم النبي ﷺ ﴿لَيَّا﴾ وفتلاً ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ قيل : إنهم كانوا يفتلون أشداقهم وألسنتهم عند ذكر هذا الكلام استهزاء وسخرية ^(٣) ﴿وَطَعْنًا﴾ منهم ﴿فِي الدِّينِ﴾ وقدحاً منهم في الرسول .

قيل : كانوا يلوون ألسنتهم حتى يصير قولهم (راعنا) (راعينا) وكانوا يريدون : إنك ترعى أغنامنا ^(٤) .

كانوا يقولون لأصحابهم : إنا نشتمه ولا يعرف ، ولو كان نبياً لعرف ذلك ، فأظهره الله تعالى لنبيه وعرفه ، فصار ما فعلوه طعناً في نبوته دليلاً قاطعاً عليها ؛ لأن الإخبار بالغيب معجزة عظيمة .
ثم وبخهم الله على ما قالوا بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا﴾ عند استماع أوامر الله ورسوله ، بدل قولهم : سمعنا وعصينا : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أمر الرسول تعظيماً له وإظهاراً لطاعته ، ﴿وُ﴾ يقولون : ﴿اسْمَعْ﴾ ولا يلحقون به كلمة (غير مسمع) ، ﴿وُ﴾ يقولون : ﴿انْظُرْنَا﴾ حتى نفهم كلامك ، بدل قولهم (راعنا) ، ولم يدسوا تحت كلامهم شراً وسوءاً ، والله ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة مما قالوا ، ﴿وُ﴾ كان ﴿أَقْوَمَ﴾ وأعدل عند العقل ﴿وَلَكِنْ﴾ لأجل أنه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وخذلهم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ عمت قلوبهم ، وبعادوا عن الهدى ، وتمرنوا في الضلال وجحود الحق ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وآياته ورسوله ﴿إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلًا﴾ لا يعبأ به ، وهو إيمانهم ببعض الآيات والرسول ، أو إيمانهم باللسان دون القلب ، أو إلا فريقاً قليلاً ، كعبد الله بن سلام وأضرابه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧)

ثم لما ذكر سبحانه شدة عناد اليهود وسوء فعالهم وأقوالهم ، باشر بذاته المقدسة دعوتهم إلى الإيمان بمحمد وبكتابه ، وخاطبهم بما فيه استمالة قلوبهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من قبل الله

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١١٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٨٣ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٠ : ١١٩ .

﴿الْكِتَابِ﴾ المسمى بالتوراة ، وعلموا ما فيه من الأخبار بنبوّة محمد ﷺ وكتابه ﴿آمَنُوا﴾ بالقلب واللسان ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن الذي يشهد بصدقه كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة وغيرها من الكتاب السماواة التي فيها نعت هذا الكتاب ، ولو لم يكن القرآن لم تكن أخبار سائر الكتاب به صدقا ، وكونه موافقا لها في القصص ، والدعوة إلى التوحيد ، والوعد والوعيد ، وسارعوا إلى الإيمان به ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ﴾ ونغير ﴿وُجُوهًا﴾ كائنة للمصرين على الكفر من الصورة الإنسانية إلى صورة الحيوانات في الآخرة وقيل : إن المراد من تغييرها : محو آثار الصورة من العين والأنف والحاجب ، وجعلها كخف البعير وحافر الدابة ، كما عن ابن عباس رضى الله عنه ^(١) ﴿فَنَرُدُّهَا عَلَى أَذْبَارِهَا﴾ وأقفيتهما. وقيل : إن المراد : نجعلها مطموسة على هيئتها ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « أن المعنى نطمسها عن الهدى فنردها في ^(٣) أذبارها ، أي في ضلالتها... » ^(٤) .
﴿أَوْ﴾ من قبل أن ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ ونخزيهم بالمسخ في الدنيا ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ ومسحنا ﴿أَصْحَابِ السَّبْتِ﴾ في زمان داود بصورة القردة والخنازير.

ثم أكد سبحانه التهديد بالإخبار بتحتم العذاب الموعود ، بقوله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعقابه الموعود على ترك الإيمان برسوله وكتابه ﴿مَفْعُولًا﴾ لا محالة ، وو اقعا ألبتة لا يدافعه شيء.
قيل : لما نزلت الآية أتى عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ قبل أن يأتي أهله ، فأسلم وقال : يا رسول الله ، كنت أرى أن لا أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفائي ^(٥) .
قيل : إن المراد بالطمس ورد الوجوه في الدنيا ، وإنما لم يقع لأنه كان مشروطا بعدم إيمان أحد منهم ، وقد آمن عبد الله بن سلام وكثير من الأخبار ^(٦) .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾

ثم أشار سبحانه إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ملتهم الشرك ، ويتحتم العذاب على المشركين ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أبدا إذا لم يتب المشرك من شركه ومات عليه ، لعدم قابليته للغفران واقتضاء الحكمة سد باب الشرك والكفر ، واحتمال العفو عنه موجب لفتحه.

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ١٨٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ١٨٥ .

(٣) في مجمع البيان : على .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٨٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٢٢ ، تفسير أبي السعود ٢ : ١٨٦ .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ١٨٦ .

ثم بشر بسعة رحمته بقوله : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ في القبح من المعاصي بفضلته وإن كانت كبيرة ، ولكن لا لكل أحد ، بل ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له.

في (الفقيه) : أنه عليه السلام سئل : هل تدخل الكبائر في مشيئة الله ؟ قال : « نعم ، ذلك إليه عز وجل إن شاء عذب عليها ، وإن شاء عفا عنها » (١) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث - قال : « من قال : لا إله إلا الله بإخلاص ، فهو بريء من الشرك ، ومن خرج من الدنيا لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة - ثم تلا هذه الآية - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من شيعتك ومحبيك يا علي » قال أمير المؤمنين عليه السلام : « فقلت : يا رسول الله ، هذا لشيعتي ؟ قال : إي وري ، إنه لشيعتك » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن أدنى ما يكون الإنسان مشركا ، قال : « من ابتدع رأيا فأحب عليه أو أبغض » (٣) .

وعن الباقر عليه السلام : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يعني لا يغفر لمن يكفر بولاية علي ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني لمن والى عليا » (٤) .

ثم أشار سبحانه إلى علة عدم مغفرة الشرك بقوله : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئا من صنم أو غيره ﴿فَقَدْ افْتَرَى﴾ واقترب ﴿إِنَّمَا عَظِيمًا﴾ يستحقر دونه الآثام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ

فَتِيلًا (٤٩)﴾

ثم لما كانت اليهود مع سوء أخلاقكم وأعمالهم مبالغين في تزكية أنفسهم بادعائهم أنهم أبناء الأنبياء وأحباء الله ، وأن الله لا يعذبهم بذنوبهم ، أظهر سبحانه التعجب مما كان يصدر منهم من القول الباطل ، مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى﴾ هؤلاء اليهود ﴿الَّذِينَ يُزَكُّونَ﴾ ويمدحون ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بالطهارة من الذنوب ، وقرهم إلى الله ، وأولويتهم بالنبوة والرسالة ، والحال أنهم مشركون ملعونون عند الله ، مع أنه ليس لأحد تزكية نفسه ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ المطلع على ضمائر العباد ﴿يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ تزكيته ، فإنه عالم بتقوى النفوس وكمالها ، كما قال : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

(١) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٧٦ / ١٧٨٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٣ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٩٥ / ٨٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٠٣ / ٩٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٤ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٤٠٣ / ٩٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٤ .

بِمَنْ أَنْتَی^(١) فيجزئهم ما يستحقونه من الجزاء ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالعقاب أو بتنقيص الثواب ﴿فَتِيلًا﴾ وقدرا قليلا.

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)﴾

ثم أشار سبحانه إلى وجه التعجب بقوله : ﴿انْظُرْ﴾ إلى هؤلاء المزيّن لأنفسهم ﴿كَيْفَ﴾ يجترئون و﴿يَفْتَرُونَ﴾ بدعاويهم الباطلة ، من قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وإنا لا نعذب في الآخرة ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويجاهرون بهذا الافتراء ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ وذنبا ظاهرا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ

وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾

ثم بالغ سبحانه في ذمهم بما هو أقبح من الافتراء بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا﴾ وحظا ﴿مِنْ﴾ علم ﴿الْكِتَابِ﴾ وآيات التوراة ، حتى تتعجب من خبث ذاتهم ، وقبح فعالهم ، أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ويعبدون الأصنام عنادا لدين الإسلام ، وتعصبا لدين اليهودية. روي أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشا على محاربة رسول الله ﷺ ، فقالوا : أنتم أهل الكتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكرهم ، فاسجدوا لآلهتنا حتى تطمئن قلوبنا ، ففعلوا ذلك ، فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت ؛ لأنهم سجدوا للأصنام^(٢) .

عن الباقر عليه السلام : « الجبت والطاغوت : فلان وفلان »^(٣) .

﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ولتطيب قلوبهم : ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركون ﴿أَهْدَى﴾ وأرشد ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﴿سَبِيلًا﴾ وأحسن ديننا.

روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف : أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقال كعب : ما يقول محمد ؟ قال : يأمر بعبادة الله وحده ، وينهى عن عبادة الأصنام وترك دين آبائه ، وأوقع الفرقة ؛ قال : وما دينكم ؟ قال : نحن ولا ة البيت ، نسقي الحاج ، ونقري الضيف ، ونفك العاني^(٤) ، وذكر أفعالهم ، فقال : أنتم أهدى سبيلا^(٥) .

(١) النجم : ٥٣ / ٣٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٢٨ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٠٣ / ٩٩٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٤ .

(٤) العاني : هو الأسير .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٢٨ .

عن القمي ، قال : نزلت في اليهود حين سألهم مشركو العرب : أديننا أفضل أم دين محمد ؟ قالوا : بل دينكم أفضل ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « يقولون لأئمة الضلال والدعاة إلى النار : هؤلاء أهدى من آل محمد » ^(٢) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢)﴾

ثم هددهم الله تعالى بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون بالجبوت والطاغوت ، القائلون بهذا القول السيئ ، هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم عن رحمته ، وحذلهم في الدنيا ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ ويحذله ويخزيه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ ومحاميا يدافع عنه العذاب في الدنيا والآخرة ، فلا ينالون مطلوبهم من نصره قريش وغيرهم .

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣)﴾

ثم لما كانوا مدعين أن الملك والسلطنة لا بد من أن تكون فيهم ، وتعود إليهم ، أبطل الله هذه الدعوى ، وأنكر عليهم هذا الزعم بقوله : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وحظ ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ والسلطنة أو النبوة ، فإن ذلك لا يكون أبدا ؛ لأنهم أبخل الناس ، فإن ملكوا ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ ومقدار النقطة التي تكون في وسط النواة ، ومن المعلوم أن البخل والسلطنة لا يجتمعان ، لأن بالبر يستبعد الحر .

عن الباقر عليه السلام : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ يعني الإمامة والخلافة . - قال - : ونحن الناس الذين عنى الله « ^(٣) .

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤)﴾

ثم لما لم تكن عداوتهم للنبي ودينه ، وسعيهم في إبطال أمره ، لاعتقادهم بصحة دينهم وبطلان دين الإسلام ، بل كان لغاية حسدهم ، ذمهم الله بالحسد بعد ذمهم بالجهل والعصية والبخل ، وأنكر عليهم ذلك الخلق الرذيل ، بقوله : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من النبوة والكتاب ، ووجوب الطاعة ، والعز والنصرة على الأعداء ، وغير ذلك من الكرامات التي كلها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى عليهم ، لكمال وجودهم ، وحسن فطرهم ، ونورانية طبيعتهم .

(١) تفسير القمي ١ : ١٤٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٤ .

(٢) الكافي ١ : ١٥٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٥ .

(٣) الكافي ١ : ١٥٩ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٥ .

وليس هذه التفضلات من الله على عباده المخلصين بدعا بلا نظير حتى تستبعدوها ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ قبل محمد ﷺ ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأولاده المعصومين الذين هم أسلاف محمد ﷺ وبنو أعمامه ﴿الْكِتَابَ﴾ السماوي ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ التي تلازم النبوة ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ﴾ مضافا إلى ذلك ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره ، فاستكملوا بكمال العلم والقدرة ، فإذا لم يكن اجتماع تلك التفضلات في آل إبراهيم مستبعدا ، لم يكن في محمد ﷺ مستبعدا.

عن الصادق عليه السلام : « الكتاب : النبوة ، والحكمة : الفهم والقضاء ، والملك العظيم : الطاعة المفروضة » ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « الملك العظيم : أن جعل فيهم أئمة ، من أطاعهم أطاع الله ، ومن عصاهم عصى الله ، فهو الملك العظيم » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « يعني جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمة ، فكيف يقرّونه في آل إبراهيم ، وينكرونه في آل محمد ؟ ! » ^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليه السلام ^(٤) .

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾

ثم لما ذم اليهود بالحسد وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ، نبه على براءة بعضهم من هذه الرذيلة ، ودخول بعضهم في الإيمان ، وعدم شمول الذم لجميعهم ، بقوله : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ كعبد الله بن سلام ، وبعض من الأخبار ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وأعرض عن دين محمد ﷺ ولم يؤمن به .
وقيل : إن المراد أن بعض أولاد إبراهيم آمن به ، وبعضهم كفر به ^(٥) ، ولم يكن في كفرهم به توهين أمره ، فكذا لا يوهن أمرك كفر هؤلاء .

ثم بين وخامة عاقبة أمر المعرضين بقوله : ﴿وَكَفَىٰ﴾ في عقوبتهم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ حال كونها ﴿سَعِيرًا﴾ ووقودا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)﴾

(١) تفسير القمي ١ : ١٤٠ ، الكافي ١ : ١٦٠ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٥ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٤٠٥ / ١٠٠١ ، الكافي ١ : ١٦٠ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٦ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٠٤ / ٩٩٦ ، الكافي ١ : ١٦٠ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ١٩٠ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ١٩١ .

ثم بالغ سبحانه في الوعيد وعممه لجميع الكفار ؛ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يؤمنوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وبراھیننا الدالة على التوحيد ، و رسالة رسلنا ، واليوم الآخر ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ وندخلهم ﴿نَاراً﴾ ثم كأنه قيل : كيف ييقون فيها ؟ فقال : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ واحترقت ﴿جُلُودُهُمْ﴾ بالنار ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ وألبسناهم بالقدرة الكاملة ﴿جُلُوداً﴾ جديدة حاسّة ، تكون عين الجلود المنضوجة مادة ، و ﴿غَيْرَهَا﴾ صورة ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الشدید ، ويدركوا ألمه .

ثم لما كان مجال توهم عدم إمكان بقاء جسد الإنسان في النار أبد الآباد ، وعدم لياقة العذاب الشدید الدائم بسعة رحمة الرحيم ، سدّ الله تعالى باب المتوهمين بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً﴾ وقادراً ﴿حَكِماً﴾ لا يصدر منه إلّا الصواب ، ولا يضع شيئاً إلّا في موضعه .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٥٧)

ثم أنّه تعالى ؛ على حسب دأبه في الكتاب العزيز ، أرفد الوعد بالوعيد بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا موت لهم ولا زوال نعمة ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الأدناس ، منزّهة من الأخلاق الذميمة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا﴾ دائماً ﴿ظَلِيلًا﴾ لا حرّ فيه . قيل : هو كناية عن النعمة التامة الدائمة ^(١) ، وقيل : كناية عن الراحة الأبدية ^(٢) .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (٥٨)

ثم عاد سبحانه إلى بيان حقوق الناس التي من أهمها ردّ الأمانات ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ، ويوجب عليكم ﴿أَنْ تُؤَدُّوا﴾ وتوصلوا ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ والودائع الكائنة عندهم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وأصحابها .

روي أنّ رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان بن طلحة بن عبد الدار - وكان سادن الكعبة - باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : لو علمت أنّه رسول الله لم أمنعه ، فلوى عليّ بن أبي طالب عليه السلام يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين ،

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٢٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٣٧ .

فلما خرج سألَه العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السّقاء والسّدانة ، فنزلت هذه الآية .
فأمر عليّاً عليه السلام أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعليّ عليه السلام : أكرهت وآذيت ، ثم جئت ترفق ، فقال : « لقد أنزل الله في شأنك قرآنا » ، وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمّدا رسول الله ، فهبط جبرئيل عليه السلام وأخبر الرسول أنّ السّدانة في أولاد عثمان ^(١) .
وفي روايات عديدة : « لا تنظروا إلى طول ركوع الرّجل وسجوده ، فإنّ ذلك شيء اعتاده ، فلو تركه استوحش لذلك ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته » ^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « أنّ ضارب عليّ بالسّيف وقاتله ، لو ائتمني واستنصحتني واستشارني ، ثمّ قبلت ذلك منه ، لأدّيت إليه الأمانة » ^(٣) .
وعن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « إيّانا عني ، أن يؤدّي الإمام الأوّل إلى الذي بعده العلم والكتب والسّلاح » ^(٤) .
وفي رواية : « ثمّ هي جارية في سائر الأمانات » ^(٥) .
ثمّ أنّه تعالى بعدما أمر كلّ أحد بردّ ما عنده من حقوق النّاس وأمواهم ، أمر المؤمنين بأن يحكموا على الغير بردّ أموال النّاس وحقوقهم ، بقوله : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عند تنازعهم في الأموال والحقوق ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾ بينهم ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والإنصاف ، وتأدية حقّ المستحقّ إليه .
عن النّبي ﷺ : « لا تزال هذه الامّة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت ، وإذا استرحمت رحمت » ^(٦) .
ثمّ أنّه تعالى لوضوح موافقة هذين الحكمين للعقول مدحهما بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ وما أحسن ما رغبكم فيه من ردّ الأمانات والحكم بالعدل ! فاعملوا بما أمركم الله ، واتّعظوا بما وعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيراً﴾ بأعمالكم ، يسمع حكمكم بالعدل والجور ، ويبصر ردّكم للأمانات وخيانتكم فيها ، فيجازيكم بما تستحقّون .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٣٨ .

(٢) الكافي ٢ : ٥١ / ١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٧ .

(٣) الكافي ٥ : ١٣٣ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٧ .

(٤) الكافي ١ : ٢١٧ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٧ .

(٥) معاني الأخبار : ١٠٨ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ١٤١ .

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

ثم أكد الأمر بأداء الأمانات ، وأوجب الرجوع في المنازعات إلى حكم الرسول ﷺ وخلفائه المعصومين عليه السلام ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع ما يبلغكم عنه ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ والأئمة الذين فرض الله طاعتهم عليكم في جميع أحكامهم. عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : لما نزلت الآية قلت : يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟

فقال ﷺ : « هم خلفائي يا جابر ، وأئمة المسلمين من بعدي ؛ أولهم علي بن أبي طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي ، المعروف في التوراة بالباقر ، وستدركه يا جابر ، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام ، ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سمّي محمد وكنّي ؛ حجة الله في أرضه ، وبقية على عباده ، ابن الحسن بن علي ، ذاك الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، وذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت [فيها] على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان » .

قال جابر : فقلت : يا رسول الله ، فهل لشيعته الانتفاع به في غيبته ؟

فقال : « إي والذي بعثني بالنبوة ، إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلّاها سحاب. يا جابر ، هذا من مكنون سرّ الله ، ومخزون علم الله ، فاكتمه إلا عن أهله»^(١) .

في دلالة الآية على عصمة أولي الأمر عليه السلام

وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية ، قال : « نزلت في علي بن أبي طالب ، والحسن ، والحسين » .

ف قيل : إنّ الناس يقولون : فما له لم يسمّ عليّاً وأهل بيته في كتابه ؟

فقال : « فقولوا لهم نزلت الصلاة ، ولم يسمّ [الله] لهم ثلاثاً ولا أربعاً ، حتّى كان رسول الله

ﷺ [هو الذي] فسّر ذلك لهم. ونزلت عليه الزكاة ، ولم يسمّ لهم من كلّ أربعين درهما درهم ، حتّى كان رسول الله ﷺ [هو الذي] فسّر ذلك لهم ، ونزل الحجّ ، فلم يقل لهم : طوفوا اسبوعاً ، حتّى كان رسول الله هو الذي فسّر ذلك لهم.

ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ونزلت في عليّ والحسن والحسين ،

(١) إكمال الدين : ٢٥٣ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٩ .

فقال رسول الله ﷺ [في علي] : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، وقال : اوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي ، فإنّي سألت الله أن لا يفرّق بينهما حتّى يوردهما عليّ الحوض ، فأعطاني ذلك ، وقال : لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم ، وقال : إنّهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة .

فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبيّن من أهل بيته ، لا دعاها آل فلان ، وآل فلان ، ولكنّ [الله] أنزل في كتابه تصديقا لنبيّه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١) فكان عليّ والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء ، في بيت أم سلمة ، فقال : اللهم إنّ لكلّ نبيّ أهلا وثقلا ، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي ، فقالت أم سلمة : أأنت من أهلك ؟ فقال : إنّك إلى خير ، ولكنّ هؤلاء أهلي وثقلي »^(٢) الحديث .

وعن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عمّا بنيت عليه دعائم الإسلام ؛ إذا اخذ بها زكا العمل ، ولم يضرّ جهل من جهل بعده ؟ فقال : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمّدا رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وحقّ في الأموال الرّكاة ، والولاية التي أمر الله بها ولاية آل محمّد ، فإنّ رسول الله ﷺ قال : من مات ولا يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية ، قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فكان عليّ ، ثمّ صار من بعده الحسن ، ثمّ من بعده الحسين ، ثمّ من بعده عليّ بن الحسين ، ثمّ من بعده محمّد بن عليّ ، ثمّ هكذا يكون الأمر ، إنّ الأرض لا تصلح إلّا بإمام »^(٣) الحديث .

في استدلال الفخر على دلالة الآية على حجّة الاجماع

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير : اعلم أنّ قوله تعالى : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ يدلّ على أنّ إجماع الامة حجّة ، والدليل على ذلك أنّ الله أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بدّ وأن يكون معصوما عن الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته ، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ ، والخطأ لكونه خطأ منهّي عنه ، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والتهني في الفعل الواحد باعتبار واحد وإنّه محال ، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم ، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ ، فثبت قطعا أنّ اولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بدّ وأن يكون معصوما .

ثمّ نقول : ذلك المعصوم إمّا مجموع الامة أو بعض الامة ، لا جائز أن يكون بعض الامة ، لأنّا بيّنا أنّ الله أوجب طاعة اولي الأمر في هذه الآية قطعا ، وإيجاب طاعتهم قطعا مشروط بكوننا عارفين بهم ،

(١) الأحزاب : ٣٣ / ٣٣ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٤٠٨ / ١٠١٢ ، الكافي ١ : ٢٢٦ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٨ .

(٣) الكافي ٢ : ١٨ / ٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٢٨ .

قادرين على الوصول إليهم ، والاستفادة منهم ، ونحن نعلم بالضرورة أننا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم ، عاجزون عن الوصول إليهم ، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم ، فإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة ، ولا طائفة من طوائفهم ، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله : ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ أهل الحل والعقد من الأمة ، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة ^(١) .

أقول : لم يثبت عصمة مجموع الأمة عن الخطأ لعدم الدليل على ذلك ، والدليل المذكور كما لا يثبت عصمة بعض الأمة ، لا يثبت عصمة مجموع الأمة. نعم ، لو علمنا وأثبتنا إرادة بعض من لا نعرفه ، كان اتفاق مجموع الأمة حجة ، لوجود ذلك البعض المجهول فيهم ، كما هو الوجه في حجية الإجماع على قول بعض أصحابنا.

والحاصل : أنّ لفظ (أولي الأمر) ليس موضوعا لأهل الحل والعقد ، ولا ظاهرا فيه ، فيكون من الجمل ، ولا بدّ لتعيين المراد منه من دليل ، وقرينة لزوم اجتماع الأمر والنهي على تقدير كونهم غير معصومين ، يدلّ على لزوم كونهم معصومين ، فإذا دلّ دليل على إرادة بعض معيّن أو مجموع الأمة ، نقول - بهذه القرينة - بعصمتهم.

فكما أنّ إرادة بعض معيّن محتاج إلى الدليل ، [فإنّ] إرادة مجموع أهل الحل والعقد أيضا محتاج إلى الدليل ، فكما لا يعلم بعصمة بعض معيّن ، لا نعلم بعصمة الكلّ ، مع إمكان اتفاقهم على الباطل ، كما وقع الاتفاق من بني إسرائيل على عبادة العجل.

نعم ، يمكن القول بأنّه المتيقّن حيث إنّ المجموع إمّا هم المعصومون ، أو المعصوم يكون فيهم ، فلا بدّ من اتّباع قولهم ، ولكنّ ليس هذا تعيين معنى اللفظ والمراد منه.

في نقل كلام الفخر الرازي وتزييفه

ثمّ اعترض على نفسه بأنّ المفسّرين ذكروا في (أولي الأمر) وجوها آخر سوى ما ذكر :

أحدها : أنّ المراد من (أولي الأمر) الخلفاء الراشدون.

والثاني : المراد : امراء السّرايا.

قال سعيد بن جبیر : نزلت هذه الآية في عبد الله بن حذافة السّهمي ، إذ بعثه النبي ﷺ أميراً

على سرية.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّها نزلت في خالد بن الوليد ، بعثه النبي ﷺ أميراً على سرية فيها

عمر بن

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٤٤ .

ياسر ، فجرى بينهما اختلاف في شيء ، فنزلت هذه الآية ، وأمر بطاعة أولي الأمر .
 وثالثها : المراد : العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ، ويعلمون الناس دينهم . وهذه رواية
 الثعلبي عن ابن عباس ، وقول الحسن ومجاهد والضحاك .
 ورابعها : نقل عن الروافض أن المراد به الأئمة المعصومون .
 ولما كانت أقوال الأئمة في تفسير هذه الآية محصورة في هذه الوجوه ، وكان القول الذي نصرتموه
 خارجا عنها ، كان ذلك بإجماع الأئمة باطلا (١) .
 ثم أجاب عن الاعتراض بإبطال الأقوال ، إلى أن قال : وأما حمل الآية على الأئمة المعصومين ، على
 ما تقوله الروافض ، ففي غاية البعد لوجوه :
 أحدها : ما ذكرنا من أن طاعتهم مشروطة بمعرفتهم وقدرة الوصول إليهم ، فلو أوجب علينا
 طاعتهم قبل معرفتهم كان هذا تكليفا بما لا يطاق ، ولو أوجب علينا طاعتهم إذا صرنا عارفين بهم
 وبمذاهبهم ، صار هذا الإيجاب مشروطا ، وظاهر قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ
 مِنْكُمْ ﴾ يقتضي الإطلاق .
 وأيضا ففي الآية ما يدفع هذا الاحتمال ، وذلك لأنه تعالى أمر بطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر في
 لفظة واحدة [وهو قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾] واللفظة الواحدة لا يجوز أن
 تكون مطلقة ومشروطة [معا ، فلمّا كانت هذه اللفظة مطلقة في حق الرسول ، وجب أن تكون مطلقة في
 حق أولي الأمر .
 الثاني : أنه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر ، واولوا الأمر جمع ، وعندهم لا يكون في الزمان الواحد إلا
 إمام واحد ، وحمل الجمع على المفرد خلاف الظاهر .
 الثالث : أنه قال : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ولو كان المراد بأولي الأمر
 الإمام المعصوم لوجب أن يقال : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الإمام) فثبت أن الحق تفسير الآية بما
 ذكرنا (٢) . انتهى كلامه بطوله الممل الذي لا يمكن التطويل في العبارة أزيد منه .
 ثم أقول : حاصل ما ذكرنا سابقا في رده : أن وجوب كون أولي الأمر معصومين من الخطأ حق لا
 محيص عنه ، كما روي : « أنه لا طاعة لمن عصى الله ، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر ، إنما أمر الله
 بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر ، لا يأمر بمعصيته ، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٤٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٤٦ .

مطهرون ، لا يأمرهم بمعصيته » (١) .

وأما حمل الآية على إرادة الإجماع ، فهو فرع ثبوت كون مجموع المجمعين - من حيث المجموع - معصومين ، وإن كان كل واحد واحد غير معصوم ؛ وهو محتاج إلى الدليل القاطع على عصمتهم ، كما احتاج عصمة كل واحد إليه ، مع أن المراد من إجماع الأمة - إن كان - إجماع جميعهم ، فهو مما لا يمكن الاطلاع عليه ؛ لأن النساء وأهل البوادي والجبالي والذين هم في بلاد الكفر من المسلمين كلهم من الأمة . وإن أراد طائفة خاصة منهم ، وهي أهل الحل والعقد ، كما هو صريح قوله : (من أهل الحل والعقد) ، فمع أنه مناف لقوله : (ولا جائز أن يكون المراد بعض الأمة) ، فإنه مجمل ، لا يعلم المراد منه هل هو المهاجرون ، أو جميع الصحابة ، أو جميع العلماء ؟

وعلى أي تقدير ، علمنا برأي جميعهم ، بحيث نقطع بقول كل فرد فرد منهم أيضا تمتنع عادة ألبتة ؛ لأنه لم ينقل عن غالبهم رأي في الأحكام الشرعية ، والمصنفين أو المشهورين في العلم والفتوى منهم في غاية القلة ، [و] أن الظاهر من (أولى الأمر) هو العموم الفردي لا المجموعي .

ولا يطلق (ذو أمر) على أحد إلا إذا كان أمره واجب الإطاعة عقلا أو شرعا - مع قطع النظر عن الآية المباركة - في جميع الأمور ؛ من العبادات ، والمعاملات ، والسياسات ، والكليات ، والجزئيات ، ويكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ كالرسول الذي قال الله تعالى في شأنه : ﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٢) ، وهو ليس إلا المعصوم الذي يجب عقلا وشرعا طاعته ، واتباع أمره . وأما قوله : إنا عاجزون عن معرفته ، عاجزون عن الوصول إليه ، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منه .

ففيه : أن العجز المدعى - مع وجود الأدلة القاطعة على تعيينه وتعريفه - ليس إلا كعجز أبي جهل وأضرابه عن معرفة الرسول ﷺ الحاصل بسبب طبع القلب ، وغشاوة العصبية على السمع والبصر ، وكعجز غير المعاندين من الكفار الحاصل بسبب عدم النظر في الأدلة والآيات . ومن البديهي أن هذا العجز لا يكون عذرا عند العقل والشرع .

في رد ما قاله الفخر

والحاصل : أن الأدلة الدالة على إمامة علي عليه السلام ، وأحد عشر من ذريته ليست أقل عددا ، وأخفى دلالة من الأدلة الدالة على رسالة خاتم النبيين ﷺ ، وحال منكرها ليس إلا كحال منكري التوحيد والرسالة ، وهم أكثر الناس ، كما أن منكري الولاية أكثر

(١) الخصال : ١٣٩ / ١٥٨ ، علل الشرائع : ١٢٣ / ١ ، تفسير الصافي : ١ : ٤٢٩ .

(٢) الحشر : ٥٩ / ٧ .

المسلمين.

وأما الوجه الأول الذي ذكره - ردًا على قول أصحابنا - من أنّ وجوب طاعة المعصوم مشروط بمعرفته ، والوجوب في الآية مطلق.

ففيه : أنّ المعرفة شرط عقليّ لتنجّز التكليف ، لا شرط شرعيّ موجب لتقييد التكليف بإطاعة أولي الأمر ؛ كتقييد وجوب الحجّ بالاستطاعة. وليس إشراف هذا التكليف إلّا كإشراف التكليف بالإيمان بالرسول بمعرفته ، والتكليف بالصلاة والصوم والحجّ وغيرها من العبادات بمعرفتها. ومن المعلوم أنّ هذا الشرط يجب تحصيله كما يجب تحصيل الطهارة المائية للعمل المشروط بها ، وكمعرفة الإجماع على مذهبه السخيف. وبهذا يظهر الجواب عن الوجه الثاني ^(١) من قوله : (إنّ الأمر بطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر في لفظة ...) إلى آخره.

فإنّ معرفة أولي الأمر إن كان شرطاً في وجوب طاعة أولي الأمر ، كان معرفة الله ومعرفة رسوله شرطاً في وجوب طاعتهم أيضاً ، وإن لم يكن شرطاً في وجوب طاعتهم ، لم يكن شرطاً في وجوب طاعتهم. فإنّ قيل : إنّ الخطاب في الآية للمؤمنين ، فهم كانوا عارفين بالله ورسوله ، فيوجب طاعتهم بالنسبة إليهم مطلق ، بخلاف وجوب طاعة أولي الأمر الذين لم يكونوا عارفين بهم.

قلنا : وجود الشرط لا يوجب انقلاب الواجب المشروط إلى المطلق ، بل الواجب المشروط مشروط أبداً [سواء أ كان الشرط حاصلًا أو غير حاصل ، والواجب المطلق مطلق أبداً.

وأما الوجه الثالث من أنّه لو كان المراد من أولي الأمر المعصوم ، لقال : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الإمام) ، ولم يقل : ﴿ **فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ . ففاسد جدًّا ؛ لأنّه فرق واضح بين أوامر الإمام وأحكامه في المشاجرات ؛ فإنّ أوامره قد تكون بملاك المصالح التي يراها في تنظيم المملكة الإسلامية وتجهيز الجيش والتدبير في الغلبة على الأعداء ، ولا يكون في تلك الأوامر واسطة في التبليغ ، بل الأمر أمره ، ولذا أمر الله بطاعته كما أمر بطاعة الرسول ، بخلاف أحكامه فإنّها لا تكون إلّا أحكام الله ورسوله ، ففي الحقيقة يكون مبلّغاً عن الرسول ، كما أنّ الرسول مبلّغ عن الله ، فإطاعته إطاعة الرسول ، والردّ إليه ردّ إلى الرسول ، ولذا اقتصر الله سبحانه في الآية - في صورة التنازع في

(١) لا يزال المصنف في معرض الردّ على الوجه الأول ، والعبارة التي ذكرها هنا هي من الوجه الأول لا من الثاني الذي ذكره أولاً وأغفله هنا.

شيء - بالأمر بالردّ إلى الرسول ، ولم يعطف عليه الردّ إلى القضاة والولاة الذين كانوا منصوبين من قبل الرسول في البلاد ، كما أنّ الفقهاء في زمان غيبة الإمام منصوبون من قبله ﷺ للحكومة بين الأنام ، ويكون الردّ إليهم رداً إليه ، وحكمهم حكمه ، وقد بين الله شركة أولي الأمر مع الرسول ﷺ في وجوب الردّ إليهم في الآية التي بعدها بقوله : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(١) .

في الاعتراض على الفخر الرازي

والعجب من هذا الرجل المتعصب ، كيف رضي بالقول بأنّ الله أمر بطاعة أولي الأمر ، ولم يبيّن المراد من أولي الأمر لرسوله ، ولم يفسره الرسول للناس ، حتّى التجأ هذا القاصر إلى الاجتهاد في تعيين المراد ، ولم يكتف في تعيينهم بقوله تعالى : ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾^(٣) ، وقوله : ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾^(٤) ، وقوله : ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^(٥) وقوله : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^(٦) وغيرها من الآيات الكثيرة المفسّرة - في روايات بعض العامة وجميع الخاصة - بعليّ.

والرواية المتواترة من قوله : « من كنت مولاه فعليّ مولاة »^(٧) ، وقوله : « عليّ مّي بمنزلة هارون من موسى »^(٨) . وغير ذلك.

وعن سليم بن قيس الهلالي : عن أمير المؤمنين ﷺ أنه سأله عن أدنى ما يكون الرجل به ضالاً ؟ فقال : « أن لا يعرف من أمر الله بطاعته ، وفرض ولايته ، وجعله حجّة في أرضه ، وشاهداً على خلقه » .

قال : فمن هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : « الذين قرّهم الله بنفسه ونبيّه فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال : فقبّلت رأسه وقلت : أوضحت لي ، وفترجت عني ، وأذهبت كلّ شكّ كان في قلبي »^(٩) .

ثمّ أمر الله تعالى بالرجوع في ما اختلفوا فيه إلى المعصومين بقوله : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ من الأحكام والحقوق ﴿فَرُدُّوهُ﴾ وارفعوه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بالرجوع إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بالرجوع إلى سنّته ، وإلى الأئمة المعصومين الذين هم خلفاؤه المنصوبون من قبله بنصّه الجليّ ،

(١) النساء : ٤ / ٨٣ .

(٢) التوبة : ٩ / ١١٩ .

(٣) المائدة : ٥ / ٥٥ .

(٤) آل عمران : ٣ / ٦١ .

(٥) المائدة : ٥ / ٦٧ .

(٦) هود : ١١ / ١٧ .

(٧) الكافي : ١ / ٢٢٧ ، معاني الأخبار : ٦٥ - ٦٦ / ١ - ٥ ، علل الشرائع : ١٤٤ / ٩ ، سنن الترمذي : ٦٣٣ / ٣٧١٣ ،

مسند أحمد : ١ / ٨٤ و ٨٨ و ١١٩ و ١٥٢ و ٣٢١ ، مستدرک الحاكم : ٣ / ١١٠ و ١٣٤ .

(٨) علل الشرائع : ٢٢٢ ، عيون أخبار الرضا ﷺ : ٢ / ١٠ ، ٢٣ / ٢٣ ، مسند أحمد : ٣ / ٣٢ و ٦ / ٤٣٨ ، صحيح مسلم : ٤ / ١٨٧٠ ،

٣٠ - ٣٢ .

(٩) كتاب سليم : ٥٩ ، معاني الأخبار : ٣٩٤ / ٤٥ ، تفسير الصافي : ١ / ٤٢٩ .

المبلّغون عنه ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيّها المؤمنون باللسان ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب إيماناً خالصاً ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ فإنّ الإيمان الحقيقي ملازم التسليم لحكمهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الرّدّ إليهم ، والانقياد لهم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من التنازع ﴿وَأَحْسَنُ﴾ وأصلح لكم ﴿تَأْوِيلًا﴾
وعاقبة من العمل بآرائكم من غير الرّدّ.

في (نهج البلاغة) في معنى الخوارج ، لما أنكروا تحكيم الرجال ، قال عليه السلام : « ولما دعانا القوم إلى
أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتوّلّي عن كتاب الله تعالى ، و [قد] قال الله سبحانه : ﴿فَإِنْ
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه ، وردّه إلى الرسول أن نأخذ
بسنته ، فإذا حكم بالصدق [في كتاب الله] فنحن أحقّ الناس به ، وإن حكم بسنة رسول الله ، فنحن
أولاهم [بها] » (١) .

وقال عليه السلام ، في عهده للأشتر : « واردة إلى الله ورسوله ما يضلّك من الخطوب ، ويشته عليك
من الأمور ، فقد قال الله سبحانه لقوم أحبّ إرشادهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فالرّدّ إلى الله الأخذ بكتابه (٢) ، والرّدّ
إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفترقة » (٣) .

وفي (الاحتجاج) : عن الحسين بن علي عليه السلام ، في خطبته : « وأطيعونا ، فإنّ طاعتنا مفروضة ،
إذ كانت بطاعة الله وطاعة رسول مقرونة ، قال الله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » (٤) .

وعن الباقر عليه السلام ، أنّه تلا هذه الآية هكذا : « فإن خفتم تنازعاً في أمر فردّوه إلى الله وإلى الرسول
وإلى أولي الأمر منكم ، - قال - كذا نزلت » .

أقول : يعني : تفسيرها .

ثمّ قال : « كيف يأمر الله بطاعة ولاية الأمر ويرتخص في منازعتهم ؟ ! إنّما قيل ذلك للمأمورين
الذين قيل لهم : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ ...﴾ » (٥) .

أقول : هذا ردّ على من فسّر التنازع بالتنازع مع ولاية الأمر .

(١) نهج البلاغة : ١٨٢ / الخطبة ١٢٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٠ .

(٢) في المصدر : بمحكم كتابه .

(٣) نهج البلاغة : ٤٣٤ / الرسالة ٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٠ .

(٤) الاحتجاج : ٢٩٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٠ .

(٥) الكافي ١ : ٢١٧ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٠ .

في استدلال الفخر بالآية على حجية القياس وردّه

ثم استدَلَّ الفخر الرازي بقوله : ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ على حجية القياس ؛ بتقريب أن المراد من التنازع والرّد في صورة ليس الحكم منصوباً في الكتاب والسنة ، وإلا كان داخلاً تحت قوله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيكون الأمر بالرّد تكراراً له ، فيكون معنى الرّد في تلك الصورة ردّ حكمه إلى الأحكام المنصوصة في الوقائع المشابهة له ، وهو القياس ^(١) .

أقول : هذا ملخص ما أطنبه من الكلام في المقام ، وهو في غاية الفساد ، لوضوح عدم صدق الرّد إلى الكتاب والسنة على القياس ، بل هو ردّ إلى الحكم العقليّ الظنيّ . ومن المعلوم أن دين الله لا يصاب بالعقول الضعيفة الكاسدة ، والأهواء الزائغة الفاسدة ، بل في الأمر بالرجوع إلى القياس في مورد الاختلاف إدامة النزاع لا رفعه .

وأما قوله بأنّ الأمر بالرّد ، على تقدير كون الحكم منصوباً في الكتاب والسنة ، يكون تكراراً لقوله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ . ففيه : - مع أنّ التأكيد هنا في غاية الحسن ، لكون التنازع موجبا لهيجان النفوس إلى الأغراض الفاسدة ، وشدة اهتمام المتنازعين في اتباع الأهواء الفاسدة ، ونهذ الكتاب والسنة وراء الأظهر ، ولدفع توهم اختصاص أحكام الكتاب والسنة بغير مورد التنازع ، واحتمال تغيير المصالح - أنّ الأمر في المقام أمر بالدقة في تطبيق الواقعة الجزئية على الأحكام الكلية .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ
أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾

ثم وبّخ الله سبحانه المنافقين الذين لم يصغوا إلى الرسول ولم يرضوا بحكمه بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ ويقولون كذبا ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن والأحكام ﴿وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من سائر الكتب السماوية ، وهم مع ذلك الزعم والادعاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ في ما وقع بينهم من التنازع ﴿أَنْ يُتَحَاكَمُوا﴾ ويترافعوا ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ والأصنام والكفار الآخذين للرشوة ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ المعوي ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عن صراط الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عنه ، بحيث لا يرجى منهم الهداية أبداً .

قيل : كان المشركون يتحاكمون إلى الأوثان ، وكانت طريقتهم أنّهم يضربون بالقداح عند الوثن ، فما

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٥١ .

خرج على القداح عملوا به ، وكان بعض المنافقين أراد التحاكم إلى الوثن ، ولم يرض بالتحاكم إلى النبي ﷺ .

وقيل : إنه أسلم ناس من اليهود ووافق بعضهم ، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل قرظي نضيريا قتل به ، واخذ دمه (١) مائة وسق من تمر ، وإذا قتل نضيري قرظيا لم يقتل به ، لكن اعطي دمه (٢) ستين وسقا من تمر .

وكان بنو النضير أشرف ، وهم حلفاء الأوس ، وقريظة حلفاء الخزرج ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة قتل نضيري قرظيا ، فاختصما فيه ، فقالت بنو النضير : لا قصاص علينا ، إنما علينا ستون وسقا من تمر ، على ما اصطللحنا عليه من قبل . وقالت الخزرج : هذا حكم الجاهلية ، ونحن وأنتم اليوم إخوة ، وديننا واحد ، ولا فضل بيننا ، فأبى بنو النضير ذلك .

فقال المنافقون : انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي ، وقال المسلمون : بل إلى رسول الله ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى الكاهن ليحكم بينهم ، فأنزل الله هذه الآية ، ودعا الرسول ﷺ الكاهن إلى الإسلام فأسلم (٣) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ

عَنْكَ صُدُودًا (٦١)﴾

ثم بين الله تعالى سوء فعلهم بعد بيان سوء إرادتهم بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نصحا : ﴿تَعَالَوْا وَجِئُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في كتابه من الحكم ﴿وَإِلَى﴾ حكم ﴿الرَّسُولِ﴾ وأمره ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ ويمنعون من التحاكم إليك ﴿صُدُودًا﴾ ومنعوا أكيدا ، أو يعرضون عنك إعراضا شديدا ، لشدة عداوتهم لديك ، ولعلمهم بأنك لا تحكم إلا بمر الحق ، ولا تقبل الرشوة .

﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ

أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾

ثم أوعدهم بالعقاب على نفرتهم عن الحضور عند الرسول ، وامتناعهم من التحاكم إليه ، بقوله : ﴿فَكَيفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ﴾ ونالتهم ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وعقوبة عظيمة ، وبلية شديدة ﴿بِمَا

(١) في تفسير الرازي : وأخذ منه دية .

(٢) في تفسير الرازي : ديته .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٥٤ .

قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ ﴿٦٢﴾ من الامتناع من التسليم للحكم بالحق ، والرضا بحكومة الطغاة.

ثم بيّن نفاقهم بقوله : ﴿ثُمَّ﴾ بعد الامتناع ﴿جَاؤُكَ﴾ معتردين إليك من عدم حضورهم عندك ، والتحاكم إلى غيرك ، وهم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لك ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ من التحاكم إلى غيرك ، وما طلبنا به ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ إليك برفع الكلفة والتصديع عنك ، أو إلى الخصوم حيث إنك تحكم بمزج الحق ، وغيرك يأمر كلاً منهم بالإحسان إلى الآخرة ، ﴿وَوَ﴾ إلا ﴿تَوْفِيقًا﴾ وإصلاحاً بينهم.

وقيل : إنّ الآية تبشير للنبي ﷺ ، والمعنى : كيف حالك من الفرح إذا أصابتهم مصيبة تلجئهم إلى الحضور عندك لرفعها ؟ ثم يخلفون بالله لك أنهم ما أرادوا من عدم الحضور في تلك الوقعة مخالفتك ، بل أرادوا الإحسان والتوفيق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٦٣)

ثم بيّن سبحانه أنّ التّفاق لا ينفعهم ، وهو يعاقبهم عليه بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المنافقون هم ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر وعداوة الحق ، فيفضحهم في الدّنيا ، ويعاقبهم عليه في الآخرة ، ولا يغني عنهم الكتمان والحلف عن العقاب ، فإذا كان كذلك ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أنت ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تؤاخذهم بسوء فعلهم ، ولا تهتك سترهم بين الناس ، بل ﴿وَعِظْهُمْ﴾ موعظة حسنة ، وخوّفهم بالعقاب على الكفر والعصيان ، والكذب والعناد مع الحق ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي﴾ شأن ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ الخبيثة ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ مؤثراً في قلوبهم ، وافياً بمقصودك من الهداية.

وقيل : إنّ معنى قوله ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ خاليا ^(١) بهم غير فاش ؛ لظهور كون النصّح في الخلوة والسرّ لمحض النفع ^(٢) .

وقيل : إن معنى (البليغ) : الكلام الطويل ، الحسن الألفاظ والمعاني ، فإنّه أعظم وقعاً في القلب ^(٣).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤)

ثم أكّد سبحانه وجوب طاعة الرّسول والتّسليم لحكمه بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى النّاس من بدو الخلقة ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ في أوامره ونواهيه وأحكامه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(١) من الخلوة : أي مختلياً بهم في السرّ.

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٠ : ١٥٩ .

وإرادته وتوقيفه.

وفيه دلالة على عصمة الأنبياء ، كما استدلل الفخر الرازي بالتقريب الذي ذكره في آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(١) .

ثم حث الله سبحانه المنافقين إلى التوبة عن نفاقهم وسوء أفعالهم بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتفاق والتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاؤُكَ﴾ نادمين على معاصيهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ منها مخلصين ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ بعد اعتذارهم إليه ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ﴾ ولقوه ﴿تَوَّابًا﴾ على العصيين ﴿رَحِيمًا﴾ بالمذنبين.

وإنما قال : ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل : (واستغفرت) إظهارا لعظمته^(٢) ، وإشعارا بأن من كان سفيرا بين الله وخلقه لا تردّ شفاعته.

قيل : إنّ قوما من المنافقين اصطالحوا على كيد في حق رسول الله ﷺ ، ثمّ دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض ، فأتاه جبرئيل فأخبره به ، فقال ﷺ : « إنّ قوما دخلوا يريدون أمرا لا ينالونه ، فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم » فلم يقوموا ، فقال ﷺ : « ألا تقومون ؟ » فلم يفعلوا ، فقال ﷺ : « قم يا فلان ، قم يا فلان » - حتى عد اثني عشر رجلا منهم - فقاموا وقالوا : كنّا عزمنا على ما قلت ، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا ، فاستغفر لنا ، فقال ﷺ : « [الآن] اخرجوا ، أنا كنت في بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار ، وكان الله أقرب إلى الإجابة ، اخرجوا عني »^(٣) .

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥)

ثم بين الله سبحانه ملازمة الإيمان بالرسول للرضا بحكمه ، والتسليم لقضائه ، مؤكدا له بالحلف عليه ، وزيادة (لا) للتأكيد ، بقوله : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ إنّ الناس ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك إيماننا صادقا ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ ويترافعوا إليك ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ واختلف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من الأمور ، فتقضي فيه بمرّ الحق ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿حَرَجًا﴾ وضيقا ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾ به وحكمت فيه ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ لقضائك ﴿تَسْلِيمًا﴾ قلبيا ، وينقادوا لحكمك انقيادا باطنيا.

روي أنّ رجلا من الأنصار خاصم الزبير في ماء يسقى به النخل ، فقال صلى الله عليه وآله للزبير : « اسق أرضك ، ثمّ

(١) المائدة : ٥ / ٩٢ .

(٢) أي عظمة الرسول ﷺ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٦٢ .

أرسل الماء إلى أرض صاحبك» ^(١) ، فقال الأنصاري : لأجل أنه ابن عمّتك. فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال للزبير : « اسق ثم احبس الماء حتّى يبلغ الجدر » ^(٢) .

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا * وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٦) و (٦٨)﴾

ثم بيّن الله سبحانه ضعف إيمان المسلمين ، ووهنهم في طاعة الله ورسوله ، وقلة المؤمنين الخالص ^(٣) ؛ بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ وفرضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقلنا لهم : ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كم كتبنا على بني إسرائيل في التوبة عن عبادة العجل ﴿أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ واتركوا أوطانكم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ عصيانا ، لصعوبته عليهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وهم الكاملون في الإيمان ، الخالص ^(٤) فيه.

روي أنّ ثابت بن قيس بن شماس ناظر يهوديا ، فقال اليهودي : إنّ موسى عليه السلام أمرنا بقتل أنفسنا فقبلنا ذلك ، وإنّ محمدا يأمركم بالقتال فتكرهونه ، فقال : ما أنت ^(٥) ، لو أنّ محمدا أمرني بقتل نفسي لفعلت ، فنزلت هذه الآية ^(٦) .

وروي أنّ ابن مسعود قال [مثل] ذلك ، فنزلت ^(٧) .

وعن النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنّ من امتي رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال التراسي » ^(٨) .

وقيل : إنّ المراد من الآية بيان حال المنافقين ^(٩) . والمعنى : ما فعلوه ، فيظهر كفرهم ونفاقهم إلا قليل منهم ، فإنّهم يفعلونه رياء وسمعة.

ثم حثّ الله المؤمنين إلى الإيمان الكامل ، والمنافقين إلى الإيمان الخالص ، بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ عن خلوص الإيمان ، وصدق التّوبة ﴿فَعَلُوا﴾ وامتثلوا ﴿مَا يُوعَظُونَ﴾ ويؤمنون ﴿بِهِ﴾ من متابعة الرّسول ، وإطاعة أحكامه ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأنفع في العاجل والآجل ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ لإيمانهم. عن الصادق عليه السلام : « لو أنّ أهل الخلاف فعلوا ... » ^(١٠) .

(١) في تفسير الرازي : جارك.

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ١٦٣ ، والجدر ، جمع جدار : الحائط.

(٣) في النسخة : الخالصين.

(٤) في النسخة : الخالصون.

(٥) في تفسير الرازي : يا أنت.

(٦ و ٧ و ٨ و ٩) . تفسير الرازي ١٠ : ١٦٧.

(١٠) تفسير العياشي ١ : ٤١٧ / ١٠٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٢.

وعن الباقر عليه السلام : ﴿ مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ في عليّ قال : « هكذا نزلت » ^(١) .
ثمّ كأنّه قيل : فماذا يكون لهم بعد التّثبّت ؟ فقال : ﴿ وَإِذَا ﴾ لو ثبتوا بالله ﴿ لَا تَيَنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾
ومن خزائن رحمتنا ﴿ أَجْرًا ﴾ وثوابا ﴿ عَظِيمًا ﴾ في الآخرة ، لا ينقطع أبدا ﴿ وَلَهْدَيْنَاهُمْ ﴾ في الدّنيا بالتّوفيق
﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ يوصلهم إلى جواهر العلوم ومقام الرّضوان .

عن النّبيّ ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ^(٢) .
﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ
اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٦٩) و (٧٠)

ثمّ بالغ سبحانه في الوعد على طاعته وطاعة رسوله ، بقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ خالصا
لوجهه ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ المطيعون يحشرون في الآخرة ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بعلوّ المقام ، وعظم القدر
عنده ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الفائزين بكمال العلم والعمل ﴿ وَالصّٰدِقِينَ ﴾ العارجين بأعلى مدارج الإيمان والعرفان
﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الباذلين مهجهم في إظهار الحق ، وإعلاء كلمته ﴿ وَالصّٰلِحِينَ ﴾ الصّٰرفين أعمارهم في طاعة
الله ، وطلب مرضاته .

ثمّ بالغ في إظهار حسن هذه المرافقة مع هؤلاء ، بإظهار التعجّب من حسنها بقوله : ﴿ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ ﴾ المذكورون ﴿ رَفِيقًا ﴾ للمؤمن ومصاحبا في الجنّة .

في بيان محبة ثوبان للرّسول ﷺ

روي أنّ ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحبّ له ، قليل الصّبر عنه ، فأثاه يوما وقد تغيّر
وجهه ، ونخل جسمه ، وعرف الحزن في وجهه ، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله ، فقال : يا رسول الله ،
ما بي وجع غير أيّ إذا لم أراك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة ، حتّى تذكّرت ^(٣) الآخرة وخفت
أن لا أراك هناك ؛ لأني إن دخلت الجنّة فأنت تكون في درجات النّبيين ، وأنا في درجات العبيد ، فلا أراك
، وإن أنا لم أدخل الجنّة ، فحينئذ لا أراك أبدا . فنزلت هذه الآية ^(٤) .

في أنّ المؤمنين صنفان

قيل : إنّ المراد من المرافقة في الجنّة : هو رفع الحجاب بين الفاضل والمفضول ، بحيث يرى كلّ منهما
الآخر ، لعدم إمكان تساويهما في الدّرجة ^(٥) .

(١) الكافي ١ : ٣٥١ / ٦٠ ، تفسير الصّافي ١ : ٤٣٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٣٢ .

(٣) في تفسير الرازي : حتّى ألقاك فذكرت .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ١٧٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ١٧١ .

عن الصادق عليه السلام : « المؤمن مؤمنان : مؤمن وفى لله بشروطه التي اشترطها عليه ، فذلك مع التبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له ، ولا تصيبه أهوال الدنيا ، ولا أهوال الآخرة ، ومؤمن زلت به قدم ، فذلك كخامة ^(١) الزرع ، كيفما كفتت ^(٢) الريح انكفاً ، وذلك ممن يصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة ، ويشفع له ، وهو على خير » ^(٣) .

عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام ، قال : « أعينونا بالورع ، فمن لقي الله تعالى ^(٤) بالورع كان له عند الله فرجا ، إن الله يقول : ﴿مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ - وتلا هذه الآية ، ثم قال - : فمننا النبي ، ومننا الصديق ، ومننا الشهداء ، ومننا الصالحون » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « لقد ذكركم الله في كتابه فقال : أولئك ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ - الآية ، فرسول الله في الآية التبيين ، ونحن في هذا الموضع الصديقون والشهداء ، وأنتم الصالحون ، فتسموا بالصلاح كما سماكم الله » ^(٦) .

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ وزيادة الثواب كائن ﴿مَنْ اللَّه﴾ المفضل ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيماً﴾ بجزاء المطيعين ، ومقدار استحقاقهم الفضل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً (٧١)﴾

ثم لما كان الجهاد من أهم الطاعات حث الله إليه بعد المبالغة في الحث إلى طاعته وطاعة رسوله بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ واحترزوا كيد أعدائكم ، أو خذوا أسلحتكم - كما عن الباقر عليه السلام ^(٧) - وأستعدوا للجهاد ﴿فَانْفِرُوا﴾ وأخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ وجماعات متفرقات ، سرية بعد سرية ﴿أَوْ انفِرُوا﴾ إلى غزوة واحدة كلكم ﴿جَمِيعاً﴾ وكوكبة واحدة.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ

مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ

مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٢) و (٧٣)﴾

(١) الخامة : أول كل شيء ، وهنا بمعنى أول ما ينبت من الزرع الغض.

(٢) في الكافي : كفأته.

(٣) الكافي ٢ : ١٩٣ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٣ .

(٤) زاد في المصدر : منكم.

(٥) الكافي ٢ : ٦٣ / ١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٣ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٤١٧ / ١٠٣٤ ، الكافي ٨ : ٣٥ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٣ .

(٧) مجمع البيان ٣ : ١١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٤ .

ثم لما كان في موقع الجهاد مجال نفاق المنافقين ، عاد سبحانه إلى ذكر حالهم وتقاعدهم عن الخروج إليه ، بقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون لله ﴿لَمَنْ لِيُطْطَنَ﴾ وليتناقل من الخروج إلى الجهاد ، ويتخلف عنكم.

وقيل : إنَّ المعنى : أنه ليُطْطَنَ سائر المسلمين ويصرفهم عن الخروج ، كعبد الله بن أبي. ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ﴾ بعد الخروج إلى الجهاد ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وبلية من الأعداء ، كالقتل ، والجرح ، والهزيمة ﴿قَالَ﴾ ذلك المنافق المبطل ؛ فرحا بتقاعده ، وحامدا لربه : ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالسلامة والحياة ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ﴾ في المعركة ﴿مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ وحاضرا ، فيصيني ما أصابهم ﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ﴾ ونالكم ﴿فَضْلٌ﴾ من فتح وغنيمة ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿اللَّهِ﴾ وبإعانتة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المنافق تحسرا وحزنا ﴿كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وصدافة ، حتى يفرح لفرحكم : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ في تلك الغزوة ﴿فَأَفُوزَ﴾ وأنال ﴿فُوزاً﴾ وحظاً ﴿عَظِيماً﴾ وافرا من الغنيمة.

وفي ذكر الجملة الاعتراضية بين فعل القول ومفعوله ، دلالة على أن تمنّيهم الحضور في الواقعة كان للحرص على المال ، لا للاشتياق إلى نصرته المسلمين بمقتضى المودة والخلطة.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٧٤)

ثم عاد سبحانه إلى الحث في الجهاد بقوله : ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ ألبتة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطلب مرضاته المؤمنون الخالص^(١) ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ ويبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ويختارون الفوز برضوان الله ، والتعم الخالصة الدائمة على العيش المكدر الزائل.

ثم بالغ في الترغيب فيه بقوله : ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ﴾ أعداء الدين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولإعلاء كلمة التوحيد والحق ﴿فَيُقْتَلْ﴾ بأيديهم ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ عليهم فيقتلهم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في الآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثوابا جسيما لا يقادر قدره.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

(١) في النسخة : الخالصون.

ثمّ لام المتقاعدين عن القتال وأنكره عليهم بقوله : ﴿وَمَا﴾ العذر ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَا تُفَاتِلُونَ﴾ الكفار ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ﴾ لتخليص ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والمستذللين بين المشركين ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ المؤمنين ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ المؤمنات ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ - الصغار ﴿الَّذِينَ﴾ لا يؤخذون بجرم الكبار - من أسر الكفار ، وهم من كثرة أذية المشركين ﴿يَقُولُونَ﴾ متضرعين إلى الله : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ وخلصنا ﴿مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ التي نحن فيها ﴿الظَّالِمِ﴾ علينا ﴿أَهْلُهَا﴾ وساكنوها ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ ومن رحمتك ﴿وَلِيًّا﴾ من المؤمنين يقوم بمصالحنا ، و حفظ ديننا ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أعدائنا ، ويدفع عنا أذاهم.

قيل : هم المسلمون الذين حبسوا في مكة وصدهم المشركون عن الهجرة ، أو عجزوا عنها فبقوا في الدّلة ، وتلقوا الأذى ^(١) ، فيسر الله لبعضهم الهجرة إلى المدينة ، وجعل لبعضهم - الذين بقوا فيها إلى الفتح - خير ولي وأعز ناصر ، وهو نبيّه محمد ﷺ .

عن العياشي : عنهما عليهما السلام ، في هذه الآية قالوا : « نحن أولئك » ^(٢) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

ثمّ بيّن الله سبحانه أنّ الجهاد لغرض نصره الدّين من خصائص المؤمنين حتّى لهم ، بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم الذين ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولنصرة دينه ، فالله ناصرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ ولا تباع الشّيطان ، وترويح الباطل ، فالشّيطان وليهم ، والله خاذلهم ﴿فَقَاتِلُوا﴾ يا أولياء الله ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ وأتباعه وحزبه ، ولا تخافوا كيدهم ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ لأهل الإيمان ، وسعيه في إطفاء نور الحق منذ كان ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ وبلا نتيجة ، بالإضافة إلى كيد الله بالكافرين .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧)

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٠٢ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٤١٨ / ١٠٣٧ و ١٠٣٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٦ .

ثم قيل : إنّ فريقاً من المؤمنين يظهرون الرغبة في الجهاد قبل وجوبه ، فلما وجب الجهاد تناقلوا عنه ، وأظهروا الكراهة منه ، فلامهم الله ووبّخهم ^(١) بقوله : ﴿لَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ حين إظهارهم الرغبة في الجهاد ، واستنذاهم فيه ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عنه ، ولا تتعرضوا للكفّار ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واشتغلوا بسائر ما امرتم به .

روي أنّ ناساً من المؤمنين أتوا النبي ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وشكوا إليه ما يلقونه من أذى المشركين ، وقالوا : كنّا في عزّ في حالة الجاهليّة ، والآن صرنا أذلةً ، فلو أذنت لنا قتلناهم على فرشهم . فقال ﷺ : « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ - إي أمسكوا عن القتال - وأقيموا الصَّلَاةَ ، وآتوا الزَّكَاةَ ، واشتغلوا بما امرتم به ، فإنّي لم أؤمر بقتالهم » . وكانوا في مدّة إقامتهم بمكّة مستمرّين على تلك الحالة ، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وامروا بالقتال في وقت بدر ، كرهه بعضهم وشقّ ذلك عليه ، وذلك قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ ^(٢) وفرض ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ وجمع ﴿مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ المشركين أن يقتلوه ، خشية ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الكائنة في قلوبهم أن ينزل عليهم بأسه ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خشيتهم من الله ، أو من أهل خشية الله . وفي التّرديد إيهام على المخاطب ، أو إشعار باختلاف الفريق في شدّة الخوف .

﴿وَقَالُوا﴾ بألسنتهم ، أو في قلوبهم تمنّياً لطول البقاء ، لا اعتراضاً على الله : ﴿رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ﴾ وفرضت ﴿عَلَيْنَا الْقِتَالُ﴾ مع الكفّار ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا﴾ وأمهلتنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أجلّته لنا ، والموت الذي قدرته علينا .

قيل : إنّ الآية نزلت في المنافقين ؛ وهم المراد بالفريق منهم ^(٣) . ثم أمر الله نبيّه ﷺ بوعظهم بقوله : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا﴾ والانتفاع بها ﴿قَلِيلٌ﴾ المدّة ، سريع التقضي ، قليل اللذّة ، لشوبه بالمكاره والغموم ، قليل القدر ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من الدّنيا ونعمها ؛ لأنّها دائمة خالصة من الكدورات ، عظيمة القدر ، ولكن تكون ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ وأطاعه ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أعمالكم ﴿فَتَيَلَّ﴾ وشيئاً يسيراً .

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾
﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ

(١) تفسير الرازي ١٠ : ١٨٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٣٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٨٥ .

عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

ثم نبّه سبحانه على أنّ الموت لا مناص منه ، تقصيرا للآمال ، بقوله : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ أيها الناس ، وفي أيّ مكان تمكّنوا ﴿يُذَرِّكُمُ الْمَوْتُ﴾ ويصيبكم الفناء ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ﴾ متحصّنين ﴿فِي بُرُوجٍ﴾ وقصور حصينة ﴿مُشِيدَةٍ﴾ محكمة ، أو مخصّصة ، فإذا كان الموت لا بدّ منه ، فبأن يقع على وجه يكون مستعقبا للسعادة الأبدية كان أولى .

ثم أنّه تعالى بعدما ذكر تناقل ضعفاء المؤمنين أو المنافقين عن الجهاد ، أردفه بذكر سوء مقابلهم ، من بقوله : ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ من سعة ونعمة وراحة ﴿يَقُولُوا هَذِهِ﴾ الحسنة ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ومن فضله ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من جذب وغلاء وشدة ﴿يَقُولُوا﴾ لك من غاية الجهل والحمق ، أو العناد : ﴿هَذِهِ﴾ السيئة ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ ومن شؤمك .

قيل : كانت المدينة مملوءة من النعم وقت مقدم الرسول ﷺ ، فلمّا ظهر عناد اليهود ونفاق المنافقين أمسك الله عنهم بعض الإمساك ، كما جرت عادته في جميع الامم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(١) فعند ذلك قالت اليهود والمنافقون : وما رأينا أعظم شؤما من هذا الرجل ، نقصت ثمارنا ، وغلت أسعارنا منذ قدم ، فقلوه تعالى : ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني : الخصب ، ورخص السعر ، وتتابع الأمطار ، قالوا : ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ من الجذب وغلاء السعر ، قالوا : هذا من شؤم محمد . وهذا كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾^(٢) ، وعن قوم صالح قالوا : ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾^(٣) .

ثم أمر الله بردهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كُلٌّ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يقبض ويسيطر على حسب الحكمة والإرادة .

ثم بيّن الله شدة حماقتهم بإظهار التعجّب من قلّة فهمهم ؛ بقوله : ﴿فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ من الأحاديث وقولا من الأقوال ، إن هم إلّا كالأنعام .
﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾

(١) الأعراف : ٧ / ٩٤ .

(٢) الأعراف : ٧ / ١٣١ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ١٨٨ ، والآية من سورة النمل : ٢٧ / ٤٧ .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ إِيجَادَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ كُلَّهَا بِيَدِهِ وَعَنْ إِرَادَتِهِ ، نَبَّهَ عَلَى اخْتِلَافِ أَسْبَابِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا أَصَابَكَ ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، وَمِنْ خَيْرٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿ فَمِنْ اللَّهِ ﴾ وَبِتَفَضُّلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، أَوْ بِحِكْمَةِ الْإِمْتِحَانِ ﴿ وَمَا أَصَابَكَ ﴾ وَوَرَدَ عَلَيْكَ ﴿ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ وَبَلِيَّةٍ ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وَبِسَبَبِ سَيِّئَاتِكَ وَمَعَاصِيكَ ، وَإِنْ كَانَ إِيجَادُهَا أَيْضًا مِنَ اللَّهِ .

عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَالَ اللَّهُ : [يَا] ابْنَ آدَمَ [بِمَشِيئَتِي] كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ [وَ] بِقَوَّيْ أَذَيْتَ فَرَائِضِي ، وَبِنِعْمَتِي قَوَّيْتُ عَلَى مَعْصِيَتِي ، جَعَلْتُكَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَوِيًّا ، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَذَلِكَ أَنِّي أَوَّلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَوَّلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي ، وَذَلِكَ أَنِّي لَا أَسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ » (١) .

وَعَنْ عَائِشَةَ : مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَصِيْبُهُ وَصَبٌ وَلَا نَصَبٌ ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يَشَاكُهَا ، وَحَتَّى انْقِطَاعُ شَسْعٍ نَعْلُهُ ، إِلَّا بَذَنِبَ ، وَمَا يَغْفِرُ اللَّهُ أَكْثَرَ (٢) .

أَقُولُ : حَاصِلُ الْمُسْتَفَادِ مِنَ [الْآيَةِ] الْكَرِيمَةِ أَنَّ جَمِيعَ مَا يَصِيبُ الْإِنْسَانَ سِوَاءَ أَكَانَ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَوْ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، فَبِإِيجَادِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يَشْرِكُهُ أَحَدٌ فِي إِيجَادِهِ . وَأَمَّا سَبَبُهَا فَمَا كَانَ مِنَ الْحَسَنَاتِ فَسَبَبُ التَّفَضُّلِ ، وَقَابِلِيَّةُ الْفَيْضِ ، وَامْتِحَانُ الْعَبْدِ ، وَمَا كَانَ مِنَ السَّيِّئَاتِ فَسَبَبُ اسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْمَعَاصِي الْحَاصِلَةِ بِالشَّهَوَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ .

ثُمَّ لَمَّا كَانَ بَيَانُ هَذَا الْمَطْلَبِ الْعَالِي بِعِبَارَةٍ وَافِيَةٍ مِنْ أَدَلَّةِ الرِّسَالَةِ ، أَعْلَنَ سُبْحَانَهُ بِرِسَالَتِهِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ ﴾ جَمِيعًا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ ﴿ رُسُلًا ﴾ وَمَبْلَغًا عَنِ اللَّهِ ، وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَتَيْتُهَا شَهَادَةُ اللَّهِ عَلَى رِسَالَتِكَ وَصَدَقَكَ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ ﴾ لِلنَّاسِ ﴿ شَهِيدًا ﴾ وَمُصَدِّقًا ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ التَّشْكِيكَ فِي صَدَقَتِكَ وَالْخُرُوجَ عَنْ طَاعَتِكَ .

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا (٨٠) ﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى رِسَالَتِهِ ، أَكَّدَ وَجُوبَ طَاعَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ ﴾ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ﴿ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ ، لَكُونَهُ مَبْلَغًا عَنْهُ ، وَاللَّهُ أَمْرٌ بِطَاعَتِهِ .

قِيلَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « مَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : لَقَدْ قَارَبَ (٣) هَذَا الرَّجُلُ الشَّرْكَ ، إِنَّهُ يَنْهَى أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَيُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ رَبًّا كَمَا اتَّخَذَتْ

(١) الْكَافِي ١ / ١٢٢ / ١٢ ، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١ : ٤٣٧ عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢ : ٢٠٦ ، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢ : ٢٤٢ .

(٣) فِي تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ وَالصَّافِي : قَارَفَ .

التصاري عيسى ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

ثم هدد الله سبحانه المعرضين عن طاعته ، بقوله : ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ وأعرض عن طاعتك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ كي تكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ومراقبا لأعمالهم ، ومحاسبا لهم ، بل إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، ووظيفتك الإرشاد بالبيان وإلينا الهداية بالتوفيق ، فلا تحرص على زجرهم عن العصيان ، ولا تغتم بسبب إعراضهم عن الطاعة.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١)

ثم وبخ الله سبحانه المنافقين بإظهار الطاعة ، وإبطال المخالفة ، بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين تأمرهم بشيء : شأنا ﴿طَاعَةٌ﴾ خالصة دائمة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وخلوا إلى أنفسهم ﴿بَيَّتَ﴾ ودبر ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ وهم الساعون في مخالفتك أمرا ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لهم وتأمرهم به ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾ في صحائف أعمالهم ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويدبرون من مخالفتك وعصيانك ، فيجازيهم به ، ويعاقبهم عليه أشد العقاب ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أنت ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تتعرض لعقوبتهم ، وهتك سترهم ، وتفضيحهم بذكر أسمائهم ، حتى يستقيم أمرك وأمر دينك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم ، فإن الله يكفيك شرهم ﴿وَكَفَى﴾ لك ﴿بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكافيا لحفظك وجميع أمورك.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

كَثِيرًا﴾ (٨٢)

ثم لما كان نفاق المنافقين لعدم اعتقادهم بصدق الرسول مع ظهور معجزاته خصوصا القرآن المجيد الذي هو أعظمها ، وكان لعدم التدبر فيه ، حثهم عليه بقوله : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وهلا يتأملون في إعجاز بيانه وعلو مطالبه ، حتى يظهر لهم بهذه المعجزة العظيمة صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة.

في أحد وجوه إعجاز القرآن

ثم أرشدهم إلى أحد وجوه إعجازه بقوله : ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ وكلاما صادرا من البشر ، كما زعمه الكفار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وتفاوتا فاحشا في عباراته من جهة الفصاحة والأسلوب ، وفي مطالبه من جهة

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٠٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٧ .

الصحة والفساد فكون جميع عباراته بطولها في أعلى درجة الفصاحة ، ومطالبه مع كثرتها في غاية الصحة والمتانة ، دليل قاطع على أنه كلام الله ، لا كلام البشر ، لقضاء العادة بأن كلام البشر لا يخلو من الاختلاف في الفصاحة إذا كان طويلا ، والأخبار الغيبية الحدسية لا تخلو من عدم مطابقة بعضها للواقع ، ومطالبه العلمية الكثيرة لا تخلو عن بطلان بعضها.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾

ثم أنه تعالى لما أمّن نبيّه من شرّ المنافقين ، وأحكم أساس نبوّته بالإشارة إلى وجه إعجاز كتابه ، أخبره بإفساد المنافقين في المسلمين بقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ وبلغهم من سرايا المسلمين ، أو من طرف المشركين ﴿أَمْرٌ﴾ وشيء ﴿مِنَ الْأَمْنِ﴾ للمسلمين كالظفر على الأعداء ، أو تقاعد المشركين عن حربهم ﴿أَوْ﴾ من ﴿الْخَوْفِ﴾ كنكبة المسلمين وضعفهم ، أو هزيمتهم عن العدو ، أو تجمع الكفار لحربهم ، فهم بمحض سماع الخبر ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ وأفشوه بين المسلمين ، من غير تحقيق عن صدقه ، ومن غير ملاحظة للصّلاح في إفشائه ، فقد يكون في إفشائه تغرير المسلمين ، أو تخويفهم من العدو ، وضعفهم في المعارضة أو في الإيمان ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ وفوضوه ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ﴾ وأهل البصيرة والعلم ﴿مِنْهُمْ﴾ وإلى نظرهم في تحقيق الصّدق ، وتشخيص الصّلاح في الإفشاء ، والتدبير في كيفة الذكر ، وطلبوا معرفة الحال من جهتهم ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ ويستخرجون واقع الأمر ﴿مِنْهُمْ﴾ بأنظارهم الصّائبة ، ومعرفتهم الكاملة بحقائق الأمور.

قيل : كان قوم من ضعفه المسلمين إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله ﷺ ، أو أخبرهم الرسول بما أوحى إليه من وعد بالظفر ، أو تخويف من الكفرة ، أذاعوا به لعدم حزمهم ، وكانت إذاعتهم مفسدة^(١)

وقيل : كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فيعود وبالا على المسلمين ، ولو ردّوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوا منهم ، ويعرفوا هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول ﷺ وأولي الأمر^(٢) .

عن الباقر عليه السلام : « هم الأئمة المعصومون عليهم السلام »^(٣) .

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٠٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٠٩ .

(٣) جوامع الجامع : ٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٩ .

وعن الرضا عليه السلام : « يعني : آل محمد عليهم السلام ، وهم الذين يستنبطون من القرآن ، ويعرفون الحلال والحرام ، وهم حجة الله على خلقه » (١) .

وعن الباقر عليه السلام : « من وضع ولاية الله ، وأهل استنباط علم الله في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء ، فقد خالف أمر الله عز وجل ، وجعل الجهال ولاية أمر الله ، والمتكلمين بغير هدى ، وزعموا أنهم أهل استنباط علم الله ، فكذبوا على الله ، وزاغوا عن وصية الله وطاعته ، ولم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى ، فضللوا وأضلوا أتباعهم ، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة » (٢) .

ثم لما أمر الله بطاعة رسوله ، والجهد في سبيله ، ورد الأمور إلى الرسول صلى الله عليه وآله وإلى أولي الله ، أظهر مَنته على العباد بفضله عليهم ، وهدايتهم إلى الحق ، حثاً على طاعة أحكامه ، بقوله : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول ، وإنزال القرآن ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم بهدايتكم إلى دين الإسلام.

وعن الباقر عليه السلام : « فضل الله : رسول الله ، ورحمته : [ولاية] الأئمة عليهم السلام » (٣) .

وعنهم عليهم السلام : « فضل الله ورحمته : النبي ، وعليه عليهم السلام » (٤) .

والله (٥) ﴿لَا تَبْعُكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ في الكفر والطغيان ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم ، وهم اولوا الأبواب.

قيل : إن قس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل كانوا مؤمنين بالله قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله (٦) .

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤)

ثم لما أمر الله سبحانه في الآية السابقة بالجهد ، وبين نفرة جمع من ضعفة المسلمين وجميع المنافقين عنه ، حث نبيه صلى الله عليه وآله وأمره بالجد فيه بنفسه ، وتحريض المؤمنين عليه بقوله : ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمد وحدك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه ، وإن خذلك جميع الناس ، ولم ينصرك أحد.

قيل : إن التقدير : إن أردت الفوز فقاتل الكفار (٧) .

وقيل : إنه تعالى بعد ذكر سيئات أخلاق المنافقين ، ومضادتهم للنبي صلى الله عليه وآله ، وسعيهم في الإفساد

بين

(١) تفسير العياشي ١ : ٤٢٢ / ١٠٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٩ .

(٢) إكمال الدين ٢١٨ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٩ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٢٢ / ١٠٥١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٩ .

(٤) جوامع الجامع : ٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٣٩ .

(٥) لا محلّ للقسم هنا ، واللام في قوله تعالى : لَا تَبْعُكُمُ واقعة في جواب (لو لا) فهي حرف جواب وربط ، وليست لام القسم .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٢ .

(٧) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٣ .

المسلمين ، كأنه قال : فلا تعتدّ بهم ، ولا تلتفت إلى أفعالهم ، بل قاتل في سبيل الله ^(١) .
و﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ ولا تحمل عليه ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فإنّ الله ناصرك . ففيه دلالة على أنّ الجهاد كان واجبا عليه ، وإن لم يساعده غيره .

قيل : نزلت في بدر الصغرى ، فإنّه واعدّه أبو سفيان اللقاء فيها ، فكره بعض الناس الخروج معه ، فخرج وما معه إلّا سبعون ، ولم يلتفت إلى أحد ، ولو لم يخرج معه أحد لخرج وحده ^(٢) .
ثمّ أمره بتحريض المؤمنين بقوله : ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال ، ورغبهم فيه بالنّصح ، ووعد النّصر والغنيمة ، وثواب الآخرة ، ولا تعنف بهم - على ما قيل ^(٣) - ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ وأرجه ﴿أَنْ يَكُفَّ﴾ ويمنع عنك ، وعن المسلمين ﴿بِأَسَ الدِّينِ كَفَرُوا﴾ من قريش ، ومكروهمهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ﴾ منهم ﴿بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ وعذابا .

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ (٨٥)

ثمّ قيل : إنّ لما حرّض النبي ﷺ في القتال ، شفع بعض المنافقين إلى النبي ﷺ أن يأذن لبعضهم في التّخلّف عنه ^(٤) ، فنهى الله تعالى عن تلك الشّفاعاة بقوله : ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ إلى أحد ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ مرضيّة عند الله ؛ كأن [يشفع] في

الإحسان إلى مؤمن ، أو دفع شرّ عنه ، طلبا لمرضاة الله .

وعن ابن عباس : الشّفاعاة الحسنّة أن يشفع إيمانه بالله بقتال الكفّار ^(٥) .

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ وحظّ ﴿مِنْهَا﴾ بالانتفاع من أجرها وثوابها .

عن النبي ﷺ : « اشفعوا تؤجروا » ^(٦) .

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ﴾ عند أحد ﴿شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ غير مرضيّة ، كأن يشفع في معصية أو تضييع حقّ وعن

ابن عباس : أن يشفع كفره بالحجّة للكفّار ، وترك إيذائهم ^(٧) .

﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ﴾ وحظّ ﴿مِنْهَا﴾ بالابتلاء بعقوبتها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجر

والعقوبة ﴿مُقِيتًا﴾ وقادرا ، أو على كلّ شيء من الشّفاعاة الحسنّة والسّيئة مطّاعا وحافظا .

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٢٤٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٠ : ٢٠٦ .

عن الصادق عليه السلام ، عن آبائه ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « من أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو دل على خير ، أو أشار به ، فهو شريك » (١) .

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

حَسِيباً (٨٦)﴾

في وجوب ردّ السلام والتحية

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بجهاد الكفار والشّدّة عليهم ، أمر بمسالمتهم إذا سلّموا ، أو برّد تحيتهم ، بقوله : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ وكرمتهم بنوع من الأكرام - [عن] القمّي : السلام وغيره من البرّ (٢) - [سواء] كان المحيّي مسلماً أو كافراً ﴿فَحَيُّوا﴾ المحيّي وقابلوا تحيته ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ كأن تقولوا في جواب من قال : سلام عليكم ؛ عليكم السلام ، أو مع زيادة : ورحمة الله وبركاته ، لوضوح أنّ تحية الإسلام السلام ﴿أَوْ رُدُّوها﴾ بأن تقولوا في جوابه : سلام عليكم .

في بيان كيفية الردّ بالأحسن

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا عطس أحدكم [فسمّته] قولوا : يرحمكم (٣) الله ، ويقول هو : يغفر الله لكم ويرحمكم ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية » (٤) .

في (المناقب) : جاءت جارية للحسن بطاقة ريجان ، فقال لها : « أنت حرّة لوجه الله » فقيل له في ذلك ، فقال : « أدبنا الله تعالى فقال : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية ، وكان أحسن منها إعتاقها » (٥) .
عن الباقر عليه السلام : « مرّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقوم ، فسلم عليهم فقالوا : عليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه ، فقال أمير المؤمنين : لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام ؛ إنّما قالوا : ﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ » (٦) .

وروي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : السلام عليك ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ، وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ، وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال : « وعليك » ، فقال الرجل نقصتني ، فأين ما قال الله - وتلا هذه الآية - فقال : « إنّك لم تترك لي فضلاً ، فرددت عليك مثله » (٧) .

عن الصادق عليه السلام : « من قال السلام عليكم ، فهي عشر حسنات ، ومن قال : السلام عليكم

ورحمة

(١) الخصال : ١٣٨ / ١٥٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٤٥ .

(٣) في الخصال : يرحمك .

(٤) الخصال : ٦٣٣ .

(٥) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ١٨ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٧٢ / ١٣ ، والآية من سورة هود : ١١ / ٧٣ .

(٧) مجمع البيان ٣ : ١٣١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٢٢٨ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٢١١ .

الله ، فهي عشرون حسنة ، ومن قال : السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فهي ثلاثون حسنة «^(١) .
وعنه عليه السلام : « من تمام التّحيّة للمقيم المصافحة ، وتمام التّسليم على المسافر المعانقة »^(٢) .
وعنه عليه السلام ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « لا تبدأوا أهل الكتاب بالتّسليم ، وإذا سلّموا عليكم فقولوا : وعليكم »^(٣) .

في كراهة التّسليم على ثلاثة عشر طائفة

وعنه ، عن أبيه عليه السلام : « لا تسلّموا على اليهود ، ولا على النّصارى ، ولا على المجوس ، ولا على عبدة الأصنام^(٤) ، ولا على موائد شرب الخمر ، ولا على صاحب الشّطرنج والتّرد ، ولا على المختث ، ولا على الشّاعر الذي يقذف المحصنات ، ولا على المصلّي ؛ وذلك أن المصلّي لا يستطيع أن يردّ السّلام ، لأنّ التّسليم من المسلّم تطوّع ، والتّردّ عليه فريضة ، ولا على آكل الرّبا ، ولا على رجل جالس على غائط ، ولا على الذي في الحمام ، ولا على الفاسق المعلن بفسقه »^(٥) .

ثمّ هدّد الله سبحانه على مخالفة الأمر برّد التّحيّة ، أو الإساءة بالحبيّ ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التّقيير والقطمير من أعمالكم ﴿حَسْبِيَ﴾ فيحاسبكم على جميع ما يصدر منكم ، ويجازيكم عليها ، فكونوا من مخالفته على حذر.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثاً (٨٧)﴾

ثمّ أظهر سبحانه عظّمته ووحدانيّته في الألوهيّة والقدرة ، وذكر يوم القيامة واجتماعهم للحساب فيه ، إرعاباً للقلوب وتخويفاً من العصيان ، بقوله : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فاخضعوا لعظّمته وقدرته ، وخصّوه بالعبوديّة والطّاعة ، واعلموا أنّه بالله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ويسوقكم من القبور ﴿إِلَى﴾ حساب ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهو يوم يقوم النّاس لربّ العالمين ﴿لَا رَيْبَ﴾ لعاقل ﴿فِيهِ﴾ .

ثمّ أكّد صدق هذا الحديث ، بعد الحلف ونفي الرّيب عنه ، بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ هو ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ وخبراً ، فإنّ الكذب ممكن في خبر غيره ، ولا يمكن في خبره ؛ لمنافاته لحكمته وغناه.
في الحديث القدسيّ : « كذّبي ابن آدم ، ولم يكن له ذلك »^(٦) .

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ

(١) الكافي ٢ : ٤٧١ / ٩ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٧٢ / ١٤ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٧٤ / ٢ .

(٤) في الخصال : الأوثان .

(٥) الخصال : ٤٨٤ / ٥٧ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٢٥٥ .

أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِرْعَابِ النَّاسِ بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَبَعَثَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ ، وَنَفَى الرِّيبَ فِيهِ ، رَدَعَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مَوَادَّةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَعَنِ الرِّيبِ فِي كُفْرِهِمْ ، بِقَوْلِهِ : ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ اِخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي﴾ كُفْرِ ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ بَعْدَ ظُهُورِهِ ، وَتَفَرَّقْتُمْ فِيهِ ﴿فَتَتَّبِعِينَ﴾ وَفَرَقْتَيْنِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِمَكَّةَ ، وَكَانُوا يَعِينُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَاخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي كُفْرِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ وَتَشَاجَرُوا فِيهِ ^(١) .
وَعَنِ عِكْرَمَةَ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ ضَلُّوا ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ وَانْطَلَقُوا بِهَا إِلَى الْيَمَامَةِ ، فَاخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ ^(٢) .

وَقِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ قَدِمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْلِمِينَ ، فَأَقَامُوا بِالْمَدِينَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَرِيدُ أَنْ نَخْرُجَ إِلَى الصَّحَرَاءِ ، فَأُذِنَ لَنَا فِيهِ ، فَأُذِنَ لَهُمْ ، فَلَمَّا خَرَجُوا لَمْ يَزَالُوا يَرْحَلُونَ مَرِحْلَةً مَرِحْلَةً حَتَّى لَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ ، فَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ مِثْلَنَا لَبَقُوا مَعَنَا وَصَبَرُوا كَمَا صَبَرْنَا ، وَقَالَ قَوْمٌ : هُمْ مُسْلِمُونَ ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَنْسِبَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ حَتَّى يَظْهَرَ لَنَا أَمْرُهُمْ ^(٣) .
فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى نِفَاقَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ﴾ وَرَدَّهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْكُفْرِ ، مِنْ الدَّلِّ وَالصَّغَارِ ، وَالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ مِنْ إِظْهَارِ الْارْتِدَادِ .

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَمَتَّنُونَ إِيمَانَ الْمُنَافِقِينَ وَيَحْتَالُونَ فِيهِ ، قَطَعَ اللَّهُ طَمَعَهُمْ فِي إِيمَانِهِمْ ، بِقَوْلِهِ :
﴿أَأَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ إِلَى الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْجَنَّةِ ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وَخَذَلَهُ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ عَنِ الْهُدَى ، وَخَذَلَهُ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَطَرِيقًا إِلَى الْجَنَانِ .

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَفْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)﴾

ثُمَّ بَالِغَ سَبْحَانِهِ فِي صَرْفِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَوَالِيهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وَتَمَنَّوْا أَنْ تَرْتَدُّوا إِلَى الْكُفْرِ ﴿كَمَا كَفَرُوا﴾ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أَنْتُمْ وَهُمْ ﴿سَوَاءً﴾ فِي الْكُفْرِ ، فَلَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ طَالِبُونَ هَلَاقَكُمْ الْأَبَدِي ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لِأَنْفُسِكُمْ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وَلَا تَرْضَوْا بِهَمِّ لَكُمْ

(١) تفسير الرازي ١٠ : ٢١٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٠ : ٢١٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٢١٨ .

أصدقاء ﴿حَتَّى﴾ يؤمنوا ، وتحققوا إيمانهم بأن ﴿يُهَاجِرُوا﴾ عن بلاد الشرك إلى دار الإسلام ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولنصرة دينه ، وخدمة الرسول ، لا للأغراض الدنيوية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن موافقتكم في الإيمان ، والمجرة عن الأوطان بخلوص النية ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من الحل والحرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لأنفسكم ﴿وَلِيًّا﴾ ولا صديقا ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا معينا بوجه أبدا ، ما داموا على حالة الكفر والشقاق.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾

ثم استثنى من الكفار الذين أمر بقتلهم طائفتين ، أما الطائفة الاولى : بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ وينتهون ﴿إِلَى قَوْمٍ﴾ كافرين يكون ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعهد أكيد ، أن لا تتحاربوا. قيل : هم المسلمون ، فإن النبي ﷺ وادع^(١) وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه ، فله من الجوار مثل الذي لهلال^(٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنه : هم بنو بكر بن زيد مناة^(٣) .

وعن قتادة : هم خزاعة وخزيمة بن عبد مناة^(٤) .

وأما الطائفة الثانية : بقوله : ﴿أَوْ جَاؤُكُمْ﴾ حال كونهم ﴿حَصِرَتْ﴾ وضائق ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عن ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مع قومهم ، لكونكم مسلمين معاهدين معهم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم ، لكونهم على دينهم ، فهم لا لكم ولا عليكم.

في معاهدة الرسول ﷺ مع بني مدلج

قيل : هم بنو مدلج ، عاهدوا المسلمين أن لا يقاتلوهم ، وعاهدوا قريشا أن لا يقاتلوهم ، فضائق صدورهم عن قتال المسلمين للعهد الذي بينهم وللرعب الذي قذف الله في قلوبهم ، وضائق صدورهم عن قتال قومهم لأنهم كانوا على دينهم^(٥) .

ثم من الله على المسلمين بكف أذى المعاهدين عنهم بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تسليط الكفار عليكم

(١) أي صالح وهادن وسالم.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٥٧.

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٢.

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٣ ، عن مقاتل.

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٢٥٧.

﴿لَسَلَطُهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ برفع أثر العهد ، وتقوية قلوبهم ، وإزالة الرعب عنهم ، إذن ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ ألبتة وقتلوكم ، ولكن لم يشأ ذلك ، لكرامتكم عليه باتباع الرسول ودين الإسلام ، فإذا علمتم ذلك ﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ﴾ واجتنبوا عن التعرض لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ بمشيئة الله ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ وتلقوكم بالانقياد والتسليم ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ بالقتل والأسر .

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « نزلت في بني مدلج ، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنا [قد] حصرت صدورنا أن نشهد أنك لرسول الله ، فلسنا معك ولا مع قومنا عليك ، فوادعهم إلى أن يفرغ من العرب ، ثم يدعوهم فإن أجابوا وإلا قاتلهم » (١) .

ذكر معاهدة الرسول ﷺ مع بني الأشجع

عن القمي ، في قوله تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ إلى آخر الآية : أنها نزلت في أشجع ، وبني ضمرة ، وكان خبرهم أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لموعده مّرّ قريبا من بلادهم ، وقد كان رسول الله ﷺ هادن بني ضمرة ووادعهم قبل ذلك ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : هذه بنو ضمرة قريبا منا ، ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة ، أو يعينوا علينا قريشا ، فلو بدأنا بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كَلَّا إِنَّهُمْ أَبْرَ العرب بالوالدين ، وأوصلهم للرحم ، وأوفاهم بالعهد » .

وكان أشجع بلادهم قريبا من بلاد بني ضمرة ، [وهم بطن من كنانة ، وكانت أشجع بينهم وبين بني ضمرة حلف في المراجعة والأمان ، فأجذبت بلاد أشجع وأخصبت بلاد بني ضمرة ، فصارت أشجع إلى بلاد بني ضمرة] فلما بلغ رسول الله ﷺ مسيرهم إلى بني ضمرة ، تهيأ للمصير إلى أشجع فيغزوهم للموادعة التي كانت بينه وبين ضمرة ، فأنزل الله : ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا...﴾ ثم استثنى أشجع فقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية .

وكانت أشجع محالها البيضاء والجليل والمستباح ، وقد كانوا قريبا رسول الله ﷺ ، فهابوا لقرهم من رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم ، وكان رسول الله ﷺ قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئا ، فهّم بالمسير إليهم ، فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن ربيعة (٢) وهم سبعمائة ، فنزلوا شعب سلع (٣) ، وذلك في شهر ربيع سنة ست ، فدعا رسول الله ﷺ أسيد بن حصين

(١) الكافي ٨ : ٣٢٧ / ٥٠٤ .

(٢) مسعود بن ربيعة ؛ بالخاء ، انظر : اسد الغابة ٤ : ٣٥٧ والإصابة في تمييز الصحابة ٣ : ٤١٠ / ٧٩٤٣ ، وفي النسخة والصافي (ربيعة) بالخاء وفي القمي : (ربيعة) بالميم .

(٣) الشعب : هو الطريق في الجبل ، وسلع : هو جبل بسوق المدينة ، أو هو نفسه الشق في الجبل ، انظر معجم البلدان ٣ : ٢٦٧ .

فقال [له] : « اذهب في نفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع » ، فخرج أسيد ومعه ثلاثة نفر من أصحابه فوقف عليهم فقال : ما أقدمكم ؟ فقام إليه مسعود بن ربيعة ؛ وهو رئيس أشجع ، فسلم على أسيد وعلى أصحابه وقالوا : جئنا لنوادع محمدا ، فرجع أسيد إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « خاف القوم أن أغزوهم ، فأرادوا الصلح بيني وبينهم » .

ثم بعث إليهم بعشرة أحمال ^(١) تمر فقدمها أمامه ، ثم قال : « نعم الشيء الهدية أمام الحاجة » ، ثم أتاهم فقال : « يا معشر أشجع ، ما أقدمكم ؟ قالوا : قريب دارنا منك ، وليس في قومنا أقل عددا منا ، فضقنا بحريك لقرب دارنا ، وضقنا بحرب قومنا ^(٢) لقلتنا فيهم ، فجئنا لنوادعك ، فقبل النبي ﷺ ذلك منهم ووادعهم ، فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم ، وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إلى آخر الآية ^(٣) .

والقمي عن الصادق عليه السلام : « كانت السيرة من رسول الله ﷺ قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قتله ، ولا يحارب إلا من حاربه وأراد ، وقد كان نزل في ذلك من الله تعالى : ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَغَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه واعتزله ، حتى نزلت عليه سورة براءة ، وأمر بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله ، إلا الذين قد عاهدهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكة إلى مدة ، منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ^(٤) ، وسيجيء تمام الحديث في سورة براءة.

﴿سَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)﴾

ثم أذن سبحانه في قتال المعاهدين الذين أرادوا بعهدهم الغدر بالمسلمين ، ونقضوه بقوله : ﴿سَجِدُونَ﴾ قوما ﴿آخِرِينَ﴾ من الكفار الذين ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعهدهم ﴿أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ ويستريحوا من بأسكم بالعهد ، أو بإظهار كلمة التوحيد ﴿وَيَأْمَنُوا﴾ أيضا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإظهار الكفر عندهم . قيل : هم قوم من بني أسد وغطفان ، إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين ، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ^(٥) .

(١) في المصدر : أجمال .

(٢) في المصدر : قومك .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٤ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٨١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٥ ، وفي النسخة : سهل بن عمر .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ : ٢١٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢٥٨ .

وعن الصادق عليه السلام : « نزلت في عيينة بن حصين ^(١) الفزاري ، أجذبت بلادهم ، فجاء إلى رسول الله ﷺ ووادعه على أن يقيم ببطن نخل ولا يتعرض له ، وكان منافقا ملعونا ، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ الأحمق المطاع » ^(٢) .

﴿كُلَّمَا رُزُّوا﴾ ودعوا ﴿إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ من الكفر والفساد في الإسلام ، وقتال المسلمين ، نقضوا العهد ، و﴿أُزْكِسُوا﴾ وانقلبوا ﴿فِيهَا﴾ أقبح انقلاب ، ودخلوا فيها أشنع دخول . وهو استعارة لشدة كفرهم وعداوتهم للمسلمين ؛ لأن من وقع في شيء منكوسا يتعدّر عليه الخروج .

ثم أنّه تعالى بعد بيان عذرهم ونفاقهم ، أذن في قتالهم بعد نقضهم العهد ، بقوله : ﴿فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِزْ لَكُمْ﴾ ولم يتنحوا عن قتالكم ، ولم ﴿يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ ولم يطلبوا منكم الصلح ، ﴿وَلَمْ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم ، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ كلما قدرتم عليهم ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وفي أي مكان تمكنتم منهم في حلّ أو حرم ﴿وَأُولَئِكَمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ في قتلهم وأسرهم ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وحجة ظاهرة ، من ظهور كفرهم ، وعداوتهم ، وغدرهم ، ونقضهم العهد ، وإضرارهم بالإسلام .

وقيل : إنّ المراد من السلطان المبين : إذنه تعالى في قتلهم ^(٣) .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مِنْكُمْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢)

ثم لما أذن الله في القتال ، وكان معرضا لقتل مؤمن فيه خطأ أو اشتباها ، بيّن حكمه بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ﴾ في زمان من أزمنة التكليف جائزا ﴿لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق ، وليس من شأنه ذلك في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونه ﴿خَطَأً﴾ وبغير القصد إليه .
وقيل : إنّ الاستثناء من لازم الحكم ، وهو أنّه يعاقب عليه إلا إذا كان خطأ ^(٤) .

(١) في النسخة : عيينة بن الحصين ، تصحيف ، انظر : اسد الغابة ٤ : ١٦٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٤٧ ، جمع البيان ٣ : ١٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٨ .

وعن القمّي : يعني [لا عمدا] ولا خطأ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي أخى أبي جهل لأمه ، كان أسلم وقتل بعد إسلامه رجلا مسلما وهو لا يعلم بإسلامه ، وكان المقتول الحارث بن يزيد بن أنسة^(٢) العامري ، قتله بالحرّة بعد الهجرة ، وكان أحد من ردّه عن الهجرة ، وكان يعدّب عياشا مع أبي جهل »^(٣) .

وروي عن عروة بن الزبير أنّ حذيفة بن اليمان كان مع رسول الله ﷺ في أحد ، فأخطأ المسلمون وظنّوا أن أباه اليمان واحد من الكفار ، فأخذوه وضربوه بأسيا ففهم وحذيفة يقول : إنّه أبي ، فلم يفهموا قوله إلّا بعد أن قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ، فلما سمع الرسول ﷺ ذلك ازداد وقع حذيفة عنده . فنزلت الآية^(٤) .

وقيل : إنّ الآية نزلت في أبي الدرداء ، ذلك أنّه كان في سرية ، فعدل إلى شعب لحاجة له ، فوجد رجلا في غنم له فحمل عليه بالسيف ، فقال الرجل : لا إله إلّا الله ، فقتله وساق غنمه ، ثمّ وجد في نفسه شيئا ، فذكر الواقعة لرسول الله ﷺ ، فقال عليه السلام : « هلا شققت عن قلبه » ، وندم أبو الدرداء . فنزلت الآية^(٥) .

في كفارة قتل المؤمن خطأ

ثمّ بيّن الله حال الكفارة والدية بقوله : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا **خَطَأً**﴾ وبغير قصد ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وعتق نسمة ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ واجب عليه ، كفارة للقتل .

عن الصادق عليه السلام : « كلّ العتق يجوز فيه المولود ، إلّا كفارة القتل ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعني بذلك : المقرّة و [قد] بلغت الخنث »^(٦) .

عن الكاظم عليه السلام ، كيف تعرف المؤمنة ؟ قال : « على الفطرة »^(٧) .

﴿وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ ومؤداة ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ واجبة عليه ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ عليه ، ويعفوا عنها .

قيل : سمي العفو عن الدية صدقة حتّا عليه ، وتنبيهها على فضله . وفي الحديث : « كلّ معروف صدقة »^(٨) .

سئل الصادق عليه السلام عن الخطأ الذي فيه الدية والكفارة ، هو الرجل يضرب الرجل ولا يتعمّد قتله؟

(١) تفسير القمي ١ : ١٤٧ .

(٢) في النسخة : الحارث بن يزيد أبو هنيشة ، تصحيف ، وهو الحارث بن يزيد بن أنسة ، وقيل : أنيسة ، راجع : اسد الغابة ١ : ٣٥٣ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ١٣٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٠ : ٢٢٧ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٤٢٦ / ١٠٦٣ ، الكافي ٧ : ٤٦٢ / ١٥ ، والمراد من بلوغها الخنث : أي بلوغها مبلغ الرجال ومبلغ التكليف الشرعي والمعصية والطاعة . النهاية ١ : ٤٤٩ .

(٧) تفسير العياشي ١ : ٤٢٦ / ١٠٦٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٧ .

(٨) تفسير أبي السعود ٢ : ٢١٥ .

قال : « نعم » ، قيل : فإذا رمى شيئا فأصاب رجلا ؟ قال : « ذلك الخطأ الذي لا شك فيه ، وعليه الكفارة والدية » (١) .

﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ كافرين ﴿عَدُوٍّ﴾ ومحارب ﴿لَكُمْ﴾ لا عهد بينكم وبينهم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لم يعلم القتال إيمانه ، لكونه بين الكفار ، وفي دار الحرب ، ولم يهاجر إلى دار الإسلام ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ .

عن الصادق عليه السلام ، في رجل مسلم [كان] في أرض الشرك ، فقتله المسلمون ، ثم علم به الإمام بعد ؟

فقال : « يعتق مكانه رقبة مؤمنة ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ الآية » (٢) .
وفي رواية : « وليس عليه الدية » (٣) .

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ كفر ، ولكن كان ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعهد أكيد ﴿فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ ومؤداة ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ ووارثه ، واجبة على القتال ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ لازم عليه كفارة لقتله ؛ كما عن الصادق عليه السلام (٤) .

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ ولم يملك الرقبة ، ولم يتمكن من شرائها بما زاد عن نفقته ونفقة عياله ﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ﴾ هلالين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ ومتواليين بدلا عن العتق المأمور به ، وإنما شرعت هذه الكفارة لكونها ﴿تَوْنَةً﴾ مقبولة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من التقصير في المبالغة في الاحتياط ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في قلوبكم من العمد وعدمه ﴿حَكِيمًا﴾ في ما أمركم به في موضوع قتل الخطأ .

عن الصادق عليه السلام : « إن كان على رجل صيام شهرين متتابعين فأفطر أو مرض في الشهر الأول ، فإن عليه أن يعيد الصيام ، وإن صام الشهر الأول وصام من الشهر الثاني شيئا ، ثم عرض له ما له فيه العذر ، فعليه أن يقضي » (٥) . يعني ما بقي عليه .

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

ثم بالغ سبحانه في التهديد على قتل المؤمن متعمدا ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ حال كون القتال ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ في قتله قاصدا له ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ الذي يستحقه بهذا القتل عند الله ﴿جَهَنَّمُ﴾ فيدخلها يوم القيامة حال كونه ﴿خَالِدًا﴾ ودائما ﴿فِيهَا﴾ حكم الله بذلك ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أشد الغضب

(١) تفسير العياشي ١ : ٤٢٨ / ١٠٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٧ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ١١٠ / ٣٧٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٢٥ / ١٠٦١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٧ .

(٤) جمع البيان ٣ : ١٤٠ .

(٥) الكافي ٤ : ١٣٩ / ٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٧ .

﴿وَلَعَنَهُ﴾ وأبعده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ﴾ وهياً ﴿لَهُ﴾ في جهنم ﴿عَذَاباً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره.

في ذكر قصّة ارتداد مقيس ولحقه بالمشرّكين

روي أنّ مقيس بن صبابه ^(١) الكناني ، كان قد أسلم هو وأخوه هشام ^(٢) ، فوجد أخاه قتيلاً في بني النّجار ، فأتى رسول الله ﷺ وذكر القصّة ، فأرسل ﷺ معه الزبير بن العيا ^(٣) الفهري ؛ وكان من أصحاب بدر ، إلى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتصّ منه إن علموه ، وبأداء الدّية إن لم يعلموا ، فقالوا : سمعنا وطاعة لله ورسوله ، لا نعلم له قاتلاً ، ولكنّا نؤدّي ديتّه ، فأتوه بمائة من الإبل ، فانصرفا راجعين إلى المدينة ، حتّى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشّيطان مقيسا فوسوس إليه فقال : أتقبل دية أخيك فيكون مسبّة ^(٤) عليك ، اقتل هذا الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس ، وتبقى الدّية فضيلة ، فرماه بصخر فشدخ رأسه فقتله ، ثمّ ركب بعيراً من الإبل وساق بقيّتها إلى مكّة كافراً ، وهو يقول : قتلت به فهراً وحملت عقله سراة بني النّجار أصحاب قارح ^(٥) و أدركت ثأري واضطجعت موسداً و كنت إلى الأوثان أول راجع فنزلت الآية. وهو الذي استثناه رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة ممّن آمنه ، فقتل وهو متعلّق بأستار الكعبة ^(٦) .

عن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن المؤمن يقتل المؤمن متعمّداً ، أله التوبة ؟ قال : « إن كان قتله لإيمانه فلا توبة له ، وإن كان قتله لغضب أو لشيء من أشياء الدّنيا ، فإنّ توبته أن يقاد منه ، وإن لم يكن علم به انطلق إلى أولياء المقتول فأقرّ عندهم بقتل صاحبهم ، فإن عفوا عنه فلم يقتلوه أعطاهم الدّية ، واعتق نسمة ، وصام شهرين متتابعين ، وأطعم ستين مسكيناً توبة إلى الله عزّ وجلّ » ^(٧) .
وعنه عليه السلام : « لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً [حراماً] » .
وقال : « لا يوفّق قاتل المؤمن متعمّداً للتوبة » ^(٨) .

(١) في تفسير أبي السعود : ضبابه.

(٢) في النسخة : وولده هشام ، تصحيف صوابه من تفسير أبي السعود ، وراجع : تاريخ الطبري ٢ : ٦٠٩ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٢٥٠ .

(٣) كذا في النسخة ، وفي تفسير أبي السعود وروح البيان : الزبير بن عياض ، ولم نجده في أصحاب بدر ، وفي مجمع البيان ٣ : ١٤١ : قيس بن هلال ، وراجع : بحار الأنوار ٢٢ : ٢١ .

(٤) أي يكون عاراً عليك وسبباً للسّباب.

(٥) في تاريخ الطبري ٢ : ٦٠٩ (أصحاب قارح) وفارح : حصن لبني النجار .

(٦) تفسير أبي السعود ٢ : ٢١٦ ، تفسير القرطبي ٥ : ٣٣٣ مع اختلاف في كلمات الشعر .

(٧) الكافي ٧ : ٢٧٦ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٨ .

(٨) الكافي ٧ : ٢٧٢ / ٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٨ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ
السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾

ثم أمر الله سبحانه المجاهدين بالتثبت في القتل ، والاكتفاء بظاهر الإسلام في الكف عنه بقوله :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرتم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولجهاذ الكفار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وتثبتوا
واستكشفوا حال من تريدون قتله ، وميزوا بين الكافر والمؤمن ، حتى لا تقتلوا مؤمنا بغير حق ، وعليكم
الاكتفاء بظاهر الحال في الإيمان ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ الذي هو تحية المسلمين وأمانة
الإسلام ، أو لمن ألقى إليكم الانقياد والتسليم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما أظهرت الإسلام طلبا للسلامة وتحفظا
على نفسك ، بل عاملوه بظاهر الحال ، ولا تتهموه بالكفر فتقتلوه حال كونكم بقتله ﴿تَبْتَغُونَ﴾ وتطلبون
اغتنام أمواله التي تكون ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومتاع الدار الفانية ، والحطام السريع الزوال ، فإن أردتم
الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ من أموال المشركين تغنيكم عن أموال المقتولين المظهرين للإسلام بتهمة
الكفر وعدم كون إسلامهم عن صميم القلب ، فإنكم ﴿كَذَلِكَ﴾ [كهؤلاء] المظهرين للإسلام ﴿كُنْتُمْ
مِنْ قَبْلُ﴾ وفي بدو إسلامكم ، لم تكن فيكم علامة قطعية على صدق إيمانكم ، وتحقق اليقين بالعقائد
الحقة في قلوبكم ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول إسلامكم الظاهري ، فحقن به دماءكم ، وصان به أموالكم
من غير توقيف على العلم بموافقة ما سمع من أفواهكم لما في قلوبكم.

ثم أكد سبحانه الأمر بالتبيين ^(١) والتثبت في شأن من يريدون قتله ، بقوله : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولا تعجلوا
في قتل أحد حتى تحرزوا كفره ، ثم بالغ في ذلك بوعده العقاب على ترك التبيين ، بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ من التبيين وعدمه والطاعة والعصيان ، ﴿خَبِيرًا﴾ ومطلعاً حق الاطلاع ، فيجازيكم عليه حق
الجزاء.

في ذكر قتل اسامة رجلا بطن الكفر

روي أن مرداس بن نهيك - رجل من أهل فذك - أسلم ولم يسلم من قومه غيره ، فذهبت سرية
الرسول إلى قومه وأميرهم غالب بن فضالة ، فهرب القوم وبقي مرداس لثقتة بإسلامه ، فلما رأى الخيل ألباً
غنمه إلى عاقول ^(٢) من الجبل ، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله
السلام عليكم ، فقتله اسامة بن زيد

(١) كذا ، والظاهر أن الصواب التبيين ، في المواضع الثلاثة.

(٢) العاقول هنا : الأرض الوعرة ، الكثيرة المعاطف.

وساق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وحدا شديدا ، وقال : « قتلتموه إرادة ما معه » ، ثم قرأ الآية على اسامة ، فقال اسامة : يا رسول الله ، استغفر لي ، فقال : « وكيف وقد تلا : لا إله إلا الله ؟ ! » ، قال اسامة : فما زلت اعيدها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لي وقال : « أعتق رقبة »^(١) .

وعن القمي رحمه الله : نزلت لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر ، وبعث اسامة بن زيد في خيل إلى بعض [قرى] اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الإسلام ، وكان رجل من اليهود يدعى مرداس بن نهيك الفدكي في بعض القرى ، فلما أحسن بخيل رسول الله ﷺ جمع أهله وماله وصار في ناحية جبل ، وأقبل يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فمر به اسامة بن زيد فطعنه وقتله ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبره بذلك ، فقال [له] رسول الله : [قتل رجلًا شهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ ! فقال : يا رسول الله ، إنما قال تعوذا من القتل . فقال رسول الله :] فلا شققت الغطاء عن قلبه [و] لا ما قال بلسانه قبلت ، ولا ما كان في نفسه علمت » ، فحلف اسامة بعد ذلك أن لا يقتل أحدا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فتخلف عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حروبه^(٢) ، وأنزل الله في ذلك : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾^(٣) .

وقيل : إن القاتل محم بن جثامة ، لقيه عامر بن الأضبط فحيّاه بتحية الإسلام ، وكانت بين محم وبينه إحنة^(٤) في الجاهلية ، فرماه بسهم فقتله ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « لا غفر الله لك » ، فما مضت به سبعة أيام حتى مات ، فدفعوه ، فلفظته الأرض ثلاث مرّات ، فقال النبي ﷺ : « إن الأرض تقبل من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يريكم عظم الذنب عنده » ، ثم أمر أن تلقى عليه الحجارة^(٥) .

وقيل : إن المقداد بن الأسود [قد] وقعت له مثل واقعة اسامة ، قال : فقلت : يا رسول الله ، أرايت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني ، فضرب إحدى يدي بالسيف ، ثم لاذ بشجرة فقال : أسلمت لله تعالى ، أفأقتله يا رسول الله بعد ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا تقتله » ، فقلت : يا رسول الله ، إنّه قطع يدي ؟

(١) تفسير الرازي ١١ : ٣ .

(٢) وتلك حجة داحضة ، لأن أمير المؤمنين عليه السلام يدور مع الحق حيثما دار بنص الرسول ﷺ ، فضلا عن أن الرسول ﷺ قد أخبره بقتال الفئات الباغية من الناكثين وهم أصحاب الجمل ، والقاسطين وهم أهل الشام ، والمارقين وهم الخوارج ، وقد نصّ الكتاب الكريم على قتال أهل البغي بقوله : ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَعْمٍ﴾ . [الحجرات : (٤٩ / ٩)] وكان رسول الله ﷺ قد قال لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » فقتله أصحاب معاوية في صفين . وكان أمير المؤمنين عليه السلام راية الهدى التي ميزت رجال الامّة ، فبعضهم نصر الحق فكانوا شهداء وصديقين ، وبعضهم نصر الباطل وقاتل الإمام عليه السلام وناصبه العداء فكانوا ناكثين وقاسطين ومارقين ، وبعضهم وقف على التلّ فكانوا مذنبين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٤٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٤٩ .

(٤) الإحنة : الحقد والضغن .

(٥) تفسير الرازي ١١ : ٣ .

فقال ﷺ : « لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلة بعد أن تقتله ، وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال » (١) .

أقول : لا منافاة بين الروايات ، لجواز نزولها عند وقوع جميعها ، فكان كلّ منهم زعم أنّها نزلت في واقعه .

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى
الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى
الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (٩٥) و (٩٦)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد ما بين حكم قتل المؤمن في الجهاد خطأ ، وحكم وجوب التّبيين (٢) ، ووجوب الاكتفاء في إحراز الإيمان بالظّاهر - بيّن أنّ الجهاد من الواجبات الكفائية ، فيجوز القعود عنه مع قيام من به الكفاية ، ولكن غاية الفضل والثّواب للقائمين به بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ والمتخلّفون عن الجهاد ، حال كونهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكونهم ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ من مرض ، أو عمى ، أو عرج ، أو غيرها من الأعذار ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ في القرب عند الله ، والأجر في الآخرة وفيه إشعار بجواز القعود عن الجهاد ، إذا كان القائمون به كافين له ، والتّغيب في القيام به .

روي أنّها نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية من بني واقف ، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ يوم تبوك (٣) .

وروي عن زيد بن ثابت أنّه قال : كنت إلى جنب رسول الله ﷺ ، فغشيته السّكينة ، فوقع فخذته على فخذي حتّى خشيت أن ترصّها ، ثمّ سرّي عنه ، وازيل عنه ما عرض له من شدّة الوحي ، فقال : « اكتب » فكتبت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمجاهدون ، فقال ابن [أمّ] مكتوم (٤) وكان

(١) تفسير الرازي ١١ : ٣ .

(٢) كذا ، والظاهر أن الصحيح : التّبيين .

(٣) مجمع البيان ٣ : ١٤٧ ، تفسير الصّافي ١ : ٤٤٩ .

(٤) وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم القرشي العامري ، وأم مكتوم أمّه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله ، وهو خال أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، فإنّ أمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم ، وقد اختلف في اسمه فقيل : عبد الله ، والأكثر عمرو ، وكان النّبي ﷺ يستخلفه على المدينة ليصلي بالنّاس ، وكان ضرير البصر ، شهد القادسية وهو أعمى ، وقتل فيها سنة ٢٣ هـ . اسد الغابة ٤ : ١٢٧ ، الأعلام للزركلي ٥ : ٨٣ .

أعمى : يا رسول الله ، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين ؟ فغشيت السكينة كذلك ، ثم سرى عنه فقال : « اكتب » : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ... ﴾ قال زيد : أنزلها الله وحدها فألحقها (١) .

أقول : فيه دلالة على أنّ أولي الضر مساو للمجاهدين .

ثم لم يكتف سبحانه في ترغيب المجاهدين بذكر عدم مساواتهم للقاعدين ، بل صرح بتفضيلهم على القاعدين بقوله : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾ الأصحاء ﴿ دَرَجَةً ﴾ عظيمة من الأجر .

ثم أكد جواز القعود عند قيام من به الكفاية بقوله : ﴿ وَكُلًّا ﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ بفضل العاقبة أو المثوبة ﴿ الْحُسْنَى ﴾ لحسن عقيدتهم ، وخلوص نيتهم ، وحضورهم لطاعة ربهم ، وإنما التفاوت بزيادة العمل الموجبة لزيادة الثواب .

ثم أكد فضيلة المجاهدين بقوله : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾ الأصحاء ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وثوابا جزيلا . ثم فضل الله الأجر العظيم والدرجة المبهمة بقوله : ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ رفيعة في الجنة كائنة ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى قيل : عددها سبعون ، ما بين كلّ درجتين عدو الفرس الجواد المضمّر سبعين خريفا ، وقيل : سبعمائة .

وروي أنّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض (٢) .

أقول : يمكن أن يكون الاختلاف لاختلاف المجاهدين في الإيمان ، وخلوص النية . ﴿ وَمَغْفِرَةً ﴾ لما يصدر منهم من الزلات والخطايا في مدة أعمارهم ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة من الله لا توصف ببيان .

ثم قرّر المغفرة والرحمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ للعاصين ﴿ رَحِيمًا ﴾ بالمؤمنين ، وأفضلهم المجاهدون .

في إثبات أفضلية أمير المؤمنين عليه السلام وردّ الفخر القائل بأفضلية أبي بكر منه

ثم أعلم أنّ في الآية دلالة واضحة على أنّ المجاهد من حيث المجاهدة أفضل من القاعد عنها ، وإن كان القاعد من جهة الكمالات الاخر المعنوية قد يكون أفضل ، وعلى هذا يجب الحكم بأفضلية المجاهد على القاعد ، حتّى يثبت للقاعد جهة فضيلة مكافئة لفضيلة المجاهدة ، أو راجحة عليها ، وقد ثبتت الجهة الراجحة لرسول

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٢٦٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٦٦ .

الله ﷺ لوضوح أنّ الكمال الذي أوجب استحقاق منصب الرسالة كمال لا يكافئه شيء. ولذا لا يمكن أن يقال بأفضلية المجاهد على رسول الله ﷺ وإن كان من القاعدين ، ووجب القول بأفضلية المجاهد على غيره ﷺ .

إذا تمهّد ذلك فنقول : لا شبهة أنّ أمير المؤمنين عليّاً كان أفضل المجاهدين ، فيجب أن يحكم بأنّه أفضل من أبي بكر وأضرابه من القاعدين ، كما استدلل أصحابنا رضوان الله عليهم بهذه الآية عليها . واعتراض الفخر الرازي عليه بلزوم أفضلية أمير المؤمنين على رسول الله ﷺ من الخرافات التي لا ينبغي صدورها من ذي مسكة لما ذكرنا .
وأما قوله : إنّ أبي بكر كان مجاهداً في سبيل الله ، فغير ثابت ، إن لم يثبت كونه من الفارين من الجهاد في أحد (١) .

وأما كونه مجاهداً بدعوة الناس إلى الإسلام ، ولذا أسلم بدعوته جمع من الصحابة ، كما قال المعتز ، فغير معلوم أيضاً ، لعدم دلالة دليل قاطع عليه ، وعلى تقدير ثبوته لم تكن دعوته أكثر من دعوة عليّ عليه السلام ، وقد ثبت بالروايات المسلمة بين الخاصة والعامة أنّه المراد من قوله : « **وَيَتَلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** » (٢) .
وليت شعري من أين علم هذا الرجل المتعصب مبالغة أبي بكر في إسلام سائر الناس !
وقوله بأنّه أسلم بدعوته عدّة قليلة من الصحابة ، على تقدير تسليمه ، لا يدلّ على مبالغته في الدّعوة ، وادّعاءه أنّه صرف ماله ونفسه في الدّبّ عن النّبّي ، فدعوى بلا برهان ، مع ثبوت بخله بصدقة

(١) لقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ أنّه لم يبق مع رسول الله ﷺ يوم أحد عند هزيمة الناس إلّا أمير المؤمنين عليّاً وأبو دجانة ، وسهل بن حنيف ، وقيل : عبد الله بن مسعود ، وكان لأمر المؤمنين عليّاً الفضل في ردّ الكتاب وقتل أصحاب الألوية من المشركين ، ومن ثمّ في ثبات من ثبت من المسلمين ، فنادت الملائكة بفضله : (لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتى إلّا علي) وتباهوا بعظيم منزلته في مواصلة رسول الله ﷺ (راجع : تاريخ الطبري ٢ : ٥١٤ ، ومجمع الزوائد ٦ : ١١٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٣ : ٢٦١ و ١٤ : ٢٥٠) .
(قال ابن عباس : لعليّ عليه السلام أربع خصال ليست لأحد ... وعدّه منها صبره مع رسول الله ﷺ يوم فرّ الناس عنه في أحد (راجع مستدرك الحاكم ٣ : ١١١ ، الاستيعاب ٣ : ٢٧ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١١٦) .
(وفي حنين لم يبق مع رسول الله ﷺ غير تسعة نفر من بني هاشم ، وكان على رأسهم أمير المؤمنين عليّاً ، وعاشروهم أئمن بن أم أيمن الذي استشهد فيها .)

(وفي خيبر بعث رسول الله ﷺ أبا بكر بالراية إلى خيبر فاتخزم ولم يكن فتح ، وبعث بعده عمر فرجع يجيئ أصحابه ويجيئونهم (تاريخ الطبري ٣ : ١٢ ، مستدرك الحاكم ٣ : ٣٧) فقال ﷺ : « لأعطين الراية غدا رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّ الله ورسوله ، كراراً غير فرار » فأعطاه أمير المؤمنين عليّاً وكان الفتح على يديه (راجع : البداية والنهاية ٧ : ٣٤٩ ، وأسد الغابة ٤ : ٢١ ، وحلية الأولياء ١ : ٦٢) .

(وأخرج البخاري حديث الراية في الصحيح ج ٥ ص ٨٧ ، كتاب المناقب - باب مناقب عليّ عليه السلام حديث ١٩٧ وص ٢٧٩ من نفس الجزء - كتاب المغازي - باب غزوة خيبر . وأخرجه مسلم في الصحيح ٤ : ١٨٧١ ، كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل عليّ عليه السلام .)
(٢) هود : ١١ / ١٧ .

درهم قدّام نحوى الرسول^(١) ، وغاية خوفه على نفسه في الغار ، وأمير المؤمنين عليّ^{عليه السلام} نائم في فراش الرسول^{عليه السلام} .

وكيف أنّه كان يقيم الدلائل والبيّنات على صدق النبيّ^{عليه السلام} ، ويزيل الشبهات والضلالات عن القلوب ، مع جهله بعد مدّة مديدة من إسلامه بمعنى (الإبت) في قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾^(٢) ! ولو لا الإطناب المخلّ في عبارة هذا الرجل لنقلتها حتّى يعلم أنّ العصبية كيف أعمته حتّى قال بأفضلية أبي بكر من أمير المؤمنين عليّ^{عليه السلام} ، مع كون بطلانها أظهر من الشمس في رابعة^(٣) النهار .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إيجاب الهجرة بقوله : ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وحكمه بقتل من لم يهاجر بقوله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾^(٤) وبيان أحكام القتال ، شرع في تهديد غير المهاجرين بعذاب الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ المؤكّلون على قبض الأرواح ، حال كونهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة ، وتعلّم أحكام الإسلام والعمل بها ، والقيام بالجهاد ، وبالرضا بمجاورة المشركين .

﴿قَالُوا﴾ سألت الملائكة المتوفّين^(٥) تقريراً لهم : إنكم ﴿فِيهِمْ﴾ وفي أيّ حال ﴿كُنْتُمْ﴾ من امور دينكم ؟ ولم تركتم الجهاد والعمل بأحكام الإسلام ؟ ﴿قَالُوا﴾ لهم اعتذاراً عن تقصيرهم في القيام بالوظائف الدينية : إنّنا ﴿كُنَّا﴾ بعد إسلامنا ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾ مستذلّين عند المشركين ، مقهورين لهم ، عاجزين عن العمل بشرع محمد^{عليه السلام} ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي تكون دار الشرك والكفر . فردّ عليهم الملائكة و﴿قَالُوا﴾ في جوابهم تقريراً أيضاً : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ومملكته عريضة ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وتنتقلوا إلى قطر آخر من أقطارها يسكنه المسلمون ، حتّى تتمكنوا من إقامة دينكم ، والعمل بوظائفكم ، ولا يمنعكم المشركون عنها ، كما فعله من هاجر إلى المدينة أو

(١) لما نزلت آية النجوى (المجادلة : ٥٨ / ١٢) لم يعمل بها أحد من الصحابة إلّا أمير المؤمنين علي^{عليه السلام} ، راجع : (تفسير الطبري ٢٨ : ١٤ ، سنن الترمذي ٥ : ٤٠٦ / ٣٣٠٠ ، الخصائص للنسائي : ح ١٤٦ ، مستدرک الحاكم ٢ : ٤٨١) .

(٢) الدر المنثور ٨ : ٤٢١ ، والآية من سورة عبس : ٨٠ / ٣١ .

(٣) في الأصل : رابعة ، تصحيف .

(٤) النساء : ٤ / ٨٩ .

(٥) في النسخة : المتوفون عنهم .

الحبشة ، فأنتم بهوى أنفسكم مع قدرتكم على الهجرة ، بقيتم في دار الشُّرك وأرض الكفر .
 فبعد إتمام الحجّة عليهم أو عدّهم بقوله : ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين تعمّدوا في ترك الهجرة ، وقصّروا في
 تعلّم الدّين والعمل بالأحكام ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ، كما كان مأواهم دار الشُّرك في
 الدّنيا ، ومصيرهم ومنقلبهم النَّار ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ومنقلباً لهم .

قيل : إنّ جمعا من المسلمين لم يهاجروا من مكّة إلى المدينة ، ثمّ خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا
 فيها ، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، وقالوا لهم ما قالوا ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « هم قيس بن الفاكهة بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وقيس بن
 الوليد بن المغيرة ، وأبو العاص بن المنبّه بن الحجاج ، وعليّ بن أمية بن خلف » ^(٢) .

وعن القمي عليه السلام : نزلت في من اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام ولم يقاتلوا معه ، فقالت الملائكة لهم عند
 الموت : ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ قالوا : كنّا مستضعفين في الأرض ، أي لم نعلم مع من الحقّ ، فقال الله : ﴿أَلَمْ
 تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي دين الله وكتابه واسع ، فتنظروا فيه ^(٣) .
 أقول : هذه الرواية تأويل ، والسّابقة تنزيل .

عن النبي ﷺ : « من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ، وإن كان شبرا من الأرض ، وجبت له الجنّة
 » ^(٤) .

وفي (نهج البلاغة) ، قال : « لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها اذنه ،
 ووعاها قلبه » ^(٥) .

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن الضّعفاء ؟ فكتب : « المستضعف من لم ترفع [إليه] حجّة ، ولم
 يعرف الاختلاف ، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف » ^(٦) .

**﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
 يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨)**

ثمّ استثنى الله تعالى من الوعيد غير القادرين على الهجرة بقوله : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والمقهورين في
 أيدي الكفار ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ ولا يتمكّنون تدييرا للخروج
 من بلد الكفر ، ولا يملكون نفقة للسّفر ، أو لا يقدرون على حركة للمرض ﴿وَلَا

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢٦٩ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٣ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٣ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٤ .

(٥) نهج البلاغة : ٢٨٠ / ١٨٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٣ .

(٦) الكافي ٢ : ٢٩٩ / ١١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٤ .

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١﴾ ولا يعرفون طريقا.

في معنى المستضعف

روي أنه بعث النبي ﷺ بهذه الآية إلى مسلمي مكة ، فقال جندب بن ضمرة ^(١) لبنيه : احملوني فإني لست من المستضعفين ، ولا إني لا أهتدي الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة ، وكان شيخا كبيرا ، فمات في الطريق ^(٢) .

قيل : إن الاستثناء منقطع ، لعدم دخول المستضعفين في ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٣) .

وقيل : إنَّ ضمَّ الولدان إلى الرجال والنساء ، مع عدم كونهم مكلفين ، للمبالغة في إيجاب الهجرة ، أو للإشعار بأنه يجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم ^(٤) .

عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن المستضعفين ؟ فقال : « البهلاء في خدرها ، والخادمة تقول لها : صلي فتصلي ، لا تدري إلا ما قلت لها ، والجليب الذي لا يدري إلا ما قلت له ، والكبير الفاني ^(٥) ، والصغير ^(٦) » .

قيل : الجليب : الذي يجلب من بلد إلى آخر ^(٧) .

وعنه عليه السلام أنه سئل من هم ؟ قال : « قال نساؤكم وأولاكم » ثم قال : « أ رأيت أم أيمن ؟ فإني أشهد أنها من أهل الجنة ، وما كانت تعرف ما أنتم عليه » ^(٨) .

وعنه عليه السلام : « هو الذي لا يستطيع حيلة يدفع بها عنه الكفر ، ولا يهتدي سبيلا إلى الإيمان ، لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر » قال : « الصبيان ، ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان » ^(٩) .

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩٩)

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المستضعفون ﴿عَسَىٰ اللَّهُ﴾ ويرجى منه ﴿أَن يَغْفُوَ﴾ ويصفح ﴿عَنْهُمْ﴾ وفي التعبير عن عدم استحقاقهم العقوبة بالغفو عنهم ، إشارة إلى مبعوضيّة عدم الهجرة في نفسه ، وإن كانوا معذورين فيه .

ثم قرّر سبحانه وتعالى الغفو عنهم بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ وصفوحا عن المعاصي ﴿غَفُورًا﴾ وستارا للذنوب .

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغَمَا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ

(١) في النسخة : جندب بن مغيرة ، تصحيف ، انظر : اسد الغابة ١ : ٣٠٣ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٣ .

(٣) النساء : ٤ / ٩٧ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٣ .

(٥) زاد في تفسير العياشي : والصبي .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٤٣٥ / ١٠٩٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٤ .

(٧) تفسير الصافي ١ : ٤٥٥ .

(٨) الكافي ٢ : ٢٩٨ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٤ .

(٩) الكافي ٢ : ٢٩٧ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٤ .

بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ

اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

ثمّ بالغ في التّغيب إلى الهجرة بقوله : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ﴾ من دار الشّرك إلى دار الإسلام ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطلب مرضاته ، وحفظ دينه ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا﴾ ومنازل كثيرة التّعمة والرّاحة ، بحيث يوجب رغم أنف الأعداء ، ويكون ﴿كَثِيرًا﴾ يظفر بها بسهولة ﴿وَيَجِدْ سَعَةً﴾ في الرّزق وإظهار الدّين.

ولما كان مجال توهم أنّ فائدة الهجرة فيما إذا بلغ المقصد ، دون ما إذا مات في الطريق ، كجندب بن ضمرة^(١) ، دفعه الله بقوله : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ حال كونه ﴿مُهَاجِرًا﴾ ومفارقا وطنه وعشيرته ، متوجّها ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿اللَّهِ﴾ وحده ، ﴿وَيُؤَدِّمُ﴾ خدمة ﴿رَسُولِهِ﴾ أو بلد يتمكّن فيه من القيام بوظائف دينه ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ في الطريق ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ وثبت ﴿أَجْرُهُ﴾ وثوابه ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ .
ثمّ قرّر الوعد بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سبق من التّهاون في الهجرة إلى أن خروجه ﴿رَحِيمًا﴾ بإكمال ثواب هجرته.

في هجرة جندب بن ضمرة من مكة

روي أنّ جندب بن ضمرة لما أشرف على الموت في التّنعيم^(٢) ، أخذ يصفق يمينه على شماله ، ثمّ قال : اللهمّ هذه لك ، وهذه لرسولك ، ابايعك على ما بايعك عليه رسولك. فمات حميدا ، فلمّا بلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لو توفّي في المدينة لكان أتمّ أجرا. وقال المشركون وهم يضحكون : ما أدرك هذا ما طلب ، فأنزل الله هذه الآية^(٣) .

عن محمّد بن أبي عمير ، قال : وجّه زرارة بن أعين ابنه عبيدا^(٤) إلى المدينة يستخبر خبر أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ، وعبد الله^(٥) ، فمات قبل أن يرجع إليه عبيد ، قال ابن أبي عمير : حدّثني محمّد بن حكيم ، قال : ذكرت لأبي الحسن عليه السلام توجّه عبيد إلى المدينة فقال : « إني لأرجو أن يكون زرارة ممّن

(١) تقدّم ذكره في تفسير الآية (٩٨) من هذه السورة.

(٢) التّنعيم : موضع على فرسخين من مكة وقيل : على أربعة.

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٢٧١.

(٤) في النسخة : عبيد الله ، في جميع المواضع ، تصحيف ، انظر : رجال الكشي : ١٥٥ / ٢٥٥.

(٥) هو عبد الله بن جعفر ، المعروف بالأفطح ، وقد ادّعى الامامة بعد أبيه الصادق عليه السلام ، فهجّره الشيعة بعد أن امتحنوه فلم يروا فيه مواصفات الامامة كالعصمة والعلم والدلائل وغيرها ، وبعد أن تحقّقوا من النصّ على الامام موسى الكاظم عليه السلام بعد أبيه الصادق عليه السلام .

قال الله : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية « (١) .

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)﴾

ثم لما كانت الهجرة مستلزمة للسفر أو الخوف ، بين الله حكم الصلاة فيهما بقوله : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرت ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للهجرة أو غيرها من الأغراض المحللة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وخرج في ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتنصيف ربايعاتها ، وترك نوافل ما قصر منها ، وكذا ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويلقوكم بالمكروه ، فلا جناح عليكم في التقصير في الصلاة.

وإنما عبّر سبحانه عن وجوب التقصير بنفي الجناح ، لدفع توهم الناس فيه ، حيث إن الأذهان كانت مألوفة بالإتمام ، كما عبّر عن وجوب السعي (٢) به لذلك .
وإنما ذكرنا (وكذا إن خفتكم) (٣) لثبوت كون كل من السفر والخوف علة مستقلة لوجوب التقصير ، وعدم اشتراط عليّة كل [منهما] بوجود الآخر .

وقيل : إنّ اشتراط القصر في السفر بالخوف مبني على الغالب من أسفار النبي ﷺ ، حيث لم يكن في الغالب خاليا عن الخوف ، فلا مفهوم للشرط هنا .
والحق أنّ ظاهر الآية تعليق القصر على وجود الخوف الدال على انتفائه عند انتفائه ، إلّا أنّه ثبت بالنص والفتوى عدم إرادة التعليق ، وكون كل من السفر والخوف سببا مستقلا له (٤) .

في صلاة السفر

عن زرارة ، ومحمد بن مسلم قالا : قلنا لأبي جعفر عليه السلام : ما تقول في الصلاة في السفر ، كيف هي ، وكم هي ؟ فقال : « إنّ الله يقول : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ فصار التقصير (٥) واجبا كوجوب التمام في الحضر » .
قالا : قلنا له : قال الله تعالى : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل (افعلوا) ، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر ؟ فقال عليه السلام : « أو ليس [قد] قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (٦) ، ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب

(١) تفسير العياشي ١ : ٤٣٥ / ١٠٩٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٥ .

(٢) كذا ، والصواب : وجوب الطواف ، وذلك في الآية (١٥٨) من سورة البقرة ، راجع : تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٥ ، وتفسير روح

البيان ٢ : ٢٧٣ ، والحديث الآتي لاحقا عن أبي جعفر عليه السلام .

(٣) هذه إشارة إلى عبارة المصنف المتقدمة آنفا في تفسير الآية .

(٤) راجع كنز العرفان ١ : ١٨٥ / ٢ .

(٥) زاد في تفسير العياشي : في السفر .

(٦) البقرة : ٢ / ١٥٨ .

مفروض ، لأنَّ الله عَزَّجَ ذكره في كتابه ، وصنعه رسول الله ﷺ ، وكذلك التَّقصير في السَّفر شيء صنعه النبي ﷺ وذكره الله في كتابه .

قالا : قلنا له : فمن صَلَّى في السَّفر أربعاً ، أ يعيد أم لا ؟ قال : « إن كان [قد] قرئت عليه آية التَّقصير وفُسِّرت له وصَلَّى أربعاً أعاد ، وإن لم يكن قرئت عليه ، ولم يعلمها فلا إعادة عليه ، والصَّلَاة كُلُّهَا في السَّفر الفريضة ركعتان كلَّ صلاة ، إلَّا المغرب فإنَّها ثلاث ليس فيها تقصير ، وتركها رسول الله ﷺ في السَّفر والحضر ثلاث ركعات » (١) .

وزاد في (الفقيه) : « وقد سافر رسول الله ﷺ إلى ذي خشب ، وهي مسيرة يوم من المدينة ، يكون إليها بريدان ، أربعة وعشرون ميلاً ، فقَصَّرَ وأفطر ، فصار سنة ، وقد سمَّى رسول الله ﷺ قوما صاموا حين أفطر العصاة ، قال : فهم العصاة إلى يوم القيامة ، وإنا لنعرف أبناءهم وأبناء آبائهم إلى يوم القيامة » (٢) .

وعن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام ، [قال : قلت له :] صلاة الخوف وصلاة السَّفر تقصران جميعاً ؟ قال : « نعم ، وصلاة الخوف أحقُّ أن تقصر من صلاة السَّفر ؛ لأنَّ فيها خوفاً » (٣) .
وعن أبي عبد الله عليه السلام ، في صلاة الخوف ، فقال : « هذا تقصير ثان ، وهو أن يرَدَّ الرَّجُل الرَّكْعَتَيْنِ إلى الرَّكْعَةِ » (٤) .

وفي رواية : قال في الرَّكْعَتَيْنِ : « تنقص منهما واحدة » (٥) .
وقال بعض : إنَّ رَدَّ الرَّكْعَتَيْنِ إلى ركعة يراد به رَدُّ الأربع إلى ركعتين (٦) .
وعن الرضا عليه السلام ، في رواية : « التَّقصير في ثمانية فراسخ وما زاد ، وإذا قَصَّرت أفطرت » (٧) .
وعن زرارة : قد سألت أبا عبد الله عليه السلام عن التَّقصير ، فقال : « بريد ذاهب وبريد جائي - إلى أن قال : - إنما فعل ذلك لأنَّه إذا رجع كان سفره بريدان ، ثمانية فراسخ » (٨) .

في صلاة الخوف

ثم بيَّن سبحانه الموقعية للخوف من الكُفَّار ، بقوله : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ ﴾ من سابق الزَّمان وقسم الأيام ﴿ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ وخصما ظاهرا ، والآن زادت عداوتهم فينتهزون الفرصة عليكم ، فلذا أمركم الله بتخفيف الصَّلَاة ، لتكونوا منهم على حذر.

(١) تفسير العياشي ١ / ٤٣٦ / ١٠٩٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٥ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٧٨ / ١٢٦٦ ، وفيه : إلى يومنا هذا .

(٣) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٤ / ١٣٤٢ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٥ / ١٣٤٣ .

(٥) الكافي ٣ : ٤٥٨ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٦ .

(٦) وسائل الشيعة ٨ : ٤٣٤ / ذيل الحديث ٤ .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٢٣ / ١ .

(٨) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٨٧ / ١٣٠٤ ، عن الباقر عليه السلام .

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
 أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا
 فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ
 أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
 بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)﴾

ثم بيّن الله سبحانه كيفية صلاة الخوف بقوله : ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ مع المؤمنين ومقيما ﴿فِيهِمْ﴾ فأرادوا
 أن تصلّي بهم ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ جماعة ، وكان العدوّ في مقابلكم ، فاجعل أصحابك طائفتين ، فإذا
 شرعت في الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ خلفك يصلّون ﴿مَعَكَ﴾ والطائفة الاخرى يحرسونكم من العدوّ
 ﴿وَالْمُصَلِّونَ﴾ ﴿لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ويستصحبوا آلات دفاعهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ معك قاموا وانفردوا ،
 وصلّوا ركعة اخرى وسلّموا ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ ووقفوا تجاه العدوّ لحراستكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى﴾
 الذين كانوا بإزاء العدوّ و﴿لَمْ يُصَلُّوا﴾ بعد ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ جماعة ، ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿لْيَأْخُذُوا﴾ أثبتة
 ﴿حِذْرَهُمْ﴾ وليراعوا غاية تيقظهم من العدوّ ، ﴿وَلَكِنْ﴾ كذا ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وآلات حريهم.
 ثم علّل بإيجاب أخذ الحذر والسلاح بقوله : ﴿وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتمنّوا أنكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾
 وتبعدون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ﴾ أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ حينئذ ﴿عَلَيْكُمْ مَيْلَةً﴾
 واحدة ﴿وَيَحْمِلُونَ عَلَيْكُمْ حَمْلَةً شَدِيدَةً﴾.

وإنما اقتصر سبحانه في الطائفة الاولى بإيجاب أخذ الأسلحة ، وضّم في الطائفة الثانية إليه أخذ
 الحذر ؛ لأنّ الكفار لا يلتفتون غالبا في أوّل الصلاة إلى أن المسلمين مشغولون بها ، فلا يحتاجون إلى شدة
 الاحتراز عنهم ، بخلاف الركعة الثانية فإنهم بعد الركوع والسجود يعلمون بكونهم في الصلاة ، فلا بدّ من
 شدة التحذّر والتيقّظ.

ثم رخص سبحانه في وضع الأسلحة إذا كان في أخذها حرج ، بقوله : ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس
 ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المصلّون الخائفون من العدوّ ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى﴾ وكلفة في أخذ الأسلحة لثقلها الحاصل
 ﴿مِنْ﴾ بلل ﴿مَطَرٍ﴾ شديد ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ وضعفتم عن حملها في ﴿أَنْ تَضَعُوا﴾ عنكم
 ﴿أَسْلِحَتِكُمْ﴾ في حال الصلاة - ويلحق بالحالتين كلّ حالة يكون في حملها مشقة - ﴿وَلَكِنْ﴾
 ﴿خُذُوا﴾ في تلك الحالة ﴿حِذْرَكُمْ﴾ والزمو تيقظكم لمكرهم ، أشدّ التيقّظ كيلا يهجم

عليكم العدو وأنتم في الصلاة.

ثم لما كان في إيجاب الحذر مجال توهم القوة والشوكة للكفار ، دفعه الله تعالى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ﴾ وهياً ﴿لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً﴾ من القتل والأسر والخزي في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ، ويكون ذلك العذاب ﴿مُهِيناً﴾ ومذلاً لهم لتكبرهم عن الانقياد لله وطاعة الرسول. وفيه بشارة للمؤمنين بنصرتهم ، وخذلان الكفار على أي حال.

في كيفية صلاة الخوف وأنواعها

عن القمي رحمه الله : نزلت لما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية يريد مكة ، فلما وقع الخبر إلى قريش بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس يستقبل رسول الله ﷺ ، فكان يعارض رسول الله ﷺ (١) على الجبال ، فكان في بعض الطريق وحضرت صلاة الظهر فأذن بلال وصلى رسول الله ﷺ بالناس ، فقال خالد بن الوليد : لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة أصبناهم ، فإنهم لا يقطعون الصلاة ، ولكن يجيء لهم الآن صلاة أخرى هي أحب إليهم من ضياء أبصارهم ، فإذا دخلوا فيها حملنا عليهم ، فنزل جبرئيل بصلاة الخوف بهذه الآية ، ففرق رسول الله ﷺ أصحابه فرقتين ؛ فوقف بعضهم تجاه العدو وقد أخذوا سلاحهم ، وفرقة صلوا مع رسول الله ﷺ قياماً (٢) ، ومروا فوقفوا مواقف أصحابهم ، وجاء أولئك الذين لم يصلوا فصلوا بهم رسول الله ﷺ الركعة الثانية ولهم الأولى ، وقعد رسول الله ، وقام أصحابه فصلوا هم الركعة الثانية ، وسلم عليهم (٣) .

وعن الصادق عليه السلام (٤) : « أتأما نزلت في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف ، ففرق أصحابه فرقتين ؛ أقام فرقة بإزاء العدو ، وفرقة خلفه ، فكبر وكبروا ، قرأ وأنصتوا ، ركع وركعوا ، وسجد وسجدوا ، ثم استمر رسول الله ﷺ قائماً ، وصلوا لأنفسهم ركعة ، ثم سلم بعضهم على بعض ، ثم خرجوا إلى أصحابهم وقاموا بإزاء العدو ، وجاء أصحابهم فقاموا خلف رسول الله ، فصلوا بهم ركعة ، ثم تشهد وسلم عليهم ، فقاموا وصلوا لأنفسهم ركعة ، ثم سلم بعضهم على بعض » (٥) .

وعنه عليه السلام أنه سئل عن صلاة الخوف ، قال : « يقوم الإمام وتجيء طائفة من أصحابه فيقومون خلفه ، وتقوم طائفة بإزاء العدو ، فيصلّي بهم الإمام ركعة ثم يقوم ويقومون [معه] فيمثل قائماً ، ويصلّون هم الركعة الثانية ، ثم يسلم بعضهم على بعض ، ثم ينصرفون فيقومون في مقام أصحابهم ، ويجيء الآخرون فيقومون خلف الإمام ، فيصلّي بهم الركعة الثانية ، ثم يجلس الإمام ، فيقومون هم فيصلّون

(١) (فكان ... رسول الله ﷺ) ليس في المصدر.

(٢) في النسخة : قائماً.

(٣) تفسير القمي ١ : ١٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٧ .

(٤) في النسخة : ابن عباس رضى الله عنه .

(٥) في الكافي : استتم .

(٦) الكافي ٣ : ٤٥٦ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٧ .

ركعة اخرى ، ثمّ يسلم عليهم ويتفرّقون بتسليمه » .

قال : « وفي المغرب مثل ذلك ، يقوم الإمام وتجيء طائفة فيقومون خلفه ، ثمّ يصلي بهم ركعة ، ثمّ يقوم ويقومون ، فيمثل الإمام قائما ، فيصلون ركعتين فيتشهدون ، ويسلم بعضهم على بعض ، ثمّ ينصرفون فيقومون في موقف أصحابهم ، ويجيء الآخرون ويقومون موقف أصحابهم ^(١) خلف الإمام ، فيصلي بهم ركعة يقرأ فيها ، ثمّ يجلس فيتشهد ، ثمّ يقوم ويقومون معه ويصلي بهم ركعة اخرى ثمّ يجلس ، ويقومون هم فيتمون ركعة اخرى ، ثمّ يسلم عليهم » ^(٢) .

أقول : حال الخوف إن كان بحيث لا يمكن معه الاستقرار وإيقاع الأفعال ، كحال المسايقة ^(٣) والمعانقة صلى الناس فرادى بحسب إمكانهم ، فإنّ الصلاة لا تترك بحال ، فيقصر في الصلاة حينئذ كمية وكيفية .

ثمّ اعلم أنّه قد ذكر بعض الأصحاب في كيفية صلاة الخوف ثلاثة أنواع :

الأول : صلاة بطن النخل ^(٤) .

وهي أن يكون العدو في جهة القبلة ، فيفرّق الإمام أصحابه فرقتين ؛ يصلي بأحدهما ركعتين ويسلم بهم ، والثانية تحرسهم ، ثمّ يصلي بالثانية ركعتين نافلة ومعادة له وفريضة لأصحابه ، وهذه تصحّ مع الأمن أيضا .

والثاني : صلاة ذات الرّقاع ^(٥) .

وشرطها كون العدو في خلاف جهة القبلة ، أو في جهتها ، ولكن بينهم وبين المسلمين حائل يمنعهم من الرؤية لو هجموا ، وقوة العدو بحيث يخاف هجومهم ، وكثرة ^(٦) المسلمين بحيث يمكن افتراقهم فرقتين يقاوم كلّ فرقة العدو ، وعدم الاحتياج إلى زيادة التفريق ، فيحاز الإمام بطائفة إلى حيث لا يبلغهم سهام العدو ، فيصلي بهم ركعة ، فإذا قام إلى الثانية انفردوا واجبا وأتموا ، والطائفة الاخرى تحرسهم ، ثمّ تقوم الاولى مقام الثانية ، وتنحاز الثانية إلى الإمام وهو ينتظرهم فيقتدون به في الثانية ، فإذا جلس الإمام للتشهد قاموا وأتموا ولحقوا به وسلم بهم ، ويطول الإمام القراءة في انتظار الثانية ، والتشهد ^(٧) في انتظار فراغها .

(١) (موقف أصحابهم) ليس في الكافي .

(٢) الكافي ١ : ٤٥٥ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٧ .

(٣) المسايقة : التضارب بالسيوف .

(٤) بطن نخل : قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة ، وفي النسخة : بطن النخل .

(٥) ذات الرّقاع : اسم شجرة في موضع الغزوة سمّيت بها ، وقيل : لأن أقدامهم نعبت من المشي فلقوا عليها الخرق .

(٦) في النسخة : كثر .

(٧) أي ويطول الإمام التشهد في انتظار فراغ الفرقة الثانية .

وفي المغرب يصلي بالاولى ركعتين ، وبالثانية ركعة ، أو بالعكس. وهذا النوع هو مدلول التروايات السابقة.

والثالث : صلاة عسفان ^(١) .

وهي أن يكون العدو في جهة القبلة ، فيرتبهم صفين ، ويحرم الإمام بهما جميعا وبركع بهم ، ويسجد بالأول خاصة ، ويقف الثاني للحراسة ، فإذا قام الإمام بالأول سجد الثاني ، ثم ينتقل كل من الصفين إلى مكان الآخر ، فيركع الإمام بهما ، ثم يسجد بالذي يليه ^(٢) ويقوم الثاني الذي كان أولا لحراستهم ، فإذا جلس بهم سجدوا وسلم بهم جميعا ^(٣) .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ

فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٠٣)

ثم أمر الله الناس بالتوجه إلى ذاته المقدسة في قبال الكفار ، بقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ وأديتم ﴿الصَّلَاةَ﴾ المفروضة كما أمركم الله ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ والتجئوا إليه واسألوه النصر في جميع الأحوال [سواء أ كنتم ﴿قِيَامًا﴾ في مقابل العدو ﴿وَقُعُودًا﴾ للزمي ، أو غيره ﴿وَو﴾ نائمين ﴿عَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ من الجراح ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ واستقرتم في منازلكم وأوطانكم ، أو في محل قصدتم المقام فيه عشرة أيام ، أو اطمأنت قلوبكم من خوف العدو ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ تماما كما كنتم تتمونها قبل السفر والخوف.

ثم لما ذكر صلاة السفر والخوف ، أكد وجوب الصلاة في جميع الأحوال بقوله : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ﴾ في جميع الشرائع والملل والأعصار ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الله تعالى ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ وفرضا مؤقتا ، أو مقدرا.

عن الباقر عليه السلام : « يعني مفروضا ، وليس يعني وقت فوقها ^(٤) ، إذا جاز ذلك الوقت ثم صلاها لم تكن صلاته مؤداة ، ولو كان ذلك [كذلك] هلك سليمان بن داود حين صلاها لغير ^(٥) وقتها ، ولكن متى ما ذكرها صلاها » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿مَوْقُوتًا﴾ أي ثابتا ، وليس إن عجلت قليلا أو أخرت قليلا بالذي يضرك

ما لم

(١) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة ، وقيل : عسفان بين المسجدين ، وهي من مكة على مرحلتين.

(٢) في النسخة : بالذي بينه.

(٣) كنز العرفان ١ : ١٨٩ .

(٤) في تفسير العياشي : وقتا وقتها.

(٥) في تفسير العياشي : بغير.

(٦) تفسير العياشي ١ : ٤٣٩ / ١١٠٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٨ .

تضيّع تلك الإضاءة ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (١)

أقول : الظاهر أنّ الروایتين ناظرتان إلى نفي التوقيت بوقت الفضيلة.

﴿وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ

وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان وجوب قتال الكفار ، وشدة عداوتهم ، وكيفية الصلاة فيهم ، أمر بالجدّ في قتالهم ، ونهى عن التهاون فيه بقوله : ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾ ولا تضعفوا أيّها المؤمنون ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ الكافرين الذين دونكم ، وحدّوا في طلبهم ، واجتهدوا في قتالهم ، ولا تخافوا من الآلام التي تصيبكم ، فإنّكم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبكم في حرهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أيضا ﴿يَأْلَمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبهم منكم ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ من الجراحات التي تصيبكم منهم ، وهم مع ذلك لا يفترّون عن قتالكم ، ولا يتهاونون فيه ، مع أنّكم وهم سواء في ما يوجب الخوف ﴿وَوَلَّيْتُمْ﴾ أنتم ﴿تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ بجهاذكم ، وما يصيبكم من الآلام والمشاقّ ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من الثواب والأجر ؛ لأنّكم تعتقدون بدين الإسلام ودار الجزاء ، وتعلمون أنّ لكم بالجهاد درجات عظيمة عند الله في الآخرة ، والمشركون لا يعتقدون بشيء من ذلك ، فإذا كانوا مع إنكارهم الحشر ودار الجزاء صابرين على قتالكم مجدين فيه ، فأنتم أولى بالجدّ والصبر عليه منهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بصلاح دينكم ودنياكم ﴿حَكِيمًا﴾ في ما يأمركم وينهاكم ، وفي تدبير أموركم.

عن القمّي رحمه الله : أنّ النبي ﷺ لما رجع من وقعة احد ودخل المدينة ، نزل [عليه] جبرئيل فقال : يا محمّد ، إنّ الله يأمرك أنّ تخرج في إثر القوم ، ولا يخرج معك إلّا من به جراحة ، فأمر رسول الله ﷺ مناديا ينادي : يا معشر المهاجرين والأنصار ، من كانت به جراحة فليخرج ، ومن لم يكن به جراحة فليقيم ، فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويداوونها ، فأنزل الله على نبيّه ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾ الآية (٢) .

وقيل : إنّها نزلت في بدر الصّغرى (٣) . وقد مضت كلتا القضيتين في سورة آل عمران.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ

لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

(١) الكافي ٣ : ٢٧٠ / ١٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٨ ، والآية من سورة مريم : ١٩ / ٥٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٢٧٧ .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَيِّنٌ - بعد الأمر بجهاد الكفار - أَهَمُّ وإنَّ وجب قتالهم وقتلهم ، ولكن لا يجوز خيانتهم ، ولا الحكم عليهم بغير الحقِّ لمن خافهم ، بقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الذي هو دليل صدقك ، لكونه مقرونا ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ وشواهد الصدق ، وأَنَّهُ من الله ﴿ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وفي منازعاتهم ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ من أحكامه ، وبما عَرَفَكَ من الوحي ، فاحكم به بينهم ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ ﴾ ولأجلهم ﴿ حَصِيماً ﴾ ومعارضاً للبريئين والمحقِّين ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ ممَّا وقع في قلبك من الحكم للخائنين ومساعدتهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً ﴾ لمن استغفره ﴿ رَحِيماً ﴾ بمن تاب إليه.

في قصة سرقة بني ابيرق

روي أن أبا طعمة بن ابيرق سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان ، وخبأها عند رجل من اليهود ، فأخذ الدرع من منزل اليهودي ، فقال : دفعها إليَّ أبو طعمة ، فجاء بنو ابيرق إلى النبي ﷺ وكلموه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل ذلك ^(١) افتضح أبو طعمة ، وبرئ اليهودي ، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي ، فنزلت ^(٢) .

وعن القمي رحمه الله : أن سبب نزولها أن قوما من الأنصار من بني ابيرق ، وهم إخوة ثلاثة : طعمة ^(٣) ومبشر وبشير كانوا منافقين ، فنقبوا على عمِّ قتادة بن النعمان ، وكان بدرية ، وأخرجوا طعاما كان أعدّه لعياله وسيفا ودرعا ، فشكا قتادة ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن قوما نقبوا على عمي ، وأخذوا طعاما كان أعدّه لعياله ، ودرعا وسيفا ، وهم أهل بيت سوء ، وكان معهم في الرأي رجل مؤمن يقال له لبيد بن سهل .

فقال بنو ابيرق لقتادة : هذا عمل لبيد بن سهل ، فبلغ ذلك لبيدا ، فأخذ سيفه وخرج عليهم ، فقال : يا بني ابيرق ، أترمونني بالسرقة وأنتم أولى به مني ، وأنتم المنافقون ، تهجون رسول الله وتنسبونه إلى قريش ، لتبينن ذلك أو لأملئن سيفي منكم ، فداروه وقالوا له : ارجع رحماك الله ، فإنك بريء من ذلك . فمشى بنو ابيرق إلى رجل من رهطهم ، يقال له اسيد بن عروة ، وكان منطبقا بليغا ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان عمد إلى أهل بيت منّا أهل شرف وحسب ونسب ، فرماهم بالسرقة ، وأتاهم بما ليس فيهم . فاغتم رسول الله ﷺ من ذلك ، وجاء قتادة إليه ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال له : « عمدت إلى أهل بيت شرف وحسب ونسب فرميتهم بالسرقة » ، فعاتبه عتابا شديدا .

فاغتم قتادة من ذلك ، ورجع إلى عمّه وقال : ليتني مت ولم اكلم رسول الله ﷺ ، فقد كلمني بما

(١) في جوامع الجامع : هلك و .

(٢) جوامع الجامع : ٩٦ .

(٣) في المصدر وتفسير الصائفي : بشر .

كرهته. فقال عمه : الله المستعان ، فأنزل الله في ذلك على نبيه ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآيات^(١).
أقول : لا بدّ لنا - على ما ثبت عندنا من عصمة الأنبياء عن الخطأ والزلل - من حمل هذه الروايات على أنّ النبي ﷺ رأى مصلحة دينه في إظهار موافقة المنافقين ومساعدتهم إلى أن تنزل الآيات ، ويكون معذوراً عن الموافقة بإعذار الله تعالى له ، كما أنه ﷺ كان يصدّق كلّ ما كانوا يقولون ، حتّى قالوا : إنّ الله اذن.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧)

ثمّ نعى الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يحامي عن بني ابرق ويجادل عنهم اليهودي أو قتادة^(٢) ، بقوله : ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾ ولا تخاصم اليهودي أو قتادة ﴿عَنِ﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بنفاقهم وخيانتهم في أموال المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ للناس في أموالهم ، ومن كان ﴿أَثِيمًا﴾ وعصياً ، فلا تحبهم.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨)

ثمّ وبّخ هؤلاء المنافقين السّارقين بقوله : ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ ويسترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ كفرهم وسرقتهم ، ويستحيون أن تظهر أعمالهم القبيحة ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أن يسرقوا الأموال بعينه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في جميع الأحوال ، و﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ﴾ ويرتبون ﴿مَا لَا يَرْضَى﴾ به الله ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي اليهودي أو لبيد ابن سهل^(٣) ، والحلف على براءة أنفسهم ، وأمثال ذلك.

[عن] القمي : يعني : الفعل ، فوق القول على الفعل^(٤) .

عن الباقر عليه السلام ، في قوله : ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال : « الأول والثاني^(٥) ، وأبو عبيدة بن الجراح^(٦) » .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث : « وقد بين الله قصص المغيرين بقوله : ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ

(١) تفسير القمي ١ : ١٥٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٥٩ .

(٢) راجع تفسير الآيتين المتقدمتين .

(٣) راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٥١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٠ .

(٥) في تفسير العياشي : فلان وفلان وفلان .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٤٤١ / ١١١١ .

ما لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿﴾ بعد فقد الرسول ﷺ ما يقيمون به أود باطلهم ، حسب ما فعلته اليهود والتصارى بعد فقد موسى وعيسى ﷺ من تغيير التوراة والإنجيل ، وتحريف الكلم عن مواضعه « (١) .
ثم هددهم بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من التفاق والسرقة والبهتان ﴿مُحِيطًا﴾ ومطلعاً ، فيجازيهم أسوأ الجزاء.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩)

ثم عاتب الله المؤمنين الذين كانوا يذبون عن هؤلاء المنافقين بظن أنهم من المسلمين ، بقوله : ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ المخطئون ، هبوا أنكم ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ وخاصتم اليهودي أو قتادة ، وحفظتم عرض بني ابيرق (٢) ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والدار الفانية ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ﴾ ويحامي ﴿عَنْهُمْ﴾ إذا حكم عليهم بالعذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفي محضر عدله ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ﴾ في ذلك اليوم وتلك الحالة ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ وحافظاً من بأس الله وعقوبته.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

ثم آتاه تعالى بعد التهديد والوعيد بالعذاب ، دعاهم إلى التوبة بقوله : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿سُوءًا﴾ من السرقة ورمي الغير بها ﴿أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ﴾ بارتكاب معصية الله ، كالحلف به كذبا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ ويتوب إليه ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ لمعاصيه ﴿رَحِيمًا﴾ ومتفضلاً عليه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١)

ثم رغب سبحانه في التوبة بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ من الآثام ، ويحصل بكذب يمينه وبسوء سريره ذنباً من الذنوب ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ﴾ ويطلبه بجده ضرراً ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ لا يتعدى ذلك الضرر إلى غيره ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ بما يكسبه من الإثم وما يرتكبه من الذنب ﴿عَلِيمًا﴾ وفي ما يفعله من المجازاة ﴿حَكِيمًا﴾ لا يجاوز عن حد استحقاقه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا

مُبيناً﴾ (١١٢)

(١) الاحتجاج : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٢ .

(٢) راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

ثم بالغ سبحانه في الترغيب إلى التوبة بالمبالغة في عظمة خصوص المعصية التي ارتكبوها من السرقة ، وبهتان البريء ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ﴾ ويرتكب ﴿خَطِيئَةً﴾ قيل : هي الصَّغِيرَة ، أو ما يكون بغير عمد ^(١) ، ﴿أَوْ﴾ يقترب ﴿إِثْمًا﴾ كالسرقة ، أو غيرها من الكبائر ﴿ثُمَّ يَرَمْ﴾ بما يكسب ويقذف ﴿بِهِ﴾ من يكون ﴿بَرِيئًا﴾ منه ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ﴾ على ظهره ، بتبرئة نفسه منه ، وتحمله على غيره البريء منه ﴿بُهْتَانًا﴾ قبيحا ، وتهمة عند موته عند العقلاء ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وذنبا ظاهرا يلحقه أشد العقاب في الآخرة.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ

مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾

ثم من الله سبحانه على حبيبه بحفظه عن الخطأ في الحكم ، وعصمته من زلل مساعدة الخائن ، بقوله : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ وإنعامه الجزيل ﴿عَلَيْكَ﴾ بإعلامك ، بتوسط الوحي ، بسوء ضمائر المنافقين ، وسيئات أعمالهم المخفية ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليك بعصمتك من الزلل ، وحفظك من مكائد أهل الضلال ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ وفرقة ﴿مِنْهُمْ﴾ قيل : هم بنو ظفر الدَّابُّونَ عن طعمة ^(٢) ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن الحكم بالحق بتلبيسهم الأمر عليك ، ﴿وَالْحَالُ أَهْمُ﴾ الحال أَّهم ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان ، وشهادتهم بالتزور والبهتان ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ عن الحق وطريق الجنة ، وإنما يضرون أنفسهم بالابتلاء بفضيحة الدنيا ، وعذاب الآخرة ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير ؛ لأنك معصوم بعصمة الله أبدا.

﴿وَلَا﴾ لذا ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ السماوي الذي هو أفضل الكتب ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ التي هي أفضل المواهب ، والرسالة التي هي أعلى المناصب ، فكيف يليق بحكمته أن لا يعصمك عن الحكم بغير الحق ؟ ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ مع ذلك ﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ بالأسباب العادية من العلوم الوفيرة ، بحقائق الأشياء وخفيات الأمور ، فكيف لا يعلمك حيل المنافقين ومكائدهم ، وما تقدر به على الاحتراز منها ﴿وَكَانَ﴾ من بدو خلقتك في عالم الأنوار والأشباح والأجسام ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ وإنعامه ﴿عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره.

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٣١ ، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

عن الباقر عليه السلام : « إِنَّ أَناساً مِنْ رَهْطِ بَشَرٍ ^(١) الْأَدْنَيْنِ قَالُوا : انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكَلِّمُهُ فِي صَاحِبِنَا وَنَعْذِرُهُ ، فَإِنَّ صَاحِبِنَا بَرِيءٌ ، فَلَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴿يَسْتَحْفُوتُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُوتُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَكَيْلًا﴾ ^(٢) ، أَقْبَلَتْ رَهْطُ بَشَرٍ فَقَالَتْ : يَا بَشَرُ ، اسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ مِنَ الذَّنْبِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي أَحْلَفَ بِهِ ، مَا سَرَقَهَا إِلَّا لِبَيْدٍ ، فَنَزَلَتْ : ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ^(٣) ، ثُمَّ إِنَّ بَشْرًا كَفَرَ وَلَحِقَ بِمَكَّةَ ، وَأُنْزِلَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ أَعْدَرُوا بَشْرًا وَأَتُوا النَّبِيَّ لِيَعْذِرَهُ ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية » ^(٤) .

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

ثم لما كان المحامون عن بشر أو طعمة يتناجون في الدفاع عنه ، كما قال : ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ ^(٥) ، ردع الله الناس عن نجوى السوء بقوله : ﴿لَا خَيْرَ﴾ للناس في الآخرة ، ولا فائدة ﴿فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ وإسرار بعضهم إلى بعض ﴿إِلَّا﴾ في نجوى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإنفاق للمحتاجين ، لوجه الله ﴿أَوْ﴾ فعل ﴿مَعْرُوفٍ﴾ ومستحسن عند الشرع والعقل ، كفعل الواجبات ، وترك المحرمات ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عند تشاجرهم ومعاداتهم.

في فضيلة إصلاح ذات البين

عن النبي ﷺ : « أَوَّلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَخُولاً أَهْلَ الْمَعْرُوفِ ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ » ^(٦) .
وعنه عليه السلام : « أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ دَرَجَةٍ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله .
قال : « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » ^(٧) .

وعن أبي أيوب الأنصاري : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : « أَلَا أَدْلُكَ عَلَى صَدَقَةٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ؟ » قال : بلى يا رسول الله . قال : « تَصْلَحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا ، وَتَقَرَّبَ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا » ^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام : « الْكَلَامُ ثَلَاثَةٌ : صَدَقٌ ، وَكَذِبٌ ، وَإِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ - وَفَسْرُ الْإِصْلَاحِ - بِأَنْ تَسْمَعَ مِنَ الرَّجُلِ كَلَامًا يَبْلُغُهُ فَتُخَبِّثَ نَفْسَهُ ، فَتُلْقَاهُ فَتَقُولُ : سَمِعْتُ مِنْ فُلَانٍ [قَالَ] فَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ : كَذَا وَكَذَا ،

(١) في تفسير القمي وتفسير الصافي : بشير ، وكذا ما بعدها ، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و ١٠٦) من هذه السورة.

(٢) النساء : ٤ / ١٠٨ و ١٠٩ .

(٣) النساء : ٤ / ١١٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦١ .

(٥) النساء : ٤ / ١٠٨ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٢٨٤ .

(٧ و ٨) . تفسير روح البيان ٢ : ٢٨٤ .

خلاف ما سمعت منه ^(١) .

وعنه ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ : « ثلاث يحسن فيهنّ الكذب : المكيدة في الحرب ، وعدتك زوجتك ، والإصلاح بين الناس » ^(٢) .

قيل : إنّ عمل الخير إمّا بإيصال النفع ، أو بدفع الضرر . والنّفع إمّا جسماني ؛ وهو إعطاء المال ، وهو الصدقة ، وإمّا روحاني ؛ وهو تكميل الغير بالقوّة النظريّة والعملية ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودفع الضرر ؛ وهو الإصلاح بين الناس . فالآية دالّة على مجامع الخير ^(٣) .

ثمّ رعب سبحانه فيها بقوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور من الأمور ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وطلبا لثوابه ، لا رياء ولا سمعة ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في الدّنيا والآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثوابا جزيلًا لا يوصف ببيان .

ثمّ أنّه روى بعض العامة أنّ طعمة هرب إلى مكّة وارتدّ ، وثقب حائطا هناك لأجل السرقة ، فسقط الحائط عليه فمات ^(٤) .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥)

وفي رواية القميّ رحمه الله : ثمّ إنّ بشرا كفر ولحق [بمكة] ، ونزل فيه وهو بمكة قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ ^(٥) ويخالفه في اتّباع دينه ، وأوامره ونواهيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ واتّضح بالمعجزات الباهرات والآيات البيّنات ﴿الْهُدَى﴾ ودين الحقّ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ ويسلك سبيلا ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وطريقا غير الطّريقة التي يستمرّون عليها من الاعتقاد بالتوحيد ، ورسالة نبيّه ، والعمل بأحكامه ﴿نُؤَلِّهِ﴾ ونجعله يلي ويقرب ﴿مَا تَوَلَّى﴾ واعتمده من دون الله ، واختار لنفسه من الشّرك والضّلال ، ونوكله إلى ما توكل عليه ﴿وَنُصْلِهِ﴾ وندخله ﴿جَهَنَّمَ﴾ والتار الموقدة ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنّم من حيث كونها ﴿مَصِيرًا﴾ ومنقلبا للكافرين .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦)

(١) الكافي ٢ : ٢٥٥ / ١٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٢ .

(٢) الخصال : ٨٧ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٢ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٤١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٢٩ .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٥٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٣ ، وفيهما : بشير ، بدل بشر .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَكَّدَ الْإِعْلَانِ بِعَدَمِ شُغُولِ مَغْفِرَتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ تَنْبِيْهَا عَلَى سُوءِ حَالِ طَعْمَةِ ^(١) ، وَتَزْهِيْدَا لِلنَّاسِ مِنَ الشَّرْكِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

قِيلَ : جَاءَ شَيْخٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : إِنِّي شَيْخٌ مِنْهُمْ فِي الذَّنْبِ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْذُ عَرَفْتُهُ ، وَأَمَنْتُ بِهِ وَلَمْ أَتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا ، وَلَمْ أَوَاقِعِ الْمَعَاصِيَ جُرْأَةً عَلَيْهِ ، وَمَا تَوَهَّمْتُ طَرْفَةَ عَيْنٍ أَنِّي أَعْجَزُ اللَّهَ هَرَبًا ، وَإِنِّي لَنَادِمٌ تَائِبٌ ^(٢) ، فَمَا تَرَى حَالِي عِنْدَ اللَّهِ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ^(٣) .

ثُمَّ عَلَّلَ عَدَمَ قَابِلِيَّةِ الشَّرْكِ لِلْمَغْفِرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ﴾ عَنْ الْحَقِّ ، وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ حَيْثُ إِنَّ الشَّرْكَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الضَّلَالِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ الصَّبَابِ .

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٧) وَ (١١٨)

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الشَّرْكَ غَايَةُ الضَّلَالِ ؛ بِقَوْلِهِ تَوْيِيْحًا لِلْمُشْرِكِينَ : ﴿إِنْ يَدْعُونَ﴾ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وَمَا سِوَى اللَّهِ ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ .

قِيلَ : إِنَّمَا سَمِيَ الْأَصْنَامُ إِنَاثًا ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَصَوِّرُونَهَا بِصُورَةِ الْإِنَاثِ ، وَيَلْبَسُونَهَا أَنْوَاعَ الْحُلْلِ الَّتِي يَتَزَيَّنُ بِهَا النِّسَاءُ ، وَيَسَمُّونَهَا بِأَسْمَاءِ الْمُؤَنَّثَاتِ ، نَحْوُ : اللَّاتِ الَّتِي هِيَ تَأْنِيثُ اللَّهِ ، وَالْعَزَى الَّتِي هِيَ تَأْنِيثُ الْعَزِيزِ ، وَمَنَاةُ ^(٤) .

وَقِيلَ : لَمْ يَكُنْ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا وَلَهُمْ صَنَمٌ يَعْبُدُونَهُ ، وَيَسَمُّونَهُ انْثَى فَلَانَ ^(٥) .

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِنَاثِ : الْمَلَائِكَةُ ، حَيْثُ إِهْمُ كَانُوا يَقُولُونَ : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ^(٦) .

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ عَيْنُ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ مُبَالِغًا فِي التَّمَرُّدِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ،

وَلِذَا ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وَأَبْعَدَهُ مِنْ سَاحَةِ رَحْمَتِهِ ، وَطَرَدَهُ عَنْ سَمَاوَاتِهِ .

ثُمَّ ذَمَّهُ بِمَعَارَضَتِهِ لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَقَالَ﴾ الشَّيْطَانُ بَعْدَ امْتِنَاعِهِ عَنِ السَّجْدَةِ لِأَدَمَ مَعَارَضَةً لِلَّهِ ، وَعِدَاوَةً لِبَنِي آدَمَ : ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ يَا رَبِّ ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ وَإِمَائِكَ ﴿نَصِيبًا﴾ وَحِظًا وَافِرًا ﴿مَفْرُوضًا﴾ وَمَقْطُوعًا ، أَوْ مَقْدَرًا لِعِبَادَتِي وَاتِّبَاعِ خَطَوَاتِي .

(١) رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ (١٠٥ وَ ١٠٦) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(٢) زَادَ فِي تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ : مُسْتَغْفِرٌ .

(٣) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢ : ٢٣٣ .

(٤) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢ : ٢٨٦ .

(٥ وَ ٦) . تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٢ : ٢٣٣ .

عن النبي ﷺ : « من كل ألف واحد لله ، وسائرُه لإبليس » (١) .

﴿وَلَا ضَلَّانَهُمْ وَلَا مَتِّئِنَهُمْ وَلَا مُرْتَنَّهُمْ فَلْيَتَّكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَنَّهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ

اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)﴾

ثم بيّن سبحانه معنى اتّخاذه التّصيب بقوله : ﴿وَلَا ضَلَّانَهُمْ﴾ عن صراط توحيدك وعبادتك .

ثم لما ادّعى إضلاله النّاس ذكر حيلته فيه ، بقوله : ﴿وَلَا مَتِّئِنَهُمْ﴾ والقيّن في قلوبهم الآمال الباطلة ، من توهم طول العمر وتزيين جمع الأموال الكثيرة ، والالتذاذ بها سنين متطاولة ، وأمثال ذلك ﴿وَلَا مُرْتَنَّهُمْ﴾ بيتك آذان الأنعام وقطعها ﴿فَلْيَتَّكُنْ﴾ وليقطع امتثالا لأمري ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ، نسكا في عبادة الأوثان ، بظنّ أنّ ذلك نحو عبادة لها .

وقيل : إنّ المراد : قطع اذن البحيرة ، فإنّ العرب إذا ولدت ناقة لهم خمسة أبطن ، وكان الخامس ذكرا ، يشقّون اذنّها ، ويحرّمون على أنفسهم الانتفاع بها (٢) .

عن الصادق عليه السلام : « ليقطعنّ الاذن (٣) من أصلها » (٤) .

﴿وَلَا مُرْتَنَّهُمْ﴾ بالتّغيير ﴿فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وفطرته التي فطر النّاس عليها ، كذا قيل (٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « يريد دين الله وأمره ونهيّه » (٦) .

وعن عكرمة : هو هنا الإحصاء ، وقطع الآذان ، وفقء العيون (٧) .

قيل : كانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفا عوّروا عين فحلها (٨) .

ثم ردع الله سبحانه عن عبادة الشّيطان واتباعه ، بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ﴾ ويختاره لنفسه ﴿وَلِيًّا﴾ ومحبا ، أو متبوعا في أفعاله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ وتضرّر ضررا عظيما فاحشا ، فإنّه يجرمه من النّعم الدّائمة ، ويغره باللذائذ الوهميّة الفانية ، ويبدّل مكانه من الجنّة والقصور العالية الباقية بمستقرّ من الجحيم الحاطمة .

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾

(١) مجمع البيان ٣ : ١٧٣ ، تفسير الرازي ١١ : ٤٧ ، وفي مجمع البيان : وسائرهم للتار ولابليس ، وفي تفسير الرازي : وسائرُه للناس ولابليس .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٤٨ .

(٣) في مجمع البيان : الآذان .

(٤) مجمع البيان ٣ : ١٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ١١ : ٤٨ .

(٦) مجمع البيان ٣ : ١٧٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٣ ، وكلمة (نهي) ليست في مجمع البيان وتفسير الصافي .

(٧ و ٨) . تفسير الرازي ١١ : ٤٩ .

ثم نبّه سبحانه الناس ببطلان امنياته ، وكذب عداته ، بقوله : ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ الشيطان بوسوسته ﴿وَيُمْنِيهِمْ﴾ بالأمانى الباطلة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وعدا ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿غُرُورًا﴾ وكذبا مورثا لمن اعتراه الحسرة الأبديّة.

قيل : إنّ الغرور : إظهار النّفع في ما فيه الضرر ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ ^(٢) صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثور ، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه ، فقالوا : يا سيّدنا ، لم دعوتنا ؟ قال : نزلت هذه الآية ، فمن لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا وكذا. قال : لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك ، فقال : لست لها. فقال الوسواس الخناس : أنا لها. قال : بماذا ؟ قال : أعدهم وامنيهم حتّى يواقعوا الخطيئة ، [فإذا واقعوا الخطيئة] أنسيهم الاستغفار. فقال : أنت لها. فوكله بما إلى يوم القيامة » ^(٣) .

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١)

ثم أوعد الله سبحانه أولياء الشيطان بالعذاب الدائم بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الصّالّون المغرّون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ حال كونهم خالدين فيها ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم مهربا ﴿عَنْهَا﴾ ولا ﴿مَحِيصًا﴾ وملجأ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢)

ثم أردف سبحانه الوعيد بوعد المؤمنين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانيّة الله ، ورسالة رسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لوجه الله ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة جزاء على إيمانهم وعملهم الصّالح ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات أشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائما.

ثم لما كذب مواعيد الشيطان أكّد سبحانه صدق مواعيد ذاته المقدّسة بقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ قيل : إنّ المعنى وعد الله وعدا ، وحقّ ذلك ﴿حَقًّا﴾ ثمّ بالغ في التأكيد بقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ وخيرا.

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٣٤ .

(٢) آل عمران : ٣ / ١٣٥ .

(٣) أمالي الصدوق : ٥٥١ / ٧٣٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٤ .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾

ثم لما كان من تسويلات الشيطان تغرير الإنسان بكرم الله ، وأن الله يعفو عن السيئات ، ويدخل الجنة بلا عمل ، تبه الله الناس بأن الثواب إنما يكون بالإيمان والعمل ، لا بالامنية ، بقوله : ﴿لَيْسَ﴾ النجاة من النار ، والدخول في الجنة ﴿بِأَمَانِيكُمْ﴾ وغروركم بأن الله لا يعذبكم ، بل يدخلكم الجنة بفضلته ﴿وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حيث إنهم يقولون : لا يعذبنا الله إلا أياما معدودة ، بل الثواب والعقاب دائران مدار العمل ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ويرتكب ذنبا ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ إما في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما .

وقيل : إن المعنى : ليس الإيمان بالتَّمَيُّ ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ^(١) .

وعن القمي عليه السلام : ليس ما تتمنون أنتم ولا أهل الكتاب أن لا تعذبون بأفعالكم ^(٢) .

في (العيون) : أن إسماعيل قال للصَّادق عليه السلام : [يا أبتاه] ما تقول في المذنب منا ومن غيرنا ؟

فقال عليه السلام : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ^(٣) .

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ وشفيعا ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ومدافعا يدفع عنه العذاب .

عن أبي هريرة : لما نزلت الآية بكينا وحزنا وقلنا : يا رسول الله ، ما أبقت هذه الآية من شيء ، فقال : « أما والذي نفسي بيده إنها لكما نزلت ، ولكن ابشروا وقاربوا وسددوا ، إنه لا يصيب أحدا منكم مصيبة إلا كفر الله بها خطيئته ، حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه » ^(٤) .

أقول : معنى قاربوا وسددوا : اقصدوا في أموركم ، واطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، من غير غلو ولا تقصير .

عن الباقر عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال بعض : يا رسول الله ، ما أشدها من آية ! فقال لهم رسول الله ﷺ : « أما تبتلون في أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ؟ » . قالوا : بلى ، قال : « هذا مما يكتب الله لكم [به] الحسنات ، ويمحو به السيئات » ^(٥) .

وفي (الكافي) : عنه عليه السلام : « أن الله تعالى إذا كان من أمره أن يكرم عبدا وله ذنب ابتلاه بالسقم ، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة ، فإن لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ، ليكافئه بذلك الذنب » ^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٢٩٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٤ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٣٤ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٤ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ١٧٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٥ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٤٤٥ / ١١٢٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٥ .

(٦) الكافي ٢ : ٣٢٢ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٥ .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ بعضا ﴿مَنْ﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ فإنَّ أحدا لا يقدر على كلّها ، سواء كان
العامل ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ، ورسوله ، واليوم الآخر ، فإنه لا اعتداد بالعمل من دون
الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون العاملون ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ في الآخرة بفضل الله ورحمته ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا
ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿نَقِيرًا﴾ وقدرًا قليلا .

قيل : التَّقِيرُ : حفرة في ظهر التّوّة ، منها ينبت النّخل ، ثم صار كناية عن غاية القلّة والحقارة .
قيل : لما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أهل الكتاب للمسلمين : نحن وأنتم سواء ، فنزلت
هذه الآية إلى قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ .

ثم لما شرط الله الإيمان والعمل في الثّواب ، شرح الشّرطين بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ يكون من أهل الأديان
﴿أَحْسَنُ دِينًا﴾ وأقوم طريقة ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وأخلص قلبه ، وجعل جميع ماله ﴿لِلَّهِ﴾ وصير كلّه فانيا
فيه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ﴾ في العمل ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وشريعته الموافقة لشرعية الإسلام ، حال كون ذلك
التّابع ﴿حَنِيفًا﴾ ومائلا عن الأديان الباطلة والأهواء الرّائفة .

في وجه تسمية إبراهيم عليه السلام بال خليل

ثم بيّن أصلحيّة إبراهيم عليه السلام بالتّبعيّة من سائر الأنبياء بقوله : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ واصطفاه من
جميع خلقه لنفسه ﴿خَلِيلًا﴾ شديد المحبة والطّاعة له .

قيل : لما اطّلع إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ، ودعا قومه مرّة بعد اخرى إلى التّوحيد
، ومنعهم عن عبادة الشّمس والقمر والنّجم وعبادة الأوثان ، ثم سلّم نفسه للنّيران ، وولده للقريان ، وماله
للضّيّان ، جعله الله إماما للخلق ورسولا إليهم ، وبشّره بأنّ الملك والنّبوة في ذرّيّته .

فلهذه الاختصاصات سمّاه خليلا ؛ لأنّ محبة الله لخلقه عبارة عن إيصال الخيرات والمنافع إليه .

عن الصادق عليه السلام : « اتّخذ الله إبراهيم عبدا قبل أن يتّخذه نبيا ، وأنّ الله اتّخذ نبيا قبل أن يتّخذه
رسولا ، وأنّ الله اتّخذ رسولا قبل أن يتّخذه خليلا ، وأنّ الله اتّخذ خليلا قبل أن يتّخذه إماما »^(١) .

عن النّبي ﷺ ، في حديث : « قولنا : إنّ إبراهيم خليل الله ، فإنّما هو مشتقّ من الخلّة ، والخلّة
إنّما معناها : الفقر والفاقة ، فقد كان خليلا إلى ربّه فقيرا ، وإليه منقطعا ، وعن غيره متعقفا معرضا مستغنيا ،

(١) الكافي ١ : ١٣٣ / ٢ ، تفسير الصّافي ١ : ٤٦٦ .

وذلك أنه لما أريد قذفه في النار فرمى به في المنجنيق ، بعث الله إليه جبرئيل فقال له : ادرك عبدي ، فجاءه فلقه في الهواء ، فقال : كلّفني ما بدا لك ، فقد بعثني الله لنصرتك ، فقال : بل حسبي الله ونعم الوكيل ، إني لا أسأل غيره ، ولا حاجة لي إلا إليه ، فسّمّاه خليله ، أي فقيره ومحتاجه والمنقطع إليه عمّا سواه . قال : « وإذا جعل معنى ذلك من الخلّة ؛ وهو أنه قد تخلّل معانيه ، ووقف على أسرار لم يقف عليها غيره ، كان ^(١) معناه العالم به وبأموره ، ولا يوجب تشبيهه الله بخلقه ، ألا ترون أنه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله ؟ » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « إنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلًا لأنّه لم يرد أحدا ، ولم يسأل أحدا قطّ إلا الله » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « لكثرة سجوده على الأرض » ^(٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « لإطعامه الطّعام ، وصلاته بالليل والنّاس نيام » ^(٥) .

وعن الهادي عليه السلام : « لكثرة صلاته على محمّد وأهل بيته » ^(٦) .

أقول : الجامع بين الأخبار هو كمال معرفته بالله ، وطاعته له .

﴿وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)﴾

ثمّ لما كان تسمية إبراهيم بالخليل موهمة لخروجه عن العبودية ، والاحتياج في ذات الله ، دفع الله سبحانه التّوهمين ببيان مالكيّته لجميع الموجودات ، وكمال قدرته ، بقوله : ﴿وَلِلّٰهِ﴾ بالملكيّة الإشراقية ﴿مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يخرج أحد عن عبوديته ، ولا يحتاج إلى شيء في الوهيّته . قيل : لما لم يكن فيه دلالة على علمه وقدرته بما هو خارج عن السّماوات والأرض ، أثبت علمه وقدرته غير المتناهيين بقوله : ﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ﴿مُحِيطًا﴾ علما وقدره ، فيختار منها ما يشاء ، ويتفضّل بجوده على من يشاء .

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي

يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ

وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ

(١) زاد في الاحتجاج : الخليل .

(٢) الاحتجاج : ٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٦ .

(٣) علل الشرائع : ٣٤ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٧ .

(٤) علل الشرائع : ٣٤ / ١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٧ .

(٥) علل الشرائع : ٣٤ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٧ .

(٦) علل الشرائع : ٣٤ / ٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٧ .

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

ثم لما وصف دين الإسلام الموافق في غالب أحكامه لملة إبراهيم ، وكان من جهات حسن الإسلام حفظ حقوق الضعفاء ، وكانت النساء والأيتام أضعف الناس وأولاهم بالرعاية ، عاد إلى التوصية بحفظ حقوقهم بقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ فِي شَأْنِ النِّسَاءِ﴾ وما لحق من الميراث . عن الباقر عليه السلام : « سئل النبي صلى الله عليه وآله عن النساء ، وما لحق من الميراث ، فأَنزَلَ اللهُ الرَّبْعَ وَالثَّمَنَ »^(١) . روي أَنَّ عيينة بن حصين أتى النبي صلى الله عليه وآله ، فقال : أخبرنا بِأَنَّكَ تَعْطِي ابْنَةَ النَّصَفِ وَالْأَخْتَ النَّصَفَ ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَوْرَثُ مَنْ يَشْهَدُ الْقِتَالَ ، وَيَحْزِرُ الْغَنِيمَةَ ، فقال صلى الله عليه وآله : « كَذَلِكَ أَمَرْتُ »^(٢) .

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يجيبهم بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويبيِّن لكم ما اِجْمَع عليكم من الحكم ﴿فِيهِنَّ﴾ وفي أمر إرثهنَّ أن تَوْرَثَ إرثهنَّ ، ﴿وَوَ﴾ كذا ﴿مَا يُتْلَى﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من الآيات ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ الكريم ، يوضِّح لكم ﴿فِي﴾ حقَّ ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ وفي شأن البنات ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ وفرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث في آية ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(٣) ، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ في ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لجمالهنَّ ومالهنَّ .

قيل : كانت اليتيمة عند الرجل ، فإن كانت ذات جمال ومال تزوج بها وأكل مالها ، وإن كان ذميمة فيرغب الرجل عن أن يتزوجها ، ولا يعطيها مالها ، ويمنعها عن التَّكاح حتى تموت ، ويرث مالها ، فنهى الله عن ذلك .

﴿وَوَ﴾ كذا في ﴿الْمُسْتَضْعَفَيْنِ﴾ والصَّغَارِ ﴿مَنْ الْوُلْدَانِ﴾ هو يفتيكم أن تعطوا إرثهم . قيل : إنَّ أهل الجاهليَّة كانوا لا يورثون الولدان ، وكانوا يقولون : لا نورث إلا من قاتل ودفع عن الحرم ؛ فأَنزَلَ اللهُ الآيات التي في أول السَّورة وهو معنى قوله : ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾^(٤) . ﴿وَوَ﴾ في ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى﴾ في أموالهم وحقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ، وما يتلى عليكم من الكتاب في حقهم قوله تعالى : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^(٥) .

ثم رَغِبَ اللهُ في حفظ تلك الحقوق بقوله : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمل صالح من أداة الحقوق المذكورة ، وغيره من الصَّالحات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه أحسن الجزاء .

(١) تفسير القمي ١ : ١٥٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٣٨ .

(٣) النساء : ٤ / ١١ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ١٨٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٨ .

(٥) النساء : ٤ / ٢ .

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾

ثمّ بيّن فتوى وحكما آخر في شأن النساء بقوله : ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ بسبب ظهور الأمارات ﴿نُشُوزًا﴾ وتجاها عنها ، وترفعاً عن أداء حقوقها لكرهته لها ﴿أَوْ﴾ خافت ﴿إِعْرَاضًا﴾ له منها وطلاقها ، وعدم الاعتناء بها ، والالتفات إليها مع حفظ حقوقها ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا حرج ﴿عَلَيْهِمَا﴾ إذن في ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ .

قيل : نزلت في سودة بنت زمعة ، كانت كبيرة مسنة ، أراد النبي ﷺ طلاقها ، فالتصمت أن يمسكها ويجعل نوبتها لعائشة ، فأجاز النبي ﷺ ذلك ولم يطلقها (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : نزلت في ابن أبي السائب ، كانت له زوجة وله منها أولاد ، وكانت شيخخة ، فهم بطلاقها فقالت : لا تطلقني ، ودعني أشتغل بمصالح أولادي ، واقسم في كل شهر ليالي قليلة ، فقال الزوج : إن كان الأمر كذلك فهو أصلح (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « هي المرأة تكون عند الرجل فيكرهها ، فيقول لها : إني أريد أن أطلقك ، فتقول له : لا تفعل ، إني أكره أن يشمت بي ، ولكن انظر في ليلتي فاصنع بها ما شئت ، وما كان سوى ذلك من شيء فهو لك ، ودعني على حالتي . وهو قوله تعالى : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ هذا هو الصلح » (٣) .

ثم نذب الله تعالى إلى الصلح بقوله : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة وسوء العشرة . ثم أشار إلى بعد وقوع الصلح بذكر علته بقوله : ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ وطبع فيها ﴿الشُّحَّ﴾ والبخل ، فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ، ولا الرجل يجود بحسن العشرة مع الزوجة الدميمة المسنة ، ولذا حث الله تعالى كلا منهما إلى الإحسان إلى الآخر بقوله : ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ أيها الأزواج ، كل إلى الآخر ببذل الحقوق ، والإمساك بالمعروف ، وحسن العشرة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله ولا تعصوه بالظلم ، وإساءة الكلام ، واللجاج في الخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه أحسن الجزاء .

قيل : إن الخطاب إلى غير الزوجين ، والمراد : إن تحسنا في المصالحة بينهما ، وتتقوا الميل إلى

(١) تفسير الرازي ١١ : ٦٥ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٦٥ .

(٣) الكافي ٦ : ١٤٥ / ٢ ، تفسير العياشي ١ : ٤٤٧ / ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٩ .

واحد منهما ^(١) .

عن الزمخشري : أنّ عمران بن حطان الخارجي ، كان من أذم ^(٢) بني آدم ، وامرأته من أجملهم ، فنظرت إليه يوما فقالت : الحمد لله . فقال عمران : ما لك ؟ فقالت : حمدت الله على أنّي وإياك من أهل الجنة ؛ لأنك رزقت مثلي فشكرت ، ورزقت مثلك فصبرت ، وقد وعد الله بالجنة عبادة الشاكرين والصّابرين ^(٣) .

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩)﴾

ثم أمر الله عزّ وجلّ بالعدل والتسوية بين الزوجات في حسن العشرة ، دون الميل القلبي ، بقوله : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وتسوّوا ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ في المحبة ، والميل القلبي كما روي ^(٤) ، أو في جميع الأمور وجميع الوجوه على رواية أخرى ^(٥) ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على ذلك وبالغتم فيه ، ولذا لم يكلفكم الله به ، إذن ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾ ولا تعرضوا عن إحداها إلى الأخرى ﴿كُلَّ الْمِيلِ﴾ ومن جميع الجهات ﴿فَتَذَرُوها﴾ وتبقوها أو تتركوها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيما ^(٦) حتى تختار زوجا ، ولا ذات بعل حتى تنتفع ببعلاها.

وعن ابن مسعود : فتذروها كالمسجونة ^(٧) .

روي أنّ النبي ﷺ كان يقسم بين زوجاته ويقول : « اللهم هذا قسمي في ما أملك ، وأنت أعلم بما لا أملك » ^(٨) .

عن الصادق عليه السلام ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ أنّه كان يقسم بين نسائه في مرضه ، فيطاف به بينهنّ ^(٩) .

وروي أنّ عليا عليه السلام كان له امرأتان ، إذا كان يوم واحدة لا يتوضّأ في بيت الأخرى ^(١٠) .

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ بالعدل في القسم ، أو ما مضى من ميلكم ، وتنداركوه بالتوبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن الجور ، أو عن الميل في المستقبل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ لميل قلوبكم في ما مضى ﴿رَحِيماً﴾ بكم بعدم التشديد عليكم في التكليف.

(١) تفسير الرازي ١١ : ٦٧ .

(٢) في تفسير الرازي والكشاف : أذم ، والأذم : هو من يعلو وجهه بشر اسود فيصبح قبيح الوجه ، والأذم : الشديد الأدمة ، أي السّمة.

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٦٧ ، الكشاف ١ : ٥٧١ .

(٤) و٥ . مجمع البيان ٣ : ١٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٦٩ .

(٦) الأتم : المرأة بلا زوج بكرة أو ثيبا .

(٧) تفسير الرازي ١١ : ٦٨ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٢٤٠ .

(٨) مجمع البيان ٣ : ١٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٠ .

(٩) مجمع البيان ٣ : ١٨٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٠ .

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠)

ثم أشار سبحانه إلى رجحان التفريق عند عدم الصلح وتوافقهما عليه ، بقوله : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ وأبيا من الصلح ، واجتمعا على الطلاق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ، ويكفي مهماته ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ ورحمته وغناه وقدرته ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ في القدرة والرحمة والرزق ﴿حَكِيمًا﴾ ومتقنا في أحكامه وأفعاله .
في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، أنه شكى رجل إليه الحاجة ، فأمره بالتزويج فاشتدت به الحاجة ، فأمره بالمفارقة فأثرى وحسن حاله ، فقال : « أمرتك بأمرين أمر الله بهما ، قال : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) ، وقال : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾^(٢) .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١)

ثم قرّر الله سبحانه سعة قدرته ورحمته بقوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الموجودات ، فإذا كان كذلك فهو واسع حكمة وقدره ورحمة ، فيغنيكم عن زوجكم وعن غيره .
ثم لما حثّ سبحانه على^(٣) التقوى في الآيتين السابقتين ، بين الله أنه شرعية عامة ، بقوله : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السماوي ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كاليهود والنصارى وغيرهم من الملل ، وأمرناهم في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا أمة خاتم النبيين في كتابكم ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه ، ﴿وَوَقَدْ قُلْنَا : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بالله ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومنه وجود الممكنات ، فلا يحتاج إلى إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن جميع الموجودات ، وعن إيمانكم ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حمدتموه أو لا تحمدوه .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ أَئِهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٢) و (١٣٣)

(١) النور : ٢٤ / ٣٢ .

(٢) الكافي ٥ : ٣٣١ / ٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٠ .

(٣) في النسخة : إلى .

ثمّ بالغ في تقرير قدرته وغناه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخرج عن سلطانه شيء ، وهو مدبّر امور الكائنات ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ومدبّرًا للامور.

قيل : إنّ الله تعالى بتكرار قوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلى آخره ثلاث مرّات ، قرّر ثلاثة امور : فبالمرّة الاولى قرّر سعة جوده وكرمه وحكمته في أفعاله وأحكامه. وبالمرّة الثانية قرّر غناه عن إيمان الخلق وطاعتهم وتقواهم ، وعدم تضرّره بكفر الكافرين وعصيان العاصين. وبالمرّة الثالثة قرّر كمال قدرته مقدّمة للتهديد ^(١) بقوله : ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ الله ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ ويفنيكم عن وجه الأرض ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بالمرّة بحيث لا يبقى منكم أثر ﴿وَيَأْتِ﴾ مكانكم ﴿بِآخَرِينَ﴾ من جنسكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ الإعدام والإيجاد ﴿قَدِيرًا﴾ مقتدرا ، لا يمنعه عن إنفاذ إرادته شيء.

روي أنّه لما نزلت الآية ضرب النبي ﷺ يده على ظهر سلمان رضی الله عنه وقال : « هم قوم هذا » يعني عجم الفرس ^(٢) .

وروي أنّه لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنّه يشرك به ويجعل له الولد ثمّ هو يعافهم ويرزقهم ^(٣) .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا

بَصِيرًا﴾ (١٣٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد التهديد والترهيب على الكفر وترك التقوى ، رغب النّاس في الإيمان والطّاعة بقوله : ﴿مَنْ كَانَ﴾ بعمله ﴿يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وأمتعتها الفانية فليقم إلى طاعة الله ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فإنّ العاقل لا يقنع بالقليل الفاني ، مع تمكّنه من الكثير الباقي ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم وضمائمكم ، فليثبتنكم على قدر طاعتكم وخلوص نيتكم.

عن الصادق ، عن أبيه ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « كانت الحكماء والفقهاء إذا كاتب بعضهم بعضا كتبوا بثلاث ليس معهنّ رابعة : من كانت الآخرة همّته كفاه الله همّه في الدّنيا ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين النّاس » ^(٤) . وعن الصادق عليه السلام : « الدّنيا طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الدّنيا طلبه الموت حتّى يخرجها منها ، ومن طلب الآخرة طلبته الدّنيا حتّى توفيه رزقه » ^(٥) .

(١) تفسير الرازي ١١ : ٧٠ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٨٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧١ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٢٩٩ .

(٤) الحصال : ١٢٩ / ١٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧١ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٩٣ / ٨٨٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧١ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥)

ثم لما بين الله وجوب العدل بين الزوجات ، والالتزام بالتقوى ، والترهيب من تركه ، والوعد بالتقارب عليه ، بين وجوب العدل في العمل ، وإقامته بين الناس ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مقيمين على العدل ، مواظبين عليه ، مجدين فيه ، وأقيموا العدل بين الناس بكونكم ﴿شُهَدَاءَ﴾ بالحق ﴿لِلَّهِ﴾ وطلبا لمرضاته وثوابه ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ بأن تقرروا عليها ﴿أَوْ﴾ على ﴿الْوَالِدِينَ﴾ الذين هم أعز الناس عندكم ﴿وَو﴾ أحقهم عليكم ، أو على الأرحام ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ .

وفي تقديم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة بالحق إشعار بأن حمل الإنسان نفسه على العدل مقدم على حمل الغير عليه ، وأن دفع الضرر عن النفس أولى من دفع الضرر عن الغير .

ثم نهي الله سبحانه عن الشهادة بغير الحق ، أو كتمانها طلبا لرضا الغني أو ترحمًا على الفقير بقوله : ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ ذا ثروة ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فليس لكم أن ترعوا مصلحتهما في الشهادة ﴿فَاللَّهُ﴾ الخالق لهما ، المدبر لامورهما ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وأحق برعاية مصلحتهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ وأتركوا موافقة شهوة النفس لأجل ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ في القول ، وتنطقوا بالحق ﴿وَإِنْ تَلُوتُوا﴾ وتعرفوا ألسنتكم عن الشهادة بالحق ، بأن تشهدوا بغيره ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عن أداء الشهادة رأسا وتكتموها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تغيير الشهادة أو كتمانها ، وتضييع حقوق المؤمنين ﴿خَبِيرًا﴾ ومطلعا فيعاقبكم عليه أشد العقاب .

عن الباقر عليه السلام : ﴿إِنْ تَلُوتُوا﴾ أي تبدلوا الشهادة ، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أي تكتموها « (١) .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿إِنْ تَلُوتُوا﴾ الأمر ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عما امرتم [به] « (٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنه : أن المراد بالآية : القاضي يتقدم إليه الخصمان ، فيعرض عن أحدهما ، ويدافع في إمضاء الحق ، أو لا يسوي بينهما في المجلس والنظر والإشارة (٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾

(١) مجمع البيان ٣ : ١٩٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٢ .

(٢) الكافي ١ : ٣٤٩ / ٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٠١ .

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

ثم لما كان القيام بالقسط ، والشهادة بالحق ولو على النفس ، وترك اتباع الهوى منوطا بحقيقة الإيمان ورسوخه في القلب ، أمر الله سبحانه بتحصيل حقيقة الإيمان بقوله : ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الظاهر وباللسان ﴿آمَنُوا﴾ في الواقع ، وعن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالتوحيد والرسالة ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المجيد ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ الله بنحو ما ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ دفعة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أعظمه التوراة والإنجيل ، وازدادوا في جميع هذه العقائد طمأنينة و يقينا .

روي أنّ جماعة من أحرار اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا : يا رسول الله ، إنا نؤمن بك وبكتابك ، وبموسى والتوراة ، وبعزير ، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال ﷺ : « بل آمنوا بالله وبرسوله ، وبمحمد وبكتابه القرآن ، وبكل كتاب كان قبله » ، فقالوا : لا نفعل . فنزلت هذه الآية (١) .

ثم هدّد الله سبحانه الكافرين بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ من الناس ﴿بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ من آدم إلى خاتم [الأنبياء] ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجزاء جميعا ، أو بأحد من المذكورات ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن صراط الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عنه بحيث لا يكاد يصل إليه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ

لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٧) و (١٣٨)﴾

ثم بيّن أنّ الإيمان المطلوب المفيد هو الإيمان المستقرّ الثابت ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ به وارتدّوا كالمنافيقين ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ مرّة ثانية ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وارتدّوا ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ وأصروا على الجحود وإنكار الحق حتّى ماتوا عليه .

قيل : إنّ المراد : اليهود ، آمنوا بموسى والتوراة ، ثم كفروا بعزير ، ثم آمنوا بدادود ، ثم كفروا بعبسى ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ (٢) .

أقول : هذا التفسير في غاية البعد وعلى أيّ تقدير ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أبدا ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إلى الحقّ والجنّة .

عن القمي رحمه الله : نزلت في الذين آمنوا برسول الله ﷺ إقرارا لا تصديقا ، ثم كفروا لما كتبوا الكتاب فيما بينهم أن لا يردّوا الأمر في أهل بيته أبدا ، فلما نزلت الولاية وأخذ رسول الله ﷺ الميثاق لأمر

(١) تفسير الرازي ١١ : ٧٥ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٧٨ .

المؤمنين ﷺ آمنوا إقراراً لا تصديقا ، فلما مضى رسول الله ﷺ كفروا وازدادوا كفرا ^(١) .
وعن الصادق عليه السلام : « نزلت في فلان وفلان وفلان ، آمنوا برسول الله ﷺ في أول الأمر ، ثم كفروا حين عرضت عليهم الولاية ؛ حيث قال [النبي ﷺ] : من كنت مولاه فعلي مولاه . ثم آمنوا بالبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام ، حيث قالوا : بأمر الله وأمر رسوله . وبايعوه ، ثم كفروا حيث مضى رسول الله ﷺ فلم يقرّوا بالبيعة ، ثم ازدادوا كفرا بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم ، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شيء » ^(٢) .

وفي رواية عنهما عليه السلام : « نزلت في عبد الله بن أبي سرح الذي بعثه عثمان إلى مصر [قال] : **﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾** حتى لم يبق فيه من الإيمان شيء » ^(٣) .

وفي رواية : « من زعم أنّ الخمر حرام ثم شربها ، ومن زعم أنّ الرّنا حرام ثم زنى ، ومن زعم أنّ الرّكاة حق ولم يؤدّها » ^(٤) .

أقول : بعض الروايات [في] بيان التنزيل ، وبعضها [في] بيان التأويل فلا منافاة .
ثم أنّه تعالى بعدما يأس المنافقين ^(٥) من المغفرة والهداية إلى الحق أو الجنة ، أوعدهم بلفظ البشارة تهكما بدخول النار ، بقوله : **﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾** يا محمد **﴿يَأَنَّ لَهُمْ﴾** في الآخرة **﴿عَذَابًا﴾** بالنار **﴿أَلِيمًا﴾** موجعا يخلص ألمه في قلوبهم .

﴿الَّذِينَ يَتَخِدُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩)

ثم لما ذكر الله سوء حال المنافقين ، عزّفهم بقوله : **﴿الَّذِينَ﴾** هم **﴿يَتَخِدُونَ﴾** ويختارون لأنفسهم **﴿الْكَافِرِينَ﴾** من اليهود والمشركين **﴿أَوْلِيَاءَ﴾** وأصدقاء ويركنون إليهم في العون والنصرة **﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** المخلصين ، وبدلاً منهم .

ثم أنكر عليهم الدّاعي لمولاتهم بقوله : **﴿أَلِيَتُهُمْ﴾** ويطلبون لأنفسهم بموالات الكفار و **﴿عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾** والقوّة ، مع أنّهم أذلاء عند الله ، فقد أخطأوا في ما توهموه **﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ﴾** والقوّة والغلبة **﴿لِلَّهِ﴾** وحده **﴿جَمِيعًا﴾** وبتمام مراتبها ، ليس لأحد غيره وغير من جعلها له ، وهم الرّسول ﷺ والمؤمنون ،

(١) تفسير القمي ١ : ١٥٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٣ .

(٢) الكافي ١ : ٣٤٨ / ٤٢ ، تفسير العياشي ١ : ٤٥١ / ١١٣٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٣ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٥٠ / ١١٣٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٣ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٤٥١ / ١١٣٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٣ .

(٥) يقال : يأسه من كذا ، بمعنى أياسه أو جعله يئأس .

كما قال : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) .

عن القمّي : نزلت في بني اميّة ، حيث خالفوا [نبيّهم على] أن لا يردّوا الأمر في بني هاشم^(٢) .

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا

تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ

الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

ثم قرع المنافقين الموافقين للكفار مخاطبا بقوله : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المنافقون آية ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ الكريم ، يكون مفادها ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ من الكفار ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ حال كون تلك الآيات المقروءة ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ وينكرون كونها من الله ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ عند قراءتها ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ في مجلس الكفرة المستهزئين ، ولا تجالسوا ﴿مَعَهُمْ﴾ اختيارا ﴿حَتَّى يَخُوضُوا﴾ ويشرعوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾ وكلام ﴿غَيْرِهِ﴾ فإن قعدتم مع الكفار في مجلس يكفرون بالآيات ويستهزئون بها ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ عند الله في الكفر والعقاب ، أو في الإثم ، لقدركم على الإنكار وترك المجالسة.

نقل الفخر الرازي عن المفسرين : أنّ المشركين كانوا في مجالسهم يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به ، فأُنزل الله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٣) ، وهذه الآية نزلت بمكة.

ثم أنّ أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين ، والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام هم المنافقون ، فقال تعالى مخاطبا للمنافقين : إِنَّهُ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية^(٤) ، فدلت الآية على أنّ الرّاضي بالفسق ، والحاضر في مجلسه مع قدرته على الإنكار ، في حكم المباشر وإن لم يرتكب.

عن الرضا عليه السلام ، في تفسير الآية : « إذا سمعت الرجل يجحد الحق ، ويكذب به ، ويقع في أهله ، فقم من عنده ولا تقاعده »^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « وفرض الله [على السمع] أن يتنزه عن الاستماع [إلى] ما حرّم الله ، وأن يعرض عمّا^(٦) نهى الله عنه ، والإصغاء إلى ما أسخط الله ، فقال في ذلك : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١) المنافقون : ٦٣ / ٨ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٥٦ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٣ .

(٣) الأنعام : ٦ / ٦٨ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٨١ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ٤٥١ / ١١٣٥ ، مجمع البيان ٣ : ١٩٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٤ .

(٦) زاد في تفسير العياشي والكافي : لا يحل له مما .

الْكِتَابِ ﴿الْآيَةُ﴾ ، ثُمَّ اسْتَنْى مَوْضِعَ النَّسِيَانِ فَقَالَ : ﴿وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

الْقَمِيَّ ﷺ : آيَاتِ اللَّهِ : هُمُ الْأُتَمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢) .

ثُمَّ حَقَّقَ سَبْحَانَهُ كَوْنَ الْمُنَافِقِينَ الْمَوَافِقِينَ لِلْكَفَّارِ مِثْلَهُمْ فِي الْعِقَابِ ، يَقُولُهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ الْقَاعِدِينَ مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ الْمَقْعُودَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ .

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْهِكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

ثُمَّ عَرَّفَ الْمُنَافِقِينَ بِتَعْرِيفٍ آخَرَ يَقُولُهُ : ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ﴾ وَيَنْتَظِرُونَ ﴿بِكُمْ﴾ وَبِمَا يَحْدُثُ لَكُمْ فِي جِهَادِ الْكَفَّارِ ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ وَحَصَلَ ﴿لَكُمْ﴾ فِي جِهَادِ ﴿فَتْحٌ﴾ وَظَفَرَ ﴿مِنْ﴾ جَانِبِ ﴿اللَّهِ﴾ وَبِعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ ﴿قَالُوا﴾ طَلَبًا لِقِسْمَةٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿أَلَمْ نَكُنْ﴾ مَوَافِقِينَ ﴿مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، مَظَاهِرِينَ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ فَأَشْرَكُونَا فِي الْغَنَائِمِ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ بِحَسَبِ الْإِتِّفَاقِ ﴿لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ وَحِظًا مِنَ الْغَلْبَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالُوا﴾ لِلْكَافِرِينَ تَحِيًّا لَهُمْ ﴿أَلَمْ نَسْتَحْذِ﴾ وَلَمْ نَسْتَوْلِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَلَمْ نَكُنْ مَتَمَكِّنِينَ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرَكُمْ بِمَظَاهِرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَكَفَفْنَا عَنْكُمْ ، ﴿وَوَ﴾ أَلَمْ ﴿نَمْنَعُكُمْ﴾ وَنَحْفَظَكُمْ ﴿مِنْ﴾ بَأْسِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِأَنْ خِيلْنَا لَهُمْ مَا ضَعَفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَتَوَانِينَا مِنْ مَظَاهِرَتِهِمْ عَلَيْكُمْ؟

قِيلَ : إِنَّ الْكَفَّارَ وَالْيَهُودَ أَرَادُوا الدَّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَحَذَّرَهُمُ الْمُنَافِقُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَبَالَغُوا فِي تَنْفِيرِهِمْ عَنْهُ ، وَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّهُ سَيُضْعَفُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ . فَإِذَا اتَّفَقَتْ لَهُمُ الصَّلُوةُ قَالُوا : أَلَسْنَا غَلَبْنَا عَلَى رَأْيِكُمْ فِي الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَنْعَاكُمْ مِنْهُ ، فَلِذَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا أَصَبْتُمْ . وَإِنَّمَا سَمَّى اللَّهُ غَلْبَةَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَحًا ، وَغَلْبَةَ الْكَفَّارِ نَصِيبًا ، تَعْظِيمًا لِشَأْنِ غَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَحْقِيرًا لَغَلْبَةِ الْكَافِرِينَ (٣) .

ثُمَّ لَمَّا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةِ رَغْبَةِ الْعُمُومِ فِي الْإِسْلَامِ

(١) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ١ : ٤٥٢ / ١١٣٧ ، الْكَافِي ٢ : ٢٩ / ١ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١ : ٤٧٤ ، وَالْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ٦ : ٦٨ .

(٢) تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ١ : ١٥٦ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١ : ٤٧٤ .

(٣) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١١ : ٨٢ .

الظاهرى وغيرهما ، وعد التفريق بين المؤمنين الخلّص ، وبين المنافقين في الآخرة مخاطبا لجميعهم بقوله : **﴿فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾** أيها الفريقان بالفرق والامتياز في الظاهر **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** بإكرام المؤمنين الخلّص ^(١) وإعطائهم الثواب الجزيل ، وإذلال المنافقين وإدخالهم النار .
ثم لما أثبت الله للكفار الغلبة الاتفاقيّة بالسيف ، نفى عنهم الغلبة على المؤمنين بالحجة بقوله : **﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾** ولم يفتح لهم **﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾** بالحجة أبدا ، وإن اتفق لهم عليهم أحيانا وبحسب الحكمة سبيلا في القوة .

في معنى عدم جعل السبيل للكفار على المؤمنين

عن الرضا عليه السلام - في رواية - أنه قيل له : قوم يزعمون أنّ الحسين بن علي عليه السلام لم يقتل ، وأنه ألقي شبهة على حنظلة بن أسعد الشامي ^(٢) ، وأنه رفع إلى السماء كما رفع عيسى بن مريم ، ويحتجون بهذه الآية : **﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾**
فقال عليه السلام : « كذبوا ، عليهم غضب الله ولعنته ، وكفروا بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله في إخباره بأنّ الحسين عليه السلام سيقتل ، والله لقد قتل الحسين عليه السلام ، وقتل من كان خيرا من الحسين ؛ أمير المؤمنين ، والحسن بن علي ، وما منا إلا مقتول ، وإني لو الله مقتول باغتيال من يغتالي ، أعرف ذلك بعهد معهود إليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره به جبرئيل عن ربّ العالمين .
فأمّا قوله عزّ وجلّ : **﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾** فإنه يقول : لن يجعل الله لكافر على مؤمن حجة ، ولقد أخبر الله عن كفار قتلوا النبيين بغير الحقّ ، ومع قتلهم إيّاهم لن يجعل الله لهم على أنبيائهم سبيلا من طريق الحجة » ^(٣) .
وقيل : إنّ المراد من عدم جعل السبيل في القيامة وقيل : إنّ عامّ في الكلّ إلا ما خصّه الدليل ^(٤) .
أقول : الظاهر أنّ المراد من جعل الله في المقام : الجعل التشريعي لا التكويني ، ولا الأعمّ منهما حتّى يشمل الغلبة في الحرب والمصارعة وأمثالهما ، ويمكن أن يكون أعمّ من جعل الآيات الدالة على الحقّ والأحكام الوضعيّة أو التّكليفيّة ، الموجبة لاستيلاء الكفار على المؤمنين ، ولذا استدللّ الفقهاء بهذه الآية في مسائل :
منها : عدم جواز إبقاء العبد المسلم في ملك الكافر ، بل يقهر الكافر على بيعه من مسلم ، فإن امتنع

(١) في النسخة : الخلّصين .

(٢) كذا ، وروي الشامي ، وشبام بطن من همدان ، انظر : كتاب أنصار الحسين عليه السلام : ١٨ / ٧٠ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٠٣ / ٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٤ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٨٣ .

باعه الحاكم عليه ، ويسلم ثمنه إليه.

منها : أنه لا يصح بيع العبد المسلم من الكافر.

منها : أنه لا يصح إيجاز العبد المسلم للكافر.

منها : أنه لا يجوز إيجاز الحر المسلم نفسه من الكافر للخدمة ، وأما لغيرها فلا يجوز إذا كان أجيروا

خاصًا.

منها : رهن العبد المسلم عند الكافر مع قبضه له.

منها : عدم صحة جعله وصيًا على صبي مسلم.

منها : عدم صحة إعارة العبد المسلم للكافر. إلى غير ذلك ، وإن كان في كثير من الفروع نظر.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى

يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢) مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى

هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣)

ثم لما بين الله سبحانه خدع المنافقين بالمؤمنين والكافرين ، بين إفراطهم في الخدعة بقوله : ﴿إِنَّ

الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ويمكرونه. وقد مرّ تفسير خدعهم بالله (١) في سورة البقرة (٢).

وقيل : إنّ المراد بخدعهم بالله : خدعهم برسوله والمؤمنين ، تنزيلاً لخدعهم بهم بإظهار الإيمان

وإبطان الكفر منزلة خدعهم له تعالى (٣).

﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ومجازيهم بالعقاب على خدعهم.

عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه تعالى يخادعهم في الآخرة ، وذلك أنه تعالى يعطيهم نورا كما

يعطي المؤمنين ، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة (٤).

ثم شرح الله بعض أنواع خداعهم بقوله : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مع المؤمنين وفي جماعتهم

﴿قَامُوا﴾ حال كونهم ﴿كُسَالَى﴾ متشاقلين متباطئين لضعف داعيهم إلى الصلاة حيث إنهم لكفرهم لا

يرجون بها ثوابا ، ولا يخافون من تركها عقابا ، بل بفعلها ﴿يُرَاؤُنَ النَّاسَ﴾ ليحسبهم مؤمنين لا داعي لهم

إلى الصلاة غيره ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في صلواتهم مع المؤمنين وفي جماعتهم ﴿إِلَّا﴾ ذكرا ﴿قَلِيلًا﴾ من أذكار

الصلاة ، وهو الذي يظهر للمؤمنين كالتكبيرات ، وأما الذي الذي مثل القراءة

(١) عدّى الفعل (خدع) بالباء في جميع المواضع المتقدمة والآتية ، والصواب أنه متعد بنفسه كما في الآية.

(٢) تقدم في تفسير الآية (٩) من سورة البقرة.

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٨٣.

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٨٣.

والتسيّحات وأمثالها ، فلا يذكرونها .

هذا [في] كَيْفِيَّةِ عملهم ، وأمّا حالهم من حيث الإيمان والكفر فإنهم ^(١) يكونون ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ ومتحيرين في الإيمان والكفر ، ومترددين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور لاختلاف الدّواعي في نظرهم ، فقد يرون نفعهم في موافقة المؤمنين فيكونون معهم ، وقد يرون نفعهم في موافقة الكفار فيكونون معهم ، فلذلك ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنين ينسبون ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ الكفار يضافون ، فهم دائمون في الحيرة والضلال في أمور دينهم ودنياهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ويحذه لحبث ذاته ، وعدم قابليته للهداية ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ﴾ أبداً ﴿سَبِيلًا﴾ إلى الحق ، وطريقاً إلى الجنة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ

أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)

ثم لما ذمّ الله سبحانه المنافقين بموالاته الكفار ، نهى المؤمنين عنها بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿الْكَافِرِينَ﴾ الذين هم أعداؤكم وأعداء دينكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخالص وبدلاً منهم ، ولا تتوقعوا منهم النصرة ، فإنّ موالاتهم من شعار المنافقين ﴿أُرِيدُونَ﴾ بهذا الصنيع ﴿أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ على نفاقكم وفساد عقائدكم ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وحجة ظاهرة لا يمكنكم دفعها .

قيل : إنّ الأنصار بالمدينة كان لهم في بني قريظة رضاع وحلف ومودة ، فقالوا : يا رسول الله ، من نتولّى ؟ فقال : « المهاجرين » فنزلت ^(٢) .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ

تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٥ و ١٤٦)

ثم ذكر سبحانه سوء حال المنافقين في الآخرة تنغيصاً لقلوب المؤمنين عن موادّتهم ، بقوله : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ في الآخرة مستقرّون ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾ والقعر الأُنزل ﴿مِنَ النَّارِ﴾ قيل : هي الهاوية ، وعذاب من فيها أشدّ ممّن ^(٣) في الطبقات الست الأخر ^(٤) .

(١) في النسخة : كأثم .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٨٦ .

(٣) في النسخة : من .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٠٩ .

عن ابن مسعود رضى الله عنه ، [وقد سئل] عن الدرك الأسفل ، فقال : هو توابيت من حديد مبهمة عليهم ، لا أبواب لها ^(١) .

ثم بيّن انقطاع طمعهم عن الخلاص بقوله : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ومخلصا من النار ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا عن كفرهم ونفاقهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أيضا أعمالهم وأخلاقهم ﴿وَأَعْتَصَمُوا﴾ وواثقوا ﴿بِاللَّهِ﴾ بالتمسك بحبل شريعته ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ عن الشوب بالأهوية ^(٢) الفاسدة ﴿لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعته وإيمانهم به إلا رضاه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة يكونون في الدرجات العالية الآخروية ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين كانوا من بدو إيمانهم مؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ﴾ في الآخرة والدنيا ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخالص عموما ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يمكن بيان عظيمته وقدره.

وفي جعل التائبين عن التفاق تبعا للمؤمنين الخالص في الأجر ، إشعار بتشريف المؤمنين الخالص عليهم.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

ثم أنه تعالى بعد وعيد المنافقين بأشد العذاب ، ووعدهم على الإيمان والتوبة والعمل الصالح بأعلى الثواب منه. جعل العذاب على الكفر والعصيان لتحميل الناس على الإيمان والطاعة ، لطفًا بهم ، لا للتشقي ، أو جلب النفع إلى نفسه ، أو دفع الضرر عنها ، بقوله : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ وأي داع له إلى عقابكم ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمه وامتنتم أحكامه ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ به وبرسوله واليوم الآخر ، بل إنما أمركم بما أمر ونهاكم عما نهي حفظا لمصالحكم ، وتكميلا لنفوسكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ مع ذلك لطاعتكم ﴿شَاكِرًا﴾ بإعطاء الأجر ، وبذل الثواب ﴿عَلِيمًا﴾ بما وبمقدار ما تستحقون من الأجر عليها.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا

عَلِيمًا﴾ (١٤٨)

ثم لما كان المنافقون التائبون - بعد توبتهم وتخليص إيمانهم - في معرض الذم والتعيير لما سبق منهم من فساد العقيدة وسوء الأعمال ، نهي الله تعالى عن القول السيء بقوله : ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ﴾ والتظاهر ﴿بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ في حق أحد ، سواء كان القول السيء سبًا أو غيبة أو بهتانًا أو تعييرا ، لا

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٠٩ .

(٢) كذا ، والظاهر : بالأهواء ؛ لأن الأهوية جمع هواء ، والأهواء جمع هوى وهو المراد.

بل يبغضه من كلِّ أحد ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ به واسيء إليه ، بأن يدعو على المسيء ، أو يذكر إساءته ، أو يشتكي منه بأن يقول : ضربني ظلما ، أو شتمني ، أو غصب أو سرق مالي ، أو يردّ بالشّيمة على شاتمته .
عن الباقر عليه السلام : « لا يحبّ الله الشّتم في الانتصار إلّا من ظلم ، فلا بأس أن ينتصر ممّن ظلمه بما يجوز الانتصار به في الدّين » (١) الخبر .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّه الصّيف ينزل بالرجل ، فلا يحسن ضيافته ، [فلا جناح عليه أن يذكر سوء ما فعله » (٢) .

وعنه عليه السلام في هذه الآية : « ممّن أضاف قوما فأساء ضيافتهم فهو ممّن ظلم [فلا جناح في ما قالوا فيه » (٣) .

وفي رواية : « إن جاءك رجل وقال فيك ما ليس فيك من الخير والثناء والعمل الصّالح ، فلا تقبله منه وكذّبه ، فقد ظلمك » (٤) .

ثمّ هدّد الجاهر بالسّوء بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لاقوالكم السيئة ﴿عَلِيمًا﴾ باستحقاقكم ومقدار جزائكم .

قيل : نزلت في أبي بكر ، فإنّ رجلا شتمه مرارا فسكت ، ثمّ ردّ عليه ، فقام النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : شتمني وأنت جالس ، فلمّا رددت عليه قمت ؟ فقال ﷺ « إنّ ملكا كان يجيب عنك ، فلمّا رددت عليه ، ذهب ذلك الملك وجاء الشّيطان ، فلم أجلس عند مجيء الشّيطان » . فنزلت هذه الآية (٥) .

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩)

ثمّ لما أذن الله سبحانه في الوقوع في الظّلم ، وإساءة القول له ، رغب في العمل بالخير والإحسان إلى الخلق ، والعفو عن إساءتهم بقوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿خَيْرًا﴾ وبرّا وإحسانا ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وتسروه ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ﴾ كلِّ ﴿سُوءٍ﴾ ولا تنتقموا من الظّلم مع قدرتكم على الانتقام ، ولا تقابلوه بالقول السيّء ، وتخلّفوا بأخلاق الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ عن العصاة وعن المسيء والمساء إليه مع كونه ﴿قَدِيرًا﴾ على عقوبتهم والانتقام منهم فأنتم أولى بالعفو .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٠١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٦ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٠٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٦ .

(٣) تفسير العياشي ١ : ٤٥٣ / ١١٤١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٦ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٥٧ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٦ .

(٥) تفسير الرازي ١١ : ٩١ .

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥٠) و (١٥١) ﴿﴾

ثم لما كان أغلب المنافقين من اليهود ، شرع في ذم اليهود بعد الفراغ من ذم المنافقين بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ولكن لا بالصراحة ، بل بالالتزام لما نسبته إليهم بقوله : ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا﴾ في الإيمان ﴿بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم ، ولكن لا بالتصريح بهذا التفريق ، بل هو المدلول الالتزامي لما حكاه عنهم بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل كموسى وعزير ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ آخر كعيسى ومحمد ، مع أن الكفر بأحد الرسل كفر بجميعهم ، والكفر بجميعهم كفر بالله عز وجل .

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم بالتفريق في الإيمان بينهم ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ ويختاروا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الإيمان والكفر المطلق ﴿سَبِيلًا﴾ ومذهباً وسطاً ، مع أنه لا واسطة بينهما ، فإن الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان برسله ، وتصديقهم في ما بلغوا عنه ، وتكذيب واحد منهم في حكم تكذيب جميعهم ؛ فلذلك ﴿أُولَئِكَ﴾ المفرقون بين الرسل المبعوضون في الإيمان ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المنتهون في الكفر إلى الغاية ، وحق ذلك القول ﴿حَقًّا﴾ لا يشوبه شك ولا ريب .

ثم أوعدهم بعقاب الكفار بقوله : ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين هؤلاء المفرقون من أظهر مصاديقهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ و عقوبة مقرونة بغاية الدل ، لاستكبارهم عن الإيمان بالرسل .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ

أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) ﴿﴾

ثم أتبع ذم الكفار ووعيدهم بمدح المؤمنين ووعدهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتصديق ؛ مع كون جميعهم ذوي المعاجز الباهرة والآيات الظاهرة ﴿أُولَئِكَ﴾ الكاملون في الإيمان ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ الله تعالى من فضله في الآخرة ﴿أُجُورَهُمْ﴾ التي وعدهم على لسان رسله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم ؛ ﴿رَحِيمًا﴾ بهم بتضعيف حسناتهم ، واستغراقهم بأنواع النعم الدائمة .

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ

مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)

ثم وبخ الله سبحانه اليهود باقتراحهم على النبي ﷺ كما اقترح أسلافهم على موسى ، بقوله : ﴿يَسْأَلُكَ﴾ اليهود الذين هم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ والمؤمنون بالتوراة ﴿أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ .
قيل : إنهم قالوا : إن كنت رسولا من عند الله فأتنا بكتاب من السماء جملة ، كما جاء موسى بالألواح .

وقيل : طلبوا أن ينزل كتابا من السماء إلى فلان ، وكتابا إلى فلان بأنك رسول الله (١) . وقيل : كتابا نعينه حين نزوله (٢) .

ولما كان سؤالهم عن التعتت واللجاج لظهور معجزات النبي أكثر مما يحتاج إليه في ظهور صدقه ، ولم يحسن إجابة مسؤولهم ، أجابهم بأن طباعكم مجبولة على التعتت والاقتراح ، فإنكم أولاد الذين اقترحوا وتعتتوا على نبيهم العظيم الشأن ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ﴾ وأعظم ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ السؤال ، ولم يكتفوا بنزول التوراة دفعة واحدة ، وبظهور الآيات والمعجزات في تصديقه بأن الله يكلمه ، حتى اختار سبعين رجلا من كبرائهم وصلحائهم ، فذهب بهم إلى جبل طور ليسمعوا كلام الله ، فلما سمعوا أن الله كلمه سألوه أن يريهم الله حتى ينظروا إليه بأبصارهم ﴿فَقَالُوا﴾ لموسى ﷺ : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وعيانا حتى نصدقك ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وشعلة النار من السماء فأحرقتهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم وتعتتهم على نبيهم .
﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿الْعِجْلَ﴾ الذي صنعه السامري من حليهم لها ومعبودا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ﴾ المعجزات ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ من العصا ، واليد البيضاء ، وقلق البحر ، وغير ذلك ﴿فَعَفَوْنَا﴾ وتجاوزنا ﴿عَنْ ذَلِكَ﴾ الذنب العظيم بعد توبتهم ، ولم نستأصلهم بالعذاب مع استحقاقهم له ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى﴾ مع شدة لجاج قومه على خلاف العادة ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وغلبة ظاهرة على أعدائه حتى ظهر دينه وقوي أمره . وفي ذلك بشارة للرسول بنصرته وظهور دينه ، كما صرح بتلك البشارة بقوله : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ (٣) .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا

تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)

(١ و ٢) . تفسير الرازي ١١ : ٩٤ .

(٣) غافر : ٤٠ / ٥١ .

ثم بالغ سبحانه في بيان شدة لجاحهم وطغيانهم بقوله : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ - وقد مرّ تفسير القضيتين في سورة البقرة ^(١) - ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بلسان نبيهم ﴿لَا تَعْدُوا﴾ ولا تتجاوزوا حدود الله ﴿فِي﴾ يوم ﴿السَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ﴾ على العمل بأحكام التوراة عموماً ، أو ترك الصيد في السبت ﴿مِيثَاقًا﴾ وعهداً ﴿غَلِيظًا﴾ وكيداً.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

ثم نقضوا الميثاق ، وخالفوا التوراة ، واصطادوا في السبت ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ وبسبب خلفهم عهدهم ﴿وَكُفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ وحججه الظاهرة من القرآن ، أو جميع المعجزات ، أو خصوص آيات التوراة الدالة على صفات النبي ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ كزكريّا ويحيى ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مع ظهور نبوتهم لهم ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ في مقام اللجاج جواباً لمحمد ﷺ : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومغشاة ، أو أوعية العلم ، ومع ذلك لا خير فيها من نبوتك.

ثم ردّهم الله بقوله : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وجحودهم ، فحجبت عن العلم خذلاناً من الله ، وقست بحيث لا تؤثر فيها الدعوة والموعظة ، ولذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنبياء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كموسى وعزيراً ، أو إيماناً قليلاً لا يعبأ به.

قيل : إنّ التقدير : أنه بسبب هذه المعاصي لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦)

﴿و﴾ كذا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وإنكارهم قدرة الله على خلق الولد بغير أب ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ﴾ بنت عمران ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ وقرية في غاية القباحة من نسبة احتيالها إلى الرّنا ، مع أنّ الله تقبّلها بقبول حسن لخدمة البيت المقدّس ، وكفلها زكريّا ، وشهد بطهارتها ، وتكلّم عيسى في المهد ، إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة عند اليهود على أنّ هذا القول في حقّها بهت صرف.

في نقل بهتان الفخر الرازي على الشيعة وتكذيبه

قال الفخر الرازي ، بعد ذكر براءة مريم من كلّ ريبة : فلا جرم وصف الله تعالى طعن اليهود فيها بأنّه بهتان عظيم ، وكذلك وصف طعن المنافقين في عائشة بأنّه بهتان عظيم ، حيث قال : ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٢) وذلك يدلّ على أنّ الروافض

(١) تقدم في تفسير الآيتين (٦٣ و ٩٣) من سورة البقرة.

(٢) النور : ٢٤ / ١٦.

الذين يطعنون في عائشة بالزنا ^(١) بمنزلة اليهود الذين قالوا في مريم ^(٢) .

أقول : سبحانه هذا بهتان عظيم على الشيعة ، انظروا إلى الرجل كيف افتري على الشيعة بما هم براء منه ، فإنّ أحدا من الشيعة لم يطعن في عائشة بذلك لقطعهم ببراءتها من الفحش ، لكرامة النبي ﷺ ، لا لكمال ذاتها وطهارتها من المعصية ، لصدور ما هو أكبر من الزنا منها كخروجها على خليفة الرسول ، وإيذاؤها لفاطمة البضعة. بل نقول بعصمة جميع زوجات النبي عن الفاحشة تنزيها له ﷺ من الشين.

فإصرار الناصب بطهارتها من المعصية ردّ للكتاب الناطق بعصيانها ، حيث قال سبحانه : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ ^(٣) الآية.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧)

ثم حكى سبحانه وتعالى افتخار اليهود بقتل الأنبياء بقوله : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مفتخرين به مع كونه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ .
ثم كدّهم الله في هذه الدعوى بقوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ بل ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أصلا ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ﴾ المقتول والمصلوب ﴿لَهُمْ﴾ قيل : يعني : وقع الشبهة لهم ^(٤) .

في رفع عيسى ﷺ إلى السماء

روي أنّ رهطا من اليهود سبّوه وقالوا : هو السّاحر بن السّاحرة ، والفاعل بن الفاعلة. فخذفوه وأمّه فلما سمع ﷺ ذلك دعا عليهم ، فقال : [اللهم] أنت ربّي وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتك خلقتني ، ولم آتهم من تلقاء نفسي ، اللهم فالعن من سبّني وسبّ أمي. فاستجاب الله دعاءه ومسح الذين سبّوه وسبّوا أمّه قردة وخنازير ، فلما رأى ذلك يهودا رأس القوم وأميرهم فزع لذلك ، وخاف دعوته عليه أيضا ، فاجتمعت اليهود على قتل عيسى ﷺ ، فبعث الله جبرئيل فأخبره بأنّه يرفعه إلى السماء ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبيهي ، فيقتل ويصلب فيدخل الجنة ، فقال رجل منهم : أنا ، فالقي شبيهه عليه فقتل وصلب ^(٥) .
وقيل : إنّ الشّبه القي على وجهه دون بدنه ، فلما قتلوه نظروا إلى بدنه فقالوا : الوجه وجهه عيسى ،

(١) (بالزنا) لم ترد في المصدر.

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٩٩ .

(٣) التحريم : ٦٦ / ٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣١٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣١٧ .

والبدن بدن غيره ^(١) .

وقيل : إنّ اليهود حبسوا عيسى عليه السلام مع عشرة من الحواريين في بيت ، فدخل [عليه] رجل [من اليهود] ليخرجه ويقتله ، فألقى الله شبه عيسى عليه ، [ورفع إلى السماء] فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى ، ثم قالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ ^(٢)

فأشار سبحانه إلى اختلاف اليهود في قتله بقوله : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من اليهود والنصارى - كما قيل إنهم أيضا مختلفون في قتله ^(٣) - أو [من] الفريقين الذين خالفوا واعتقدوا قتله ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ وتردد فيه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ شيء ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ واعتقاد جازم ، وليس لهم في ادعاء قتل عيسى ، أو في جميع الأمور الدينية عمل ودأب ﴿إِلَّا اتَّبَاعِ الظَّنِّ﴾ ولا يغني الظن من الحق شيئا.

ثم أكد سبحانه تكذيبهم في دعوى قتله بقوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قتلا ﴿يَقِينًا﴾ أو المراد : أن نفي القتل يكون يقينا وحققا ، لا ينبغي أن يشك فيه.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨)

ثم أضرب وأعرض عن الدعوى الكاذبة بقوله : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وإلى سمائه ومحلّ كرامته وقربه . قيل : إن الحكمة في رفعه إلى السماء تبرك الملائكة بصحبته ؛ لأنه كلمة الله وروحه ^(٤) . وقيل : إنه لما لم يكن دخوله في الدنيا من باب الشهوة ، لم يكن خروجه منها من باب المنية ، بل دخل من باب القدرة ، وخرج من باب العزة ^(٥) .

أقول : فيه نظر ، إذ لا بدّ من خروجه بعد عودته إلى الأرض من باب المنية ؛ لقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ^(٦) . ويمكن أن يكون الحكمة في رفعه إلى السماء تقرب صحّة دعوى الرسول العروج إلى السماء ، والاستدلال به على إمكانه.

ثم دفع الله سبحانه استبعاد رفعه إلى السماء بهذا البدن العنصري ، بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبا على أمره ، قادرا على ما يريد ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله.

عن السجّاد عليه السلام : « أنّ الله بقاعا في سماواته ، فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه ، ألا تسمع الله يقول في قصّة عيسى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ^(٧) .

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١١ : ١٠١ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣١٨ .

(٤) و (٥) . تفسير روح البيان ٢ : ٣١٩ .

(٦) آل عمران : ٣ / ١٨٥ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ١ : ١٢٧ / ٦٠٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٩ .

وعن القمّي رحمه الله : رفع وعليه مدرعة من صوف (١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « رفع عيسى بن مريم بمدرعة صوف من غزل مريم ، ومن نسج مريم ، ومن خياطة مريم ، فلما انتهى إلى السماء نودي : يا عيسى ، ألق عنك زينة الدنيا » (٢) .

وفي (الإكمال) : عن النبي صلى الله عليه وآله : « أن عيسى بن مريم أتى بيت المقدس ، فمكث يدعوهم ويرغبهم في ما عند الله ثلاثا وثلاثين سنة ، حتى طلبته اليهود وادّعت أنها عذّبتة ودفنته في الأرض حيا ، وادّعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه ، وما كان الله ليجعل لهم سلطانا عليه ، وإنما شبّه لهم ، وما قدروا على عذابه ودفنه ، ولا على قتله وصلبه ؛ لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيبا لقوله : ﴿ تِلْكَ رَفْعَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴾ (٣) .

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

شَهِيدًا (١٥٩)﴾

ثم حرض الله اليهود بالإيمان (٤) بنبوة عيسى عليه السلام ، والتّصارى بالإيمان بأنّه عبد الله ورسوله حين ينفعهم الإيمان به ، بقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والتّصارى أحد ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وزهوق روحه ، وحين معاينة عالم الآخرة ولكن لا ينفعه إيمانه .

قيل : إنّه إذا حضرت اليهودي الوفاة وعاین الآخرة ، ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالت : أذاك عيسى نبيا فكذّبت به ، فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه ، وتقول للتّصارى : أذاك عيسى عبد الله ، فزعمت أنّه هو الله وابن الله ، فيؤمن بأنّه عبد الله حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع التّكليف (٥) .

روي عن شهر بن حوشب ، قال : قال الحجاج : إنّي ما قرأتها إلّا وفي نفسي منها شيء - يعني هذه الآية - فإنّي أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك ، فقلت : إنّ اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا : يا عدوّ الله ، أذاك عيسى نبيا فكذّبت به ، فيقول : آمنت به ، وتقول للتّصارى : أذاك عيسى نبيا فزعمت أنّه هو الله وابن الله ، فيقول : آمنت أنّه عبد الله ، فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان ، فاستوى الحجاج جالسا وقال : عمّن نقلت هذا ؟ فقلت : حدّثني به محمد بن عليّ [ابن] الحنفية ، فأخذ ينكث بقضيبه الأرض ثمّ قال : أخذتها من عين صافية (٦) .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٢٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٩ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣١٠ / ٦٩٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٧٩ .

(٣) كمال الدين : ٢٢٥ / ٢٠ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٠ .

(٤) كذا ، والظاهر : على الإيمان .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٢٠ .

(٦) تفسير الرازي ١١ : ١٠٣ .

وعن القمّي ، عن شهر ما يقرب منه ، إلى أن قال : فقلت : أصلح الله الأمير ، ليس على ما تأوّلت ، قال : كيف هو ؟ قلت : إنّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدّنيا ، فلا يبقى أهل ملّة يهوديّة ولا غيره إلّا آمن به قبل موته ، ويصلي خلف المهدي عليه السلام ، قال : ويحك ، أتى لك هذا ، ومن أين جئت به ؟ فقلت : حدّثني به محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : جئت بها [والله] من عين صافية (١) .

وعن الباقر عليه السلام ، في تفسيرها : « ليس من أحد من جميع أهل الأديان يموت إلّا رأى رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام حقّاً من الأولين والآخرين » (٢) .

وفي (الجوامع) : عنهما عليه السلام : « حرام على روح [امرئ] أن تفارق جسدها حتّى ترى محمّداً وعليّاً صلوات الله عليهما » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « هذه نزلت فينا خاصّة ، أنّه ليس رجل من ولد فاطمة يموت ولا يخرج من الدّنيا حتّى يقرّ للإمام بإمامته ، كما أقرّ ولد يعقوب ليوسف حين قالوا : ﴿ تَاللّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ (٤) » .

وفي (المجمع) : في أحد معانيه : « ليؤمننّ بمحمّد ﷺ قبل موت الكتائب » (٥) .
﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ عيسى عليه السلام أو محمّد ﷺ ﴿ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ فيشهد على اليهود بالكذب ، وعلى النّصارى بأنّهم دعوا عيسى ابن الله .

﴿ فَبَطَلْهُمْ مِنْ الدِّينِ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (١٦٠) و (١٦١)

ثمّ بعد ذكره سبحانه فضائح اليهود ، ذكر تشديده عليهم في الدّنيا بقوله : ﴿ فَبَطَلْهُمْ ﴾ عظيم صادر ﴿ مِنْ الدِّينِ هَادُوا ﴾ لا بغيره من الأسباب ﴿ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾ ولذا نذ مخصصة من الأطعمة التي ﴿ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ ولمن قبلهم ، كلحوم الإبل والبأنها ، والشحوم ﴿ وَبِصَدَّهِمْ ﴾ ومنعهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ من الإيمان بالنبي ﷺ ، والدخول في دين الإسلام صدّاً ومنعاً ﴿ كَثِيراً ﴾ بإلقاء الشبهات

(١) تفسير القمي ١ : ١٥٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٠ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٤٥٥ / ١١٤٨ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٠ .

(٣) جوامع الجامع : ١٠١ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٠ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٤٥٤ / ١١٤٥ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨١ ، والآية من سورة يوسف : ١٢ / ٩١ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٢١٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٠ .

والمكائد والتسويلات ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا﴾ من الناس ، ﴿و﴾ الحال أحم ﴿قَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ في التوراة وغيرها من الكتب ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وبغير الوجه المحلل ، كالرشوة وغيرها .
ثم ذكر تشديده عليهم في الآخرة بقوله : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون المؤمنين بمحمد ﷺ ،
كثير من الأحبار ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الآخرة .

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢)﴾

ثم أنه تعالى بعد ذم الكفار وذكر قبائح أعمالهم وسوء عاقبتهم ، ذكر محامد المؤمنين وحسن عاقبتهم على حسب دأبه في الكتاب العزيز بقوله : ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ﴾ والمستغرقون ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ بحيث لا يضطربون بإلقاء الشبهات ، ولا يميلون إلى الخرافات بالتسويلات ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الخالص ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب وصدق التّبة ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ إلى سائر الأنبياء ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب السماوية ، ﴿و﴾ أخصّ ﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ بالمدح .
وقيل : إنه معطوف على ما ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^(١) ، والمعنى : يؤمنون بالمقيمين الصلّاة ، والمراد بهم الأنبياء والملائكة . ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ من أموالهم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإنما قدّم سبحانه الإيمان بالكتب والأعمال الصالحة على الإيمان بالله وبالمعاد لكونه المقصود الأهم في المقام .
﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات الحميدة ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثواباً جزيلاً لا يقادر قدره .

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (١٦٣)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان شدة إنكار اليهود وتعنتهم على الرسول ، بين أنّ الرسالة ليست من البدائع والأمور الجديدة غير المأنوسة ، بل كانت في جميع الأزمان تقريبا للأذهان ، ودفعاً للتّحاشي عن

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٥٤ .

الطباع ، بقوله : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وشرفناك بمنصب الرسالة ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الذين كانوا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يروّجون شريعته إلى زمان إبراهيم عليه السلام ، ﴿وَمَا﴾ كما ﴿أَوْحَيْنَا﴾ بعدهم ﴿إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق ، ﴿وَمَا﴾ أنبياء ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر ، وهم أولاد يعقوب ، ﴿وَمَا﴾ إلى ﴿عِيسَى وَيُؤُسَ وَهَارُونَ وَسَلِيمَانَ﴾ .

وفي ذكر هؤلاء بأسمائهم ، مع كونهم من الأسباط وكون الأنبياء أكثرهم منهم ، دلالة على أفضليّتهم من الغير المذكورين. وإنّما قدّم ذكر نوح لكونه آدم الثاني ، وأوّل من شرع الله على لسانه الأحكام ، وأوّل اولي العزم من الرسل.

ثمّ أجمل في ذكر سائر الأنبياء الذين كانوا بعده ، ثمّ ذكر الأفاضل منهم تفصيلاً ، وبدأ بذكر إبراهيم عليه السلام لكونه أفضل المذكورين وأقدمهم ، وثاني اولي العزم ، ثمّ ذكر أنبياء الأسباط بنحو الإجمال ، ثمّ ذكر أسماء أفاضلهم ، وبدأ في هذا التفصيل بذكر اسم عيسى ، لكونه أفضل المذكورين في الآية وثالث اولي العزم ولتبكيت اليهود ، حيث إنهم شدّدوا في إنكار نبوته وصحة نسبه.

في بيان الزبور وتلاوة داود عليه السلام إياه

ثمّ حصّ داود عليه السلام من بينهم بفضيلة إيتائه الكتاب بقوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ لشهرة كتابه بين اليهود ونزوله نجوماً كالقرآن ، فأشار بذكره إلى أنّه لو كان نزول كتاب نجوماً قادحاً فيه ، لكان على اليهود القدح في الزبور ، مع أنّهم يعظمونه غاية التعظيم.

قيل : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ، وإنّما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله عزّ وجلّ ، وكان داود يبرز إلى البرية ويقرأ الزبور ، فيقوم علماء بني إسرائيل خلفه ، ويقوم الناس خلف العلماء ، ويقوم الجنّ خلف الناس ، وتحيّ الدّواب التي في الجبال إذا سمعت صوت داود ، فيقمن بين يديه تعجباً لما يسمعن من صوته ، وتحيّ الطّير حتّى يظللن على داود في خلائق لا يحصيهنّ إلّا الله ، يفرغن على رأسه ، وتحيّ السّباع حتّى تحيط بالدّواب والوحش لما يسمعن ، فلما قارف الدّنب ^(١) - وهو تزوّج امرأة اوريا من غير انتظار الوحي بجبرئيل عليه السلام - لم يروا ذلك ^(٢) .

في ذكر عدد الأنبياء والرسل

ثمّ أنّه تعالى ذكر أسماء الأنبياء المشهورين ، ولم يذكر موسى عليه السلام معهم ، لأنّ اليهود كانوا يحتجّون على النبيّ ﷺ بأنّ كتابك لو كان من السّماء لكان ينزل دفعة كما

(١) اقتراف الذنوب ممّا لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام لأنهم معصومون ، ولا يبعد أن تكون حكاية زواج داود عليه السلام من امرأة اوريا هي من الروايات الاسرائيلية التي تسربت إلى ساحة التفسير ، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « لا أوّتى برجل يزعم أن داود عليه السلام تزوج بامرأة اوريا إلا جلدته حدّين : حدّ النبوة ، وحدّ الاسلام » راجع تنزيه الأنبياء / للسيد المرتضى : ٩٠ - ٩٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٢٣ .

انزلت التوراة على موسى دفعة ، فأجاب الله عن تلك الشبهة بأن هؤلاء المذكورين كانوا كلهم أنبياء مع أن واحدا منهم ما أتى بكتاب مثل التوراة دفعة ، فلا يقدح نزول الكتاب نجوما في كونه من عند الله ، كذا قيل^(١) .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾

ثم أكمل البيان وأتم الحجة بقوله : ﴿وَرُسُلًا﴾ آخرين أرسلناهم إلى الناس جماعة منهم ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ وتلونا أحوالهم ﴿عَلَيْكَ﴾ وسميائهم لك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في السور الاخر من القرآن ، كهود وصالح وإدريس عليه السلام آخر ﴿وَرُسُلًا﴾ آخر ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ في كتابك ، ولم نسمهم لك ، ولم نذكر أحوالهم.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، كم كانت الأنبياء ؟ وكم كان المرسلون ؟ قال : « كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر »^(٢) .

ثم بين مزية موسى عليه السلام من بينهم بقوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ من بينهم في الطور ﴿تَكْلِيمًا﴾ بطريق المشافهة.

قيل : فيه إشارة إلى أن تخصيص موسى عليه السلام بهذه المزية ، كما لا يقدح في نبوة غيره من الأنبياء ، لا يقدح نزول كتابه دفعة في نبوة نبي نزل كتابه نجوما كالقرآن^(٣) .

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ

اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾

ثم بين سبحانه حكمة إرساله الرسل بقوله : ﴿رُسُلًا﴾ كثيرة أرسلناهم إلى الناس من بدو الخلقة حال كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لهم بالتواب على الإيمان بتوحيد الله والقيام بعبوديته ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لهم بالعقاب على الشرك والعصيان ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ ومعدرة ، أو اعتراض ملزم ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ بأن يقولوا : ﴿رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١١ : ١٠٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٢٣ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١٠٩ .

(٤) القصص : ٢٨ / ٤٧ .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ وقادرا على إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتكميل النفوس ، وإعطاء الثواب ، وتعذيب العصاة ، وقطع الأعداء ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله.

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا (١٦٦)﴾

ثم قيل : إنه لما نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(١) الآية ، قال قوم : [نحن] لا نشهد لك بذلك.

فردّ الله عليهم ، وسأل نبيه ﷺ بقوله : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾^(٢) لك ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ من السماء وهو القرآن أنه حقّ وصدق ، وشهادته تعالى باشماله على إعجاز البيان ، والأخبار الصادقة بالمعانيات ، والعلوم الكثيرة مع كون الجائي به أميًا.

ثم وصف ما أنزله بقوله : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ غير المتناهي ، وحكمته البالغة ، فلمّا كان علمه غير المتناهي سببا لنزوله ، صار في غاية الحسن ونهاية الكمال بحيث عجز الأولون والآخرين عن معارضته والإتيان بمثله.

وقيل : إنّ المراد : أنزله بعلمه بأنك مستأهل له^(٣) .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ كلّهم أيضا ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأنّ القرآن نازل من عند الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بذلك لا يحتاج إلى شهادة غيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧)﴾

ثم أنّه تعالى بعد شهادته بصدق القرآن وصحة دين الإسلام ، وبخ المنكرين له الصّادّين عنه ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقرآن ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا الناس بإلقاء الشبهات ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الإسلام ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى وطريق الحقّة ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لا يرجى منهم الهداية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٨) و (١٦٩)﴾

ثم هدّدهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أنفسهم بإصرارهم على الكفر ، والتّاس بصدّهم

عن

(١) النساء : ٤ / ١٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١١١ .

(٣) تفسير الصافي ١ : ٤٨٣ .

الحق ، ومحمدا ﷺ بتكذيبه وإخفاء نعوته وكتماها.

عن الباقر عليه السلام ، قال : « نزل جبرئيل بهذه الآية هكذا : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ

... » (١) .

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ مریدا ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ عن ذنوبهم ، لعدم قابليتهم للمغفرة ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ من الطرق ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ فلا مناص لهم في الآخرة عن دخولها ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائما ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال في النار والإخلاد فيها مع بقاء الأجساد أبد الآباد ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وفي جنب قدرته الكاملة غير المتناهية ﴿يَسِيرًا﴾ سهلا ، وإن كان في نظر المنكرين لقدرة الله متعذرا مستحيلا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ

تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾

ثم أتته تعالى بعد دفع شبهات اليهود في رسالة النبي ﷺ وصدق كتابه ، وتوبيخهم بالضلال والإضلال ، وتوعيدهم بالنار ، بأشر بذاته المقدسة دعوتهم ودعوة سائر الناس إلى الإيمان برسالته بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ﴾ محمد ﷺ ﴿الرَّسُولُ﴾ الصادق ﴿بِالْحَقِّ﴾ والقرآن المصدق بالإعجاز ، أو الذين الموافق للعقل السليم ﴿مِنْ﴾ عند ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ، الحافظ لصلاحكم ﴿فَآمِنُوا﴾ به وكتاباه ، يكن الإيمان به في العاجل والآجل ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ وأحمد مما أنتم عليه من الكفر بمحمد ﷺ ، وإنكار رسالته وكتاباه ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بالله ورسوله فلا يضّر الله شيئا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يحتاج إليكم وإلى إمكانكم ، ولا يعجز عن تعذيبكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال عباده وبإيمانهم وكفرهم وعلاانيتهم وسرهم ﴿حَكِيمًا﴾ في ما يصدر عنه من تعذيب الكافر ، وإثابة المؤمنين.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ

لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾

(١) تفسير العياشي ١ : ٤٥٦ / ١١٥٢ ، الكافي ١ : ٣٥١ / ٥٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٤ .

ثم أنه تعالى بعد دفع شبهات اليهود في نبوة النبي ﷺ وكتابه ، وإنذارهم ودعوتهم إلى الإيمان ، صرف الخطاب إلى النصارى بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ ولا تتجاوزوا عن حدود العقل ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في شأن عيسى عليه السلام ، وادعاء الوهيته ، أو بنوته لله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قولا ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ والصواب ، من تنزيهه عن الشراك والصاحبة والولد ، ولا تصفوه بالحلول في المسيح أو الاتحاد معه المستحيلين على الواجب ، ولا بالتأخذه المسيح ولدا لعدم الحاجة له ، وعدم السنخية بينه تعالى وبين الحادث مع لزوم السنخية بين الوالد والولد.

ثم بعد تهيئهم عن الغلو ، أرشدهم إلى القول الوسط والحق بقوله : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾ الذي اسمه ﴿عِيسَى﴾ ونسبه أنه ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ إليكم لتكميل نفوسكم ، وتبليغ شرائعكم ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ التامة وآيته العظمى التي ﴿أَلْقَاهَا﴾ من عالم القدس والأمر ، وأوصلها ﴿إِلَى﴾ رحم ﴿مَرْيَمَ﴾ الصديقة. ولما كان مبدأ وجوده نفخة الروح الأمين ، وصفه بالروحانية ، ونسبه إلى نفسه تشريفا له بقوله : ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها ، فقال : « هي روح مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى »^(١) وعن الباقر عليه السلام : « روحان مخلوقان اختارهما واصطفاهما : روح آدم ، وروح عيسى »^(٢) . ثم أنه تعالى بعد إثبات عبودية عيسى ورسالته وتعظيمه بأنه كلمته وروحه ، أمر النصارى بالإيمان بتوحيد الله ورسالة المسيح كسائر الرسل بقوله : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الذين هم مبلّغون عنه ، ومنهم عيسى عليه السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ إن الله واحد بالجواهر ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ بالأقانيم ، على ما قيل^(٣) .

﴿انْتَهُوا﴾ أيها النصارى وارتدعوا عن هذا القول الباطل ، فإن الانتهاء عن التثليث يكون ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ من القول بالتثليث لأنه كفر ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بالذات والصفات ، منزّه عن التعدد والكثرة. ثم نزهه عن اتخاذ الولد بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كما ادّعاه النصارى ؛ لأن الولد لا يمكن أن يكون ملكا لوالده ، والحال أنّ الله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ، لا يخرج من ملكوته عيسى عليه السلام وغيره من الموجودات ، ولا يحتاج إلى ولد ومعين ، إذ بذاته وقدرته يدبّر كلّ شيء ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ وحده ﴿وَكِيلًا﴾ ومدبّرا لامور الكائنات ، فمن يكون له الغنى والقدرة غير المتناهيين ، يمتنع أن يتخذ لنفسه صاحبة وولدا.

(١) الكافي ١ : ١٠٣ / ٢ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٤ .

(٢) التوحيد : ١٧٢ / ٤ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٤ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٠ .

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ

يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

ثمَّ أنّه تعالى بعد إثبات عبودية عيسى عليه السلام له بالحجة القاطعة ، بتّ العالمين بأنَّ عيسى عليه السلام غير مستنكف عن عبوديته ، وغير راض بما يقول النصارى في حقّه من كونه ثالث ثلاثة ، أو ولدا لله ، بقوله : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ ولا يأبى أبداً عن ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ خاضعا ﴿لِلَّهِ﴾ وإن استنكف النصارى عنه ، بل ﴿وَلَا﴾ يستنكف ﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ والكروبيّون الذين هم حول العرش ، كجبرئيل وأضرابه ، عن أن يكونوا عبيدا لله ، مع كونهم أشدّ قوّة من عيسى ، وأعظم خلقة ، وأقلّ حاجة منه ، وإن كان عيسى عليه السلام أقرب منزلة وأعلى قدرا منهم عند الله. فظهر من التفسير الذي ذكرنا أنّ الاستدلال بالآية على أفضلية الملائكة من الأنبياء - كما نسب إلى المعتزلة - فاسد جدا.

روي أنّ وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : لم تعيب صاحبنا ؟ قال : « ومن صاحبكم ؟ » . قالوا : عيسى ، قال : « وأي شيء قلت ؟ » . قالوا : تقول إنّ عبد الله ورسوله ، قال : « [إنّ] ليس بعابر أن يكون عبدا لله » . فنزلت الآية (١).

ثمَّ هدّد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بقوله : ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ ويتأنّف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وطاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ وترفع عنها ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور ويسوقهم ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾ لا يشدّ منهم [أحد] .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣)

ثمَّ بشر المقرّين بتوحيده وعبوديته بالثواب وزيادة التفضل بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربوبية الله وعبودية أنفسهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ ويعطيهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثواب أعمالهم من غير نقص ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أضعافها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمته .

ثمَّ هدّد سبحانه المستنكفين بالعذاب الشديد بقوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا﴾ وتأنّفوا عن عبادة الله ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا عن طاعته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الغاية لا يمكن وصفه ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ﴾ فيها أحدا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه

(١) تفسير الرازي ١١ : ١١٧ .

﴿وَلِيَّا﴾ ينجيهم من العذاب ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ومعينا مدافعا عنهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤)

ثمَّ أنّه تعالى بعدما أبطل دعاوى النصارى بالحجة القاطعة ، والوعد على الإيمان والطاعة ، والوعيد على الاستنكاف عن العبوديّة ، أعاد الدّعوة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وكتابه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ وحجة قاطعة على الحقّ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم ، وهو الرّسول المبين للحقائق ، القاطع للأعذار.

وقيل : هو المعجزات الباهرات (١) .

﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ من السّماء ﴿إِلَيْكُمْ﴾ هدايتكم ﴿نُورًا مُبِينًا﴾ وقرآنا موضّحا للعلوم ، كاشفا لطريق الهداية ، ومزيلا لظلمات الجهل والغواية ، فما بقي لكم في الانحراف عن الحقّ وترك الدّخول في الإسلام عذر.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)

ثمَّ رغب النّاس في قبول دين الحقّ والالتزام به ، بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ﴾ وأقروا بوحدانيّته وكمال صفاته ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ في أن يحفظهم من الزّلات واتباع الشّهوات بتوقيفه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ بعد الموت ﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ .

عن ابن عباس رضی الله عنه : أي في الجنّة (٢) .

﴿وَفَضْلٍ﴾ هو ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدّنيا ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى مقام قربه ﴿صِرَاطًا﴾ وطريقا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ موصلا.

عن القمّي رحمه الله : التّور : إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، والاعتصام : التّمسك بولايته وولاية الأئمة صلوات الله عليهم بعده (٣) .

وفي رواية عن الصادق عليه السلام : « الصّراط المستقيم : عليّ عليه السلام » (٤) ، وقد مرّ تفسير (الصّراط) في الفاتحة.

(١) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٦٢ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٣ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٢٠ ، تفسير أبي السعود ٢ : ٢٦٣ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٥٩ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٦ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٤٥٧ / ١١٥٣ ، تفسير الصافي ١ : ٤٨٦ .

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

في بيان إرث الأخوة والأخوات من قبل الأب أو الأبوين

ثم لما بدأ الله تعالى في السورة المباركة بحقوق الناس من الأيتام والازواج والأرحام ، ختم السورة بما بدأ به من حقوق الناس التي منها إرث الإخوان والأخوات من الأب ، بقوله : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا رسول الله [الله] عن حكم إرث الإخوة والأخوات ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويبين لكم الحكم ﴿فِي الْكَلَالَةِ﴾ والقرابة التي لا تكون بوالد ولا ولد.

روي أن جابر بن عبد الله كان مريضاً ، فعاده رسول الله ﷺ ، فقال : إني كلاله - أي لا يخلفني والد ولا ولد - فكيف أصنع في مالي ؟ فنزلت (١) .

﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ ورجل مات ، وكان ممن ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وإن نزل ﴿وَلَهُ﴾ من الوارث القريب ﴿أُخْتٌ﴾ واحدة من قبل الأب ، سواء كانت من قبل الأم أيضاً أم لا ، لذكره تعالى حكم كلاله الأم في أول السورة ﴿فَلَهَا﴾ بالفرض ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميِّت من الأموال والحقوق ، والنصف الآخر بالرد إن لم يكن له زوجة.

ثم بين حكم إرث الأخ من الاخت بقوله : ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ جميع مالها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وإن نزل ، ولا زوج ولا غيره من الإخوة والأخوات ، وإلا فللزوجة نصيبه الأعلى ، وللإخوة من الأم نصيبهم ، والباقي للأخ من الأب والأم ، وإن لم يكن فلأخ من الأب وحده.

ثم بين حكم إرث الاختين فصاعداً من الأب بقوله : ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أو كن أكثر ﴿فَلَهُمَا﴾ أولهن جميعاً ﴿الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميِّت أحا كان أو اختاً ، يقسمن بينهما بالسوية ، والباقي لهن بالرد ، إن لم يكن معهن زوج أو زوجة أو كلاله الأم.

ثم بين حكم اجتماع الأخ والاخت في الإرث بقوله : ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً﴾ مختلفين (٢) ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم من أموال الميِّت حظاً ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ .

عن الباقر عليه السلام : « إذا مات الرجل وله اخت ، تأخذ نصف الميراث (٣) بالآية ، كما تأخذ البنت لو كانت ، والنصف الباقي يرد عليها بالرحم ، إذا لم يكن للميِّت وارث أقرب منها ، فإن كان موضع الاخت أخ ،

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٤ .

(٢) في النسخة : مختلفة.

(٣) في تفسير القمي : تأخذ نصف ما ترك من الميراث ، لها نصف الميراث.

أخذ الميراث كله بالآية ، لقول الله : ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وإن كانتا اختين ، أخذتا الثلثين بالآية ، والثلث الباقي بالرحم ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك كله إذا لم يكن [لل میت] ولد ، أو أبوان ، أو زوجة ^(١) .

ثم من سبحانه وتعالى على الناس بقوله : ﴿بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ المعارف والأحكام بالبيان الواضح ، كراهة ﴿أَنْ تَصِلُوا﴾ عن الحق ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ، ومصالح الأحكام ﴿عَلِيمٌ﴾ خبير .
 قيل : هذه الآية آخر آية نزلت في الأحكام ^(٢) ، وسميت بآية الصّيف ، لأنها نزلت بالصّيف ، وآية الكلاله في أول السّورة نزلت بالشتاء ^(٣) .

[وجه نظم المائدة بعد النساء]

ومن لطائف هذه السّورة المباركة أنّ الله بدأ فيها ببيان كمال قدرته بقوله : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ^(٤) ، وختمها ببيان كمال علمه بقوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ^(٥) .
 وهذان الوصفان مرجع جميع صفاته تعالى ، ومثبت الوهيته وربوبيته الموجبتين لكمال طاعته والانقياد له على العبد ، ولذا ردها بسورة المائدة ، المبدأة فيها بالأمر بطاعة جميع أحكامه التي هي عقود الله وعهوده إلى عبادته ، مضافا إلى تصدّر السّورتين بالخطاب الشّفاهي مع تقدّم عامّه وهو قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ على خاصّة وهو قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ^(٦) واشتمال سورتي البقرة وآل عمران على عمد أحكام العبادات ، وسورة النساء على مهمّات حقوق الناس ، وسورة المائدة على كثير من أحكام الأطعمة والأشربة ، واشتمال السّور الثلاثة السابقة على حاجة أهل الكتاب ، وهذه السّورة على نتيجة الحاجة من إيمان بعضهم كالنّجاشي .
 وفي السّور السابقة بيان الدّين ، وفي هذه السّورة البشارة بتكميله ، وفي النساء بيان حكم الوصيّة ، وفي هذه السّورة بيان كيفيّة إثباتها ، إلى غير ذلك من الوجوه التي اقتضى حسن النّظم ذكر المائدة بعد النساء ، فابتدأ فيها تيمنا وتعلّيما للعباد بذكر : بسم الله الرحمن الرحيم .

(١) تفسير القمي ١ : ١٥٩ ، تفسير الصّافي ١ : ٤٨٦ ، وفي النسخة : ولد وأبوان وزوجة .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢٥١ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٢٢٩ . وفيه : أن الله تعالى أنزل في الكلاله آيتين : إحداهما في الشتاء ، وهي التي في أول هذه السّورة ، واخرى في الصّيف ، وهي هذه الآية .

(٤) النساء : ٤ / ١ .

(٥) الأنعام : ٦ / ١٠١ .

(٦) المائدة : ٥ / ١ .

في تفسير سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ

غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد سبق تفسيره في سورة الفاتحة.

في دلالة آية : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ على لزوم كل عقد

ثم لما كان الانقياد لأحكام الله والوفاء بعهوده من لوازم الإيمان ، وشاقا على الطَّبَّاع ، خاطب أهل الإيمان على وجه المشافهة بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صميما وحقيقة بتوحيد الله وكمال صفاته ، ورسالة رسوله وأحكام دينه ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ والتزموا بالعمل بالعهود الموثقة التي بينكم وبين ربكم من أحكامه وواجباته ومحرماته ، أو بين غيركم من العباد كعقود المعاملات ، أو بين أنفسكم كالإيقاعات من الطلاق والتحرير والإبرار والنذر والعهد واليمين.

وقيل : إنَّ المراد خصوص ما يعقد النَّاس في معاملاتهم ، ومن الوفاء القيام بمقتضاه من اللزوم والجواز ، فإنَّ كان لازم العمل عمل بلزومه ، وإن كان جائز العمل عمل بجوازه. أما القول الأول من تخصيصه بخصوص المعاملات ، فخلافا للظاهر. وأما الثاني ، ففساد جدا ؛ لأنَّ الوفاء بالعهد هو العمل بمضمونه ، ولزوم العهد وجوازه ليسا من مدلوله ، بل هما حكمان شرعيتان في موضوع العهد.

فعلى ما ذكرنا لا إجمال في الآية ، كما ادَّعاه الفاضل المقداد ^(١) ، وتبعه بعض من تأخَّر عنه ، بل عمومها مثبت بلزوم كلِّ عقد حتَّى يثبت بالدليل جوازه والخيار فيه.

وعن القسِّي رحمه الله : عن الجواد عليه السلام : « أن رسول الله ﷺ عقد عليهم لعلي عليه السلام [بالخلافة] في عشرة مواطن ، ثم أنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين صلوات

(١) كنز العرفان ٢ : ٧١ .

الله عليه « (١) .

ثم أنه تعالى بعد أمره بإطاعة أحكامه على وجه الإجمال ، شرع في تفصيله ، فبدأ بذكر ما يحل وما يحرم من المطعومات بقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ من جانب الله ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ، أهليتها ووحشيتها.

وعن الباقر عليه السلام : « هي الأجنة التي في بطون الأنعام ، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمر ببيع الأجنة » (٢) .

وعن أحدهما عليه السلام ، في تفسيرها : « الجنين في بطن أمه إذا شعر وأوبر ، فذكاته ذكاة أمه » (٣).

وزاد في (الكافي) و(القمي) : « فذلك الذي عنى الله عز وجل » (٤) .

وفي رواية : « وإن لم يكن تاماً فلا تأكله » (٥) .

وقيل : إضافة البهيمة إلى الأنعام ببيانيتها ، والمراد : عموم الأزواج الثمانية (٦) .

وعن الباقر عليه السلام : « أن علياً عليه السلام سئل عن أكل لحم الفيل والدب والقرد ، فقال : ليس هذا من بهيمة الأنعام التي تؤكل » (٧) .

ثم استثنى عن عموم الحل بقوله : ﴿إِلَّا مَا يُنْتَلَى﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيما بعد من قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ (٨) ، ثم خص الحل من الوحشي بكونكم ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ ومقتضيه ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ متلبسون بإحرام الحج أو العمرة ، فإنه لا يحل لكم الصيد في تلك الحالة.

ثم لما كان مجال توهم عدم الفرق بين حال الإحرام والإحلال ، وبين الصيد وغيره ، دفعه الله بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من التحليل والتحریم على ما تقتضيه حكمته البالغة التي لا تبلغها العقول ، فعليكم التسليم والانقياد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضواناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ
فَأَصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ
تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا

(١) تفسير القمي ٢ : ١٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٥ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٥ / ١١٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٦ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٥ / ١١٧٠ ، عن الصادق عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٦٠ ، الكافي ٦ : ٢٣٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٦ .

(٥) الكافي ٦ : ٢٣٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٦ .

(٦) تفسير البيضاوي ١ : ٢٥٣ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٧ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٥ / ١١٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٦ .

(٨) المائدة : ٥ / ٣ .

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

ثم لما حَرَّمَ الله الصَّيْدَ في حال الإحرام ، أَكَّدَ ذلك بالنَّهْيِ عن التَّهَانِ بِأحكامه ومَحَرَّماته بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ولا تَحْلُوا بشيء من أحكامه التي يكون الالتزام بها علامة الإيمان وأهله وشعارا للمسلم. أو المراد : لا تتهانوا بشيء مما حَرَّمَ الله عليكم حال الإحرام أو بشيء من مناسك الحجّ.

عن ابن عباس رضي الله عنه : أنَّ المشركين كانوا يحجّون البيت ، ويهدون الهدايا ، ويعظّمون المشاعر ، وينحرون ، فأراد المسلمون أن يغيّروا عليهم ، فَأَنزَلَ الله : ﴿لَا تُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾^(١) .
قيل : كانت العرب لا يرون الصّفا والمروة من شعائر الحجّ ، ولا يطوفون بهما ، فَأَنزَلَ الله : لا تستحلّوا ترك شيء من مناسك الحجّ^(٢) .

﴿وَلَا﴾ تستحلّوا ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتل والغارة فيه.

عن الباقر عليه السلام : « نزلت في رجل من بني ربيعة يقال له الخطيم »^(٣) .

في قضية شريح البكري وغدره

وقيل : اسمه شريح بن ضبيعة البكري ، أتى المدينة من اليمامة وخلف خيله خارج المدينة ، ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له : إلام تدعو الناس ؟ فقال : « إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » ، فقال : حسن ، إلا أنّ لي امراء لا أقطع أمرا دوعهم لعليّ اسلم وآتي بهم ، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه : « يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلّم بلسان الشيطان »^(٤) .

ثم خرج شريح من عنده فقال عليه السلام : « لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بقفا غادر ، وما الرجل بمسلم » ، فمرّ بسرح^(٥) المدينة فاستاقه فانطلق ، فتبعوه فلم يدركوه ، فلما كان العام المقبل خرج حاجا في حجّاج بني بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلّدوا الهدى ، فقال المسلمون للنبي ﷺ ، هذا الخطيم^(٦) قد خرج حاجا ، فخلّ بيننا وبينه ، فقال النبي ﷺ : « إنّه قد قلّد الهدى » ، فقالوا : يا رسول الله ، هذا شيء كنّا نفعله في الجاهلية ، فأبى النبي ﷺ . فَأَنزَلَ الله تعالى هذه الآية^(٧) .

﴿وَلَا﴾ تستحلّوا ﴿الْهَدْيَ﴾ الذي يهدى إلى الكعبة بغضبه ، أو بمنعه من بلوغ محله ﴿وَلَا

الْقَلْبِدَ﴾ التي يقلّد بها الهدى. وفيه مبالغة في النهي عن التّعريض لذوات القلائد من الهدى ، وتخصيصها

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١١ : ١٢٨ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٢٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٦ ، وفيهما : الخطم ، بدل الخطيم .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٨ .

(٥) السّرح : الماشية تسرح في الأرض .

(٦) في تفسير روح البيان : الخطيم .

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ٣٣٨ .

بالذكر مع كونها داخلية في الهدى لكونها أشرف الهدى.

﴿وَلَا تَسْتَحِلُّوا أَمْثِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ وقاصدي زيارته ، حال كونهم لا يقصدون بزيارتهم الكعبة قتالكم وغدركم ، بل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بسفر الزيارة ﴿فَضْلًا﴾ وثوابا ، أو ربح تجارة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ منه باعتقادهم ، وإن كانوا بسبب كفرهم لا ينالون ذلك ، ولكن يكون لهم بركة هذا القصد وهذا السفر نوع من الحرمة.

عن ابن عباس : أنه منسوخ بقوله : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾^(١) .

وروي أنه لم ينسخ من المائدة حكم^(٢) . وعليه ، فلا بد من القول بأن المراد من الآمين خصوص المسلمين ، أو يقال : لا تنافي بين منعهم من قرب المسجد ، وعدم حلية التعرض لهم بالقتل والغارة . ثم لما نهي الله عن تحليل الصيد حال الإحرام ، صرح بجوازه بعد التحليل بقوله : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام وخرجتم منه ﴿فَاصْطَادُوا﴾ بعد لزوال المانع.

ثم بعد النهي عن التعدي على الكفار في الأشهر الحرم بالقتل والغارة ، وعن استحلال قاصدي زيارة البيت ، صرح بأن تعدي الكفار على المسلمين في غير الأشهر الحرم لا يوجب جواز التعدي عليهم فيها ، بقوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أيها المسلمون ولا يحملنكم ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ من الكفار ، وشدة عداوتكم لهم لأجل ﴿أَنْ صَدُّوْكُمْ﴾ ومنعوكم ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وزيارته وطوافه للعمرة عام الحديبية على ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ وتجوروا عليهم انتقاما منهم وتشقيا.

ثم بعد النهي عن التعدي ، أمر بالمعاونة على العفو والإحسان ، ونهى عن معاونة المتعدي أيضا بقوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى﴾ عمل ﴿الْبِرِّ﴾ والخير ؛ وهو العفو ﴿وَفَعَلِ﴾ فعل ﴿التَّقْوَى﴾ وهو إطاعة أمر الله ونهيه ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ ولا تعاضدوا ﴿عَلَى الْإِثْمِ﴾ وعصيان الله ، ﴿وَلَا﴾ لا ﴿الْعُدْوَانَ﴾ والظلم على الغير للتشقي والانتقام.

ثم أكد الأمر بالتعاون على التقوى بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تستحلوا شيئا من محارمه . ثم هدد على مخالفة أحكامه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بحيث لا يطيق أحد الصبر عليه فخافوا - في مخالفة أحكامه وترك التقوى - عقابه الشديد في الآخرة.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٣٩ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٢٨ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٣٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٧ .

وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقَ الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) ﴿﴾

جملة من المأكولات المحرمة

ثم تلا سبحانه ما استثناه - من تحليل عموم أجزاء بهيمة الأنعام بقوله في الآية الأولى : ﴿إِلَّا مَا
يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ﴾ - بقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون من قبل الله أشياء : أحدها : ﴿الْمَيْتَةُ﴾ وما
زهق روحه من كل حيوان بجثث أنفه ، أو بغير التذكية الشرعية ؛ لأنَّ في أكله مضارَّ عظيمة ، لتعفن الدَّم
الاحتبس في عروقه.

﴿و﴾ الثانية : ﴿الدَّم﴾ غير المتخلف في الذبيحة ، سمي بالمسفوح.
﴿و﴾ الثالثة : ﴿لَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ لأنَّ الخنزير مطبوع على الحرص والشهوة ، والإنسان يتخلَّق
بأخلاق الحيوان الذي تصير أجزأؤه جزءاً من بدنه.

قيل : إنما خصَّه بالذكر من بين سائر الحيوانات المحرَّمة ؛ لأنَّ العرب كانوا يعتادون أكله ^(١) .
﴿و﴾ الرابع : ﴿مَا أَهْلَ لغيرِ الله به﴾ وهو المذبح الذي رفع الصَّوت عند ذبحه باسم الأصنام.
وعن الباقر عليه السلام : « يعني ما ذبح للأصنام » ^(٢) .
﴿و﴾ الخامسة : ﴿الْمُنْحَنَقَةُ﴾ وهي الحيوان الذي يعصر حلقه حتَّى يموت.
﴿و﴾ السادسة : ﴿الْمَوْفُودَةُ﴾ وهي الحيوان الذي يضرب حتَّى يموت.
﴿و﴾ السابعة : ﴿الْمُتَرَدِّيةُ﴾ وهي الحيوان الذي يموت بالسَّقوط من شاهق.
﴿و﴾ الثامنة : ﴿النَّطِيحَةُ﴾ وهي الحيوان الذي يموت بالمناطحة.
﴿و﴾ التاسعة : ﴿مَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ منه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إياه وطهرتموه بما جعله الله له تطهيراً من
التَّحَرُّ أو الذَّبْح.

عن الرضا عليه السلام : « المتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، إذا أدركت ذكاته فكله » ^(٣) .
وعن الباقر والصادق عليه السلام : « أن أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه وهو يحرك أذنه وذنبه ، أو
تطرف عينيه » ^(٤) .

(١) تفسير الصافي ٢ : ٧.

(٢) الخصال : ٤٥١ / ٥٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٧.

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٨ / ١١٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٩.

(٤) مجمع البيان ٣ : ٢٤٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٩.

وعن الصادق عليه السلام : « في كتاب عليّ : إذا طرفت العين أو ركضت الرجل ، أو تحرك الذنب ، فكل منه ، فقد أدركت ذكاته » (١) .

في معنى الاستقسام بالأزلام

﴿وَ﴾ العاشر : ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ وفوق الأحجار التي [هي] منصوبة حول البيت ، وكان المشركون يذبحون القرابين عليها ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا﴾ وتطلبوا معرفة النصيب ﴿بِالْأَزْلَامِ﴾ والأفداح.
عن الباقر عليه السلام : « أما المنخقة ، فإنّ المحوس كانوا لا يأكلون الذبائح ويأكلون الميتة ، وكانوا يخنقون البقر والغنم فإذا انخقت وماتت أكلوها. والموقودة كانوا يشدون أرجلها ويضربونها حتى تموت ، فإذا ماتت أكلوها. والتطيحة كانوا يناطحون بالكباش (٢) ، فإذا مات أحدهما أكلوه ، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فكانوا يأكلون ما يأكله (٣) الذئب والأسد ، فحرّم الله ذلك ، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ كانوا يذبحون لبيوت التيران ، وقريش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لها » (٤) .

وعن الجواد عليه السلام ، في رواية قال : « كانوا في الجاهلية يشترون بعيرا فيما بين عشرة ... فمن خرج باسمه سهم [من التي] لا أنصاء لها الزم ثلث ثمن البعير ، فلا يزالون كذلك حتى تقع السهام الثلاثة التي لا أنصاء لها إلى ثلاثة منهم فيلزمونهم ثمن البعير ، ثم ينحرونه ، ويأكله السبعة الذين لم ينقدوا في ثمنه شيئا ، ولا يطعمون منه الثلاثة الذين وقروا ثمنه شيئا ، فلما جاء الإسلام حرّم الله تعالى ذكره ذلك فيما حرّم ، فقال عز وجل : ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْخٌ﴾ يعني حرام » (٥) .

قيل : إنّما سمى الله الاستقسام بالأزلام فسقا ؛ لأنّه طلب معرفة الغيب ، مع أنّه مختصّ بالله تعالى (٦) .

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : « من تكهّن أو استقسم أو تطيّر طيرة تردّه عن سفره ، لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة » (٧) .

وقيل : إنّ العرب كانوا يجيلون تلك الأزلام عند الأصنام ، ويعتقدون أنّ ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام فبإرشاد الأصنام وإعانتهم (٨) .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان غالب أحكام دينه ، وأمره بنصب أمير المؤمنين عليه السلام علما وخليفة في المسلمين ، وظهور قوّة الإسلام ، بشرّ المسلمين بخذلان الكفار بقوله : ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والآن انقطع طمعهم ﴿مَنْ﴾ توهين ﴿دِينَكُمْ﴾ وغلبتهم عليكم ، ومن إضلالكم وانصرافكم عن

(١) الكافي ٦ : ٢٣٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٩ .

(٢) في النسخة : بالكباش.

(٣) في الخصال : ما يقتله.

(٤) الخصال : ٤٥١ / ٥٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٧ .

(٥) التهذيب ٩ : ٨٣ / ٣٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨ .

(٦) تفسير الرازي ١١ : ١٣٦ .

(٧ و ٨) . تفسير الرازي ١١ : ١٣٦ .

التوحيد ورجوعكم إلى الشُّرك ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ من أن يغلبوكم ، ويمنعوكم من العمل بأحكام دينكم بعد اليوم ﴿وَإِخْشَاؤُن﴾ فقط في ترك طاعتي ومخالفة شريعتي أن تحل بكم عقوبتي.

ثم بشَّره سبْحانه بعد تعليمهم مناسك الحج ، وتعريفهم الحجَّة البالغة عليهم بعد نبئهم ﷺ بقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتصَّ على جميع المعارف ، وعمد الأحكام ، والدَّلالة على باب العلم ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بإتمام الدِّين ﴿نِعْمَتِي﴾ وفضلي ورحمتي ﴿وَرَضِيتُ﴾ واخترت ﴿لَكُمْ﴾ الإسلام الذي هو دين الله ودين ملائكته ﴿دِينًا﴾ .

عن (المجمع) : عنهما ﷺ : « إِمَّا نَزَلَ بَعْدَ أَنْ نَصَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ﷺ عَلِمًا لِلْأَنَامِ يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ ، عِنْدَ مَنْصَرِفِهِ عَنْ حَجَّةِ الْوُدَاعِ » قال : « وَهِيَ آخِرُ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ ، ثُمَّ لَمْ تَنْزَلْ فَرِيضَةٌ بَعْدَهَا » (١) .

وعن الباقر ﷺ : « الْفَرِيضَةُ تَنْزَلُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ الْآخَرَى ، وَكَانَتِ الْوَلَايَةُ آخِرَ الْفَرَايِضِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قَالَ [اللَّهُ ﷻ] : لَا أَنْزَلَ بَعْدَ هَذِهِ فَرِيضَةٍ ، قَدْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ الْفَرَايِضَ » (٢) .

روي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر ، فقال النبي ﷺ : « مَا يَكِيكَ يَا عُمَرُ ؟ » ، قال : أَبْكَانِي أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا ، فَإِذَا كَمَلْنَا فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمَلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ ، قَالَ : « صَدَقْتَ » ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَنْعَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . وعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً ، ومات يوم الاثنين (٣) .

ثم أنه تعالى بعد بيان حرمة جملة من الأطعمة - والفصل بالجملة الاعتراضية للتأكيد والتبشير - عاد إلى بيان حكم الاضطرار إلى تناولها ، بقوله : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة ﴿فِي﴾ حال ﴿مَخْمَصَةٍ﴾ ومجاعة يخاف على نفسه منها الهلاك أو الضرر ، فليتناول مما حرم عليه ، ولكن لا بد أن يكون في أكله ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ ومتعمد ﴿لِإِنَّمَا﴾ بأن يتجاوز عن حدِّ الاضطرار ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غير مؤاخذ ﴿رَحِيمٌ﴾ به بترخيصه في الأكل من المحرمات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ
مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان حرمة جملة من المطعومات ، حكى سؤال النَّاسِ عن محللاتها بقوله :

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠ .

(٢) الكافي ١ : ٢٢٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٤٣ .

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ، عن أته ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من المطاعم ؟ وما الذي رخص لهم في أكله ؟ ثم أمر بجوابهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ للسائلين : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وكل ما لا تستحبته الطباع السليمة ، أو [كل ما] يستلذ منه ذوو المروءات ، كما قيل ^(١) .

وقيل : إن العرب في الجاهلية كانوا يحرمون أشياء من الطيبات كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، مع حكمهم بكونها طيبة ^(٢) ، فرد الله عليهم بترخيصه في أكلها .

ويمكن أن يكون المراد ما لا ضرر في أكله في نظر الشارع . وعليه تكون مجملة محتاجة إلى البيان .
ثم نص سبحانه على حلية قسم خاص منها ، للاهتمام بالتنبيه عليه بقوله : ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ قيل : إن التقدير : صيد ما علمتم ^(٣) ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ والكواسب من السباع والطير ، حال كونهم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ومؤدبين الاصطياد ^(٤) .

قيل : سمي تأديب الجوارح تكلية ، لكثرة كون التأديب في الكلاب ^(٥) .
ثم أكد سبحانه اشتراط حل صيدهم بالتأديب ، بقوله : ﴿تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وألهمكم به من طرق التأديب .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « في كتاب علي عليه السلام ، في قول الله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال : هي الكلاب » ^(٦) .

وقيل : إن ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ مبتدأ ، خبره : ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾ ^(٧) .
﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾ من الحيوانات ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لا على أنفسهن .
قيل : أدبهن : آتبعهن الصيد بإرسال صاحبهن ، وانزجارهن بزجره ، وانصرافهن بدعائه ، وإمساكهن عليه الصيد : بأن لا يأكلن منه وإن قتلته ^(٨) .
﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين إرسالهن .

عن القمي عليه السلام : عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن صيد البزاة والصقور والفهود والكلاب ، قال : « لا ، [تأكل] إلا ما ذكيت ، إلا الكلاب » . قيل : فإنه قتله ؟ قال : « كل ، فإن الله يقول : ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ »

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٤٥ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٤١ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١٤٢ .

(٤) كذا ، والظاهر من التفاسير : حال كونكم مكليين ومؤدبين للاصطياد .

(٥) تفسير الرازي ١١ : ١٤٣ .

(٦) الكافي ٦ : ٢٠٢ / ١ ، التهذيب ٩ : ٢٢ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١١ .

(٧) تفسير الرازي ١١ : ١٤٣ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٨ .

(٨) تفسير أبي السعود ٣ : ٨ .

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾ .

ثم قال ﷺ : « كل شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها إلا الكلاب المعلمة ، فإنها تمسك على صاحبها ، فإذا ارسلتم ^(٢) فاذكروا اسم الله عليه فهو ذكاته » ^(٣) .

وعنه ﷺ ، وقد سئل عن إرسال الكلب والصقر ، فقال : « أما الصقر فلا تأكل من صيده حتى تدرك ذكاته ، وأما الكلب فكل منه إذا ذكرت اسم الله عليه ، أكل الكلب منه أو لم يأكل » ^(٤) .

وعن الباقر ﷺ : « ما قتلت من الجوارح مكلبين وذكرتم اسم الله عليه فكلوا من صيدهن ، وما قتلت الكلاب التي لم تعلموها من قبل ، ان تدركوه فلا تطعموه » ^(٥) .

وعن النبي ﷺ ، قال لعدي بن حاتم : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله ، فكل » ^(٦) .

وفي رواية : « وإن أكل فلا تأكل ، إنما أمسكه على نفسه » ^(٧) .

ثم لما كانت المطاعم منزلة للشيطان ، أكد الله سبحانه التكاليف التحريمية والتحليلية المذكورة بأمره بالتقوى بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مخالفة أحكامه . ثم هدد على المخالفة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ في الآخرة ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأعمالكم ، فيؤاخذكم على معاصيكم بأسرع وقت .

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ

لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي

أَحْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

ثم من الله سبحانه على العباد بتسهيل أحكامه في المأكولات بقوله : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾

والآن رخص لكم في أكل المستلذات جميعها - وقد مرّت الوجوه في تفسيرها ^(٨) - ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾ .

[عن] القمي رحمه الله : عن بطعامهم هنا : الحبوب والفواكه ، غير الذبائح التي يذبحونها ، فإنهم لا

يذكرون

(١) تفسير القمي ١ : ١٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١١ .

(٢) في المصدر : قال : إذا أرسلت الكلب المعلم .

(٣) تفسير القمي ٢ : ١٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١١ .

(٤) الكافي ٦ : ٢٠٧ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١١ .

(٥) الكافي ٦ : ٢٠٣ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١١ .

(٦) تفسير الرازي ١١ : ١٤٤ .

(٧) تفسير أبي السعود ٣ : ٨ .

(٨) في تفسير الآية المتقدمة .

اسم الله خالصا على ذبائهم ، ثم قال : والله ، لا يستحلون ذبائحكم ، فكيف تستحلون ذبائهم؟^(١) .
إن قيل : بعد كون ما سوى ذبائح أهل الكتاب داخلا في عموم الطيبات ، فما وجه تخصيصه بالذكر ؟

قلت : لعله دفع توهم حرمة لدخوله في تصرف المشركين كحرمة ذبائهم ، كما دفع سبحانه حرمة طعام المسلمين عليهم بقوله : ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ .

والحاصل : أنه لا شبهة في عدم جواز التمسك بعموم ﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لإثبات حل ذبائهم ، لثبوت تخصيصه بغير ذبائهم بالروايات المعتبرة المعمول بها بين الأصحاب ، وتعين حمل ما يعارضها على التقيّة .

ثم من أيضا بتوسعته على المسلمين في المناكح بقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والعفائف أو الحرائر ﴿مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - عن الصادق عليه السلام : « هُنَّ الْمُسْلِمَاتُ »^(٢) - حلّ لكم العقد عليهم مطلقا ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والعفائف ﴿مِنْ﴾ نساء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ، أيضا حلّ لكم ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ ومهورهن - وإنما سمي المهر أجرا لأنه عوض البضع والانتفاع ، ولا يتقدّر بقدر ، وفي الاشتراط مع صحّة النكاح بدون إعطاء المهر دلالة على تأكّد وجوب أدائه - حال كونكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ فزوجكم ، وحافظين لها من الزنا بنكاحهنّ ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ ومجاهرين بالزنا معهنّ ﴿وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ومتسترّين به .

عن الشعبي : الزنا ضربان : سفاح ، وهو الزنا على سبيل الإعلان . واتخاذ خدن : وهو الزنا في السرّ^(٣) .

وفي تخصيص المحصنات بالحلّ ، مع جواز نكاح غيرهنّ ، إشعار بألويتهنّ .
وقد مرّ بعض الكلام في كونها ناسخة لقوله : ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾^(٤) ، أو منسوخة به ، أو بقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾^(٥) في طرفه بيان الناسخ والمنسوخ^(٦) .
ثم أنّه تعالى بعد بيان تكميل الدّين ، وتسهيل الأحكام في المطعم والمنكح ، هدّد الكافرين بهذه الملة السّمحة السّهلة بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ ويمتنع من الالتزام بتلك الأحكام ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾ وبطل عمله الصّالح الذي عمله في السّابق ، أو قبل موته ؛ فلا يثاب عليه أبدا ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ يكون ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والمغبونين ؛ حيث باع الجنّة والنّعيم الأبديّ بالجحيم والعذاب الدّائم .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

(١) تفسير القمي ١ : ١٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٣ / ١١٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١٤٨ .

(٤) الممتحنة : ٦٠ / ١٠ .

(٥) البقرة : ٢ / ٢٢١ .

(٦) راجع الطرفة (٢٠) من المقدمة .

الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴿﴾

في بيان كيفية الوضوء

ثمَّ أنَّه تعالى بعد المنة على العباد بتسهيل أحكامه في أهمِّ أمور معاشهم من المطاعم والمناكح ، بيَّن تسهيله عليهم في ما هو العمدة في أمر معادهم وهو الصَّلَاة بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾ من التَّوَم - كما عنهما عليه السلام (١) - قاصدين ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ متهيئين لها ، أو المراد : إذا أردتم القيام إليها ﴿فَاغْسِلُوا﴾ بالماء المطلق ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ من قصاص الشَّعر إلى الدَّقْن طولاً ، وما دارت عليه الإبهام والوسطى عرضاً - كما عن الباقر عليه السلام (٢) - ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ لكن لا كَلِّها ، بل ما بين رؤوس الأصابع ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ومفاصل السَّواعد والأعضاء ، بحيث تدخلون المرافق في الغسل.

﴿وَامْسَحُوا﴾ بعد الغسلتين أكفَّكم المبتلَّة ببلل الوضوء ﴿بِرُؤُسِكُمْ﴾ وقد فسَّر في صحيح زرارة بيعض الرأس ، لمكان الباء (٣) ، ولا يلتفت إلى إنكار سيويه محيىء الباء للتبعية. ويجب أن يكون في الرِّيع المقدم منه ، ويجزي مسَّاه ، ويستحبُّ أن يكون قدر ثلاث أصابع عرضاً. ثمَّ عطف سبحانه الأرجل على الرؤوس بقوله : ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فعلم أنَّ المسح يجزي بيعض الأرجل ، بحيث يصدق مسَّاه عرضاً ، ويستحبُّ بالكفِّ ، وأما طولاً فيجب أن يمسح القدم من رؤوس الأصابع ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وقتي القدمين.

عن الباقر عليه السلام أنَّه سئل عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدعا بطست أو تور (٤) فيه ماء ، فغمس يده اليمنى فغرف بها غرفة فصبَّها على وجهه فغسل بها وجهه ، ثمَّ غمس كفَّه اليسرى فغرف بها غرفة ، فأفرغ على ذراعه اليمنى ، فغسل بها ذراعه من المرفق إلى الكفِّ لا يردّها إلى المرفق ، ثمَّ غمس كفَّه اليمنى ، فأفرغ على ذراعه اليسرى من المرفق وصنع بها مثل ما صنع باليمنى ، ثمَّ مسح رأسه وقدميه ببلل كفِّه لم يحدث لهما ماء جديداً ، ثمَّ قال : « ولا يدخل أصابعه تحت الشَّراك » .

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٦ / ١٢٠٨ و ١٢٠٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٨ / ١٢١٢ ، من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٨ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٩ / ١٢١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨ .

(٤) التَّور : إناء يشرب فيه .

ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلّا غسله ، وأمر بغسل اليدين إلى المرفقين ، فليس له أن يدع شيئاً من يديه إلى المرفقين إلّا غسله ؛ لأنّ الله يقول : اغسلوا ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ثم قال : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فإذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزء » .

فقيل : أين الكعبان ؟ قال : « ها هنا » ، يعني : المفصل ، دون عظم الساق .
 قيل : هذا ما هو ؟ فقال : « هذا من عظم الساق ، والكعب أسفل من ذلك » .
 قيل : أصلحك الله ، فالغرفة الواحدة تجزي للوجه ، وغرفة للذراع ؟ قال : « نعم ، إذا بلغت فيها ، والثنتان تأتيان على ذلك كلّهُ » ^(١) .

وفي صحيح محمد بن مسلم : عن أبي عبد الله عليه السلام : « مسح الرأس على مقدمه » ^(٢) .
 فلا بدّ من حمل ما دلّ على الاجتزاء بالمسح على المؤخّر على التّقية .
 وعن زرارة ، قال : سألت أبا جعفر عليه السلام قلت : إنّ أناساً يقولون إنّ بطن الاذنين من الوجه ، وظهرهما من الرأس ، فقال : « ليس عليهما غسل ولا مسح » ^(٣) .
 وعن حماد في الصحيح ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « لا بأس بمسح الوضوء ^(٤) مقبلاً ومديراً » ^(٥) .

وعن أحدهما عليه السلام ، في الرجل يتوضأ وعليه العمامة ، قال : « يرفع العمامة بقدر ما يدخل إصبعه فيمسح على مقدم رأسه » ^(٦) .
 وعن أبي جعفر عليه السلام : « المرأة يجزيها من مسح الرأس أن تمسح مقدمه مقدار ثلاث أصابع ، ولا تلقي عنها خمارها » ^(٧) .

وعنه عليه السلام ، قال : « يجزي من المسح على الرأس موضع ثلاث أصابع ، وكذلك الرجل » ^(٨) .
 وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، سألت عن المسح على القدمين كيف هو ؟ فوضع كفه على الأصابع ، فمسحها إلى الكعبين - إلى ظاهر القدم - فقلت : جعلت فداك ، لو أنّ رجلاً قال بإصبعين من أصابعه ؛ هكذا ؟ فقال : « لا إلّا بكفّه » ^(٩) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٧ / ١٢١١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧ .

(٢) التهذيب ١ : ٦٢ / ١٧١ .

(٣) الكافي ٣ : ٢٩ / ١٠ ، التهذيب ١ : ٩٤ / ٢٤٩ .

(٤) في التهذيب : بمسح القدمين .

(٥) التهذيب ١ : ٨٣ / ٢١٧ .

(٦) التهذيب ١ : ٩٠ / ٢٣٨ .

(٧) الكافي ٣ : ٣٠ / ٥ ، التهذيب ١ : ٧٧ / ١٩٥ .

(٨) الكافي ٣ : ٢٩ / ١ ، الاستبصار ١ : ٦٠ / ١٧٧ .

(٩) الكافي ٣ : ٣٠ / ٦ ، الاستبصار ١ : ٦٢ / ١٨٤ .

أقول : لا ريب أنّ هذه الرواية والرواية السابقة الدالة على الاجتزاء بثلاث أصابع محمولتان على الاستحباب ، لقوة إطلاق ما سواهما من الروايات ، خصوصاً قوله عليه السلام : « فإذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأ » ^(١) المعتضد بعمل الأصحاب وفتوى المشهور.

في علل تشريع الوضوء

وعن الرضا عليه السلام قال : « أمر بالوضوء وبدئ به ، لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار [و] عند مناجاته إياه ، مطيعاً [له] في ما أمره ، نقيّاً من الأدناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرده التّعب ، وتركبة الفؤاد للقيام بين يدي الجبار » ^(٢) .

قال : « وإمّا جواز الصلّة على الميّت بغير وضوء ؛ لأنّه ليس فيها ركوع ولا سجود ... ، وإمّا يجب الوضوء في الصلّة التي فيها ركوع وسجود » ^(٣) .

وفي حديث (المعاني) عن الرضا عليه السلام : « إمّا وجب الوضوء على الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين ؛ لأنّ العبد إذا قام بين يدي الجبار فلنّما يكشف عن جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء ، وذلك أنّه بوجهه يستقبل ويسجد ويخضع ويده يسأل ويرغب ويهرب ويتبتّل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد ، وإمّا وجب الغسل على الوجه واليدين ، و [جعل] المسح على الرأس والرجلين ، ولم يجعل غسلاً كلّّه ، ولا مسحاً كلّّه ، لعل شئاً ، منها : أنّ العبادة العظمى إمّا هي الركوع والسجود ، وإمّا يكون الركوع والسجود بالوجه واليدين لا بالرأس والرجلين . ومنها : أنّ الخلق لا يطيقون في كلّ وقت غسل الرأس والرجلين ، ويشتدّ ذلك عليهم في البرد والستف والمرض و [أوقات من] الليل والنهار ، وغسل الوجه واليدين أخفّ من غسل الرأس والرجلين ، وإمّا وضعت الفرائض على قدر أقلّ الناس طاقة من أهل الصّحة ، ثمّ عمّ [فيها] القويّ والضعيف . ومنها : أنّ الرأس والرجلين ليس هما في كلّ وقت باديان وظاهران كالوجه واليدين ، لموضع العمامة والخفّين وغير ذلك » ^(٤) .

في حكمة غسل الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين

وعنه عليه السلام ، في رواية : « ثمّ الوضوء كما أمر الله في كتابه : غسل الوجه واليدين إلى المرفقين ^(٥) ومسح الرأس والرجلين ، فلقيامه بين يدي الله عزّ وجلّ واستقباله إياه بجوارحه الطّاهرة ، وملاقاته بها الكرام الكاتبين ، فغسل الوجه للسجود والخضوع ،

(١) التهذيب ١ : ٧٦ / ١٩١ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٠٤ / ١ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١١٥ / ١ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٠٤ / ١ .

(٥) في علل الشرائع : أنّ علة الوضوء التي من أجلها صار غسل الوجه والذراعين .

وغسل اليدين ليقبلهما ويرغب بهما ويرهب [ويتبتل] ، ومسح الرأس والرجلين لأحدهما ظاهران مكشوفان يستقبل بهما في كل حالته ، وليس فيهما من الخضوع والتبتل ما في الوجه والذراعين « (١) الخبر .
أقول : الظاهر أنه وقع التصحيف في قوله : « لأحدهما ظاهران مكشوفان » وكانت العبارة : ليسا ظاهرين مكشوفين يستقبل بهما في كل حالته .

وفي (العلل) : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن مسائل ، وكان فيما سألوه : أخبرنا يا محمد ، لأي علة توضع هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد ؟ فقال النبي ﷺ : « لما أن وسوس الشيطان إلى آدم ، دنا من الشجرة ، فنظر إليها ، فذهب ماء وجهه ، ثم قام ومشى إليها ، وهي أول قدم مشيت إلى الخطيئة ، ثم تناول بيده منها ممّا عليها وأكل فتطير الحليّ والحلل عن جسده ، فوضع آدم يده على أم رأسه وبكى ، فلما تاب الله عليه فرض الله عليه وعلى ذريته تطهير (٢) هذه الجوارح الأربع ، فأمره الله بغسل الوجه لما نظر إلى الشجرة ، وأمره بغسل اليدين إلى المرافق لما تناول بهما ، وأمره بمسح الرأس لما وضع يده على أم رأسه ، وأمره بمسح القدمين لما مشى بهما إلى الخطيئة » (٣) .

وزاد في رواية قال : « ثم سنّ على امتي المضمضة لينقى القلب عن الحرام ، والاستنشاق لتحرم عليهم رائحة النار وتنتها » .

قال [اليهودي : صدقت] يا محمد ، فما جزاء عاملها ؟ فقال النبي ﷺ : « أول ما يمسه الماء يتباعد عنه الشيطان ، فإذا تمضمض نور الله قلبه ولسانه بالحكمة ، وإذا استنشق آمنه الله من النار ورزقه رائحة الجنة ، وإذا غسل وجهه بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وإذا غسل ساعديه حرّم الله عليه أغلال النار ، وإذا مسح رأسه مسح الله عنه سيئاته ، وإذا مسح قدميه أجاز الله على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام » (٤) .

وعن زرارة قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : يصلي الرجل لوضوء [واحد صلاة] الليل والنهار كلّها ؟ قال : « نعم ، ما لم يحدث » (٥) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « الطهر على الطهر عشر حسنات » (٦) .

في بيان غسل الجنابة وأحكامه

ثم لما بيّن الله تعالى حكم المحدث بالحدث الأصغر ، كالنوم والبول والغائط والريح ،

(١) علل الشرائع : ٢٨٠ / ٢ .

(٢) في المصدر : غسل .

(٣) علل الشرائع : ٢٨٠ / ١ .

(٤) أمالي الصدوق : ٢٥٨ / ٢٧٩ .

(٥) الكافي ٣ : ٦٣ / ٤ .

(٦) الكافي ٣ : ٧٢ / ١٠ .

بيّن حكم المحدث بالحدث الأكبر ، كالجنابة ، بقوله : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ بخروج المني ، أو التقاء الختانين ، وإن لم ينزل المني ﴿فَاطْهَرُوا﴾ بالماء واغتسلوا.

عن زرارة ، قلت : كيف يغتسل الجنب ؟ فقال : « إن لم يكن أصاب كفه شيء غمسها في الماء ، ثم بدأ بفرجه فأنقاه بثلاث غرف ، ثم صبّ على رأسه ثلاث أكفّ ، ثم صبّ على منكبيه الأيمن مرتين ، وعلى منكبيه الأيسر مرتين ، فما جرى عليه الماء فقد أجزأ » ^(١) .

وعنه رضي الله عنه ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن غسل الجنابة ، فقال : « تبدأ فتغسل كفيك ، ثم تفرغ يمينك على شمالك فتغسل فرجك ومرافقك ، ثم تمضمض واستنشق ، ثم تغسل جسدك من لدن قرنك إلى قدميك ، ليس قبله ولا بعده وضوء ، وكلّ شيء أمسسته الماء فقد أنقيته ، ولو أنّ رجلا جنباً ارتمس في الماء ارتماسة واحدة ، أجزأ ذلك وإن لم يدلك جسده » ^(٢) .

وعنه عليه السلام ، في رجل أصابته جنابة ، فقام في المطر حتى سال على جسده ، أيجزيه ذلك من الغسل ؟ قال : « نعم » ^(٣) .

وعنه عليه السلام ، قال : « يجزيك من الغسل والاستنجاء ما بلّت يمينك » ^(٤) .

وعن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « إنّ الجنب ما جرى عليه الماء ^(٥) قليله وكثيره ، فقد أجزأه » ^(٦) .

وعنه عليه السلام ، في حديث : « ومن انفرد بالغسل وحده فلا بدّ له من صاع » ^(٧) .

أقول : محمول على الاستحباب لدلالة الروايات الكثيرة على إجزاء مسمّى الغسل ، ولو كالتّدهين . عن الثّعلبي : قال عليّ عليه السلام : « أقبل عشرة من أحبار اليهود فقالوا : يا محمّد ، لماذا أمر الله بالغسل من الجنابة ، ولم يأمر من البول والغائط وهما أقدر من النّطفة ؟ فقال عليه السلام : إنّ آدم لما أكل من الشّجرة تحوّل في عروقه وشعره ، فإذا جامع الإنسان نزل من أصل كلّ شعرة ، فافترضه الله عليّ وعلى امتي تطهيرا وتكفيرا وشكرا لما أنعم الله عليهم من اللّذة التي يصيبونها » ^(٨) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام ، في حديث : « من ترك شعرة من الجنابة متعمّدا فهو في النّار » ^(٩) .

وعنه عليه السلام ، قال : « من اغتسل من جنابته ، فلم يغسل رأسه [ثمّ بدا له أن يغسل رأسه] ، لم

يجد بدّا من إعادة الغسل » ^(١٠) .

(١) الكافي ٣ : ٤٣ / ٣ ، التهذيب ١ : ١٣٣ / ٣٦٨ .

(٢) التهذيب ١ : ١٤٨ / ٤٢٢ .

(٣) الكافي ٣ : ٤٤ / ٧ .

(٤) الكافي ٣ : ٢٢ / ٦ ، التهذيب ١ : ١٣٨ / ٣٨٦ .

(٥) زاد في الكافي والتهذيب : من جسده .

(٦) الكافي ٣ : ٢١ / ٤ ، التهذيب ١ : ١٣٧ / ٣٨٠ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٤ / ٧٢ .

(٨) تفسير روح البيان ٢ : ٣٥٥ .

(٩) التهذيب ١ : ١٣٥ / ٣٧٣ .

(١٠) الكافي ٣ : ٤٤ / ٩ ، التهذيب ١ : ١٣٣ / ٣٦٩ .

وعنه عليه السلام ، قال : « إِنَّ عَلَيَا عليه السلام لَمْ يَرِ بِأَسَا أَنْ يَغْسِلَ الْجَنْبَ رَأْسَهُ غَدُوءَ ، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ عِنْدَ الصَّلَاةِ » ^(١) .

وعنه عليه السلام ، قال : « لَا بِأَسْ بِتَبْعِيضِ الْغَسْلِ ، تَغْسِلُ يَدَكَ وَفَرْجَكَ وَرَأْسَكَ ، وَتَوَخَّرَ غَسْلَ جَسَدِكَ إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ تَغْسِلُ جَسَدَكَ إِذَا أُرِدْتَ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَحْدَثْتَ حَدَثًا مِنَ الْبَوْلِ أَوْ الْغَائِطِ أَوْ الرِّيحِ أَوْ الْمَنِيِّ بَعْدَمَا غَسَلْتَ رَأْسَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْسِلَ جَسَدَكَ ، فَأَعِدْ الْغَسْلَ مِنْ أَوَّلِهِ » ^(٢) .

وعنه عليه السلام ، عن آبائه ، قال : « كُنْ نِسَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اغْتَسَلْتَ مِنَ الْجَنَابَةِ يَبْقِيَنَّ صَفْرَةَ الطَّيِّبِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِيَنَّ الْمَاءَ صَبًّا عَلَى أَجْسَادِهِمْ » ^(٣) .

ثم بَيَّنَّ اللهُ سبحانه حكم من لم يتمكن من استعمال الماء ، بقوله : ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ بحيث يضرركم استعمال الماء ﴿أَوْ﴾ راكبين ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ قريب أو بعيد يشق عليكم استعماله ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ للوضوء أو الغسل ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ وتعمدوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ قد مرّ تفسيره وبعض الكلام فيه في سورة النساء ^(٤) .

ثم صرّح سبحانه بالتمتة على العباد بتخفيف أحكامه بقوله : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركم بالوضوء أو الغسل للصلاة ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ شيئا ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ وضيق ومشقة ، ولذا لم يأمركم بتحمل الضرر ، وتحصيل الماء بمشقة شديدة ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ وينظفكم ، ولذا أمركم عند فقد الماء ، أو عدم التمكن من استعماله بالتيمم بالتراب ، لكونه أحد الطهورين .

أو يريد ليرئكم من الذنوب ، كما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوضوء : « أَيُّمَا رَجُلٍ قَامَ إِلَى وَضُوئِهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ ثُمَّ غَسَلَ كَفَّيْهِ ، نَزَلَتْ خَطِيئَةٌ كَفَّيْهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ ، فَإِذَا تَمَضَّمْ نَزَلَتْ خَطِيئَةُ لِسَانِهِ وَشَفَتَيْهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ ، وَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ، سَلِمَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ هُوَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » ^(٥) .

ثم من بالتمتة الاخرى بقوله : ﴿وَلَيْتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بتشريعه الحنيفية السمحة السهلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته ، وتعملون بشريعته .

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾

(١) الكافي ٣ : ٤٤ / ٨ ، التهذيب ١ : ١٣٤ / ٣٧٢ .

(٢) مدارك الأحكام ١ : ٣٠٨ .

(٣) علل الشرائع : ٢٩٣ / ١ .

(٤) تقدّم في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٥٦ .

ثم لما ذكر أنّ تشريع التَّيَمِّم ، وتخفيف أحكامه تتميم لنعمه ، نتهّم بأصل نعمه ترغيباً إلى الشُّكْرِ ، وحثّاً على الانقياد ، بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من هدايتكم إلى دين الإسلام ، وإخراجكم من ظلمات الشُّرْكِ والجهل إلى نور التَّوْحِيد والمعارف الإلهية التي لم تكن في سائر الأمم ، ﴿و﴾ اذكروا ﴿مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ وعهده الأكيد الذي عاهدكم عليه ، بتوسُّط رسوله حين بايع المؤمنين على السَّمْع والطَّاعة لجميع أوامره وأحكامه ، في حال اليسر والعسر والنشاط والكرد ، وأنتم - أيّها المؤمنون - قبلتم العهد والتزمتم به ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ في جواب الرسول : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أوامرك وأحكامك .
عن الباقر عليه السلام : « المراد بالميثاق : ما بيّن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرّمات ، وكيفية الطّهارة ، وفرض الولاية ، وغير ذلك » (١) .

وعن القمي عليه السلام : لما أخذ رسول الله ﷺ الميثاق عليهم بالولاية ، قالوا : سمعنا وأطعنا (٢) .
ثم رهب المؤمنون عن كفران النعمة ، ونقض الميثاق بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروه في كفران نعمه ونسيانها ، ونقض ميثاقه ، ومخالفة أحكامه .
ثم بالغ في التهديد بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومطلع على مكنونها ، فيجازيكم عليها ، فكيف بجلايات الأعمال !

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ
عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

ثم أكّد سبحانه وجوب العمل بالميثاق ، والوفاء بالعهد على امتثال أحكامه التي مرجعها إلى وجوب القيام بوظائف العبوديّة ، وأداء حقوق النَّاس ، والعدل فيهم ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ بالعبوديّة ﴿لِلَّهِ﴾ ثابتين على طاعته ، مبالغين في امتثال أوامره ونواهيه ، مجدين في العمل بأحكامه ، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ﴾ بين النَّاس ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ، وقولوا الحقّ وإن كان مضراً على أوليائكم ، نافعاً لأعدائكم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ولا يحملنكم ﴿شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾ وشدة عداوة طائفة ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فيهم ، وتجوروا عليهم بارتكاب ما لا يحلّ لكم من المثلة ، وقتل النساء والصّبيّة ، وقذف المحصنة ، وشهادة الزّور ، وارتكاب الخيانة ، إلى غير ذلك ، بل ﴿اعْدِلُوا﴾ فيهم وإن ظلموكم ،

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠ .

وأنصفوا بينهم وإن جاروا عليكم ، واعلموا أنّ العدل في القول والفعل ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الذي امرتم به.

قيل : نزلت الآية في مشركي قريش لما صدّوا المسلمين عن المسجد الحرام ^(١) .
إن قيل : فكيف يجوز قتل الكفار ، وسي نساءهم وذرايرهم ، ونهب أموالهم ، مع أنّه جور عليهم؟
قلت : الجور هو التجاوز عن حدود الشرع ، والمعاملات المذكورة مع الكفار هي الحدود المقررة فيه ، وهو عين العدل.

ثمّ بالغ الله سبحانه في تأكيد الأمر بالتقوى بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا عباد الله في مخالفة أحكامه ،
ثمّ وعد المتزمنين بالتقوى بالثواب ، وأوعد التاركين له بالعقاب بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من
الطاعة والعصيان ، بحيث لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم خفيّتها وجليّتها ، فيجازيكم بما
تستحقّون من الثواب والعقاب.

وفي تكرار النهي عن حمل الشنآن على التعدي وترك العدل دلالة على مزيد الاهتمام بالعدل ،
والمبالغة في إيجاب إطفاء نائرة الغيظ ، وترك متابعة الهوى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٩) وَ (١٠)﴾

ثمّ وعد الله سبحانه المؤمنين المتزمنين بالتقوى والعدل والقسط تطيباً لقلوبهم ، وتشفيًا لهم من غيظ
الكفار بالثواب العظيم أولاً بقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومنها العدل والتقوى ،
ثمّ كأنه قيل : ما وعدهم ؟ فقال : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وستر للسيئات بتبديلها بالحسنات ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ من
الجنة والنعم الدائمة.

ثمّ وعدهم بتعذيب أعدائهم ثانياً بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي منها الآيات الدالة
على وجوب العدل والتقوى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المكذبون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموها إلى الأبد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ

أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾

(١) تفسير الرازي ١١ : ١٨٠ .

ثم بالغ سبحانه في الحث على ملازمة التقوى والعدل لكونهما شديدي المخالفة للطباع ، بتذكير المؤمنين نعمه عليهم ، المقتضية للطاعة والشكر ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وهي حفظ نفوسكم ﴿إِذْ هُمْ﴾ وعزم ﴿قَوْمٍ﴾ من الكفار على ﴿أَنْ يَبْسُطُوا﴾ ويمدوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والأسر والغارة ﴿فَكَفَّ﴾ الله ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بلطفه ورحمته ﴿عَنْكُمْ﴾ ومنعها من الوصول إليكم ، إذن فاشكروا تلك النعمة العظيمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مخالفة أوامره ونواهيه ، ولا تخافوا في طاعته أحدا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ القادر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وليعتمد في دفع الأعداء وكيدهم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ به العارفون بولايته لأوليائه.

في بيان حفظ الله نبيه ﷺ من القتل

روي عن ابن عباس رضي الله عنه : بعث النبي ﷺ سرية إلى بني عامر فقتلوا ببئر معونة إلا ثلاثة نفر أحدهم عمر بن أمية الضمري ، وانصرف هو وآخر معه إلى النبي ﷺ ليخبراه خبر القوم ، فلقيا رجلين من بني سليم ، معهما أمان من النبي ﷺ فقتلتهما ولم يعلما أن معهما أمانا. فجاء قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون الدية ، فخرج النبي ﷺ ومعه علي بن أبي بكر وعمر وعثمان حتى دخلوا على بني النضير ، وقد كانوا عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال ، وأن يعينوه في الديات ، فقال النبي ﷺ : « رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني ، فلزمني ديتهما ، فأريد أن تعينوني » .

فقالوا : اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد ، ثم هموا بالفتك برسول الله ﷺ وبأصحابه ، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك ، فقام رسول الله ﷺ في الحال مع أصحابه وخرجوا ، فقال اليهود : إن قدرنا تغلي ، فأعلمهم الرسول ﷺ أنه قد نزل عليه الوحي بما عزموا عليه. قال ^(١) : وقد تأمروا على أن يطرحوا عليه رحا أو حجرا. وقيل : بل ألقوا ، فأخذه جبرئيل.

وقيل : إن الرسول ﷺ نزل منزلا وتفرق الناس عنه ، وعلق سيفه بشجرة ، فجاء أعرابي وسل سيف رسول الله ﷺ ، وقال : من يمنعك مني ؟ فقال : « الله » - قالها ثلاثا - فأسقطه جبرئيل من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وقال : « من يمنعك مني ؟ » فقال : لا أحد ، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم ، وأبى أن يعاقبه ^(٢) .

أقول : على هاتين الروايتين يكون المراد من تذكيرهم نعمة الله هو دفع الشر عن النبي ﷺ حيث إن قتله أعظم الحزن على المؤمنين.

(١) زاد في تفسير الرازي : عطاء.

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٨٣ .

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾

ثم لما ذكر الله سبحانه أخذه الميثاق من المؤمنين ونعمته عليهم ، ذكر أخذ الميثاق من بني إسرائيل ونعمته عليهم عبرة للمؤمنين ، بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وعهدهم الوثيق على العمل بأحكام التوراة ﴿وَبَعَثْنَا﴾ واختارنا ﴿مِنْهُمْ﴾ بلسان موسى وتعيينه ﴿اثْنَيْ عَشَرَ﴾ بعدد أسباطهم ﴿نَقِيبًا﴾ وحاكما سائسا بينهم ، أو قيما وكافلا لامورهم ، أو مفتشا منقبا لأحوالهم ، كما جعل النبي ﷺ للأنصار اثني عشر نقيبا ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ بلسان موسى لبني إسرائيل أو لنقبائهم لترغيبهم إلى الطاعة ، وترهيبهم عن المعصية ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة أسمع مقالكم ، وأرى أعمالكم ، وأطلع على ضمائركم وأسراركم ، فاجازيكم على ما يصدر منكم .

ثم وعدهم بالثواب مؤكدا له بالقسم بقوله : ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَمْنْتُمْ﴾ عن صميم القلب ﴿بِرُسُلِي﴾ كلهم من غير تفريق في الإيمان بين موسى وعزير وغيرهما ، فإن الإيمان بالرسل شرط قبول الأعمال ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ومنعتموهم من الأعداء بالنصرة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ أموالكم بصرفها في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ برغبة وخلوص نية ، بلا شوب بالرياء والسمعة ، إذن بالله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وأحسون ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وذنوبكم ، صغائرها وكبائرها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار كثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ .

ثم نبه الله تعالى على أنّ الكفر بعد وضوح الحق وظهور النعم من أقبح أنواع الضلال ، بقوله : ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بالله ونعمه ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق ، والنعمة العظيمة ، والوعد الأكيد بالثواب ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسط الطريق الموصل إلى كل خير ، ومقام القرب والدرجات الرفيعة من الجنة ، ضلالا بيّنا وخطأ واضحا لا عذر معه أصلا ، بخلاف من كفر قبل ذلك ، فإنه ربّما يكون عن الشبهة وتوهم المعذرة .

في أخذ موسى ﷺ النقباء وملاقاتهم عوجا

روي أنّ بني إسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون ، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا من أرض الشام وهي الأرض المقدسة ، وكانت لها ألف قرية ، في كل قرية ألف بستان ، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال لهم : إني كتبتها لكم دار قرار ، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ؛ وإني ناصركم ، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون

كفيلة على قومه بالوفاء بما امرؤا به ، توثقة عليهم ، فاختار التّقاء ، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل ، وتكفل لهم التّقاء ، وسار بهم ، فلمّا دنا من أرض كنعان ، بعث التّقاء يتجسّسون الأخبار ويعلمون علمها ، فأروا أجراما عظيمة وقوّة وشوكة ، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد نهاهم موسى عن ذلك ، فنكثوا الميثاق إلّا كالب بن يوقنا نقيب سبط يهودا ، ويوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصّديق.

قيل : لما توجه التّقاء إلى أرضهم للتّجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلاث ذراع ، وعاش ثلاثة آلاف سنة ، وكان يحتجز بالسّحاب ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشّمس يرفعها إليها ثمّ يأكله ، فلمّا لقي عوج التّقاء وعلى رأسه حزمة حطب أخذهم وجعلهم في الحزمة - وفي رواية : في كمّه - فانطلق بهم إلى امرأته وقال : انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون قتالنا.

وفي رواية : أتى بهم الملك فنشرهم بين يديه فقال : ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم ، فلمّا رجعوا قال بعضهم : إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله ، ولكن اكتموه إلّا عن موسى وهارون ، فيكونان هما يريان رأيهما ، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ، ثمّ انصرفوا إلى موسى ، فنكثوا عهدهم ، وجعل كلّ منهم ينهى سبطه عن قتالهم ، ويخبرهم بما رأوا ، إلّا كالب ويوشع ^(١) ، الخبر.

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ﴾ ونكثهم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وعهدهم ، وبسبب خلفهم بما التزموا به ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ وطردها عن ساحة الرّحمة وقيل : يعني : مسخناهم خنازير وقردة ^(٢) وعن ابن عبّاس : ضربنا عليهم الجزية ^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيّرنا ﴿قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ صلبة ، لا تتأثّر بالآيات والتّندر ، وقيل : فاسدة رديئة ، أو نائية عن قبول الحقّ ، منصرفة عن الانقياد للدلائل ^(٤).

(١) تفسير أبي السعود ٣ : ١٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٦٣.

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٨٦ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٦٥.

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١٨٦.

(٤) تفسير الرازي ١١ : ١٨٧.

ثم شرح سبحانه سيئات أعمالهم التي كانت نتيجة اللعن والقساوة ، بقوله : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ التي كانت في التوراة ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ومحاله فيها ، ويغيرون ألفاظ آياتها.

وقيل : كانوا يؤلون آياتها بالتأويل الباطل لعدم إمكان تغيير الألفاظ في الكتاب للتواتر ^(١) .

﴿وَنَسُوا﴾ وتركوا ﴿حِطًّا﴾ وافرا ﴿مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ عن ابن عباس : تركوا نصيبا مما امروا به في كتابهم ، وهو الإيمان بمحمد ﷺ ^(٢) .

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطْلُعُ عَلَيَّ﴾ فرقة ، أو أنفس ﴿حَائِثَةٍ﴾ في التوراة ﴿مِنْهُمْ﴾ أو على خيانة صادرة منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه ، أو الكافرين الذين لم يخونوا ، وعلى أي تقدير ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولا تتعرض لعقوبتهم ﴿وَاصْفَحْ﴾ عنهم وأعرض عما صدر عنهم ، ولا تعيرهم ولا تعيب عليهم بعد إيمانهم ، أو بعد تعاهدتهم والتزامهم بالجزية. كذا قيل ^(٣) .

ثم علل الأمر بالعفو والصفح بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الناس وإن كانوا كافرين. عن القمي رحمه الله : منسوخة بقوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٤) . وقيل : بقوله : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ^(٥) .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤)

ثم نبه الله سبحانه على أن النصارى أيضا كاليهود في نقض الميثاق وترك العمل بكتاب الله بقوله : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وادعوا ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ ونحن أنصار الله ، أو أنصار عيسى إلى الله ، وليسوا بذلك ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ على العمل بأحكام الإنجيل والالتزام بما فيه ، وفيه أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ ﴿فَنَسُوا﴾ وتركوا ﴿حِطًّا﴾ وافرا ونصيبا وافيا ﴿مِمَّا دُكِّرُوا﴾ وامروا ﴿بِهِ﴾ فيه من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ وألقينا بنحو اللزوم واللبس فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين اليهود ، أو بين فرقهم المختلفة ﴿الْعَدَاوَةَ﴾ والمباينة بالأفعال ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ والمنافرة بالقلوب والعقائد بحيث يلعن بعضهم بعضا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ ويخبرهم بشدة عقوبتهم ﴿بِمَا﴾

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١١ : ١٨٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٦٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٥ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٢٦٨ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٢٩ .

كانوا في الدنيا ﴿يَصْنَعُونَ﴾ من السيئات.

وفيه أشدّ الوعيد ، وإنما عبّر عن العمل بالصّنع ، للإيذان برسوخهم في ذلك.

قضية بولس وفساده دين النصارى

قيل : الذي ألقى العداوة بين النصارى [رجل] يقال له بولس ، فإنه كان بينه وبين النصارى قتال ، قتل منهم خلقا كثيرا ، فأراد أن يحتال حيلة يلقي بينهم القتال ، فجاء إلى النصارى وجعل نفسه أعور وقال لهم : ألا تعرفوني ؟ فقالوا : أنت الذي قتلت ما قتلت منا ، وفعلت ما فعلت ، فقال : فعلت ذلك كلّهُ ، والآن تبت لأني رأيت عيسى في المنام نزل من السماء فلطم وجهي لطمة فقأ عيني ، فقال : أيّ شيء تريد من قومي ؟ فتبت على يديه ، ثم جئتكم لأكون بين ظهرائكم ، واعلمكم شرائع دينكم كما علّمني عيسى في المنام ، فاتخذوا له غرفة ، فصعد تلك الغرفة ، وفتح كوة إلى الناس في الحائط ، وكان يتعبّد في الغرفة ، وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويحييهم من تلك الكوة ، وربما يأمرهم بأن يجتمعوا ويناديهم من تلك الكوة ويقول لهم بقول كان منكرا في الظاهر ، وينكرون عليه ، فكان يفسّر ذلك القول تفسيرا يعجبهم ذلك ، فانقادوا كلّهم له ، وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به.

فقال يوما من الأيام : اجتمعوا عندي فقد حضرني علم ، فاجتمعوا فقال : أليس خلق الله الأشياء في الدنيا كلّها لمنفعة ابن آدم ؟ قالوا : نعم ، فقال : لم تحرّمون على أنفسكم هذه الأشياء - يعني : الخمر والخنزير - وقد خلق لكم ما في الأرض جميعا ، فأخذوا قوله فاستحلّوا الخمر والخنزير.

فلما مضى على ذلك أيام دعاهم وقال : حضرني علم فاجتمعوا ، فقال : من أيّ ناحية تطلع الشّمس ؟ فقالوا : من قبل المشرق . فقال : من أيّ ناحية يطلع القمر والنّجوم ؟ فقالوا : من قبل المشرق ، فقال : ومن يرسلهم من قبل المشرق ؟ قالوا : الله تعالى ، فقال : فاعلموا أنّه تعالى في قبل المشرق ، فإن صلّيتم له فصلّوا إليه . فحوّل صلاتهم إلى المشرق ، فلما مضى على ذلك أيام دعا بطائفة منهم وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة ، وقال لهم : إنّي أريد أن أجعل نفسي قربانا لليلة لعيسى ، وقد حضرني علم فأريد أن أخبركم في السرّ ، لتحفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك بعدي.

ويقال أيضا : إنّّه أصبح يوما وفتح عينه الاخرى ثمّ دعاهم وقال : جاءني عيسى الليلة وقال : قد رضيت عنك ، فمسح يده على عيني فبرئت ، والآن أريد أن أجعل نفسي قربانا له.

ثمّ قال : هل يستطيع أحدكم أن يحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص إلّا الله تعالى ؟ فقالوا : لا ، فقال : إنّ عيسى قد فعل هذه الأشياء ، فاعلموا أنّه هو الله تعالى ، فخرجوا من عنده ، ثمّ دعا بطائفة اخرى فأخبرهم بذلك أيضا وقال : إنّّه كان ابن الله ، ثمّ دعا بطائفة اخرى وأخبرهم بذلك أيضا وقال :

إنَّه ثالث ثلاثة ، وأخبرهم أنَّه يريد أن يجعل نفسه الليلة قربانا ، فلمَّا كان بعض اللَّيل خرج من بين ظهرانيهم ، فأصبحوا وجعل كلُّ فريق يقول : قد علَّمني كذا وكذا ، وقال الفريق الآخر : أنت كاذب ، بل علَّمني كذا ، فوقع بينهم القتال فاقتتلوا وقتلوا خلقا كثيرا ، ونصب العداوة بينهم إلى يوم القيامة. وهم ثلاث فرق : التَّسْطورية ، فقالوا : المسيح ابن الله ، والثانية : الملكانية ، قالوا : إنَّ الله ثالث ثلاثة ، المسيح وامه والله ، والثالثة : اليعقوبية ، قالوا : إنَّ الله هو المسيح (١) .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)﴾

ثمَّ لما بيَّن الله تعالى نقض اليهود والنصارى ميثاقهم الذي اخذ منهم على الإيمان بمحمد ﷺ ، وخيانتهم بالتَّوراة والإنجيل ، وإخبار النبيِّ بما أخفوه عن النَّاس من تحريفاتهم وتغييراتهم في الكتابين ، وكان ذلك من معاجزه الدَّالة على صدقه في دعوى الرِّسالة ، باشر بذاته المقدَّسة دعوتهم إلى الإيمان بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ مع البراهين القاطعة على صدقه ؛ منها : أنَّه مع امَّيته وعدم قراءته الكتب ، وعدم تعلُّمه عند أحد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ السَّماوي ، كنعوته في الكتابين ، واسمه المذكور فيهما ، وآية (٢) الرِّجم - كما عن ابن عباس (٣) - وذلك منه إخبار بالمغيَّيات كإخبار عيسى عليه السلام بما يأكلون وما يدَّخرون ﴿وَيَعْفُوا﴾ ويغضض ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾ ممَّا تخفونه وتكتمونه ، فلا يخبر به.

عن القمِّي رحمه الله ، قال : بيَّن النبيُّ ﷺ كثيرا ممَّا أخفيتموه ممَّا في التَّوراة من أخباره ، ويدع كثيرا لا يبيِّنه (٤) .

قضية تحكيم ابن سوريا اليهودي

عن الباقر عليه السلام : « أنَّ امرأة من خير ذات شرف بينهم ، زنت مع رجل من أشرافهم وهما محصنان ، فكرهوا رجمهما ، فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك طمعا في أن يأتي لهم برخصة ، فانطلق قوم منهم كعب بن اسيد ، ومالك بن سيف ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وغيرهم ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن الرَّاني والرَّانية إذا احصنا ، ما حدَّهما ؟ فقال : هل ترضون بقضائي في ذلك ؟ قالوا : نعم. فنزل جبرئيل بالترجم ، فأخبرهم بذلك ، فأبوا أن يأخذوا به ، فقال جبرئيل : اجعل بينك وبينهم ابن سوريا ، ووصفه له ، فقال النبيُّ ﷺ :

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٦٧.

(٢) في تفسير الرازي : وأمر.

(٣) تفسير الرازي ١١ : ١٨٩.

(٤) تفسير القمي ١ : ١٦٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢.

هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فذك ، يقال له ابن سوريا ؟ قالوا : نعم ، قال : أيّ رجل هو فيكم ؟ قالوا : هو أعلم يهودي بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى . قال : فأرسلوا إليه . ففعلوا ، فأتاهم عبد الله بن سوريا .

فقال له النبي ﷺ : أنشدك الله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التّوراة على موسى ، وفلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون ، وظلّل عليكم الغمام ، وأنزل عليكم المنّ والسلوى ، هل تجدون في كتابكم الرّجم على من أحصن ؟ قال ابن سوريا : نعم ، والذي ذكرّني به ، لو لا خشية أن يحرقني ربّ التّوراة إن كذبت أو غيّرت ، ما اعترفت لك ، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمّد ؟ قال : إذا شهد أربعة رهط عدول أنّه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة ، وجب عليه الرّجم . فقال ابن سوريا : هكذا أنزل الله في التّوراة على موسى عليه السلام .

فقال له النبي ﷺ : فماذا كان أول ما ترخّصتم به أمر الله ؟ قال : كنّا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضّعيف أقمنا عليه الحدّ ، فكثرت الزّنا في أشرافنا حتّى زنى ابن عمّ ملك لنا ، فلم نرجمه ، ثمّ زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فقال قومه : لا ، حتّى ترجم فلانا - يعنون ابن عمه - فقلنا : تعالوا نجتمع فلنضع شيئا دون الرّجم يكون على الشّريف والوضيع ، فوضعنا الجلد والتفحيم ^(١) - وهو أن يجلد أربعين جلدة ، ثمّ تسوّد وجوههما ، ثمّ يحملان على حمارين ، وتجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ، ويطاف بهما - فجعلوا هذا مكان الرّجم .

فقالت اليهود لابن سوريا : ما أسرع ما أخبرته به ! وما كنت لما أتينا عليك بأهل ، ولكنك كنت غائبا فكرهنا أن نغتائبك ، فقال : إنّه نشدني بالتّوراة ، ولو لا ذلك لما أخبرته به .

فأمر بهما النبي ﷺ فرجما عند باب مسجده ، وقال : أنا أول من أحيا أمرك إذ أماتوه . فأنزل الله سبحانه فيه : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ .

فقام ابن سوريا فوضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ ثمّ قال : هذا مقام العائذ بالله وبك ، أن تذكر [لنا] الكثير الذي امرت أن تعفو عنه ، فأعرض النبي ﷺ عن ذلك ^(٢) .

ومن البراهين على رسالته بقوله ^(٣) : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ بوساطة محمّد ﷺ دين الإسلام الذي هو ﴿ نُورٌ ﴾ في الحقيقة ، حيث تتقوى به بصيرتكم على إدراك المعقولات كما يتقوى بالتّور الحسي

(١) في مجمع البيان : والتفحيم .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٩٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢ .

(٣) كذا ، وتوجد كلمة بعد (من) غير واضحة . راجع النسخة ج ١ ص ٣٨٨ .

بصركم على إدراك المحسوسات.

ثم أشار سبحانه إلى البرهان الثالث بقوله : ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ للحق ، وكاشف عن حقائق الأمور .
وقيل : التور هو النبي ﷺ ^(١) . وقيل : التور والكتاب واحد ^(٢) .

وعن القمي رحمه الله : يعني بالتور : أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام ^(٣) .

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦)

ثم بين عظيم فائدة الكتاب تعظيما له ، بقوله : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ﴾ وطلب باتباعه وإطاعة أحكامه ﴿رِضْوَانَهُ﴾ وقربه ﴿سُبُلَ﴾ دار ﴿السَّلَامِ﴾ وطرق الجنة ، أو سبل السلامة من العذاب ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ بوسيلة هذا الكتاب ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وأنواع كدورات الكفر والضلال ، والجهل وهوى النفس ﴿إِلَى النُّورِ﴾ من الإيمان والعلم والحكمة وكمال النفس ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ومشيئته وتوفيقه ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والدين الحق القويم ، الموصل إلى جميع الخيرات وأكمل السعادات .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

ثم لما ذكر سبحانه أنّ القرآن الكريم هاد إلى الحق ، ومنج من الضلال ، بين غاية ضلالة النصارى بقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ النصارى ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ واعتقدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ والخلق المعبود ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كما نسبت إلى اليعقوبيّة منهم ، بل هو لازم قول الملكانيّة القائلين بالأقانيم الثلاثة ، حيث إنهم قائلون بأنّ الكلمة اتحدت بعبسى ، لأنّه إن أرادوا به ذاته تعالى يلزم منه القول بحلوله تعالى في عيسى ، فيكون عيسى هو الله ، وإن أرادوا من الكلمة علمه تعالى فحلول علمه مستلزم لحلول ذاته ، لأنّ علمه عين ذاته .

ثم بين الله تعالى بطلان هذا القول وفضاحته بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : إن كان الأمر كما

تزعمون

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ١٨٩ ، وفيه : والكتاب هو القرآن .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٦٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣ .

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ ويقدر على أن يمنع ﴿مِنْ﴾ نفوذ قدرة ﴿الله﴾ وإرادته ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾ ويفني ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ بل ﴿وَمَنْ﴾ كان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المسيح وغيره ﴿جَمِيعاً﴾ فإذا كان المسيح مقهوراً تحت قدرة الغير وإرادته ، بحيث لا يمكنه دفع الهلاك عن نفسه وأمّه وغيرهما ، لا يعقل أن يكون إلهما .

ثم استدلل على الوهيّة ذاته المقدّسة بعظمة سلطانه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يخرج شيء من الموجودات عن ملكه وسلطانه ، ولا شريك له فيهما .
ثم استدلل بسعة قدرته بقوله : ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خلقه وإيجاده كيف يشاء بلا أصل كعالم العقول ، أو من أصل كعالم الأجسام ، من غير جنسه كآدم وسائر الحشرات ، أو من جنسه كأولاد آدم ، من ذكر واحد كحوّاء ، ومن انثى واحدة كعيسى ، أو منهما كسائر النّاس .
ثم بالغ في تقرير قدرته الكاملة بقوله : ﴿وَاللَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾ وعيسى لا يقدر على شيء إلا بإقداره تعالى له .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾

ثم أنّه تعالى بعد حكمه بكفر النصارى لغلوّهم في شأن عيسى وادّعائهم الوهيّة ، وإبطال دعواهم ، حكى عنهم وعن اليهود غلوّهم في حقّ أنفسهم مع كونهم في أشدّ مراتب الكفر ومنتهى درجة الضلال ، بقوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ ترفيعاً لأنفسهم على سائر النّاس ، وغروراً بشرف آبائهم الأنبياء : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فإنّه يحبّنا كحبّ الوالد لولده .

قيل : إنّ مراد اليهود من قولهم هذا : أنّا أشياع عزيز ابن الله ، ومراد النصارى : نحن أشياع عيسى ابن الله ، كما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة : نحن الملوك ^(١) .

ثم أمر الله نبيّه ﷺ بإبطال قولهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، إلزاماً لهم : إن كان ما تزعمون حقّاً ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله في الدّنيا ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ ومعاصيكم بالمسخ والقتل والأسر والدّلة ، وفي الآخرة أيّاماً معدودة باعترافكم ؟ فهذه الدّعوى في غاية الفساد ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ كغيركم ﴿بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ الله ، بلا فضيلة لكم على أحد عند الله ، وهو ﴿يَغْفِرُ﴾ الذّنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ، ولا يشاء إلا لأهل

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٢ .

الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه ، وهم أهل الكفر والعصيان.

ثم أعاد تقرير كمال قدرته وعظمته سلطانه تربية للمهابة في القلوب بقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتساوى نسبة جميع الموجودات إليه ، لا فضيلة لأحد على أحد إلا بالإيمان والطاعة والعبودية ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع في الآخرة ، لا إلى غيره ، فيجازيكم بكفركم وسيئات أعمالكم وأقوالكم أسوأ الجزاء.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه : أنها نزلت في جماعة من اليهود والنصارى ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان ، وخوفهم بعقاب الله تعالى ، فقالوا : كيف نخوفنا بعقاب الله ونحن أبناء الله وأحباءه^(١) !

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا

مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ (١٩)﴾

ثم أنه تعالى بعدما أبطل تلك الدعاوى من اليهود والنصارى بالحجج القاطعة ، وكان ذلك من معجزات النبي ﷺ مع كونه أميًا ، أعاد دعوتهم إلى الإيمان به بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ لهدايتكم إلى الحق ، حال كونه مع أميته ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الله وسننه ، ويشرح لكم معضلات الأمور ﴿عَلَى﴾ حين ﴿فِتْرَةٍ﴾ كائنة ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ وفي زمان انقطاع الوحي وظلمة الجهالة.

وكان احتياج الخلق إلى مبيّن الأحكام الإلهية والشرائع الدينية ، لتقادم عهدها ، وطول زمانها ، وتصرف التغيير والتحريف إليها ، واختلاط الحق بالباطل والصدق والكذب ، بحيث صار ذلك عذرا ظاهرا لأهل الضلال في إعراضهم عن الحق والعبادة.

فكان إرسال الرسول لأجل كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ اعتذارا : ربنا ﴿مَا جَاءَنَا﴾ في الدنيا ﴿مِنْ بَشِيرٍ﴾ بثوابك ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ من عقابك ، فتتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين.

فأجابهم الله بقوله : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الآن من قبل الله ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فتمت عليكم الحجة ، وانقطع العذر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من إرسال الرسول ، وقطع الأعذار ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

قيل : كان بين موسى وعيسى عليهما السلام ما يقرب من ألف وسبعمائة سنة ، وألفا نبي ، وبين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وأربعة من الأنبياء ؛ ثلاثة من بني إسرائيل ، وواحد من العرب يقال له خالد

(١) تفسير الرازي ١١ : ١٩٢ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٢١ .

بن سنان العبسي ^(١) .

عن الصّدوق في (الإكمال) : معنى الفترة أن لا يكون نبي ولا وصي ظاهرا مشهورا ، وإن كان بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام أنبياء وأئمة مستورون خائفون ، منهم خالد بن سنان العبسي ، لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر ، وكان بين مبعثه ومبعث نبينا خمس مائة سنة ^(٢) .

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إمّا ظاهر مشهور ، وإمّا خائف مغمور » ^(٣) .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ

وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَأَتَاكُم مَّا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾

ثم لما دعا الله تعالى أهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول ﷺ ، بين أن عادة اليهود اللجاج وعدم الانقياد للأنبياء ، مستشهدا بمعاملة سلفهم - مع كونهم أبناء الأنبياء - مع موسى ، بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ، استعطافا واستمالة لقلوبهم : ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ ومنه العظام ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الموجبة لغاية شكركم وطاعتكم له ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ ومن أقاربكم ﴿أَنْبِيَاءَ﴾ كثيرة ، ترشدون بإرشادهم ، وتفتخرون بانتسابهم.

قيل : إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : إني لا أبعث نبيا إلا من ولد إسماعيل ويعقوب ^(٤) .
﴿وَوَيْلٌ لَّكَ إِذْ جَعَلَكُم﴾ وبعث فيكم ﴿مُلُوكًا﴾ وحكما كثيرة ، قيل : إن المعنى : جعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط في مملكة فرعون بمنزلة العبيد وأهل الجزية ^(٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : يعني أصحاب خدم وحشم ، وكانوا أول من ملك الخدم ^(٦) .
﴿وَأَتَاكُم مَّا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر ، وإهلاك فرعون وجنده ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنيّ والسلوى ، وغير ذلك.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ

فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾

(١) جوامع الجامع : ١٠٧ ، تفسير الرازي ١١ : ١٩٤ .

(٢) إكمال الدين : ٦٥٩ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤ .

(٣) فتح البلاغة : ٤٩٧ الحكمة ١٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ١٩٦ .

(٥) تفسير الرازي ١١ : ١٩٦ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٥ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٥ .

ثم بعد تذكيرهم النعم التي أنعم الله عليهم ، أمرهم بمجاهدة أعداء الله بعد إعادة مخاطبتهم مزيدا للاستعطاف بقوله : ﴿يَا قَوْمُ﴾ جاهدوا أعداء الله وأعداءكم ، و﴿ادْخُلُوا﴾ بعد الغلبة عليهم ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ والبلاد الطيبة الكثيرة النعم ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ﴾ وقدر في اللوح المحفوظ إسكانها ﴿لَكُمْ﴾ .
روي أن إبراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال الله تعالى له : انظر ، فما أدركه بصرك فهو مقدس وميراث لذريتك ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « يعني : الشام » ^(٢) .

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ ولا ترجعوا ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ وأعقابكم خوفا من الجبابة ، ولا تهزموا من بأسهم .
وقيل : إن المراد : لا ترجعوا عن الدين الحق إلى الشك ^(٣) ، أو لا ترجعوا عن الأرض التي امرتم بدخولها إلى الأرض التي خرجتم منها - وهي أرض مصر ^(٤) - ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ وتنصرفوا حال كونكم ﴿خَاسِرِينَ﴾ مغوبين في الدنيا والآخرة ، لفوتكم المنافع العظيمة والثواب وابتلائكم بالحن والعذاب .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣)

ثم حكى الله تعالى امتناع بني إسرائيل عن امتثال أمر موسى بعد تلك الترغيبات والمواعظ بقوله :
﴿قَالُوا﴾ بعد اطلاعهم على قوة الجبابة وشوكتهم ، والخوف من قتالهم : ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أقوياء قاهرين ، أو طوالا عظام الأجساد ، قيل : كانت أيدي قوم موسى لا تصل إليهم (٥) ﴿وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا﴾ أبدا خوفا منهم ﴿حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بميل أنفسهم ، ويحلوا بلادهم لنا من غير صنع منا ؛ لعدم قدرتنا على إخراجهم منها بالقهر .

﴿فَإِن يَخْرُجُوا﴾ بسبب من الأسباب ﴿مِنْهَا﴾ من غير دخل منا في خروجهم ﴿فَإِنَّا﴾ حينئذ ﴿دَاخِلُونَ﴾ فيها ، فلما أبوا عن الدخول في الأرض المقدسة - وهي بيت المقدس ، أو بلدة أريحا - ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ﴾ كاملان في صفات الرجولية من الشجاعة والفتوة اسمهما كالب ويوشع ،

(١) تفسير الرازي ١١ : ١٩٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٧ / ١٢٣٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١١ : ١٩٨ .

وهما كانا ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويتَّقون ، وقد ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بنعمة اليقين الصادق بوعد الله وباليوم الآخر ، والثَّقة بعونه ونصرته ، تشجيعا لهم وتقوية لقلوبهم : يا قوم ﴿ادْخُلُوا﴾ بجماعتكم دفعة وبغثة ﴿عَلَيْهِمُ الْبَابُ﴾ الذي لبلد الجبارين ، وضاعطوهم في المضيق حتَّى لا يمكنهم الخروج إلى الصَّحراء ، ولا يجدوا للحرب مجالا .

ثمَّ أَمَّما بعد تعليمهم كَيْفِيَّةَ الحملة عليهم ، وعداهم النَّصر والغلبة ؛ بقوله : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ وضَيِّقتم عليهم العرصة ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ عليهم لا محالة ، وهم منهزمون منكم ألبتة ؛ لضعف قلوبهم ، وتعرُّس الكَرِّ عليهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصَّة ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ في الغلبة عليهم ، وفي غيرها من الأمور ، ولا تعتمدوا على الأسباب بعد تهيئتها وترتيبها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ، مصدِّقين بوعد ، عارفين بقدرته .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا

هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾

فلَمَّا لم يَفِد بني إسرائيل نصح الرِّجُلين ، ولم يؤثِّر فيهم التَّشجيع ، ولم يفيضوا بتعليم كَيْفِيَّةِ الحرب وطريق الغلبة وتنبئهم على التَّوَكُّل على الله ، بالغوا في الامتناع عن الدَّخول في الأرض المقدَّسة خوفا على أنفسهم ، و﴿قَالُوا﴾ تمرَّدوا عن طاعة الله ورسوله ، واستهانة بهما : ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا﴾ خوفا من الجبابرة ، ولا نرد أرضهم ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ مقيمين ، فإن كان لك الغلبة عليهم ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ معا إلى أرضهم ﴿فَقَاتِلَا﴾ هم ﴿إِنَّا﴾ جميعا ﴿هَاهُنَا﴾ وفي مكاننا هذا ﴿قَاعِدُونَ﴾ منتظرون نصركما وغلبكما عليهم ، وإخراجكما إياهم من أرضهم .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)﴾

فلَمَّا يغس موسى ﷺ من طاعة قومه بعد أن سمع منهم الامتناع والاستهزاء ﴿قَالَ﴾ بَنًا وحزنا وتشكِّيا من تمرَّدهم إلى الله : ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ طاعة أحد ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الذي هو بمنزلة نفسي ، وفي حكم جوارحي التي لا تتخلَّف عن إرادتي .

وإِنَّمَا لم يذكر الرِّجُلين اللَّذين يخافان ، مع كونهما في غاية الطَّاعة والانقياد له ، إعظاما لشأن هارون من أن يكون له قرين في الانقياد والتَّسليم .

ثمَّ دعا لنفسه ولأخيه ، وعلى قومه المتمرِّدين بقوله : ﴿فَافْرِقْ﴾ يا ربِّ وافصل ﴿بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

الْفَاسِقِينَ الخارجين عن طاعتك ، المصرين على عصيانك ، بأن تحكم علينا ^(١) بما نستحقّه ، وعليهم بما يستحقّون. كذا قيل ^(٢) .

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ﴾

الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴿﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى بعد امتناع بني إسرائيل [عن] الدخول في الأرض المقدّسة ، وشكاية موسى **﴿إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾** ومنوعة **﴿عَلَيْهِمْ﴾** دخولا ، يعني أنّ طائفة بني إسرائيل لا يدخلونها **﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾** ويكون حالهم في المدة إلى آخرها أّهم **﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾** ويسIRON فيها متحيّرين.

في ابتلاء بني إسرائيل بالتيه

قيل : إنّ موسى **﴿إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾** لما دعا عليهم ، أخبره الله بأحوال التّيه ، فأخبر موسى قومه بذلك فقالوا له : لم دعوت علينا ؟ فنّدم موسى **﴿إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾** على ما عمل ، فعزّاه الله بقوله : **﴿فَلَا تَأْسَ﴾** ^(٣) ولا تحزن **﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** ^(٤) فإنّهم بفسقهم مستحقّون لذلك.

قيل : لبثوا أربعين سنة في سّنة فراسخ ، وهم سّتمائة ألف مقاتل ^(٥) . وقيل : [ستة] في اثني عشر فرسخا ^(٦) . وقيل : تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخا ^(٧) . وكانوا يسIRON كلّ يوم جادّين ، فإذا أمسوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا منه ^(٨) .

قيل : إنّ موسى وهارون بشؤم معاملة بني إسرائيل بقيا في التّيه أربعين سنة ، وبنو إسرائيل ببركة كرامتهما ظلّل عليهم الغمام ، وانزل عليهم المّنّ والسلوى ، ليعلم أثر بركة صحبة الصّالحين ، وشؤم صحبة الفاسقين ^(٩) .

عن الباقر **﴿إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾** ، قال : « نعم الأرض الشّام وبئس القوم أهلها ، وبئس البلاد مصر ، أما إنّها سجن من سخط الله عليه ، ولم يكن دخول بني إسرائيل إلّا معصية منهم لله ، لأنّ الله قال : **﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** ^(١٠) يعني الشّام ، فأبوا أن يدخلوها ، فتأهوا في الأرض أربعين سنة في فيافيها ، ثمّ دخلوها بعد أربعين سنة قال : وما خروجهم من مصر ودخولهم في الشّام إلّا بعد توبتهم ورضا الله عنهم » ^(١١) .

(١) في تفسير روح البيان وتفسير أبي السعود : تحكم لنا.

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٧ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٢٠١ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٧ .

(٥ و ٦) . تفسير الرازي ١١ : ٢٠٢ .

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٧ .

(٨) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٧ .

(٩) المائدة : ٥ / ٢١ .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ٢٧ / ١٢٣٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦ .

وعن الصادق عليه السلام ، في رواية ذكر [أهل مصر ، وذكر قوم] موسى وقولهم : اذهب **﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** ^(١) ، قال : « فحرّمها [الله] عليهم أربعين سنة وتبيّهم ، فكان إذا كان العشاء أخذوا في الرّحيل ونادوا : الرّحيل الرّحيل ، الوحاء ^(٢) الوحاء ، فلم يزالوا كذلك حتّى تغيب الشمس ، حتّى إذا ارتحلوا واستوت بهم الأرض قال الله للأرض ديري بهم ، فلم يزالوا كذلك حتّى [إذا] أسحروا وقارب الصّبح قالوا : إنّ هذا الماء قد أتيتموه فانزلوا ، فإذا أصبحوا إذا أبنتهم ^(٣) ومنزلهم التي كانوا فيها بالأمس ، فيقول بعضهم لبعض : يا قوم ، لقد ضللتكم وأخطأتم الطريق ، فلم يزالوا كذلك حتّى أذن الله لهم فدخلوها ، وقد كان كتبها لهم » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النّعل بالنّعل ، والقذّة بالقذّة ، حتّى لا تخطئون طريقهم ، ولا تخطئكم سنّة بني إسرائيل » .
ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : « قال موسى لقومه : **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** فردّوا عليه وكانوا ستمائة ألف وقالوا : **﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾** الآيات ، قال : فعصى أربعون ألفا ، وسلم هارون وابناه ، ويوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا ^(٥) ، فسّمّاهم الله فاسقين فقال : لا **﴿تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** فتأهوا أربعين سنة لأثمّ عصوا ، فكان حذو النّعل بالنّعل أنّ رسول الله ﷺ لما قبض ، لم يكن على أمر الله إلّا عليّ والحسن والحسين عليهما السلام ، وسلمان ، وأبو ذرّ ، والمقداد ، فمكثوا أربعين ^(٦) سنة حتّى قام عليّ عليه السلام فقاتل من خالفه » ^(٧) . الخبر .
ثمّ أنّه اختلف في أنّ موسى وهارون [هل] كانا في التّيه أم لا ؟ فقال قوم : لا ، لأنّه دعا الله أن يفرّق بينه وبين قومه ودعوات الأنبياء مجابة ^(٨) .

أقول فيه : إنّ مبنّى على كون المراد بالتّفريق : المفارقة في الصّحبة ، لا في الحكومة .
وقال آخرون : إنّهما كانا في التّيه ، ولم يكن عذابا بالنّسبة إليهما .

في وفاة موسى وهارون

ثمّ اختلف هؤلاء في أنّهما [هل] ماتا في التّيه أو خرجا منه ؟ فقال بعضهم : إنّهما خرجا منه ، وحاربا الجبارين وقهراهم وملكا الأرض المقدّسة ^(٩) ، وقال آخرون : إنّ هارون مات في التّيه ، ثمّ مات موسى بعده بسنة ، وبقي يوشع بن نون ، وكان ابن اخت

(١) المائدة : ٢٤ / ٥ .

(٢) الوحاء : كلمة تقال للاستعجال .

(٣) في النسخة : تبهم .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٧ / ١٢٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦ .

(٥) في تفسير العياشي : يافنا .

(٦) قال العلامة المجلسي : لعلّه عليه السلام حسب الأربعين من زمان إظهار النبي ﷺ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام . راجع : بحار الأنوار ١٣ :

١٨٠ / ١٠ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٤ / ١٢٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦ .

(٨) تفسير الرازي ١١ : ٢٠١ .

(٩) تفسير الرازي ١١ : ٢٠١ .

موسى ووصيّه بعد موته ، وهو الذي فتح الأرض المقدّسة ^(١) .

عن النبي ﷺ : « أنّ موسى كليم الله مات في التّيه ، فصاح صائح من السّماء : مات موسى ، وأيّ نفس لا تموت » ^(٢) .

وعن القميّ رحمه الله : عن الباقر عليه السلام : « مات هارون قبل موسى ، وماتا جميعا في التّيه » ^(٣) .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ
مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لَتَفْقُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ (٢٧) وَ (٢٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى - بعد ذكر لجاح بني إسرائيل ، وعدم طاعتهم لموسى عليه السلام ، وابتلائهم بعذاب التّيه مع كونهم أبناء الأنبياء ، وأقرب من الموحدين في زمان النبي ﷺ إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام - بيّن أن قابيل مع كونه ابن نبيّ لصلبه ، عصى ربه ، فذهب فضله وشرفه ، بقوله : ﴿وَاتْلُ﴾ يا محمّد ، في مجمع أهل الكتاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أو المراد : على الناس ﴿نَبَأ﴾ قابيل وهابيل ﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾ أبي البشر - وعن بعض المفسّرين : أنّهما رجلان من بني إسرائيل ^(٤) - تلاوة ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ إلى الله ، بأن جعل كلّ واحد منهما له تعالى ﴿قُرْبَانًا﴾ وهدية ﴿فَتُقْبِلَ﴾ من جانب الله أحد القريّانين ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ لكونه مقرونا بالخلوص وصدق التّيه.

عن سعيد بن جبیر : نزلت نار من السّماء فاحتملت قريّان هابيل ، ورفع بها إلى الجنّة ^(٥) .

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل ، ولم تتعرّض النّار له ، لعدم خلوص نيّته ، واختياره أخسّ أمواله للقريّان.

قيل : ما كان في ذلك الوقت فقير يدفع إليه المال الذي يتقرّب به إلى الله تعالى ، فكانت النّار تنزل من السّماء فتأكله.

في قصة قابيل وهابيل

عن (الجمع) : عن الباقر عليه السلام : « أنّ حواء امرأة آدم كانت تلد في كلّ بطن غلاما

(١) تفسير الرازي ١١ : ٢٠١ .

(٢) الكافي ٣ : ١١٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ١٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٧ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٤ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٢٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٩ .

وجارية ، فولدت في أول بطن قابيل - وقيل : قابين - وتوأمته اقليما ، والبطن الثاني هابيل وتوأمته ليوذا^(١) ، فلمّا أدركوا جميعا ، أمر الله تعالى أن ينكح [آدم] قابيل اخت هابيل وهابيل اخت قابيل فرضي هابيل وأبى قابيل ؛ لأنّ اخته كانت أحسنهما ، وقال : ما أمر الله بهذا ، ولكنّ هذا من رأيك ، فأمرهما [آدم] أن يقرّبا قربانا فرضيا بذلك ، فعمد هابيل وكان صاحب ماشية فأخذ من خير غنمه زيدا ولبنا ، وكان قابيل صاحب زرع فأخذ من شرّ زرع ، ثمّ صعدا فوضعا القربانين على الجبل فأنت النار فأكلت قربان هابيل ، وتجنّبت قربان قابيل ، وكان آدم غائبا بمكة ، خرج إليها ليزور البيت بأمر ربّه ... »^(٢) .

وفي رواية عن الصادق عليه السلام ، قيل له : إنّهم يزعمون أنّ قابيل إنّما قتل هابيل لأنّهما تغايرا على اختهما ؟ فقال : « تقول هذا ، أما تستحي أن تروي هذا على نبيّ الله آدم ؟ » ف قيل : فبم قتل قابيل هابيل ؟

قال : « في الوصيّة » . ثمّ قال : « إنّ الله تعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصيّة واسم الله الأعظم إلى هابيل ، وكان قابيل أكبر [منه] ، فبلغ ذلك قابيل فغضب ، فقال : أنا أولى بالكرامة والوصيّة ، فأمرهما أن يقرّبا قربانا بوحي من الله إليه ، ففعلا فتقبّل الله قربان هابيل ، فحسده قابيل »^(٣) .

في قصة قتل هابيل

و﴿قَالَ﴾ له : بالله ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ . قيل : إنّ هابيل قال : لم ؟ قال قابيل : لأنّ الله قبل قربانك وردّ قرباني ، وتنكح اختي الحسناء ، وأنكح اختك الدميمة ، فتحدّث الناس أنّك خير مني ، ويفتخر ولدك على ولدي^(٤) .

﴿قَالَ﴾ هابيل : أمّا تقبّل قرباني فليس من ذنبي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾ القربان ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنا اتّقيت دونك ، فعدم قبول قربانك كان من قبل نفسك ، والله ﴿لَئِنْ بَسَطْتُ﴾ ومددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لَتَقْتُلَنِي﴾ حسبما أوعدني ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ وماذ ﴿يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ بل أستسلم لقضاء الله ، ولا ينقدح في قلبي قصد الإساءة إليك ، لأجل ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه إظهار غاية تقواه . قيل : كان هابيل أقوى من قابيل ، ولكن لما كان القتل للدّفاع حراما في ذلك الزّمان تحرّج عن قتله^(٥) .

ثمّ ذكر علّة اخرى للتّحرّج عن قتله بقوله : ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ من إمساكي عن قتلك ﴿أَنْ تَبُوءَ﴾ وترجع إلى الله ملايسا ﴿يَا أَيُّهَا﴾ عن ابن عباس رضی الله عنه : معناه : تحمل إثم قتلي ﴿وَأَثْمُكَ﴾ الذي ارتكبه قبل قتلي^(٦) .

(١) في المصدر : ليوذا.

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٨٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٦ / ١٢٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٧٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٠ .

(٦) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٧ .

عن الباقر عليه السلام : « من قتل مؤمنا [متعمدا] أثبت الله على قاتله جميع ذنوبه ، وبرئ المقتول منها ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ (١) .

﴿ فَتَكُونُ ﴾ بسبب قتلي ﴿ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ وملازميها أبدا ﴿ وَذَلِكَ ﴾ الخلود في النار ﴿ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ على العباد بالقتل.

قيل : إن هذا الكلام دار بينهما على وجه الوعظ والنصيحة (٢) . والتنبية على أن إثم المقتول يحمل على قاتله ، ويكون جزاء القاتل ظلما الخلود في النار.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣٠)

ومقصوده حب عدم ملابسته بالإثم لا ملابسة أخيه به ﴿ فَطَوَّعَتْ ﴾ وهونت ﴿ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ بتسويلاتها ﴿ قَتَلَ أَخِيهِ ﴾ هابيل ، ولم يؤثر فيه النصيح.

روي أن عدو الله إبليس قال لقابيل : قد تقبل قربان هابيل ، ولم يتقبل قربانك ، فإن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك (٣) .

وقيل : إن قابيل لم يدر كيف يقتل هابيل ، فتمثل له إبليس ، فأخذ طائرا أو حية ، ووضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ، وقابيل ينظر فتعلم منه ، فوضع رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصي عليه (٤) .

وفي رواية : أنه صبر حتى نام هابيل وغنمه ترعى (٥) ، فضرب رأسه بحجر ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ قيل : قتل عند جبل ثور ، وقيل : عند عقبة حراء ، وقيل : في المسجد الأعظم بالبصرة ، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ قابيل يقتله أخيه ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ في دينه ودنياه.

عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه خسر دنياه وآخرته ؛ أما الدنيا فأسخط والديه ، وبقي مذموما إلى يوم القيامة ، وأما الآخرة فهو العقاب العظيم (٦) .

في اطلاع آدم على قتل هابيل وحزنه عليه

روي أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض ، فسأله آدم عليه السلام عن أخيه ، قال : ما كنت عليه وكيفا ، فقال : بل قتلته ، ولذلك اسودّ جسدك (٨) .

وفي رواية : فانطلق آدم عليه السلام فوجد هابيل مقتولا ، فقال : لعنت من أرض كما قبلت دم

(١) عقاب الأعمال : ٢٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٦ .

(٣) إكمال الدين : ٢١٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨ .

(٤ و ٥) . تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٠ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٠ .

(٧ و ٨) . تفسير الرازي ١١ : ٢٠٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

هايبيل ، فبكى آدم على هايبل أربعين سنة ^(١) .

وفي رواية أخرى : فلعن آدم الأرض التي قبلت دم هايبل ، وأمر أن يلعن قايبل ، ونودي قايبل من السماء : لعنت كما قتلت أحاك ، ولذلك لا تشرب الأرض الدّم ، فبكى آدم على هايبل أربعين يوما وليلة ^(٢) .

وفي رواية : ومكث آدم ﷺ بعده مائة سنة لم يضحك قط ^(٣) ، فلمّا جزع عليه شكا ذلك إلى الله ، فأوحى الله إليه : يا آدم ، إنّي واهب لك ذكرا يكون خلفا من هايبل ، فولدت حوّاء غلاما زكيا مباركا ، فلمّا كان اليوم السابع ، أوحى الله إليه : يا آدم ، إن هذا الغلام هبة منّي لك ، فسمّه هبة الله ، فسمّاه هبة الله ^(٤) .

وقيل : لما هبط آدم إلى الأرض تفكّر في ما أكل فاستقاء ^(٥) ، فنبتت شجرة السمّ من قيئه ، فأكلت الحيّة ذلك السمّ ، ولذا صارت مؤذية مهلكة ، وكان [قد] بقي شيء ممّا أكل ، فلمّا غشي حوّاء حصل قايبل ، ولذا كان قاتلا باعنا للفساد في وجه الأرض ^(٦) .

روي أنّه قال طائوس اليماني لأبي جعفر ﷺ : هل تعلم أيّ يوم مات ثلث الناس ؟ فقال : « يا عبد الله ^(٧) ، لم يمّت ثلث الناس قطّ ، إنّما أردت ربع الناس » ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : « كان آدم وحوّاء وقايبل وهايبل ، [فقتل قايبل هايبل] فذلك ربع [الناس] » ، قال : صدقت ^(٨) .
أقول : هذا مناف لما دلّ على أنّ لكلّ منهما توأمه ، ومؤيّد لما دلّ على أنّ نزاعهما كان في الوصيّة.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى

أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ

النَّادِمِينَ (٣١)﴾

ثمّ قيل : إنّّه لما قتل قايبل هايبل تركه بالعراء ، ولم يدر ما يصنع به ؛ لأنّه كان أوّل ميّت على وجه الأرض من بني آدم ، فخاف عليه السّباع فحمله في جراب على ظهره أربعين يوما - أو سنة - حتى أروح ^(٩) ، وعكفت عليه الطّيور والسّباع تنظر متى يرمي به فتأكله ^(١٠) .

(١) إكمال الدين : ٢١٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨ ، وفيهما : أربعين ليلة.

(٢) تفسير القمي ١ : ١٦٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٨ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٢٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٦٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩ .

(٥) استقاء : تقيّاً.

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٠ .

(٧) في الاحتجاج : يا أبا عبد الرحمن.

(٨) الاحتجاج : ٣٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠ .

(٩) أروح ، بمعنى أنتن وظهرت ريحه.

(١٠) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ وأرسل ﴿غُرَابًا﴾ وهو ﴿يَبْحَثُ﴾ ويحفر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حفرة ﴿لِإِيرِيَهُ﴾ الله ، أو الغراب ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ ويستتر من السباع ﴿سَوْأَةً أَحِيَهُ﴾ وجيفته أو عورته ؛ لأنه كان قد سلب ثيابه .
 قيل : إنّ الله بعث غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، فحفر [له] بمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها وواراه ، وقابيل ينظر إليه ^(١) .

فلما تعلّم الدفن ﴿قَالَ﴾ تَلَهَّفاً وَتَحَسُّرًا : ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ احضري فهذا أوانك ﴿أَعَجَزْتُ﴾ مع عقلي وفطانتى ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ البهم ، ولا أهتدي إلى ما اهتدى إليه من مواراة قتيله ﴿فَأُوَارِي﴾ واستتر بالتُّراب ﴿سَوْأَةً أَحِي﴾ وجيفته ﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل إذن ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتل هابيل ، حيث صار سببا لكلفته ، لتحمله على رقبته مدّة طويلة ، وتحيره في أمره ، أو لما رأى أنّ الله أكرمه بعد موته ببعث الغراب .

قيل : إنّ الغراب حثا التُّراب على هابيل ، ومن عادة الغراب دفن الأشياء ^(٢) .
 روي أنّه لما قتل أخاه رجفت الأرض سبعة أيام بما عليها ، ثمّ شربت الأرض دم هابيل كشراب الماء ، فحرمّ الله تعالى على الأرض يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا ^(٣) .
 قيل : إنّ السباع والوحوش كانت تستأنس قبل ذلك ، فلما قتل قابيل هابيل نفروا ، فلحقت الطيور بالهواء والوحوش بالبريّة والسباع بالغياض ، واشتاك الشجر ، وتغيّرت الأطعمة وحمضت الفواكه ، وأمرّ الماء ، وأعبرت الأرض ^(٤) .

في حزن آدم على هابيل ورثائه له

ورثى آدم ﷺ هابيل وأنشأ يقول :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مَغْمُورًا قَبِيحًا
 تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ وَ قَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الصَّبِيحُ ^(٥)
 وعن ابن عباس رضی الله عنه : من قال إنّ آدم قال شعرا فقد كذب ، إنّ محمدا ﷺ والأنبياء كلّهم في التّهي عن الشّعر سواء ، ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم ، وهو سرياني ، فلما قال آدم مرثية قال لشيث : يا بني إنّك وصيّى ، احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرقّ الناس عليه ، فلم يزل ينقل حتّى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلّم بالعربيّة والسريانية ، وهو أول من خطّ بالعربيّة ، وكان يقول الشّعر ، فنظر في المرثية فردّ المقدّم إلى المؤخّر والمؤخّر إلى المقدّم ، فوزنه شعرا ، وزيد فيه أبيات ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

(٥) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ ، خزانة الأدب ١١ : ٣٧٧ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨١ .

وروي عن أنس أنه سئل النبي ﷺ عن يوم الثلاثاء ، فقال : « يوم الدّم ، فيه حاضت حوّاء ، وفيه قتل ابن آدم » (١) .

وقيل : إنّ قاييل ذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من يراه ، فأخذ بيد اخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتاه إبليس فقال له : إنّما أكلت النار قربان هابيل لأنّه كان يعبد النار ، فالتهب (٢) أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار ، وهو أوّل من عبد النار ، وكان لا يمرّ بأحد إلّا رماه ، فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له ، فقال للأعمى ابنه : هذا أبوك قاييل ، فرمى الأعمى أباه بحجارة فقتله ، فقال ابن الأعمى : قتلت أباك ، فرفع يده فلطم ابنه فمات ، فقال الأعمى : ويل لي قتلت أبي برميتي ، و [قتلت] ابني بلطمتي.

قال مجاهد : فعقلت إحدى رجلي قاييل إلى فخذهما وساقها ، وعلّقت من يومئذ إلى يوم القيامة ، وجهه إلى الشمس حيثما دارت عليه ، في الصيف حظيرة من نار [وفي الشتاء حظيرة من ثلج] (٣) .

وروي أنّه لا تقتل نفس ظلما إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها ؛ لأنّه أوّل من سنّ القتل (٤) ، وهو أبو (٥) يأجوج ومأجوج شرّ أولاد توالدوا من شرّ والد (٦) .

قيل : اتّخذ أولاد قاييل آلات اللهو ، وانهمكوا فيه وفي شرب الخمر ، وعبادة النار والزّنا والفواحش ، حتّى غرّهم الله بالطّوفان أتيام نوح ، وبقي نسل شيث (٧) .

وقيل : لما ذهب قاييل إلى اليمن كثروا وطفقوا يتحاربون مع سائر أولاد آدم إلى زمن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث ، ففرّقهم مهلائيل إلى أقطار الأرض ، وسكن هو في أرض بابل ، وكان كيومرث أخاه الصّغير ، وهو أوّل السّلاطين في العالم ، فأخذوا يبنون المدن والحصون ، واستمرّت الحرب بينهم إلى آخر الزّمان (٨) .

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٢ .

(٢) في تفسير روح البيان : فانصب .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٢ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٢٠٨ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٢ .

(٥) في النسخة والمصدر : أب .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٢ .

(٧ و ٨) . تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٢ .

ثم لما بين سبحانه غاية فضاحة أمر القتل ، وكونه موجبا لخسران الدنيا والآخرة ، ذكر أن ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الخسران المبين في قتل النفس وبعلّة هذه الفضاعة الشديدة فيه شددنا أمره في شرع موسى ، و﴿كَتَبْنَا﴾ في اللوح المحفوظ ، وفي التّوراة ، وقضينا ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وسائر أمة موسى ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة ﴿بِغَيْرِ﴾ علّة قصاص ﴿نَفْسٍ أَوْ﴾ بغير ﴿فَسَادٍ﴾ ظاهر من المقتول ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الموجب لاستحقاقه القتل وإهدار دمه ، كالشّرك والارتداد ، أو قطع الطّريق وغير ذلك من أسبابه ﴿فَكَانَ قَتْلُ عَمْدًا وَعَدَاوَانَا﴾ ﴿النَّاسِ جَمِيعًا﴾ في استحلاب غضب الله والعذاب العظيم ، لا في مقدارهما ، على ما قيل ^(١) .

ثم أنّه تعالى بعد المبالغة في تعظيم قتل النفس وإتلافها بغير حقّ ، بالغ في تأكّد وجوب حفظها عن التّلف بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بحفظها عن الهلاك والتّلف بالعفو عن القصاص ، أو منعها عن أن تقتل بغير الحقّ ، أو استنقاذها من المهالك ﴿فَكَانَ أَحْيَا النَّاسِ جَمِيعًا﴾ .

عن الصادق عليه السلام : « واد في جهنّم لو قتل النّاس جميعا كان فيه ، ولو قتل نفسا واحدة كان فيه » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « يوضع في موضع من جهنّم إليه ينتهي شدّة عذاب أهلها ، لو قتل النّاس جميعا إنّما كان يدخل ذلك المكان » ، قيل : فإن قتل آخر ؟ قال : « يضاعف [عليه] » ^(٣) . وفي رواية : « له في النّار مقعد لو قتل النّاس جميعا لم يزد على ^(٤) ذلك المقعد » ^(٥) . القمّي : قال : من أنقذها من حرق أو غرق أو هدم أو سبع ، أو كفله حتّى يستغني ، أو أخرجها من فقر إلى غنى ، وأفضل من ذلك من أخرجها من ضلال إلى هدى ^(٦) . وعنهما عليه السلام : « من أخرجها من ضلال [إلى هدى] فكأنما أحياها ، ومن أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها » ^(٧) .

وفي رواية : « فمن أخرجها من ضلال إلى هدى ، قال : ذلك تأويلها [الأعظم] » ^(٨) . وعن الصادق عليه السلام ، قال : « تأويلها الأعظم أن دعاها فاستجابت له » ^(٩) . ثم أخذ في توبيخ بني إسرائيل على سفكهم الدّماء بعد هذه التّشديدات بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٢٦٤ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٧ / ١٢٤٦ .

(٣) الكافي ٧ : ٢٧١ / ١ .

(٤) في الكافي : لم يرد إلّا إلى .

(٥) الكافي ٧ : ٢٧٢ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠ .

(٦) تفسير القمي ١ : ١٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٧ / ١٢٤٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١ ، عن الصادق عليه السلام .

(٨) الكافي ٢ : ١٦٨ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١ .

(٩) الكافي ٢ : ١٦٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١ .

لتقرير ما كتبنا عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ حسب ما أرسلناهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التأكيد والتشديد في أمر القتل ومجيء الرسل بتقريره ﴿فِي الْأَرْضِ لِمُسْرِفُونَ﴾ في القتل غير مبالين بعظمته حتى قتلوا الأنبياء.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾

ثم أنه تعالى بعد الإشارة إلى جواز قتل المفسدين ، صرح بإباحته ، بل وجوبه بقوله : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمحاربة أوليائهما من المسلمين.

عن الباقر عليه السلام : « من حمل السلاح بالليل فهو محارب إلا أن يكون رجلا ليس من أهل الرية »^(١) ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ ويمشون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لأجل أن يعملوا ﴿فَسَادًا﴾ في أموال المسلمين ، أو أنفسهم كالتهب والغارة والقتل ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ بأن تضرب أعناقهم بالسيف ؛ إن قتلوا ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ويقتلوا بالصليب ، أو يقتلوا ثم يصلبوا ؛ إن قتلوا نفسا وأخذوا مالا ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ من مفصل الأصابع الأربع ، ويترك الراحة والإبهام ﴿وَأَرْجُلُهُمْ﴾ ولكن بنحو يبقى العقب ، إن اقتصروا على أخذ المال ، ولكن لا بد أن يكون القطع ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ بأن تقطع اليد اليمنى أولا ، ثم تقطع الرجل اليسرى ثانيا ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ التي يسكنها إلى مصر آخر ؛ إن أخافوا السبيل.

ثم نبه الله سبحانه على عدم انحصار عقوبتهم بتلك العقوبات الدنيوية بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الحد المقرر في الشرع ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ وفضيحة ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مضافا إلى ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعقاب شديد لا يقادر قدره.

في غدر قوم من بني ضبة بالرسول ﷺ

عن الصادق عليه السلام : « قدم على رسول الله ﷺ قوم من بني ضبة مرضى ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أقيموا عندي فإذا برئتم بعثتكم في سرية. فقالوا : أخرجنا من المدينة ، فبعث بهم إلى إبل الصدقة يشربون من أبوالها ويأكلون من ألبانها ، فلما برئوا واشتدوا قتلوا ثلاثة ممن كانوا في الإبل وساقوا الإبل ، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فبعث إليهم عليا عليه السلام وهم في واد قد تحيروا ، ليس يقدر أن يخرجوا منه قريبا من أرض اليمن ، فأسرهم وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، فاختر رسول الله ﷺ القطع ، فقطع أيديهم وأرجلهم من

(١) الكافي ٧ : ٢٤٦ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢ .

خلاف « (١) .

وفي رواية : « أُنْزِلَتْ فِي قَوْمِ هَلَالِ بْنِ عُوَيْمِرِ الْأَسْلَمِيِّ ، وَكَانَ وَادَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يَعِينَهُ وَلَا يَعِينُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ آمِنٌ لَا يَهَاجُ ، وَمَنْ مَرَّ بِهَلَالٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [فَهُوَ آمِنٌ] لَا يَهَاجُ ، فَمَرَّ قَوْمٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَرِيدُونَ الْإِسْلَامَ بِنَاسٍ مِنْ قَوْمِ هَلَالٍ ، وَلَمْ يَكُنْ هَلَالٌ يَوْمَئِذٍ حَاضِرًا ، فَقَطَعُوا عَلَيْهِمْ وَقَتْلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ » (٢) .

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : « مِنْ شَهْرِ السَّلَاحِ فِي مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ فَعَقَرَ ؛ اقْتَصَرَ مِنْهُ وَنَفَى مِنْ تِلْكَ الْبَلَدِ ، وَمِنْ شَهْرِ السَّلَاحِ فِي غَيْرِ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَضَرَبَ وَعَقَرَ وَأَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ فَهُوَ مُحَارِبٌ ، فَجَزَاؤُهُ جِزَاءُ الْمُحَارِبِ وَأَمْرُهُ إِلَى الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَتْلُهُ ، وَ[إِنْ شَاءَ] صَلَبُهُ ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرَجْلَهُ . قَالَ : وَإِنْ ضَرَبَ وَقَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ ، فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى بِالسَّرْقَةِ ، ثُمَّ يَدْفَعُهُ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَيَتَّبِعُونَهُ بِالْمَالِ ثُمَّ يَقْتُلُونَهُ » .

قَالَ : فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَرَأَيْتَ إِنْ عَفَا عَنْهُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ ؟

قَالَ : فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنْ عَفَوْا عَنْهُ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَارَبَ وَقَتَلَ

وَسَرَقَ » .

قَالَ : فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَرَأَيْتَ إِنْ أَرَادَ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ الدِّيَّةَ وَيَدْعُونَهُ ، أَلَهُمْ ذَلِكَ ؟

قَالَ (٣) : « عَلَيْهِ الْقَتْلُ » (٤) .

وَعَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ فِي الصَّحِيحِ ، قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ

الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، [فَقُلْتُ :] أَيُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحُدُودِ الَّتِي سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ : « ذَلِكَ إِلَى

الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَطَعَ ، وَإِنْ شَاءَ نَفَى ، وَإِنْ شَاءَ صَلَبَ ، وَإِنْ شَاءَ قَتَلَ » .

قُلْتُ : النَّفْيُ إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « مِنْ مِصْرَ إِلَى مِصْرٍ آخَرَ » - وَقَالَ : - « إِنَّ عَلَيَّ نَفْيَ رَجُلَيْنِ مِنْ

الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ » (٥) .

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَدَائِنِيِّ ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ

الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الْآيَةِ ، فَمَا الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ اسْتَوْجِبَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ ؟ فَقَالَ : « إِذَا

حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ [فَسَادًا] فَقَتَلَ قَتْلًا بِهِ ، وَإِنْ قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ قَتَلَ وَصَلَبَ ، وَإِنْ

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٩ / ١٢٥٠ ، الكافي ٧ : ٢٤٥ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ٣١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٥ .

(٣) زاد في الكافي : فقال : لا .

(٤) الكافي ٧ : ٢٤٨ / ١٢ .

(٥) الكافي ٧ : ٢٤٥ / ٣ .

أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ، وإن شهر السيف وحارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ولم يقتل ولم يأخذ المال نفي من الأرض» (١) .

وعن أحمد بن الفضل الخاقاني من آل رزين ، قال : قطع الطريق بجلولاء على السابلة من الحاج وغيرهم ، وافلت القطاع - إلى أن قال : - وطلبهم العامل حتى ظفر بهم ، ثم كتب بذلك إلى المعتصم ، فجمع الفقهاء وابن أبي دؤاد ، ثم سأل الآخرين عن الحكم فيهم ، وأبو جعفر محمد بن عليّ الرضا عليه السلام حاضر ، فقالوا : قد سبق حكم الله فيهم في قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ ولأمر المؤمنين أن يحكم بأيّ ذلك شاء فيهم .

قال : فالتفت إلى أبي جعفر وقال : [ما تقول فيما أجابوا فيه ؟ فقال : « قد تكلم هؤلاء الفقهاء والقاضي بما سمع أمير المؤمنين » قال : و] أخبرني بما عندك ؟ قال : « إنهم قد أضلّوا في ما أفتوا به ، والذي يجب في ذلك أن ينظر أمير المؤمنين في هؤلاء الذين قطعوا الطريق ، فإن كانوا أخافوا السبيل فقط ولم يقتلوا أحداً ولم يأخذوا مالا ، أمر بإيداعهم الحبس ، فإن ذلك معنى نفيتهم من الأرض بإخافتهم السبيل ، وإن كانوا أخافوا السبيل وقتلوا النفس أمر بقتلهم ، وإن كانوا أخافوا السبيل وقتلوا النفس وأخذوا المال ، أمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم بعد ذلك » . فكتب إلى العامل بأن يمثل ذلك فيهم (٢) .

أقول : الظاهر أنّ هذا التفصيل هو المراد من خبر بريد بن معاوية ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال : « ذلك إلى الإمام يفعل ما يشاء » . قلت : فمفوّض ذلك إليه ؟ قال : « لا ، ولكن نحو الجنابة » (٣) . وفي رواية : « ولكن بحق الجنابة » (٤) . وفي أخرى : « ولكنّه يصنع [بهم] على قدر جناياتهم » (٥) .

ثم أنّه اختلف الأصحاب وغيرهم لاختلاف الأخبار ، فمنهم من قال بالتخيير لصحة أخباره ، وموافقتها لظاهر الكتاب الكريم ، وضعف أخبار الترتيب ، ومنهم من قال بالترتيب لاستفاضة رواياته ، وانجبارها بالشهرة والإجماع المنقولين ، وموافقتها الاعتبار ، ومخالفتها لأكثر العامة ، كما تومئ إليه بعض النصوص .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٤٢ / ١٢٥٨ ، الكافي ٧ : ٢٤٦ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٩ / ١٢٥١ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٤١ / ١٢٥٢ ، الكافي ٧ : ٢٤٦ / ٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤١ / ١٢٥٢ .

(٥) الكافي ٧ : ٢٤٧ / ١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢ .

في الجمع بين أخبار حدّ المحارب

ويمكن الجمع بين الأخبار بحمل أخبار الترتيب على رجحان رعاية قدر الجناية ، وصلاح الوقت ، وخصوصيات حال الجاني ، وغير ذلك من المرجحات ، كما دلّ عليه الخبر الوارد في شأن النزول من قوله **عَلَيْهِ** : « فاختار الرسول القطع » ^(١) .

واختلاف الأخبار في كيفية الترتيب ، وإن اتفقت على تعيين التقي للإخافة المجردة عن القتل وأخذ المال ، وإن اختلفت في المراد من التقي ، ففي بعضها فسّر بالإيداع في الحبس ، وفي آخر بالغرق في البحر ، ولكن المشهور فتوى ونصّه هو التقي من مصر إلى مصر ، ويمكن حمل الأوّل على من لا يؤمن فساد به بتبعيده إلى أرض أخرى .

ثم لا فرق في الحكم بين الذكر والأنثى إذا تحققت الإخافة ، وتجرّد السلاح بقصدها ، بل قال بعض بعدم اعتبار تحقّق الإخافة ، كما إذا كان من جرد السلاح ضعيفا في الأنظار ، تمسكا بإطلاق الأدلة ، كإطلاقها لما إذا كان في برّ أو بحر ، أو مصر ، أو ليل أو نهار .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾

ثم استثنى سبحانه من عموم الحكم بالجزاء التائبين بقوله : **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾** إلى الله من محاربه وإخافته المؤمنين وإفساده في الأرض **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَقْدِرُوا﴾** وتستولوا **﴿عَلَيْهِمْ﴾** فإنه يسقط عنه الحدّ الذي هو حقّ الله دون حقوق الناس من الضمان والقصاص للإشعار به بقوله : **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وعدم ثبوت مخصّص لأدلة القصاص والضمان .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ (٣٥)﴾

ثم لما كان الداعي إلى محاربة المؤمنين والسعي في الفساد حبّ المال والمنافع الدنيوية ، أرشد الناس بعد زجرهم عنه إلى عمل فيه جميع الخيرات الدنيوية والاخروية بقوله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** إن كنتم تطلبون خير الدنيا ونفعها ، فلا تطلبوه بالإفساد في الأرض وقطع الطرق ، بل **﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾** واحترزوا عن مخالفة أحكامه **﴿وَابْتَغُوا﴾** لأنفسكم **﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** واطلبوا القربة منه بالأعمال الصالحة والانقياد والطاعة .

(١) الكافي ٧ : ٢٤٥ / ١ ، تفسير العياشي ٢ : ٣٩ / ١٢٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١ .

القَمِّي : « تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْإِمَامِ » (١) .

ثم حصَّ الجهاد بالذكر بقوله : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ لغاية الاهتمام به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ وتفوزون بخير الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٦)

ثم أشار سبحانه إلى أنَّ المال لا ينفع صاحبه في الآخرة مع الكفر والعصيان ، بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من أموالها وخزائنها وزخارفها ﴿ جَمِيعًا ﴾ وكلاً ﴿ وَمِثْلَهُ ﴾ وضعفه ﴿ مَعَهُ ﴾ فرضاً ، ثم جاءوا بذلك ﴿ لَيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ أنفسهم ويخلصوها ﴿ مِنْ ﴾ ﴿ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وعقوبات عقائدهم الفاسدة وأعمالهم السيئة ﴿ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ﴾ تلك الفدية ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يخلص ألمه إلى قلوبهم .

قيل : إنَّ الجملة تمثيل [للزوم العذاب لهم و] استحالة نجاتهم من العذاب بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة (٢) .

عن النبي ﷺ : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أ رأيت لو كان [لك] ملء الأرض ذهباً ، أ كنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : إنك كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك » (٣) .
عن العياشي عنهما ﷺ : « أتهم أعداء عليّ ﷺ » (٤) .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٣٧)

ثم أكد سبحانه امتناع خلاصهم بقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ويتمنون الخلاص منها ، قيل : إذا رفعهم لهب النار إلى فوق فهناك يتمنون الخروج ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ ﴾ وناجين ﴿ مِنْهَا ﴾ ومن شذائدها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ ثابت عليهم لا يزول أبداً . وفي تخصيص الخلود في النار بالكفار دلالة على عدم الخلود للعصاة من أهل الإيمان .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

(١) تفسير القمي ١ : ١٦٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٩ .

(٣) تفسير الرازي ١١ : ٢٢١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٨٩ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤٣ / ١٢٦٠ و ١٢٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣ .

في بيان حدّ السارق

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حدّ من أخذ أموال النَّاس بالحارّة وقطع الطّريق ، بيّن حدّ أخذ أموالهم خفية بقوله : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ حدّهما الثّابت في الكتاب أنّه إذا قدرتم عليهما ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ .
سئل الصادق عليه السلام ، في كم يقطع السّارق ؟ قال : « في ربع دينار ، بلغ الدّينار ما بلغ » ، قيل : أ رأيت من سرق أقلّ من ربع دينار ، هل يقع عليه حين سرق اسم السّارق ، وهل هو عند الله سارق في تلك الحال ؟ فقال : « كلّ من سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحرزه ، فهو يقع عليه اسم السّارق ، و [هو] عند الله سارق ، ولكن لا يقطع إلّا في ربع دينار أو أكثر ، ولو قطعت أيدي السّارق في ما هو أقلّ من ربع دينار لألفيت عامّة النَّاس مقطعين » ^(١) .
وعنه عليه السلام : « القطع من وسط الكفّ ، ولا يقطع الإبهام » ^(٢) .
وفي رواية : « يقطع أربع أصابع ويترك الإبهام ، يعتمد عليها في الصلاة ويغسل بها وجهه [للصلاة] » ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه كان إذا قطع السّارق ترك له الإبهام والرّاحة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، تركت عامّة يده ؟ فقال : « فإن تاب فبأيّ شيء يتوضّأ ، يقول الله ﴿فَمَنْ تَاب...﴾ » ^(٤) الخبر .
ثمّ علّل الحكم بقطع اليد بقوله : ﴿جَزَاءً﴾ من الله لهما ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ من الخيانة ومكافأة لهما على ما فعلا من السرقة ، و ﴿نَكَالاً﴾ وعقوبة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ رادعة لهما عن العود ، ولغيرهما من الجرأة على مثل عملهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره ، يمضيه كيف يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرائعه يحكم بما يقتضيه الصّلاح .

في الاستدلال على وجوب نصب الامام

ثمّ اعلم أنّ المتكلّمين استدلّوا بالآية على وجوب نصب الإمام ، بتقريب أنّها دالّة على وجوب إقامة الحدّ ، وقد أجمعت الامة على أنّها للإمام خاصّة دون الرعيّة ، فوجب وجود الإمام ، وإلّا يلزم وجود التّكليف والخطاب بدون المكلّف والمخاطب ؛ وهو محال إنّما الاختلاف بيننا وبين العامّة في أنّ نصب الإمام هل هو واجب على الرعيّة ، أو على الله ؟ والعامّة قائلون بالأوّل ، والخاصّة بالثّاني ، لاشتراطها عندهم بشرائط لا يطّلع عليها

(١) الكافي ٧ : ٢٢١ / ٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٣ .

(٢) الكافي ٧ : ٢٢٢ / ٢ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٤ .

(٣) الكافي ٧ : ٢٢٥ / ١٧ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٤ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤٤ / ١٢٦٣ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٤ .

إلا الله ، ولأنها عهد الله كما قال سبحانه : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) . ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون بيد غيره تعالى حتى النبي.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾

ثم أنه بعد إظهار الغضب على السارق بحكمه بقطع يده ، أعلن بسعة رحمته بقوله : ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ من السرقة إلى الله وندم من فعله الشنيع ﴿مَنْ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ على نفسه بالمعصية ، وعلى غيره بسرقة ماله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نيتته في التوبة ، وعمله بردّ المال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ بسعة رحمته ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويعفو عنه ، فلا يعذبه بالقطع في الدنيا والنار في الآخرة إذا كانت توبته قبل الظفر ، وبالنار فقط إن كانت بعده ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالتائبين من المؤمنين.

في (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام ، في رجل سرق أو شرب الخمر أو زنى ، فلم يعلم ذلك منه ، ولم يؤخذ حتى تاب واصلح ، [فقال : « إذا صلح] وعرف منه أمر جميل لم يقم عليه الحد »^(٢) . وعن الصادق عليه السلام : « من أخذ سارقاً فعفا عنه فذاك له ، فإذا رفع إلى الإمام قطعه ، فإن قال الذي سرق منه : أنا أهب له ؛ لم يدعه الإمام حتى يقطعه إذا رفعه إليه ، وأما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام ، وذلك قول الله : ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾^(٣) ، فإذا انتهى الحد إلى الإمام فليس لأحد أن يتركه »^(٤) .

وعنه عليه السلام ، أنه سئل عن الرجل يأخذ اللصّ يرفعه أو يتركه ؟ فقال : « إن صفوان بن أمية كان مضطجعا في المسجد الحرام ، فوضع رداءه وخرج يهريق الماء ، فوجد رداءه قد سرق حين رجع إليه ، فقال : من ذهب بردائي ؟ فذهب يطلبه ، فأخذ صاحبه فرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقال [النبي] : اقطعوا يده ، فقال صفوان : تقطع يده من أجل ردائي يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فأبني أهبه له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فهلا كان هذا قبل أن ترفعه إليّ » قيل : فالإمام بمنزلة إذا رفع إليه ؟ قال : « نعم »^(٥) .

أقول : لأجل تلك الروايات ذهب أصحابنا إلى اشتراط القطع بمطالبة المسروق منه ، ورفع السارق إلى الإمام ، فإن عفا عنه قبل الترفع سقط الحد . وقد ادّعى بعض الأصحاب عدم الخلاف فيه .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

(١) البقرة : ٢ / ١٢٤ .

(٢) الكافي ٧ : ٢٥٠ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥ .

(٣) التوبة : ٩ / ١١٢ .

(٤) الكافي ٧ : ٢٥١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥ .

(٥) الكافي ٧ : ٢٥١ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥ .

ثم لما أوجب الله تعالى قطع يد السارق للمال وإن كان قليلا ، ووعده بالمغفرة إذا تاب ، عرّف ذاته المقدّسة بالسلطنة التامة المطلقة ، بقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة على جميع الموجودات ، إذن ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه بحكمته ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ غفرانه برحمته [سواء أ] كان الذنب صغيرا أو كبيرا ، لا يسئل عما يفعل .
ثم قرّر قدرته غير المتناهية بقوله : إن ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والمغفرة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه مانع عن إنفاذ إرادته ، ولا يدفعه دافع عن إمضاء مشيئته .

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)﴾

ثم أنّه تعالى - بعد إثبات نبوة نبيه ﷺ بالأخبار الغيبية من قصّة مخالفة بني إسرائيل أمر موسى ﷺ بالجهاد مع العمالقة وابتلائهم بالتيه ، وقصّة قابيل وهابيل ابني آدم ، الموافقتين لما في الكتب السماوية ، مع كونه ﷺ أميا ، وبالأحكام المحكمة الموافقة للعقول السليمة ، وكان الكل أدلة على صدق نبوته ، ومع ذلك كان المنافقون واليهود مبالغين في إنكار رسالته والإخلال في أمره - سلّى قلب حبيبه بعد خطابه بالتشريف والتعظيم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ﴾ صنع ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ويبادرون إلى إنكار رسالتك بعد تماميّة الحجّة ووضوح صدقك ﴿مِنَ﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا﴾ بك ، ولكن ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألسنتهم ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿لَمْ تُؤْمِنْ﴾ بك ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ وأفئدتهم ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ واتبعوا دين اليهودية ، هم ﴿سَمَّاعُونَ﴾ ومبالغون في القبول ﴿لِلْكَذِبِ﴾ والفرية من علمائهم وأخبارهم .
وقيل : إنّ المراد أنّهم مبالغون في سماع أخبارك وأحاديثك ليكذبوا عليك بالزيادة والتقص والتغيير^(١) .
قيل : إنّهم كانوا يسمعون من الرسول ، ثم يخرجون ويقولون : سمعنا منه كذا وكذا ؛ مع أنّهم لم

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٣ .

يسمعوا ذلك منه ^(١) .

ومع ذلك هم ﴿سَمَاعُونَ﴾ ومبالغون في القبول ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ من اليهود الذين ﴿لَمْ يَأْتُواكَ﴾ ولم يحضروا عندك تكبرا وإفراطا في البغضاء.

قيل : (سَمَاعُونَ) بنو قريظة ، و (قوم آخريين) يهود خيبر ^(٢) .

وهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التّوراة ، ويزيلونه عن مواضعه ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ أنّ الله وضعه في ﴿مَوَاضِعِهِ﴾ ثم القوم الآخرون المحرفون ﴿يَقُولُونَ﴾ لعوامهم وأتباعهم السماعين لهم عند إلقائهم الأقاويل الباطلة والكلمات المحرفة إليهم : ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ من قبل محمد ﴿هَذَا﴾ القول الذي قلنا لكم ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوا منه ، واعملوا بمقتضاه لأنّه الحقّ ، مع كونه باطلا محرفا ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل اوتيتم غيره ﴿فَاخْذَرُوا﴾ وامتنعوا عن قبوله.

قيل : سبب نزول الآية ما مرّ من حكم النّبيّ بالرحم ، وحكومة ابن صوريا فيه ^(٣) .

وعن القسّي رحمه الله : كان سبب نزولها أنّه كان في المدينة بطنان من اليهود من بني هارون ؛ وهم النّضير وقريظة ، وكانت قريظة سبعمائة ، والنّضير ألفا ، وكانت النّضير أكثر مالا وأحسن حالا من قريظة ، وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبيّ ، فكان إذا وقع بين قريظة والنّضير قتل ، وكان القتل ^(٤) من بني النّضير قالوا لبني قريظة : لا نرضى أن يكون قتل منّا بقتل منكم ؛ فجرى بينهم في ذلك مخاطبات كثيرة ، حتّى كادوا أن يقتتلوا ، حتّى رضيت قريظة وكتبوا بينهم كتابا على أنّه أيّ رجل من النّضير قتل رجلا من بني قريظة أن يجنّب ويحمّم ^(٥) ، والتّجنّب أن يقعد على جمل ، ويولى وجهه إلى ذنب الجمل ، ويلطّخ وجهه بالحمأة ^(٦) ، ويدفع نصف الدّية ، وأيّما رجل من قريظة قتل رجلا من النّضير أن يدفع إليه الدّية كاملة ، ويقتل به.

فلما هاجر رسول الله ﷺ [إلى المدينة] ، ودخل الأوس والخزرج في الإسلام ، ضعف أمر اليهود ، فقتل رجل من بني قريظة رجلا من بني النّضير ، فبعث إليهم بنو النّضير أن ابعثوا إلينا دية المقتول وبالقاتل حتّى نقتله ، فقالت قريظة : ليس هذا حكم التّوراة ، وإيّما هو شيء غلبتمونا عليه ، فأما الدّية وأما القتل ، وإلّا فهذا محمد بيننا وبينكم ، فهلّمّوا وتحاكموا إليه.

فمشت بنو النّضير إلى عبد الله بن أبيّ فقالوا : سل محمّدا أن لا ينقض شرطنا في هذا الحكم الذي

(١ و ٢) . تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٣ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٢٩٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢ .

(٤) في المصادر : وكان القاتل .

(٥) يجنّب : يبعد ، ويحمّم : يسود وجهه بالفحم .

(٦) الحمأة : الطين الأسود .

بيننا وبين بني قريظة في القتل ، فقال عبد الله بن أبيّ : ابعثوا [معي] رجلا يسمع كلامي وكلامه ، فإن حكم لكم بما تريدون وإلا فلا ترضوا به ، فبعثوا معه رجلا ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنّ هؤلاء القوم ، قريظة والنضير ، قد كتبوا كتابا بينهم وعهدا وثيقا تراضوا به ، والآن في قدومك يريدون نقضه ، وقد رضوا بحكمك فيهم ، فلا تنقض كتابهم وشرطهم ، فإنّ [بني] النضير لهم القوة والسلاح والكراع ^(١) ، ونحن نخاف ^(٢) الدوائر ، فاعتم رسول الله ﷺ من ذلك ولم يجبه بشيء ، فنزل عليه جبرئيل بهذه الآيات ﴿... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ يعني : عبد الله بن أبيّ ، وبني النضير ، ﴿وَأِنْ لَّمْ تُوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يعني : عبد الله [بن أبيّ] ، قال لبني النضير : إن لم يحكم [لكم] بما تريدونه فلا تقبلوا ^(٣) .

ثم لما بيّن الله عزّ وجلّ فضائح اليهود والمنافقين كعبد الله بن أبيّ ، تبه على عدم إمكان علاج مرض كفرهم ، بقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ بالإرادة التكوينية ﴿فَيَنْتَنَّهُ﴾ وابتلاءه بالكفر والضلال ، أو فضيخته بالكفر ، أو تعذيبه ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ﴾ ولن تستطيع ﴿لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ في دفعها ﴿شَيْئاً﴾ يسيرا ، إذن فاعلم أن ﴿أُولَئِكَ﴾ اليهود والمنافقين هم ﴿الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من الزّيف والزّين والطّبع والضّيق ، ولذا ثبت ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وذلة ، بضرب الجزية على اليهود منهم ، وإجلاء بني النضير ، وإظهار كذبهم وكتماهم للحقّ ، وتفضيح المنافقين بإظهار كفرهم ، وحذلائهم بين المؤمنين ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿عَذَابٌ﴾ بالنار ﴿عَظِيمٌ﴾ بالخلود فيها.

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ

وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾

ثم بالغ سبحانه في ذمهم وتقريعهم بقوله : ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والمال الحرام. وإتّما ذمهم بالوصفين لتوعّلهم فيهما.

قيل : كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلا في دعواه برشوة ، سمع كلامه ولا يلتفت إلى خصمه ، وكان يسمع الكذب ويأكل السحت ^(٤) .

وقيل : كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهوديّة ، فالفقراء

كانوا

(١) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٢) زاد في المصدر : الغوائل و .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٦٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦ .

(٤) تفسير الرازي ١١ : ٢٣٥ .

يسمعون أكاذيب الأغنياء ، ويأكلون السّحت الذي يأخذونه منهم ^(١) .

وقيل : كانوا سمّاعون للكذب الذي ينسبونه إلى التّوراة ، أكّالون للرّبا ^(٢) .

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، في قوله تعالى : ﴿ أَكْأَلُونَ لِلنَّحْتِ ﴾ قال : « هو الرّجل يقضي لأخيه الحاجة [ثمّ] يقبل هديّته » ^(٣) .

وفي رواية عن الباقر عليه السلام : « السّحت أنواع كثيرة ؛ منها : اجور الفواجر ^(٤) ، وثن الخمر والنّبيذ المسكر ، والرّبا بعد البيّنة ، وأما الرّشا في الحكم فإنّه كفر بالله العظيم وبرسوله » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « السّحت ثمن الميتة ، وثن الكلب ، وثن الخمر ، ومهر البغيّ ، وأجر الكاهن ، والرّشوة » ^(٦) .

ثمّ لما كان سبب نزول الآية السابقة محاكمة اليهود عند الرّسول ﷺ في أمر القتل ، أو حدّ زنا المحصن ، خيّر الله تعالى في الحكم بينهم ، بقوله : ﴿ فَإِنْ جَاؤُكَ ﴾ متحاكمين إليك في ما شجر بينهم من الخصومات ﴿ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ بما هو الحقّ عند الله ﴿ أَوْ أَعْرِضْ ﴾ وتولّ ﴿ عَنْهُمْ ﴾ ولا تلتفت إليهم .

ثمّ أمّنه الله سبحانه - إثر التّخيير - من الضّرر على الحاليين بقوله : ﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تقبل الحكومة بينهم ﴿ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ يسيرا من الضّرر بسبب إعراضك عنهم وعدم اعتنائك بهم ، وإن زادت معاداتهم فالله عاصمك ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ ﴾ وقبلت الفصل بينهم ﴿ فَأَحْكُمْ ﴾ واقض ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بحكم وقضاء ملايس ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ والعدل الذي امرت به ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ في الحكم ، العادلين في القضاء ؛ فيحفظهم من كلّ سوء ومكروه ، ويكرمهم بالقرب إليه .

في الحديث : « المقسطون عند الله على منابر من نور » ^(٧) .

عن الباقر عليه السلام : « إنّ الحاكم إذا أتاه أهل التّوراة و [أهل] الإنجيل يتحاكمون إليه ، كان ذلك إليه إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء تركهم » ^(٨) .

في أن الحاكم منخّير في الحكم بين أهل الكتاب إذا كان المخاضمان أهل ملّة واحدة

أقول : حكي اتفاق أصحابنا على تخيير الحاكم في الصّورة إذا كان الخصمان أهل ملّة واحدة ، وأمّا إذا كان أحدهما مسلما ؛ فلا يجوز ردّ الحكم فيه إلى أهل الدّمة . وإنّما الخلاف فيما إذا كانا ذمّيّين من أهل ملّتين كاليهودي والنّصراني . والأقوى تحتم

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١١ : ٢٣٥ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٨ / ١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨ .

(٤) في النسخة : الفواجر .

(٥) الكافي ٥ : ١٢٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧ .

(٦) الكافي ٥ : ١٢٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧ .

(٧) تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٥ .

(٨) التهذيب ٦ : ٣٠٠ / ٨٣٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨ .

الحكم بينهما بمذهب الإسلام ، لعمومات وجوب الحكم والقضاء بالحق ، وبما أنزل الله ، ولم يثبت التخصيص إلا فيما [إذا] كانا من أهل ملّة واحدة ، ويؤيده أن [في] الرّدّ إلى إحدى الملتين إثارة الفتنة .
وقيل : إنّ التّخيير منسوخ بقوله : ﴿وَأَن اِحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾^(١) ؛ وهو مروى عن ابن عبّاس رضى الله عنه^(٢) ، قال : ما نسخ من المائدة غير هذه الآية ، وغير قوله تعالى : ﴿لَا تُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾^(٣) ، نسخها قوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) .

﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

ثم وبّخ الله سبحانه اليهود على إعراضهم عن التّوراة التي يعتقدون أنّهم مؤمنون بها ، وتحكيمهم من لا يؤمن به ، باستفهام فيه تعجيب للنبي ﷺ بقوله : ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ ويرضون هؤلاء اليهود بقضائك بينهم ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ﴾ ﴿عِنْدَهُمْ﴾ وفي منظرهم ﴿التَّوْرَةَ﴾ التي تغنيهم عن حكمك ، إذ ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ صريحا في موضوع تشاجرهم في أمر القصاص والدية ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التحكيم والرضا بقضائك ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ المتحاكمون إليك ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بشيء من التّوراة ولا بحكمك لإعراضهم عنها وعنه ، بل غرضهم اتّباع الهوى ، وتحصيل مصالح الدّنيا .

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)

ثم بالغ سبحانه في ذمهم وتقريعهم على إعراضهم عن التّوراة ببيان عظم شأنها بقوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ إلى بني إسرائيل ، والحال أنّ ما ﴿فِيهَا هُدًى﴾ من الضّلال ، ورشاد إلى الحق ، وبيان لكلّ حكم ، ﴿و﴾ فيها ﴿نُورٌ﴾ ترتفع به ظلمة الجهل ، وتزول به كدورة الشكّ ، وقد كانت من أوّل نزولها ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وانقادوا لله ولأحكامه ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ واتبعوا شريعة موسى

(١) المائدة : ٥ / ٤٩ .

(٢) تفسير الرازي ١١ : ٢٣٥ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٣٩ .

(٣) المائدة : ٥ / ٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ : ٣٩ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٥ .

من بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أيضا كانوا يحكمون به ، وكان اهتمامهم ببعث الناس إلى العمل بما ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ وبسبب كونهم موكلين على وقايتهم من التحريف والتغيير والضّياع والإهمال ، حسب ما وصّاهم الله به ﴿وَكَانُوا﴾ جميعا لشدة اهتمامهم بحفظه كلّ زمان ﴿عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ بين الناس يشهدون بصدقه ونزوله من الله. أو المراد : أنّهم عليه رقباء يراقبون على أن لا يغيّر ولا يضيّع.

عن الصادق عليه السلام : « الرّبانّيون : هم الأئمة دون الأنبياء الذين يرون الناس بعلمهم ، والأحبار : هم العلماء الرّبانّيون - قال : - ثم أخبر عنهم فقال : ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ ولم يقل : بما حملوا منه » (١) .

وعن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « فينا نزلت » (٢) .

ثم أنّه تعالى بعد بيان قيام النّبيين والرّبانّيين والأحبار بحفظ التّوراة والاهتمام بإمضاء أحكامها من غير مبالاة ، خاطب اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ وحرّضهم وحرّض رؤساءهم وأحبارهم بالافتداء بمن قبلهم من الأنبياء ، واتباعهم في عدم المبالاة من أحد في حفظ التّوراة وإمضاء أحكامها ؛ بقوله : ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾ [سواء أ] كانوا ملوكا أو غير ملوك ، على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم ، في أن تحكموا بحكم التّوراة في الرّجم والقتل وغيرهما ، وإياكم أن تحرفوا كتاب الله بإسقاط الحدّ الواجب والتساوي في الدية والقصاص ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ وخافوا من عقابي على تغيير كتابي والحكم بغير الحقّ.

ثمّ بعد الردع عن داعي الرّهبة الذي هو أقوى الدّواعي ، ردع عن داعي الرّغبة بقوله : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ وأحكام كتابي ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضا ﴿قَلِيلًا﴾ من الرّشوة والجاه وسائر الحظوظ الدّنيويّة.

ثمّ هدّد المغيّرين لكتابه ، الحاكمين بغير أحكامه بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الأحكام ، مستهينا بها ، رادّا لها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنكرون له بقلوبهم ، التّاركون له بأعمالهم ﴿هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وبكتابه حقّا ، الخالدون في النّار أبدا.

عن (الكافي) : عن النبي ﷺ : « من حكم في درهمين بحكم جور ؛ ثمّ جبر عليه ، كان من أهل هذه

(١) تفسير العياشي ٢ : ٥١ / ١٢٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٥٠ / ١٢٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩ .

الآية « (١) » .

وعنهما ﷺ : « من حكم في درهمين بغير ما أنزل الله ، ممن له سوط أو عصا ؛ فهو كافر بما أنزل الله على محمد » (٢) .

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

ثم أخبر الله بما في التوراة من حكم القصاص والمساواة فيه بين الوضع والشريف بقوله : ﴿وَكُتِبْنَا﴾ وأثبتنا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ بالصراحة ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ القاتلة تقاد ﴿بِالنَّفْسِ﴾ المقتولة بغير حق مطلقا ، من غير فرق بين الوضع والشريف ، والقوي والضعيف ، والصغير والكبير ، ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تفقا ﴿بِالْعَيْنِ﴾ إذا فقت بغير حق ﴿وَالْأَنْفَ﴾ يجذم ﴿بِالْأَنْفِ﴾ إذا جذم بغير حق ، ﴿وَالْأُذُنَ﴾ تقطع ﴿بِالْأُذُنِ﴾ المقطوعة بغير حق ، ﴿وَالسِّنَّ﴾ تقلع ﴿بِالسِّنِّ﴾ المقطوعة بغير حق ، ﴿وَالْجُرُوحَ﴾ كلها إذا عرف حد فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ معين ، ومجازاة بالمثل إذا أمكنت المساواة ، وأما إذا لم يمكن المساواة والقصاص بالمثل غالبا ؛ كالجائفة ونحوها ، ففيها الدية أو الحكومة .

ثم حث سبحانه المجني عليه بالعفو عن القصاص بقوله : ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ على الجاني ، وعفا عنه القصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ ومأخية للذنوب ﴿لَهُ﴾ .

في الحديث : « من أصيب بشيء من جسده فتركه لله ، كان كفارة له » (٣) .

وروي أنه « ثلاث من جاء بهن يوم القيامة مع الإيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء ، وتزوج من الحور العين حيث شاء : من عفا عن قاتله ، ومن قرأ دبر كل صلاة مكتوبة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحد عشر مرّات (٤) ، و [من] أدّى دينه خفيا » (٥) .

وقيل : إن ضمير (له) راجع إلى الجاني ، والمراد : أنه إذا عفا المجني عليه عن الجاني فعفوه كفارة لذنوب الجاني ، فلا يؤخذ به في الآخرة ، كما أن القصاص كفارة ، وأما أجر العافي فعلى الله (٦) .

ثم أنه تعالى بعد بيان حكم القصاص واستحباب العفو ، هدّد على مخالفة أحكامه بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من حكم القصاص وغيره ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المخالفون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على

(١) الكافي ٧ : ٤٠٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩ .

(٢) الكافي ٧ : ٤٠٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٨ .

(٤) كذا في النسخة وتفسير روح البيان .

(٥ و ٦) . تفسير روح البيان ٢ : ٣٩٨ .

أنفسهم بابتلائها بالعقاب الدائم ، أو الظالمون على المحيّي عليه.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)﴾

ثم لما ذكر الله سبحانه أنّ التّبيين والرّسالتين والأخبار كانوا يحكمون بحكم التّوراة ، ذكر أنّ عيسى
عليه السلام مع كونه صاحب شرع وكتاب ، مصدّق للتّوراة أيضا ، بقوله : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم﴾ وأتبعناهم في
الإسلام والانقياد لحكم الله ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وجئنا به بعدهم رسولا ، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾ نزل
﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقبل بعثته ﴿مِّنْ﴾ كتاب ﴿التَّوْرَةِ﴾ وشاهدا على أنّها من الله ، ومعتزفا بصدقها ﴿وَأَتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ﴾ الذي يكون ﴿فِيهِ هُدًى﴾ للحق ، وإرشادا إلى تنزيه الله من الصّاحبة والولد والمثل ، وإلى جميع
المعارف الحقّة الإلهيّة ، ﴿وَفِيهِ نُورٌ﴾ ينكشف به سبيل السلوك إلى الله من الأحكام والآداب
والأخلاق ، ﴿وَفِيهِ يَكُونُ مُصَدِّقًا﴾ وموافقا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ في العلوم والمعارف ، ﴿وَفِيهِ
يَكُونُ هُدًى﴾ ورشادا إلى نبوة محمد ﷺ - كما قيل - ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ونصحا وزجرا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم
المنتفعون به.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾

في بيان أن القرآن حافظ الكتب السماوية

ثم أنّه تعالى بعد إخباره بأنّ في الإنجيل هدى إلى نبوة محمد ﷺ ، أمر التّصارى بالالتزام بجميع ما
فيه بقوله : ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ البتة ﴿أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾ والمؤمنون به ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من الأحكام ، والبشارة
ببعثه رسول اسمه أحمد ، ولازم ذلك هو الالتزام بنسخ ما أخبر النبيّ بنسخه.
ثمّ هدّد على ترك الالتزام به بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾ ولم يلتزم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فيه ، ولم يحمل
النّاس عليه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله وحدود العقل.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ
فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا
مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

ثمّ بعد بيان فضائل الكتابين ، شرع سبحانه في ذكر فضائل القرآن بقوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ السماوي ؛ وهو القرآن العظيم ، حال كونه ملايساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومقرّونا بشواهد الصدق و﴿مُصَدِّقاً﴾ وموافقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما أنزل قبله ﴿مِّنْ﴾ جنس ﴿الْكِتَابِ﴾ السماوي ﴿وَمُهِيمًا﴾ وشاهداً ﴿عَلَيْهِ﴾ دالا على صدقه ، أو حافظاً له ، لكون القرآن معجزة باقية دون سائر الكتب ، ومصوناً من التّغيير والتّحريف أبد الدّهر ، وليس على صدق سائر الكتب ، دليل لعدم احتمال واحد منها على الإعجاز ، وانقطاع تواترها ، ولو لا القرآن وصراحته بصدقها ، لا طريق لأحد إلى تصديقها ، فما دام بقاء القرآن تبقى الحجّة على صدق سائر الكتب.

ثمّ لما ذكر فضائل القرآن ، أمر النبيّ ﷺ بالعمل به ، وإجراء ما فيه من الأحكام بقوله : ﴿فَأَحْكُمْ﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وعند مشاجراتهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك فيه من الأحكام ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا تراع مشتبهات أنفسهم ، ولا تعدل ؛ خوفاً من ضررهم وطمعاً في إيمانهم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وما تبين لك من الحكم ، إلى غيره.

ففيه سدّ باب احتمال تغيير حكم الله على النبيّ وسائر الناس لمصلحة دفع الضرر عن النّفس أو عن الإسلام ، أو ملاحظة أنّ تغيير الحكم أدخل في الهداية إلى الحقّ. فظهر ممّا ذكرنا أنّه لا يجوز التمسك بهذه الآية في الطّعن بعصمة الأنبياء بعد دلالة الأدلّة القاطعة على عصمتهم.

وقيل : إنّ الخطاب للنبيّ ﷺ ، والمقصود به غيره ^(١) ، من باب إيتاك أعني واسمعي يا جارة. روي أنّ جماعة من اليهود قالوا : تعالوا نذهب إلى محمد لعنّا نفثته عن دينه ، ثمّ دخلوا عليه وقالوا : يا محمد ، قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم ، وأنّا إن اتّبعتك اتبعك كلّ اليهود ، وأنّ بيننا وبين خصوصنا حكومة ؛ فنحاكمهم إليك ، فاقض لنا ونحن نؤمن بك ، فأنزل الله هذه الآية ^(٢) . ثمّ لما ذكر الله كتب الفرق الثلاث وأحكامهم ، نبّه على أنّ كلّ دين كان حقّاً قبل نسخه ؛ بقوله : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيّتها ^(٣) الفرق ﴿شِرْعَةً﴾ وديناً كان العمل به سبباً لحياتكم ؛ كشرعة الماء ﴿وَمِنْهَا جَا﴾ وطريقاً واضحاً إلى الحقّ.

ثمّ بيّن حكمة اختلاف الأديان في القرون [الماضية] بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ واقتضت حكمته

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١١ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٤٧ .

(٣) في النسخة : أيها.

البالغة ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ من أول الدنيا إلى فنائها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وأهل ملة فاردة ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك ، بل جعل أديانكم مختلفة بعضها ناسخ لبعض ﴿لِيَسْلُوَكُمْ﴾ ويمتحنكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الدين والأحكام ، هل تعملون بها منقادين لله ، خاضعين لأحكامه ، مصدّقين بالحكمة في اختلافها ، أو تقصّرون من العمل ، وتتبعون الشبهات والشهوات ؟

فإن آمنتم بأنّ دين الإسلام حقّ ، وما في القرآن - سواء كان موافقا للكتابين أو مخالفا لهما - أحكام الله وشرائعه ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيّها الفرق ^(١) ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ التي هداكم الله إليها من العقائد الحقّة ، والأعمال الصالحة ، وبادروا إليها انتهازا للفرصة كي لا تموتوا مع فساد العقائد ، وسوء الأعمال ، فإنّه يكون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ أيّها المؤمنون بالقرآن ، والمنكرون له ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ الله ، ويخبركم إذن ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من كون القرآن كتاب الله وأحكامه ، وإخباره تعالى بإثابة المؤمن به ، وعقاب الجاحد له ؛ فلا يبقى شكّ للمبطل والحقّ.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)﴾

ثم أكّد الله وجوب الحكم بما أنزل الله اهتماما به بقوله : ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ - قيل : إنّ التقدير : وأنزلنا إليك أن أحكم ^(٢) ، أو أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ وبأن احكم ، فيكون عطفا على الحقّ ، أو أمرناك أن احكم ^(٣) - ﴿يُنَبِّئُهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك.

روي عن الباقر عليه السلام : « إنّما كرّر الأمر بالحكم بينهم ؛ لأنّهما حكمان أمر بهما جميعا ، لأنّهم احتكموا إليه في زنا المحصن ، ثم احتكموا إليه في قتل كان بينهم » ^(٤) .
أقول : عليه بعض مفسّري العامة ^(٥) .

ثم لما كان الحاكم في معرض اتباع هوى المتخاصمين ، بالغ سبحانه في التّهي عنه بقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا تراعى ميولهم.

ثم نبّه الله تعالى نبيّه ﷺ بسوء ^(٦) قصد اليهود ، وإرادتهم تحريفه عن الحكم بالحقّ بقوله : ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ من ﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ ويصرفوك بخديعتهم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ من الأحكام

(١) في النسخة : أيها.

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ١٤ ، تفسير البيضاوي ١ : ٢٦٩ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١ .

(٥) راجع : تفسير الرازي ١٢ : ١٤ .

(٦) كذا ، والظاهر : على سوء.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكمك بما نزل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ تعالى بخذلانهم وتوليهم عن حكمك ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ﴾ ويعاقبهم في الدنيا ﴿بِعَظْمِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الكثيرة ، وقليل من معاصيهم التي لا تحصى ؛ من تسليطك عليهم وتعذيبهم بالقتل والإجلاء ، والذلة والمسكنة ، وضرب الجزية ، ويعاقبهم على بقيتها في الآخرة.

ثم سلى سبحانه قلب حبيبه ﷺ بقوله : ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وقليل منهم مؤمنون شاكرون ، فلا يعظم عليك توليهم عن حكمهم.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾

ثم أنكر سبحانه عليهم التولي عن الحق ، ووبخهم عليه بقوله : ﴿أَأَنتُمْ لَقِيتُمُ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ وملتها التي هي محض الهوى والجهالة ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلبون ؛ مع أنهم أهل الكتاب والعلم. ثم أنكر كون حكم أحسن وأصلح من حكمه بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ﴾ وأعدل ﴿حُكْمًا﴾ ثم نبه على أنّ هذا الخطاب والاستفهام الإنكاري أو التعجبي ^(١) يكون ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحكمة الله وعدله ؛ لأنهم العارفون بأن لا أحد أعدل من الله ، ولا حكم أحسن من حكمه ، لا اليهود الذين هم أهل الشك والتريب والعناد.

روي أنه كان بين التّضير وقريظة دم قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ ، فلمّا بعث تحاكموا إليه فقالت قريظة : بنو التّضير إخواننا ، أبونا واحد ، وديننا واحد ، وكتابتنا واحد ، فإن قتل بنو التّضير منّا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً ^(٢) من تمر ، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منّا مائة وأربعين وسقاً من تمر ، واروش جنائياتنا ^(٣) على النّصف من اروش جنائياتهم ^(٤) ، فاقض بيننا وبينهم ، فقال ﷺ : « فإني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم التّضيري ، ودم التّضيري وفاء من دم القرظي ، ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ، ولا عقل ^(٥) ، ولا جراحة » . فغضب بنو التّضير وقالوا : لا نرضى بحكمك فإنّك عدوّ لنا ، فأنزل الله هذه الآية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني : حكمهم الأول ^(٦) .

وقيل : إنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه ، وإذا وجب على أقويائهم لم

(١) في النسخة : التعجبي.

(٢) الوسق : مكيال ، وهو ستون صاعاً ، والصاع خمسة أربال وثلث.

(٣) في تفسير الرازي : جراحاتنا ، والاروش جمع أرش : دية الجراحة.

(٤) في تفسير الرازي : جراحاتهم.

(٥) العقل : الدية.

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ١٥ .

يأخذهم به ، فمنعهم الله تعالى منه بهذه الآية (١) .

عن الصادق عليه السلام : « الحكم حكمان ؛ حكم الله ، وحكم الجاهلية ، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية » (٢) .

[وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « الحكم حكمان ؛ حكم الله ، وحكم الجاهلية] وقد قال الله عز وجل : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وأشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية » (٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾

ثم لما شرح الله سبحانه خيانة اليهود والنصارى في كتاب الله ، وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وآله ، واستنكافهم عن قبول الحق ، وتوليهم عن حكم الله ورسوله ، نهي المؤمنين عن موالاتهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء ، ولا تعاشرهم معاشرة الأصدقاء ، ولا تتوقعوا منهم النصرة بعد وضوح كونهم لكم ولدينكم أعداء ، كما لا يكون اليهود أولياء النصارى ولا بالعكس ؛ مع اتفاقهم على الكفر ، بل كل من الفريقين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ آخر ممن وافقهم على الدين ، دون من خالفهم ، لوضوح أنّ ائتلاف القلوب لا يمكن مع الاختلاف في الدين ، ﴿و﴾ على هذا ﴿مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ﴾ في الباطن ﴿مِنْهُمْ﴾ فلا بدّ أن يحكم عليه بحكمهم ، ويحشر في القيامة في زمرة.

روي أن عباد بن الصّامت قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ لي موالي من اليهود كثيرا عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ، وإوالي الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي ؛ وهم يهود بني قينقاع (٤) .

ثم أشار سبحانه إلى علّة تولّي الكفار بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يرشد إلى الحق وعمل الخير بالتوفيق والتأكيد ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم (٥) بترك موالاة المؤمنين ، واختيار موالاة الكافرين ، بل يخذلهم ويخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلال بهوى أنفسهم لا محالة.

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٥ .

(٢) الكافي ٧ : ٤٠٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١ .

(٣) الكافي ٧ : ٤٠٧ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ : ٤٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٢ .

(٥) كذا ، والظاهر : الظالمين أنفسهم ؛ لأنّه متعدّ بلا حرف جر .

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾

ثم وبَّخ سبحانه المنافقين بقوله : ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد ، المنافقين ﴿الَّذِينَ﴾ استقرَّ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الكفر والتَّفَاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ ويبادرون إلى مولاتهم ومرافقتهم ، و﴿يَقُولُونَ﴾ للمؤمنين اعتذاراً من صنيعهم القبيح : إنا نوالهم لأننا ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا﴾ وتدور علينا ﴿دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الدهر ، ودولة من دولة ؛ كانقلاب الأمر وكون الغلبة للمشركين واليهود .
 قيل : إنَّ هذا كان في قلوبهم ، وأما في الظاهر كانوا يقولون : إنا نخاف أن يصيبنا مكروه من مكاره الزَّمان كالجذب والقحط ، فلا يعطونا الميرة والقرض ^(١) .

فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿فَعَسَى اللَّهُ﴾ ويرجى من فضله ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ هو فتح مكة ، أو فتح قلاع خيبر لرسوله ﷺ ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ آخر فيه استئصال اليهود وغيرهم من الكفار ، وإعزاز المؤمنين ، كائن ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ وبقدرته على خلاف العادة ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أولئك المنافقون المعتذرون ﴿عَلَى مَا أَسْرُوا﴾ وأخفوا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الكفر والشك في أمر الرسول ﴿نَادِمِينَ﴾ .

عن الصادق عليه السلام ، في تأويل الآية : « أذن في هلاك بني امية بعد إحراق زيد بسبعة أيام » ^(٢) .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ

حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

ثم بيّن الله تعالى سوء عاقبة المنافقين المتعذرين بقوله : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لليهود عند ظهور ندامة المنافقين تعجباً أو تعريفاً ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المنافقون هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ وحلفوا ﴿بِاللَّهِ﴾ لكم ، حال كونهم يجهدون ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ويبالغون في تغليظها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ بالتَّصرة والمعونة ، فلما ظهرت شوكة الإسلام ودولته بحيث لا يرجى لغيره دولة ، وذلت رقابكم للمؤمنين ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وبطلت مساعيهم في حفظ مولاة أعداء الله ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ مغبونين بتحمّل المشاق وعدم الثمرة ، واستحقاق القتل والهوان في الدنيا والعذاب في الآخرة .

(١) تفسير أبي السعود ٣ : ٤٩ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٥٤ / ١٢٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَئِيمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾

ثم لما كان تولي الكفار أمانة الارتداد وفي حكمه ، هدد الله تعالى المرتدين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ﴾ ويرجع ﴿مِنْكُمْ﴾ بتولي الكفار ﴿عَنْ دِينِهِ﴾ الحق ؛ وهو الإسلام ، إلى الكفر ، فلن يضرك الله شيئا ، فإن دين الله لا يخلو من أنصار يحمونه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ﴾ آخرين ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله ويكرمهم بلطفه ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ ويطيعونه حق طاعته ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ خاضعين لهم رحما بينهم ﴿أَعِزَّةٌ﴾ وأشداء ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ومن شدتهم أنهم ﴿يُجَاهِدُونَ﴾ ويقاتلون الكفار ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولطلب مرضاته ، وإعلاء كلمته ، وتقوية دينه ، ﴿وَلَا يَخَافُونَ﴾ لغاية تصلبهم في الدين ، وحرصهم على نصرة الحق ﴿لَوْمَةً﴾ أي ﴿لَئِيمَةً﴾ وطعن أي طاعن في ما يأتونه من الجهاد ، وطاعة أمر الله ﴿ذَلِكَ﴾ الأوصاف الحميدة والأخلاق الكريمة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ ولطفه وإنعامه تعالى ﴿يُؤْتِيهِ﴾ ويعطيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إيتاء وإعطاءه إياه من النفوس الزكية والدوات المستعدة ، لا أنهم مستقلون بكسبه وتحصيله من غير حاجة إلى توفيقه وتأيدده ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضلا وإنعاما على العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بقابليتهم واستعداداتهم.

عن السدي : أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ لِأَنَّهُمْ [هُم] الَّذِينَ نَصَرُوا الرَّسُولَ ، وَأَعَانُوهُ عَلَى إظهار الدين^(١) . وعن مجاهد : أُنْزِلَتْ فِي أَهْلِ الْيَمَنِ^(٢) .

وروي من طرق العامة : أُنْزِلَتْ أَشَارَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَقَالَ : « هُم قَوْمٌ هَذَا »^(٣) .

وروي أيضا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سئل عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى عَاتِقِ سَلْمَانَ وَقَالَ : « هَذَا وَذَوُوهُ » ثُمَّ قَالَ : « لَوْ كَانَ الَّذِينَ مَعَلَّقًا بِالثَّرِيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارَسَ »^(٤) .

وعن الباقر والصادق عليه السلام : « هُم أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَأَصْحَابُهُ حِينَ قَاتَلَ مَنْ قَاتَلَهُ مِنَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ »^(٥) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، قال يوم البصرة : « وَاللَّهِ مَا قَاتَلَ أَهْلَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى الْيَوْمِ » ، وتلا هذه الآية^(٦) .

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١٢ : ١٩ .

(٣) و (٤) . تفسير الرازي ١٢ : ١٩ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٥١ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣ .

(٦) مجمع البيان ٣ : ٣٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣ .

عن القمي : « أُنْزِلَتْ فِي مَهْدِيِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَصْحَابِهِ » (١) .

في نقل كلام الفخر الرازي ورده

قال الفخر الرازي : وقال قوم : إُنْزِلَتْ فِي عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ويدلّ عليه وجهان :
الأول : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دفع الرّاية إلى عليّ يوم خيبر قال : « لأُدْفَعَنَّ الرّايةَ غدا إلى رجل يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » ، وهذا هو الصّفة المذكورة في الآية.
الوجه الثاني : أَنَّهُ تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إلى آخره ، وهذه الآية في حقّ عليّ ، فكان الأولى نزول ما قبلها أيضا في حقّه.

إلى أن قال : المقام الأول : أنّ هذه الآية من أدلّ الدلائل على فساد مذهب الإمامية من الرّوافض ، وتقرير مذهبهم : أنّ الذين أقروا بخلافة أبي بكر وإمامته كلّهم كفروا وصاروا مرتدّين ؛ لأنّهم أنكروا النّصّ الجليّ على إمامة عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فنقول : لو كان الأمر كذلك لجاء الله بقوم يحارهم ويقهرهم ويردّهم إلى الدّين الحقّ بدليل قوله : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ ﴾ إلى آخر الآية ، وكلمة (من) شرطية للعموم ، فهي تدلّ على أنّ كلّ من صار مرتدّا عن دين الإسلام ، فإنّ الله يأتي بقوم يقهرهم ويردّهم ويبطل شوكتهم ، فلو كان الذين نصّبوا أبا بكر للخلافة كذلك ، لوجب بحكم الآية أن يأتي الله بقوم يقهرهم ويبطل مذهبهم ، ولما لم يكن [الأمر] كذلك ، بل الأمر بالضدّ ، فإنّ الرّوافض هم المقهورون الممنوعون عن إظهار مذهبهم (٢) الباطلة [أبدا] منذ كانوا ، علمنا فساد مقاتلتهم ومذهبهم ، وهذا كلام ظاهر لمن أنصف (٣) .

أقول : ظاهر الآية أنّ الخلق إذا كفروا وارتدّوا ، فلن يضروا الله شيئا ، وأنّ دينه لا يخلو من أنصار - كما ذكرنا سابقا - وليس في الآية وعد بإتيان قوم يجاهدون المرتدّين حتّى يقهروهم ويردّوهم عن دينهم الباطل ، كما ادّعاه النّاصب ، ولو كان معنى الآية كما ذكره ، لكان كذبا - نعوذ بالله - لوضوح أنّه حدث بعد النّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مذاهب فاسدة ، وارتدّ القائلون بها قطعاً ؛ كمذهب التجسّم والنصب وغيرهما ، ولم يقاتلوا ولم يقهروا ، ولم يرّدوا عن مذهبهم ، بل لازم ذلك أن لا يبقى مرتدّ على وجه الأرض إلى يوم القيامة لعموم الآية ، وهو خلاف الحسن والضّرورة.

وقد روي أنّ جبلة بن الأيهم أسلم على يد عمر ، وكان يطوف يوما جازّا رداءه ، فوطأ رجل طرف رداءه ، فغضب فلطمه ، فتظلم الرجل إلى عمر ، فقضى له بالقصاص عليه إلّا أن يعفو عنه ، فقال جبلة :

(١) تفسير القمي ١ : ١٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣ .

(٢) في المصدر : مقالاتهم.

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠ .

أنا أشتريها بألف ، فأبى الرجل ، فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف ، فأبى الرجل إلا القصاص ، فاستنظر عمر فأنظره ، فهرب إلى الروم وارتد^(١) . ولم يقتله أحد .

والقول بأن حكم الواحد ليس حكم الجماعة شطط من الكلام ، نعم لا يبعد دلالتها على أنه يكون في كل زمان جماعة متصفة بالصفات الكريمة المذكورة في الآية ، وقد كان بعد النبي ﷺ - وحين ارتداد المسلمين بإنكارهم النصّ الجليّ - جماعة متصفة بالصفات كأمر المؤمنين ، وسلمان ، وأبي ذرّ ، والمقداد ، وعمّار ، ولكن لم يكن صلاح الإسلام في جهادهم ، وإلا كانوا يجاهدون ولا يخافون في الله لومة لائم ، كما لم يكن صلاح الدين في إقدام النبي ﷺ في جهاد المنافقين مع كثرتهم في زمانه ، بل في جهاد المشركين قبل الهجرة .

ثم قال النّاصب : هذه الآية مختصة بمحاربة المرتدّين ، وأبو بكر هو الذي تولى محاربة المرتدّين^(٢) . أقول : لم يجاهد أبو بكر أحدا من المرتدّين ، وإنما حاربهم جيش المسلمين بأمر أبي بكر ، ولم يكن هو في الجيش ، بل لم يكن من حارب جيش أبي بكر من المرتدّين ، بل كانوا منكرين لخلافته ، وإنما منعه من الزّكاة بدعوى عدم أهليّته لأخذها ، فاتهمهم بالارتداد وإنكار وجوبها ، حيث نقل أنهم قالوا : أما الصّلاة فنصلّي ، وأما الزّكاة فلا تغصب أموالنا .

روي عن أنس بن مالك أنه قال : كرهت الصّحابة قتال مانعي الزّكاة ، وقالوا : هم أهل القبلة ، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده ، فلم يجدوا بدّا من الخروج على أثره^(٣) .

نعم بعث خالد بن الوليد في جيش كثير إلى مسيلمة حتّى أهلكه الله على يد وحشي قاتل حمزة سيّد الشهداء ، وكان يقول : قتلت خير النّاس في الجاهليّة ، وشرّهم في الإسلام^(٤) .

فكان الأولى أن يقول النّاصب : إنّ الآية نزلت في خالد بن الوليد ، ووحشي - وهو ممّا يضحك به الثّكلى ، لوضوح أنّ خالدا كان ممّن يبغضه الله^(٥) - لأنّ صدق المجاهد عليهما حقيقة ، وعلى أبي بكر مجاز بعلاقة السببيّة ، كما أنّ صدقه على أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأصحابه - عند محاربتهم الفرق الثّلاث المنكرين للنصّ الجليّ على وجوب موالاته عليّ ﷺ وأشياعه - حقيقة ، وعلى الرّسول ﷺ الأمر له بجهادهم مجاز .

ثم قال النّاصب : ولا يمكن أن يكون المراد هو الرّسول ؛ لأنّه لم يتفق له محاربة المرتدّين^(٦) .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠ .

(٣ و ٤) . تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٥ .

(٥) زاد في النسخة : ويبغضه .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠ .

أقول فيه : إنه ﷺ قد جاهد الأسود العنسي المرتد بالمعنى الذي ذكره و [كما] اتفق لأبي بكر ، لأنه ﷺ على ما نقله هو في تفسيره ، وغيره من العامة ، قالوا : إن بني مدلج ارتدوا في زمانه ، وكان رئيسهم ذو الحمار ، وهو الأسود العنسي ، وكان كاهنا ادعى النبوة في اليمن ، واستولى على بلادها ، وأخرج عمال رسول الله ﷺ ، فكتب ﷺ إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يد فيروز الدلمي ؛ دخل بيته فقتله ، وأخبر رسول الله بقتله ليلة قتل ، فسرّ المسلمون ، وقبض رسول الله ﷺ من الغد ، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول (١) .

ثم قال الناصب : ولأنه تعالى قال : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ ﴾ وهذا للاستقبال لا للحال ، فوجب أن يكون هؤلاء القوم غير موجودين في وقت نزول هذا الخطاب ، فإن قيل : هذا لازم عليكم لأنّ أبا بكر كان موجودا في ذلك الوقت ، قلنا : الجواب من وجهين ؛ الأول : أنّ القوم الذين قاتل بهم أبو بكر أهل الردّة ما كانوا موجودين في الحال (٢) .

أقول فيه : إنه لا شبهة أنّ نزول هذه السورة والآية كان في أواخر عمر النبي ﷺ ، وكانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وستة أشهر تقريبا ، فلا بدّ من أن يكون عامّة جيش أبي بكر موجودين في زمان النزول . وأمّا جهاد أمير المؤمنين عليه السلام مع المرتدين فإنّه كان بعد أزيد من ثلاثين سنة من زمان الخطاب ، فيمكن أن يقال أنّ أغلب جيشه عليه السلام لم يكونوا موجودين في زمان نزول الآية ، فظهر ممّا ذكر أنّه لا يمكن أن يقال بصدق الآية على جيش أبي بكر ونزولها في شأنه .

ثم قال : والثاني : أنّ معنى الآية : فسوف يأتي الله بقوم قادرين متمكّنين من هذا الحراب ، وأبو بكر وإن كان موجودا في ذلك الوقت إلّا أنّه ما كان مستقلا في ذلك الوقت بالحراب والأمر والتّهي ، فزال السّؤال (٣) .

أقول : كان الأولى أن يقول : إن المراد من الآية : فسوف يبعث [الله] قوما يحبّهم ويحبّونه ، لا سوف يوجد قوما ، مع أن الآية - على تقدير دلالتها على قيام قوم تكون لهم تلك الصّفات بجهاد خصوص المرتدين ، وعلى تقدير تسليم كون الأمر بالجهاد ، ولو لم يلتبس به مجاهد ، حقيقة - لا تدلّ على كون كلّ من جاهدهم واجدا لتلك الصّفات ، بحيث لا يكون معهم غيرهم ، بل الظاهر إرادة أن جماعة ممّن لهم هذه الصّفات يجاهدونهم ، وإن كان معهم غيرهم ممّن كان متّصفا بضدّ تلك الصّفات . فلا تدلّ الآية على اتّصاف كلّ فرد من أفراد جيش أبي بكر حتّى خالد بن الوليد الذي نكح زوجة

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠ .

مالك بن نويرة بعد قتله ، أو الأمر بالجهاد لتلك الصفات ، فلا بدّ من تعيين المتّصفين بالصفات من دليل آخر ، وإنّما قلنا أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه متّصف بتلك الصفات لدلالة (رواية الرّاية) المتواترة بين الفريقين وغيرها عليه ، وإن قال هذا المتعصّب إنّها من الآحاد ^(١) .

فحصّل من جميع ما ذكرنا أنّه لم يثبت أنّ أبا بكر بعث جيشا نحو المرتدّين ؛ لأنّ المرتدّ هو الذي كفر بعد إيمانه . ولم يثبت أنّ مسيلمة وأصحابه كانوا مسلمين ثمّ كفروا ، وأمّا غيرهم من سائر الطوائف الذين ^(٢) نسبوهم إلى الارتداد ، فالظاهر أنّهم كانوا ممتنعين من دفع زكّاتهم إلى أبي بكر لإنكارهم خلافته ، لا لإنكارهم وجوب الزّكاة .

ويؤيّد ما رواه العامّة من أنّ أبا بكر قال : والله ، لو منعوني عتودا ^(٣) ممّا أدّوا إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ^(٤) ، ولم يقل : لو جحدوا الزّكاة لقاتلتهم . وأمّا الذين قاتلهم أمير المؤمنين صلوات الله عليه فكانوا من أظهر مصاديق المرتدّين ؛ لأنّ وجوب حبّ أمير المؤمنين ^(٥) وكونه مع الحقّ والحقّ معه ^(٦) ، كان متواترا ضروريا بين الامة ، وكذا قوله ﷺ : « حريك حربي ، وسلمك سلمي » ^(٧) ، وغيره من النصوص الجليّة .

ولو سلّم ذلك نقول : لم يجاهد أبو بكر أحدا منهم ؛ لأنّ الظاهر من قوله : ﴿ **يُجَاهِدُونَ** ﴾ مباشرة الجهاد ؛ كما باشر أمير المؤمنين عليه السلام جهاد الفرق الثلاث ، لا القعود في البيت والراحة ، والأمر به ؛ كما فعله أبو بكر .

وعلى تقدير التسليم لا دلالة في الآية على اتّصاف جميع المجاهدين بتلك الصفات حتّى تكون الآية مدحا لجميع أفراد الجيش ، بل تدل على أن جماعة ممّن لهم تلك الصفات يجاهدونهم ، وإن كان معهم أو كان رئيسهم غير متّصف بها ، بل متّصفا بضدّها . فإثبات تلك الصفات لشخص معيّن محتاج إلى دليل خارج .

ثمّ قال النّاصب المتعصّب : فثبت أنّه لا يمكن أن يكون المراد هو الرّسول ، ولا يمكن أن يكون المراد هو عليّ أيضا ؛ لأنّه لم يتفق له قتال مع أهل الرّدّة ، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليه ؟ ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣ .

(٢) في النسخة : التي .

(٣) العتود : ما قوي وأتى عليه حول من أولاد المعزى .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٥ .

(٥) راجع : فضائل الصحابة / أحمد بن حنبل ٢ : ٦٦٩ / ١١٤١ ، مستدرک الحاكم ٣ : ١٧٢ ، الدر المنثور ٦ : ٧ ، الصواعق المحرقة : ١٧٠ ، الكشف ٤ : ٢١٩ .

(٦) راجع : تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢١ ، ترجمة علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣ : ١٥٣ / ١١٧٢ .

(٧) شرح نهج البلاغة / لابن أبي الحديد ٢ : ٢٩٧ .

(٨) تفسير الرازي ١٢ : ٢١ .

أقول : قد ظهر وثبت مما ذكرنا أنّ عليّاً عليه السلام وجماعة من أصحابه كانوا من أظهر المتّصّفين بالصّفات المذكورة في الآية ، وأنّ الفرق الثّلاث الّذين قاتلهم صلوات الله عليه من أظهر مصاديق المرتدّين ، ولم يثبت للآية مورد انطباق [على] غيرهم.

ثمّ قال النّاصب : فإنّ قالوا : بل كان قتاله مع أهل الرّدة ؛ لأنّ كلّ من نازعه في الإمامة كان مرتدّاً. قلنا : هذا باطل من وجهين ؛ الأوّل : أنّ اسم المرتدّ إنّما يتناول من كان تاركاً للشّرائع الإسلاميّة ، والقوم الّذين نازعوا عليّاً ما كانوا كذلك في الظّاهر ، وما كان أحد يقول إنّّه يحاربهم لأنّهم خرجوا من دين الإسلام ، وعليّ لم يسمّهم البتّة بالمرتدّين ، فهذا الذي يقوله الرّوافض (لعنهم الله) بهت على جميع المسلمين ، وعلى عليّ أيضاً ^(١) .

أقول : إن كان المراد من تارك الشّرائع : جميعها ، فلم يكن تارك الزّكاة وحدها مرتدّاً ، مع أنّه وأصحابه سمّوا مانعي الزّكاة مرتدّين. وإن كان المراد : تارك بعضها ، فتارك طاعة الإمام ، وتارك حبّ عليّ ، ومستحلّ قتاله يكون مرتدّاً.

وأما قوله : إنّ عليّاً لم يسمّهم بالمرتدّين ^(٢) ، ففيه : أنّ النّاصب مع طول باعه لم يفهم ترادف لفظ المرتدّ والمارق من الدّين ؛ لأنّ الله طبع على قلبه ، أو لعدم اطلاعه على أنّ الرّسول ﷺ وعليّاً وعامة المسلمين سمّوا الخوارج مارقين ؛ لأنّهم مرقوا ، أي خرجوا من دين الله ، واستحلّوا قتال خليفة رسول الله. فإنكار النّاصب (لعنه الله) ارتدادهم - بل ارتداد الفرق الثّلاث الّذين دانوا ببغض عليّ عليه السلام - مكابرة وإنكار للضروري بين المسلمين.

ثمّ قال النّاصب : [الثّاني : أنّه] لو كان كلّ من نازعه في الإمامة كان مرتدّاً ، لزم في أبي بكر وفي قومه أن يكونوا مرتدّين ، ولو كان كذلك لوجب بحكم ظاهر الآية أن يأتي الله بقوم يقهروهم ويردّوهم إلى الدّين الصّحيح ، ولما لم يوجد ذلك البتّة ، علمنا أنّ منازعة عليّ في الإمامة لا تكون ردة ، وإذا لم تكن ردة ، لم يمكن حمل الآية على عليّ ؛ لأنّها نازلة في من يحارب المرتدّين ^(٣) .

أقول : نحن نلتزم باللازم الذي ذكره ، بل نقول : إنّّه وأخوه لم يؤمنا بالله طرفة عين ، كما أن عليّاً عليه السلام لم يكفر بالله طرفة عين ، وأما قوله : لو كان كذلك ... الى آخره ، ففيه : أنّ الآية لا تدلّ على وجوب إتيان قوم يرّدوهم إلى الدّين ، وإلّا لما وجد مرتدّ في العالم ، وهو خلاف الوجدان - كما ذكرنا سابقاً - مع أنّه نسب ابن أبي الحديد إلى المعتزلة أنّهم يقولون : إنّ عليّاً عليه السلام رضي بخلافة الثّلاثة ، ولم ينازعهم

(١ و ٢) . تفسير الرازي ١٢ : ٢١ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٢١ .

فيها ، ولو نازعوا علياً فيها لكان دمهم هدراً ^(١) ، وقد تكلف في توجيه الخطبة الشَّقَشَقِيَّة بما لا يرضى به صاحبها. وإِنَّمَا أَطْلَنَّا فِي الْمَقَامِ الْمَقَالَ لِتُظْهَرَ شِدَّةُ عَصَبِيَّةِ إِمَامِ الضَّلَالِ ، عَلَيْهِ أَشَدُّ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْهَدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ لَا تَحْصُلُ بِكَثْرَةِ الْفَضْلِ وَزِيَادَةِ الْإِطْلَاعِ عَلَى كَلِمَاتِ الرِّجَالِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مُوهِبَةٌ مِنَ اللَّهِ الْمُتَعَالِ .

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّنْهِي عَنْ مَوَالَاةِ الْكُفَّارِ ، وَتَنْزِيلِ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْزِلَتَهُمْ ، وَتَسْمِيَتِهِمْ بِاسْمِ الْمُرْتَدِّينَ ، وَإِظْهَارِ غَنَائِهِ عَنْهُمْ فِي نَصْرَةِ دِينِهِ ، حَثَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَوَالَاةِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَمَوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ وَالْحَافِظُ لَصَلَاحِكُمْ ، وَمُدَبِّرُ أُمُورِكُمْ ، وَمُرَبِّي نَفُوسِكُمْ ، وَسَائِقُ جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ إِلَيْكُمْ ﴿اللَّهُ﴾ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَأَخْلَصُوا فِيهِ ، فَاخْتَصَّوهُمْ أَيْضًا أَنْتُمْ بِالْمَوَالَاةِ ، وَلَا تَخْطِئُوهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ .

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَعْنِي : أَوَّلَى بِكُمْ ، أَيِ أَحَقَّ بِكُمْ بِأُمُورِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » ^(٢) .

ثُمَّ عَرَّفَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلَصِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ رِبَاءٍ وَكَسَلٍ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وَالصَّدَقَةَ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، بَلَا مَنْ وَلَا أَدَى ﴿وَهُمْ﴾ فِي حَالِ الْإِيْتَاءِ ﴿رَاكِعُونَ﴾ فِي الصَّلَاةِ . وَقِيلَ : خَاضِعُونَ لِلَّهِ مُتَوَاضِعُونَ لَهُ ^(٣) .

فِي تَصَدَّقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِخَاتَمِهِ عَلَى الْفَقِيرِ

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَعْنِي عَلِيًّا وَأَوْلَادَهُ الْأَتَمَّةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللَّهُ فَقَالَ : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَقَدْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، وَهُوَ رَاكِعٌ ، وَعَلَيْهِ حَلَّةٌ قِيمَتُهَا أَلْفُ دِينَارٍ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ ، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ أَهْدَاهَا لَهُ ، فَجَاءَ سَائِلٌ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَلِيَّ اللَّهِ ، وَأَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، تَصَدَّقْ عَلَى مُسْكِينٍ ، فَطَرَحَ الْحَلَّةَ إِلَيْهِ [وَأَوَّمَأَ بِيَدِهِ إِلَيْهِ] أَنْ أَحْمِلَهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَصَيَّرَ نِعْمَةً أَوْلَادَهُ بِنِعْمَتِهِ ... » إِلَى أَنْ قَالَ : « وَالسَّائِلُ الَّذِي سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » ^(٤) .

(١) لم نجده في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة.

(٢) الكافي ١ : ٢٢٨ / ٣ وفيه : وأنفسكم ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ : ٥٢ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٧ .

(٤) الكافي ١ : ٢٢٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤ .

وعنه عليه السلام أنه سئل : الأوصياء طاعتهم مفروضة ؟ قال : « نعم ، هم الذين قال الله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) وهم الذين قال الله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية ^(٢) .

وعن (الخصال) ، في احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر ، قال : « فأنشدك بالله ، ألي الولاية من الله مع ولاية رسوله في آية زكاة الخاتم أم لك ؟ » قال : بل لك ^(٣) .

وفيه في تعداد مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ، قال عليه السلام : « وأما الخامسة والستون : فإني كنت أصلي في المسجد فجاء سائل وأنا راكع ، فناولته خاتمي من إصبعي ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الآية ^(٤) .

وفيه عنه صلوات الله عليه - في حديث - قال : « وليس بين الأمة خلاف أنه لم يؤت الزكاة أحد وهو راكع غير رجل » ^(٥) .

في نقل كلمات الفخر الرازي ورده

قال الفخر الرازي في تفسيره : روى عكرمة أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر. وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنّها نزلت في علي بن أبي طالب ، [و] روي أن عبد الله بن سلام قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله ، أنا رأيت علياً تصدّق بخاتمه على محتاج وهو راكع ، فنحن نتولاه ؟

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه ، أنّه قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد ، فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهم اشهد أنّي سألت في مسجد الرسول فما أعطائي أحد شيئاً ؛ وعليّ كان راكعاً فأومأ إليه بخصره اليمنى ، وكان فيها خاتم ، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمراءى النبي صلى الله عليه وآله فقال : « اللهم إنّ أخي موسى سألك فقال : ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري وأحلل عقدة من لساني - إلى قوله - واشركه في أمري ، فأنزلت قرآناً ناطقاً : ﴿ سَسْئِدُ عَصْدُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ ^(٦) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك ، فاشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي اشدّد به ظهري » .

قال أبو ذرّ : فو الله ، ما أتم رسول الله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال : يا محمد ، اقرأ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إلى آخر الآية ^(٧) .

ثم قال الفخر : قالت الشيعة : إنّ هذه الآية دالة على أنّ الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو علي بن

أبي

(١) النساء : ٤ / ٥٩ .

(٢) الكافي : ١ / ١٤٦ ، تفسير الصافي : ٢ : ٤٥ .

(٣) الخصال : ٥٤٩ / ٣٠ ، تفسير الصافي : ٢ : ٤٥ .

(٤) الخصال : ٥٨٠ / ١ ، تفسير الصافي : ٢ : ٤٥ .

(٥) الاحتجاج : ٢٥٥ ، تفسير الصافي : ٢ : ٤٥ .

(٦) القصص : ٢٨ / ٣٥ .

(٧) و٧) . تفسير الرازي : ١٢ : ٢٦ .

طالب عليه السلام (١) .

بيان المقام الأول : أنَّ الوليَّ في اللَّغة جاء بمعنى النَّاصر ، والمحَب ، كما في قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (٢) ، وجاء بمعنى المتصَرِّف ، قال عليه السلام : « أَيْمًا امرأة نكحت بغير إذن وليها ... » ، فنقول : ها هنا وجهان :

الأول : أنَّ لفظ الوليَّ جاء بمعنيين (٣) ، ولم يعبّر الله مراده ، ولا منافاة بين المعنيين ، فوجب حملة عليهما ، فوجب دلالة الآية على أنَّ المؤمنين المذكورين في الآية متصَرِّفون في الامة .

الثاني : أن نقول : الوليَّ في هذه الآية لا يجوز أن يكون بمعنى النَّاصر ، فوجب أن يكون بمعنى المتصَرِّف ، وإمّا قلنا أنَّه لا يجوز أن يكون بمعنى النَّاصر ؛ لأنَّ الولاية المذكورة في [هذه] الآية غير عامّة في كلّ المؤمنين ، بدليل أنَّه تعالى ذكر بكلمة (إِمَامًا) ، وكلمة (إِمَامًا) للحصر كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (٤) ، والولاية بمعنى التَّصرة عامّة لقوله تعالى : ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وهذا يوجب القطع بأنَّ الولاية المذكورة في هذه [الآية] ليست بمعنى التَّصرة ، وإذا لم تكن بمعنى التَّصرة كانت بمعنى التَّصَرِّف ؛ لأنَّه ليس للوليَّ معنى غير هذين المعنيين ، فصار تفسير (٥) الآية : إِمَامًا المتصَرِّف فيكم أيها المؤمنون هو الله ورسوله والمؤمنون الموصوفون بالصفة الفلانية ، وهذا يقتضي أنَّ المؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة في الآية متصَرِّفون في جميع الامة ، ولا معنى للإمام إلّا الإنسان الذي يكون متصَرِّفًا في كلّ الامة ، فنبت بما ذكرنا دلالة الآية على أنَّ الشَّخص المذكور فيها يجب أن يكون إمام الامة .

أمّا بيان المقام الثاني : وهو أنَّه لما ثبت ما ذكرنا ، وجب كون ذلك الإنسان هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وبيانه من وجوه :

الاول : أنَّ كلّ من أثبت بهذه الآية إمامة شخص قال : [إن] ذلك الشَّخص [هو] عليّ بن أبي طالب ، وقد ثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على إمامة شخص ، فوجب أن يكون ذلك الشَّخص هو عليّ ، ضرورة أنَّه لا قائل بالفرق .

الثاني : أنَّه تضافرت الروايات على أنَّ هذه الآية نزلت في [حق] عليّ ، ولا يمكن المصير إلى قول من يقول أنَّها نزلت في أبي بكر ؛ لأنَّها لو نزلت في حقّه لدلّت على إمامته ، وأجمعت الامة على أنَّ هذه الآية لا تدل على إمامته ، فبطل هذا القول .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٦ .

(٢) التوبة : ٩ / ٧١ .

(٣) في المصدر : جاء بهذين المعنيين .

(٤) النساء : ٤ / ١٧١ .

(٥) في المصدر : تقدير .

والثالث : أنَّ قوله : ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لا يجوز جعله عطفًا على ما تقدّم ؛ لأنّ الصّلاة قد تقدّمت ، والصّلاة مشتملة على الرّكوع ، وكانت إعادة ذلك الرّكوع تكرارًا ، فوجب جعله حالا ، أي يؤتون الرّكاة حال كونهم راكعين ، وأجمعوا على أنّ إيتاء الرّكاة حال الرّكوع لم يكن إلّا في حقّ عليّ ، فكانت الآية مخصوصة به ، ودالّة على إمامته من الوجه الذي قرّناه (١) .

ثمّ تجسّم المتعصّب العنود في الجواب - تعصّبًا على مذهبه الباطل ، وبغضا لعليّ عليه السلام وشيعته - بأجوبة أوهم من نسج العنكبوت ، ولما كان مبالغًا في إطناب العبارة في الكتاب بحيث يكون نقلها مملاً ، لخصتها ونقلتها حاصل مضمونها غالبًا.

قال : والجواب : أمّا حمل لفظ الوليّ على النّاصر والمتصرّف فغير جائز ، لما ثبت في الاصول من عدم جواز استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى واحد (٢) .

أقول فيه : أنّه على تقدير التسليم ، ليس من المشترك اللفظي ، بل الأظهر أنّه موضوع للجامع ، وهو المتصدّي لما هو صلاح المولّى عليه ، من دفع خصومة ، والتّصرّف في نفسه وماله على الوجه الأحسن ، ولما كان لازم ذلك المحبة ، قد يراد منه الحبّ ، على سبيل الكناية ، فقوله : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٣) معناه : الله هو المتولّي لجميع أمورهم على وفق الصّلاح من نصرتهم على الأعداء ، وحفظهم من الهلاك الدنوي والآخرى ، وتربيتهم وتكميلهم وتنظيم أمورهم ، ثمّ ربّ على ولايته لهم ، تصديّه لأهمّ مصالحهم من إخراجهم من الظّلمات إلى النّور ، بقوله : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ (٤) الآية ، كما ربّ على قوله : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ (٥) قوله : ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦) لوضوح أنّ المراد من الولي ليس خصوص النّاصر أو الحبّ أو المتصرّف ، لركاكة قولك : أنت ناصرنا فانصرنا ، وأنت محبّنا ، وأنت المتصرّف في أموالنا فانصرنا ، بل المراد : أنت المتولّي لما فيه خيرنا وصلاحنا ، ومن المصالح المهمّة نصرتنا على الكفّار ، فانصرنا عليهم.

ثمّ استدلّ على كون المراد من الوليّ : الحبّ والنّاصر بوجوه :

الأول : أنّ اللاّحق - بما قبل الآية من قوله : ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ (٧) ، وبما بعد الآية من قوله : ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ (٨) إلى آخره - أن يكون الوليّ بمعنى الحبّ والنّاصر ، لكون لفظ الأولياء فيما قبل وفيما بعد بمعنى الأحبّاء والأنصار ، لا أئمة متصرّفين في

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٧ .

(٣) البقرة : ٢ / ٢٥٧ .

(٤) البقرة : ٢ / ٢٥٧ .

(٥) الأعراف : ٧ / ١٥٥ .

(٦) البقرة : ٢ / ٢٨٦ .

(٧) المائدة : ٥ / ٥١ .

(٨) المائدة : ٥ / ٥٧ .

أرواحكم وأموالكم ، لضرورة بطلانه ، فإذا كان معنى لفظ الأولياء في الآيتين ذلك ، كان لفظ الوليّ الواقع بينهما ذلك ، لا الإمام ، وإلا لزم وقوع الكلام الأجنبي فيما بين كلامين سيقا لغرض واحد (١) .

أقول فيه : أنّه قد ذكرنا أنّ المحبة والنصرة من لوازم الولاية المطلقة المناسبة لله ولرسوله ، مقتضية لتخصيص المحبة والاعتماد بهما ، وصرف التوجّه من غيرهما حتّى من المؤمنين إليهما ، إلّا المؤمنين الذين هم بمنزلة الرّسول والقائمين مقامه .

ثمّ قال : إنّ ظاهر الآية اتّصاف المؤمنين حال نزول الآية بالولاية ، وأمير المؤمنين لم يكن حال نزولها إماما متصرّفا ، فلا بدّ من حملها على المحبة والنصرة الحاصلتين في الوقت (٢) .

أقول فيه : إنّنا نمنع عدم اتّصاف أمير المؤمنين (عليه السلام) في الوقت بالولاية بمعنى أولويّة التصرّف ، بل نقول : إنّ كان إماما مفترض الطّاعة نافذ التصرّف ، ولكن في طول الرّسول (صلى الله عليه وآله) لا في عرضه ، كما كان هارون كذلك في زمان موسى ، وإليه أشار النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، في الرواية المسلّمة بين الفريقين من قوله : « عليّ مّي بمنزلة هارون من موسى » (٣) .

ثمّ قال النّاصب : إنّ لفظ المؤمنين جمع ، وإطلاقه على الواحد مجاز ، فيجب حمله على العموم لأصالة الحقيقة (٤) .

أقول : إنّ لفظ الجمع مستعمل في المفهوم العامّ المتّصف بالصفّات المذكورة في الآية ، ولا يلزم من وحدة المصداق الخارجي استعمال اللفظ فيه ، كما تقول : العلماء العدول قولهم حجّة ، وكان العالم في عصرك منحصرًا في شخص واحد ، فلا يلزم مجاز .

ثمّ قال النّاصب : إنّنا بيّنا بالبرهان البيّن أنّ الآية المتقدّمة وهي قوله : ﴿ **بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** ﴾ (٥) من أقوى الدلائل على صحّة إمامة أبي بكر ، فلو دلّت [هذه] الآية على إمامة عليّ بعد الرّسول ، لزم التناقض بين الآيتين ، فوجب القطع بأنّ هذه الآية لا دلالة فيها على إمامة عليّ بعد الرّسول (٦) .

أقول فيه : إنّّه بعد ما ثبت دلالة هذه الآية على إمامة عليّ (عليه السلام) وجب القطع بأنّ الآية السابقة لا دلالة فيها على إمامة أبي بكر ، مع أنّه قد بيّنا أنّه لا ربط للآية السابقة بأبي بكر أصلا ولو لم تكن هذه المعارضة ، وليس هو ممّن يحبّه الله ورسوله ويحبّهما ، ويشهد على ما ذكرنا أنّه لم يتمسك عامّة

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٨ .

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٨٩ / ٢٠٢ ، صحيح مسلم ٤ : ١٨٧٠ / ٢٤٠٤ ، سنن الترمذي ٥ : ٣٧٣٠ ، مستدرک الحاكم ٢ : ٣٣٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ٢٨ .

(٥) المائدة : ٥ / ٥٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٢٨ .

شيعة أبي بكر على خلافته بالنصّ ، وإلّا كان تمسّكهم بالإجماع ، واتّفاق أهل الحلّ والعقد ، وأنهموا عليّاً عليه السلام بالموافقة. نعم قالوا بتطبيق الآية السابقة على أبي بكر ، وكلّ من حارب المرتدّين إلى يوم القيامة ، ويلزمهم دخول خالد بن الوليد ، والحجّاج بن يوسف فيها ، وهو في غاية الفضاحة.

ثمّ قال الناصب : الحجة الخامسة : أنّ عليّاً كان أعرف بتفسير القرآن من هؤلاء الرّوافض ، فلو كانت [هذه] الآية دالّة على إمامته لاحتجّ بها في محفل من المحافل ، ولم يتمسّك بها البتة ، وذلك يوجب القطع بسقوط قول الرّوافض (لعنهم الله) ^(١) .

أقول فيه : إنّّه قد تضافرت الروايات في احتجاجه عليه السلام بهذه الآية على إمامته في كثير من المحافل ^(٢) ، وقد نقلنا بعضها ، ومن المعلوم أنّ إنكار هذا الناصب وأضرابه (لعنهم الله) ليس بأنكر وأقبح من إنكارهم النصوص الجليّة التي هي أحلى من الآية في إمامته عليه السلام .

ثمّ قال الناصب : لو سلّمنا دلالة الآية على إمامة عليّ ونفوذ تصرّفاته ، نقول : إنّّه لم يكن نافذ التّصرّف في وقت النّزول وزمان الرّسول ، فلا بدّ من القول بدلالاتها على أنّه سيصير إماما بعد الرّسول ، ونحن نقول بموجبه ، ونحمّله على إمامته بعد الثّلاثة ، إذ ليس فيها تعيين الوقت ، فإن قالوا : الامة فيها على قولين ؛ وكلّ من قال بدلالاتها على إمامته قال بإمامته بعد الرّسول بلا فصل ، فالقول بدلالاتها على إمامته مع الفصل قول ثالث ، قلنا : الظّاهر أنّه كان هذا الاحتمال مقرونا بهذا الاستدلال ^(٣) .

أقول : قد ذكرنا أنّه عليه السلام كان في زمان الرّسول ونزول الآية نافذ التّصرّف كما كان هارون في زمان موسى ، فالحجّة داحضة ، والسّؤال ساقط ، ويظهر جواب حجّته السّابعة والثّامنة ممّا ذكرنا فلا نطيل بذكرهما.

في نقل اعتراضات الفخر الرازي وردّه

ثمّ قال : وأمّا الوجه الذي عوّلوا عليه من أنّ الولاية بمعنى النّصرة عامّة ، بخلاف الولاية في الآية فإنّها مختصّة بالمؤمنين الموصوفين فيها ، فجوابه من وجهين :

الأوّل : منع اختصاص الولاية في الآية ، ومنع دلالة (إنّما) على الحصر ، والدّليل عليه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ** ^(٤) ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ^(٥) ﴾ ، ومن المعلوم عدم انحصار مثل الدّنيا بالمثل المذكور ، وحصول اللّعب واللهو في غير الحياة الدّنيا ^(٦).

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٨ و ٢٩ .

(٢) راجع : أمالي الطوسي : ٥٤٩ / ١١٦٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٢٩ .

(٤) يونس : ١٠ / ٢٤ .

(٥) محمّد صلى الله عليه وآله : ٤٧ / ٣٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٣٠ .

أقول فيه : إنّ إنكار دلالة (إنّما) على الحصر إنكار للضرورة ، وأمّا آية ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دالة على حصر المثل الكامل في المثلية ، والآية الثانية دالة على حصر الحياة الدنيا في اللعب ، لا حصر اللعب واللهو فيها.

ثمّ قال : والثاني : أنّا نسلّم الاختصاص ، ونقول : إنّ الله قسّم المؤمنين قسمين ؛ أحدهما : الذين جعلهم مولى عليهم ، والثاني : الأولياء ؛ وهم المؤمنين الموصوفون في الآية ، فالمعنى : أنّ الله جعل أحد القسمين أنصارا للقسم الآخر ، ولا يمكن أن يكونوا أنصارا لجميع المؤمنين حتّى أنفسهم ، فثبت أنّ نصرة أحد القسمين من الامة غير ثابتة لكل الامة ، بل مخصوصة بالقسم الثاني من الامة ، فلم يلزم من كون الولاية في الآية خاصّة أن لا تكون بمعنى النصرة ، وهذا جواب حسن دقيق لا بدّ من التأمل فيه ^(١) .

أقول : معنى كون النصرة عامّة أنّ كلّ مؤمن يكون ناصرا لغيره من المؤمنين ، ولا يختصّ بخصوص المؤمنين الموصوفين بالوصفين في الآية ، فظهر أنّ بطلان جوابه من شدّة الوضوح غير محتاج إلى التأمل .
ثمّ قال : وأمّا استدلالهم بأنّ هذه الآية نزلت في [حق] عليّ ، فهو ممنوع ، فقد بينّا أنّ أكثر المفسّرين زعموا أنّه في حقّ الامة ، ومنهم من يقول أنّها نزلت في حقّ أبي بكر .

أقول : قال البيضاوي في تفسيره : ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ متخشّعون في صلاتهم وركعاتهم ، وقيل : هو حال مخصوصة ب (يؤتون) ، أي يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلّة حرصا على الإحسان ومسارة إليها ، فإنّها نزلت في عليّ عليه الصلّة والسلام حين سأله سائل وهو راكع في صلاته ، فطرح له خاتمه ^(٢) .
وقال آية الله العلامة الحليّ في (نهج الحق) ، بعد ذكر الآية : أجمعوا على نزولها في عليّ عليه السلام ، وهو مذكور في الصحاح الستة ، لما تصدّق بخاتمه على المسكين في الصلاة بمحضر من الصحابة ^(٣) .

وقرّره فضل بن روزبهان مع شدّة تعصّبه وكمال اهتمامه في الردّ عليه على دعوى الإجماع ، ولم ينكر عليه ، ولم يناقش في سند الرواية ^(٤) .

ثمّ قال الفخر الناصب : أمّا استدلالهم بأنّ الآية مختصّة بمن أدّى الزكاة في الركوع وهو عليّ بن أبي طالب ، فنقول : هذا أيضا ضعيف من وجوه :

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٣٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٢٧٢ .

(٣) نهج الحق : ١٧٢ ، جامع الأصول ٩ : ٤٧٨ .

(٤) راجع : إحقاق الحق ٢ : ٤٠٨ .

الأول : أنَّ الزَّكَاةَ اسم للواجب لا للمندوب ، لقوله تعالى : ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) فلو أنَّه أدَّى الزَّكَاةَ في الركوع لكان قد أتمَّ [أداء] الزَّكَاةَ الواجب عن أول أوقات الوجوب ، وذلك عند أكثر العلماء معصية ، ولا يجوز إسناده إلى عليٍّ ، وحمل الزَّكَاةَ على الصَّدقة النَّافلة خلاف الأصل ، لما بيَّنا أنَّ قوله : ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ ظاهر في أنَّ كلَّ ما كان زكاة فهو واجب^(٢) .

أقول : الزَّكَاةُ في اللغة : التَّموُّ ، وإِذَا سَمَّيتِ الصَّدقة زكاة لكونها سببا لنموِّ المال ، كما قال الله تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٣) ولم يثبت للفظ الزَّكَاة حقيقة شرعية حال نزول الآية ، وليس في قوله : ﴿أَتُوا الزَّكَاةَ﴾ دلالة عليها ، ولو فرض ظهوره في خصوص الواجبة كان ظهور الركوع في ركوع الصَّلَاة أقوى ، كما أنَّ ظهور الرمي في رمي السهم أقوى من ظهور لفظ الأسد في الحيوان المفترس ، فيصير قرينة على صرفه عن المعنى الحقيقي إلى المجازي ، فيحمل لفظ الزَّكَاة على المندوبة بالقرينة المقارنة له .
والحاصل أنَّه لا شك أنَّ الآية في بيان مدح المؤمنين ، وحمل لفظ الزَّكَاة والركوع على معناهما الحقيقي لا يناسب المدح ، فلا بدَّ من صرف أحد اللَّفظين إلى المعنى المجازي ، وصرف لفظ الزَّكَاة أولى ، مضافا إلى دلالة الروايات الكثيرة من طرق الخاصة والعامة على أنَّ الزَّكَاة في الآية خصوص المندوبة .

ثمَّ قال الناصب : الثاني : أنَّ اللَّائق بعليٍّ أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال الصَّلَاة ، ومن كان كذلك لا يتفرَّغ لاستماع كلام الغير وفهمه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾^(٤) إلى آخر الآية^(٥) .

أقول فيه : إنَّ مقام الولاية المطلقة مقام الجامعية ، لا يشغله شأن عن شأن ، فالتوجُّه إلى كلام الفقير توجُّه إلى الله ، ويشهد له أنَّ الرسول ﷺ مع كونه أكمل من عليٍّ عليه السلام كان ملتفتا لركوب الحسن على ظهره في سجود الصَّلَاة المفروضة ، فأطال سجوده حتَّى ينزل الحسن من ظهره لثلا يسقط ولده على الأرض .

ثمَّ قال الناصب : الثالث : أنَّ دفع الخاتم إلى المسكين في الصَّلَاة عمل كثير ، واللَّائق بحال عليٍّ أن لا يفعل ذلك^(٦) .

أقول فيه : إنَّه ممنوع ، مع أنَّ في الرواية أنَّه عليه السلام أوماً بخنصره ، فأخرجه الفقير من خنصره ، مع أنَّه

(١) البقرة : ٢ / ٢٧٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٣٠ .

(٣) البقرة : ٢ / ٢٧٦ .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٩١ .

(٥) تفسير الرازي ١٢ : ٣٠ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٣١ .

قال النَّاصِبُ بعد ذلك بقليل : إِنَّ العلماء احتجَّوا بِالآيَةِ على أَنَّ العمل القليل لا يقطع الصلاة ^(١) . ومِمَّا ذكرنا يعلم فساد سائر ما لَفَّقَهُ النَّاصِبُ .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)

ثمَّ بالغ سبحانه في الحثِّ على تَوَلَّى الرَّسُولَ وخلفائه بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويتَّخذهم أولى بنفسه من نفسه ، ويعتقد أنَّهم متصرِّفون في اموره ، فهو من حزب الله وجنوده ، وغالب على أعدائه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ وأولياءه ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على حزب أعداء الله ، وجند الشَّيْطَانِ ، وأعوان الجهل .

عن الباقر عليه السلام ، في قوله : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ الآية ، قال : « إِنَّ رهطا من اليهود أسلموا ، منهم عبد الله بن سلام ، واسيد ^(٢) ، وثعلبة ، وابن امين ^(٣) ، وابن سوريا ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا : يا نبيَّ الله ، إِنَّ موسى أوصى إلى يوشع بن نون ، فمن وصيِّكَ يا رسول الله ، ومن وليِّنا بعدك ؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية .

[ثمَّ] قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قوموا ، فقاموا فأتوا المسجد فإذا سائل خارج ، فقال : يا سائل ، أما أعطاك أحد شيئا ؟ قال : نعم ، هذا الخاتم ، قال : من أعطاكه ؟ قال : أعطانيه ذلك الرَّجُلُ الَّذِي يَصَلِّي ، قال : على أيِّ حال أعطاك ؟ قال : كان راکعا ، فكبَّرَ النبي صلى الله عليه وآله ، وكبَّرَ أهل المسجد ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : عليَّ بن أبي طالب وليِّكم [بعدي] ، قالوا : رضينا بالله ربَّنا وبالإسلام ديننا ، وبمحمَّد نبينا ، وبعلي بن أبي طالب وليَّنا ، فأنزل الله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ^(٤) . وفي (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ في هذا الموضع : المؤمنون على الخلائق من الحجج والأوصياء في عصر بعد عصر « (٥) » .

وفي (التوحيد) : عن الصادق عليه السلام : « يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة آخذًا بحِجْزَةِ رَبِّهِ ، ونحن آخذون بحِجْزَةِ نَبِيِّنَا ، وشيعتنا آخذون بحِجْزَتِنَا ، فنحن وشيعتنا حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، والله لا يزعم أنَّها حِجْزَةُ الْإِزَارِ وَلَكِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، يجيء رسول الله آخذًا بدين الله ونجىء [نحن] آخذين بدين نبينا ، ونجىء شيعتنا آخذين بديننا » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٣١ .

(٢) في الأمالي : وأسد .

(٣) في الأمالي : وابن يامين .

(٤) أمالي الصدوق : ١٨٦ / ١٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦ .

(٥) الاحتجاج : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧ .

(٦) التوحيد : ١٦٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

ثمَّ أتتعالى بعد التَّهي عن مولاة أهل الكتاب ، بالغ سبحانه في تأكيده ، وعمَّه إلى جميع الكفار بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ وتعاملوا ^(١) مع شريعتكم الغراء معاملة السَّاحر والعائب ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ الذين لم يؤمنوا بكتاب ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لأنفسكم.

قيل : كان رفاعه بن زيد ، وسويد بن الحارث أظهر الإيمان ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما ^(٢) . فأُنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

ثمَّ حذَّره عن مخالفة نهييه بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عذابه في موالاتهم ﴿إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ عن صميم القلب بالله واليوم الآخر ، فإنَّ حقيقة الإيمان تلازم الاتِّقاء عن مخالفة أحكام الله ومولاة أعدائه. ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨)

ثمَّ ذكر الله سبحانه استهزاءهم بالصَّلاة التي هي أعظم العبادات وركن دين الإسلام ازديادا لتنفير قلوب المسلمين منهم ، بقوله : ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ المسلمين ودعوتهم ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ بأن أذن المؤدِّنون ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ فيما بينهم ، أو عند أنفسهم ﴿هُزُؤًا﴾ وسخرية ﴿وَلَعِبًا﴾ وعبثا لاعتقادهم بأنَّه لا فائدة فيها ، و﴿ذَلِكَ﴾ الاستهزاء واللَّعب معلَّل ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حسن عبادة الله والخضوع له ، وقباحة الجزء بها ، ولو كان لهم عقل لما اجتروا على تلك العظيمة. قال بعض الحكماء : أشرف الحركات الصَّلاة ، وأنفع السَّكنات الصوم ^(٣) .

في استهزاء اليهود بدين الإسلام

قيل : كان المؤدِّنون إذا أذَّنوا للصَّلاة تضاحكت اليهود فيما بينهم ، وتغامزوا سفها واستهزاء بالصَّلاة ، وتجهيلا لأهلها ، وتنفيرا للنَّاس عنها ^(٤) . وقيل : كان منادي رسول الله ﷺ ينادي للصَّلاة ، وقام المسلمون إليها ، فقالت اليهود : قاموا لا قاموا ، صلُّوا لا صلُّوا ؛ على طريق الاستهزاء ، فنزلت الآية ^(٥) .

(١) في النسخة : وعاملوا.

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٣٣ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٠٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٢ : ٣٣ .

وقيل : كان المنافقون يتضحكون عند القيام إلى الصلاة تنغيصاً للناس عنها ^(١) .
وقيل : قالوا : يا محمد ، لقد أبدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى ، فإن كنت نبياً فقد خالفت فيما
أبدعت جميع الأنبياء ، فمن أين لك صياح كصياح العير ! فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٢) .
وقيل : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، يقول :
أحرق الكاذب فدخلت خادمته بنار ذات ليلة ، فتطايرت منها شرارة في البيت ، فاحترق البيت ، واحترق
هو وأهله ^(٣) .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾

ثم لما حكى الله عز وجل استهزاء أهل الكتاب بالدين أمر نبيه ﷺ بتوبيخهم بقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُومُونَ﴾ وتكرهون ﴿مِنَّا﴾ وتسخطون علينا بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا﴾ بسبب ﴿أَنْ آمَنَّا
بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته وكمال صفاته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ على سائر الأنبياء ﴿مِنْ قَبْلُ﴾
نزول القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون عن قبول
الحق ، كافرون بجميع الكتب ، حيث إنكم إن كنتم مؤمنين بكتبكم الناطقة بصحة القرآن لآمنتكم به .
وقيل : إن المراد : ولأجل أنكم فاسقون ، ولسنا مثلكم ^(٤) ، أو لأجل اعتقادنا بأنكم فاسقون ^(٥) .
قيل : إنما قال : ﴿أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ لأن أكثرهم كانوا متمردين طلباً للرئاسة والجاه والخطام ، لا
للسببه في الرسالة والدين ، أو لئلا يظن من آمن منهم [أنه] داخل في ذلك ^(٦) .
عن ابن عباس رضي الله عنه : أن نفراً من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من
الرسول وسألوه عن دينه ، فقال : « اومن بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والتبىون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون
» ، فحين سمعوا ذكر عيسى قالوا : لا نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من
دينكم . فأنزل الله هذه الآية ^(٧) .

﴿قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ٣٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ٣٤ .

(٥ و ٦) . تفسير الرازي ١٢ : ٣٥ .

(٧) مجمع البيان ٣ : ٣٣٠ .

مِنْهُمْ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ

السَّبِيلِ (٦٠)

ثمَّ أَهَمَّ لَهَا زَعَمُوا أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ شَرُّ الْأَدْيَانِ ، وَأَهْلُهُ شَرُّ النَّاسِ ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ ﷺ بِتَبْكِيَّتِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : ﴿هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ﴾ وَاخْبِرْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴿بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ﴾ الَّذِي زَعَمْتُمْ شَرَّهُ ، وَنَقَمْتُمْ مِنْهُ ﴿مَثُوبَةً﴾ وَجَزَاءٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَفِي حُكْمِهِ .

ثمَّ كَأَنَّهُمْ قَالُوا : مَنْ هُوَ ؟ فَأَجَابَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ : دِينَ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ ^(١) ﴿وَعَصِبَ عَلَيْهِ﴾ بِكُفْرِهِ ، وَسُوءِ سِرِّيَّتِهِ ، وَانْهَمَاكِهِ فِي الْمَعَاصِي بَعْدَ وَضُوحِ الْآيَاتِ ﴿وَجَعَلَ﴾ جَمَاعَةً ﴿مِنْهُمْ الْقِرْدَةُ﴾ فِي زَمَانِ دَاوُدَ بَدْعَائِهِ عَلَيْهِمْ حِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ ، ﴿وَوَجَعَلَ﴾ جَمَاعَةً ﴿الْخَنَازِيرُ﴾ فِي زَمَانِ عِيسَى حِينَ كَفَرُوا بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ وَأَكَلَهَا ، ﴿وَوَجَعَلَ﴾ بَعْضًا ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ وَأَطَاعَ الشَّيْطَانَ .

وَرَوَى أَنَّ الْمَسْخِينَ كَانُوا فِي أَصْحَابِ السَّبْتِ ، فَإِنْ شَبَّاهُمْ مَسَخُوا قِرْدَةً ، وَمَشَابِيهِهُمْ مَسَخُوا خَنَازِيرَ ^(٢) .

قِيلَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِلْيَهُودِ : يَا إِخْوَةَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ ، فَكَسَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَافْتَضَحُوا ^(٣) .

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالطَّاغُوتِ : الْعَجَلُ ^(٤) ، وَقِيلَ : الْأَحْبَارُ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ^(٥) .
ثُمَّ قَرَّرَ شَرَّ مَثُوبَتِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَلْعُونُونَ الْمَسْخُوحُونَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿شَرُّ مَكَانًا﴾ وَأَسْوَءَ مَقَرًّا مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَكَانَهُمْ سَقَرٌ ، وَلَا مَكَانَ أَشَدَّ شَرًّا مِنْهُ ^(٦) ﴿وَوَجَعَلَ﴾ هُمْ ﴿أَضَلُّ﴾ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَقَصِدَ الطَّرِيقَ وَالنَّهْجَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي لَا انْحِرَافَ فِيهِ عَنْ الْحَقِّ إِلَى غُلُوِّ الْيَهُودِ وَالتَّضَارُّي . وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ صِفَتِي التَّفْضِيلِ لِلزِّيَادَةِ ، لَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٣٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٨ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٨ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، تفسير الرازي ١٢ : ٣٧ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، تفسير الرازي ١٢ : ٣٧ .

(٥ و ٦) . تفسير الرازي ١٢ : ٣٧ .

ثم وبَّخ الله تعالى اليهود بنفاقهم وقساوة قلوبهم وعدم تأثرهم بالمواعظ والآيات بقوله : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ وَحَضَرُوا عِنْدَكُمْ قَالُوا﴾ لكم نفاقا : ﴿آمَنَّا﴾ بما آمنتم ، واتبعنا الرسول ، ﴿وَالْحَالُ أَهَمُّ قَدْ دَخَلُوا﴾ مجلسكم ملابسين ﴿بِالْكَفْرِ﴾ ملازمين له ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ من ذلك المجلس متلبسين ﴿بِهِ﴾ لم يؤثر فيهم ما سمعوا وشهدوا من المواعظ والآيات ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ويستترون منكم من الكفر والحسد ، والاجتهاد في المكر بالمسلمين ، والبغض والعداوة.

قالوا : نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقا ، فأخبره الله بشأنهم ، فإتَّهم يخرجون من مجلسه كما دخلوا ، لم يتعلَّق بقلوبهم شيء من الدلائل والنصائح والتذكيرات ^(١) .

وقيل : ضمير الخطاب في الجمع راجع إلى الرسول ﷺ ، والجمع للتعظيم ^(٢) .

وعن القمي : « نزلت في عبد الله بن أبي » ^(٣) .

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ * لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ رَبَّنَا يُؤْنِئُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٢) و (٦٣)

ثم استشهد الله على نفاقهم بسوء أعمالهم بقوله : ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد وتبصر ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ﴾ غير مستحيين منك ، ويشرعون بالعجلة شوقا ورغبة ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ وقول الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ والظلم على الخلق ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وأخذ الرشوة ، والله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من تلك المعاصي العظام.

ثم وبَّخ سبحانه الزهاد والعلماء على ترك نهيهم عن المنكرات بقوله : ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ﴾ ويردعهم ﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ من اليهود ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ وكلامهم الكذب ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ والمال الحرام ، مع علمهم بقبحها وحرمتها ، ومشاهدتهم مباشرتهم لها ، بالله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من المداراة مع العصاة ، وترك نهيهم عن المنكر.

قيل : الربانيون علماء أهل الإنجيل ، والأخبار علماء اليهود ، وقيل : كلهم في اليهود ^(٤) .

في ذم تارك النهي عن المنكر

قيل : في الآيتين دلالة على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه ؛ لأنه تعالى

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٣٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ٥٦ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤١٢ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٨ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٣٥ ، تفسير الرازي ١٢ : ٣٩ .

ذمهما بلفظ واحد ، بل قيل : إنّ ذمّ تارك التّهي عن المنكر أقوى من ذمّ مرتكبه ؛ لأنّ الله تعالى قال في ذمّ تارك التّهي عن المنكر : ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصّنع أقوى من العمل ؛ لأنّ الصّنع هو العمل إذا صار راسخا ، فجعل ذنب تارك التّهي ذنبا راسخا (١) .

عن ابن عبّاس رضى الله عنه : هي أشدّ آية في القرآن. وقال الضّحّاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها (٢) .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّهم وتقرّيعهم بأعمالهم السيئة ، ذمّهم بعقائدهم السّخيفة الفاسدة بقوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة ممسكة عن العطاء.

قال بعض المفسّرين من العامّة : إنّ اليهود كانوا أكثر النّاس مالا وأخصبهم ناحية ، فلمّا بعث الله محمّدا ﷺ وكذّبوه ضيق الله عليهم المعيشة ، فوصفوا الله بالخل (٣) .
وعن الحسن : أنّهم عبّروا عن عدم تعذيبهم في الآخرة إلّا أيّاما قليلة بهذه العبارة الدّالة على العجز (٤).

وعن القمّي : [قالوا :] قد فرغ الله من الأمر ، لا يحدث الله [غير ما قدره] في التّقدير الأوّل (٥).
وفي (التوحيد) : عن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « لم يعنوا أنّه هكذا ، ولكنّهم قالوا : قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص » (٦) .

وعن الرضا عليه السلام ، في كلام له في إثبات البداء مع سليمان المروزي وقد كان ينكره ، فقال عليه السلام : « أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب ؟ » ، قال : أعوذ بالله من ذلك ، وما قالت اليهود ؟ قال : « [قالت :] يد الله مغلولة ، يعنون أنّ الله قد فرغ من الأمر ، فليس يحدث شيئا » . (٧) الحديث.
ثمّ دعا سبحانه عليهم بقوله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في نار جهنّم ، أو المراد : ألبسهم الله الفقر حتّى عجزوا عن الإنفاق والإعطاء ﴿وَلُعِنُوا﴾ وابتعدوا عن الرّحمة ﴿بِمَا قَالُوا﴾ من الكلمة الشّنيعة ، وبما

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٣٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٤١ ، تفسير روح البيان ٢ : ٤١٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ٤١ .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٩ .

(٦) التوحيد : ١٦٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٩ .

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٨٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٥٠ .

اعتقدوا من العقائد السخيفة.

ثم ردّهم بقوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقدرته ورحمته واسعتان ، وخزائنه غير نافذة ﴿يُنْفِقُ﴾ منها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويختار على من يشاء ، يوسع تارة ويضيّق أخرى ، على حسب ما تقتضيه حكمته .
فَالِدَانِ كِنَايَةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ ، وَالْجُودُ وَإِسْنَادُ الْبَسْطِ إِلَيْهِمَا كِنَايَةٌ عَنِ غَايَةِ الْجُودِ ، حَيْثُ إِنَّ مِنْ لَهُ غَايَةَ الْجُودِ يَعْطِي بِيَدَيْهِ جَمِيعًا .

ثم ذمّهم بازدياد كفرهم بنزول الآيات ، بقوله : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهم علماءهم ورؤسائهم - على ما قيل (١) - ﴿مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَانًا﴾ على طغيانهم ﴿وَكُفْرًا﴾ على كفرهم السابقين .

ثم ذكر ابتلاءهم بالعقوبات الدنيوية بقوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي فرقهم ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ المستمرتين ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حيث إنهم لما أنكروا الحقّ وعارضوا الرّسول طلبا للراحة ، وحفظا للجاه والرئاسة ، ابتلاههم الله بسبب اختلاف العقائد والأهواء بالمشقّات الكثيرة ، والغموم الوفيرة ، فحرموا عن نيل مقاصدهم ، وفاتتهم سعادة الدّنيا والآخرة ، ولذلك التّخالف والتّباعد بينهم ﴿كُلَّمَا أُوقِدُوا﴾ وأشعلوا ﴿نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ مع الرّسول ﷺ ، وأثاروا فتنة بين المسلمين ﴿أَطْفَاءَهَا اللَّهُ﴾ وأخمدتها بإيقاع المنازعة والمعاداة فيهم ، فلا يتفقون على رأي ، فيكون ذلك سببا لانصرافهم عن الحرب ، ومقهوريتهم للمسلمين .

قيل : كان اليهود في أشدّ بأس وأمنع دار ، حتّى إنّ قريشا كانت تعتضد بهم ، وكان الأوس والخزرج تتكثّر بمظاهرتهم ، فذلّوا وقهروا ، وقتل النبيّ ﷺ بني قريظة ، وأجلى بني النضير ، وغلب على خير وفدك ، فاستأصل الله شأفتهم حتّى إنّ اليوم تجد اليهود أذلّ الناس (٢) .

ثم ذكر الله سبحانه غاية جهدهم في استخراج أنواع الحيل والمكر في تضعيف الإسلام ، مع غاية ذلّهم وضعفهم ، بقوله : ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ مع الوصف ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لِيُوقِعُوا ﴿فَسَادًا﴾ بين المسلمين .
قيل : إنهم لما خالفوا حكم التّوراة سلّط الله عليهم بخت نصّر ، ثمّ أفسدوا فسّلط عليهم بطرس الرّومي ، ثمّ أفسدوا فسّلط عليهم المجوس ، ثمّ أفسدوا فسّلط عليهم المسلمين .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض والسّاعين فيها لإثارة الفتن ، بل هو ممقوت عنده (٣) .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتٍ

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤١٤ .

(٢) تفسير الصافي ٢ : ٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٤٥ .

التَّعِيم (٦٥)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا ، وَتَحْجِينَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَبَحْثَهُمْ عَلَى سَفَهَتِهِمْ وَخَطَأِهِمْ فِي الرَّأْيِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ نَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الرِّذَائِلِ ، وَأَنْصَرَفُوا عَنِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، وَ﴿آمَنُوا﴾ بِالرَّسُولِ ، وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ ﴿وَاتَّقُوا﴾ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ وَالْإِفْسَادَ وَسَائِرَ الْمَعَاصِي ، وَاللَّهُ ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَلَسْتَرْنَا عَلَيْهِم بِالْعَفْوِ خَطِيئَاتَهُمْ ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وَخَلَدْنَا لَهُمْ فِي الْعَلِيِّينَ ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَإِنْ جَلَّ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦)

ثمَّ ذَكَرَ الْفَوَائِدَ الدَّنْيَوِيَّةَ لِلْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وَعَمِلُوا بِأَحْكَامِهِمَا ، وَحَفِظُوا مِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَوَفُوا بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَهْدِ عَلَيْهِم بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، أَوِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمَصْدَقَ لِكُتُبِهِمْ ، وَاللَّهُ ^(١) ﴿لَأَكْلُوا﴾ وَارْتَقَوْا مِنَ الْبَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَ﴾ مِمَّا يَخْرُجُ ﴿مِنْ﴾ الْأَرْضِ الَّتِي ﴿تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ مِنَ الْحَبُوبِ وَالْفَوَاكِهِ وَالتَّنْبَاتَاتِ.

وَفِيهِ تَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الضَّنْكِ وَالضَّيْقِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ شَوْمِ جَنَائِزِهِمْ وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ تَرَكُوهُمَا لَوَجَدُوا سَعَادَةَ الدُّنْيَا مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَالْعِزِّ وَالْجَاهِ ، وَسَعَادَةَ الْآخِرَةِ مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالتَّعَمُّ الدَّائِمَةِ ، فَلَا قَبْصُورَ فِي فَيْضِ الْفَيَاضِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مَحَلَّ الْأَسْفَى أَنَّ قَلِيلًا ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ وَجَمَاعَةٌ ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ عَادِلَةٌ غَيْرُ مَائِلَةٍ إِلَى طَرَفٍ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، وَغَيْرُ مَنْحَرِفَةٍ عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى الْعُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ.

عَنِ الْقَمِّيِّ رحمته الله : قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ مُقْتَصِدَةً ^(٢) .

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قِيلَ : فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ . وَالْمَعْنَى : مَا أَسْوَأَ عَمَلِهِمْ ! وَهُمْ الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الْجُحُودِ ، وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ ^(٣) وَالضَّلَالِ ، وَعَارَضُوا الرَّسُولَ ﷺ .

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

(١) قَوْلُهُ : (وَاللَّهُ) يُشِيرُ إِلَى وَجُودِ قِسْمٍ ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ قِسْمٍ فِي الْآيَةِ.

(٢) تَفْسِيرُ الْقَمِّيِّ ١ : ١٧١ ، تَفْسِيرُ الصَّائِي ٢ : ٥١ .

(٣) تَفْسِيرُ الصَّائِي ٢ : ٥١ .

يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٧)

ثم لما وصف الله سبحانه المقتصد منهم بالقلّة ، والجاحدين المتمرّنين منهم على الكفر والعناد بالكثرة ، حتّى الرسول ﷺ بالتبليغ وعدم المبالاة بكثرة الأعداء الجاحدين ، مع وعده بالعصمة من شرّ الأعداء بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ إلى الناس ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في عليّ ، على ما تضافر عنهم عليه السلام وقالوا : « كذا نزلت » (١) .

ثم هدّد نبيّه ﷺ على ترك التبليغ إعدارا له وإظهارا للاهتمام بالأمر بقوله : ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ما أمرك من تبليغ هذا الذي أنزل في عليّ ﷺ وكتمته ﴿فَمَا بَلَّغْتَ﴾ من قبل الله إلى الناس ﴿رِسَالَتَهُ﴾ وما امرت من أول بعثتك بتبليغه ؛ لعدم ترتّب الفائدة على سائر الأحكام التي بلّغتها بدون تبليغ هذا الأمر ، فتكون بترك تبليغ ولاية عليّ بمنزلة تارك التبليغ رأسا ، ويكون عقابك عقابه ﴿وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ﴾ ويحفظك ﴿مِنْ﴾ شرّ ﴿النَّاسِ﴾ وضرّهم ، فلا تخف منهم ولا تبال بهم.

ثم أكّد سبحانه وعده بعصمته وحفظه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولا يمكنهم من إنفاذ مرامهم.

قيل : بنزولها في قضية الرّحم والقصاص (٢) . وقيل : في قضية أخذ الأعرابي سيف النبي ﷺ ، وإرادته قتله فسقط من يده (٣) . وقيل : في أمر زيد وزينب بنت جحش (٤) . وقيل : في حقوق المسلمين (٥) . وقيل : في استهزاء اليهود وسكوت النبي ﷺ عنهم (٦) . وقيل : في سكوت النبي عن تعيب الأصنام (٧) . وقيل : في تبليغ حكم الجهاد (٨) . وقيل : لرفع مهابة قريش وأهل الكتاب من قلب النبي ﷺ حين عاجمهم (٩) .

أقول : لا شبهة في نزولها في حجة الوداع ، فتلك الوجوه التي ذكرها مفسّرو العامة غير مناسبة لنزولها في الوقت المذكور.

ثم أنّ الفخر الرازي بعد نقل الوجوه المذكورة عن العامة في تفسيره قال : العاشر - أي من الوجوه - : أنّها نزلت في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، فلقبه عمر فقال : هنيئا لك يا بن أبي طالب ، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة . وهو قول ابن عباس ، والبراء بن عازب ، ومحمّد بن علي (١٠) .

أقول : قال آية الله العلامة الحليّ في (نهج الحق) بعد ذكر الآية الشريفة : نقل الجمهور أنّها نزلت في فضل عليّ عليه السلام يوم غدير خمّ ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ عليه السلام وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَسْتُ

(١) تفسير الصافي ٢ : ٥١ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٤٩ .

(٣ و ٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٢ : ٤٩ .

منكم بأنفسكم ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من أخذه ، وأدر الحق معه كيفما دار » ^(١) .

وقال فضل بن روزبهان ردّا على العلامة : أمّا ما ذكره من إجماع المفسرين على أنّ الآية نزلت في عليّ فهو باطل ، فإنّ المفسرين لم يجتمعوا ^(٢) على هذا ، وأمّا ما روي [من] أنّ رسول الله ﷺ ذكره يوم غدیر [خم] حين أخذ بيد عليّ قال : « أ لست أولى » ، فقد ثبت هذا في الصحاح ^(٣) .

وقال القاضي نور الله التستري (نور الله مضجعه) ، في ردّ الناصب ابن روزبهان ، وإثبات رواية العلامة (أعلى الله في الخلد مقامه) : روي الحديث - يعني ما ذكره العلامة - في صحاح القوم كالبحاري ، ورواه أحمد بن حنبل إمامهم في مسنده بطرق متعدّدة على الوجه الذي ذكره المصنّف ، وكذا رواه الثعلبي في تفسيره ، وابن المغازلي الشافعي في كتاب (المناقب) من طرق شتى ، وابن عقدة في مائة وخمسة طرق ، وذكر الشيخ ابن كثير الشامي الشافعي عند ذكر أحوال محمّد بن جرير الطبري : أنّي رأيت كتابا جمع فيه أحاديث غدیر خم في مجلدين ضخمين ، ونقل عن ابن أبي المعالي الجويني أنّه كان يتعجّب ويقول : شاهدت مجلدا ببغداد في يد صحّاف فيه روايات هذا الخبر مكتوبا عليه : المجلد الثامن والعشرون من طرق « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ويتلوه المجلد التاسع والعشرون ، وأثبت الشيخ ابن الجوزي الشافعي في رسالته الموسومة ب (أسنى المطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب) تواتر هذا الحديث .

إلى أن قال القاضي : وبالجملّة قد بلغ هذا الخبر في الاشتهار إلى حدّ لا يوازي به خبر من الأخبار ، وتلقّته محقّقو الأئمة بالقبول ، أنتهى ^(٤) .

وفي (الجوامع) ، عن ابن عباس ، وجابر بن عبد الله : أنّ الله أمر نبيّه ﷺ أن ينصب عليّا للناس ويخبرهم بولايته ، فتحوّف أن يقولوا : حامى ابن عمّه ، وأنّ يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه . فنزلت هذه الآية ، فأخذ بيده يوم غدیر خم وقال : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه » وقرأها ^(٥) .

وفي (الكافي) : عن الباقر عليه السلام - في حديث - : « ثمّ نزلت الولاية ، وأنما أتاه ذلك يوم الجمعة بعرفة ، أنزل الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ^(٦) ، وكان كمال الدّين بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال عند ذلك رسول الله ﷺ : أمّتي حديثو عهد بالجاهليّة ، ومتى أخبرتهم بهذا

(١) ضج الحق : ١٧٣ .

(٢) في المصدر : لم يجتمعوا .

(٣) إحقاق الحق ٢ : ٤٨٢ .

(٤) إحقاق الحق ٢ : ٤٨٥ .

(٥) جوامع الجامع : ١١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٥١ .

(٦) المائدة : ٥ / ٣ .

في ابن عمي يقول قائل ، ويقول قائل ، فقلت في نفسي من غير أن ينطق لساني ، فأنتني عزيمة من الله بتلة (١) ، أوعدني إن لم أبلغ أن يعدّني ، فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الآية ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ عليه السلام فقال : أيّها الناس ، إنّه لم يكن نبيّ من الأنبياء ممّن كان قبلي إلّا وقد عمّره الله ثمّ دعاه فأجابه ، فاوشك أن ادعى فاجيب ، وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون ، فقالوا : نشهد أنّك قد بلغت ونصحت وأدّيت ما عليك ، فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين ، فقال : اللهم اشهد - ثلاث مرّات - ثمّ قال : يا معشر المسلمين ، هذا وليكم من بعدي ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب» (٢).

وقال أبو جعفر عليه السلام : « كان والله ، أمين الله على خلقه وغيبه ودينه الذي أرتضاه لنفسه » (٣). وعنه عليه السلام : « أمر الله عزّ وجلّ رسوله بولاية عليّ عليه السلام وأنزل عليه : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (٤) الآية ، وفرض ولاية اولى الأمر ، فلم يدروا ما هي ، فأمر الله محمّدا ، أن يفتر لهم الولاية كما فسرّ لهم الصلّاة والزكاة والصوم والحجّ ، فلمّا أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله ﷺ ، وتحوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذبوه ، فضاق صدره وراجع ربّه عزّ وجلّ ، فأوحى الله إليه : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ الآية ، وصدع بأمر الله تعالى ذكره ، فقام بولاية عليّ عليه السلام يوم غدیر خمّ ، فنادى : الصلّاة جامعة ، وأمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب » .

قال عليه السلام : « وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى ، وكانت الولاية آخر الفرائض ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قال : يقول الله عزّ وجلّ : لا انزل عليكم بعدها فريضة ، قد أكملت لكم الفرائض » (٥) . الخبر ، إلى غير ذلك من الروايات. ومع ذلك قال الفخر الرازي : واعلم أنّ الروايات وإن كثرت إلّا أنّ الأولى حملة على أنّه تعالى آمنه من اليهود والنصارى ، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم وذلك لأنّ ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنصارى ، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبيّة عمّا قبلها وما بعدها (٦) .

وفيه : أنّ الظاهر أن الله آمنه من ضرر جميع الكفار سواء أكانوا يهودا أو نصارى أو غيرهم من المجوس والمشركين ، المرتدّين في زمانه ، والمنافقين ، كأصحاب الصحيفة الملعونة والعقبة. ومن المعلوم أنّ العامّ ليس أجنبيّا عن الخاصّ ، مع أن الظاهر بل المتيقّن أنّ الآية نزلت بعد تبليغ غالب

(١) أي قاطعة.

(٢) الكافي ١ : ٢٢٩ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٥٢ .

(٣) الكافي ١ : ٢٣٠ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٥٢ .

(٤) المائدة : ٥ / ٥٥ .

(٥) الكافي ١ : ٢٢٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٥٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٥٠ .

الأحكام ، بل بعد تكميل الدين ، فلو كان المقصود تأمينه في تبليغ مطلق الأحكام كان الأنسب نزولها في أوائل البعثة ، أو في أوائل الهجرة ، والحال أنه ﷺ كسر الأصنام ووبّخ المشركين مع غاية شوكتهم وحرصهم على عبادتها ، ولعن اليهود والنصارى على رؤوس الأشهاد ، وحول القبلة من البيت المقدس إلى الكعبة ، وقتل المشركين واليهود ، ولم ينقل منه ﷺ خوف في مورد من الموارد .

والحاصل : أنه لم يكن للنبي ﷺ خوف في تبليغ الأحكام وتعليم العقائد سيما بعد تذليل اليهود ، وقتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وفتح قلاع خيبر وفدك ، مع أنه ليس من شأن النبي ﷺ الخوف من الأعداء في التبليغ لعلمه بأن الله يحفظه حتى يتم الحجة .

وبعد تكميل الدين وإتمام الحجة على العالمين ، يكون مجال الخوف من القتل عند تبليغ آخر الأحكام ، وهو وجوب طاعة الإمام والخليفة بعده ، فاحتاج إلى التأمين فيه من العدو فامنه بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ ويشهد لذلك ما رواه كثير من العامة في شأن نزول آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(١) .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)

ثم أنه تعالى بعد تسفيه أهل الكتاب في ترك العمل بما أنزل الله ، وتخطئتهم في عدم الإيمان بالقرآن ، وتأمين الرسول من ضرر الكفار ، أمره بتعليق القول عليهم في ترك العمل بالكتب السماوية بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لليهود والنصارى تحقيرا لهم ، وتصغيرا لشأنهم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين ، ولا يكون في قولكم وفعلكم شيء من الحق والصواب ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من سائر الكتب السماوية ، أو من القرآن العظيم ، وتؤمنوا بجميعها ، وتوفوا بعهد الله الذي فيها من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ وكتاباه ، وتلتزموا بما فيها .

ثم بين غاية خبثهم وشدة عداوتهم بقوله : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من الآيات الدالة على صدقك في النبوة ﴿طُغْيَانًا﴾ وعتوا ﴿وَكُفْرًا﴾ وجحودا ، فإذا كانوا بهذه المرتبة من الخباثة والعناد ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ ولا تحزن ﴿عَلَى﴾ زيادة كفر ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن ضرر ذلك

(١) المعارج : ٧٠ / ١ ، راجع : تفسير القرطبي ١٨ : ٢٧٨ ، وتفسير أبي السعود ٩ : ٢٩ ، والدر المنثور ٨ : ٢٧٧ ، والغدير ١ : ٢٣٠ .

راجع إليهم ، لا إليك ولا إلى المسلمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩)

ثم أنه تعالى بعد تغليظ القول على الكافرين من أهل الكتاب ، أظهر اللطف بالمؤمنين منهم بقوله:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ الذين هم أشدّ الفرق كفرا وضلالا
﴿وَالنَّصَارَى﴾ خصوص ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
قد مرّ تفسيره في البقرة (١) .

قيل : فيها تنبيه على أن لا فضيلة لأحد إلا بالإيمان والعمل الصالح من غير فرق بين من آمن أولا ،
أو بعد الكفر ، فمن اتّصف بالوصفين كان له الأمن في القيامة (٢) .
أقول : لا شك في فضيلة الأول على الثاني.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا
تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠)

ثم سلّى سبحانه نبيه ﷺ بتذكّر أنّ حث ذات طائفة بني إسرائيل وعتوهم بنقض عهد الله ، وقتل
الأنبياء واتباع الهوى ، ليس مختصا بزمانه بقوله : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بالتوحيد والإيمان ،
والعمل بأحكام التوراة ﴿وَارْسَلْنَا﴾ مع ذلك العهد ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بعد موسى ﴿رُسُلًا﴾ كثيرة ليدكروهم العهد ،
ويبينوا أحكام دينهم.

ثم كأنه قيل : فما عاملوا (٣) مع الرسل ؟ فأجاب بقوله : ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رَسُولٌ﴾
من أولئك الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ ولا يوافق شهواتهم من التكاليف الشاقة عليهم ، والأحكام غير
المرضية لهم ، خالفوه وعادوه.

ثم كأنه قيل : كيف خالفوا الرسل ، وما عاملوا (٤) معهم ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿فَرِيقًا﴾ منهم
﴿كَذَّبُوا﴾ هم من غير أن يتعرّضوا لهم بالإضرار والقتل ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخر منهم كانوا ﴿يَقْتُلُونَ﴾ هم كركرتا
ويحیی .

(١) سورة البقرة : ٢ / ٦٢ .

(٢) تفسير روح المعاني ٦ : ٢٠٣ .

(٣ و ٤) . كذا ، والظاهر : كيف تعاملوا .

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ

مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾

ثم أشار سبحانه إلى علة جرأتهم على الأنبياء بقوله : ﴿وَحَسِبُوا﴾ وظنوا لغرورهم بكونهم أولاد الأنبياء ، وأتم بشفاعتهم يدفعون عنهم العذاب ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ لهم بمعاصيهم ﴿فِتْنَةً﴾ وبلاء من الله ﴿فَعَمُوا﴾ عن رؤية الآيات ، وكفّ بصرهم عن إدراك المعجزات ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق الذي ألقى إليهم الرّسل.

قيل : كانت تلك الحالة إلى زمان داود وسليمان عليهما السلام ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(١) بسبب إيمانهم بهما ، وانقيادهم لهما ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ عن الدّين وطريق الهداية ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع مواعظ الأنبياء مرّة أخرى ، ولكن لا كلّهم بل ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بعد بعثة عيسى عليه السلام وخاتم الأنبياء ﷺ ؛ لأنّ قليلا منهم آمنوا بهما.

قيل : إنهم أفسدوا حتّى سلّط الله عليهم بخت نصر ، فقتل من أهل بيت المقدس أربعين ألفا ممّن يقرأ التّوراة ، وذهب بالبقية إلى أرضه ، فبقوا هنالك على أقصى ما يكون من الدّل والنّكد إلى أن أحدثوا توبة صحيحة ، فردّهم الله إلى أحسن حال ، ثمّ أفسدوا مرّة أخرى فسلب الله عليهم ملك بابل^(٢) . ثمّ هدّدهم على سيئاتهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ وخبير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرّسل وقتلهم ، وسائر معاصيهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد الفراغ من ذمّ اليهود ، شرع في ذمّ النّصارى وبيان غاية كفرهم وضلالهم ، فبدأ بذكر الفرقة التي هي أضلّ فرقة بقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ واعتقدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهم اليعقوبيّة القائلون بحلول الله في عيسى ، واتّحاده معه ، ﴿وَقَالَ﴾ الحال أنّه ﴿قَالَ الْمَسِيحُ﴾ حين كونه فيهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ولا تشركوا به شيئا ، وخصّوه بالخضوع والطّاعة لكونه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخالقي وخالقكم.

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٥٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢١ .

واعلموا أنه قد اوحى إليّ ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئا في الألوهية والعبودية ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ فلن يدخلها أبدا لأهلها دار الموحدين ﴿وَمَا أَوَاهُ﴾ ومسكنه في الآخرة هو ﴿النَّارُ﴾ لأهلها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الشرك ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم ويدفعون عنهم العذاب بالغلبة أو الشفاعة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا

عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾

ثم ذم سبحانه الفرقة الأخرى منهم ، وهم الملكانية أو التسطورية - على ما قيل ^(١) - وحكم بكفرهم أيضا بقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ﴾ عيسى وامه إلهان ، وإنَّ ﴿اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ آلهة ، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ﴾ ومعبود مستحق بالذات للعبودية ﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومعبود فارد ، هو الواجب الوجود ، الكامل الصفات.

ثم هدّد الفريقين بقوله : ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ ولم يتردعوا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ويعتقدون من الشرك بالله ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ وليصيبنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وثبتوا على الشرك ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ بالنار ﴿أَلِيمٌ﴾ في الغاية.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾

ثم أنشأ معنى التعجب من اختيارهم هذه الأقاويل الفاسدة ، وإصرارهم عليها ، وأنكر عليهم ترك التوبة حتّا عليها بقوله : ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ .

قيل : إنّ التقدير : أيصرون على الكفر ، فلا يتوبون ^(٢) ؟ ! ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ حتّى يتوب عليهم ﴿و﴾ لا ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ حتّى يغفر لهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن عصاه بالكفر أو غيره من المعاصي إن آمن وتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بمن استرحمه.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾

ثم بيّن سبحانه غاية شأن عيسى وامه بقوله : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الذي تغلون في شأنه

﴿إِلَّا﴾

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٣ .

رجل مخلوق لله ، ومربوب له ، وإنما امتاز عن غيره بأنه ﴿رَسُولٌ﴾ ومبلغ عن الله شرائعه وأحكامه ، وله معجزات باهرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت في العالم ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الكثيرة ، خصّهم بالمعجز العظيمة ؛ كاليد البيضاء ، وإحياء العصا وجعلها ثعبانا ، وفلق البحر ، وغير ذلك ، ولم يدّع أحد ألوهيتهم بظهور المعجزات منهم ، هذا شأن عيسى عليه السلام ، ﴿وَأَمَّا أُمُّهُ﴾ مريم فإنها أيضا امرأة مخلوقة ، غاية شأنها أنّها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ موقنة ، مصدقة بكلمات ربّها وكتبه كسائر الصديقات ، مثل حوّاء وآسية. وأدلّ الدليل على عدم كونهما إلهين أنّهما ﴿كَانَا﴾ في الدنيا ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ والإله الخالق منزّه عن الحاجة إلى الطعام والشراب.

في (العيون) : عن الرضا عليه السلام : « معناه : أنّهما كانا يتغوّطان » (١) .

والقمي : « كانا يحدثان ، فكثرت عن الحدث ، وكلّ من أكل الطعام يحدث » (٢) .

أقول : عليه بعض مفسري العامة (٣) .

عن (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، في جواب الزنديق ، قال : « وأما هفوات الأنبياء وما بيّن الله في كتابه ، فإنّ ذلك من أدلّ الدلائل على حكمة الله الباهرة » إلى أن قال : « ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى ، حيث قال فيه وفي أمّه : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ يعني : أنّ من أكل الطعام كان له ثقل (٤) ، ومن كان له ثقل فهو بعيد ممّا أدعته النصارى لابن مريم » (٥) .

ثمّ باهى سبحانه بإبطال عقيدتهم بأحسن بيان بقوله : ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ونوضح ﴿لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ ونقيم البراهين المحكمات على بطلان عقائدهم.

ثمّ بالغ سبحانه في الإعلان بغاية ضلالتهم وبعدهم عن الحقّ بقوله : ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ وكيف يصرفون عن الحقّ واستماع الآيات والتأمّل فيها.

﴿قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ (٧٦)﴾

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بتوبيخهم ، وإقامة البرهان على فساد عقيدتهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء النصارى : ﴿أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ بنفسه وبذاته ﴿ضَرًّا﴾ من

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٠١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٣ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٣ .

(٣) راجع : تفسير القرطبي ٦ : ٢٥٠ .

(٤) كذا في المصدر والنسخة ، والظاهر : ثقل ، كما في تفسير الصافي ، والثقل : ما سفل أو رسب من كل شيء .

(٥) الاحتجاج : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٣ .

الآلام والأسقام والفقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من الصحة والغنى والعز.

ثم هددهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم ، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾

ثم أنه تعالى بعد تفضيح أهل الكتاب وذمهم وتوبيخهم ، أمر النبي ﷺ بنصحهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، مخاطبا للفريقين : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ ولا تجاوزوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ وعقائدكم عن الحدّ غلوا وتجاوزا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كادعاء الوهيّة عيسى وائمه ، وبنوّة عزيز الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ في العقائد والأعمال ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وميول أنفس جمع جمعوا جميع مراتب الضلال ، وهم أسلافهم وأئمتهم الذين ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الحق ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثة خاتم الرسل ﴿وَأَصْلُوا كَثِيرًا﴾ ممن تابعهم على ضلالهم وبدعهم ﴿وَضَلُّوا﴾ بعد ظهور نور الإسلام ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ والتهج الحق المستقيم الذي دعوا إليه.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾
﴿يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾

ثم لما نهاهم الله عن اتباع الأسلاف لكونهم في غاية الضلال والإضلال ، وكانوا مفتخرين بأنهم كانوا من أولاد الأنبياء ، بالغ سبحانه في ذمهم بكون أسلافهم ملعونين في السنة الأنبياء بقوله : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مع كونهم أقرب منكم إلى الأنبياء ، وقد كان لعنهم ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ .

في ذكر مسخ بني إسرائيل قردة وخنازير

عن الباقر عليه السلام : « أمّا داود فإنه لعن أهل أيلة ^(١) لما اعتدوا في سبتهم ، وكان اعتداؤهم في زمانه ، فقال : اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء على المنكبين ، ومثل المنطقة ^(٢) على الحقوين ^(٣) ، فمسخهم الله قردة ، وأمّا عيسى عليه السلام فإنه لعن الذين انزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك » ^(٤) .

(١) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا ، فمسخوا قردة وخنازير.

(٢) المنطقة : ما يشدّ في الوسط.

(٣) الحقو : الخصر.

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٥٧ ؛ تفسير الصافي ٢ : ٧٤ .

وزاد في (الجوامع) : « فقال عيسى عليه السلام : اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لا تعدّبه أحدا من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السّبب فصاروا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل »^(١).

وفي رواية عن الصادق عليه السلام : « الخنازير على لسان داود ، والقردة على لسان عيسى بن مريم »^(٢) . وبه قال أكثر المفسّرين ، على ما قيل^(٣) .

ثمّ كأنّه قيل : بأيّ سبب وقع ذلك ؟^(٤) فأجاب بقوله : ﴿ ذَلِكْ ﴾ اللّعن والمسّخ وقع ﴿ بِمَا عَصَوْا ﴾ الله . القمّي رحمه الله : كانوا يأكلون لحم الخنزير ، ويشربون الخمر ، ويأتون النّساء أيام حيضهنّ^(٥) ﴿ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ على النّاس ، أو يبالغون في العصيان ، وفي ارتكاب ما حرّم الله عليهم .

ثمّ بيّن كيفية مبالغتهم في المعصية بقوله : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ ولا يرتدعون ﴿ عَنْ مُنْكَرٍ ﴾ وإثم ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ .

وقيل : إنّ المعنى : لا ينهى بعضهم [بعضا] عن قبيح يعملونه ، وتصالحوا على السّكوت والكفّ عن النهي^(٦) .

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « لما وقع التّقصير في بني إسرائيل جعل الرّجل [منهم] يرى أخاه في الذّنْب فينهاه فلا ينتهي ، فلا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وجليسه وشربه ، حتى ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ونزل فيهم القرآن يقول جلّ وعزّ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية »^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « لم يكونوا يدخلون مدخلهم ، ولا يجلسون مجالسهم ، ولكن إذا لقوهم^(٨) أنسوا بهم »^(٩) .

ثمّ قال سبحانه تعجيبا من سوء فعلهم مؤكّدا له بأنفسهم بقوله : ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . القمّي رحمه الله ، عن الصادق عليه السلام أنّه سئل [عن] قوم من الشّيعيّة يدخلون في أعمال السّلطان ، ويعملون لهم ، ويجبون لهم ويوالوهم ؟ قال : « ليس هم من الشّيعيّة ، ولكنهم من أولئك ، ثمّ قرأ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ »^(١٠) .

(١) جوامع الجامع : ١١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٧٦ ، الكافي ٨ : ٢٠٠ / ٢٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٤ .

(٣) راجع : تفسير الرازي ١٢ : ٦٣ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٥ .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٥ .

(٦) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٥ .

(٧) ثواب الأعمال : ٢٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٥ .

(٨) في تفسير العياشي : ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم و .

(٩) تفسير العياشي ٢ : ٦٧ / ١٣٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٥ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ١٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٥ .

أقول : أظن أن ذكر الآية سهو من الراوي ، فإنَّ المناسب قوله : ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) .

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)﴾

ثم لما وصف الله تعالى أسلافهم بفساد العقائد والأعمال ، ذم الحاضرين منهم بموالاته الكفار بقوله : ﴿تَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهم كعب بن اشرف وأصحابه ، على ما قيل^(٢) . ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويتصادقون [مع] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإشراك بالله ، والله ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهيتأوا لسفر آخرتهم من الزاد وهو ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ﴾ وغضب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتوليهم الكفار ، وبغضهم الرسول والمؤمنين ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ بالنار ﴿هُمْ﴾ في الآخرة ﴿خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾

ثم بين سبحانه أنهم ليسوا على دين موسى عليه السلام أيضا بقوله : ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ هؤلاء اليهود الذين يتولون المشركين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ الذي يدعون أنهم على دينه ، ويعترفون بنبوته ، وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ من التوراة ، ما تصادقوا [مع] المشركين ، و﴿مَا اتَّخَذُوا هُمْ﴾ لأنفسهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء ؛ لأن حرمة مولاة المشركين متأكدة في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دين موسى وحكم التوراة ، وإنما غرضهم من إظهار التدنُّ بأحكام التوراة ودين موسى عليه السلام حفظ الجاه والرئاسة ، كذا قيل^(٣) .

وقيل : إنَّ المراد أنَّ المشركين لو كانوا مؤمنين بالله وبمحمد وكتابه ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء^(٤) . وذلك بعيد في الغاية .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَزُهَّابًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾

(١) المائة : ٥ / ٨٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٦٥ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٢ : ٦٥ .

ثم أنه تعالى بعد ذمهم بموالاة المشركين ، ذمهم بمعاداة المؤمنين كمعاداة المشركين لهم بقوله :
﴿لَتَجِدَنَّ أَلْفًا يَوْمَ يَكُونُ الْيَوْمُ لِلَّذِينَ آمَنُوا خَيْرًا مِنْ أَلْفٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) ، ولذا قال سبحانه : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا﴾
﴿وَأَدْعُوا﴾^(٢) **إِنَّا نَصَارَى** .

عن ابن عباس رضي الله عنه : المراد به النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على رسول الله ﷺ وآمنوا به ، ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين^(٣) .
قيل : إن الغرض من بيان التفاوت تخفيف أمر اليهود على الرسول ﷺ^(٤) ، وتفريغ خاطره عنهم ، وعدم مبالاته بهم .

قيل : كان جعفر يوم وصل المدينة إلى رسول الله ﷺ وصل في سبعين رجلا عليهم ثياب صوف ، منهم اثنان وستون رجلا من الحبشة ، وثمانية من أهل الشام منهم بحيرا الراهب ، فقرأ رسول الله ﷺ عليهم سورة يس إلى آخرها ، فبكوا حين سمعوا القرآن ، فأمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى . فأنزل الله هذه الآية^(٥) .

ثم كآته قيل : ما سبب كونهم أقرب مودة ؟^(٦) فأجاب بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الأقرية التي قلنا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ﴾ وعلماء ، ﴿وَوَ﴾ منهم ﴿رُهْبَانًا﴾ وعبادا ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بسبب علمهم وزهدهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق ، ولا يتأنفون من الإيمان بك كاليهود .
قيل : كان الذين آمنوا به أصحاب الصوامع^(٧) .

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ٦٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٨ .

(٥ و ٦) . تفسير روح البيان ٢ : ٤٢٨ .

ثم وصف شدة تأثرهم باستماع الحق بقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من آيات القرآن ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ﴾ عند استماعه ﴿تَفِيضٌ﴾ وتصب ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ لامتلائها منه ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ ما انزل على الرسول ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ .

عن ابن عباس : يريد النجاشي وأصحابه ، وذلك أن جعفر الطيار قرأ عليهم سورة مريم ، فأخذ النجاشي تبنة من الأرض وقال : والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا ، وما زالوا يكون حتى فرغ جعفر من القراءة ^(١) .

ثم كآته قيل : ما كانوا يقولون عند استماع القرآن ؟ ^(٢) فأجاب بقوله : ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بأن ما سمعناه هو الحق ، وشهدنا به ، إذن ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ وأثبت أسماءنا ﴿مَعَ﴾ أسماء ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ على أن ما أنزلته هو الحق ، واجعلنا في زمركم ﴿وَمَا﴾ العذر ﴿لَنَا﴾ ولأي علة ﴿لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا﴾ مع وضوح أنه ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الثابت من عند الله ، ﴿وَالْحَالُ أَنَا﴾ ﴿نَطْمَعُ﴾ ونتوقع ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في جنته ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ويرزقنا مرافقتهم وصحبهم ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ﴾ وجازاهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ من الاعتراف بالحق ، والشهادة عليه ، وإظهار الإيمان عن صميم القلب .

عن ابن عباس [قال : قوله : ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يريد بما سألوا] ، يعني قولهم : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ^(٣) . ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار ملتفة ، وغرف عالية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدا ﴿وَذَلِكَ﴾ الجزاء الأوفى من الله ﴿جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦)

ثم أردف الله سبحانه وعد المحسنين بالثواب بإيعاد الكافرين بالعقاب بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من القرآن بعد ما سمعوها ، وجحدوا المعجزات بعدما شاهدوها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ في الآخرة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموها .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧)

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٦٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ٧٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٦٩ .

ثم لما ناظر الله سبحانه ^(١) اليهود والنصارى ، وأبطل عقائدهم الفاسدة بالحجج القاطعة ، ومدح النصارى وقسيسهم ورجالهم بمودة المؤمنين ، وعدم الاستنكاف عن التسليم للحق ، وكان مجال توهم حسن الرهبانية ومشروعيتها في دين الإسلام ، بين حرماتها في هذا الدين ، وإباحة المأكولات والمشروبات الطيبة ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾ على أنفسكم ﴿طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ولذا نذ ما أباحه مما لا ضرر فيه عليكم ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تجاوزوا عن الحدود المقررة في دينكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عن حدوده ، المجاوزين عن شرائعه.

في التزام بعض الصحابة بترك الطيبات

عن الصادق عليه السلام : « نزلت في أمير المؤمنين صلوات الله عليه وبلال وعثمان بن مظعون ، فأما أمير المؤمنين فحلف أن لا ينام بالليل أبدا ، وأما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا ، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدا » .

وزاد القمي : « فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة ، فقالت عائشة : مالي أراك متعظلة ^(٢) ؟ فقالت : لمن أتزين ، فو الله ما قربني زوجي منذ كذا وكذا ، فإنه قد ترهب وليس المسوح ^(٣) وزهد في الدنيا ، فلما دخل رسول الله ﷺ أخبرته عائشة بذلك ، فخرج فنأدى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات ؟ ! [ألا] إني أنام بالليل ، وأنكح وأفطر بالنهار ، فمن رغب عن سنتي فليس مني ، فقام هؤلاء فقالوا : يا رسول الله ، فقد حلفنا على ذلك . فأنزل الله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ^(٤) .

وفي (الاحتجاج) : عن الحسن بن علي عليه السلام - في حديث - أنه قال لمعاوية وأصحابه : « أنشدكم الله ، أتعلمون أن عليا أول من حرّم الشهوات على نفسه من أصحاب رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ^(٥) .

في نهى النبي ﷺ عن الترهيب

وعن بعض مفسري العامة أنه ذكر النبي ﷺ يوما النار ، ووصف القيامة ، وبالغ في الإنذار ، فرق له الناس وبكوا ، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ، ويجبوا مذاكيرهم ^(٦) ، ويصوموا الدهر ، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ، ولا يأكلوا اللحم والودك ^(٧) ، ولا يقربوا النساء

(١) زاد في النسخة : مع .

(٢) أي غير متزينة بالحلي .

(٣) المسوح : جمع مسح ، وهو كساء من شعر ، ولباس الراهب .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٦٤ ، تفسير القمي ١ : ١٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٧٩ ، والآية من سورة المائدة : ٥ / ٨٩ .

(٥) الاحتجاج : ٢٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٠ .

(٦) حبّ المذاكر : قطعها .

(٧) الودك : الدسم والشحم .

والطَّيِّب ، ويسيحوا في الأرض ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه ، فقال لامرأته أم حكيم بنت أمية ، واسمها خولة ، وكانت عطّارة : « أحقّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه » فكرهت أن تكذب على رسول الله ﷺ ، وكرهت أن تبدي خبر زوجها ، فقالت : يا رسول الله ، إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق .

فرجع رسول الله ﷺ ، فلما جاء عثمان أخبرته زوجته بذلك ، فمضى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله النبي عن ذلك ، فقال : نعم ، فقال ﷺ : « أما إنّي لم أمر بذلك ، إنّ لأنفسكم [عليكم] حقّا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأكل اللحم والدسم ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنّي فليس مّي » .

ثمّ جمع الناس وخطبهم وقال : « ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنّوم وشهوات الدّنيا ؟ ! أمّا إنّي لا آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا ، فإنّه ليس من ديني ترك اللحم والنساء ، ولا اتّخاذ الصّوامع ، وإنّ سياحة امتي الصّوم ، ورهبانيتهم الاجتهاد ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وحرّجوا واعتمروا ، وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة ، وصوموا رمضان ، واستقيموا يستقيم لكم ، فإنّما هلك من هلك قبلكم بالشدّيد ، شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فاولئك بقاياهم في الدّيارات والصّوامع » ، فأنزل الله هذه الآية ^(١) .

وروي أنّ عثمان بن مظعون جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : إنّ نفسي تحدّثني بأن أختصي ، فأذن لي في الاختصاص . قال : « مهلا يا عثمان ، فإنّ اختصاص امتي الصّيام » .

قال : يا رسول الله ، إنّ نفسي تحدّثني بأن أترهب في رؤوس الجبال ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإنّ ترهب امتي الجلوس في المساجد لا تنتظار الصّلاة » .

قال : يا رسول الله ، إنّ نفسي تحدّثني بأن أخرج من مالي كلّهُ ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإن صدقتكم يوما بيوم ، وتعفّ نفسك وعيالك ، وترحم المساكين واليتيم فتعطيهم ، أفضل من ذلك » .

قال : يا رسول الله ، إنّ نفسي تحدّثني أن اطلق زوجتي خولة ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإنّ المحرّة في امتي من هجر ما حرّم الله عليه ، أو هاجر [إلّ] في حياتي ، أو زار قبري بعد وفاتي ، أو مات وله امرأة أو امرأتان أو ثلاث أو أربع » .

قال : يا رسول الله ، فإنّ نهيّتي أن لا اطلقها ، فإنّ نفسي تحدّثني أن لا أغشاها ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإنّ المسلم إذا غشي امرأته أو ما ملكت يمينه ، فلم يكن [له] من وقعته تلك ولد ، كان له وصيف في

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٣١ .

الجنة ، وإن كان له من وقته تلك ولد فمات قبله ، كان له فرطا وشفيعا يوم القيامة ، وإن مات بعده كان له نورا يوم القيامة » .

قال : يا رسول الله ، إن نفسي تحذني أن لا أكل اللحم ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإني أحب اللحم وأكله إذا وجدته ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه في كل يوم لأطعمنيه » .
قال : يا رسول الله ، إن نفسي تحذني أن لا أمس الطيب ؟ قال : « مهلا يا عثمان ، فإن جبرئيل أمرني بالطيب غبا ^(١) وقال : يوم الجمعة لا تترك له ، يا عثمان لا ترغب عن سنتي ، فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ، صرفت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة » ^(٢) .

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

ثم صرح سبحانه بإباحة المأكولات والمشروبات الطيبة بقوله : ﴿وَكُلُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ حال كونه ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ومباحا لذيذا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في تحريم ما حلل ، وتحليل ما حرم ، فإن الإيمان موجب للالتزام بأحكام الله والاجتناب عن مخالفتها والتجاوز عن حدوده .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْفَتُهُمْ أَوْ

تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ

وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

ثم لما كان نزول الآية في شأن بعض كبار الصحابة الذين حلفوا على ترك الطيبات وقالوا : يا رسول الله ، ما نضع بأيماننا ؟ بين الله حكم اليمين وكفارته بقوله : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ بالكفارة في الدنيا ، وبالتار في الآخرة ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وحلفكم غير المقصود به الجد ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ ووثقتم ﴿الْأَيْمَانَ﴾ بالسنتكم وقلوبكم إذا حنثتم ، فمن حلف وحنث ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ وما يستر به ذنبه ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ وتغذيتهم مشبعا ، أو إعطاء كل مدا ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وأقصد ما ترزقون عيالكم .

(١) الطيب غبا : أي يوم يتطيب ويوم لا .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٣١ .

في كفارة اليمين

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « الوسط : الخل والزيتون ^(١) ، وأرفعه الخبز واللحم ، والصدقة مد ^(٢) من حنطة لكل مسكين » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « كما يكون في البيت ، فمنهم من يأكل أكثر من المد ، ومنهم من يأكل أقل من المد فبين ذلك ، وإن شئت جعلت [لهم] ادما ^(٤) ، والادم أدناه الملح ، وأوسطه الخل والزيت ، وأرفعه اللحم » ^(٥) .

عن الباقر عليه السلام : « ما تقوتن به عيالك من أوسط ذلك . [قيل : وما أوسط ذلك ؟] فقال : الخل والزيت والتمر والخبز تشبعهم به مرة واحدة » ^(٦) .

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عنه عليه السلام ، قال : « ثوب واحد » ^(٧) .

وفي رواية : « ثوب يوراي [به] عورته » ^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام : « الكسوة ثوبان » ^(٩) .

أقول : هذا محمول على ما إذا لم يواره واحد .

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وإعتاق نسمة ذكرا كانت أو انثى ، صغيرا أو كبيرا ، لإطلاق الآية والرؤية .

وعن الصادق عليه السلام : « كل شيء في القرآن (أو) فصاحبه [فيه] بالخيار ، يختار ما يشاء » ^(١٠) .

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئا من الأمور المذكورة ، عن الكاظم عليه السلام ، أنه سئل عن كفارة اليمين ، ما

حدّ من لم يجد ، وإن الرجل يسأل في كفّه وهو يجد ؟ فقال : « إذا لم يكن عنده فضل من قوت عياله فهو

ممن لا يجد » ^(١١) ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ يكون كفارتها .

عن الصادق عليه السلام : « كل صوم يفرق فيه ، إلا ثلاثة أيام في كفارة اليمين » ^(١٢) .

وعنه عليه السلام : « صيام ثلاثة [أيام] في كفارة اليمين [متتابعات] لا يفصل بينهما » ^(١٣) .

وقرأ ابن مسعود : ثلاثة أيام متتابعات ^(١٤) .

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر وأمر به ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ من أن

تكثروا ومن أن يحنث فيها ، أو بالتكفير بعد حنثها ﴿كَذَلِكَ﴾ البيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ

آيَاتِهِ﴾ وحججه الدالة على معارفه وسائر أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة تعليمه وتبيينه

(١) في المصدر : والزيت . (٢) زاد في المصدر : مدّ .

(٣) الكافي ٧ : ٤٥٢ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٠ . (٤) الأدم : ما يستمرّ به الخبز .

(٥) الكافي ٧ : ٤٥٣ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(٦ و ٧) . الكافي ٧ : ٤٥٤ / ١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(٨) الكافي ٧ : ٤٥٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(٩) الكافي ٧ : ٤٥٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ . (١٠) تفسير العياشي ٢ : ٧١ / ١٣٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(١١) الكافي ٧ : ٤٥٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ . (١٢) الكافي ٤ : ١٤٠ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(١٣) الكافي ٤ : ١٤٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ . (١٤) تفسير الرازي ١٢ : ٧٧ .

جميع ما تحتاجون إليه.

في أقسام اليمين

عن الصادق عليه السلام : « الأيمان ثلاثة : [يمين] ليس فيها كفارة ، ويمين فيها كفارة ، ويمين غموس توجب النار ، فاليمين التي ليس فيها كفارة : الرجل يحلف [بالله] على باب برّ أن [لا] يفعل [فكفارته أن يفعله] ، واليمين التي تحب فيها الكفارة : الرجل [يحلف] على باب معصية أن لا يفعله فيفعله ، فتجب عليه الكفارة ، واليمين الغموس التي توجب النار : الرجل يحلف على حق امرئ مسلم و^(١) على حبس ماله » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فأتى ذلك ، فهو كفارة يمينه » ^(٣) .
وعنه عليه السلام : « ما حلفت عليه مما فيه البرّ فعليك الكفارة إذا لم تف به ، وما حلفت عليه مما فيه المعصية فليس عليك فيه الكفارة إذا رجعت عنه ، وما كان سوى ذلك مما ليس فيه برّ ولا معصية فليس بشيء » ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « لا حنث ولا كفارة على من حلف تقيّة ، يدفع بذلك ظلما عن نفسه » ^(٥) .
وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « لا يمين لولد مع والده ، ولا للمرأة مع زوجها » ^(٦) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)

ثم لما نهي الله تعالى عن تحريم طيبات ما أحلّ ، بيّن أنّ الخمر وما أُرْدِفها ليس منها ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الذي يدخل فيه كلّ مسكر ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وما يقامر به ﴿وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾ - وقد مرّ تفسيرهما ^(٧) - كلّ ذلك ﴿رِجْسٌ﴾ وقدر تتنقّر منه العقول السليمة ، كائن ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وتزيينه الدّاعي إليه ، وهو كناية عن نهاية قبحه . فإذا كان كذلك ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واحتزوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ باجتنابه ﴿تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بسعادة الدارين .

عن الباقر عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله ما الميسر ؟ فقال : كلّ ما تقوم عليه

حتى

(١) (و) ليست في الكافي .

(٢) الكافي ٧ : ٤٣٨ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨١ .

(٣) الكافي ٧ : ٤٤٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

(٤) الكافي ٧ : ٤٤٦ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

(٥) الخصال : ٦٠٧ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

(٦) الخصال : ٦٢١ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

(٧) تقدم في تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة .

الكعاب والجوز ، قيل : فما الأنصاب ؟ قال : ما ذبحوا لأهلتهن ، قيل : فما الأزلام ؟ قال : قداحهم التي يستقسمون بها ^(١) .

وعنه عليه السلام ، في هذه الآية : « أمّا الخمر ، فكلّ مسكر من الشراب إذا خمر فهو خمر ، وما أسكر ^(٢) كثيره فقليله حرام ، وذلك أنّ أبا بكر شرب قبل أن يحرم الخمر ، فسكر فجعل يقول الشعر ويكي على قتلى المشركين من أهل بدر ، فسمع النبي صلى الله عليه وآله فقال : اللهم فامسك على لسانه ، فلم يتكلم حتى ذهب عنه السكر ، فأنزل الله تحريمها بعد ذلك ، وإمّا كانت الخمر يوم حرّمت بالمدينة فضيخ ^(٣) البسر والتمر ، فلما نزل تحريمها خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقعد بالمسجد ثم دعا بآنيتهن التي كانوا يبنذون فيها فأكفأها كلّها وقال : هذه كلّها خمر ، وقد حرّمها الله ، فكان أكثر شيء كفى في ذلك اليوم من الأشربة الفضيخ ، ولا أعلم أكفى يومئذ من خمر العنب شيء ، إلا إناء واحد كان فيه زبيب وتمر جميعا . وأما عصير العنب فلم يكن يومئذ بالمدينة منه شيء ، حرّم الله الخمر قليلها وكثيرها ، وبيعها وشراؤها ، والانتفاع بها .

في عقاب شارب الخمر وحده

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد في الرابعة فاقتلوه .

وقال : حقّ على الله أن يسقي من شرب الخمر ممّا يخرج من فروج المومسات . والمومسات : الزواني يخرج من فروجهنّ صديد ؛ والصديد : قيح ودم غليظ مختلط يؤذي أهل النار حرّه وننته .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من شرب الخمر لم تقبل صلاته أربعين ليلة ، فإن عاد فأربعين ليلة من يوم شربها ، فإن مات في تلك الأربعين من غير توبة ، سقاه الله يوم القيامة من طينة خبال . وسمي المسجد الذي قعد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أكفئت الأشربة مسجد الفضيخ من يومئذ ، لأنّه كان أكثر شيء أكفى من الأشربة الفضيخ .

وأما الميسر ، فالترّد والشطرنج ، وكلّ قمار ميسر ، وأمّا الأنصاب فالأوثان التي كان يعبدونها المشركون ، وأمّا الأزلام فالأقداح التي كان يستقسم بها مشركو العرب في الأمور في الجاهليّة ، كلّ هذا يبيعه وشراؤه والانتفاع بشيء منه حرام من الله ، وهو رجس من عمل الشيطان ، فقرن الله الخمر والميسر مع الأوثان ^(٤) . وعن الباقر عليه السلام : « لعن رسول الله صلى الله عليه وآله في الخمر عشرة : عارسها ، وحارسها ، وعاصرها ، وشارها ،

(١) الكافي ٥ : ١٢٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

(٢) في تفسير القمي : فهو حرام وأمّا المسكر .

(٣) الفضيخ : شراب البسر من غير أن تمسه النار .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٨٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٢ .

وساقياها ، وحاملها ، والحمول إليه ، وبائعها ، ومشترها ، وأكل ثمنها » (١) .

في بيان حكمة حرمة الخمر والميسر

ثم أتت تعالى بعد الجمع بين الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في التهيي مبالغة في قبح تعاطيهما ، أفردتهما بذكر مفاسدهما الدنيوية والاخرية ، فبدأ بذكر مفاسدهما الدنيوية بقوله : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ** ﴾ بسبب تعاطيهما ﴿ **أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ** ﴾ مع غاية ائتلافكم ﴿ **الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** ﴾ والتنازع والتحاقد ﴿ **فِي** ﴾ شرب ﴿ **الْخَمْرِ وَ** ﴾ عمل ﴿ **الْمَيْسَرِ** ﴾ وبسببهما ، لوضوح أن ذهاب العقل والمال موجبان لهيجان الغضب على من خالف هوى السكران ، وذهب بمال المغلوب في المقامرة ، فتقع المنازعة بين المخمورين فيضاربون ويقاتلون ، والعداوة الشديدة بين الغالب والمغلوب في المقامرة.

ثم ذكر المفاسد الاخرية بقوله : ﴿ **وَيُضِلُّكُمْ** ﴾ الشيطان ويمنعكم ﴿ **عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ والتوجه إليه بالقلب.

ثم حصّ الصلاة بالذكر مع أنّها من الذكر بقوله : ﴿ **وَعَنِ الصَّلَاةِ** ﴾ تعظيما لشأنها بين العبادات ، وإشعارا بأنّ الصّد عنها كالصدّ عن الإيمان لأثما عماده وركنه.

ثم بالغ سبحانه بعد ذكر مفاسدهما في الردع عنهما بإنشاء الاستفهام التقريري عن انتهائهم عنها بقوله : ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ** ﴾ أيها المسلمون بعد هذا التهيي الأكيد والإطّلاع بمفاسدهما ﴿ **مُتَّهِونَ** ﴾ عنهما ، مرتدعون عن ارتكابهما أم لا ؟ !

روي أنّ عمر لما سمعها قال : قد انتهينا يا ربّ (٢) .

في بيان وجوه التأكيد في حرمة شرب الخمر

ففي الآيتين وجوه من التأكيد في تحريم الخمر والميسر :

الأول : حصر الرّجس فيهما وفي قرينتهما بكلمة (إنّما) .

والثاني : تقييدهما بعبادة الأوثان .

والثالث : الأمر باحتناهما .

والرابع : ترتيب الفلاح على تركهما .

والخامس : شرح مفاسدهما الدنيوية والاخرية .

والسادس : المبالغة في الردع عنهما والحثّ على اجتنابهما بالاستفهام التقريري عن انتهائهم عنهما ،

فإنّه أمر بالانتهاء مقرونا بأخذ الإقرار من المكلفين بامتناله .

(١) الخصال : ٤٤٤ / ٤١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٨١ .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾

ثم زاد سبحانه في التأكيد بقوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في نهييه عنهما ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ عن مخالفتيهما .

ثم هدّد على المخالفة بقوله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الامتثال والطاعة ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والرسالة بالبيان الواضح حتى تتم الحجة عليكم ، وقد فعل بما لا مزيد عليه ، وأتمّ الحجة بحيث لم يبق لكم مجال العذر ، فليس في مخالفتكم إلا استحقاق العقاب الشديد ، وهو إلينا لا إليه . عن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « أما والله ، ما هلك من كان قبلكم ، وما هلك من هلك حتى يقوم قائمنا إلا في ترك ولايتنا وجحود حقنا ، وما خرج رسول الله ﷺ من الدنيا حتى ألزم رقاب هذه الأمة حقنا ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا

وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

عن القمي عليه السلام : لما نزل تحريم الخمر والميسر والتشديد في أمرهما ، قال الناس من المهاجرين والأنصار : يا رسول الله ، قتل أصحابنا وهم يشربون الخمر ، وقد سمّاه الله رجسا وجعله من عمل الشيطان ، وقد قلت ما قلت ، أفيضر أصحابنا ذلك شيئا بعد ما ماتوا ؟

فأنزل الله سبحانه قوله : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٢) من فعل الواجبات وترك المحرمات ﴿جُنَاحٌ﴾ وبأس ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ وأكلوا واستلذّوا به من المأكولات والمشروبات . في (المجمع) : في تفسير أهل البيت عليه السلام : « فيما طعموا من الحلال » (٣) .

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ عن الكفر ﴿وَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ جميع الكبائر ﴿وَأَمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ الصغائر ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلى الخلق .
وقيل : التكرار للتأكيد .

(١) الكافي ١ : ٣٥٣ / ٧٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٤ .

(٣) مجمع البيان ٣ : ٣٧٢ .

ثم بين سبحانه أنّ فائدة الإحسان ليس منحصرة في نفي الجناح ، بل له فائدة عظيمة بقوله : **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** فإنّ حبّ الله عبده أعظم الفوائد في الدنيا والآخرة ، وأعلى المقامات للمؤمن ، ولذا سمّي رسول الله من بين الرسل بحبيب الله.

عن القمّي : هذا لمن مات قبل تحريم الخمر ، والجناح هو الإثم ، وهو على من شربها بعد التحريم^(١).
وقيل : **﴿فِيمَا طَعُمُوا﴾** [أي] ممّا لم يحرم عليهم **﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾** أي المحرم **﴿وَأَمْنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي ثبتوا على الإيمان والأعمال الصّالحات **﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾** أي ما حرم عليهم بعد كالخمر **﴿وَأَمْنُوا﴾** بتحريمه **﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾** أي استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي **﴿وَأَحْسَنُوا﴾** أي وتحزوا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها^(٢).

وروى البهائي (أعلى الله مقامه) في (حاشية أسرار التنزيل) عن (مصباح الشريعة) : عن الباقر ^(٣) **﴿إِنَّا﴾** : « التّقوى على ثلاثة أوجه : تقوى في الله^(٤) ؛ وهي ترك الحلال^(٥) فضلا عن الشبهة ، وهي تقوى خاصّ الخاصّ ، وتقوى من الله ؛ وهي ترك الشبهات فضلا عن الحرام ، وهي تقوى الخاصّ ، وتقوى من خوف التّار والعقاب ؛ وهي ترك الحرام ، وهي تقوى العامّ.

ومثل التّقوى كماء يجري في نهر ، ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التّقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر [من] كلّ لون وجنس ، وكلّ شجر يمتص الماء من ذلك النهر على قدر جوهره وطبعه ولطافته وكثافته ، ثمّ منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها ، قال الله تعالى **﴿صِنَوْنَ وَغَيْرَ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾**^(٦).

فالتّقوى في الطّاعات^(٧) كالماء للأشجار ، ومثل طبائع الأشجار [والأثمار] في لوّنها وطعمها مثل مقادير الإيمان ، فمن كان أعلى درجة في الإيمان وأصفى جوهرًا بالروح كان أتقى ، ومن كان أتقى كانت عبادته أخصّ وأظهر^(٨) ، ومن كان كذلك كان من الله أقرب ، وكلّ عبادة غير مؤسّسة على التّقوى فهي هباء منثور ، قال الله تعالى : **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾**^(٩) . انتهى كلامه صلوات الله عليه.

ثم قال الشيخ رحمته الله : فنقول في بيان ذلك : إنّ أوائل [درجات] الإيمان تصديقات مشوبة بالشكوك

(١) تفسير القمي ١ : ١٨٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٤ .

(٢) تفسير الصافي ٢ : ٨٤ .

(٣) في المصباح : الصادق .

(٤) في المصباح : بالله .

(٥) في المصباح : الخلاف .

(٦) الرعد : ١٣ / ٤ .

(٧) في المصباح : للطاعات .

(٨) في المصباح : أخلص وأطهر .

(٩) مصباح الشريعة : ٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٥ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ١٠٩ .

والشبهات على اختلاف مراتبها ، ويمكن معها الشك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١) ، ويعبر عنها بالإسلام ، كما قال الله عز وجل : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢) ، والتقوى المتقدمة عليها [هي] تقوى العام .
وأوسطها تصديقات لا يشوبها شك ولا شبهة ، كما قال الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(٣) ، وأكثر إطلاق الإيمان عليها خاصة ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤) ، والتقوى المتقدمة عليها [هي] تقوى الخاص .

وأخرها تصديقات كذلك ، مع شهود وعيان ، ومحبة كاملة لله عز وجل ، كما قال الله عز وجل : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٥) ، ويعبر عنها تارة بالإحسان ؛ كما ورد في الحديث النبوي : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه »^(٦) ، وأخرى بالإيقان ، كما قال الله : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٧) ، والتقوى المتقدمة عليها [هي] تقوى خاص الخاص .

وإنما قدمت [التقوى] على الإيمان لأن الإيمان [إنما] يتحصل ويتقوى بالتقوى ، لأنها كلما ازدادت ازداد الإيمان بحسب ازديادها ، وهذا لا ينافي تقدّم أصل الإيمان على التقوى ، بل ازديادها بحسب ازدياده ، وأيضا لأنّ الدّرجة المتقدمة لكلّ منها غير الدّرجة المتأخرة ، ومثل ذلك مثل من يمشي بسراج في ظلمة ، فكلما أضاء له من الطريق قطعة مشى فيها ، فيصير ذلك المشي سببا لإضاءة قطعة أخرى ، وهكذا^(٨) .

أقول : مقصود الشيخ من ذكر الرواية وتوضيحها توجيه تكرار الأمر بالتقوى في الآية بالمراتب الثلاث المذكورة في الرواية .

وعن الصادق عليه السلام قال : « اتى عمر بقدامة بن مظعون وقد شرب الخمر وقامت عليه البينة ، فسأل أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فأمره أن يجلد ثمانين جلدة ، فقال قدامة : يا أمير المؤمنين ، ليس عليّ حدّ ، أنا من أهل هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ قال أمير المؤمنين عليه السلام : لست من أهلها ، إنّ طعام أهلها لهم حلال ، ليس يأكلون ولا يشربون إلّا ما أحله الله لهم . ثم قال عليّ عليه السلام : إنّ الشارب إذا شرب لم يدر ما يأكل ولا ما يشرب ، فاجلدوه ثمانين جلدة »^(٩) .

(١) يوسف : ١٢ / ١٠٦ .

(٢) الحجرات : ٤٩ / ١٤ .

(٣) الحجرات : ٤٩ / ١٥ .

(٤) الأنفال : ٨ / ٢ .

(٥) المائدة : ٥ / ٥٤ .

(٦) مجمع البيان : ٣ / ١٧٨ .

(٧) البقرة : ٢ / ٤ .

(٨) تفسير الصافي : ٢ / ٨٥ .

(٩) الكافي : ٧ / ٢١٥ ، ١٠ / ١٠ ، تفسير الصافي : ٢ / ٨٦ .

ثم قال الشيخ بعد نقل الرواية : أقول : في قوله : (إلا ما أحله الله لهم) تنبيه على أنهم يحتززون عن الشبهات ، بل [عن] كل ما يمنعهم عن الشهود مع الله. والجناح في الآية نكرة في سياق النفي يعم كل مراتبه ، كاستحقاق العتاب ^(١) ، والسر فيه أن شكر نعم الله تعالى أن تصرف في طاعة الله سبحانه على وجهها ، فليتدبر فيه.

وعلى ما حققناه إن صح [أن] نزول [هذه] الآية ما ذكره القمي وفاقا لطائفة من المفسرين ، فمعنى الآية : أن الذين كانوا يشربون الخمر قبل نزول تحريمها ، إذا كانوا بهذه المثابة من الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، فلا جناح عليهم في شربها ^(٢) .

أقول : حمل الآية على المعنى الذي ذكره غير ممكن ، لوضوح عدم إمكان كون الجناح على شاربها قبل نزول تحريمها لقبح العقاب بلا بيان عقلا وإن لم يكونوا واجدين لأول مراتب التقوى. نعم إذا كان المراد من قوله : ﴿فِيمَا طَعُمُوا﴾ جميع المأكولات والمشروبات ، يصح اشتراط نفي الجناح على الإطلاق ، وبجميع مراتبه بما إذا انقضى جميع محرّماتها ومشبهاتها ، ويكون غرضهم من أكلها القيام بالأعمال الصالحة ، وأنهم لا يشبعون من الطعام وهم مطلعون على بطون غرثى وأكباد حرّى ، بل يحسنون إليهم بالزائد مما يحفظون به رمقهم وأنفسهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ

لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان حرمة الخمر من المشروبات ، ذكر حرمة لحم الصيد من المأكولات على خصوص المحرم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوكُمُ اللَّهُ﴾ ويمتحنكم ويختبرن طاعتكم وعصيانكم ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل ، وبلاء يسير بالنسبة إلى سائر البليات الشاقة العظيمة ، كبذل النفس والمال ، ثم فسّر ذلك الشيء بقوله : ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾ وهو ابتلاء سهل يسير ^(٣) .

وقيل : إن المراد : بعض الصيد ، وهو صيد البر ^(٤) .

قيل : إن الله امتحن أمة محمد بصيد البر ، كما امتحن أمة موسى بصيد البحر ^(٥) .

أما كيفية الابتلاء فإنه قرّبه منكم بحيث ﴿تَنَالُهُ﴾ وتصل إليه ﴿أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ﴾ فيسهل عليكم أخذه وطعنه.

(١) في الصافي : العقاب.

(٢) تفسير الصافي ٢ : ٨٦.

(٣ و ٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٢ : ٨٥.

عن القمي : نزلت في غزوة الحديبية ، جمع الله عليهم الصّيد ، فدخل بين رحلهم ^(١) .
وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « حشر عليهم الصّيد في كلّ مكان حتّى دنا منهم ليلوهم الله به » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « حشر لرسول الله ﷺ في عمرة الحديبية الوحوش حتّى نالتها أيديهم ورماحهم » ^(٣) .

وفي رواية : « ما تناله الأيدي الفراع أو البيض ، وما تناله الرّماح فهو ما لا تصل إليه الأيدي » ^(٤) .
وفي (المجمع) : عنه عليه السلام : « الذي تناله الأيدي فراع الطّير وصغار الوحش والبيض ، والذي تناله الرّماح الكبار من الصّيد » ^(٥) .

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة الابتلاء بقوله : ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ ويميز بين النّاس ﴿مَنْ يَخَافُهُ﴾ ويخاف عقابه ، وهو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن الأنظار ، ومستور عن الأبصار ، فيتّقي الصّيد ممّن لا يخافه .

وقيل : في الآية حذف ، والتقدير : ليعلم أولياء الله من يخافه حال إيمانه بالغيب ^(٦) .
ثمّ هدّد من يتّقي الصّيد بعد تحرّجه بقوله : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾ على نفسه ، وتعرّض للصّيد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التحريم وتوضيح علّته ﴿فَلَهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي الدّنيا التعزير الموجه .

وعن ابن عباس رضی الله عنه : هذا العذاب هو أن يضرب بطنه وظهره ضرباً وجيعاً وينزع ثيابه ^(٧) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ

مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ

طَعَامٌ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ وَمَنْ

عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾

ثمّ أكّد سبحانه حرمة الصّيد في حال الإحرام بالتّصريح بالتّهي عنه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأحكامه ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ والحيوان الوحشي [سواء أ] كان ممّا يؤكل أم لا ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمون بإحرام الحجّ أو العمرة .

عن الصادق عليه السلام : « فاتق ^(٨) قتل الدّواب كلّها إلّا الأفعى والعقرب والفأرة ، [فأما الفأرة] فإنّها توهي السّقاء وتضرّم على أهل البيت [البيت] ، وأما العقرب فإنّ نبيّ الله مدّ يده إلى الحجر فلسعته عقرب فقال : لعنك الله ، لا تدعين برّاً ولا فاجراً ، والحية إذا أردت أن تقاتلها ، وإن لم تردك فلا تردّها ، والكلب

(١) تفسير القمي ١ : ١٨٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٢) الكافي ٤ : ٣٩٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٣) الكافي ٤ : ٣٩٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٤) الكافي ٤ : ٣٩٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٨٦ .

(٧) تفسير الرازي ١٢ : ٨٦ .

(٨) في تفسير الصافي : إذا أحرمت فاتق .

العقور والسبع إذا أَرادَكَ فاقْتلْهُمَا ، فإن لم يريداكَ فلا تردْهُما ، والأسود ^(١) الغدر فاقتله على كلِّ حال ، وارم الغراب والحدأة رميا على ظهر بعيرك ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « المحرم يقتل الزنبور والنسر والأسود الغدر والدَّئب وما خاف أن يعدو عليه » وقال : « الكلب العقور هو الدَّئب » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « كلَّ ما خاف المحرم على نفسه من السباع والحيات ^(٤) فيقتله ، وإن لم يردك فلا تردّه » ^(٥) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله بطريق عامي : « خمس فواسق لا جناح على المحرم أن يقتلهنَّ في الحلِّ والحرم : الغراب ، والحدأة ، والحية ، والعقرب ، والكلب العقور » ^(٦) .

وفي رواية : « والسبع الضَّاري » ^(٧) .

أقول : الظَّاهر من مجموع الروايات جواز قتل كلِّ مؤذ لا يأمن المحرم منه على نفسه.

ثم بيَّن الله سبحانه كفارة الصَّيد في حال الإحرام بقوله : ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ﴾ أيها المجرمون حال كونه ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ في قتله بأيِّ نوع من أنواع القتل.

ثم أعلم أنَّ ظاهر الآية وإن كان اشتراط العمد في وجوب كفارة الصَّيد ، وبه قال بعض العامة ، إلَّا أنَّه نسب إلى أكثرهم ، وعامة أصحابنا عدم الاشتراط ، بل قالوا بوجوبها وإن كان القتل خطأ أو نسيانا ، وقالوا : وجه التقييد في الآية أنَّ سبب نزولها في من تعمَّد ^(٨) .

روي أنه عن ^(٩) لهم في عمرة الحديبية حمار وحش ، فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمح فقتله ، فقيل : إنَّكَ قتلت الصَّيد وأنت محرم. فنزلت ^(١٠) .

وقال بعض : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنَّة بالخطأ ^(١١) .

وعلى أي تقدير ﴿فَجَزَاءٌ﴾ واجب على قاتل الصَّيد ، وفدية ثابتة ؛ حيوان ﴿مِثْلُ مَا قَتَلَ﴾ وشبيهه ما صاد ، ولكن لا بدَّ أن يكون الحيوان المماثل ﴿مَنْ﴾ جنس ﴿النَّعَمِ﴾ الثلاث : الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فيه المعز.

عن الصادق عليه السلام ، في تفسيرها : « في الظَّبي شاة ، وفي حمار الوحش بقرة ، وفي النَّعامة جزور » ^(١٢) .

(١) الأسود : العظيم من الحيات.

(٢) التهذيب ٥ : ٣٦٥ / ١٢٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٧ .

(٣) الكافي ٤ : ٣٦٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٤) زاد في الكافي : وغيرها.

(٥) الكافي ٤ : ٣٦٣ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢ : ٨٧ .

(٧) راجع : تفسير أبي السعود ٣ : ٧٩ ، كنز العرفان ١ : ٣٢٤ / ٤ .

(٨) تفسير الرازي ٢ : ٨٧ .

(٩) عن : أي ظهر أمامه واعترض.

(١٠) كنز العرفان ١ : ٣٢٤ / ٤ .

(١١) تفسير أبي السعود ٢ : ٧٩ .

(١٢) التهذيب ٥ : ٣٤١ / ١١٨٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

قيل : الجزور والبدنة واحد ، والفرق أن البدنة ما يحرز للهدي ، والجزور أعم^(١) .
وفي صحيح سليمان : في البقرة بقرة ، وفي الحمار بدنة ، وفي التّعامّة بدنة ، وفي ما سوى ذلك قيمته^(٢) .

ثم وصف سبحانه الجزاء بكونه ممّا ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ وبمماثلته للصّيد المقتول رجلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ ولكن لا في دينه ، وإن كان من غيركم ، بل لا بدّ من أن يكونا ﴿مِنْكُمْ﴾ وأهل دينكم .
قال بعض العامّة : لو كان أحدهما القاتل ، جاز إذا كان القتل خطأ لا عمدا ؛ لأنّه فاسق^(٣) .
في (الجمع) : عن الباقر والصادق عليهما السلام : « ذو عدل »^(٤) .
وفي (الكافي) : عنهما عليهما السلام : وعن العياشي : عن الباقر عليه السلام : « العدل : رسول الله ﷺ ، والإمام من بعده » ثمّ قالوا : « هذا ممّا أخطأت به الكتاب »^(٥) .

والعياشي : « يعني رجلا واحدا » يعني الإمام^(٦) .
وعن الباقر عليه السلام : « العدل رسول الله ﷺ ، والإمام من بعده يحكم به وهو ذو عدل ، فإذا علمت ما حكم به رسول الله والإمام فحسبك ، ولا تسأل عنه »^(٧) .
أقول : لعلّ المراد من ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ النبي والإمام ، على معنى الاجتزاء بحكم أحدهما ، وأنّ المراد من الحكم بيان المثل للمقتول ، فيحتاج في تعيين المثل إلى النصّ من النبي أو الإمام ، لا أنّه ينظر العدليين من سائر الناس ، كما عليه العامّة .

وروي أنّ رجلا سأل أبا حنيفة عن كفارة الصّيد فأجاب ، فقال : من يحكم بها ؟ قال : ذوا عدل ، قال : إن اختلفا ؟ قال : يتوقّف عن الحكم حتّى يتّفقا ، قال : إنك لا تحكم وحدك في الصّيد حتّى يتّفقا معك آخر ، وتحكم في الدّماء والفروج والأموال برأيك !^(٨)
ثمّ وصف سبحانه الجزاء ثانيا بكونه ﴿هَدِيًّا﴾ ومرسلا بقصد التّقرب إلى الله ، ولا بدّ من كونه ﴿بِالْغِ الْكَفَّةِ﴾ وواصلا إليها .

عن الصادق عليه السلام : « من وجب عليه هدي في إحرامه ، فله أن ينحره حيث شاء إفداء الصّيد ، فإنّ الله

(١) جواهر الكلام ٢٠ : ١٩١ .

(٢) التهذيب ٥ : ٣٤١ / ١١٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٩٢ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٧٨ / ١٣٦٠ ، الكافي ٤ : ٣٩٦ / ٣ و ٣٩٧ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٧٨ / ١٣٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٧) التهذيب ٦ : ٣١٤ / ٨٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٨) دعائم الإسلام ١ : ٣٠٦ .

يقول : ﴿هَذِيأً بَالِغَ الْكُفَّةِ﴾^(١) .

وعنه عليه : « من وجب عليه فداء صيد أصابه وهو محرم ، فإن كان حاجاً نحر هديه الذي يجب عليه بمنى ، وإن كان معتمراً نحر بمكة قبالة الكعبة »^(٢) .

ثم وسع الله تعالى على عباده يجعل البذل للجزاء المذكور بقوله : ﴿أَوْ كَفَّارَةً﴾ معيّنة ؛ وهي ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ وإطعام للفقراء ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ الطّعام ومساويه ، وهو يكون ﴿صِيَاماً﴾ .

عن الصادق عليه أنه سئل عن محرم أصاب نعامة أو حمار وحش ، قال : « عليه بدنة » . قيل : فإن لم يقدر على بدنة ؟ قال : « فليطعم ستين مسكيناً » . قيل : فإن لم يقدر على أن يتصدق ؟ قال : « فليصم ثمانية عشر يوماً ، والصّدقة مدّ على كلّ مسكين » .

وسئل عن محرم أصاب بقرة ، قال : « عليه بقرة » . قيل : فإن لم يقدر على بقرة ؟ قال : « فليطعم ثلاثين مسكيناً » . قيل : فإن لم يقدر على أن يتصدق ؟ قال : « فليصم تسعة أيام » . قيل : فإن أصاب ظبياً ؟ قال : « عليه شاة » . قيل : فإن لم يقدر ؟ قال : « فإطعام عشرة مساكين ، فإن لم يجد ما يتصدق به فعليه صيام ثلاثة أيام »^(٣) .

في بيان عن السّجّاد عليه ، في حديث الزّهرى : « أوتدري كيف يكون عدل ذلك صياماً يا زهري ؟ » ، قال : [قلت :] لا أدري . قال : « يقوم الصّيد قيمة ، ثمّ تفضّ تلك القيمة على البرّ ، ثمّ يكال ذلك البرّ أصواعاً ، فيصوم لكلّ نصف صاع يوماً »^(٤) .

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عليه : « إذا أصاب المحرم الصّيد ولم يجد ما يكفّر في موضعه الذي أصاب فيه الصّيد قوم جزاؤه من النّعم دراهم ، ثمّ قومت الدّراهم طعاماً لكلّ مسكين نصف صاع ، فإن لم يقدر على الطّعام صام لكلّ نصف صاع يوماً »^(٥) .

وعنه عليه ، في محرم قتل نعامة ، قال : « عليه بدنة ، فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً » [وقال : إن كان قيمة البدنة أكثر من إطعام ستين مسكيناً لم يزد على إطعام ستين مسكيناً ، وإن كان قيمة البدنة أقل من إطعام ستين مسكيناً] لم يكن عليه إلّا قيمة البدنة »^(٦) .

وإنما فرض الله الكفّارة على قاتل الصّيد حال الإحرام ﴿لِيَذُوقَ﴾ ذلك القاتل ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ وسوء عاقبة فعله من هتكه حرمة الإحرام.

(١) الكافي ٤ : ٣٨٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٢) الكافي ٤ : ٣٨٤ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٣) الكافي ٤ : ٣٨٥ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٨ .

(٤) تفسير القمي ١ : ١٨٦ ، من لا يحضره الفقيه ٢ : ٤٧ / ٢٠٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٨٩ .

(٥) الكافي ٤ : ٣٨٧ / ١٠ .

(٦) الكافي ٤ : ٣٨٦ / ٥ .

ثم نبه سبحانه على أنّ هذه الكفارة إنما هي إذا كان القتل بعد تحريم الصيد بقوله : ﴿عَفَا اللَّهُ﴾ وتجاوز ﴿عَمَّا سَلَفَ﴾ منكم من قتل الصيد قبل تحريمه ، أو من الدفعة الأولى ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتله في حال إحرامه بعد التحريم وعلم القاتل به ، أو بعد التعمّد في الدفعة الأولى ﴿فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ويعذّبه في الآخرة بالنار ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب لا يغالب ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ شديد ممّن أصرّ على عصيانه .
عن ابن أبي عمير مرسلًا : « إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه أبداً في كلّ ما أصاب الكفارة ^(١) ، فإن عاد فأصاب ثانياً متعمداً فليس عليه فيه الكفارة ، وهو ممّن قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في الصحيح : « المحرم إذا قتل الصيد ، فعليه جزاؤه ويتصدّق بالصيد على مسكين ، فإن عاد فقتل صيدا آخر ، لم يكن عليه جزاؤه ، وينتقم الله منه ، والتّقمة في الآخرة » ^(٣) .
وعليه أكثر الأصحاب - كما قيل ^(٤) - والأظهر اعتبار العود في إحرام واحد ، وكون الدفعة الأولى أيضا عن عمد ، وإن أمكن دعوى الإطلاق ، إلّا أنّه ممنوع .

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦)

ثم لما حرّم الله تعالى الصيد وكان مظنة فهم العموم ، صرّح بتخصيصه بصيد البرّ ، وإباحة صيد البحر بقوله : ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ من السمك الذي له فلس ، سواء اخذ من الماء بعلاج ، أو لفظه البحر ونضب عنه الماء واخذ من غير حيلة وعلاج ﴿وَطَعَامَهُ﴾ والمملوح منه - كما عن ابن عباس رضی الله عنه ^(٥) ، وقيل : إنّ مذهب أهل البيت ^(٦) ، وقيل : إنّ أعمّ من الطّريّ والمملوح - ليكون ﴿مَتَاعاً﴾ وانتفاعا ﴿لَكُمْ﴾ أيّها المقيمون ﴿وَاللَّسَّيَّارَةِ﴾ والمسافرين بأن يتزوّدوا به .
عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « لا بأس بصيد المحرم السمك وبأكله ؛ ماله وطريّه ، ويتزوّد » .

وقال : ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلَّسَّيَّارَةِ﴾ قال : « ماله الذي يأكلون » ^(٧) .
﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾ اصطليداً وقتلاً وإشارة ودلالة وإغلاقاً وإغراءً للحيوان به ، وبيعا وشراء وتملكاً وإمساكاً وأكلاً ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وعليه يكون نهي الآية أعمّ من النهي السابق لا تأكيدا له .

(١) زاد في الكافي : وإذا أصابه متعمداً فإن عليه الكفارة .

(٢) الكافي ٤ : ٣٩٤ / ٣ .

(٣) التهذيب ٥ : ٣٧٢ / ١٢٩٧ .

(٤) كنز العرفان ١ : ٣٢٧ / ١٢ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٣٨٠ .

(٦) مجمع البيان ٣ : ٣٨٠ .

(٧) الكافي ٤ : ٣٩٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

عن الصادق عليه السلام : « كلّ طير يكون في الآجام يبيض في البرّ ويفرخ في البرّ فهو من صيد البرّ ، وما كان من صيد البرّ يكون في البرّ ويبيض في البحر فهو من صيد البحر » (١) .

وعنه عليه السلام : « كلّ شيء يكون أصله في البحر ويكون في البرّ والبحر ، فلا ينبغي للمحرم أن يقتله ، فإن قتله فعليه الجزاء ، كما قال [الله عزّ وجلّ] » (٢) .

وعن أحدهما عليه السلام : « لا يأكل المحرم طير الماء » (٣) .

ثم بالغ سبحانه في التأكيد والوعيد بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في القيامة - لا إلى غيره - في ما نهاكم عنه من المعاصي التي من جملتها الصيد في حال الإحرام ، فيجازيكم على المخالفة.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ

وَالْقِلَابِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)﴾

ثم أنّه تعالى بعد بيان حرمة الإحرام والحرم ، وكونهما سببا لأمن الحيوانات من ضرر الإنسان ، بين أنّ الكعبة والحرم ، والأشهر الحرم ، وهدي الكعبة أسباب لأمن الإنسان من جميع المخوفات والآفات ، ولنيلهم بالخيرات والسعادات ، بقوله : ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ وصير ﴿الْكَعْبَةَ﴾ التي تكون لكمال حرمتها عنده وعند أنبيائه ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ المحترم ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ وقواما لهم ، وما به صلاح أمورهم.

في بيان وجوه كون الكعبة قياما للناس

قيل في وجه كونها قواما للناس امور :

الأول : أنّ مكّة بلدة لا ضرع فيها ولا زرع ، ولا يوجد فيها غالب ما يحتاج إليه أهلها ، فجعل الكعبة معظّمة في القلوب حتّى صار أهل الدّنيا راغبين في زيارتها ، فيسافرون إليها من كلّ فجّ عميق ، ويأتون بجميع ما يحتاج إليه ، فصار سببا لإسباغ النّعم على أهلها.

الثاني : أنّ العرب كانت عادتهم القتل والغارة ، وكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وأموالهم حتّى أنّ الرّجل لو رأى قاتل أبيه أو ابنه التجأ بالحرم ما كان يتعرّض له.

الثالث : أنّ أهل مكّة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصّته ، وسادات الخلق إلى يوم القيامة.

(١) الكافي ٤ : ٣٩٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

(٢) الكافي ٤ : ٣٩٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

(٣) الكافي ٤ : ٢٩٤ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

الرابع : أنَّ الله تعالى جعل الكعبة قياما للنَّاس في دينهم بسبب ما جعل الله فيها [من] المناسك العظيمة والطَّاعات الشَّريفة ، وجعل تلك المناسك سببا لحطَّ السيِّئات ورفع الدَّرجات وكثرة الكرامات^(١) .
وعن الصادق سلام الله عليه : « من أتى هذا البيت يريد شيئا في الدُّنيا والآخرة أصابه »^(٢) .
وعن القمِّي رحمه الله ، قال : ما دامت الكعبة قائمة ويحجَّ النَّاس إليها لم يهلكوا ، فإذا هدمت وتركوا الحجَّ هلكوا^(٣) .

﴿وَوَجَعَلْ﴾ جعل ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الذي يؤدَّى فيه الحجَّ ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الذي يهدى إلى البيت ويذبح عنده ﴿وَالْقِلَادَ﴾ التي يقلِّدون الهدي بها قياما للنَّاس من العرب وأمثالهم ، وسببا لراحتهم والسَّعة في معاشهم.

أمَّا الشَّهر الحرام فلترك العرب فيه القتال والغارة ، فلذا كان الخوف يزول عنهم ، وكانوا يسافرون للحجَّ والتَّجارة ، ويشغلون باكتساب منافع الدِّين والدُّنيا ، وإصلاح المعاش والمعاد.
وأمَّا الهدي فكانوا يذبحونه هناك ويفرقون لحمه بين الفقراء ، فيصلح به معيشتهم ، ويقوم به أمر دينهم ودنياهم.

وأمَّا القلائد - وهي الناقة والبقرة وكلَّ ما يجوز في الهدي - فإنَّ العرب كانوا مبالغين في التَّحرُّز عن التَّعرض لها ، حتَّى إنَّهم كانوا يقلِّدون رواحلهم عند رجوعهم من مكَّة من لحاء شجرة الحرم فيأمنون بذلك ، وكانوا يموتون من الجوع ولا يتعرضون لها : وهي أفضل الهدايا ، ولذا خصَّها بالذِّكر.

ثمَّ ذكر سبحانه علَّة جعل الأمور المذكورة قياما للنَّاس بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الجعل المذكور ، أو التَّنبية بذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ بالنظر إلى المصالح والمنافع الدِّينية والدُّنيويَّة ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وحقائق جميع الموجودات ، ومصالحها ومفاسدها.

ثمَّ أكَّد سعة علمه بقوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿عَلِيمٌ﴾ فعلم أنَّ طباع العرب مجبولة على حرص الشَّديد بالمال والقتل والغارة ، وعلم أنَّه لو دامت بهم هذه الحالة لأدَّى ذلك إلى فنائهم وانقطاعهم بالكلِّيَّة ، فشرع لهم حرمة القتال في الأشهر الحرم وفي الحرم ، وألزمهم بحرمة البيت الحرام حتَّى يقدرُوا على تحصيل ما يحتاجون إليه ، وإصلاح معاشهم في الأشهر المعينة والمكان المعين ؛ كذا قيل^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٠٠ .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٨٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٨٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ١٠١ .

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد الإعلام بغاية لطفه ، أعلمهم بشدَّة عقابه على من عصاه بقوله : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مخالفة أحكامه وهتك حرمانه ؛ فلا تغتروا بسعة لطفه ورحمته ، ولا تأمنوا من أخذه .
ثمَّ بعد تربيته المهابة والخوف في القلوب ، أعلن بسعة غفرانه ورحمته تربية للرجاء في قلوب العصاة بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنِّي اللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعباد ، فلا تيأسوا بكثرة المعاصي من روح الله ورحمته .

عن النبي ﷺ : « لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا » (١) .

عن الصادق ، عن آبائه عليه السلام ، عن رسول الله ﷺ ، عن جبرئيل ، قال : « قال الله تعالى : من أذنب [ذنبا] صغيرا أو كبيرا ، وهو يعلم أنَّ لي أن أعذبه وأن أعفو عنه ، عفوت عنه » (٢) .

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩)

ثمَّ أنَّه سبحانه بعد الترهيب والترغيب حث على طاعة أحكامه ، والزجر عن العصيان مبالغا في الوعيد عليه بقوله : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ وليس في عهده ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغ الأحكام والوعد بالثواب والوعيد بالعقاب ، وبالغ في بيانها ، وخرج عما في عهده من الرسالة ، وبقي عليكم من الطاعة والامتثال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من الأقوال والأعمال الحسنة والسيئة ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وتخفون من الضمائر والنيات ، والخلوص والتفان ، ويجازيكم بحسبها .

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (١٠٠)

ثمَّ لما نهي عن تحريم الطيبات من الأغذية والأعمال ، وبين أنَّ الخمر ولحم صيد الحرم من الخبائث ، حثَّ على الالتزام بالطيبات واجتناب الخبائث بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، للناس ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ عند الله وأوليائه ، وفي حكم العقل السليم ﴿الْخَبِيثُ﴾ الرذيل الروحاني من الجهل بالله وعصيانه ﴿وَالطَّيِّبُ﴾ المستحسن الروحاني من المعارف الإلهية وطاعته ، كما لا يستوي الخبيث والطيب الجسمانيان في أنظار الناس وطباعهم ، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ وسرك ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وشيوعه

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٠٢ .

(٢) التوحيد : ٤١٠ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٠ .

وتداوله بين الناس ، فإنّ العبرة بالجود والحسن والرداءة والقبح ، دون القلّة والكثرة ، التعارف بين الناس وعدمه ، فإنّ المحمود القليل خير من المذموم الكثير .

فإذا كان كذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ونواهيه ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة والإدراكات الصّافية عن كدورات الشّهوات ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وتفوزون بأعلى المقاصد من الخيرات الدّنيوية والنّعم الاخروية .

قيل : نزلت في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يوقعوا بهم ، بسبب أنّه كان فيهم الخطيم ، وقد أتى المدينة في السّنة السّابقة ، واستاق سرح ^(١) المدينة ، فخرج في العام القابل - وهو عام عمرة القضاء - حاجا ، فبلغ ذلك أصحاب السّرح ، فقالوا للنبيّ ﷺ : هذا الخطيم خرج حاجا مع حجاج اليمامة ، فخلّ بيننا وبينه ؟ فقال ﷺ : « [إنّه] قلّد الهدي » . ولم يأذن لهم في ذلك ، بسبب استحقاقهم الأمن بتقليد الهدايا . فنزلت الآية تصديقا له ﷺ في نهيهِ إياهم ^(٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ خَلِيمٌ﴾ (١٠١)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ النبيّ وظيفته التبليغ وبيان الأحكام ، وكان المسلمون يسألونه عمّا لا يعنيه من المسائل ، نهاهم عن إكثار السّؤال عمّا يوجب التشديد عليهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾ الرّسول ﴿عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ ومطالب وأحكام ﴿إِنْ تُبَدَ﴾ وتظهر ﴿لَكُمْ﴾ تلك الأمور ببيان الرّسول ﴿تَسْأَلُكُمْ﴾ وتعمّكم لما ترون من مخالفتها لطباعكم .

روى أنس أنّهم سألو النبيّ ﷺ فأكثروا المسألة ، فقام على المنبر فقال : « سلوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلّا حدّثتكم به » ، فقام عبد الله بن حذافة - وكان يطعن في نسبه - فقال : يا نبيّ الله ، من أبي ؟ فقال : « أبوك حذافة بن قيس » ^(٣) .

في ذكر سؤال عكاشة

وقال سراقه بن مالك - ويروى عكاشة بن محصن - يا رسول الله ، الحجّ علينا في كلّ عام ؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، حتّى أعاد مرتين أو ثلاثة ، فقال ﷺ : « ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لتركتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤلهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

(١) السّرح : الماشية .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٤٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ١٠٦ .

وقام آخر فقال : يا رسول الله ، أين أبي ؟ فقال : « في النار » . ولما اشتد غضب الرسول قام عمر وقال : رضينا بالله ربنا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد نبينا ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

﴿وَلَا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ **﴿إِنْ تَسْأَلُوا﴾** الرسول **﴿عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾** وفي زمان إتيان الوحي **﴿تُبَدِّلُكُمْ﴾** تلك المسألة وتظهر .

وقيل : إنّ المراد : إن تسألوا عن شيء نزل به القرآن لکنکم ما فهمتم المراد منه ، فهذا السؤال جائز ، ويظهر لكم جوابه .

عن القمي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام : « أنّ صفية بنت عبد المطلب مات ابن لها فأقبلت إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقال لها عمر : غطي قرطك (٢) ، فإن قرابتك من رسول الله لا تنفعك شيئا ، فقالت له : هل رأيت لي قرطا يا بن اللّخاء (٣) ، ثم دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبرته بذلك وبكت ، فخرج رسول الله فنادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فقال : ما بال أقوام يزعمون أنّ قرابتي لا تنفع ! لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في خارجكم (٤) ، لا يسألني اليوم أحد من أبوه إلّا أخبرته ، فقام إليه رجل فقال : من أبي يا رسول الله ؟ فقال : أبوك غير الذي تدعى له ، أبوك فلان بن فلان ، فقام آخر فقال : من أبي يا رسول الله ؟ قال : أبوك الذي تدعى له . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما بال الذي يزعم أنّ قرابتي لا تنفع لا يسألني عن أبيه ؟ فقام إليه عمر فقال له : أعوذ بالله يا رسول الله من غضب الله وغضب رسول الله ، اعف عني عفا الله عنك . فأنزل الله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية » (٥) .

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « أنّ الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها ، وحد لكم حدودا فلا تعتدوها ، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ولم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها » (٦) .

ثم أشار سبحانه إلى أنّ حكمة التّهي عن السؤال ليست منحصرة في الصّيانة عن مسألة المؤمنين ، بل لكونه إيذاء للنبي ومعصية لله ، بقوله : **﴿عَفَا اللَّهُ﴾** عن مسائلكم السابقة وإيذاكم للرسول ، وتجاوز **﴿عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** وفيه الحث على الانتهاء عن المسألة وعدم العود إلى إكثارها .

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢)

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٠٦ .

(٢) القرط : ما يعلق في شحمة الأذن من ذهب أو فضة أو نحوهما .

(٣) اللّخاء : المرأة المتنتة .

(٤) في المصدر : أحوجكم .

(٥) تفسير القمي ١ : ١٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٩١ .

(٦) نصح البلاغة : ٤٨٧ الحكمة ١٠٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٢ .

ثم بالغ سبحانه في الزجر عنه حيث وعظهم بأن أمثال هذه السؤالات ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أنبيائهم ، فاجيبوا عنها ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ حيث جحدوا بالأجوبة ، ولم يعملوا بها .

قيل : إن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء ، فإذا امروا تركوها ، فهلكوا ^(١) .

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾

ثم أنه تعالى بعد التّهي عن السؤال عما يحتمل أن يكون في جوابه فضيحتهم ، أو المشقة عليهم ، نّاهم عن التكليف بما لم يكلفهم الله به بقوله : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ وما شرع شيئا ﴿مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

عن (المعاني) : عن الصادق عليه السلام : « أن أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن واحد قالوا : وصلت ، فلا يستحلون نحرها ولا أكلها ، فإذا ولدت عشرين جعلوها سائبة ولا يستحلون ظهرها ولا أكلها ، والحام : فحل الإبل لم يكونوا يستحلونه ، فأنزل الله عز وجل أنه لم يحرم شيئا من ذلك» . وقد روي أن البحيرة : الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن ، فإذا كان الخامس ذكرا نحروه وأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنّها - أي شقوها - وكانت حراما على النساء ^(٢) ؛ لحمها ولبنها ، فإذا ماتت حلّت للنساء .

والسائبة : البعير يسيب بنذر يكون على الرجل إن سلّمه الله من مرض ، أو بلغ منزله أن يفعل ذلك .

والوصيلة : من الغنم ، كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكرا ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، [وإن كانت أنثى تركت في الغنم] وإن كان ذكرا وانثى قالوا : وصلت أحاها فلم تذبح ، وكان لحومهما ^(٣) حراما على النساء إلا أن يموت منها شيء فيحلّ أكلها للرجال والنساء .

والحام : الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا : قد حمى ظهره .

ويروى أن الحام هو من الإبل ، إذا أنتج عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء ^(٤) .

قيل : إن عمر بن لحي الخزاعي كان قد ملك مكة ، وكان أول من غيّر دين إسماعيل ، فاتخذ الأصنام ،

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٤٩ .

(٢) زاد في المصدر : والرجال .

(٣) في المصدر : لحومها .

(٤) معاني الأخبار : ١٤٨ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٢ .

ونصب الأوثان ، وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وقال النبي ﷺ : « ولقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه ^(١) » . ويروى يجرّ قصبه في النار ^(٢) .

وقال ابن عباس : قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ يريد عمر بن لحي وأصحابه ، يقولون على الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تحريم هذه الأنعام ^(٣) .

وقيل : إنّ الرؤساء يفترون على الله الكذب ، فأما الأتباع والعوام فهم المعنيون بقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) أنّه افتراء على الله حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا وَلَوْ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾

ثمّ نبّه سبحانه على غاية قصور عقولهم ، وانهمكهم في التقليد بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ على سبيل الارشاد والهداية ﴿تَعَالَوْا إِلَى﴾ قبول ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ المبلّغ عنه ، حتى تقفوا على الحق ﴿قَالُوا﴾ عصيانا وعنادا : ﴿حَسْبُنَا﴾ وكفانا دليلا على الحق ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الاعتقاد والأعمال.

ثمّ ردّهم الله بقوله : ﴿أَلَوْ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من الدين ، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى شيء من الحق والصواب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ

مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان انهمك كثير من الكفار في الضلال ، وإصرارهم على الكفر ، أمر المؤمنين بالثبات على الإيمان ، والعمل بأحكام الإسلام ، وعدم المبالاة بضلالة أهل الضلال بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ والتزموا بحفظها من الضلال والعصيان ، واهتمّوا بتكميلها بحسن الأخلاق ، ولا تغتمّوا بانحراف الناس عن الحق ، فإنّه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بوجه من الوجوه ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ عن الحق بضلالة ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ بتوفيق الله إلى دينه ومرضاته.

عن القمّي قال : أصلحوا أنفسكم ، ولا تتبعوا عورات الناس ولا تذكروهم ، فإنّه لا يضرّكم

ضلالهم

(١) القصب : المعى ، وجمعه أقصاب ، وقيل : القصب : اسم للأمعاء كلها ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن منها.

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ١١٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ١١٠ .

إذا كنتم صالحين ^(١) .

عن (المجمع) : أن أبا بكر سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقال : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيت دنيا مؤثرة ، وشحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة ^(٢) نفسك » ^(٣) .

ثم وعد سبحانه وأوعد الفريقين بقوله : ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة ﴿جَمِيعاً﴾ ضالكم ومهتديكم ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الهداية والضلالة ؛ فيجازيكم على حسب ما تستحقون.

عن ابن عباس : أن النبي ﷺ لما قبل من أهل الكتاب الجزية ولم يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف ، عير المنافقون المؤمنين بقبول الجزية من بعض الكفار دون بعض فنزلت هذه الآية ، أي لا يضركم ملامة اللائمين ، إذا كنتم على الهدى ^(٤) .

وقيل : نزلت لما أشتد على المؤمنين بقاء الكفار في كفرهم وضلالهم ^(٥) .

وقيل : نزلت لما اغتم المؤمنون لعشائهم الذين ماتوا على الكفر ، فنهوا عن ذلك ^(٦) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ
اثنانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِنُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ
ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْآ إِذَا لَمِنَ
الْأَنَّمِينِ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا
وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) و (١٠٧)﴾

ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بحفظ أنفسهم من الضلال والعصيان ، أردفه بالأمر بحفظ أموالهم من التلّف والضياع ، وتعليم طريقه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ وعند تنازعكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ وأشرف عليه ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ هي أن يشهد عليها ﴿اثنانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾

(١) تفسير القمي ١ : ١٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٤ .

(٢) خويصة الانسان : الذي يختص بخدمته ، ويعني عليك بما يتصل بك من خدمك ومواليك ودع ما سواهم. وتطلق على حادثة الموت التي تخص كل إنسان ، ويعني عليك بمبادرتك بالأعمال الصالحة والاهتمام بها قبل وقوعها.

(٣) مجمع البيان ٣ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٤ .

(٤ و ٥ و ٦) . تفسير الرازي ١٢ : ١١٢ .

وصلاح ﴿مِنْكُمْ﴾ ومن أهل دينكم ، [سواء أ] كان الموصي في الحضر أو في السفر ﴿أَوْ﴾ رجلاً
﴿أَخْرَانِ﴾ كائنان ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ومَن خالفكم في الدين ، وإنما تقبل شهادتهما ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ﴾
وسرتم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وسافرت فيها ﴿فَأَصَابَتْكُمْ﴾ ونالتكم ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وقاربكم الأجل.

ثم كآته قيل : كيف يقيمان الشهادة ؟ فأجاب بقوله : ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ وتصبروهما للتحليف ﴿مِنْ
بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ لتغليط اليمين بشرف الوقت ، كما روي عن النبي ﷺ : « أنه وقتئذ حلف من حلف »
(١) ، ولأته وقت اجتماع الناس فيثقل على النفوس الأيية الكذب في مشهد الناس ، فيستحلف حينئذ
الآخران ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ ولكن هذا ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أيها الوزان فيهما بخيانة في التركة.

ثم يقولون بعد الشهادة والقسم : إنا ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ بالقسم ، أو بالله ولا نطلب ﴿بِهِ﴾ لأنفسنا
﴿ثَمَنًا﴾ وعوضاً من متاع الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقسم له وهو الميت ﴿ذَا قُرْبَى﴾ ومتصلاً بالرحم ﴿وَلَا
نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أمرنا الله بها وبحفظها ، ونهانا عن كتمانها وتضييعها ، فإن كتمانها أو ضياعها ﴿إِنَّا
إِذَا﴾ بالله ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ والعاصين.

روي من طريق العامة أن تميم بن أوس الداري وعدي بن زيد خرجا إلى الشام للتجارة ، وكانا حينئذ
نصرانيين ، ومعهما بديل بن أبي مریم (٢) مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً ، فلما قدما إلى الشام
مرض بديل ، فكتب كتاباً فيه أسماء جميع ما معه وطرحه في درج الثياب ، ولم يخبرهما بذلك ، وأوصى إليهما
بأن يدفعا متاعه إلى أهله فمات ، ففتشاه فوجدوا فيه إناء من فضة وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ،
فغيباه ودفعنا المتاع إلى أهله فأصابوا فيه الكتاب فقالوا لهما : هل باع صاحبكما شيئاً من متاعه ؟ قالوا : لا
، قالوا : فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه ؟ قالوا : لا ، إنما مرض حين قدم البلد ، فلم يلبث أن
مات. قالوا : فإننا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية متاعه ، وفيها إناء منقوش موء بالذهب وزنه ثلاثمائة
مثقال. قالوا : ما ندري ، إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ففعلنا ، وما لنا بالإناء من علم.
فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله
الذي لا إله إلا هو ، أهما لم يخونا شيئاً مما دفع ، ولا كتما ، فحلفا على ذلك ، فخلّى رسول الله ﷺ
سبيلهما.

ثم أتته وجد الإناء في مكة ، فقال من بيده : اشتريته من تميم وعدي - وقيل : لما طالت المدّة
أظهره -

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٥٥ .

(٢) كذا في النسخة وروح البيان أيضاً ، لكن في اسد الغابة ١ : ١٦٩ بديل بن مارية .

فبلغ ذلك بني سهم ^(١) أولياء بديل ، فطلبوه منهما ، فقالا : كنّا اشتريناه من بديل ، فقالوا : ألم نقل لكما : هل باع صاحبنا من متاعه شيئا ؟ فقلتما : لا . قالوا : ما كان لنا بيّنة ، فكرهنا أن نقرّ به ، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُرِّيَ ﴾ الآية ^(٢) .

وعن (الكافي) ، مرفوعا : « خرج تميم الدّاري وابن بيدي وابن أبي مارية في سفر ، وكان تميم الداري مسلما وابن بيدي وابن أبي مارية نصرانيّين ، وكان مع تميم الدّاري خرج له فيه متاع وآنية منقوشة بالذهب وقلادة أخرجها إلى أسواق بعض العرب للبيع ، فاعتل تميم الداري علّة شديدة ، فلما حضره الموت دفع ما كان معه إلى ابن بيدي وابن أبي مارية ، وأمرهما أن يوصلاه إلى ورثته ، فقدمتا المدينة ، وقد أخذتا من المتاع الآنية والقلادة ، وأوصلا سائر ذلك إلى ورثته ، فافتقد القوم الآنية والقلادة ، فقال أهل تميم [لهما] : هل مرض صاحبنا مرضا طويلا أنفق فيه نفقة كثيرة ؟ فقالا : لا ، ما مرض إلّا أيّاما قلائل . قالوا : فهل سرق منه شيء في سفره هذا ؟ قالوا : لا ، قالوا : فهل انّجر تجارة خسر فيها ؟ قالوا : لا ، قالوا : [فقد] افتقدنا أفضل شيء كان معه ؛ آنية منقوشة مكلّلة بالجواهر ، وقلادة ؟ . فقالوا : ما دفع إلينا فقد أدّيناه إليكم ، فقدّموهما إلى رسول الله ﷺ ، فأوجب عليهما اليمين فحلفا ، فخلّا عنهما » ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام ، في تفسير الآية : « اللذان منكم مسلمان ، واللذان من غيركم [من] أهل الكتاب ، فإن لم تجدوا من أهل الكتاب فمّن المجوس ؛ لأنّ رسول الله ﷺ سنّ في المجوس سنّة أهل الكتاب في الجزية ، وذلك إذا مات الرّجل في أرض غربة فلم يجد مسلمين ، أشهد رجلين من أهل الكتاب يحبسان بعد العصر ^(٤) ، فيقسمان بالله لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قرى ، ولا نكتم شهادة الله ، إنّّا إذا لمن الآثمين . قال : وذلك إن ارتاب وليّ الميت ^(٥) .

﴿ فَإِنْ عُرِّيَ ﴾ واطّلع بعد حلف الوصيّين ﴿ عَلَى أَنْهُمَا ﴾ بشهادتهما بالباطل ، وحشتهما في اليمين بالكذب في القول أو الخيانة في المال ﴿ اسْتَحَقَّا إِنَّمَا ﴾ وارتكبا ذنبا ، فلا ينقض الحاكم شهادتهما لاحتمال شرائهما المال من الميت ، فإن ادّعياه وأنكر الوارث ﴿ فَأَخْرَانِ ﴾ يجيئان بعد ظلم الشّاهدين الأولين ، و﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ في الحبس إلى بعد الصّلاة والحلف ، ولكن يشترط أن يكون الآخران ﴿ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ﴾ الحلف .

(١) في تفسير روح البيان : بني سهل .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٤٥٤ .

(٣) الكافي ٧ : ٥ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٥ .

(٤) في الكافي : الصلاة .

(٥) الكافي ٧ : ٤ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٥ .

ثم كآته قيل : من الذين استحق الكتائبان المدعيان للشراء عليهم الحلف ؟ قيل : هما ﴿الْأُولَيَانِ﴾ بالميت والأقربان إليه ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ كلا الآخرين ﴿بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا﴾ وحلفنا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول وأولى ﴿مِنْ﴾ حلف الكتائبين و﴿شَهَادَتِهِمَا﴾ مع كونها كاذبة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا في شهادتنا ، وما ظلمنا على الكتائبين بإبطال حَقِّهما ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسنا بتعريضها لسخط الله بهتك حرمة اسمه المبارك ، أو لمن الواضعين للحق في غير موضعه.

فتحصّل من الآيتين الشريفتين أنّ من أشرف على الموت ينبغي أن يوصي ويشهد على وصيّته شاهدين عدلين من أهل الإيمان ، فإن لم يوجد أن كان في سفر فيشهد رجلين من أهل الكتاب عدلين في دينهما ، فإن ارتاب الوارث فيهما يؤمر أن يحلفا بعد صلاة العصر أنّهما ما كتما الشهادة وما خاننا في التركة شيئا ، فإن اطلع على كذبهما في الشهادة أو خيانتهم في التركة بأن ظهر بأيديهما شيء منها ، وادّعى أنّ الميت ملكهما إياه ، وأنكره الورثة ، حلف اثنان منهم وعمل بحلفهما.

روي أنّ رسول الله ﷺ بعد نزول : ﴿فَإِنْ عُرِرَ﴾ إلى آخر الآية أمر أولياء تميم الدّاري أن يحلفوا بالله على ما أمرهم به فحلفوا ، فأخذ رسول الله ﷺ القلادة والآنية من ابن بيدي وأبن أبي مارية وردّهما إلى أولياء تميم الدّاري (١) .

وفي رواية بعض العامة : كان تميم الدّاري يقول بعدما أسلم : صدق الله ورسوله ، أنا أخذت الإناء ، فأتوب الى الله (٢) .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه : أنّه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الدّاري ، فلمّا أسلم أخبر بذلك وقال : حلفت كاذبا ، وأنا وصاحبي بعنا الإناء بألف وقسمنا الثمن ، ثمّ دفع خمسمائة درهم من نفسه ، ونزع من صاحبه خمسمائة أخرى ودفع الألف إلى موالي الميت (٣) .

قيل اتفق العلماء على أنّ هذه الآية أشكل ما في القرآن إعرابا ونظما وحكما (٤) .

﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ

أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾

ثمّ بيّن سبحانه حكمة تشريع هذه الكيفية من الشهادة بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي ذكرناه ، والطريق الذي شرعناه ﴿أَذْنَى﴾ وأقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ وأن يؤدّوها الشهود ﴿عَلَى﴾

(١) الكافي ٧ : ٦ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٦ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ١٢٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٥٤ .

وَجْهَهَا ونحوه الذي تحمّلوها على الميّت من غير تحريف وخيانة ، من جهة أنّ الشّهود إمّا أن يخافوا بسبب الحلف والتّغليظ فيه من عذاب الله **﴿أَوْ يَخَافُوا﴾** من **﴿أَنْ تُرَدَّ﴾** من قبل الحاكم **﴿إِيمَانٌ﴾** على الورثة ، فيحلفوا على خيانة الشّهود **﴿بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾** فيفتضحوا بإبطال إيمانهم على رؤوس الأشهاد والعمل بإيمان الورثة ، فأَيّ الخوفين حصل ، حصل المقصود ، وهو الإتيان بالشّهادة على وجهها .

ثمّ حتّ الله سبحانه النّاس على العمل بأحكامه ، وحفظ الأمانات وردّها بقوله : **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أيّها النّاس في شهادتكم من أن تحرفوها ، وفي إيمانكم من أن تكذبوا فيها ، وفي أماناتكم من أن تخونوها ، وفي أحكام دينكم من أن تخالفوها **﴿وَاسْمَعُوا﴾** مواعظ الله سمع طاعة وقبول ، ولا تكونوا من الفسّاق **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** إلى طريق الجنّة ، ولا يوفّق لعمل الخير **﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** والفريق الخارجين عن حدود الشرع والعقل .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩)

في بيان بعض أهوال القيامة

ثمّ لما كان دأبه سبحانه في كتابه العزيز بعد ذكر جملة من الأحكام العمليّة إمّا بيان مقدار من المعارف الإلهيّة تنشيطاً للقلوب ، أو شرح قصّة من قصص الأنبياء وأمهم اعتباراً وموعظة للنّاس وبعثاً لهم إلى امتثال الأحكام ، أو ذكر أحوال القيامة ردعاً لهم عن مخالفتها ، أردف الأحكام المذكورة بذكر أهوال القيامة بقوله : **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾** وأمهم فيه ، اذكروا أيّها المؤمنون ، وهو يوم القيامة **﴿فَيَقُولُ﴾** لهم توبخاً لامهم : **﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾** من قبل اممكم حين دعوتهم إلى توحيد و طاعة أحكامي ؟ أكانت إجابتهم إجابة إقرار وتسليم ، أم إجابة إنكار وجحود ؟ **﴿قَالُوا﴾** تشكّياً من امهم : ربّنا **﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾** بما أنت تعلم من ضمائرهم وبواطن قلوبهم **﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** ونحن لا نعلم إلّا ما أظهره من الجحود والعصيان .

قيل : إنّ المراد : إنّ علمك محيط بجميع الأشياء ، وعلمنا في جنب علمك كالمعدوم ، فتعلم ما ابتلينا من قبلهم ، وكابدنا من سوء إجابتهم ، فلتجئ إليك في الانتقام منهم ^(١) .

عن ابن عبّاس رضي الله عنه : أنّ هذا الجواب إمّا يكون في بعض مواطن القيامة وذلك عند زفرة جهنّم وجثو الامم على ركبهم ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبيّ مرسل إلّا قال : نفسي نفسي ، فعند ذلك تطير

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٥٨ .

القلوب من أماكنها ، فيقول الرّسل من شدّة هول المسألة وهول الموطن : لا علم لنا إنَّك أنت علّام الغيوب ، ثمّ ترجع إليهم عقولهم ، فيشهدون على قومهم أنّهم بلّغوا الرّسالة ، وأنّ قومهم كيف ردّوا عليهم^(١) .

وفي (المعاني) : عن الصادق عليه السلام : « يقولون : لا علم لنا بسواك » .

وقال : « القرآن كلّه تقرّيع ، وباطنه تقرّيب »^(٢) .

وفي (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « أنّ لهذا تأويلاً ، يقول : ماذا اجبتكم في أوصيائكم الذين

خلّفتموهم على اممكم ؟ فيقولون : لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا »^(٣) الخبر .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ
بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا
نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ

الشَّاهِدِينَ (١١٠) (١١٣) ﴿﴾

ثمّ لما ذكر في أوائل السّورة سوء اعتقاد النّصارى في حقّ عيسى وآله ، وكانوا أحقّ الامم بالتوبيخ حيث إنّهم تعدّوا من إساءة الأدب بساحة الأنبياء التي كانت لسائر الامم إلى إساءة الأدب بساحة جلال الله وكبريائه بقولهم بحلول الله تعالى في عيسى ، أو أنّه ابنه ، شرع في إثبات عبوديّة عيسى بحضرة الرّسل في القيامة ، أولاً بإظهار المنّة عليه بنعمته بقوله : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ مريم. وفي ذكر والدته تقرّيع على من تكلم في نسبه بما تكلم ، وعلى من ادّعى الوهيّته مع كونه متولّداً من أمّه.

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٥٨ .

(٢) معاني الأخبار : ٢٣٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٧ .

(٣) الكافي ٨ : ٣٣٨ / ٥٣٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٧ .

ثم شرع في تعداد نعمه التي أنعمها عليه بالأصالة وعلى أمه بالتبع بقوله : ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ﴾ وأعنتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وواسطة إفاضة العلوم ، وهو جبرئيل ، ولذا كنت ﴿تَكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بكلام الأنبياء ، حال كونك طفلاً كائناً ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ وفي حجر أمك ﴿وَوُكِّلَ لَكَ كُنُوزٌ كَثِيرٌ﴾ من غير تفاوت في كلامك بين الوقتين والحالتين ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ السماوي كله ، أو الكتابة والخط ^(١) - كما قيل ^(٢) - ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ من المعارف والأحكام ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الذين هما أفضل الكتب ، وأهمتك الأسرار المودعة فيهما ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ وتسوي ﴿مِنَ الطِّينِ﴾ هيئته ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ والخفافيش ﴿يَاذُنِي﴾ وإقداري وتعليمي ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ بعد تصويرها ﴿فَتَكُونُ﴾ تلك الهيئة ﴿طَيْرًا﴾ كسائر الطيور ﴿يَاذُنِي﴾ وإيجادي. روي أنّ اليهود سألوا منه ﷺ على وجه التعنت ، فقالوا له : اخلق لنا خفّاشاً ، واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالك ، فأخذ طينا وجعل منه خفّاشاً ، ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض.

في ذكر عجائب الخفّاش

قيل : إنّما طلبوا منه خلق الخفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق ، ومن عجائبه أنّه لحم ودم يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، وله ضرع يجري منه اللبن ، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل ، وإنّما يرى في ساعتين ، بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدّاً ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما يحيض المرأة. فلمّا رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا : هذا سحر ^(٣) .

﴿وَتُبْرِئِ الْأَكْمَةَ﴾ والأعمى الخلقي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ مع عجز جميع الأطباء عن إبرائهما وعلاجهما ﴿يَاذُنِي﴾ وإجابتي لدعائك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم بعد إحيائهم فيها ﴿يَاذُنِي﴾ وكففت ﴿وَمَنَعْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ وعن التعرّض لك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وأتيتهم بالمعجزات الباهرات ، وقصدوك بالسوء ، وعارضوك بالجهود ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وجحدوا نبوتك : ما هذا بإعجاز بل ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة.

﴿وَوُكِّلَ لَكَ كُنُوزٌ كَثِيرٌ﴾ اذكر ﴿إِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ وألقيت في قلوبهم حين دعوتهم إلى الإيمان ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ بي وبرسولي ﴿قَدْ مَرَّ ذِكْرُ عَدَدِ الْخَوَارِجِ﴾ ، ووجه تسميتهم بهذا الاسم في سورة آل عمران ^(٤) .

فهم بعد إلقاء الله في قلوبهم الإيمان ﴿قَالُوا﴾ : يا عيسى ﴿آمَنَّا﴾ بالله وبوحدانيّته ﴿وَأَشْهَدُ﴾ عنده يوم القيامة ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ له ، منقادون لأوامره ونواهيه ، و﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ﴾ مخاطبين لك يا

(١) في تفسير الرازي : وهي الخط.

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٢٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٤٦٠ .

(٤) تقدم في تفسير الآية (٥٢) من سورة آل عمران.

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿١﴾ .

قيل : كان ذلك منهم في بدو أمرهم وحال عدم استحكام معرفتهم بالله و يقينهم برسالة عيسى ، ولذا أساءوا الأدب بخطابه باسمه ونسبته إلى أمه ، وكان حقهم أن يقولوا : يا رسول الله ، ويا روح الله (١) .
﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ ويقدر ﴿رَبُّكَ﴾ على ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ وخوانا (٢) عليه الطَّعام ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ قيل : إنَّ المراد : هل جائز في حكمة الله إنزال المائدة من السماء ؟ وهل يعطيك ربك إن تسأله ذلك ؟ ! (٣) .

أقول : هذان التوجيهان منافيان لما حكاه الله عن عيسى ﷺ في جوابهم بقوله : ﴿قَالَ﴾ عيسى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال الكاشف عن شككم في قدرته ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وموقنين به ﴿قَالُوا﴾ لعيسى اعتذارا : إنه ما دعانا إلى هذا السؤال الشك في قدرته تعالى ، بل إننا ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ للاستشفاء من أمراضنا على قول ، أو لسد الرمق على قول آخر ، حيث قيل : إنَّ السؤال كان في زمن المجاعة (٤) .

﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ بمشاهدتها ﴿قُلُوبُنَا﴾ ويتقوى علمنا الاستدلالي بالعلم الشهودي ﴿وَنَعْلَمُ﴾ بعين اليقين ﴿أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا﴾ في ادعاء الرسالة ، لكون هذه المعجزة أتم الأدلة عليه ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا﴾ عند أهل العالم ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ حتى يزداد المؤمنون برسالتك إيماناً ، ويؤمن الكافرون بك باطلاعهم عليها .

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً
لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا
عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ

الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴿﴾

في كيفية نزول المائدة

فلما أظهروا أغراضا ظاهرة الصَّحَّة لسؤالهم ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ متضرعا إلى الله : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ اللطيف بنا ، المكمل لنفوسنا ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ بجودك وتفضلتك ﴿مَائِدَةً﴾ وخوانا من الطَّعام ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ كي ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ تلك المائدة ويوم نزولها ﴿عِيداً﴾ وسرورا ، ويوم سرور ﴿لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وسابقنا ولاحقنا إلى يوم القيامة ﴿وَوُكِّلَ﴾ تكون

(١) تفسير روح البيان ٢ : ٤٦٢ .

(٢) الخوان : ما يؤكل عليه .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ١٢٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٢ : ٤٦٢ .

﴿آيَةً﴾ ودلالة ﴿مِنْكَ﴾ على كمال قدرتك ، وصحّة نبوّتي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها ، فإنّك خير المسؤولين ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تخلق الرزق وتعطيه بلا من ولا عوض.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ بطريق الوحي لعيسى ، إجابة لمسؤوله من إنزال المائدة : ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ومجيب لسؤلכם ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بتوحيدي ورسالة رسولي ﴿بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ يا بني إسرائيل مع مشاهدة الآية العظيمة الباهرة ﴿فِيَّائِي أُعَذِّبُهُ﴾ بسبب إصراره على الكفر ، وتمرّنه في الضلال ﴿عَذَابًا﴾ شديدا ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ ولا أبتلي بمثله ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

في (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل : صوموا ثلاثين يوما ، ثم أسألوا الله ما شئتم يعطكموه ، فصاموا ثلاثين [يوما] ، فلما فرغوا قالوا : [يا عيسى] إنّنا لو عملنا لأحد من الناس فقضينا عمله لأطعمنا طعاما ، وإنّا صمنا وجعنا ، فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة ، وسبعة أحوات ^(١) حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم » ^(٢) .

وعن عمّار بن ياسر ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [قال] : « نزلت المائدة خبزا ولحما ، وذلك أنّهم سألوا عيسى طعاما لا ينفد يأكلون منه » قال : « فقليل لهم : فإنّها مقيمة لكم ما لم تخونوا وتخبّأوا وترفعوا ، فإن فعلتم ذلك عذبتم » قال : « فما مضى يومهم حتى خبّأوا وترفعوا وخانوا » ^(٣) .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، قال : والله ، ما تبع عيسى شيئا من المساوي قطّ ، ولا انتهر يتيما ^(٤) ، ولا قهقهه ضحكا ، ولا ذبّ ذبابا عن وجهه ، ولا أخذ على أنفه من نثر شيء قطّ ، ولا عبث قطّ.

ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم المائدة لبس صوفاً وبكى وقال : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية ، فنزلت سفرة حمراء بين غماتين وهم ينظرون إليها وهي تحوي منقصة حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشّاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة. واليهود ينظرون إليها ، ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قطّ ، ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحه.

فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلى صلاة طويلة ، ثم كشف المنديل عنها وقال : بسم الله خير الرّازقين. فإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوسها ، تسيل سيلا من الدّسم ، وعند رأسها [ملح] وعند ذنبها خلّ ، وحوّلها أنواع البقول ما عدا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة : على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ،

(١) في النسخة : خوان ، تصحيف ، صوابه من مجمع البيان ، والأحوات : جمع حوت.

(٢ و ٣) . مجمع البيان ٣ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٨ .

(٤) في النسخة : ولا انتهر شيئا.

وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى : ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ، ولا من طعام الآخرة ، ولكنه شيء افتعله الله بالقدرة الغالبة ، كلوا ما سألتكم ، بمددكم ويزدكم^(١) من فضله.

فقال الحواريون : يا روح الله ، لو أرينا من هذه الآية اليوم آية أخرى ؟ فقال عيسى عليه السلام : يا سمكة ، احبي بإذن الله تعالى ، فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ففرقوا منها ، فقال [عيسى] : ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ! ما أخوفني عليكم أن تعذبوا ! يا سمكة ، عودي كما كنت بإذن الله ، فعادت السمكة مشوية كما كانت ، فقالوا : يا روح الله ، كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن ، فقال عيسى : معاذ الله أن أكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا أهل الفاقة والزمناء والمرضى والمبتلين فقال : كلوا منها ، ولكم الهناء ولغيركم البلاء ، فأكل منها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض ومبتلى ، وكلهم شعبان يتجشأ^(٢) .

في ذكر مسخ أصحاب المائدة

ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيتها حين نزلت من السماء ، ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم ، فلم يأكل يومئذ منها زمن^(٣) إلا صح ، ولا مريض إلا برئ ، ولا فقير إلا استغنى ، ولم يزل غنيا حتى مات ، وندم الحواريون ومن لم يأكل منها ، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار يتزاحمون عليها ، فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوبة بينهم ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى ، فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعدا وهم ينظرون في ظلها حتى توارت عنهم ، وكانت تنزل غبا يوما ويوما.

فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : اجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إني شرطت على المكذبين شرطا أن من كفر بعد نزولها اعدبه عذبا لا اعدبه أحدا من العالمين. فقال عيسى عليه السلام : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلا ، باتوا ليلتهم على فراشهم مع نسائهم في ديارهم ، فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ، ويأكلون العذرة والحشوش ، فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ، وبكى على المسوخين أهلهم ، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا^(٤) .

وفي (الجمع) : وفي تفسير أهل البيت عليه السلام : « كانت المائدة تنزل عليهم فيجتمعون عليها ويأكلون

(١) في المصدر : ويزدكم.

(٢) تجشأت المعدة : تنفست من امتلاء.

(٣) الزمن : المبتلى بمرض مزمن طال مدته.

(٤) جمع البيان ٣ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٩٨.

منها ثم ترتفع ، فقال كبرائهم ومترفوهم : لا ندع سفلتنا يأكلون منها ، فرفع الله المائدة ببغيهم ، ومسحوا قردة وخنازير » ^(١) .

وعن العياشي : عن الباقر عليه السلام [قال] : « المائدة التي نزلت على بني إسرائيل كانت مدلاة بسلاسل من ذهب ، عليها تسعة أخونة ^(٢) وتسعة أرغفة » ^(٣) .

وفي رواية : « تسعة ألوان أرغفة » ^(٤) .

وفي (المجمع) : عن الكاظم عليه السلام : « أتهم مسحوا خنازير » ^(٥) .

وعن الرضا عليه السلام : « والجريث والضب فرقة من بني إسرائيل ، حيث نزلت المائدة على عيسى بن مريم ، لم يؤمنوا فتأهوا ، ف وقعت فرقة في البحر ، وفرقة في البر » ^(٦) .

وعن (الخصال) : عن النبي صلى الله عليه وآله ، في حديث المسوخات : « وأما الخنازير فقوم من النصارى سألوهم إنزال المائدة عليهم ، فلما نزلت عليهم كانوا أشد ما كانوا كفرا وأشد تكديبا » ^(٧) .

قيل : نزلت المائدة يوم الأحد ، فاتخذ النصارى عيداً ^(٨) .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾

ثم بالغ سبحانه في تبريع النصارى على اتخاذ عيسى و أمه إلهين بحكاية خطابه في القيامة بما فيه تبريع منه بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ في القيامة بمشهد من النصارى : ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ .

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام : « لم يقل ، وسيقول ؛ لأن ^(٩) الله إذا علم شيئاً هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان » ^(١٠) .

وعن بعض المفسرين أنه تعالى خاطب عيسى حين رفعه إلى السماء بقوله : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ

(١) مجمع البيان ٣ : ٤١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٠ .

(٢) الأخونة : جمع خوان ، وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل ، وفي نسخة من المصدر : أخونة .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٨٥ / ١٣٨٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٨٦ / ١٣٨٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٠ .

(٥) مجمع البيان ٣ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٠ .

(٦) التهذيب ٩ : ٣٩ / ١٦٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠١ .

(٧) الخصال : ٤٩٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠١ .

(٨) تفسير الرازي ١٢ : ١٣١ .

(٩) في المصدر : لم يقله وسيقوله إن .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ٨٦ / ١٣٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠١ .

لِلنَّاسِ^(١) ﴿أَتُحَدِّثُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ﴾ ومعبودين لأنفسكم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وفي قبالة ،
 فعمل القائلون بالأقنانيم بقولك ، وادَّعُوا أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ؟ ﴿قَالَ﴾ عيسى خضوعاً وتواضعاً :
 ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وانتزهك من أن يكون لك شريك في شيء تنزيهاً ﴿مَا يَكُونُ﴾ وما ينبغي ﴿لِي﴾ مع معرفتي
 وتمحّضي في عبوديتك والانقياد لأوامرك ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وأن أدّعي لنفسي غير العبودية .
 ثم فوّض الصدق والكذب إلى علمه المحيط بكل شيء حفظاً للأدب بقوله : ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾
 وتفوّهت به ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ حيث إنك بإحاطتك بي ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ اخفي ﴿فِي نَفْسِي﴾ وضميري من
 المعلومات ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا﴾ خفي ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ وغيبك من معلوماتك . وإنما عبّر عن خفيات علمه تعالى
 بما في نفسه للمشكلة والازدواج .
 ثم أكّد سعة علمه تعالى بقوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ممّا كان وممّا يكون .

في ذكر عدد حروف الاسم الأعظم

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام ، في تفسيرها : « أن الاسم الأكبر ثلاثة وسبعون حرفاً ، فاحتجب
 الربّ تعالى بحرف ، فمن ثمّ لا يعلم أحد ما في نفسه عَزَّجَلَّ ، أعطى آدم اثنين وسبعين حرفاً فتوارثها الأنبياء
 حتّى صارت إلى عيسى عليه السلام ، فلذلك قال : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ يعني اثنين وسبعين حرفاً من الاسم
 الأكبر ، يقول : أنت علّمتنيها ، فأنت تعلمها ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يقول : لأنك احتجبت من
 خلقك بذلك الحرف ، فلا يعلم أحد ما في نفسك » (٢) .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا
 دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ (١١٧)﴾

ثم بالغ في تنزيه نفسه من القول الشنيع بقوله : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ من قبلي ولا من قبلك قولاً ﴿إِلَّا
 مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ من القول الحق . ثم فسّره بقوله : ﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الذي يكون ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخالقي
 وخالقكم ﴿وَكُنْتُ﴾ بحسب وظيفة الرسالة ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ ورقيباً ﴿مَا دُمْتُ﴾ مقيماً ﴿فِيهِمْ﴾ اراعي
 أحوالهم وأحملهم على قول الحق والعمل الصالح ، وأمنعهم عن الضلال والعصيان ، أو كنت مشاهداً
 لأحوالهم من الكفر والإيمان ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وقطعت علاقتي من الأرض ، ورفعتني إلى

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٣٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٨٧ / ١٣٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠١ .

السَّماءَ ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾ والحافظ المقتدر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الناظر في أحوالهم وأعمالهم.
ثم لأجل دفع توهم الاختصاص بيّن إحاطته بجميع الموجودات بقوله : ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء وكلّ موجود من الموجودات ﴿شَهِيدٌ﴾ وراقيب ، لا يخرج من سلطانك ونفوذ إرادتك شيء.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨)

ثم أنّه ﷺ بعد تنزيه نفسه من الدّخل (١) في عقائدهم الفاسدة وأعمالهم السيئة ، تبرأ من الدّخل في مجازاتهم بالشفاعة وغيرها بقوله : ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ على كفرهم وعصيانهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مقهورون تحت قدرتك مملوكون لك لا تعاملهم إلّا بالعدل ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وتعفو عن سيئاتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في إرادتك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعالك لا تعفو إلّا عمّن هو أهل له.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩)

ثم بيّن سبحانه نفع قول الحق والصدق إشعاراً بتصديق عيسى ﷺ بقوله : ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ في الدّنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ في القول والاعتقاد والنية والعمل.
ثم شرح النّفع بقوله : ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ وبساتين ملقّة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ليس لهم خوف الخروج عنها.

ثم بشرهم بأعلى المنافع والخطوط بقوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم وصدقهم في القول والعمل ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بنيلهم أعلى الكرامات ، وهو مقام الرّضوان و﴿ذَلِكَ﴾ المقام هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والنّجاح بأعلى المقاصد.

عن القمّي رحمه الله : الدّليل على أنّ عيسى لم يقل [لهم] ذلك ، قوله : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (٢) .

وعنه بإسناده عن الباقر ﷺ ، في هذه الآية : [قال] : « إذا كان يوم القيامة وحشر الناس للحساب ، فيمروّن بأهوال يوم القيامة ، ولا ينتهون إلى العرصة حتّى يجهدوا جهدا شديدا » .

(١) كذا ، والظاهر : الدخول أو التدخّل.

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٢ .

قال : « ثم يقفون بفناء العرش ^(١) ، ويشرف الجبار عليهم وهو على عرشه ، فأول من يدعى ببناء يسمع الخلائق أجمعون أن يهتف باسم محمد بن عبد الله ﷺ النبي القرشي العربي » قال : « فيتقدم حتى يقف على عین العرش » .

قال : « ثم يدعى بصاحبكم [علي عليه السلام] يتقدم حتى يقف على يسار رسول الله ﷺ ، ثم يدعى بأمة محمد فيقفون على يسار علي عليه السلام ، ثم يدعى بنبي نبي وأمه معه ، من أول النبيين إلى آخرهم وامتهم معهم فيقفون على يسار العرش .

قال : « ثم أول من يدعى للمسائلة القلم » ، قال : « فيتقدم فيقف بين يدي الله في صورة الآدميين فيقول [الله] : هل سطر في اللوح ما ألهمتك وأمرتك به [من الوحي] ؟ فيقول القلم : نعم يا رب ، قد علمت أي سطر في اللوح ما أمرتني وألهمتني به من وحيك . فيقول الله : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول : يا رب ، هل اطلع على مكنون سرّك غيرك ؟ فيقول له [الله] : أفلحت حجّتك .

ثم يدعى باللوح فيتقدم في صورة الآدميين حتى يقف مع القلم ، فيقول له : هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحيي ؟ فيقول اللوح : نعم يا رب ، وبلغته إسرأفيل ، ثم يدعى بإسرأفيل ، فيتقدم إسرأفيل ، مع اللوح والقلم في صورة الآدميين فيقول الله : هل بلغك اللوح ما سطر فيه القلم من وحيي ؟ فيقول : نعم يا رب ، وبلغته جبرائيل ، فيدعى بجبرائيل [فيتقدم] حتى يقف مع إسرأفيل فيقول الله له : هل بلغك إسرأفيل ما بلغ ؟ فيقول : نعم يا رب ، وبلغته جميع أنبيائك ، وأنفذت إليهم جميع ما انتهى إليّ من أمرك ، وأدبت رسالاتك إلى نبي نبي ورسول رسول ، وبلغتهم كل وحيك وحكمتك وكتبك ، وإن آخر من بلغته رسالتك ووحيك وحكمتك وعلمك وكتابك وكلامك محمد بن عبد الله العربي القرشي الحرمي حبيبك » .

قال أبو جعفر عليه السلام : « فأول من يدعى للمسائلة من ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ ، فيدنيه الله حتى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذ منه ، فيقول الله : يا محمد ، هل بلغك جبرئيل ما أوحيت إليك وأرسلته به إليك من كتابي و حكمتي وعلمي ، وأوحاه إليك ؟ فيقول رسول الله ﷺ : نعم يا رب ، قد بلغني جبرئيل جميع ما أوحيته إليه وأرسلته به من كتابك وحكمتك وعلمك ، وأوحاه إليّ . فيقول الله محمد ﷺ : هل بلغت أمّك ما بلغك جبرئيل من كتابي وحكمتي وعلمي ؟ فيقول رسول الله ﷺ : نعم يا رب ، قد بلغت أمّي جميع ما أوحى إليّ من كتابك وحكمتك وعلمك ، وجاهدت في سبيلك .

فيقول الله محمد ﷺ : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول محمد ﷺ : يا رب ، أنت الشاهد لي

بتبليغ

(١) في المصدر : العرصة .

الرسالة ، وملائكتك ، والأبرار من امتي ، وكفى بك شهيدا. فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد ﷺ بتبليغ الرسالة [ثم يدعى بأمة محمد فيسألون : هل بلغكم محمد رسالتي وكتابي وحكمتي وعلمي وعلمكم ذلك ؟ فيشهدون لمحمد بتبليغ الرسالة] والحكمة والعلم.

فيقول الله لمحمد ﷺ : هل استخلفت في امتك من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي وعلمي ، ويفسر لهم كتابي ، ويبين لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجة لي ، وخليفة في الأرض ؟ فيقول محمد : نعم يا رب ، قد خلّفت فيهم علي بن أبي طالب أخي ووزير ووصي وخير امتي ، ونصبته لهم علما في حياتي ، ودعوتهم إلى طاعته ، وجعلته خليفتي في امتي [وإماما] تقتدي به الأمة بعدي إلى يوم القيامة ، فيدعى بعلي بن أبي طالب .

إلى أن قال : « فيدعى بإمام إمام ، وبأهل عالمه ، فيحتجون بحجتهم ، فيقبل الله عذرهم ، ويجيز حجتهم. قال : ثم يقول الله : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ ^(١) .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢٠)

ثم بين الله سعة ملكه ، وعظم سلطانه ، وكمال قدرته ، إبطالا لدعوى النصارى ، وتقريرا لما وعد الصادقين بقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من الموجودات يتصرف فيها كيف يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي قوله : ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ تنبيه على أن جميع الموجودات ، لكونها مقهورة تحت قدرته وقضائه ، بمنزلة الجمادات التي لا قدرة لها على شيء. الحمد لله الذي أيدني لإتمام سورة المائدة ، وأسأله الإنعام عليّ بالتوفيق لإتمام ما يتلوها من سورة الأنعام.

(١) تفسير القمي ١ : ١٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٢ .

في تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾

في بيان وجه نظم سورة الأنعام

ثم لما تمت السور التي كان أهم المقاصد فيهنّ محاجة اليهود والنصارى الذين هم أعلم الملل الباطلة ، وإبطال شبهاتهم وعقائدهم الفاسدة ، وبيان ما ينتظم به أمور المعاد والمعاش ، من أحكام العبادات والسياسات ، وحقوق الناس ، والمحلات والمحرمات من الأطعمة والأشربة والمناكح ، والمنّة على المسلمين بتكميل الدين وإتمام النعمة بنصب الحجّة على العالمين ، ثم ختم المائدة ببيان كمال قدرته وعظمته سلطنته ، انتظمت سورة الأنعام المبتدأ فيها بالحمد على نعمائه ، وتأكيد ما في آخر السورة السابقة بإعادة بيان كمال قدرته ، وشرح ملكيته بالملكيّة الإشرافية الإبداعية المشتعلة على محاجة المشركين الذين هم أجهل الملل ، وإبطال بدعهم ، وبيان بعض أحكام الأطعمة ، وغير ذلك من الوجوه الموجبة لحسن النظم.

فابتدأ فيها بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقد مرّ تفسيره ، ثم بحمد ذاته المقدّسة بقوله : ﴿الْحَمْدُ﴾ بجميع أنواعه وأفراده ، والثناء الجميل بأيّ نحو وجد ملك ﴿لِلَّهِ﴾ ومختصّ بالواجب المستجمع لجميع الكمالات لا يشركه فيه غيره حمد أم لم يحمد.

ثم عرّف ذاته المقدّسة بكمال القدرة وسعة الإنعام تقريراً لاختصاصه به وحثّاً عليه بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وسوّى بقدرته وحكمته ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها من الكواكب والملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها وفيها من الحيوانات والنباتات وغيرها.

وتخصيصهما بالذكر لكونهما أعظم المخلوقات الجسمانيّة في الأنظار. وقد مرّ وجه جمع السماوات وإفراد الأرض مع كونها مثلهنّ. وإتّما قدّم ذكر السماوات مع تأخرهنّ في الوجود من الأرض ، لكونهنّ أعظم وأشرف في الأنظار ، ولنزول البركات منهنّ ، وكونهنّ بمنزلة الآباء للمواليد ،

والأرض بمنزلة الآم.

عن الصادق عليه السلام : « أَنَّهُ لَمَّا قَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ كَانَ رَدًّا عَلَى الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَا بَدُو لَهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ » (١) .

﴿ وَجَعَلَ ﴾ وَأَنْشَأَ ﴿ الظُّلُمَاتِ ﴾ إِنَّمَا جَمَعَهَا لِكثْرَةِ أَسْبَابِهَا ﴿ وَالنُّورِ ﴾ أَفْرَدَهُ لِأَنَّهُ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ ، قِيلَ : هُوَ النَّارُ ، وَإِنَّمَا قَدِّمَتْ الظُّلُمَاتُ فِي الذِّكْرِ لِكُونِهَا عَدَمِيَّةً ، وَمَقْدَمَةُ عَلَى النُّورِ الَّذِي هُوَ وَجُودِي (٢) .

رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظِلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ (٣) .

وَرَوَى أَنَّهُمَا نَزَلَتْ تَكْذِيبًا لِلْمَجُوسِ فِي قَوْلِهِمْ : اللَّهُ خَالِقُ النَّورِ ، وَالشَّيْطَانُ خَالِقُ الظُّلُمَاتِ (٤) .

وَقِيلَ : عَلَى ذَلِكَ خَلَقَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ (٥) .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : ﴿ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ﴾ أَيُّ ظِلْمَةِ الشَّرِّكَ وَالنِّفَاقِ وَالْكَفْرِ ، وَالنُّورِ يَرِيدُ نُورَ الْإِسْلَامِ (٦) . وَعَلَيْهِ يَكُونُ إِفْرَادُ النَّورِ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَجَمْعُ الظُّلُمَاتِ لِأَنَّ الْبَاطِلَ كَثِيرٌ .

ثُمَّ وَبَّخَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْعَدَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ عَقْلِهِمُ الشَّرِّكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بِاعْتِقَادِ الشَّرِّكَ ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ وَيَشْرَكُونَ مَعَ دَلَالَةِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ

تَمْتَرُونَ (٧) ﴾

ثُمَّ اسْتَدْلَّ بِأَوْضَحِ الْأَدْلَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عَلَى كِمَالِ قُدْرَتِهِ وَأَتَمِّ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ وَأَوْجَدَكُمْ ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾ لِأَنَّ مَبْدَأَ وَجُودِ الْبَشَرِ آدَمَ ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ طِينٍ ، أَوْ لِأَنَّ مَبْدَأَ وَجُودِهِمُ التَّطَفُّةُ ، وَهِيَ مَتَكُونَةٌ مِنَ الْأَغْذِيَةِ النَّبَاتِيَّةِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنْ طِينٍ ﴿ ثُمَّ ﴾ بَعْدَ الْخَلْقِ ﴿ قَضَى ﴾ وَقَدَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ ﴿ أَجَلًا ﴾ خَاصًّا بِهِ ، وَأَمَدًا مَعِيْنًا يُؤَخِّرُ إِلَيْهِ مَوْتَهُ ، ﴿ وَ ﴾ لَهُ ﴿ أَجَلٌ ﴾ آخَرُ وَوَقْتُ مُضْرُوبٍ ﴿ مُسَمًّى ﴾ وَمَعِيْنٌ ﴿ عِنْدَهُ ﴾ مَثْبُتٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ .

فِي أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَجَلِينَ مُحْتَمُونَ وَمُسَمًّى

عَنْ الْقَمِّيِّ : عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام : « الْأَجَلُ الْمُقَضِيُّ هُوَ الْمُحْتَمُونَ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ وَحْتَمَهُ ، وَالْمُسَمًّى هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَدَاءُ ، يَقْدَمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ ، وَالْمُحْتَمُونَ لَيْسَ فِيهِ تَقْلِسٌ وَلَا تَأْخِيرٌ » (٨) .

حَكَى عَنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَجَلَيْنِ : الْأَجَلَ الطَّبِيعِيَّ ، وَالْأَجَلَ الْاِخْتِرَامِيَّ . أَمَّا الطَّبِيعِيَّ ؛

(١) الاحتجاج : ٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٦ ، وفي الاحتجاج : وهي دائمة .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٥١ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ١٥١ .

(٤ و ٥) . تفسير روح البيان ٣ : ٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ١٥١ .

(٧) تفسير القمي ١ : ١٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٧ .

فهو الذي لو بقي ذلك المزاج ولم تعترضه العوارض الخارجيّة ، لانتهت مدّة بقائه إلى أنّ تتحلّل رطوبته وتنطفئ حرارته الغريزيّتان. وأمّا الاخترامي : فهو الذي يحصل بالعوارض كالغرق والحرق وغيرهما من المهلكات (١).

وقيل : إنّ المراد من الأجل المقضيّ : مدّة عمره في الدّنيا ، ومن الأجل المسمّى : مدّة عمره في الآخرة ، فإنّه لا آخر لها ، ولا يعلم كيفيّة الحال فيها إلّا الله (٢).

وقيل : إنّ الأوّل مدّة حياة الدّنيا ، والثّاني مدّة البرزخ (٣).

ثمّ بالغ سبحانه في استبعاد الشّرك منهم مع ذلك ، أو في استبعاد إنكارهم البعث بقوله : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ أَتِهَا الْمَشْرُوكُونَ﴾ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وتشكّون في توحيد الله ، أو البعث مع كون الإعادة أهون من الابتداء.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

تَكْسِبُونَ﴾ (٣)

ثمّ أنّه تعالى بعد تخصيص خلق العالم بنفسه حصّ استحقاق العبادة بذاته المقدّسة بقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ والمعبود المطلق ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ والملكوت الأعلى ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ وعالم الملك. عن الصادق عليه السلام : « كذلك هو في كلّ مكان » (٤).

ثمّ لما كانت معرفته باستحقاق العبادة لا توجب الانبعاث إليها إلّا بعد معرفته بالعلم الكامل بضمائر العباد وأعمالهم ، عرّف ذاته المقدّسة بسعة العلم بقوله : ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ﴾ وخفياّتكم من العقائد والنيّات ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ وإعلانكم من الأقوال والأعمال ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وتحصلون لأنفسكم من الخير والشرّ ، والطّاعة والعصيان ، فيجازيكم على جميع ذلك بما تستحقّون.

عن الصادق عليه السلام ، في رواية : « ولكن هو بائن من خلقه ، محيط بما خلق علما وقدرة وإحاطة وسلطانا ، ليس علمه بما في الأرض بأقلّ ممّا في السّماء ، لا يبعد منه شيء ، والأشياء عنده سواء علما وقدرة وسلطانا وملكا وإحاطة » (٥).

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ

لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ (٥)

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥.

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ١٥٣.

(٤ و ٥) . التوحيد : ١٣٣ / ١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٧.

ثم لما كان بيان هذه المعارف من النبي الامي بالعبارات التي فيها الإعجاز من الأدلة الواضحة على صدق نبوته ، وبخ سبحانه المشركين على عدم الالتفات إليها ، وترك التأمل فيها والاعتناء بها بقوله : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ وما ينزل عليهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وحجة واضحة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وحججه الباهرة على صدق نبوته ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير معتنين ، بل إلى تكذيبها مسارعين ، بل بها مستهزئين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ والقرآن المقترن بدلائل الصدق ، أو بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وأنزل إليهم ، أو بعث فيهم ، واستهزؤا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ ويبين لهم ﴿أَنْبَاءَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وصدق ما أخبروا به من العذاب في الدنيا بقتلهم بأيدي المسلمين ، وفي الآخرة بتصليتهم في نار الجحيم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)﴾

ثم أشهد على صدق وعيده بما نزل من العذاب على الامم الماضية ووعظهم به بقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أولئك المكذبون ، ولم يعلموا علما يكون بمنزلة الرؤية ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وأهل عصر ، كقوم عاد وثمود ، وقوم نوح ولوط وأضرابهم.

ثم كآته قيل : كيف كان حالهم ؟ فأجاب بقوله : ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وأقدرناهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وأعطيناهم من البسطة في الجسم والسعة في المال ﴿مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ﴾ ومقدارا لم نعطكموه ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ وأنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مطرا ﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرا متتابعا ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿الْأَنْهَارَ﴾ الكثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ في مساكنهم وبساتينهم ، فهم لم يشكروا تلك النعم ، بل قابلوها بالكفر والتكذيب للرسول والاستهزاء بالآيات ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وسيئات عقائدهم وأعمالهم ، ولم يعظم علينا إهلاكهم ، لأننا عمّرنا الأرض بغيرهم ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بدلا منهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فاعتبروا أيها المشركون بهم ، وأحذروا أن تكونوا مثلهم ، ويعاملكم الله معاملتهم بكفركم وطغيانكم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)﴾

ثم قطع الله رجاء رسوله عن إيمانهم بعد التهديد والوعظ ورؤية الآيات بقوله : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾

من السماء ﴿كِتَاباً﴾ تماماً كالتوراة ، وكان مكتوباً ﴿فِي قُرْطَاسٍ﴾ وورق كما اقترحوه وشاهدوا نزوله بأعينهم ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ بعد نزوله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كي لا يبقى لهم شك في كونه كتاباً نازلاً من السماء ، والله ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الكفر طعننا فيه ، وعنادا للحق : ﴿إِنْ هَذَا﴾ الكتاب ، وما هو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة لكل أحد.

روي أنّ بعض المشركين قالوا : يا محمد ، لن نؤمن لك حتّى تأتينا بكتاب من عند الله ، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنّه من عند الله ، وأتاك رسوله ، فأُنزل الله : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية ^(١) .

﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ

جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٨) و (٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية بعض اقتراحات المشركين ، حكى بعض اعتراضاتهم على النبي ﷺ بقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يشهد بصدق نبوّته ، فإنّه أقرب إلى قبول قوله ؛ لأنّ كلّ من يرى الملك يقبل قوله ، ويؤمن به ، فرد الله ذلك بقوله : ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا﴾ من السماء ﴿مَلَكَاً﴾ بصورته الأصليّة ﴿لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وانقطع صحّة التكليف ، لكون إيمانهم بالإلجاء كما في القيامة ، فحقّ إهلاكهم ﴿ثُمَّ﴾ إذن ﴿لَا يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهلون ، فيفاجأهم عذاب الاستئصال ؛ لكون رؤية الملك كروية الآخرة لا ينفع الإيمان بعدها ، ﴿و﴾ لذا ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً﴾ يعاينوه ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وصوّرناه بصورة البشر كضيفان إبراهيم ولوط ، وكلّ الملكين المتخاصمين عند داود ، وكجبرئيل المتصوّر عند النبيّ بصورة دحية الكلبي ؛ لأنّ الأبصار لا تقوى لرؤية الملك في هذا العالم الجسماني ، ﴿و﴾ إذن ﴿لَلْبَسْنَا﴾ وشبّهنا ^(٢) الأمر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ نحو ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ ويشبّهون ^(٣) ؛ لأنّهم يظنون أنّه بشر ، فيعود اعتراضهم بقولهم : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ^(٤) ، ولذا استحال أن يجعل الرّسل ملائكة لعدم الفائدة فيه.

في محاجة النبي ﷺ مع المشركين

عن العسكري عليه السلام ، قال : « قلت لأبي عليّ بن محمّد : هل كان رسول الله ﷺ ينظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجّهم ؟ قال : [بلى] مرارا كثيرة ، إنّ رسول الله ﷺ كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة ، إذ ابتدأ عبد الله بن [أبي] أميّة المخزومي فقال : يا محمّد ، لقد ادّعت دعوى عظيمة ، وقلت مقالا هائلا ، زعمت أنّك رسول ربّ العالمين ، ولا ينبغي

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١١ .

(٢) في النسخة : واشتبهنّا .

(٣) في النسخة : يشتبّهون .

(٤) المؤمنون : ٢٣ / ٢٤ .

لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشرا مثلنا ، ولو كنت نبيا لكان معك ملك يصدّقك ونشاهده ، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبيا لكان يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا ، ما أنت يا محمد إلّا [رجلا] مسحورا ولست بنبيّ. فقال رسول الله ﷺ : اللهم أنت السّامع لكلّ صوت ، والعالم بكلّ شيء ، تعلم ما قاله عبادك ، فأنزل [الله] عليه : ﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إلى قوله : ﴿مَا يَلْسُنُونَ﴾ .

ثم قال رسول الله : وأما قولك : ولو كنت نبيا لكان معك ملك يصدّقك ونشاهده ، بل لو أراد [الله] أن يبعث إلينا نبيا ، لكان إمّا يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا ، فالملك لم تشاهده حواسك لأنّه من جنس هذا الهواء ، لا عيان منه ، ولو شاهدتموه بأن يزداد في قوى أبصاركم لقلتم : ليس هذا ملكا ، بل هذا بشر ؛ لأنّه إمّا يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه ، لتفهموا عنه مقاله ، وتعرفوا خطابه ومراده ، وكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأن ما يقوله حقّ ، بل إمّا بعث الله بشرا ، وأظهر على يده المعجزات التي ليست في طباع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم ، فتعلمون بعجزكم عمّا جاء به أنّه معجز ، وأنّ ذلك شهادة من الله بالصدق له ، ولو ظهر لكم ملك وأظهر على يده ما يعجز عنه البشر ، لم يكن في ذلك ما يدلّكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه من الملائكة حتّى يصير ذلك معجزا ، ألا ترون الطيور التي تطير ، ليس ذلك منها بمعجز ؛ لأنّ لها أجناسا يقع منها مثل طيرانها ، ولو أنّ آدميا طار كطيرانها كان ذلك معجزا ، فالله عزّ وجلّ سهّل عليكم الأمر وجعله مثلكم بحيث تقوم عليكم حجّته ، وأنتم تقترحون عمل الصّعب الذي لا حجّة فيه « (١) الحديث.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾

ثمّ لما حكى الله تعالى إعراض المشركين عن المعجزات ، واستهزاءهم بها ، وإصرارهم على الكفر ، وعدم تأثر قلوبهم بالتّصحّح ، وكانت كلّها سببا لحزن النبيّ ﷺ ، سلّى قلب حبيبه بقوله : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السّابقة على بعثتك ، وهم صبروا على استهزائهم ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط ، أو حلّ ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ عقيب استهزائهم وسخريتهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الدّين ، أو العذاب الذي كان النبيّ يخبرهم به وهم يستهزئون به. وفيه وعد النبيّ بإهلاك المستهزين به ، فأنجز الله وعده يوم بدر.

(١) الاحتجاج : ٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٠٩ .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾

ثم لما ذكر الله في تسليية النبي ﷺ استهزاء قومه به ، أمره بتهديدهم وإنذارهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، للمشركين المكذبين بك : ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ﴾ لتعرفوا أحوال الأمم الماضية ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾ بأبصاركم ، وتفكروا بقلوبكم في أنه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالرسول وإلى ما صار مآل إعراضهم عن الآيات الإلهية ، فاعتبروا مما نزل بهم من عذاب الاستئصال ، ولا تغتروا بما أنتم فيه من الصحة والقوة والنشاط والسعة.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ﴾

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)﴾

ثم أمر نبيه ﷺ بعد تهديد المشركين ونصحهم بإلزامهم بالتوحيد بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، للمشركين واسألهم عن أنه : ﴿لِمَنْ﴾ يكون ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا ؟

فلما كان الجواب من أبده البديهيّات عند العقلاء بحيث لا ينبغي الخلاف فيه ، أمر نبيه ﷺ بالمبادرة إليه بقوله : ﴿قُلْ﴾ كلّها ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له ، إيماء إلى أنّ هذا السؤال ليس من حقّه الانتظار في الجواب ، بل حقّه أن يبادر إلى جوابه بالاعتراف بأنّ الكلّ لله ؛ لظهور آثار الحدوث والإمكان في الأجسام ، واحتياج الحادث إلى الصّانع الواجب من أبده البديهيّات.

ثمّ بشر برحمته على عباده مع كمال عظمتهم وقدرته تربية للرّجاء في القلوب بقوله : ﴿كَتَبَ﴾ وحتم ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ وذاته المقدّسة ﴿الرَّحْمَةَ﴾ والعطوفة على العباد ، ولذا لا يعجل على من أشرك به وعصاه بالعقوبة ، ويقبل منهم التّوبة.

وقيل : إنّ المراد بالرّحمة : الهداية إلى معرفته بنصب الدلائل على توحيده ^(١) وكمال صفاته.

عن النبي ﷺ أنّه قال : « لما فرغ الله من الخلق كتب كتابا : إنّ رحمتي سبقت غضبي » ^(٢) .

أقول : الظاهر من سبق الرّحمة هو الغلبة والكثرة ، لا السّبق الزّماني .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه : أنّه تعالى لما خلق السّماء والأرض خلق مائة رحمة ، كلّ رحمة

ملء ما بين السّماء والأرض ، فعنده تسع وتسعون رحمة وواحدة بين الخلائق فيها يتعاطفون ويتراحمون ، فإذا كان آخر الأمر قصرها على المتّقين ^(٣) .

(١) جوامع الجامع : ١٢٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٦٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ١٦٥ .

ثم أردف البشارة بالرحمة بالتهديد بالعقوبة تربية للخوف بقوله : ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ الله ويبعثكم من القبور ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ﴾ لعاقل ﴿فِيهِ﴾ .

وقيل : إنّ من شؤون رحمته بالعباد جمع الناس في يوم القيامة ، وجعل دار الجزاء والوعيد بها ، وإلاّ لحصل الهرج والمرج ، ولارتفع الضبط وكثر الخبط ^(١) ، واحتلّ النظام.

ثم نبّه الله سبحانه على أنّ ترك الإيمان بالتوحيد مع سعة رحمته تعالى ، والوعيد بالعقاب على الشرك غاية الخسران بقوله : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وغبنوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وأضرّوا عليها بتضييع رأس المال من الفطرة الأصلية والعقل السليم ، باتّباع الهوى والانحماك في الشهوات ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحداية الله ، بل يصرون على الشرك والعصيان ، ولذا يخرجون عن قابلية شمول الرحمة الواسعة ، ويستحقّون العذاب الدائم.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْتَ خُذْ وَلِيًّا

فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾

ثم أنّه تعالى بعد ذكر كونه مالك المكان والمكانيات من السماوات والأرض وما فيهما ، ذكر أنّه مالك الزمان والزمانيات بقوله : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ واستقرّ ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واشتملا عليه من الموجودات ، أو ما سكن وتحرك فيهما.

روي أنّ كفّار مكّة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، قد علمنا أنّه ما يملكك على ما تدعونا إليه إلّا الفقر والحاجة ، فنحن نجتمع لك من القبائل أموالا تكون أغنانا رجلا ، وترجع عمّا أنت عليه من الدّعوة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٢) .

ثم أنّه تعالى بعد التنبيه على كونه مالك جميع الموجودات ، نبّه على إحاطته بها علما بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكلّ المسموعات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع المعلومات ، فيسمع نداء المضطّرين ، ويعلم حاجات المحتاجين.

ثم أنّه تعالى بعد بيان سعة ملكه ورحمته ، وكمال غناه وإحاطته ، أمر نبيّه ﷺ بأن يعلن بتخصيصه بولايته ، وإعراضه عن ولاية غيره بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، للمشركين إنكارا على نفسك : ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ﴾ من مخلوقاته ﴿أَنْتَ خُذْ﴾ وأختار لنفسه ﴿وَلِيًّا﴾ وكافلا ومعبودا ؟ ! حاشاي من ذلك ، مع أنّه تعالى

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٦٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٥ .

بكمال قدرته كان ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومبدعهما من غير مثال ، ﴿وَهُوَ﴾ بجوده وغناه ﴿يُطْعِمُ﴾ ويرزق جميع الموجودات ، ويوصل إليها ما تحتاج إليه ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ ولا يرزق ، ولا يحتاج إلى شيء ، ولا ينتفع بشيء ، فهو تعالى جواد بالذات غني بالذات ، وغيره عاجز فقير محتاج. فالعدول عن ولاية القادر الغني الجواد إلى ولاية العاجز الفقير المحتاج غاية الجهل ، وعين السّفه.

ثم بعد إقامة البرهان العقلي على عدم جواز العدول عن الله إلى غيره في الولاية والعبادة ، أمر الله نبيه ﷺ بإعلام الناس بوجوب ولايته والتمخض بعبوديته بقوله : ﴿قُلْ﴾ للناس : ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من قبل ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وجهه ونفسه ، وخصّ ولايته وعبادته به ، وأمر غيره أن يكون تابعا في ذلك ، ونهيت عن التّوجّه إلى غيره حيث خاطبني الله بقوله : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في وعبادتي وولايتي.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

ثم لما أمر الناس بتخصيص الله بالولاية والعبودية ، ونهاهم عن الشّرك بأبلغ بيان ، وكان من لوازم مخالفة أمر الله ونهيه العقوبة ، أمر بإظهار الخوف من المخالفة تخويفا للناس من العذاب ، وردعا لهم عن العصيان بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لعموم الناس وخصوص المشركين : ﴿إِنِّي﴾ مع قربي ورسالتي ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخالفت نهيه في اختيار الشّرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أهواله وعذابه ، وهو يوم القيامة. عن الصادق عليه السلام : « ما ترك رسول الله ﷺ قول : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ حتّى نزلت سورة الفتح ، فلم يعد إلى ذلك الكلام » (١) .

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمِنَا فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

ثم أشار إلى آثار رحمته وولايته بقوله : ﴿مَنْ يُصْرِفْ﴾ ويدفع ﴿عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمِنَا فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله ، وتفضّل عليه بأن وفقه في الدّنيا للتبرؤ عن الشّرك والسّيئات ، وللقيام بالأعمال الصّالحات ﴿وَذَلِكَ﴾ الصّرف أو الرّحم هو ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ والتّجّاح بأعلى المقاصد.

عن النبي ﷺ أنّه قال : « والذي نفسي بيده ما من النّاس أحد يدخل الجنّة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : « ولا أنا ، إلّا أن يتغمّدني الله برحمته » . ووضع يده فوق رأسه ، وطوّل بها صوته (٢) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٧٥ / ١٩٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١١١ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٧١ .

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾

ثمَّ أتت تعالى بعد ذكر البرهان العقلي والأمر الإلهي علّة لوجوب اختصاص ولايته بالله ، ذكر علّة
ثالثة له بقوله : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ وبتليك ﴿بِضُرٍّ﴾ وبلاء كالمريض والفقر ونحوهما ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ولا
دافع ﴿لَهُ﴾ بقدرته ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ويصوبك ﴿بِخَيْرٍ﴾ ونفع من سرور وصحة
وغنى وأمثاله ، فلا قادر على منعه ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الضر والخير وإبقائهما ورفعهما ،
وغير ذلك من الأمور ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه عن إنفاذ إرادته مانع.

عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنّه [قال] : اهدي إلى النبي ﷺ بغلة ، أهداها كسرى ، فركبها
بجبل من شعر ، ثمَّ أردفني خلفه ، ثمَّ سار بي مليّاً ، ثمَّ التفت إليّ فقال : « يا غلام » ، فقلت : لبيك يا
رسول الله ، فقال : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في
الشّدّة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد
الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما
قدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل بالصّبر مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر ، فإنّ في الصّبر على
ما تكره خيراً كثيراً » ^(١).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾

ثمَّ قرّر سبحانه كمال قدرته وعلمه وحكمته ، الموجب على العاقل تخصيص ولايته به ، وعدم
العدول عنه إلى غيره ، بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والغالب عليهم بقدرته ﴿وَهُوَ
الْحَكِيمُ﴾ المتقن في صنعه ، الحافظ للمصالح في أفعاله ، و﴿الْخَبِيرُ﴾ والعليم بما صحّ أن يخبر عنه ، فإذا
كان الله مستجمعاً لجميع الصّفات الكمالية التي مرجع جميعها إلى العلم والقدرة ، كان حقيقاً بأن يعوّل
عليه في جميع الأمور ، ويرجع إليه في كلّ المطالب ، ويعرض عمّا سواه.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ

إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٦ .

ثم لما لم يقنع المشركون بالبراهين القاطعة على توحيد الله وصدق دعوى رسالته ، ولم يرتدعوا بالوعد والوعيد عما كانوا عليه من الشرك والجحود ، وطلبوا منه الشاهد على صدق دعواه مع أن معجزاته شهادة الله على صدقه ، أمر الله نبيه ﷺ بجوابهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لمن طلب منك الشاهد : ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ، وأي موجود من الموجودات ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿شَهَادَةٌ﴾ على المدعى بحيث لا يدانيها شهادة غيره.

ولما كان الجواب من البدهة بحيث لا ينبغي التأمل والانتظار فيه ، أمره الله بالمبادرة إليه بقوله : ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أكبر شهادة من جميع الموجودات ، فإذا كان كذلك وتسالمتم عليه ، فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ .

عن القمّي عن الباقر عليه السلام : « أن مشركي أهل مكة قالوا : يا محمد ، ما وجد الله رسولا يرسله غيرك ؟ ما نرى أحدا يصدقك بالذي تقول . وذلك في أول ما دعاهم وهو يومئذ بمكة ، قالوا : وقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم ، فأتنا بامرئ ^(١) يشهد أنك رسول الله . قال رسول الله ﷺ : الله شهيد بيني وبينكم » ^(٢) .

ثم شرح شهادة الله بصدقه بقوله : ﴿وَأَوْحِي﴾ من قبل الله ﴿إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الذي يكون لفظا ومعنى من أعظم المعجزات ، ومن أوضح الشواهد على صدقي ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ واحذركم من الله بما فيه من الوعيد أيتها الموجودون في وقت نزوله ﴿وَو﴾ انذر ﴿مَنْ بَلَغَ﴾ ووصل إليه هذا القرآن وسمعه من الإنس والجن والعرب والعجم إلى يوم القيامة.

قال بعض : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا ﷺ وسمع منه ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « ومن بلغ أن يكون إماما من آل محمد ، فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله ﷺ » ^(٤) .

ثم وبخ المشركين وأنكر عليهم القول بتعدد الآلهة بلا دليل ولا شاهد ، بقوله : ﴿أَأَنْتُمْ﴾ المشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ وتدعون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ من الأصنام الكثيرة والكواكب وغيرها ﴿قُلْ﴾ : أنا ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بما تدعون من الشركاء لله لعدم الشاهد عليه ، بل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ﴾ ومعبود ﴿وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ، للبراهين القاطعة على وحدانيته ، وامتناع الشريك له ، ﴿وَو﴾ لذا ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام وغيرها.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا

(١) في المصدر : فتأتينا من.

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٧ .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٤٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٢ .

أَنْفُسُهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

ثم لما أنكر اليهود والنصارى ثبوت ذكر محمد ﷺ في كتبهم ، كذبهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بحليته ونعوته المذكورة في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ بحالهم المعينة .

عن القمي رحمه الله : نزلت في اليهود والنصارى ، لأن الله قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد ﷺ وصفة أصحابه ومهاجره ^(١) ، وهو قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ ^(٢) فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب ، كما قال جل جلاله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ ^(٣) .

روي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام : أنزل الله تعالى على نبيّه هذه الآية ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال : يا عمر ، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابي ؛ لأني لا أدري ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله تعالى ^(٤) .

ثم ذمهم الله بغاية الخسران وعدم الإيمان بقوله : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وغبنا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بإعراضهم عن ما في كتبهم من البينات على أن محمدا ﷺ هو النبي المنعوت فيها ﴿فَهُمْ﴾ لأجل الخسران والطبع على القلوب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بنبوة محمد ﷺ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾

الظَّالِمُونَ (٢١)

ثم نبّه سبحانه بأنّ المفترين على الله بنسبة ما ليس في كتابه إليه ، أو نسبة الشريك إليه والمكذّبين للمعجزات ، أظلم الناس بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال : إنّ صفات النبي الموعود في الكتابين غير الصفات التي تكون لمحمد ، أو قال : إنّ الملائكة بنات الله ، وإنّ الأصنام شفعاؤنا عند الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ من القرآن وسائر معجزات النبي .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولا يفوزون بمطلوب من النجاة من النار ، والدخول في الجنة ، فكيف يحتمل الفلاح في حق من هو أظلم الناس ؟

(١) في المصدر : أصحابه ومبعثه وهجرته .

(٢) الفتح : ٤٨ / ٢٩ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٢ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٨٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ١٧٩ .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٢) و (٢٣)﴾

ثم بالغ سبحانه في تهديد المشركين وتهويلهم بقوله : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ في عرصة واحدة ﴿جَمِيعاً﴾ يكون لهم من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به المقال. وقيل : إنَّ التقدير : واذكروا يوم نحشرهم جميعاً ^(١) ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ بلسان الملائكة ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على رؤوس الأشهاد توبيخاً وتقريعاً : ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ وأننادكم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهتكم أو شفعاؤكم عند الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ - عن الصادق عليه السلام : « يعني : معذرتهم » ^(٢) . وقيل : يعني : جوابهم ^(٣) . وقيل : يعني : إشراكهم في الدنيا من حيث العقابة ^(٤) - شيئا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في الجواب تبرؤاً منهم : ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ بك.

قيل : وجه التعبير عن الجواب بالفتنة ، أنه يكون كذباً مع علمهم بأنه لا ينفعهم أصلاً ، وكان من كثرة الدهشة والوحشة ^(٥) .

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾

ثم أظهر التعجب من كذبهم في المقام وحرمانهم من نفع آلهتهم بقوله : ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بإنكار إشراكهم في الدنيا ، ﴿وَوَضَلَّ﴾ كيف ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُمْ﴾ وبطل ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله بنسبة قبول شفاعة الأصنام إليه.

عن (الاحتجاج) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه - في حديث يذكر فيه أهوال القيامة - : « ثم يجتمعون في مواطن آخر يستنطقون فيه ، فيقولون : ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهؤلاء خاصة هم المقرون في الدنيا بالتوحيد ، فلم ينفعهم إيمانهم بالله مع مخالفتهم رسله ، وشكهم في ما أتوا به عن ربهم ، ونقضهم عهودهم في أوصيائهم ، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فكذبهم الله في ما انتحلوه من الإيمان بقوله : ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٦) .

والقمي عليه السلام قال : إنها في قدرية هذه الامة ، يحشرهم الله يوم القيامة مع الصابئين والنصارى والمجوس ، فيقولون : ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يقول الله ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٨١ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٣ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٤٤٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ١٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ١٩ .

(٦) الاحتجاج ٢٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٣ .

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسًا ، وَمَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا قَدْرَ ، وَيَزْعُمُونَ [أَنَّ] الْمَشِيعَةَ وَالْقُدْرَةَ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ » ^(١) .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾

ثم لما بين الله سوء حال المشركين في الآخرة ، ذكر سوء حالهم في الدنيا ، وشدة قساوة قلوبهم ، وعدم تأثرهم بالآيات [بقوله :] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القرآن .
عن ابن عباس رضى الله عنه قال : حضر عند رسول الله ﷺ أبو سفيان ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وعقبة وعتبة وشيبة أبناء ربيعة ، وأمّية وأبي ابن خلف ، والحارث بن عامر ، وأبو جهل ، واستمعوا إلى حديث رسول الله ﷺ ، فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال : لا أدري ما يقول ، لكنّي أراه يحرك شفثيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى ، وقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقًا . فقال أبو جهل : كلاً ، فأُنزل الله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ^(٢) .

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأنشأنا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكبر والحسد وحب الدنيا ، وسائر الأخلاق الذميمة ﴿أَكِنَّةً﴾ وأغطية مانعة من دخول الآيات فيها وتأثرها بها كراهة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموه حقّ الفهم ، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وصمما كراهة أن يسمعوها حقّ الاستماع .

وفيه مبالغة في غاية جهلهم بشؤون القرآن ، وتأنيهم عن قبول الحق ، وبعدهم عن الهداية .
ثم أنّه تعالى بعد ذكر طبع قلوبهم ، وصمم آذانهم ، أشار إلى عمى أعينهم بقوله : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً﴾ من آيات ربهم ومعجزة من معجزك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ولا يصدّقوا إعجازها ، لفرط عنادهم وعتوّهم عن قبول الحق ، بل لا يكتفون بعدم الإيمان ، ويشاققون الله ﴿حَتَّى﴾ إلّهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ وحضروا عندك وسمعوا منك القرآن ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ ويخاصمونك في أنّه كلام الله و﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على معاندة الحق : ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن ، وما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والتّرهات التي سطرّت في كتب السّابقين ، مع وضوح أنّه أصدق الحديث وأحسنه عندهم .

(١) تفسير القمي ١ : ١٩٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٨٥ .

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

ثم بعد ذكر طعنهم في القرآن ، وتكذيبهم أنه كلام الله ، ذكر معاملتهم معه بقوله : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ ويمنعونهم عن الإيمان به ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ ويتباعدون ﴿عَنْهُ﴾ بأنفسهم إظهارا لغاية نفورهم منه ، وتأكيذا لنهيهم عنه وقيل : إن الصّميرين راجعان إلى الرسول ﷺ^(١) . ﴿وَالْحَالُ﴾ الحال ﴿إِنْ يُهْلِكُونَ﴾ هلاك الأبد ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بسعيهم في إطفاء نور الحق ، ولا يتعدى ضرره إلى غيرهم ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يدركون هذا الأمر الواضح لغاية غباوتهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

ثم بين كيفية هلاكهم بقوله : ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ، أو أيها الرائي أولئك الكفار ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾ وأشرفوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾ والدخول فيها ، لرأيت أمرا هائلا عظيما لا يمكن بيانه. وقيل : إن جواب (لو) ما يفهم من قوله : ﴿فَقَالُوا﴾ قيل : التقدير : إنهم ينوحون ويقولون تمنيا : ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ ونرجع الى الدنيا وعالم التكليف ، ونتدارك سيئاتنا ، ﴿وَلَوْ﴾ أن ﴿لَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وأدلة توحيده ، ورسالة رسوله ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به وبنبيه.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨)

ثم ردهم الله سبحانه بأن هذا التمني ليس للرجعة في الإيمان ، وترك التكذيب ﴿بَلْ﴾ لأجل أنه ﴿بَدَأَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بشهادة الجوارح ، أو تجسم العقائد والأعمال ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ من الكفر والجحود ، وبغض الرسول ، وسيئات الأعمال ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا ، أو في موطن قالوا : ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فخافوا من الوقوع في النار [حين] وقفوا عليها ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ وارجعوا إلى الدنيا فرضا ، واطمأنوا بالخلاص من العذاب ، والله ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ورجعوا إلى الكفر والطغيان ، واستمروا على الطريقة لغفلتهم عن ما رأوا في القيامة وغلبة حب الدنيا والشهوات عليهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في التمني المتضمن للإخبار بإيمانهم ، وإصلاح أعمالهم بعد الرجوع إلى الدنيا.

عن القمي رحمه الله : نزلت في بني أمية^(٢) .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٨٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٥ .

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾

ثم أتت تعالى بعد حكاية تكذيبهم لآيات الله ، حكى عنهم إنكار المعاد بقوله : ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وتعيشنا فيها ، ثم نموت بعده ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ من القبور ، ومخرجين منها إلى التشور.

ثم بين الله أنّ إنكارهم سيعود إلى الإقرار ، بقوله : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحبسوا للسؤال في محضر عدله كما يحبس العبد الجاني بين يدي مولاه للعتاب ، أو المراد : إذا اطلعوا على جزاء ربهم لترى لهم حالة فضيحة.

ثم ﴿قَالَ﴾ ربهم مشافهة أو بلسان الملك توبيخا لهم : ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ البعث ملابسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والواقع ؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ﴾ الله : إذن ﴿فَذُوقُوا﴾ واطعموا ﴿الْعَذَابَ﴾ طعما ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في دار الدنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث وتحلدونه.

﴿فَدُخِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾

ثم أنّ الله تعالى بعد الإعلان بغاية خسران المنكرين للتوحيد والرسالة ، أعلن بغاية خسران المنكرين للمعاد بقوله : ﴿فَدُخِرَ خَسِرَ﴾ وغبن في التجارة ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وأنكروا الرجوع إليه في الدار الآخرة لجزاء الأعمال ، حيث ضيعوا رأس مالهم من العقل السليم والفترة الأصلية ، واشتروا لأنفسهم العذاب الأليم الدائم ، وفوتوا عليها الثواب العظيم ، وهم مستمرّون على التكذيب ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ وظهرت عليهم ﴿السَّاعَةُ﴾ التي لا يعلم وقتها إلا الله ﴿بَغْتَةً﴾ وفجأة.

قيل : سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها ^(١) كأنّ وقته مقدار ساعة ، أو لسرعتها إلى الوقوع لكون مسافتها الأنفاس. وإمّا جعلها الله غاية لتكذيبهم مع أنّ الموت غايته ، ازديادا للتحويل ، وإلحاقا للموت وعالم البرزخ بالقيامة. وقد روي « أنّ من مات فقد قامت قيامته » ^(٢).

ثم بين الله سبحانه أنّه يحصل لهم حالتان سيّتان ؛ إحداهما : شدة الحسرة بقوله : ﴿قَالُوا﴾ حين

رأوا

(١) تفسير الرازي ١٢ : ١٩٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٩٨ ، تفسير روح البيان ٣ : ٢٢ .

السَّاعَةِ وَشِدَّةَ أَهْوَالِهَا ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « يَرَى أَهْلَ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : ﴿يَا حَسْرَتُنَا﴾ ^(١) وَنَدَامَتُنَا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ وَقَصَّرْنَا ﴿فِيهَا﴾ وَفِي مَرَاعَاةِ حَقِّهَا ، وَتَهَيُّةٍ مَا يُوْجِبُ السَّلَامَةَ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِهَذَا الْيَوْمِ ، وَتَحْصِيلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي الدُّنْيَا ^(٢) .

ثُمَّ بَيَّنَّ الْحَالَةَ الْآخِرَى بِقَوْلِهِ : ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾ حِينَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وَأَثْقَالِ ذُنُوبِهِمْ ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا﴾ أَتَيْهَا النَّاسُ تَنْبَهُوْا أَنَّهُ ﴿سَاءٌ﴾ وَبُئْسَ الشَّيْءُ ﴿مَا يَرِزُونَ﴾ وَيَحْمِلُونَ مِنَ الثَّقَلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ : رَوَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ شَيْءٌ هُوَ أَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ صُورَةً وَأَطْيَبُهَا رِيحًا ، وَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ ، طَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا فَارْكَبْنِي أَنْتَ الْيَوْمَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ^(٣) ، قَالُوا : رَكَبَانَا . وَأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ شَيْءٌ هُوَ أَقْبَحُ الْأَشْيَاءِ صُورَةً وَأَحْبَثُهَا رِيحًا ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْفَاسِدِ طَالَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا ، فَأَنَا أَرْكَبُكَ الْيَوْمَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ ^(٤) .

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾

ثُمَّ لَمَّا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا وَلَذَاتُهَا مَانِعًا عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ وَعَنِ الْاعْتِرَافِ بِهِ وَبَاعْتِثَا عَلَى انْكَارِهِ ، بَيَّنَّ اللَّهُ غَايَةَ خَسَاسَةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتُهَا ، وَكَمَالَ شَرِّ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وَالتَّعَيُّشُ فِيهَا ، وَالتَّلَذُّذُ بِمَا فِيهَا ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ وَالتَّنَادُذُ سَفْهِي سَرِيعِ الْإِنْقِضَاءِ ﴿وَلَهْوٌ﴾ وَشَاغِلٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتَكْمِيلِ النَّفْسِ ، وَهِيَ لَا يَصْلُحَانِ إِلَّا لِلصَّبْيَانِ وَالْجَهَّالِ ، ﴿وَوَاللَّهُ لِلْآخِرَةِ﴾ وَنَعْمَهَا لَشَرَفِهَا وَدَوَامِهَا وَخُلُوصِهَا عَنِ الْكَدُورَاتِ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هِيَ الْجَنَّةُ ^(٥) - ﴿خَيْرٌ﴾ وَأَفْضَلُ وَأَصْلَحُ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللَّهُ وَاجْتِنَابِ الْمَوْبِقَاتِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَتَيْهَا النَّاسُ وَتَفْهَمُونَ ذَلِكَ ؛ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَنَاطَلُونَ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ

اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾

(١) مجمع البيان ٤ : ٤٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ١٩٨ .

(٣) مرجم : ١٩ / ٨٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٢ : ١٩٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠٣ .

ثم لما كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله والاعتقاد بالمعاد ، والأشقياء منهم يسقّوهونه وينسبون أخباره الغيبية إلى الكهانة ، ومعجزاته إلى السحر ، ودعواه النبوة إلى الكذب ، وكان ذلك سببا لحزن النبي ﷺ وتكدر خاطره الشريف ، سلمى سبحانه قلب حبيبه بقوله : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من الخرافات وإساءة الأدب في شأنك ؛ فلا تحزن ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الواقع ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر ، وعليك بالإساءة والتكذيب ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والمعجزات التي أجزاها على يدك ولسانك ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويكذبون ، فتكذيبهم راجع إلى الله لا إليك. وفيه دلالة على كمال محبوبيته عند الله.

وقيل : إنَّ المعنى : أنهم لا يكذبونك في الباطن والسر ؛ فإنهم معتقدون بصدقك ، ولكنهم يكذبونك في الظاهر والعلانية ^(١) .

روي أن الأحنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ، فقال له : والله ، إنَّ محمدا لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت هذه الآية ^(٢) .

وروي أن حارث بن عامر من قريش قال : يا محمد ، والله ما كذبتنا قط ، ولكننا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا ، فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب ^(٣) .

وروي أن رسول الله ﷺ لقي أبا جهل فصافحه [أبو جهل] ، فقليل له في ذلك ، فقال : والله ، إني لأعلم أنه صادق ، ولكننا متى كنّا تبعاً لعبد مناف ، فأنزل الله الآية ^(٤) .

وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « أنه قرأ رجل على أمير المؤمنين صلوات الله عليه : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فقال : بلى والله ، لقد كذبوه أشدّ التكذيب ، ولكنها مخففة ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يأتون بباطل يكذبون به حقك » ^(٥) .

وفي رواية أخرى ، قال : « لا يأتون بحق يطلون حقك » ^(٦) .

وعن العياشي : عنه عليه السلام : « أي لا يستطيعون إبطال قولك » ^(٧) .

وفي (المجمع) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه كان يقرأ : ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي ^(٨) لا يأتون

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ٢٠٥ .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٤٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٦ .

(٥) الكافي ٨ : ٢٠٠ / ٢٤١ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٦ .

(٦) تفسير القمي ١ : ١٩٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٦ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٩٧ / ١٤١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٦ .

(٨) في المصدر : كان يقرأ لا يكذبونك ويقول : إن المراد بها أنهم .

بحقّ أحقّ من حقّك ^(١) .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُم نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في تسليّة نبيّه ﷺ ببيان ابتلاء عموم الرّسل بتكذيب أهمهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة وذوو معاجز باهرة ، بعثوا إلى النّاس ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وفي القرون السّابقة على بعثتك ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ وأنت أولى منهم بالصّبر ﴿وَأَوْدُوا﴾ بأنواع الأذى من الضرب والشتم وغير ذلك ، واستمروا على ذلك مدّة طويلة ﴿حَتَّىٰ أَنَاهُم نَصْرُنَا﴾ والظفر منّا ، وأنت أحقّ بالنصر والظفر على قومك.

ثمّ أكّد وعد النصر بقوله : ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ ولا مغير ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وعداته ، ولا موجب للخلف فيها ، ولذا لم يتفق ذلك في وعد سائر الرّسل ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾ في القرآن ، وبلغك بالوحي كثير ﴿مِّن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ السّابقين ، أحمّ كيف كذبوا واودوا وصبروا أوّلا ، ثمّ نصرنا على قومهم آخرا ، فيكون حالك كحالهم.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ
سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾

ثمّ نبّه سبحانه على أنّه لا حيلة له إلّا الصّبر تسكيناً لحرصه البالغ على إيمان قومه ، بقوله : ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ﴾ وشقّ ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان بك وبكتابك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت على ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ ومنفذا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿أَوْ سُلَمًا﴾ ومصعدا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فتصعد إليها ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ من جوف الأرض أو من فوق السّماء ﴿بَأْيَةٌ﴾ يخضعوا لها ويلجأوا إلى الإيمان بها ، فافعل ، ولا تقدر على ذلك.

عن القمّي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام [قال] : « كان رسول الله ﷺ يحبّ إسلام الحارث [بن عامر] بن نوفل بن عبد مناف ، ودعاه وجهده به أن يسلم ، فغلب عليه الشقاء ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية » ^(٢) .

(١) مجمع البيان ٤ : ٤٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٧ .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنَّ الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي ﷺ في نفر من قريش ، فقالوا : يا محمد ، آتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل ، فإتانا نصدق بك ، فأبى الله أن يأتيهم بها ، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ ، فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية (١) .

ثم أشار سبحانه إلى علّة عدم إنزال ما اقترحوه من الآية بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ هَدَيْتَهُمْ إِلَى الْحَقِّ لَجَمَعْتَهُمْ﴾ والزمهم ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ ودين الحق ، ولكن لم يشأ ذلك لخبث ذاتهم ، وغاية فساد أخلاقهم ، فمنعهم التوفيق ، وشملهم الخذلان ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ ألبّة ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بقدرة الله وحكمته ، وبخبث المشركين وعدم قابليّتهم للهداية .

عن القميّ رحمه الله : مخاطبة للنبي ﷺ والمعنيّ الناس (٢) .

عن النبي ﷺ : « يا علي ، إنّ الله قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الامة ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى حتّى لا يختلف اثنان من هذه الامة ولا ينازع في شيء من أمره ، ولا يحدد المفضل لذي الفضل فضله » (٣) .

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦)

ثم نبّه الله سبحانه على علّة عدم هدايتهم ، وعدم تأثرهم بالآيات والمواعظ بقوله : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ دعوتك إلى التوحيد والإيمان بك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مواعظك سمع القبول ، ويفهمون كلامك فهم تدبّر ، لا الذين لا يسمعون دعوتك ، ولا يفهمون كلامك ؛ فإنّهم بمنزلة الموتى لا سمع لهم ولا فهم ، حتّى يتأثروا بمواعظك ، ويهتدوا بهدایتك ﴿وَهُؤُلَاءِ﴾ الموتى ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ ويخرجهم أحياء من قبورهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿يُرْجَعُونَ﴾ في القيامة ؛ فيجازيهم على كفرهم ، فحينئذ يسمعون ويستجيبون ولكن لا ينفعهم .

قيل : إنّما سمّى الله الكفار موتى ؛ لأنّ العقل والمعرفة حياة الرّوح ، والرّوح حياة الجسد ، فكما أنّ الجسد إذا فارقه الرّوح يكون ميتا ، فكذا الرّوح إذا فارقه العقل والمعرفة يكون ميتا ، فموتهم يكون روحانيّا .

﴿وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧)

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٠٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٨ .

(٣) كمال الدين : ٢٦٤ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٧ .

ثم حكى الله لجاح المشركين مع النبي ﷺ باقتراحهم ، بقوله : ﴿وَقَالُوا﴾ عنادا وتعنتا ، لا طلبا لوضوح الحق : ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومعجزة غير الذي جاء به ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ كناقصة صالح ، وعصا موسى ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ عظيمة حسبما اقترحتموه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن نزول الآية يكون وبالا عليهم ؛ حيث إنهم إذا لم يؤمنوا بها هلكوا كما عن القمّي رحمه الله (١) . أو لا يعلمون أن إجابة مسؤولهم منافية للحكمة ؟ أو لا يعلمون أنه لا يحسن إجابة السؤالات التعنتية عند العقل . عن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « سيريكم في آخر الزمان آيات منها دابة الأرض ، والدجال ، ونزول عيسى بن مريم ، وطلوع الشمس من مغربها » (٢) .

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨)

ثم لما بين سبحانه قدرته على إنزال كل آية ، وأن حكمته مانعة عنه ، استشهد على كمال قدرته وحكمته بخلق جميع الحيوانات ، وتنظيم أمورها على وفق الحكمة بقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وحيوان متحرك يدب ويتحرك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وقطر من أقطارها ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجو ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ﴾ وجماعات ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ محفوظة أحوالها ، مقدرة أرزاقها وآجالها ، مفطورة على معرفة خالقها . ومعلوم أن القادر على خلقها وتدير جميع أمورها قادر على إنزال آية . وإنما ذكر (جناحيه) لدفع احتمال إرادة السرعة من الطيران .

ثم نبه سبحانه بعد بيان هذه المعارف على وفور ما في القرآن من العلوم بقوله : ﴿مَا فَرَطْنَا﴾ وما تركنا ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ المنزل إليكم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من العلوم المحتاج إليها . ثم بين أن سائر الحيوانات مثلكم في الحشر إلى القيامة بقوله : ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ ويعثون لإحقاق حقهم من ظالمهم ، ولاستفاء جزائهم على ما صدر منهم من الخيرات . عن النبي ﷺ ، قال : « يقتص للجماء من القرآن » (٣) .

وعنه ﷺ ، أنه أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها ، فقال : « أين صاحبها ؟ مروه فليستعد [غدا] للخصومة » (٤) .

(١) و (٢) . تفسير القمي ١ : ١٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٢ : ٢١٤ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٩١ / ٨٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٩ .

وعن الصادق عليه السلام : « أي بعير حج عليه ثلاث سنين ، جعل من نعم الجنة » ^(١) ، وفي رواية : « سبع سنين » ^(٢) .

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩)

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته ، ودفع اعتراض المشركين في النبوة ، ذم المكذبين ، بقوله : **﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾** من القرآن العظيم وسائر المعجزات **﴿صُمْ﴾** عن استماع دعوة النبي إلى التوحيد ، ودين الحق ، والمواظب الإلهية **﴿وَبُكْمٌ﴾** عن الإقرار بالتوحيد والنبوة ، والنطق بالخير ، عمي لكونهم خائضين **﴿فِي﴾** أنواع **﴿الظُّلُمَاتِ﴾** من الجهل والكفر وحب الدنيا والشهوات ، بحيث لا يرون المعجزات والآيات . ثم نبه سبحانه على أن الكفر والضلال يكون بسبب خذلانه ، والهداية بتوفيقه بقوله : **﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ﴾** ضلالته لأجل حب طينته ورذالة أخلاقه **﴿يُضِلُّهُ﴾** عن طريق الحق والصواب ألينة بخذلانه وإيكاله إلى نفسه **﴿وَمَنْ يَشَأِ﴾** هدايته وخيره **﴿يُجْعَلْهُ﴾** ويضعه **﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** يوصله إلى كل خير ، ويوفقه للسلوك في الدين القويم والعمل به .

عن القمي عليه السلام : عن الباقر عليه السلام : « نزلت في الذين كذبوا الأوصياء ، هم صم وبكم كما قال الله : **﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾** [من كان] من ولد إبليس فإنه لا يصدق بالأوصياء ، ولا يؤمن أبدا ، وهم الذين أضلهم الله ، ومن كان من ولد آدم آمن بالأوصياء فهم على صراط مستقيم » ^(٣) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَاكَمُ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ

مَا تَشْرَكُونَ﴾ (٤٠) و (٤١)

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاستفهام التقريري من المشركين والسؤال التبكيتي عنهم بقوله : **﴿قُلْ﴾** يا محمد لهم : **﴿أَرَأَيْتُمْ﴾** وأخبروا في **﴿إِنْ أَنَا أَنَاكَمُ﴾** ونزل عليكم **﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾** في الدنيا ، كما نزل على الذين من قبلكم من الامم **﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾** وجاءتكم القيامة التي فيها العذاب والأهوال

(١) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٩١ / ٨٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٩ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٩١ / ٨٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٩ .

(٣) تفسير القمي ١ : ١٩٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١١٩ .

﴿أَغْيَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ وهل إلى ما سواه من الأصنام تلتجئون لكشف العذاب والتخلص من الأهوال ؟
 أم إليه تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الوهية أصنامكم ، ومن المعلوم أنكم لا تدعون غير الله ﴿بَلْ
 إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وإليه خاصة تلتجئون لكشف العذاب عنكم في الدنيا والآخرة ، لمعرفتكم بالفطرت أنه لا
 قدرة لغيره على كشفه ﴿فَبِكَيْشِفُ﴾ إثر دعائكم ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ الله ﴿إِلَيْهِ﴾ من العذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾
 كشفه ، واقتضت حكمته الإجابة ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ وتتركون ﴿مَا﴾ كنتم ﴿تُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام.
 عن ابن عباس رضى الله عنه : المراد : تتركون الأصنام ولا تدعوهم لعلمكم بأنها لا تضر ولا
 تنفع^(١).

وقيل : إن المراد : لا تذكرونها في ذلك الوقت من شدة الهول والوحشة ^(٢) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ

يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)﴾

ثم لما ذكر سبحانه أنهم عند معابنتهم العذاب الشديد يدعونه دون غيره ، نبه على أنه قد يبتليهم
 بالبليات الدنيوية العادية لتأديبهم ، وصرف قلوبهم إلى ذاته المقدسة وارتداعهم عن الكفر والعصيان بقوله :
 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلا ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقبل عصرك ، فكذبوهم وخالفوهم
 ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وابتليناهم ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ والشدائد ، كال فقر والقحط ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ كالأفراض والأوجاع ،
 ونقصان الأموال والأنفس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنهم ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا ، ويخشعون لنا ، وينقادون للرسول.

﴿فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا

فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) و (٤٥)﴾

ثم لائم المصيرين منهم على الكفر ، وو بخهم بعدم تأثرهم بتلك البليات بقوله : ﴿فَلَوْ لَا﴾ وهلا
 ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ وعذابنا ﴿تَضَرَّعُوا﴾ إلينا في دفعه والتخلص منه مع انحصار طريقه فيه ، وعدم العذر
 في تركه ، ثم ذمهم ببيان مانعهم عنه بقوله : ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ﴾ وصلبت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بحيث لم يكن فيها رقة
 وخوف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ وحسن في نظرهم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادة

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٢٣ .

(٢) تفسير الصافي ٢ : ١٢٠ .

الأصنام ، ومعارضة الرسل ، وتوغلهم في المعاصي ، وانهمكهم في الشهوات ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ لذلك ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ وو عظوا ﴿بِهِ﴾ من البليات اللاتي كانت ، أخذهم بها لاجل أتعاضهم بها وتوبتهم من الشرك والمعاصي ، استدرجناهم بأن ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من جميع الجهات ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المنافع التي كانت مغلقة عنهم ، وكثرنا عليهم النعم من الصحة والقوة والسعة ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ ويطروا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم ، واشتغلوا باللذات ، وانهمكوا في الشهوات ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿بِعَتَّةٍ﴾ وفجأة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة ، متحسرون على ما فاتهم من النعم الدنيوية والآخروية .
 قيل : إن عذاب الاستدرج أشد ، لكون التحسر فيه أشد ^(١) .

عن الباقر ^(٢) عليه السلام : « إذا رأيت الله يعطي على المعاصي ، فإن ذلك استدرج منه » وتلا هذه الآية ^(٣) .

وفي الحديث : « إذا أراد الله بعبد خيرا فأذن ذنبا أتبعه بنعمة ، ويذكره الاستغفار ، وإذا أراد الله تعالى بعبد شرا فأذن ذنبا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ، ويتمادى بها » ^(٤) .

وعن القمي عليه السلام : عن الباقر عليه السلام : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني : [فلما] تركوا ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقد امروا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دونهم ^(٥) في الدنيا ، وما بسط لهم فيها ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِعَتَّةٍ﴾ يعني : بذلك قيام القائم ، حتى كأنهم لم يكن لهم سلطان قط ^(٦) .

وقيل : إن المقصود أنه تعالى عاملهم بتسليط المكاره والشدائد عليهم تارة ، فلم ينتفعوا به ، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها وهو فتح أبواب الخيرات عليهم ، وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم ، فلم ينتفعوا [به] أيضا ، وهذا كما يفعله الأب الشفيق بولده ، يخاشنه تارة ، ويلطفه أخرى طلبا لصلاحه ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخيرات والنعم ، لم يزدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ، ولا إقدام على اعتذار وتوبة ، فلا جرم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِعَتَّةٍ﴾ ^(٧) .

﴿فَقُطِعَ﴾ واستؤصل ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ، وفنوا من أولهم إلى آخرهم ، ثم لما كان إهلاكهم تطهيرا للأرض ، ونعمة على الرسل والمؤمنين ، حمد ذاته المقدسة بقوله : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم ، وتطهير الأرض منهم ، وإراحة أوليائه من شرهم .

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٢٦ .

(٢) في مجمع البيان وتفسير الصافي : عن النبي ﷺ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٤٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٠ .

(٤) علل الشرائع : ٥٦١ / ١ .

(٥) في المصدر : يعني دولتهم .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢١ .

(٧) تفسير الرازي ١٢ : ٢٢٦ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾

يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإقامة البرهان على توحيدہ للمشرکین ، وأخذ الإقرار منهم به بقوله :
﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ وسلب عنكم ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ اللذين هما
أشرف القوى الظاهرية ﴿وَخَتَمَ﴾ وطبع ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وأزال عقولكم التي هي أشرف القوى الباطنية.
عن ابن عباس رضي الله عنه ، معناه : وطبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى (١) .
القمي : عن الباقر عليه السلام « إذا أخذ الله منكم الهدى » (٢) .

﴿مَنْ إِلَهٌ﴾ قادر ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ العزيز المقتدر ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ ويرد إليكم ما اخذ منكم ، وينعم عليكم
﴿بِهِ﴾ فبالبدئية لا قادر عليه إلا الله ، فهو المستحق للعبادة دون الأصنام وغيرها.
﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد وتعجب ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ ونقرر ﴿الْآيَاتِ﴾ والبراهين والإنذارات والتبشيرات
بأساليب متفاوتة وبيانات مختلفة ﴿ثُمَّ﴾ المشركون ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ويعرضون عنها ، ولا يؤمنون بها.
وفي لفظ (ثم) إشارة لغاية بعد ذلك من العاقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ﴾

الظَّالِمُونَ (٤٧)﴾

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بسؤال فيه تهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾
وأخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونزل عليكم ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾ في هذه الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ وبغير سبق أمانة تدلکم على
إتيانه - وقيل : يعني : ليلا (٣) - ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ ومع سبق الأمانة عليه - وقيل : يعني : نهارا (٤) - ما ذا
يكون حالكم ؟

ثم بين الحال بقوله : ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ به هلاك السخط والأبد ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم
بالشرك والمعاصي ، وأنتم هم.

عن القمي عليه السلام : نزلت لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأصاب أصحابه الجهد والعلل

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٢٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٠١ ، تفسير الصافي ١ : ١٢١ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٢ : ٢٢٨ ، تفسير أبي السعود ٣ : ١٣٥ .

والمرض فشكوا ذلك إليه ، يعني لا يصيبكم ^(١) إلا الجهد والضرر في الدنيا ، فأما العذاب الأليم الذي فيه الهلاك ، فلا يصيب إلا القوم الظالمين ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « يؤخذ بنو امية بغتة ، وبنو العباس جهرة » ^(٣) .

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ (٤٩)﴾

ثم لما كان المشركون يعارضون النبي ﷺ باقتراحهم ، كما حكى الله عنهم قولهم : ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ *﴾ ويقدهون في نبوته بعدم إجابة مسؤولهم ، ردهم الله بقوله : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن يقترح عليهم المعجزات ، فإنها بيد الله يظهرها على مقتضى حكمته ، بل ليس الغرض من إرسالهم ﴿إِلَّا﴾ أن يكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للناس بالجنة والمغفرة على الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم بالعذاب على الكفر والعصيان.

هذه وظيفة الرسول وشأن الرسالة ، وأما الناس ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله وأخلاقه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الهلاك والعذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة على ما فاتهم من الدنيا ، وما لم ينالوا من أعلى الدرجات في الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأنكروا براهين التوحيد ومعجزات الأنبياء ﴿يَمَسُّهُمْ﴾ ويصيبهم ﴿الْعَذَابُ﴾ الشديد في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ من الشرك والتمرد عن طاعة الله ورسوله.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾

ثم أمر النبي ﷺ بالجواب عن اقتراحاتهم بقوله : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وما ادعي أن ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أن لي قدرته الكاملة على إيجاد الممكنات والتصرف فيها كيف أشاء ، حتى تقترحوا علي إنزال الكتاب من السماء ، أو قلب الجبال ذهباً ، أو غيرها ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾ بنفسي ﴿الْغَيْبَ﴾ الذي خص ذاته المقدسة به حتى تسألوني عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب ، أو نحوهما ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

(١) في المصدر : فشكوا ذلك الى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل قُلْ لَهُمْ يا محمد : أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَمَسُّهُمْ ... الظَّالِمُونَ أي أنهم لا يصيبهم.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٠١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢١ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٩٨ / ١٤١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢١ .

مَلَكٌ من الملائكة حتى تكلفوني الرقي إلى السماء ، أو تتوقعوا مني أن لا أكل الطعام ولا أمشي بين الناس .

قيل : إن المشركين قالوا : إن كنت رسولا من عند الله فاطلب من الله أن يوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها ، ويفتح علينا أبواب السعادات ^(١) . وكانوا يقولون : إن كنت رسولا فأخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار ، حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح ، ولدفع المضار ^(٢) . وكانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ^(٣) .

وقيل : إن المقصود من القضية التبري من دعوى الألوهية ^(٤) .

ثم أنه ﷺ بعد التبري عن الدعاوى الثلاث ، أثبت لنفسه النبوة التي هي أعلى الكمالات البشرية ، وامتيازه عن سائر الناس بمنصب الرسالة ، بقوله : **﴿إِنْ أَتَّبِعْ﴾** في قولي وعملي **﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾** من ربي ، دون رأيي واجتهادي ، ولا أؤدي إليكم إلا من قبل الله تعالى . وهي من الكمالات الممكنة للبشر ، لا مجال لا ستبعاد ثبوتها له ، فضلا عن الجزم بعدمها .

عن الرضا عليه السلام ، أنه سئل يوما وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه ، وقد كانوا تنازعوا في الحديثين المختلفين عن رسول الله ﷺ في الشيء الواحد ، فقال عليه السلام : « إن الله عز وجل حرم حراما وأحل حلالا وفرض فرائض ، فما جاء في تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله ، أو رفع فريضة في كتاب الله رسمها [بين] قائم بلا نسخ ^(٥) نسخ ذلك ، فذلك شيء لا يسع الأخذ به ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يكن ليحرم ما أحل الله ، ولا ليحل ما حرم الله ، ولا ليغير فرائض الله وأحكامه ، وكان في ذلك كله متبعا مسلما مؤديا عن الله عز وجل ، وذلك قول الله عز وجل : **﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾** فكان عليه السلام متبعا لله مؤديا عن الله ما امر به من تبليغ الرسالة » ^(٦) .

ثم أكد عدم تساويه لسائر الناس بوجود ملاك الرسالة فيه من البصارة في قلبه ، ومعرفته الكاملة بالله بقوله : **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾** والجاهل والعالم بالله وبحقائق الأمور ، والضال والمهتدي إلى الحق وإلى كل خير ، لا يستوون عند الله **﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾** قيل : إن التقدير : ألا تسمعون كلامي الحق فتفكرون فيه ^(٧) حتى تعرفوا الفرق بين الألوهية ، والنبوة ، والبشرية ، وبين الجاهل بكل شيء والعالم بجميع الأشياء .

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٠ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٣٠٢ .

(٥) في النسخة : نسخ .

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٠ / ٤٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٢ .

(٧) تفسير أبي السعود ٣ : ١٣٧ ، تفسير روح البيان ٣ : ٣٤ .

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا

شَفِيعٌ لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)﴾

ثم أمره الله سبحانه بإنذار الناس على حسب وظيفة الرسالة بقوله : ﴿وَأَنْذِرْ﴾ بالقرآن أو بما يوحى إليك ، وخوف ﴿بِهِ﴾ من عقاب الله ﴿الَّذِينَ﴾ يعتقدون بالمعاد كالمؤمنين وأهل الكتاب ، والذين يترددون فيه من أهل الشرك ﴿يَخَافُونَ﴾ من ﴿أَنْ﴾ يحيوا ، و﴿يُخْشَرُوا﴾ من قبورهم ، ويساقوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحكمه لجزاء أعمالهم ، في حال ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ومن سواه ﴿وَلِيٌّ﴾ وناصر يدافع عنهم العذاب بالقوة والقهر ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم في أن يعفى عن عقوبتهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون عن العقائد الفاسدة والأعمال السيئة ، ويتوبون من ذنوبهم الموبقة.

عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : معناه : إنذارهم لكي يخافوا في الدنيا ، وينتهوا عن الكفر والمعاصي ^(١) .

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ

حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾

ثم لما بين سبحانه مهانة المشركين عنده واستحقاقهم عذابه ، نهى نبيه صلى الله عليه وآله عن إهانة المؤمنين وتبعيدهم عن مجلسه بقوله : ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ ولا تبعد عن محضرك المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿رَبَّهُمْ﴾ ويصلون ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ صلاة الصبح والعصر ، أو يذكرونه في كل حال ، وهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعبادتهم ودعائهم وذكرهم ﴿وَجْهَهُ﴾ ومرضاته ، لا الرياء والسمعة وسائر الأعراض الدنيوية. ثم أكد النهي ببيان عدم العلة لطردهم بقوله : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى تملهم. قيل : إن المشركين قالوا : يا محمد ، إنهم اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولا وملبوسا عندك ، وإلا فهم فارغون عن دينك ^(٢) .

فقال الله : ليس عليك ضرر عقائدهم الباطنية ، وأعمالهم السيئة الخفية حتى تستحقهم ، وتطعن في إيمانهم فيسوغ لك طردهم ، وإنما عليك الاعتبار بظاهر حالهم وهو اتسامهم بسمة المتقين ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾ وجزاء أعمالك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وييدهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى تخافهم وتنتفر منهم.

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٦ ، تفسير روح البيان ٣ : ٣٦ .

وقيل : إنّ المعنى : أنّ ضرر أعمالهم لا يرجع إليك ، كما أن ضرر أعمالك لا يعود إليهم ^(١) .
وقيل : إنّ رزقهم ليس عليك ، كما أنّ رزقك ليس عليهم ^(٢) ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ عنك ، لذلك إذن فلا تطردهم ﴿فَتَكُونُ﴾ بسبب طردهم ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسك بجرمان الأجر ، وعليهم بمنعهم مما يستحقّون من مزيد التقرب والإلطف.

في بيان حال أصحاب الصّفة

عن القمّي رحمه الله قال : كان سبب نزولها أنّه كان بالمدينة قوم فقراء مؤمنون يسمّون أصحاب الصّفة ^(٣) ، وكان رسول الله ﷺ أمرهم أن يكونوا في صّفة يأوون إليها ، وكان رسول الله ﷺ يتعاهدهم بنفسه ، وربّما يحمل إليهم ما يأكلون ، وكانوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ فيقرّهم ويقعد معهم ويؤنسهم ، وكان إذا جاء الأغنياء والمترفون من أصحابه ينكرون عليه ذلك ويقولون : اطردهم عنك ، فجاء يوما رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وعنده رجل من أصحاب الصّفة قد لزم رسول الله ﷺ يحدثه ، فقعد الأنصاري بالبعد منهما ، فقال له رسول الله ﷺ : « تقدّم » ، فلم يفعل ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلّ خفت أن يلزق فقره بك ؟ ! » . فقال الأنصاري : اطرده هؤلاء عنك . فأمر الله : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية ^(٤) .

وعن عبد الله بن مسعود ، أنّه قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وخبّاب وبلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد ، أرضيت هؤلاء عن قومك ؟ أفنحن نكون تبعاً هؤلاء ؟ فاطردهم عن نفسك ، فلعلّك إن طردتهم اتّبعناك ، فقال عائشة : ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فقالوا : فأقمهم عنّا إذا جئنا ، فإذا قمنا فاقعدهم معك إن شئت ، فقال : « نعم » طمعا في إيمانهم ^(٥) . وروي أنّ عمر قال له : لو فعلت حتّى ننظر إلى ما ذا يصيرون ، ثمّ أحوا وقالوا للرسول ﷺ : اكتب لنا بذلك كتابا ، فدعا بالصّحيفة وبعليّ عائشة ليكتب ، فنزلت هذه الآية ، فرمى الصّحيفة ، واعتذر عمر عن مقالته ، فقال سلمان وخبّاب : فينا نزلت ، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا وندنو منه حتّى تمسّ ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنّا إذا أراد القيام ، فنزل قوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ ^(٦) الخبر .
وفي رواية : أنّ رؤساء قريش قالوا لرسول الله ﷺ حين رأوا في مجلسه [الشريف] فقراء المؤمنين مثل [صهيب و] عمّار وخبّاب وبلال وسلمان وغيرهم : لو طردت هؤلاء الأعباء وأرواح

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٧ .

(٣) الصّفة : وهو مكان مظلل في مسجد المدينة يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٠٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٤ .

جباهم - وكان عليهم جباب صوف لا غير - لجالسناك وحادثناك ، فقال ﷺ : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فقالوا : فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا حتى يعرف العرب فضلنا ، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء ، فإذا قمنا عن مجلسك فأقعدهم معك إن شئت ، فهم ﷺ أن يفعل ذلك طمعا في إيمانهم ، فأُنزل الله هذه الآية (١) .

وقد غلط من استدلّ بالآية على عدم عصمة الأنبياء ﷺ .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٥٣)

ثم بيّن سبحانه أنّ فقر المؤمنين فتنة للأغنياء من المشركين بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ الفتن والابتلاء ﴿ فَتَنَّا ﴾ وابتلينا ﴿ بَعْضَهُمْ ﴾ الأغنياء ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ الفقراء من المؤمنين ، بأن قدّمناهم وفضلناهم مع فقرهم على أشراف قريش في أمر الدين ﴿ لِيَقُولُوا ﴾ في العاقبة ؛ لجهلهم بمناط الفضل عند الله ، مشيرين إلى فقراء المؤمنين ، محقّرين لهم : ﴿ أَهَؤُلَاءِ ﴾ الفقراء الأذلاء ﴿ مَنَّ اللَّهُ ﴾ وأنعم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بالهداية والتوفيق لإصابة الحق ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ونحن الأشراف والرؤساء .

قيل : إنّ رؤساء الكفار وأغنياءهم كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام ، مسارعين إلى قبوله ، فقالوا : لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء المساكين ، وأن نعترف لهم بالتبعية ، فكان ذلك يشقّ عليهم (٢) . فردّهم الله بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمة هدايته ، والتوفيق للإيمان والعمل الصالح .

ففيه تنبيه على أنّ علّة تقريبتهم والإنعام عليهم شكرهم لنعمة الرسول والقرآن ، والتسليم لحكمهما ، وهؤلاء المشركون بمعزل من ذلك .

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد التّهي عن إهانة المؤمنين أمر نبيّه ﷺ بإكرامهم بقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ ويسلمون لدلائل توحيدنا وإعجاز كتابنا ﴿ فَقُلْ ﴾ تكريماً لهم وتعظيماً بهم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٧ .

من كل آفة ومكروه جسماني وروحاني.

ثم بشرهم بأنه ﴿كَتَبَ﴾ وحتم ﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ والتفضل عليكم.
ثم فسّر ﴿أَنَّهُ﴾ رحمته بقوله : ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ عملاً ﴿سُوءاً﴾ وارتكب ذنباً كبيراً أو صغيراً
﴿يَجْهَلَةَ﴾ وغفلة عن قبحه وسوء عاقبته ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ وندم على عمله ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ وسأل الله العفو عن
عقوبته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما أفسده قبل أن يغفر الله له ويرحمه ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده بإعطائهم
الثواب.

قيل : نزلت في أصحاب الصِّفَّة الذين نهى الله عن طردهم ^(١) .
عن عكرمة : كان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسَّلام ويقول : « الحمد لله الذي جعل في امتي من
أمرني أن أبدأه بالسَّلام » ^(٢) .
وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنَّ عمر لما اعتذر من مقاتله وأستغفر الله منها ، وقال للرَّسول
ﷺ : ما أردت بذلك إلاَّ الخير ، نزلت هذه الآية ^(٣) .
وقيل : نزلت في قوم أقدموا على ذنوب ، ثمَّ جاءوا النبي ﷺ مظهرين للتَّدامة ، فنزلت الآية
فيهم ^(٤) .

عن (المجمع) : عن الصادق عليه السلام : « أُنْزِلَتْ فِي التَّائِبِينَ » ^(٥) .
وقيل : نزلت في حمزة ، وجعفر ، وعمر ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم ^(٦) .
﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥)
﴿وَكَذَلِكَ﴾ التفصيل والتبيين الواضح لدلائل التوحيد والنبوة والوعد والوعيد ﴿نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾
ونبين جميع ما يحتاج إليه الناس من المعارف والأحكام ليظهر الحقَّ كله ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وتظهر لك ﴿سَبِيلُ
الْمُجْرِمِينَ﴾ والمشركين ، وسبيل المؤمنين الموحدين ، ويمتاز طريقهما.
﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ
ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

ثمَّ لما بيَّن سبحانه أنَّ تفصيل الآيات لاستبانة سبيل المجرمين ، نهى النَّاسَ عن سلوك سبيلهم بقوله :
﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين : ﴿إِنِّي﴾ بحكم عقلي السَّليم ، ودلالة الآيات والبراهين على

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٤ .

(٢) ٣ و ٤ . تفسير الرازي ١٣ : ٢ .

(٣) ٥ و ٦ . مجمع البيان ٤ : ٤٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٤ .

التوحيد ﴿نُهِيتُ﴾ ومنعت من قبل ربِّي ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿قُلْ﴾ لهم قطعاً لأطماعهم : إني ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي دعتكم إلى عبادة الأحجار والأخشاب وسائر ما عملته أيديكم ، مع وضوح عدم قابلية شيء منها لعبادة الإنسان الذي هو أشرف منها ومن سائر الموجودات ، وعدم الدّاعي إليها إلا محض الهوى ، بل أتبع عقلي النّاهي عنها والحاكم بأنّ شيئاً ممّا سوى الله لا يضرّ ولا ينفع ، فإن وافقتكم في عبادة الأصنام فإني ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عن طريق الحقّ والصّواب ﴿إِذَا﴾ كما ضللتكم بحكم العقل الفطري ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى شيء من خير الدّنيا والآخرة كما أنتم لا تهتدون إليه. قيل : إنّ كفار قريش كانوا يدعونهم ﷺ إلى دينهم ^(١) .

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٥٧)

ثمّ لما تبرأ عن الشّرك واتّباع الهوى ، أمره سبحانه بدعوة النّاس إلى اتّباع البرهان بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنِّي﴾ في ما أنا عليه من التّوحيد والتّبرّي من الشّرك ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ عظيمة ، وحجّة واضحة كائنة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّي﴾ على توحيدهِ وسائر معارفهِ وصفاته. وهي كتابه النّاطق بالحقّ ، ﴿وَوُ﴾ أنتم ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ وبما فيه من الآيات ، فاستعدّوا للعذاب الذي أوعده الله على الشّرك وتكذيب القرآن ، ولا تطلبوا منّي التّعجيل في نزوله ، فإنّه ﴿مَا عِنْدِي﴾ وليس بإرادتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ، ولا حكم لي فيه ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ في تعجيله وتأخيرهما من الأمور لأحد ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده ، وكلّما يقصّ ويخبر بالعذاب أو بغيره ﴿يَقْضُ﴾ ويخبر ﴿الْحَقُّ﴾ والصّدق لا خلف فيه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والحاكمين بين عباده.

قيل : إنّ رؤساء قريش كانوا يستعجلون العذاب ويقولون : متى هذا الوعد ؟ استهزاء وإلزاماً ، حتّى قام النّضر بن الحارث في الخطيم وقال : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ^(٢) .

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤١ ، والآية من سورة الأنفال : ٨ / ٣٢ .

ثم أمره الله سبحانه بتأكيد عدم اختياره في تعذيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم : ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ وفي قدرتي واختياري ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب بالله لعذبتكم وأهلكتكم عقيب استعجالكم غضبا لربي ، ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وانقطع التنازع والكلام ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن الله لم يكل الأمر إلي ، بل إلى إرادته وحكمته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبأحوالهم ، وبصلاح التعجيل في تعذيبهم ، أو إمهالهم بطريق الاستدراج ، ليكون عذابهم أشد.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾

ثم لما أخبر سبحانه بعلمه بأحوال الظالمين ، أخبر بعلمه المحيط بجميع الموجودات بقوله : ﴿وَعِنْدَهُ﴾ تعالى خاصة ، وتحت قدرته الكاملة ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ وخزائنه .
وقيل : إنَّ المراد بالغيب : جميع الممكنات ^(١) ، فإنَّها من آثاره وصنائه ، ولازم ذلك إحاطته بها وحضورها عنده .

وقيل : إنَّ المراد بالمفاتيح : ما يتوصَّل به إلى معرفة الموجودات ، وهو علل وجودها المنتهية إلى ذاته المقدسة التي هي علّة عللها ، والعلم بالعلّة مستلزم للعلم بالمعلولات ^(٢) ، ولذا ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ .

وقيل : إنَّ المراد بالغيب : خصوص ما غاب من الخواصِّ ممَّا في عوالم الملكوت والجبروت ^(٣) .
وقيل : إنَّ المراد : الخمسة التي خصَّ الله علمها بذاته المقدسة .
عن النبي ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما في الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في الغد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، ولا يعلم بأيّ أرض تموت النفس إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » ^(٤) .

ثم أنّه تعالى بعد التنبيه على علمه بجميع الموجودات ، أو خصوص ما غاب منها عن الخواصِّ ، قرّر سعة علمه بجميع المحسوسات بقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الحيوانات والنباتات والجمادات على اختلاف أجناسها وأنواعها وأفرادها .

ثم أشار إلى علمه بأحوال الموجودات بقوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ﴾ على الأرض ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من أوراق

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٣ : ٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٢ .

الأشجار ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿يَعْلَمُهَا﴾ قيل : إنّ المراد : أنّه تعالى يعلم عدد أوراق الأشجار ثابتها وساقطها
 ﴿وَلَا حَبَّةٌ﴾ صغيرة تكون ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ وبطونها وتخومها إلّا يعلمها.
 ثمّ قرّر إحاطته بجميع ذرات عالم الأجساد بقوله : ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ من الموجودات ﴿إِلَّا﴾
 وهو مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واللّوح المحفوظ.

في بيان فائدة كتابة الأشياء في اللوح المحفوظ

قيل : فائدة كتابة الأشياء في اللوح المحفوظ ، مع أنّ الله منزّه عن الجهل والنسيان ، أن الحوادث إذا
 كانت موافقة للمكتوب ازدادت الملائكة بذلك علما وبقينا بعظيم صفات الله واعترض عليه بأنّ الملائكة
 ليست من أهل التّركي والتّنزّل ، فقصر الفائدة على ذلك ممّا لا معنى له (٢) .
 وفيه : أنّ زيادة المعرفة حظّ عظيم للملائكة ، وإن لم يحصل لهم بذلك علوّ في المقام ، لكون
 معرفتهم ضرورية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ

أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في توضيح كمال قدرته وسعة علمه بأحوال العباد بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾
 ويمنع أرواحكم عن التّصرّف الكامل في أبدانكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ ويجعلكم فيها بالنوم كالميت ، كما روي أنّ النّوم
 أخ الموت (٣) .

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « يخرج الرّوح عند النّوم ويبقى شعاعه في الجسد ، فبذلك يرى
 الرّؤيا ، فإذا انتبه من النّوم عادت الرّوح إلى الجسد بأسرع من لحظة » (٤) .

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ وكسبتكم بجواركم من الحسنات والسيّئات ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وفي تخصيص النّوم بالليل
 والاكتساب بالنّهار جري على العادة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويوقظكم ﴿فِيهِ﴾ من النّوم مع علمه بما يصدر عنكم
 من السيّئات ليمهلكم و﴿لِيُقْضَىٰ﴾ وينقضي ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وتستوفوا مدّة حياتكم المقدّرة في الدّنيا.
 عن القمي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام ، في قوله : ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال : « هو الموت » (٥).

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ بالموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لمجازاة أعمالكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في

(١) تفسير الرازي ١٢ : ٢٣٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣ .

(٣ و ٤) . تفسير روح البيان ٣ : ٤٤ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٠٣ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٢٦ .

الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بِالْثَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَالْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾
تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ والمستولي ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والمقتدر عليهم ، والمتصرف فيهم كيف يشاء تصحيحا
وتسقيما ، وإحياء وإماتة ، وتعذيب وإثابة ، ﴿و﴾ من قهاريته أنه ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ملائكة
﴿حَفَظَةً﴾ يحفظونكم من الآفات والعاهات والبلات ، ويحفظون أعمالكم.

في كتابة الملائكة أعمال الناس وبيان حكماتها

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، في تفسير (المعقبات) : « أُنْهَم مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ حَتَّىٰ يَنْتَهَوْا [به] إِلَى الْمَقَادِيرِ فَيَحْلُونَ ^(١) بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَقَادِيرِ » ^(٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنه : أَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَينِ ؛ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ ،
فَإِذَا تَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا مِنَ عَلَى الْيَمِينِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِسَيِّئَةٍ قَالَ مِنَ عَلَى الْيَمِينِ لِمَنْ عَلَى الْيَسَارِ :
انْتَظِرْهُ لَعَلَّهُ يَتُوبُ مِنْهَا ، فَإِنْ لَمْ يَتُبْ كَتَبَ عَلَيْهِ ^(٣) .

وروي أَنَّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مَلَكَينِ بِاللَّيْلِ ، وَمَلَكَينِ بِالنَّهَارِ ، يَكْتُبُ أَحَدُهُمَا الْحَسَنَاتِ وَالْآخَرُ
السَّيِّئَاتِ ، وَصَاحِبُ الْيَمِينِ أَمِيرُ عَلَى [صَاحِبِ] الشَّامِ ، فَإِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ حَسَنَةً كَتَبَتْ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ،
وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشَّامِ أَنْ يَكْتُبَ قَالَ لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ : أَمْسِكْ ، فَيَمْسِكُ عَنْهُ سِتَّ
سَاعَاتٍ أَوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ ، فَإِنْ هُوَ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كَتَبَ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ^(٤) .
قِيلَ : إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَاحَ مِنْ فِيهِ رَائِحَةُ الْمَسْكِ ، فَيَعْلَمُونَ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ فَيَكْتُبُونَهَا ، وَإِذَا هَمَّ
بَسَيِّئَةٍ فَاحَ مِنْ فِيهِ رَائِحَةُ النَّتَنِ ^(٥) .

قِيلَ : إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ أَنَّ الْمَكْلَفَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تَكْتُبُ عَلَيْهِ وَتَعْرُضُ عَلَى رُؤُوسِ
الْأَشْهَادِ كَانَ أَزْجَرَ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَثِقَ بِلُطْفِ سَيِّدِهِ وَاعْتَمَدَ عَلَى عَفْوِهِ وَسْتَرِهِ ، لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْهُ
اِحْتِشَامَهُ مِنَ خَدَمِهِ الْمُطَّلَعِينَ عَلَيْهِ ^(٦) .

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ حِفْظَ الْأَعْمَالِ يَكُونُ مُسْتَمِرًّا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ وانتهت مدّة حياتكم
﴿تَوَفَّيْتُهُ﴾ وقبضت روحه ﴿رُسُلَنَا﴾ المأمورون بقبض الأرواح ، وهم عزرائيل وأعوّانهم ﴿وَهُمْ لَا

(١) في مجمع البيان : فيحلون.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٤٣١ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤٥ .

(٦) تفسير البيضاوي ١ : ٣٠٥ .

يُقَرِّطُونَ ولا يقصرون في ما يؤمرون ، ولا يوحرونه طرفة عين **﴿ثُمَّ﴾** إثمهم بعد الموت **﴿رُدُّوا﴾** وارجعوا **﴿إِلَى اللَّهِ﴾** الذي هو **﴿مَوْلَاهُمْ﴾** ومالكهم المتولي لامورهم ، وهو **﴿الْحَقُّ﴾** الثابت ، أو العدل في حكمه وقضائه **﴿أَلَا﴾** تنبهوا أنّ **﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾** بين عبادته في ذلك اليوم لا غيره ، يحكم للمطيع بالثواب وللعاصي بالعقاب **﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾** .

في الاعتقادات : أنّ الله تعالى يخاطب عباده من الأولين والآخرين يوم القيامة بمجمل ^(١) حساب عملهم مخاطبة واحدة ، يسمع منها كل واحد قضيتّه دون غيره ^(٢) ، ويظنّ أنّه المخاطب دون غيره ، لا يشغله عَجَلٌ مخاطبة عن مخاطبة ، ويفرغ من حساب الأولين في مقدار نصف ساعة من ساعات الدنيا ^(٣) .

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا

مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ

أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)﴾

ثمّ لما استدلّ سبحانه بسعة علمه بجميع ما في البرّ والبحر من الموجودات وأحوالها على توحيده ، استدلّ عليه بكمال قدرته على إنجاء من في البرّ والبحر من مهالكهما ، وغاية رأفته بعباده ، بقوله : **﴿قُلْ﴾** يا محمد ، للمشركين : **﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾** ويخلصكم **﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** والمهالك والأهوال التي تتفق لكم فيهما في أسفاركم ؛ بحيث يظلم عليكم طريق الخلاص منها .
وقيل : إنّ المراد من الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة الرياح الشديدة ، وظلمة الأمواج الهائلة ^(٤) .

ومّن ترجون النجاة بمقتضى العقل السليم والفطرة الأصلية ، ومن **﴿تَدْعُونَهُ﴾** بخلوص النية ، وتسألونه **﴿تَضَرُّعًا﴾** باللسان **﴿وَخُفْيَةً﴾** وفي السرّ ، وتلتزمون بالقيام بوظائف عبوديته ، وتقولون : بالله **﴿لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾** المهالك والشدائد **﴿لَنَكُونَنَّ﴾** البتة بعد النجاة منهما **﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** لنعمته ، المطيعين لأوامره ، والثابتين على عبوديته ، فإنّ منعهم العناد والعصبية من الاعتراف بمنجيهم ، مع وضوحه عندهم ، فلا تنتظر لجوابهم ، و**﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾** بفضلّه ، بل **﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾** وغمّ شديد ينزل بكم **﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾** بعد مشاهدة النعمة واطمئنانكم بالنجاة تنقضون العهد ولا

(١) في النسخة : بمحلّ.

(٢) في المصدر : غيرها.

(٣) الاعتقادات للصدوق : ٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٢١ .

تشكرونها ، بل تكفرونه بأن ﴿تَشْرِكُونَ﴾ غيره في الألوهية والعبادة ، وهذا من أقبح القبائح .
﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ
يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾

ثم أمر نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم : لا تأمنوا بعد التَّحاة من عذاب الله ، فإنه ﴿هُوَ
الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ لأجل إشراككم وكفرانكم ﴿عَذَابًا﴾ عظيما نازلا ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من
المطر ، والطوفان ، والصَّاعقة ، والحجارة ، والرياح الهائلة والصَّيحة ، كما فعل بقوم نوح وقوم لوط
وأصحاب الفيل ، ﴿أَوْ﴾ ظاهرا ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ومن أسفل منكم كالغرق ، والخسف ، والرجفة ،
كما فعل بفرعون وقومه ، وقارون ، وأصحاب الأيكة ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلطكم ﴿شِيْعًا﴾ وفرقا متخالفين
بالأهواء والمذاهب ، بحيث يشبَّ بينكم الحرب ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ويقتل بعضكم بعضا .
عن القمي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام : ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ هو الدَّخان والصَّيحة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ﴾ هو الخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ هو الاختلاف في الدِّين ، وطعن بعضكم على بعض
﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو أن يقتل بعضكم بعضا ، وكلّ هذا في أهل القبلة « الخير »^(١) .
وفي (المجمع) : عن الصادق عليه السلام : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من السلاطين الظَّلمة ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ﴾ العبيد السَّوء ، ومن لا خير فيه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ يضرب بعضكم ببعض بما يلقى بينكم من
العداوة والعصبية ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو سوء الجوار «^(٢)» .
وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من الأمراء ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ﴾ أي من العبيد والسَّفلة^(٣) .

عن ابن عباس : لما نزل جبرئيل بهذه الآية شقَّ ذلك على الرسول ﷺ وقال : « ما بقاء امتي إن
عوملوا بذلك ! » فقال له جبرئيل : إنما أنا عبد مثلك ، فادع ربك لا تمتك ، فسأل ربه أن لا يفعل بهم
ذلك ، فقال جبرئيل : إنّ الله قد أمَّنتهم من خصلتين : أن لا يبعث عليهم عذابا من فوقهم كما بعثه على
قوم نوح ولوط ، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون ، ولم يجرحهم من أن يلبسهم شيعا بالأهواء

(١) تفسير القمي ١ : ٢٠٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٧ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٨٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٢٢ .

المختلفة ، ويزيد بعضهم بأس بعض بالسيف » (١) .

وعن النبي ﷺ : « سألت ربي أن لا يظهر على امتي أهل دين غيرهم فأعطاني ، وسألته أن لا يهلكهم جوعا فأعطاني ، وسألته أن لا يجمعهم على ضلال فأعطاني ، وسألته أن لا يلبسهم شيئا فمنعني » (٢) .

ثم بين سبحانه أن محل التعجب عدم تأثر المشركين بالآيات ، بقوله : ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ، وتعجب أنا ﴿كَيْفَ نَصَرَفُ﴾ ونبين ﴿الآيَاتِ﴾ والدلائل على التوحيد والوعيد ببيانات مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنهم ﴿يَفْقَهُونَ﴾ الآيات ويفهمونها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر والعناد ، وهم لا يتأثرون بها ، ولا يرتدعون من عقائدهم الباطلة وأهوائهم الزائغة .

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ

وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٦) و (٦٧)﴾

ثم ذم الله المشركين بتكذيبهم ما وعدهم من العذاب أو القرآن بقوله : ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ المشركون المصرون على الشقاق ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ الْعَذَابَ﴾ هو الواقع ، أو القرآن هو الصديق الثابت ﴿قُلْ﴾ لهم : إني ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وحفيظ من الكفر والضلال بالقهر ، حتى أمنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق ، وإما عليّ تبليغ وعد الله المشركين بالعذاب ، وقد بلغت ، و﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ وخبر من أخبار الله ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ ووقت وقوع يقع فيه من غير خلف وتأخير ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صدق خبره ووعيده عند وقوعه في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي

حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ

يَتَّقُونَ (٦٨) و (٦٩)﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالإعراض عن مجلس المكذبين إذا أضافوا إلى تكذيبهم الاستهزاء بالآيات ، بقوله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ المكذبين ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ويشرعون في الطعن ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ويستهزئون بها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وأخرج من مجلسهم ، واستمر على مفارقتهم ﴿حَتَّى﴾ ينصرفوا

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٨٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٢٨ .

عن الاستهزاء بالآيات ، و﴿يَخُوضُوا﴾ ويشرعوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾ وكلام ﴿غَيْرِهِ﴾ .
 قيل : إنّ الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد غيره ^(١) ، وقيل : الخطاب لغيره ، والمراد : إذا رأيت أيتها السامع ^(٢) .

نقل أنّ المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله ﷺ وفي القرآن فشتوا واستهزؤا ، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يشتغلوا بحديث غيره ^(٣) .

ثمّ عدّهم في حال النسيان بقوله : ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أمرنا بترك مجالستهم وقعدت معهم ، فلا بأس عليك إذن ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ والالتفات إلى أمرنا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام ، أو على أنفسهم بذلك .

عن ابن عباس رضی الله عنه ، قال المسلمون : لئن كنّا كلّما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم ، لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام ، وأن نطوف بالبيت ^(٤) ؛ لأنهم يخوضون أبداً .

فرخص الله المؤمنين في مجالستهم عند ذلك مع الوعظ والتذكير بقوله : ﴿وَمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ **﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** ويجتنبون قبائح أعمال الخائضين وأقوالهم **﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾** وجرمهم **﴿مِنْ شَيْءٍ﴾** يسير **﴿وَلَكِنْ﴾** عليهم **﴿ذِكْرٍ﴾** هم ووعظهم والتنبية على قبائح أعمالهم وأقوالهم **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** الخوض حياء ، أو كراهة لمساءتهم .

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

ثمّ أكّد الله سبحانه أمره بالإعراض عن المستهزين بقوله : ﴿وَذَرِ﴾ المشركين **﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾** وسخرية وهزوا بآيات الله ، أو جعلوا دينهم اتّباع الهوى والشّهوات بعبادتهم الأصنام ، أو جعلوا عيدهم - الذي هو يوم العباداة - يوم لعبهم ولهوهم ، كما عن ابن عباس رضی الله عنه ^(٥) .

﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وألهتهم شهواتها عن التّفكّر في عاقبة أمرهم ، وأعرض عن مجالستهم وملاطفتهم ، ولا تشغل قلبك بهمّهم ، ولا تبال بتكذبيهم ، بل أنذرهم بالقرآن **﴿وَذَكَّرْ﴾** هم **﴿بِهِ﴾** مخافة **﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾** وتسلم **﴿نَفْسٌ﴾** إلى الهلاك والعذاب **﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾** وعملت من القبائح

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢٤ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٣ : ٢٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٢٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٣ : ٢٧ .

والسَّيِّئَاتِ .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : أي ترهن في جهنم بما كسبت في الدنيا ^(١) .

والحال أنَّ النَّفْسَ ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ عند ابتلائها بالعذاب ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يدفعه عنها ﴿وَأِنْ تَعِدْ﴾ تلك النَّفْسَ وتنفذ مما في الأرض ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ وفداء ، لا يقبل و ﴿لَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا﴾ ذلك الفداء ، فجميع طرق الخلاص منسدة عليها .

ثم أثبت الإيسال والتسليم للعذاب على المستهزئين بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ اللاعبون اللاهون المغرورون بالدنيا هم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ وسلّموا إلى ملائكة العذاب ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وحصلوا لأنفسهم من العقائد والأعمال .

ثم كأنه قيل : ما يكون له إذا سلّموا إلى العذاب أو إلى ملائكته ؟ فأجاب بقوله : ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ﴾ ماء ﴿حَمِيمٍ﴾ مغلي يتجرجر في بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنار تشتعل بها أبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بالله وبآياته .

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧١) و (٧٢)﴾

ثم أنّه تعالى بعد بيان إصرار المشركين على شركهم ، وتكذيبهم بالقرآن الناطق بالتوحيد ، واستهزائهم بآياته ، أمر نبيه ﷺ بتوضيح بطلان دينهم ، وأنّه ممّا ينكره العقل بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم إنكارا على نفسك ، وعلى كلّ عاقل : ﴿أَدْعُوا﴾ ونعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ القادر على كلّ نفع وضرر ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ شيئا إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ﴿وَوَ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ ونرجع من مقام العلم وكمال العقل ، وملة التوحيد ودين الإسلام ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ وجهلنا الدّاتي وضلالنا الجبليّ الباعثين الى الإشراك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وأرشدنا بوساطة العقل السليم ، ودلالة الآيات ، ومساعدة توفيقه إلى التوحيد ودين الإسلام ، إذن نكون ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ وذهبت به ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ ومردة الجنّ والغيلان ، وأضلّته ﴿فِي﴾ مفاوز ﴿الْأَرْضِ﴾ .

قيل : إنّه مبني على ما زعمته العرب من أنّ الغيلان تستهوي الانسان ^(٢) ، وقيل : إنّ المعنى :

كالذي

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢٨ .

(٢) تفسير الصافي ٢ : ١٣٠ .

ألقته الشياطين في وهدة عميقة في الأرض ^(١) ، حال كونه ﴿حَيْرَانٌ﴾ لا يدري ما يصنع ، ولا يهتدي إلى طريق السلامة والنّجاة ، وفي تلك الحالة يكون ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ورفقاء ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ ويهدونه إلى الطريق المستقيم قائلين له : ﴿اٰتِنَا﴾ وتعال إلينا حتّى نوصلك إلى المأمن والمقصود ، وهو لا يجيبهم ولا يترك متابعة الغيلان فيهلك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ والدين الحقّ الذي أرشدنا إليه وأمرنا باتباعه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الْهُدَى﴾ المحض ، وما سواه هو الضلال البحت.

ثمّ شرح الدين الذي هو هدى الله بقوله : ﴿وَأْمُرْنَا﴾ والزمن بحكم عقولنا ﴿لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وننقاد لإرادته وحكمه ، وهذا رأس الأعمال القلبية ، ﴿وَأْمُرْنَا﴾ أيضا ﴿أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي رأس الطاعات الجوارحية ، وأفضل الواجبات البدنية ﴿وَأَتَّقُوا﴾ تعالى في مخالفته ، وعصيان نواهيه. ثمّ أشار سبحانه إلى وقت ظهور عمد منافع تلك الأعمال حتّا عليها بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ من قبوركم ، وفي القيامة تجمعون للحساب والجزاء ؛ فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

ثمّ لما استدلّ على عدم قابلية ^(٢) الأصنام للعبادة بعجزهم عن النّفع والضّر ، بيّن كمال قدرته حتّا على تخصيصه بالعبادة ، وإثباتا للمعاد بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها من العلويات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما فيها من السفليات ، قائما ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة الكاملة والنّظام الأتمّ ، لا بالباطل والعبث ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وحين يريد إيجاد شيء فيوجد بلا ريث.

﴿قَوْلُهُ﴾ وإرادته ﴿الْحَقُّ﴾ الثّابت الثّافذ ، وقيل : إنّ المراد : وخلق يوم يقول ، أو وأنقوا يوم يقول ^(٣) ، وعلى التقديرين هو يوم القيامة ، ﴿وَلَهُ﴾ تعالى خاصّة ﴿الْمُلْكُ﴾ والسلطنة التّامة الظّاهرية والواقعية ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لا ملك فيه لغيره ، كما كان في الدّنيا بحسب الظّاهر.

عن أبي هريرة ، قال : قلت : يا رسول الله ، ما الصّور ؟ قال : القرن ، قلت : كيف هو ؟ قال : عظيم ، والذي نفسي بيده ، إنّ أعظم دائرة فيه كعرض السّماء والأرض ^(٤) . قيل : إنّ فيه من الثّقب على عدد أرواح

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢٩ .

(٢) يريد عدم استحقاق .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٤٩٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٥٣ .

ثم لما لم يكن كمال قدرته باعثا على القيام بعبوديته ، ومثبنا للمعاد لكل أحد ، إلا بعد معرفة كمال علمه بمن أطاعه وعصاه ومن أماته وأحياه ، عرّف ذاته المقدسة بكمال العلم بقوله : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وما لا تدركه الحواسّ ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما يدركه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور .
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِين (٧٤) ﴿﴾

ثم لما كان إبراهيم عليه السلام معروفا بين جميع الملل بكمال العقل والعلم ، واستقامة الرأي ، وإصابة النظر ، وحسن العقائد والأعمال ، وعظم الشأن ، وكان أهل الكتاب ومشركو العرب مفتخرين بأنهم ذريّته ، معترفين بعلوّ مقامه ، احتجّ الله سبحانه عليهم بإقراره بالتوحيد ، وإعراضه عن الشرك ، وتوبيخه وإنكاره على الناس عبادة الأصنام ، بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ موجّبا له ، وإنكارا عليه : ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ وتختار لنفسك ﴿أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ ومعبودين من دون الله ، وفي تنكير الأصنام إشعار بتحقيقها ﴿إِنِّي﴾ بعين عقلي ، وبصيرة قلبي ﴿أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ الذين وافقوك في عبادتها راسخين ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ، وبعد عن الصّواب ﴿مُبِينٍ﴾ وواضح عند العقل والعقلاء .

في أنّ آزر كان جدّ إبراهيم لأمه

ثم اعلم أنّه ادّعى الإجماع على أنّ اسم أبي إبراهيم تارخ ، وإنّما الخلاف في أنّ آزر كان لقبه ، أو كان له اسمان ، أو كان آزر عمّه ، وإنّما اطلق عليه الأب ؛ لأنّ العمّ صنو الأب ؟ أو كان جدّه لأمّه وهو الحق ؛ لأنّ إطلاق الأب عليه حقيقة وعلى العمّ مجاز ، واتّفاق أصحابنا ظاهرا على أنّ آباء النبي ﷺ كلّهم كانوا موحدّين لقوله تعالى : ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (٢) .

عن القمّي عن الباقر عليه السلام ، قال : « في أصلاب النّبیین » (٣) .

وفي (المجمع) : عنهما عليه السلام ، قالوا : « في أصلاب النّبیین ؛ نبيّ بعد نبيّ ، أخرج من صلب أبيه من نكاح غير سفاح ، من لدن آدم » (٤) .

وروي عن النبي ﷺ أنّه قال : « لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٣ .

(٢) الشعراء : ٢٦ / ٢١٩ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ١٢٥ ، تفسير الصافي ٤ : ٥٤ .

(٤) مجمع البيان ٧ : ٣٢٤ ، تفسير الصافي ٤ : ٥٤ .

المطهرات ، حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « لما خلق الله تعالى آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض ، وجعلني في صلب نوح في السفينة ، وقذفني في صلب إبراهيم ، ثم [لم يزل] تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط » ^(٢) . ولو كان في آبائه كافر لم يصف أصلاهم بالطهارة والكرامة .
وروي أنّ حواء لما وضعت شيئا انتقل النور المحمدي من جبهتها إلى جبهته ، فلما كبر وبلغ مبلغ الرجال أخذ آدم عليه العهود والمواثيق أن لا يودع هذا السرّ إلا في المطهرات المحصنات من النساء ، ليصل إلى المطهرين ^(٣) .

وحمل الفخر الرازي وبعض آخر من العامة الروايات النبوية على أنّه لم يكن في آبائه ولد زنا ، واستشهدوا عليه بقوله عليه السلام : « ولدت من نكاح ، لا من سفاح » ^(٤) .
وفيه : أنّه لا شهادة فيه لظهور كونه فخرا آخر ، مع بعد حمل الأصلاب الطاهرين على ذلك ، ويؤيده فحوى قوله تعالى : ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾ الآية ، كما ذكرناه في البقرة ^(٥) ، وأنّه كان ﷺ جامعا لجميع المفاهيم ، ومن المعلوم أن كون بعض آبائه مشركا لا يخلو من شين عليه .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥)

ثم بين الله تعالى كمال عرفان إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ الذي أريناه من قبح عبادة الأصنام ، وبصرناه بفساد الإشراك بتقوية بصيرته ، كنّا ﴿ نُرِي ﴾ ونبصر ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بتقوية نور بصره ﴿ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ليشاهد عجائب مخلوقاتنا ، ويطلع على سعة ملكنا وعظمة سلطانتنا ﴿ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ بوحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا .

عن الباقر عليه السلام : « كشط له عن الأرضين حتى رآهنّ وما تحتهنّ ، وعن السماوات حتى رآهنّ وما فيهنّ من الملائكة وحمة العرش » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « كشط له عن الأرض ومن عليها ، وعن السماء ومن فيها ، والملك الذي يحملها ، والعرش ومن عليه » ^(٧) .

(١) مجمع البيان ٤ : ٤٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣١ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٥٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٥٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٥٤ .

(٥) في تفسير الآية (١٢٥) من سورة البقرة .

(٦) مجمع البيان ٤ : ٤٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣١ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٢٠٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣١ .

وعن الباقر عليه السلام قال : « اعطني بصره من القوة ما نفذ السماوات ، فرأى ما فيها ، ورأى العرش وما فوقه ، ورأى ما في الأرض وما تحتها » (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، رأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات ، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات ، ثم رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم ، إن دعوتك مستجابة ، فلا تدع على عبادي ، فإني لو شئت أن اميتهم [لدعائك] ما خلقتهم ، فإني خلقت خلقي على ثلاثة أصناف : صنف يعبدني لا يشرك بي شيئاً فائيه ، وصنف يعبد غيري فليس يفوتني ، وصنف يعبد غيري فاخرج من صلبه من يعبدني » (٢) .

قيل : إن ملكوت كل شيء باطنه وروحانيته ، وهو من الأوليات التي خلقها الله تعالى من لا شيء بأمر (كن) ، فالملك قائم بالملكوت ، والملكوت قائم بقدرة الله ، فأرى سبحانه إبراهيم ملكوت الأشياء ، والآيات المودعة فيها الدالة على توحيده وكمال صفاته.

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ *

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٦) و (٧٨) ﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان إنكار إبراهيم عليه السلام على آزر وقومه عبادة الأصنام ، وحكمه بضاللتهم ، احتج على مشركي العرب بما احتج به إبراهيم عليه السلام على بطلان عبادة الأصنام بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ ﴾ وأظلم ﴿ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ وستره بظلامه ، وظهرت الكواكب ﴿ رَأَى ﴾ بينها ﴿ كَوْكَبًا ﴾ من الكواكب السبعة ، قيل : كان الزهرة (٣) ، وقيل : كان المشتري (٤) ﴿ قَالَ ﴾ استهزاء بقومه ، أو إنكاراً عليهم ، أو حكاية لمقالمهم لينكر (٥) عليهم بإبطاله ، أو إظهاراً لماشاته معهم كي يكون أدعى إلى استماع حجته : ﴿ هَذَا ﴾ الكوكب ﴿ رَبِّي ﴾ .

قيل : لما كان مرجع عبادة الأصنام إلى عبادة الكواكب ؛ حيث إن الناس رأوا أن الفصول الأربعة تكون بقرب الشمس وبعدها ، وبهما تحدث الأحوال المختلفة في العالم ، وتكون السعادات

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٠٢ / ١٤٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٠٢ / ١٤٣٢ ، تفسير القمي ١ : ٢٠٦ ، الكافي ٨ : ٣٠٥ / ٤٧٣ ، مجمع البيان ٤ : ٤٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٢ .

(٣ و ٤) . تفسير أبي السعود ٣ : ١٥٣ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٦ .

(٥) كذا الظاهر ، وفي النسخة : ليكن .

والتحوسات بوقوع الكواكب في طوالعهم على أحوال مختلفة ، غلب على ظن أغلبهم أنّ مبدأ الحوادث هو الكواكب ، فبالغوا في تعظيمها حتى اشتغلوا بعبادتها.

ثمّ لما رأوا أنّها تغيب في كثير من الأوقات ، اتّخذوا لكلّ كوكب صنما من الجوهر المنسوب إليه ، فصنم الشّمس من الذهب المزقّن بأحجار منسوبة إليها كالياقوت والألماس ، وصنم القمر من الفضة ^(١) ... وهكذا.

ولذا استدللّ إبراهيم عليه السلام على بطلان عبادة الأصنام ببطلان ربوبية الكواكب بقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ الكواكب وغرب ﴿ قَالَ لَا أَحِبُّ ﴾ الأرباب ﴿ الْآفِلِينَ ﴾ الغائبين عن مربوبهم ، للقطع بعدم صلوح الرّائل المتغيّر للربوبية.

ثمّ طلع القمر ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ وطالعا ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ الجرم المضىء ﴿ رَبِّي ﴾ وخالقي ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ وغاب ﴿ قَالَ ﴾ تنبيها لقومه على عدم صلوحه أيضا للربوبية بعلّة افوله وتغيّره الملازم للحدوث ، وتذكيرا لهم بعجزهم عن معرفة ربهم إلّا بهدائته وتوفيقه : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ إلى معرفته بتوفيقه ، ولم ينور قلبي لإدراك الحقّ ﴿ لَا أَكُونَنَّ ﴾ البتّة ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ عن طريق الحقّ ، المنحرفين عن نهج الصّواب. وفيه تعريض بضلال قومه في عبادتهم المتغيّر المقهور بإرادة غيره.

عنهما عليه السلام : ﴿ لَا أَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أي ناسيا للميثاق « ^(٢) » .

أقول : أي الميثاق على التّوحيد في عالم الذّر.

ثمّ ذهب الليل وطلعت الشّمس ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ وطالعة ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ الجرم المشهود ﴿ رَبِّي ﴾ .

ثمّ أشار إلى رجحان القول بالوهية الشّمس على القول بالوهية الكوكب والقمر بقوله : ﴿ هَذَا ﴾ الطّالع ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب والقمر جرما ، وأقوى منهما ضياء ، فهو أولى بالربوبية ، قيل : في تذكير اسم الإشارة رعاية للأدب وتنزيه للربّ عن الانوثية ^(٣) ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ الشّمس كسائر الكواكب ، وثبت امتناع ربوبيتها أيضا لأجل الافول والتغيّر وألزم الفرق بالحجّة القاطعة ﴿ قَالَ ﴾ مخاطبا لجميعهم ، صادعا بالحقّ : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ بالله تعالى من الكواكب والأصنام وغيرها.

﴿ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٣٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٠٣ / ١٤٣٤ عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٥٦ .

المُشْرِكِينَ (٧٩)

ثم بعد التبرؤ مما سوى الله أعلن بخلوصه لعبادة موجد الكواكب وغيرها بقوله : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وصرفت قلبي ، وأخلصت عبادتي ﴿لِلَّذِي﴾ بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿فَطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما من الكواكب وغيرها ، وأخرج الكل من كتم العدم إلى الوجود ، وفوّضت جميع أموري إليه ، حال كوني ﴿حَنِيفًا﴾ ومائلا عن كل معبود غيره ، ومعرضا عن كل دين غير دينه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ به شيئا في جهة من الجهات ، وأمر من الأمور.

في (العيون) : عن الرضا عليه السلام أنه سأل المأمون فقال له : يا بن رسول الله ، أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون ؟ قال : « بلى » ، قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ (١) .

فقال الرضا عليه السلام : « إن إبراهيم عليه السلام وقع على ثلاثة أصناف : صنف يعبد الزهرة ، وصنف يعبد القمر ، وصنف يعبد الشمس ، وذلك حين خرج من السرب (٢) الذي اخفي فيه ، فلما جنّ عليه الليل رأى الزهرة ، قال : هذا ربّي ؛ على الإنكار والاستخبار ، فلما أفل الكوكب قال : لا احبّ الآفلين ؛ لأنّ الأفل من صفات المحدث لا من صفات القديم ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربّي ، على الإنكار والاستخبار ، فلما أفل قال : لكن لم يهديني ربّي لأكوننّ من القوم الضالين ، فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال : هذا ربّي ، هذا أكبر من الزهرة والقمر ، على الإنكار والاستخبار ، لا على الإخبار والإقرار ، فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس : يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. وإنما أراد إبراهيم عليه السلام بما قال أن يبيّن لهم بطلان دينهم ، ويثبت عندهم أنّ العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض « الخير » (٣) .

أقول : عليه جمع من مفسري العاقبة ، وحكي عن أكثرهم أنّه قال ذلك طلبا لمعرفة الرب ، ورووا أنّ نمرود رأى رؤيا فعبرها الحكماء والكهنة بأنّه يولد غلام ينازعه في ملكه ، فأمر بذبح كلّ غلام يولد ، فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها ، فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحجر ، فجاء جبرئيل عليه السلام ووضع إصبعه في فمه فمصّه فخرج منه رزقه ، وكان جبرئيل يتعهده ، وكانت أمّه تأتيه أحيانا وترضعه ، فبقي على هذه الحالة حتى كبر وعقل وعرف أن له ربا ، فسأل أمّه وقال : من ربّي ؟ فقالت : أنا. فقال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك. فقال : من ربّه ؟ فقالت : ملك

(١) الأنعام : ٦ / ٧٦ .

(٢) السرب : حفير تحت الأرض لا منفذ له .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٣ .

البلد. فقال : من ربّه ؟ فقالت : لا تسأل عن هذا ، فإنّ عليك فيه خطرا عظيما ، فنظر من باب الغار ، فرأى النّجم الذي هو أضواء النّجوم ، فقال : هذا ربّي ... إلى آخر القصّة ^(١) .

وعن القمّي : عن الصادق عليه السلام : « أنّ آزر أبا إبراهيم كان منجّما لنمرود بن كنعان فقال له : إني أرى في حساب النّجوم أنّ هذا الزّمان يحدث رجلا ، فينسخ هذا الدّين ويدعو إلى دين آخر. فقال له نمرود : في أيّ بلاد يكون ؟ قال : في هذه البلاد. وكان منزل نمرود كوئي ربّا ^(٢) ، فقال له نمرود : قد خرج إلى الدّنيا ؟ قال آزر : لا. قال : فينبغي أن يفرّق بين الرّجال والنّساء ، ففرّق بين الرّجال والنّساء ، وحملت أم إبراهيم عليها السلام ولم يتبيّن حملها.

فلما حانت ولادتها قالت : يا آزر ، إني قد اعتللت وأريد أن اعتزل عنك. وكان في ذلك الزّمان [المرأة إذا اعتلّت اعتزلت عن زوجها ، فخرجت واعتزلت في غار ووضعت إبراهيم وهيئته وقمطته ورجعت إلى منزلها وسدّت باب الغار بالحجارة ، فأجرى الله لإبراهيم عليه السلام لبنا من إجمامه ، وكانت أمّه تأتيه ، ووكل نمرود بكلّ امرأة حامل ، وكان يذبح كلّ ولد ذكر ، فهربت أم إبراهيم بإبراهيم من الذّبح ، وكان يشبّ إبراهيم في الغار يوما كما يشبّ غيره في الشّهر ، حتّى أتى [له] في الغار ثلاث عشرة سنة.

فلما كان بعد ذلك زارته أمّه ، فلما أرادت أن تفارقه تشبّث بها فقل : يا أمّي ، لو أخرجتني ؟ فقالت له : يا بني ، إن علم أنّك ولدت في هذا الزّمان قتلك. فلما خرجت أمّه وخرج من الغار وقد غابت الشّمس ، نظر إلى الزّهرة في السّماء فقال : هذا ربّي. فلما غابت الزّهرة قال : لو كان [هذا] ربّي ما تحرك وما برح ، ثمّ قال : لا أحب الآفلين - والآفل : الغائب - فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربّي هذا أكبر وأحسن ، فلما تحرك وزال قال : لئن لم يهديني ربّي لأكوننّ من القوم الضّالّين ، فلما أصبح وطلعت الشّمس ورأى ضوءها وقد أضاءت الدّنيا لطلوعها قال : هذا ربّي هذا أكبر وأحسن ، فلما تحركت وزالت كسّط الله له عن السّماوات حتّى رأى العرش ومن عليه ، وأراه الله ملكوت السّماوات والأرض ، فعند ذلك قال : يا قوم إني بريء ممّا تشركون ، إني وحيّ وجهي للذي فطر السّماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، فجاء إلى أمّه وأدخلته إلى دارها وجعلته بين أولادها ^(٣) .

قال : وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم عليه السلام : هذا ربّي ، أشرك في قوله : هذا ربّي ؟ قال : « من قال هذا اليوم فهو مشرك ، ولم يكن من إبراهيم بشرك ، وإنّما كان في طلب ربّه ، وهو من غيره شرك » ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٤٧ ، تفسير القرطبي ٧ : ٢٤ ، الدر المنثور ٣ : ٣٠٤ .

(٢) كوئي ربّا : من أرض بابل بالعراق ، فيها مولد إبراهيم عليه السلام وفيها مشهده.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٠٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٣٤ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٠٧ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٣٥ .

أقول : يمكن الجمع بين الروایتين بأن الاستدلال بالافول وقع منه ﷺ مرتين ؛ المرة الاولى طلبا لمعرفة نفسه ، والثانية احتجاجا على قومه ، مع أنّ الرواية الأخيرة متضمنة لما لا يقول به الشيعة من كون أبي إبراهيم آزر ، مضافا إلى بعد أنّه من كان يرتضع من إصبغه أو من إصبع جبرئيل ، أن يحتمل كون الكوكب المحدود المتحرك ربّا له.

﴿وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا

أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾

ثمّ حكى سبحانه محاجة قوم إبراهيم معه بقوله : ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ﴾ وأقاموا له براهين واهية على صحة ما زعموه من ربوبية الكوكب وعبادة الأصنام كوجوب تقليد الآباء وغيره بعد احتجاج إبراهيم ﷺ على فساده بامتناع كون الحادث المتغير خالقا وربّا ، إذن ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم إنكارا عليهم واستعجابا منهم : يا قوم ﴿أَ تُحَاجُّونِي﴾ وتجادلونني ﴿فِي﴾ شأن ﴿اللَّهِ﴾ وتوحيده ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى﴾ ﴿قَدْ هَدَانِ﴾ وأرشدني إلى الحقّ بتقوية عقلي ، وإنارة قلبي ، ونصب الآيات عليه.

ثمّ قيل : إنّ القوم خوّفوه من ضرر آلهتهم حين طعن فيهم ، وقالوا : أما تخاف أن يهلك آلهتنا لأجل أنك تشتمهم ؟ فأجابهم بقوله : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾^(١) في الربوبية والعبادة كوكبا كان أو صنما من أن يضرّني بسبب طعني فيه ، لوضوح كون جميع الأجرام الفلكية ، والأجسام العنصرية مقهورة بقدرة الله وإرادته ، لا يقدر شيء منها على نفع أو ضرر ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ من الضرر عليّ ، فعند ذلك يضرّني هو بتوسط شيء من مخلوقاته ولو كان جمادا ، فهو تعالى حقيق بأن يخاف منه لقدرته على كلّ شيء ، ولكن لا يشاء ضررا على عبده إلا إذا علم صلاحه فيه ، أو استحقاقه له ، فإنّه ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وأحاط بجميع خلقه خبرا ، ومن المعلوم أنّه لا يستحقّ ضرره وعذابه من يوحدّه وينزهه عن المثل والشريك ، بل يستحقّ حفظه وثوابه وإكرامه ﴿أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ذلك ، ولا تنتبهون أنّ الله هو الضارّ النافع دون آلهتكم ، وأنّ المستحقّ للضرر والعذاب هو المشرك دون الموحد.

قيل : إنّ التقدير : أتعرضون عن التأمل في ما أقول ، فلا تتذكرون أنّ آلهتكم عجزة ؟^(٢)

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٦١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ١٥٥ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٨ .

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)

ثم أنكر على قومه توقعهم خوفه في مورد الأمن بقوله : ﴿وَكَيْفَ أَحَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ من الأصنام التي لا قدرة لها على شيء ، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ﴾ من ﴿أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ القادر على كل شيء ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ وبإشراكه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ وبرهانا قاطعا مع امتناع وجود البرهان على ربوبية الحادث المتغير المحتاج ﴿فَأَيُّ﴾ فريق من ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ أفريق الموحدين أم فريق المشركين ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿بِالْأَمْنِ﴾ من الضرر والعذاب من قبل الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأحقّ منهما ، أخبروني به ؟ وإنما لم يقل : فأينا أحقّ ، ليحترز عن تركية نفسه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾

ثم بادر تعالى إلى الجواب تنبيها على وضوحه عند العقل ، وبدايته لدى العقلاء بحيث لا يحتاج إلى التأمل ، بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبوحدانيته ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ ولم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ ذلك ﴿بِظُلْمٍ﴾ وعصيان من الإشراك به في العبادة - كما فعله الذين قالوا : إنما نعبد الأصنام ليقربونا إلى الله - وارتكاب القبائح الموبقة ﴿أُولَئِكَ﴾ الفريق فقط ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ من كل عقوبة ، دون فريق المشركين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أعظم الذنوب والقبائح ﴿وَهُمْ﴾ خاصة ﴿مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ، مرشدون إلى كل خير دون المشركين الذين هم في ضلال مبين.

في (المجمع) : عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « أنه من تمام قول إبراهيم عليه السلام » ^(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : لما نزلت هذه الآية شقّ على الناس وقالوا : يا رسول الله ، وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : « إنه ليس الذي تعنون ، ألم تستمعوا إلى ما قال العبد الصالح : ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية قال : « الظلم الضلال فما فوقه » ^(٣) .

وعنه عليه السلام أنه سئل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الزنا منه ؟ قال : « أعوذ بالله من أولئك ، لا ، ولكنّه ذنب إذا تاب تاب الله عليه » . وقال : « مدمن الزنا والسرقه وشارب الخمر كعابد الوثن » ^(٤) .

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٠٦ منسوب إلى القليل ، ولم ينسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ ، والآية من سورة لقمان : ٣١ / ١٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٠٥ / ١٤٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٠٥ / ١٤٤١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

وفي رواية قال : « أولئك الخوارج وأصحابهم » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « أن الظلم هنا الشك » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال : « آمنوا بما جاء به محمد ﷺ من الولاية ، ولم يخلطوها بولاية فلان وفلان » ^(٣) .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾

ثم نبه سبحانه على أن علم إبراهيم عليه السلام وإصابته الحق كان بإفاضته تعالى وتوفيقه بقوله : ﴿وَتِلْكَ﴾ المحجج التي حكيناها إنما هي ﴿حُجَّتُنَا﴾ وبراهيننا التي ﴿آتَيْنَاهَا﴾ وألهمناها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بتقوية بصيرته وإنارة قلبه لقيمتها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ .

ثم قرر سبحانه ذلك بالتنبية على أن جميع الكمالات الجسمانية والروحانية منه تعالى بقوله : ﴿نَرْفَعُ﴾ ونعلّي ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة ومراتب عظيمة من العقل والعلم ، والحكمة والنبوة ، والصفات الكريمة ، والفضائل الجسيمة ، والسعادات الدنيوية والاخروية ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ رفعه وتعليته فيها ، بمقتضى الحكمة والعلم ، والاستعدادات والقابليات في خلقه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في فعالة من الرفع والخفض وغيرهما ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعدادات الخلق وقابلياتهم على كثرة مراتبها المتفاوتة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ

وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٤) و (٨٥)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان تفضيله بنعمة الهداية والعلم والحكمة ، وإراءته ملكوت الموجودات ، بين تفضيله بكرامة التسلسل وشرافة الأصل بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ من رحمته ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابنه من صلبه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿كُلًّا﴾ منهما أو منهم ﴿هَدَيْنَا﴾ إلى الحق ، وأرشدنا إلى المقامات العالية من العلم والعمل ومكارم الأخلاق ، ﴿وَوَهَبْنَا﴾ كذلك ﴿نُوحًا﴾ وهو كان من أجداده ﴿هَدَيْنَا﴾ إلى كمال المعرفة والحكمة ومقام الرسالة ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة من زمان إبراهيم عليه السلام .

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٠٦ / ١٤٤٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٠٥ / ١٤٤٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٠٥ / ١٤٤٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

قيل : كان بين إبراهيم ونوح عليهما السلام أحد عشر أباً ، أولهم سام بن نوح وآخرهم تارخ أبو إبراهيم .
 عن الباقر عليه السلام : « يعني هديناهم ليجعلوا الوصية في أهل بيتهم » ^(١) .
 ثم بين سبحانه أنه أنعم على نوح أيضاً نعمة كرامة النسل بقوله : « **وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ** » ونسله هدينا
 « **دَاوُدَ** » بن إيشا « **وَسُلَيْمَانَ** » بن داود اللذين خصّهما الله بالملك العظيم مع النبوة « **وَأَيُّوبَ** » بن
 أموص الذي خصّه الله بالبلاء العظيم ، وكمال الصبر عليه مع النبوة « **وَيُوسُفَ** » بن يعقوب الذي جمع الله
 له عظيم البلاء ، وكمال الصبر ، والملك مع النبوة « **وَمُوسَى وَهَارُونَ** » ابني عمران بن يصهر اللذين
 خصّهما الله بكمال المهابة ، والمعجزات العظيمة القاهرة « **وَكَذَلِكَ** » الإنعام بالنعم العظيمة « **نَجْرِي**
الْمُحْسِنِينَ » على أعمالهم الحسنة .
 « **وَوَإِسْمَاعِيلَ** » هدينا « **زَكَرِيَّا** » بن أذن من سبط يهودا « **وَيَحْيَى** » ابنه « **وَعِيسَى** » بن مريم بنت عمران
 بن ماثان « **وَالْيَاسَ** » بن هارون أخي موسى الذين خصّهم الله بغاية الزهد والإعراض عن الدنيا « **كُلٌّ** »
 منهم « **مِنَ الصَّالِحِينَ** » والكاملين في مكارم الأخلاق وحسن الأعمال .

في أن الحسين عليه السلام ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله

قال الفخر الرازي في تفسيره : الآية تدلّ على أنّ الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّ
 الله جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنّه لا ينتسب إلى إبراهيم إلّا بالأمّ ، فكذلك الحسن والحسين عليهما السلام
 من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وإن انتسبا إلى رسول الله بالأمّ ^(٢) .
 ويقال : إنّ أبا جعفر الباقر استدلّ بهذه الآية عند الحجّاج بن يوسف ^(٣) .
 أقول : روي عن الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال : « والله لقد نسب الله عيسى بن مريم في القرآن إلى إبراهيم عليه السلام من قبل النساء » ثمّ تلا هذه الآية ^(٤) .
 وعن الكاظم عليه السلام : « إنّما الحق عيسى عليه السلام بذراري الأنبياء من طريق عليه السلام مريم ، وكذلك الحقنا
 بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل امّا فاطمة عليها السلام » ^(٥) .

« **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ
 وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٦) و (٨٧)** »

(١) الكافي ٨ : ١١٦ / ٩٢ ، كمال الدين : ٢١٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٣ : ٦٦ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٠٦ / ١٤٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٦ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٨٤ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٧ .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالكمالات النفسانية والرسالة. وقد استدلل كثير من المفسرين على رجوع ضمير (ومن ذريته) إلى نوح بعدم كون يونس ولوط من ذراري إبراهيم عليه السلام ، وعدم إطلاق الذرية على ولد الصلب ، وقد عدَّ إسماعيل بن إبراهيم من الذرية^(١) . وقيل برجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الآيات في بيان رفعة إبراهيم ، وأنَّ يونس كان من الأسباط ، ولا بعد في عدَّ لوط من ذريته تنزيلا لابن أخيه منزلة ابنه ، لكونه في تربيته^(٢) . ويدلُّ عليه استدلال الصادقين عليه السلام بعد عيسى في الآية من ذرية إبراهيم عليه السلام في الروايتين السابقتين.

وقيل برجوع ضمير (وذريته) إلى إبراهيم عليه السلام ، وكون قوله : (وإسماعيل) وما بعده عطفًا على قوله : (ونوحا) . ثمَّ أنه ذكر لتأخير ذكر إسماعيل مع كونه ابن إبراهيم لصلبه وجوها غير وجهية^(٣) . ويحتمل كون لفظ إسماعيل في الآية معرَّب شموئيل ، وهو النبي الذي نصب طالوت ملكًا لبني إسرائيل ، فعلى هذا لم يذكر إسماعيل بن إبراهيم في الآية ، لكون المقصود في المقام الاحتجاج على المشركين بعلوِّ مقام الأنبياء المذكورين بسبب هدايتهم إلى التوحيد ، وإنعام الله عليهم بكرامة اصولهم وفروعهم واصولهم ، ولم يكن من فروع إسماعيل نبي غيره عليه السلام . قيل : في قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ دلالة على أفضلية الأنبياء على الملائكة^(٤) ؛ لأنَّ المراد من العالمين جميع ما سوى الله تعالى من المخلوقات ، فيدخل فيه الملائكة. وفيه نظر ، وإنَّ كان المدعى مسلمًا عندنا ، بل الظاهر أنَّه من ضروريات الإمامية ، ثمَّ من المعلوم أنَّ المراد من العالمين : هو عالم^(٥) زمانهم لوضوح عدم أفضليتهم على خاتم النبيين عليه السلام .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالكمالات النفسانية والرسالة. وقد استدلل كثير من المفسرين على رجوع ضمير (ومن ذريته) إلى نوح بعدم كون يونس ولوط من ذراري إبراهيم عليه السلام ، وعدم إطلاق الذرية على ولد الصلب ، وقد عدَّ إسماعيل بن إبراهيم من الذرية^(١) . وقيل برجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأنَّ الآيات في بيان رفعة إبراهيم ، وأنَّ يونس كان من الأسباط ، ولا بعد في عدَّ لوط من ذريته تنزيلا لابن أخيه منزلة ابنه ، لكونه في تربيته^(٢) . ويدلُّ عليه استدلال الصادقين عليه السلام بعد عيسى في الآية من ذرية إبراهيم عليه السلام في الروايتين السابقتين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالكمالات النفسانية والرسالة. وقد استدلل كثير من المفسرين على رجوع ضمير (ومن ذريته) إلى نوح بعدم كون يونس ولوط من ذراري إبراهيم عليه السلام ، وعدم إطلاق الذرية على ولد الصلب ، وقد عدَّ إسماعيل بن إبراهيم من الذرية^(١) . وقيل برجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأنَّ الآيات في بيان رفعة إبراهيم ، وأنَّ يونس كان من الأسباط ، ولا بعد في عدَّ لوط من ذريته تنزيلا لابن أخيه منزلة ابنه ، لكونه في تربيته^(٢) . ويدلُّ عليه استدلال الصادقين عليه السلام بعد عيسى في الآية من ذرية إبراهيم عليه السلام في الروايتين السابقتين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالكمالات النفسانية والرسالة. وقد استدلل كثير من المفسرين على رجوع ضمير (ومن ذريته) إلى نوح بعدم كون يونس ولوط من ذراري إبراهيم عليه السلام ، وعدم إطلاق الذرية على ولد الصلب ، وقد عدَّ إسماعيل بن إبراهيم من الذرية^(١) . وقيل برجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأنَّ الآيات في بيان رفعة إبراهيم ، وأنَّ يونس كان من الأسباط ، ولا بعد في عدَّ لوط من ذريته تنزيلا لابن أخيه منزلة ابنه ، لكونه في تربيته^(٢) . ويدلُّ عليه استدلال الصادقين عليه السلام بعد عيسى في الآية من ذرية إبراهيم عليه السلام في الروايتين السابقتين.

(١) و (٢) . تفسير الرازي ١٣ : ٦٤ ، تفسير أبي السعود ٣ : ١٥٧ .

(٣) راجع : تفسير الرازي ١٣ : ٦٤ - ٦٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٦٦ .

(٥) في النسخة : عالمي .

(٦) تفسير الرازي ١٣ : ٦٧ .

قيل : في قوله : ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ دلالة على كون بعض آباء هؤلاء الأنبياء غير مؤمن ^(١) .

أقول : فيه منع لاحتمال كون المراد من هدايتهم : الهداية إلى كمال المعرفة واليقين لا الإيمان ، مع احتمال أن يكون المراد من بعض آبائهم : الأجداد الأبي ^(٢) ، ومن البعض الآخر الأجداد الأمي ^(٣) ، لإمكان كونهم غير مؤمنين .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨)

ثم عظم الله شأن الهداية التي هداهم بها بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الهدى الذي كان للأنبياء المذكورين ، أو لهم ولبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، إلى الحق وحقائق الأشياء ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الكامل وفيضة النام ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ إلى أعلى مراتب الكمالات الإمكانية ودرجات القرب ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته الكاملة ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الطيبين بالفطرة ، الطاهرين من رذائل الأخلاق .

ثم بالغ سبحانه في عظمة ذنب الشرك بقوله : ﴿وَلَوْ﴾ أنّ هؤلاء الأنبياء مع علو مقامهم ، وكمال قربهم ﴿أَشْرَكُوا﴾ بالله شيئا في الألوهية أو العبادة على فرض المحال ، والله ﴿لَحَبِطَ﴾ وذهب ﴿عَنْهُمْ﴾ وبطل ﴿مَا كَانُوا﴾ مدة أعمارهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والحسنات ، فلا يثابون على شيء منها ، فكيف بمن دونهم لو أشرك ! وفيه غاية الترهيب .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا

بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

ثم بالغ سبحانه في عظم شأن هؤلاء الأنبياء الثمانية عشر بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياء المكرمون هم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وفهم حقائقه ودقائقه ﴿و﴾ علمناهم ﴿الْحُكْمَ﴾ والفصل بين الناس بالحق ، أو الحكمة ، ﴿و﴾ أعطيناهم ﴿النُّبُوَّةَ﴾ ومنصب هداية الخلق .

ثم بشر سبحانه بنصرة دينه ، وأعلن بغناه عن إيمان المشركين بالنبوّة ، أو بالثلاثة المذكورة بقوله : ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ المشركون فقد ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ ووقفنا لحفظها ورعاية حقها ﴿قَوْمًا﴾ آخرين ﴿لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ قيل : هم الأنبياء الثمانية عشر ^(٤) ، وقيل : هم الأنصار ^(٥) ، وقيل : هم المهاجرون ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٦٦ .

(٢) كذا ، والظاهر : الأجداد الأبوين .

(٣) كذا ، والظاهر : الأجداد الأميون .

(٤) ٥ و ٦ . تفسير الرازي ١٣ : ٦٨ .

وعن الصادق عليه السلام : « قوما يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويذكرون الله كثيرا » (١) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾

ثم بالغ سبحانه في تحسين طريقة الأنبياء المذكورين بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى﴾ هم ﴿اللَّهُ﴾ إلى
كلِّ حقٍّ وخير ، ووفقهم لسلوك الطريق المستقيم ﴿فَبِهِدَاهُمُ﴾ وطريقتهم في المعارف والأخلاق الحسنة
﴿اقْتَدِهْ﴾ واتبع.

في أفضلية خاتم النبيين ﷺ على جميع الأنبياء

قيل : فيه دلالة على أفضليته ﷺ من جميع الأنبياء ؛ لأنَّ خصال الكمال وصفات الشرف كانت
متفرقة فيهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أهل الصبر على البلية ،
، ويوسف كان جامعاً بينهما ، وموسى كان صاحب المعجزات القاهرة والتواضع والوقار ، وزكريّا كان كثير
الذكر ، ويحيى كان كثير الخوف والبكاء ، وعيسى كان كثير الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق .
وبالجملة قد غلب على كلِّ منهم خصلة معينة ، فجمع الله في حبيبه ﷺ جميع خصالهم بأمره بالافتداء
بهم ، ومعلوم أنّه لم يقصّر في الامتثال (٢) .

ثم لما كان من أخلاق الأنبياء عدم الطمع في أموال الناس ، وترك سؤال الأجر على تبليغ الرسالة ،
أمره سبحانه بإعلام الناس بعدم طمعه في الأجر على تبليغ المعارف والأحكام التي جميعها في القرآن بقوله :
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أطلب منكم على تبليغ القرآن جعلاً ، كما لم يسأله الأنبياء من قبلي
على تبليغ الكتب السماوية.

ثم نبّه على علة عدم سؤال الأجر على تبليغ كتابه بقوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي﴾ وعظّة من الله
﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ والخلق أجمعين من الإنس والجنّ ، والعرب والعجم ، والأبيض والأسود ، ولا ينبغي سؤال
الأجر على الموعظة والتذكير ، لوجوب كون غرض المذكر الآخرة ، وفيه دلالة على عموم رسالته ، وعدم
اختصاصها بقوم دون قوم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَبْذُوثَهَا

(١) المحاسن : ٥٨٨ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٧٠ ، تفسير روح البيان ٣ : ٦٢ .

وَتُخَفُّونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي

خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

ثم لما أمر الله نبيه ﷺ بترك سؤال الأجر على تبليغ القرآن ، وأخبر بأنه نزل من الله تذكرة لجميع الناس ، وكان المشركون وأهل الكتاب منكرين لرسالاته وكتابه ، قائلين له : ما نزل الله عليك كتابا ودينا ، ردّهم الله تعالى بقوله : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عرفوه حق معرفته.

في وجوب ارسال الرسول وانزال الكتاب على الله تعالى عقلا

وعن ابن عباس : ما عظموه حق تعظيمه ^(١) ، حيث إنهم طعنوا في حكمته ولطفه ، وحسبوه لاعبا عابثا بخلقه العالم ﴿إِذْ قَالُوا﴾ إنكارا لرسالتك وكتابك ، وكفرانا لأعظم نعمائه عليهم : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الوحي والكتاب ، مع وضوح أنه مناف لحكمته البالغة وتنزهه من العبث ، فإنه لا حكمة في خلق العالم إلا تكميل النفوس البشرية ، وفعلية استعداداتهم للفيوضات الأبدية بسبب كمال معرفتهم ، وصلاح أخلاقهم ، وحسن أعمالهم ، وذلك لا يتم إلا ببعث الرسول ، وإنزال الكتاب ، وجعل القوانين والأحكام والثواب والعقاب والوعظ والتذكير ، فالاعتراف بحكمته تعالى ملازم للاعتراف بجميع ذلك.

روي أن مالك بن الصّيف من أحبار اليهود ورؤسائهم ، خرج مع نفر إلى مكة معاندين ، ليسألوا رسول الله ﷺ « عن أشياء ، وكان رجلا سمينا ، فأتى رسول الله ﷺ بمكة فقال [له] ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التّوراة على موسى ، هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السّمين ؟ » قال : نعم. قال : « فأنت الحبر السّمين ، وقد سمعت من مكأكلتك ^(٢) التي تطعمك اليهود ولست تصوم » ^(٣) . فضحك القوم ، فحجل مالك بن الصّيف ، فقال ^(٤) : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فلمّا رجع مالك إلى قومه قالوا له : [ويلك ، ما هذا الذي بلغنا عنك ، أليس أن الله أنزل التّوراة على موسى ، فلم قلت ما قلت ؟ قال : أغضبني محمد ، فقلت ذلك ، قالوا له :] وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق وتترك دينك ، فأخذوا الرئاسة والحريّة منه. وجعلوهما إلى كعب بن الأشرف. فنزلت هذه الآية ^(٥) .

وأمر الله نبيه ﷺ بتبكيّتهم ونقض قولهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿مَنْ أَنْزَلَ﴾ من السّماء ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ حال كون ذلك الكتاب ﴿نُورًا﴾ وظاهرا بنفسه ، أو مظهرها لما خفي من العلوم والمعارف ﴿وَهْدًى﴾ ورشادا ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى طريق الفلاح ومقام القرب من الله ، أو إلى

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٧٢ .

(٢) المأكلة : ما يؤكل ، والطّعمة والمرترق .

(٣) زاد في تفسير روح البيان : أي تمسك .

(٤) زاد في تفسير روح البيان : غضبا .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٦٣ .

نبوة محمد ﷺ وصدق كتابه.

ثم أنتم أيها اليهود مع عظم شأن هذا الكتاب ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ في ﴿قَرَاتِيسٍ﴾ وتكتبونه في أوراق متفرقة ، لكي تستدلوا بالأوراق التي ﴿تُبْدُونَهَا﴾ وتظهرون للعوام ما تريدون إظهاره منها ﴿وَتُخْفُونَ﴾ منهم ﴿كثيراً﴾ من تلك الأوراق مما فيه [من] نعت محمد وكتابه ، وصفات أصحابه ، وبعض الأحكام الذي تحبون إخفاءه ^(١) كحكم رجم المحسن وحكم القصاص ، وغيرهما ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ بسبب تفسير محمد ﷺ آيات ذلك الكتاب ، من العلوم ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من قبل.

قيل : إن اليهود كانوا يقرأون الآيات المبشرة بمقدم النبي ﷺ وبعثته ، وما كانوا يفهمون المراد منها ، فلما بعث ﷺ فسرها لهم ^(٢) .

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالمبادرة إلى الجواب عن السؤال عن منزل كتاب التوراة بقوله : ﴿قُلْ﴾ أنزله ﴿الله﴾ تنبيها على غاية وضوحه بحيث لا شبهة لأحد فيه ، وتعيينه بحيث لا يمكن غيره ، أو على بهتهم بحيث لا يقدر على.

ثم هددهم سبحانه بعد إصرارهم على الكفر وعدم ارتداعهم عنه بالحجج القاهرة بقوله : ﴿ثُمَّ دَرَسْتُمْ﴾ ودعهم ﴿فِي خُوضِهِمْ﴾ وباطلهم - عن القمي : [يعني] في ما خاضوا فيه من التكذيب ^(٣) - ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فإنه ليس عليك إلا التبليغ ، وإقامة الحجج ، وإثباتنا حسابهم وعقابهم.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

ثم أنه تعالى بعد بيان فساد قولهم : ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أعلن بنزول القرآن من عنده تعالى بقوله : ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن ، فيه دلائل على أننا ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بالوحي وبوساطة جبرئيل ، وتوليننا تركيب ألفاظه وعباراته ، بلا دخل بشر فيه ، منها أنه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير خيره ، دائم نفعه.

وقد مر في بعض الطرائف أنه ما من علم إلا وأصله فيه ، وأن لتلاوته آثارا دنيوية وأخرية ^(٤) .

قيل : إنه مبارك على العوام بأن يدعوهم إلى رحمهم ، وعلى الخواص بأن يهديهم إليه ، وعلى خواص الخواص بأن يوصلهم إليه ، ويخلقهم بأخلاقه ^(٥) .

ومنها أنه ﴿مُصَدِّقٌ﴾ وموافق للكتاب ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل في العلوم

(١) كذا ، والظاهر : التي تحبون إخفاءها.

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٧٩ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٨ .

(٤) راجع : الطرفة (٢٧) و(٣٠) من المقدمة.

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٦٤ .

والمعارف ، مع امية من جاء به ، أو أنه نازل حسب ما وصف في الكتب ، وكان إنزاله ليتبرك الناس به ﴿وَلْتُنْذِرْ﴾ به يا محمد من يسكن ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ﴾ يكون ﴿حَوْلَهَا﴾ وأطرافها من أهل الشرق والغرب .
عن ابن عباس رضي الله عنه : سميت مكة بأم القرى ؛ لأن الأرض دحيت من تحتها ^(١) .

وقيل : لأنها قبله أهل الدنيا ^(٢) ومحجهم ، فصارت كالأصل ، وسائر البلاد والقرى تابعة لها ،
ويجتمع الخلق إليها كما يجتمع الأولاد إلى الأم ، أو لأن الكعبة أول بيت وضع للناس ، أو لأن بكّة أول
بلدة سكنت .

قيل : احتجّت طائفة من اليهود بقوله : ﴿وَلْتُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ على أنه ﷺ كان
رسولا إلى العرب ^(٣) . وفيه ما لا يخفى من الوهن .

ثم نبّه سبحانه بأنّ عدم الإيمان بالقرآن لا يكون إلّا للعناد ، بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾
ويخافون عذاب الله ، وطهرت قلوبهم من حبّ الدنيا وذنس العصبية والعناد ، كثير من الأخبار والزهبان ،
بمجرد سماع القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بلا حاجة إلى دلالة أمر خارج على صدقه ؛ لأنّ خوف الآخرة يحملهم
على التّظر والتّدبر فيه ، فيظهر لهم ما يصدّقه من كونه بجهة الفصاحة والبلاغة في أعلى درجة الإعجاز ،
وكونه مشتملا على الأخبار الغيبية ، وكونه موافقا للكتب السماوية في العلوم والمعارف ، مع كون من جاء
به اميا ، إلى غير ذلك من شواهد صدقه .

ثم بين سبحانه أنّ خوف الآخرة كما يحمل على الإيمان بمحمد ﷺ وكتابه ، يحمل على العبادات
التي أهمّها وأفضلها الصلوات الخمس ، بقوله : ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ الخمس بعد الإيمان بمحمد ﷺ
وكتابه ﴿يُحَافِظُونَ﴾ ويدومون .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا
كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣)

ثم لما كان العلم بقباحة أمر من أقوى الروادع عن ارتكابه ، أكّد صدق القرآن بأنّ الافتراء على الله
في دعوى الرسالة ونسبة القرآن إليه ، من أشنع الظلم ، بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه وأقبح قولاً

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٣ : ٨١ .

﴿مِمَّنْ افْتَرَى﴾ واحتلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بادعاء أنّ القرآن منه مع عدم كونه منه ﴿أَوْ قَالَ أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾ من قبله دين وشرع ﴿وَوُحِّدَ الْحَالَ أَنَّهُ﴾ **﴿لَمْ يُوْحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾** من الدين **﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ﴾** وأخترع من نفسي كتابا **﴿مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** من الكتاب.

قيل : إنّ الفقرة الأولى في مسيلمة الكذاب - صاحب اليمامة ، فإنّه كان يقول : محمّد رسول قریش ، وأنا رسول بني حنيفة - والأسود العنسي ^(١) .

والثانية في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، روي أنّه كان يكتب الوحي ، فلمّا نزل قوله : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾** إلى قوله **﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾** ^(٢) وأمله الرسول ﷺ عليه ، عجب عبد الله منه فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال الرسول ﷺ : « هكذا نزلت الآية » فسكت عبد الله ، وقال : إن كان محمّد صادقا ، فقد أوحى إليّ مثله ، وإن كان كاذبا فقد عارضته ^(٣) .
والثالثة في التضر بن الحارث ، فإنّه قال : لو نشاء لقلنا مثل هذا ^(٤) .

في (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام : « أنّها نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر ، وهو ممّن كان رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة هدر دمه ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ ، فإذا أنزل الله عزّ وجلّ **﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** كتب : **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** ، فيقول له رسول الله ﷺ : « دعها ، فإنّ الله عليم حكيم » وكان ابن أبي سرح يقول للمنافقين : إيّ لأقول من نفسي مثل ما يجيء به فما يغيّر عليّ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه الذي أنزل ^(٥) .

في ارتداد عبد الله بن أبي سرح

وعن القمّي رحمه الله : عن الصادق عليه السلام قال : « إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان [بن عفان] من الرضاعة أسلم وقدم المدينة ، وكان له خطّ حسن ، وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ دعاه فكتب ما يمليه عليه رسول الله ﷺ [من الوحي] ، فكان إذا قال رسول الله ﷺ . **﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** يكتب : سميع عليم ، وإذا قال : **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** يكتب : بصير ، ويفرق بين التاء والياء ، وكان رسول الله ﷺ يقول : هو واحد ، فارتدّ كافرا ورجع إلى مكّة وقال لقریش : والله ما يدري محمّد ما يقول ، أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ ذلك ، فأنا أنزل مثل ما أنزل [الله] ، فأنزل الله على نبيّه ﷺ في ذلك : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أَوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٨٣ .

(٢) المؤمنون : ٢٣ / ١٢ - ١٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٨٤ ، أسباب النزول للواحدي : ١٢٥ ، مجمع البيان ٤ : ٥١٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٨٤ .

(٥) الكافي ٨ : ٢٠٠ / ٢٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٩ .

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله ، فجاء به عثمان ، قد أخذ بيده ورسول الله ﷺ في المسجد ، فقال : يا رسول الله اعف عنه ، فسكت رسول الله ﷺ ، ثم أعاد ، فسكت [رسول الله ﷺ] ، ثم أعاد ، فقال : هو لك ، فلما مرّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ألم أقل من رآه فليقتله . فقال رجل : كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله ، فقال رسول الله ﷺ : إنّ الأنبياء لا يقتلون بالإشارة ، فكان من الطلقاء » (١) .

وعن العياشي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام في تأويله : « من ادّعى الإمامة دون الإمام » (٢) .
ثم هدد الله تعالى الفرق الثلاث بسوء حالهم عند الموت بقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ من الفرق الثلاث وغيرهم من الكفار خائضون ﴿ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ وسكراته وشدائده ، لرأيت أمرا هائلا ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الموكلون بقبض الأرواح ﴿ بِأَسْطُورًا ﴾ وما دّوا ﴿ أَيْدِيهِمْ ﴾ لقبض أرواحهم - كالغريم الملح الذي ييسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه في المطالبة ، ولا يمهله - قائلين لهم تغليظا وتعنيفا : ﴿ أَخْرِجُوا ﴾ إلينا ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وأرواحكم من أجسادكم .

وقيل : إنّ المراد من الملائكة : ملائكة العذاب وهم باسطو أيديهم لتعذيبهم (٣) ، يقولون : أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلّصوها من العذاب إن قدرتم .
﴿ الْيَوْمَ ﴾ وفي هذه الساعة ، أو في الزمان الممتدّ بعد الموت ﴿ تُجَزَّوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ وتعاقبون عقابا متضمّنا لغاية الدّل والتحقير .

عن الباقر عليه السلام : « العطش يوم القيامة » (٤) .
﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ تَقُولُونَ ﴾ وتفترون ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ قولا ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ من اتّخذه الولد ، أو كون الشريك له في الملك ، أو ادّعاء النبوة والوحي ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ تعرضون ﴿ عَنْ آيَاتِهِ ﴾ القرآنية ، وبراهين توحيده ، و ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإقرار بها والتسليم لها .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَصَلََّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

ثم لما كان المشركون يفتخرون بالمال والأولاد والعشيرة ، حكى سبحانه مخاطبته إياهم يوم القيامة

(١) تفسير القمي ١ : ٢١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٣٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٠٩ / ١٤٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٨٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١١٠ / ١٤٥٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٠ .

ترهيبا لهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ من الدُّنيا ﴿فَرَادَى﴾ ومنقطعين عن الأموال والأولاد والعشيرة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وعلى الهيئة التي ولدتم عليها في الدنيا.

عن النبي ﷺ : « أَهْمُ يَحْشُرُونَ عِرَاءَ حِفَاةٍ غَرَلَا » ^(١) ، قالت عائشة : وا سؤأتاه ! الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كذلك ، فقال ﷺ : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ^(٢) .

وعنه ﷺ أنه قرأ على فاطمة بنت أسد هذه الآية ، فقالت : وما فرادى ؟ فقال : « عِراء » ، قالت : وا سؤأتاه ، فسأل الله أن لا ييدي عورتها ، وأن يحشرها بأكفائها ^(٣) . وعن الصادق ﷺ : « تَنَوَّقُوا فِي الْأَكْفَانِ ، فَإِنَّكُمْ تَبْعَثُونَ بِهَا » ^(٤) .

ثم وَجَّههم على عدم تقديم شيء منها إلى الآخرة بصرفه في سبيل الله بقوله : ﴿وَتَرَكْتُمْ﴾ وخَلَفْتُمْ ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ وتفضلنا عليكم بما كنتم تفتخرون به ، وتؤثرونه على الآخرة من الحطام ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وفي الدنيا التي انتقلتم منها إلى هذه الدار ، وما قدَّمتم منه إليها شيئا ، وما حملتم معكم منه نقيرا ، وحرمتهم أنفسهم من الانتفاع به .

ثم وَجَّههم على عبادة الأوثان بزعم أنهم شفعاءهم بقوله : ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ﴾ اليوم ﴿شُفَعَاءَكُمْ﴾ من الأصنام ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ مضافا إلى الرجاء بشفاعتهم ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ وفي خلقكم وعبادتكم ﴿شُرَكَاءُ﴾ لله ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ﴾ الوصل الذي كان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ، وانفصم حبل مودَّتكم ، وتشَّتت جمعكم ، ﴿وَوَصَلَ﴾ وضع ﴿عَنْكُمْ﴾ اليوم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ وتتوهمون من شفاعتهم ونفعهم .

عن الصادق ﷺ : « نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مُعَاوِيَةَ وَبَنِي أُمَيَّةٍ وَشُرَكَائِهِمْ وَأَتَمَّتْهُمْ » ^(٥) ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني المودة » .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾
ذَلِكُمُ اللَّهُ فَاَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)

ثم أَنَّهُ تعالى بعد بيان التَّوْحِيدِ وَجْهَةً من دلائله ، وإثبات النَّبُوَّةِ وصدق القرآن تبعا واستطرادا ، عاد إلى إقامة البرهان على وجود الصَّانِعِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ ، ووحدانيته تنبيها على أَنَّهُ المقصود الأهم في

(١) غرلا : جمع أغرل ، وهو الذي لم يختن .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٢١ ، تفسير روح البيان ٣ : ٦٩ ، والآية من سورة عبس : ٨٠ / ٣٧ .

(٣) الخرائج والجرائح ١ : ٩١ / ١٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٠ .

(٤) الكافي ٣ : ١٤٩ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٠ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢١١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

السُّور المباركة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ كالحنطة والشَّعِير وغيرهما وخالقه ﴿وَوَالِقُ﴾ فالق ﴿التَّوَى﴾ التي تكون في جوف الثَّمَرَات كالتَّمَر والمشمش وأمثالهما ، وخالقها ، كما عن ابن عبَّاس رضى الله عنه ^(١) . أو شاقَّهما بالنباتات والأشجار ، كما عن أكثر المفسِّرين ^(٢) . فإنَّ الحَبَّ والنَّوَة إذا وقعتا في الأرض الرُّطبة ، ومَرَّت بهما مدَّة ، يشقَّهما ^(٣) الله تعالى شقَّتَيْن : إحداهما في أعلاهما ، والاخرى في أسفلهما .

ثمَّ ﴿يُخْرِجُ﴾ النَّبَات أو الشَّجَر ﴿الْحَيَّ﴾ بالروح النَّبَاتِي ، والقوَّة النَّامية من الشَّقِّ الأعلى ﴿مِنْ﴾ الحَبِّ والتَّوَى ﴿الْمَيَّتَ﴾ لعدم تلك الرُّوح فيهما ، والعرق الحَيَّ بالروح النَّبَاتِي من الشَّقِّ الأسفل منهما ، ﴿وَوَالِقُ﴾ هو تعالى ﴿مُخْرِجُ﴾ الحَبِّ أو التَّوَى ﴿الْمَيَّتَ مِنْ﴾ النَّبَات أو الشَّجَر ﴿الْحَيَّ﴾ .

وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، في حديث الطَّيْنَةِ : « تأويل الحَبِّ بطينة المؤمنين [التي] ألقى الله تعالى عليها محبَّته ، وتأويل التَّوَى بطينة الكافرين الذين نأوا عن كلِّ خير » قال : « وإمَّا سَمِّي التَّوَى من أجل أنه نأى عن كلِّ خير وتباعد منه » ^(٤) .

وعن القمِّي عليه السلام قال : « الحَبِّ ما أحبَّه ، والتَّوَى ما نأى عن الحقِّ » .

وقال أيضا : « فالق الحَبِّ أي يفلق العلم من الأئمة ، والتَّوَى ما بعد عنه » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام ، في حديث الطَّيْنَةِ ^(٦) : فقال الله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فالحيَّ : المؤمن الذي تخرج طينته من طينة الكافر ، والميِّت الذي يخرج من الحيَّ هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن ^(٧) .

وعن ابن عبَّاس رضى الله عنه ، قال : يخرج المؤمن من الكافر ، ومخرج الكافر من المؤمن ^(٨) .

وعنه رضى الله عنه ، في رواية اخرى : أنَّ المراد من إخراج الحيَّ من الميِّت إخراج الحيوان من النَّطفة أو البيضة ، ومن إخراج الميِّت من الحيَّ إخراج النَّطفة أو البيضة من الحيوان ^(٩) .

قيل : لما كان الاعتناء بإخراج الحيَّ من الميِّت أكثر من إخراج الميِّت من الحيَّ ، أتى سبحانه في بيان الأوَّل بالجملة الفعلية للدلالة على اعتناء الفاعل بفعله ^(١٠) ، وفي بيان الثَّاني بالجملة الاسمية غير الدَّالة عليه ^(١١) .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٨٩ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٢٣ ، عن الحسن وقتادة والسَّدي .

(٣) في النسخة : يشق .

(٤) الكافي ٢ : ٤ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢١١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

(٦) في النسخة : الغيبة .

(٧) الكافي ٢ : ٤ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

(٨) تفسير الرازي ١٣ : ٩٢ ، تفسير روح البيان ٣ : ٧٠ .

(٩) تفسير الرازي ١٣ : ٩٢ .

(١٠) تفسير الرازي ١٣ : ٩٣ .

(١١) تفسير الرازي ١٣ : ٩٣ .

ثمّ لما أثبت سبحانه كمال قدرته وحكمته ، خصّ استحقاق العبادة بذاته المقدّسة بقوله : ﴿ذَلِكُمْ﴾ القادر المدبّر الحكيم ﴿الله﴾ المستحقّ للعبادة دون غيره ﴿فَأَنِّي تُوفِّكُونُ﴾ وكيف تصرفون عنه إلى غيره ، وتتركون عبادته ، وتشتغلون بعبادة خلقه ؟ !
وقيل : إنّ المراد : لما أنّه تعالى يخرج الحيّ من الميت ، والميت من الحيّ ، كيف تنكرون المعاد والإحياء بعد الموت ^(١) ؟

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٦) و (٩٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال على توحيده بقلقه الحبّ والنوى ، وعجيب تصرّفه في الأرضيات ، استدلّ بما هو أعجب منه ، من ظهور كمال قدرته بتصرّفه في الفلكيات ، وقلقه الفجر ، بقوله : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ وخالق عمود الفجر ، أو شاقّ ظلمة الليل بنور الصّبح ، أو شاقّ الصّبح ببياض النّهار ﴿وَجَعَلَ﴾ بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿اللَّيْلَ﴾ لأن يكون للناس وعامة الحيوانات ﴿سَكَنًا﴾ وزمان وقوف عن الحركة ، أو وقت راحة لاحتياجهم إلى الراحة والسكون.
في (نهج البلاغة) : « ولا تسرّ أوّل الليل فإنّ الله جعله سكنا ، وقدره مقاما لا ظعنا ، فأرح فيه بدنك وروح ظهرك » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « تزوّج بالليل ، فإنّ الله جعله سكنا » ^(٣) .
وفي (الكافي) : كان عليّ بن الحسين عليه السلام يأمر غلمانهم أن لا يذبحوا حتّى يطلع الفجر ، ويقول : « إنّ الله جعل الليل سكنا لكلّ شيء » ^(٤) .

﴿وَوَجَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على أدوار مختلفة ليكونا ﴿حُسْبَانًا﴾ ومقدارا للأوقات ، فإنّه تعالى قدر حركة الشّمس والقمر بمقدار من السرعة والبطء لا يتجاوزانه إلى أقصى منازلهما ، فتتمّ الشّمس جميع البروج الاثني عشر في ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم ، ويتمّ القمر في ثمانية وعشرين يوما ، وبهذا التقدير تنتظم مصالح العالم المتعلّقة بالفصول الأربعة من نضج الثّمار وامور الحرث والنسل ، ونحو ذلك ممّا يتوقّف عليه النظام ﴿ذَلِكَ﴾ التقدير والتّسيير بالحساب المعين

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٩٤ .

(٢) نهج البلاغة : ٣٧٢ الرسالة ١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

(٣) الكافي ٥ : ٣٦٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤١ .

(٤) الكافي ٦ : ٢٣٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

﴿تَقْدِيرُ﴾ المدير ﴿الْعَزِيزُ﴾ المقتدر الذي قهرهما بإرادته ﴿الْعَلِيمُ﴾ بتدبيرهما وتنظيم أمور خلقه .
﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأنشأ بقدرته ﴿لَكُمْ﴾ ولأجل انتفاعكم ﴿النُّجُومُ﴾ المختلفة في
المواضع المتفرقة من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب ﴿لَتَهْتَدُوا﴾ وتعرفوا ﴿بِهَا﴾ الطَّرَقَ إلى البلاد ﴿فِي﴾
﴿ظُلُمَاتٍ﴾ اللَّيَالِي فِي ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والمفاوز واللَّجَجِ . وفي تخصيص هذه المنفعة بالذكر بعد ذكر منافعها
إجمالاً إشعار بعظمة نعمة الاهتداء .

وعن القمي رحمه الله : « التَّحُومُ آل مُحَمَّد » (١) .

ثم من سبحانه على النَّاس بتعليمهم دلائل توحيده بقوله : ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرحنا ﴿الآيَاتِ﴾
والحجج البينات على التَّوْحِيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويتدبرون الآيات ، ويستدلُّون بالمحسوسات على المعقولات
، وينتقلون من المشهودات إلى المغيبات ، فإنَّهم المنتفعون بها .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ﴾
﴿يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨)

ثم استدَلَّ سبحانه على توحيده وكمال قدرته وحكمته بخلق الإنسان واختلاف حالاته بقوله :
﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ وأوجدكم مع كثرتكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي أبوكم آدم ، فإنَّ حواء
خلقت من ضلعه ، وعيسى وإن كان خلق من نفخ روح القدس إلَّا أنَّه من قبل أمه مريم ينتهي إليه وجوده ،
فالكل منتَهون إلى أب واحد ، وذلك مع دلالة على كمال القدرة مئة عظيمة ، لكونه سبباً للآلة .
ثم ذكر سبحانه اختلاف حالاتهم بقوله : ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وثبات مستمر لكم في الأصلاب ، أو في
الأرحام ، أو فوق الأرض ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وثبات غير مستمر في الأصلاب ، أو في الرِّحْم ، أو في القبور .
وإنَّما عبَّر عنه بالاستيداع تشبيهاً له بالوديعة عند الودعي في سرعة الزَّوال ، أو في كون الثَّبوت في الرِّحْم ، أو
في القبور من قبل الأب ، أو من سائر النَّاس .

وقيل : إنَّ المراد من المستقرَّ والمستودع مكان الاستقرار والاستيداع (٢) .

عن الباقر عليه السلام أنَّه قال لأبي بصير حين سأله عن هذه الآية : « ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه
؟ » ، قال : [قلت :] يقولون مستقرَّ في الرِّحْم ، ومستودع في الصَّلب ، فقال : « كذبوا ، المستقرَّ من
استقرَّ الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً ، والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثمَّ يسلبه ، وقد كان الزَّبير

(١) تفسير القمي ١ : ٢١١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ١٠٣ .

منهم» (١).

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها فقال : « مستقرّ في الرّحم ، ومستودع في الصّلب ، وقد يكون مستودع الإيمان ثمّ ينزع منه ، ولقد مشى الزّبير في ضوء الإيمان ونوره حين قبض رسول الله ﷺ حتّى مشى بالسّيف وهو يقول : لا نبايع إلّا عليّاً » (٢) .

وفي رواية قال : « المستقرّ الثّابت ، والمستودع المعار » (٣) .

وعن الكاظم عليه السلام ، في هذه الآية : « ما كان من الإيمان المستقرّ فمستقرّ إلى يوم القيامة وأبدا ، وما كان مستودعا سلبه الله قبل الممات » (٤) .

وفي (الكافي) : عنه عليه السلام : « أنّ الله خلق التّبيين على التّبوّة فلا يكونون إلّا أنبياء ، وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلّا مؤمنين ، وأعار قوما إيماننا ، فإن شاء تمّمه لهم ، وإن شاء سلبهم إيّاه » قال : « وفيهم جرت ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾

وقال : « إنّ فلانا كان مستودعا إيمانه ، فلمّا كذّب علينا سلب إيمانه ذلك » (٥) .

وقيل : إنّ المستقرّ حال الإنسان بعد الموت ، فإنّ السّعادة والشّقاوة تبقى بعد الموت أبدا ، والمستودع حاله قبل الموت ، فإنّه يتبدّل ، فقد يكون الكافر مؤمنا ، والمؤمن قد يكون زنديقا ، فلكون حالاته في شرف الزّوال شبّهت بالوديعه .

وعلى أيّ تقدير ، فإنّ اختلاف الحالات مع اشتراك جميع أفراد الإنسان في الجسميّة ولوازمها ، دالّ على أنّه بإرادة القادر المختار الحكيم (٦) .

ثمّ أظهر سبحانه على النّاس بتوضيح دلائل توحيده بقوله : ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرحنا ﴿الآيات﴾ وأدلة التّوحيد ﴿لَقَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون دقائق الأمور . وإنّما ذكر في الآية السّابقة ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذه الآية ﴿لَقَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ لأنّ دلالة النّجوم ومنافعها على قدرته تعالى وحكمته أوضح من دلالة إيجاد نفوس كثيرة من نفس واحدة واختلاف حالاتها ، فإنّها محتاجة إلى التّأمّل والدقّة .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

(١) تفسير العياشي ٢ : ١١١ / ١٤٦٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١١١ / ١٤٦٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١١٣ / ١٤٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١١١ / ١٤٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٢ .

(٥) الكافي ٢ : ٣٠٦ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٣ : ١٠٣ .

خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَيَنْعِهِ إِنِّي فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

ثم استدل سبحانه على توحيده وقدرته بإنزال الأمطار ، وإنبات الزروع والأشجار من الحب والتوى ، وإخراج الحبوب والأثمار واختلاف حالاتها ، بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ بقدرته ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المعروف ^(١) ، أو من جهة العلو بالأمطار ﴿مَاءً﴾ مباركا .

ثم بين سبحانه أعظم فوائد الإنزال بتلوين الخطاب إعظاما لنفسه بقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ من الأرض ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزرع والشجر وغيرهما مما له نبات .

ثم لما أشار في قوله : ﴿فَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى﴾ ^(٢) إلى ما ينبت من الحب وهو الزرع ، وإلى ما ينبت من التوى وهو الشجر ، ذكر القسمين المذكورين وبدأ بذكر ما يخرج من نبات الزرع بقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ نباتا غصنا ﴿خَضِرًا﴾ متشعبا من أصل النبات الخارج من الحب ، ثم ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ منصّدا بعضه فوق بعض كسنبل الحنطة والشعير وأمثالهما .

ثم ذكر الشجر وما يخرج منه ، وبدأ بذكر النخل لكونها أعظم نفعا بقوله : ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ لا من جميعها ، بل ﴿مِنَ﴾ خصوص ﴿طَلْعِهَا﴾ وهو شيء يخرج منها كأنه نعلان مطبقان ، يخرج ﴿قِنْوَانٌ﴾ وأعذاق شبه عناقيد العنب ، يخرج منها التمر ﴿دَانِيَةً﴾ ملتقة متقاربة ، أو بعضها قريبة من المجتنى ، سهلة المجتنى ، وبعضها بعيدة لم تذكر اختصارا .

ثم ذكر أنفع الأشجار بعد النخل بقوله : ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ مختلفة بالصنف ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ أخرجنا من الأرض بذلك الماء الواحد بالطبع ، حال كون كل من الأنواع الثلاثة ﴿مُشْتَبِهًا وَ﴾ متماثلا في الأوراق ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الثمر طعما وشكلا ، فإن بعضه حلو وبعضه حامض ، وبعضه حلو حامض .

وقيل : إن بعض الثمرات متشابهة في الهيئة واللون والطعم ، وبعضها غير متشابهة ^(٣) .

﴿انظُرُوا﴾ أيها الناس بنظر الاعتبار إلى كل شجر ، و﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ الحاصل منه ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وحين أظهر أكله ، كيف يكون صغيرا ضعيفا لا ينتفع به ﴿وَ﴾ إلى ﴿يَنْعِهِ﴾ ونضجه ، أو حال نضجه ، كيف يصير كبيرا لذيذا نافعا مع كونه من أرض واحدة وماء واحد ! ﴿إِنِّي فِي ذَلِكُمْ﴾ الأثمار والأحوال

(١) لفظ السماء مؤنث ، وقد يذكر .

(٢) الأنعام : ٩٥ / ٦ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ١٤٣ .

المختلفة لها ، والله ﴿لَا يَاتِ﴾ عظيمة ، ودلالات واضحة على وجود الصّانع القادر الحكيم ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبوحدانيته ، أو للذين يطلبون الإيمان بالله ، فإنّهم المنتفعون بالاعتبار والاستدلال بها.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠٠) و (١٠١).

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال مذهب عبدة الأصنام من المشركين بالبراهين المتقنة ، وبّخ عبدة الملائكة منهم بقوله : ﴿وَجَعَلُوا﴾ في اعتقادهم ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القادر الحكيم بعد وضوح وحدانيته ﴿شُرَكَاءَ﴾ وأنّاداً ، أعني بهم ﴿الْجِنَّ﴾ وإنّما سمّي الملائكة بالجنّ ؛ لسترهم عن الأنظار ، وتحقيرهم [بالنسبة إلى مقام الالهية]^(١) ، ﴿و﴾ الحال أنّه تعالى ﴿خَلَقَهُمْ﴾ بقدرته الكاملة ، ولا يكون المخلوق شريكاً لخالقه.

وقيل : إنّ المراد بالجنّ الشياطين الذين دعواهم إلى عبادة الأصنام^(٢) .

وقيل : إنّ المراد أهرمن^(٣) وجنده من الأبالسة^(٤) .

عن ابن عباس رضي الله عنه : نزلت الآية في الزنادقة الذين قالوا : إنّ الله وإبليس أخوان ؛ فالله خالق النّاس والدواب الأنعام والخيرات ، وإبليس خالق السّباع والحيتات والعقارب والشّور^(٥) .

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين القائلين بأنّ له الولد بقوله : ﴿وَخَرَقُوا﴾ واختلقوا ﴿لَهُ﴾ بموى أنفسهم ﴿بَنِينَ﴾ كاليهود القائلين بأنّ عزير ابن الله ، والتّصارى القائلين بأنّ المسيح ابن الله ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كمشركي العرب القائلين بأنّ الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لهم بعظمة الله وشناعة هذا الزّعم لوضوح امتناع الولادة من واجب الوجود.

ثمّ نزه ذاته المقدّسة عن كلّ ما لا يليق به من الشّريك والولد وغيرها بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ربّهم وينسبون إليه من النّد والولد وسائر النّقائص.

ثمّ شرع سبحانه في إقامة البراهين على بطلان القول بأنّ خاذه الولد بقوله : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وموجدهما بلا سبق مثال واستعانة بشيء هو الله ، فإذا كان كذلك فهو غنيّ عن الولد.

ثمّ من البديهيّات أنّ الولادة لا يمكن بدون الرّوجة والصّاحبة ، فإذا ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وكيف

(١) الزيادة من تفسير أبي السعود ٣ : ١٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ١١٥ .

(٣) وهو إله الشّر عند المجوس .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ١١٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٣ : ١١٣ .

بوجد له نسل ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ﴾ تعالى ﴿صَاحِبَةً﴾ يلقي في رحمها نطفة ؟ !
ثم أشار إلى البرهان الثالث بقوله : ﴿وَخَلَقَ﴾ سبحانه ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يرى وما لا يرى ،
والمخلوق يمتنع أن يكون ولدا لخالقه.

ثم أشار إلى البرهان الرابع بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يمكن وجوده وما لا يمكن
﴿عَلِيمٌ﴾ أزلا وأبدا بحيث لا تخفى عليه خافية ، فإذا علم أن لا كمال له ولا نفع في اتخاذه الولد يمتنع عليه
اتخاذه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيْلٌ﴾ (١٠٢)

ثم بعد إبطال دعوى الشُّرك بوجوهه المختلفة ، صرح سبحانه بتوحيده في جميع الجهات بقوله :
﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ المتَّصف بالصفات الجلالية والجمالية هو ﴿اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾
ومدير أموركم دون غيره ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا معبود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لعدم إمكان التعدد لواجب الوجود ،
وهو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ، لا خالق غيره في عرضه ، لا امتناع تعدد الخالق ؛ لأنه إن أراد أحد
الخالقين مثلا خلق شيء وأراد الآخر تكافئا ، يحصل التمانع والتعطيل في الوجود ، وإن لم يرد أحدهما
إيجاد شيء لزم التعطيل في واجب الوجود ، وهو نقص لا يليق به ، وإن أراد ولم يقدر على مزاحمة الآخر ،
لزم عجزه من إنفاذ إرادته ، وهو أيضا نقص لا يليق بالواجب.
فإذا ثبت تفرده في خلق العالم ، وتربية الموجودات ، واستحقاق العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أيها الناس ولا
تعبدوا غيره.

ثم قرّر تفرده تعالى بتدبير الأمور وإنجاح حوائج الناس ، لصرف قلوبهم إلى نفسه ، وقطع تعلّقها
بالأسباب بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى مع كمال جوده ورأفته ، وسعة قدرته وحكمته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من
الأشياء ، وكل أمر من الأمور ﴿وَكَيْلٌ﴾ وقيس يراقب أموركم ويدبرها ، فكلوها إليه وتوسّلوا به في إنجاح
مطالبكم ، فإنّه هو القادر على القيام بها ، الوافي بإتمامها ، لا منجح للمقاصد ولا مصلح للمهمات إلّا
هو.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣)

ثم بعد التنبيه بوجوب رفع الحاجات إليه ، وكان لرؤية من يتوسّل به في قضائها وعلمه بها دخل

في السّؤال منه والتّوكّل عليه ، نفى سبحانه إمكان رؤية ذاته المقدّسة بحسّ البصر بقوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ ولا تصل إليه تعالى ﴿الْأَبْصَارُ﴾ الظّاهرية.

ثمّ أثبت علمه وإحاطته بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُدْرِكُ﴾ ويرى ﴿الْأَبْصَارُ﴾ الرّافعة إليه للطلب ، والأعين المادّة إليه للسّؤال.

ثمّ وصف نفسه بما هو علّة للقضيتين بقوله : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ والغامض الذي لا تدركه العقول ، والعميق الذي لا تناله الاوهام وقيل : هو اللّطيف في صنعه والوهيته ، أو بعباده ^(١) ﴿الْخَيْرُ﴾ المطّلع على دقائق الأشياء وخفّيات الأمور ، لا يعزب عنه شيء.

عن الرضا عليه السلام ، في رواية قال : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وهذه الأبصار ليست هذه ^(٢) الأعين ، إنّما هي الأبصار التي في القلوب ، لا تقع عليه الأوهام ، ولا يدرك كيف هو ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، في رواية : « وأما قوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ﴾ فهو كما قال : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [يعني لا تحيط به الأوهام ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ﴾ يعني] يحيط بها ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « يعني إحاطة الوهم ، ألا ترى إلى قوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ^(٥) ، ليس يعني بصر العين - إلى أن قال : - إنّما عنى إحاطة الوهم ، كما يقال : فلان بصير بالشّعر ، وفلان بصير بالفقه ، وفلان بصير بالدّراهم ، وفلان بصير بالثّياب ، الله أعظم من أن يرى بالعين ^(٦) » .

وعن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السّنند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولم تدركها ببصرك ، وأوهام القلوب لا تدركه ، فكيف أبصار العيون ؟ ! ^(٧) » .

وعن الرضا عليه السلام : « وأما اللّطيف فليس على قلّة وقضافة ^(٨) وصغر ، ولكن ذلك على التّفادى في الأشياء ، والامتناع من أن يدرك [كقولك للرجل] : لطف عنيّ هذا الأمر ، ولطف فلان في مذهبه وقوله ، يخبرك أنّه غمض فيه العقل ، وفات الطّلب ، وعاد متممّا متلطّفا لا يدركه الوهم ، فكذلك لطف الله تبارك وتعالى عن أن يدرك بحدّ ، أو يحدّ بوصف ، واللّطافة من الصّغر والقلّة ، فقد جمعنا الاسم

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٣٣ .

(٢) في العياشي والمجمع : هي .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١١٤ / ١٤٧٤ ، مجمع البيان ٤ : ٥٣٣ .

(٤) التوحيد : ٢٦٢ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٥ . وفي النسخة : لا تدركه الأبصار ، ولا تحيط بها .

(٥) الأنعام : ٦ / ١٠٤ .

(٦) الكافي ١ : ٧٦ / ٩ ، التوحيد : ١١٢ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٥ .

(٧) الكافي ١ : ٧٧ / ١١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٥ .

(٨) القضاة : من قضف يقضف ، إذا دقّ ونحف لا عن هزال .

واختلف المعنى » .

قال : « وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء ولا يفوته ، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء فتفيده التجربة والاعتبار علما ، ولولاهما ما علم ؛ لأن من كان كذلك كان جاهلا ، والله لم يزل خبيرا بما يخلق ، والخبير من الناس المستخبر عن جهل المتعلم ، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى » (١) .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ (١٠٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد والرسالة ، نبه الناس عن لسان رسوله ﷺ على تمامية الحجة عليهم بقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الناس آيات فيها ﴿بَصَائِرُ﴾ وعلوم ، أو براهين ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تبصركم الحق وتعرفكم الصواب ، وتم ما علي من تبليغها ، وبقي ما عليكم من التبصّر والإيمان بها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بها الحق وآمن به ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر ، وإياها نفع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن رؤية الحق وكفر به ﴿فَعَلَيْهَا﴾ ضرر ﴿وَمَا أَنَا﴾ من قبل ربّي ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ حتّى اجبركم على قبول الحق والإيمان به ، بل إنّما أنا نذير ، والله مجازيكم بما تستحقّون .

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْرِسُونَ وَنُتَبِّئُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)﴾

ثم لما ادّعى النبوة استدللّ سبحانه عليها بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التصريف البديع ، وبيان الحجج الواضحة بعبارات مختلفة بالغة أعلى درجة الإعجاز ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على جميع المعارف والمواعظ والأحكام ، ونأتي بها حالا بعد حال ، لتتمّ الحجة على المعاندين ﴿وَلْيُقُولُوا﴾ في عاقبة الأمر ، أو لئلا يقولوا : ﴿دَرَسْتُ﴾ وقرأت يا محمّد هذه العلوم على غيرك وتقرأها علينا ، وتدّعي الوحي بها إليك ﴿وَلْنُبَيِّنْهُ﴾ ونوضّحه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويفهمون ، أو يكونوا بتبيينه عالمين بما فيه من المعارف والعلوم . وإنّما كفى عن الآيات بالضمير المفرد المذكّر باعتبار القرآن .

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٦) و (١٠٧)﴾

ثم لما أشار سبحانه إلى قدح المشركين في القرآن بأنّه مطالب مأخوذة من أهل الكتاب ، وإلى

(١) الكافي ١ : ٩٥ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٥ .

تكذيب النبي ﷺ في ادعاء نزول الوحي إليه ، وكان مجال فتور النبي ﷺ في التبليغ وتكدر خاطره الشريف ، أمره سبحانه بالقيام بوظيفة الرسالة ، وعدم الاعتناء بترهات المشركين بقوله : ﴿اتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن ، ودم على ما أنت عليه من تبليغه والتدبير بأحكامه التي عمدتها وجوب التوحيد ، والإيمان بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ، وحده لا شريك له ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ﴾ أباطيل ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتن بها ، ولا يكن قدحهم في القرآن سبب فتورك في تبليغ رسالتك ، ولا يثقلن عليك إصرارهم على ضلالهم ، فإنه بإرادة الله حيث خلّى بينهم وبين أنفسهم والشيطان المغوي لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بالمشيئة التكوينية إيمانهم بالتوحيد ، وتركهم الشرك ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ أبداً ، ولكن تركهم واختيارهم حتى يظهر خبث طبيعتهم وسوء سريرتهم.

وعن (الجمع) ، في تفسير أهل البيت عليه السلام : «لو شاء الله أن يجعلهم كلهم مؤمنين معصومين حتى لا يعصيه أحد ما كان يحتاج إلى جنة ونار ، ولكنه أمرهم ونهاهم وامتنعهم وأعطاهم ماله عليهم به الحجة من الآلة والاستطاعة ، ليستحقوا الثواب والعقاب» (١) .

وإنما بعثناك إليهم نذيراً ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ حتى يجب عليك إجبارهم بالإيمان بالتوحيد والنبوة ، وقهرهم على ترك الشرك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من قبل ربك ﴿بِوَكِيلٍ﴾ وقيم حتى يجب عليك تدبير أمورهم ، والتظر في مصالحهم.

قيل : الحافظ للشيء من يصونه عما يضره ، والوكيل عليه من يجلب الخير له (٢) .

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨)

ثم قيل : إنه لما طعن المشركون في القرآن بقولهم للرسول ﷺ : إنما درست على علماء أهل الكتاب ، غضب المؤمنون وشتمو الأصنام ، فنهى الله عن ذلك (٣) بقوله : ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ ولا تشتموا أيها المؤمنون آلهتهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ بسبب سبكم آلهتهم ﴿عَدْوًا﴾ وغضباً ، أو تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعن سفة وجهالة ، حيث إنهم ما قدروا الله حق قدره.

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لما نزل ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (٤)

قال

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٣٩ .

(٤) الأنبياء : ٢١ / ٩٨ .

المشركون : لئن لم تنته عن سب آلهتنا وشتمها لنهجون إلهك ، فنزلت ^(١) .

وعن السدي : أنه لما قريت وفاة أبي طالب قالت قريش : ندخل عليه ونطلب منه أن ينهى ابن أخيه عنا ، فإننا نستحي أن نقتله بعد وفاته ، فيقول العرب : كان يمنعه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث مع جماعة إليه وقالوا له : أنت كبيرنا ، وخاطبوه بما أرادوا ، فدعا محمدا ﷺ وقال : هؤلاء قومك وبنو عمك يطلبون منك أن تتركهم على دينهم ويتركوك على دينك . فقال ﷺ : « قولوا : لا إله إلا الله » . فأبوا ، فقال أبو طالب : قل غير هذه الكلمة ، فإن قومك يكرهونها ، فقال ﷺ : « ما أنا بالذي أقول غيرها حتى تأتوني بالشمس فتضعوها في يدي » . فقالوا له : اترك شتم آلهتنا ، وإلا شتمناك ومن يأمرك بذلك ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول النبي ﷺ : « إن الشرك أخفى من ديب النملة على صخرة سوداء في ليلة ظلماء » . فقال : « كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله ، فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون ، فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم ، لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين ، فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون » ^(٣) .

وقيل : إن الله أجرى شتم الرسول منزلة شتمه ^(٤) ؛ لأن العرب كانوا معتقدين بالله ، ويقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عنده ، فلم يمكن إقدامهم على سب الله .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : « أ رأيت أحدا يسب الله ؟ » . ف قيل : لا ، وكيف قال ذلك ؟

قال : « من سب ولي الله فقد سب الله » ^(٥) .

وعنه عليه السلام أنه قيل له : إننا نرى في المسجد رجلا يعلن بسب أعدائكم ويسبهم . فقال : « ما له لعنه الله ، يعرض بنا ، قال الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ الآية » .

وقال عليه السلام : « لا تسبّوهم فإنهم يسبّوكم » .

وقال : « من سب ولي الله فقد سب الله » .

قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام : « من سبك فقد سبني ، ومن سبني فقد سب الله ، ومن سب الله فقد أكبه الله على منخره في نار جهنم » ^(٦) .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ التزيين الذي يكون لسب الله في نظر المشركين ﴿ زَيْنًا ﴾ وحسنا ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ وطائفة

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٣٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ / ١٤٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢١٣ ، مجمع البيان ٤ : ٥٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ١٤٠ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١١٤ / ١٤٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٧ .

(٦) الاعتقادات للصدوق : ١٠٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٧ .

من الكفار ﴿عَمَلُهُمْ﴾ السيء.

قيل : يعني في زعمهم حيث قالوا : إنّ الله أمرنا بها ^(١) .

وقيل : يعني : أمهلناهم وخلصناهم وشأنهم حتى حسن عندهم سوء عملهم ، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد : زيننا لكلّ من المؤمنين والكافرين عملهم من الخير والشرّ ، والطاعة والعصيان ، بإيجاد ما يمكنهم منه توفيقا وخذلانا ^(٣) .

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والمالك لأمرهم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد الموت ، أو البعث يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات بإعطائهم الجزاء المستحق.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ

اللّٰهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية طعن المشركين في القرآن بكونه من تعليمات أهل الكتاب ، حكى طعنهم في نبوة ﷺ النبي بأنّه لا يقدر على ما اقترحنا عليه من المعجزة ، بقوله : ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ وحلفوا ﴿بِاللّٰهِ﴾ وكان يمينهم ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأغلظها وأشدّها ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ ممّا اقترحوه ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ .

روي أنّ قريشا قالوا : يا محمد ، إنّك تخبرنا أنّ موسى كانت معه عصا ، فيضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا ، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى ، وأنّ صالحا أخرج النّاقة من الجبل ، فأتنا أنت أيضا بآية بيّنة ، فإن فعلت ذلك لنصدقك ونؤمن لك ، وحلفوا على ذلك وبالغوا في تأكيد الحلف ، فقال ﷺ : « أيّ شيء تحبون ؟ » . قالوا : تجعل لنا الصّفا ذهبا ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسأله عنك أحقّ ما تقول أم باطل ، أو أرنا الملائكة يشهدون لك . فقال ﷺ : « فإن فعلت بعض ما تقولون تصدّقوني ؟ » ، قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين ، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا ، فهم ﷺ بالدّعاء فجاء جبرئيل ﷺ فقال : إنّ شئت كان ذلك ، ولئن كان فلم يصدّقوك عنده ليعذبّنهم بعذاب الاستئصال ، ولئن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٤) .

(١ و ٢) . تفسير الرازي ١٣ : ١٤١ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٨٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٨٥ .

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ وخوارق العادات كلها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبقدرته وإرادته ، لا بقدرتي وإرادتي ، وهو يظهر منها ما يشاء وتقتضيه حكمته .

ثم بين سبحانه حكمة عدم إجابتهم مخاطبا للمسلمين المشتاقين إلى إيمانهم بقوله : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وأي شيء يعلمكم أيها المؤمنون حين سألوها الآية ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ﴾ يؤمنون بها ، فإننا نعلم أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها ويصرون على كفرهم ، فينزل عليهم عذاب الاستئصال ، كما نزل على أصحاب المائدة ، فيكون في ترك إجابتهم إمهالهم ، ورحمة بمن في أصلاهم .

قيل : كلمة (أن) في ﴿أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ﴾ بمعنى (لعل) ، والمعنى لعلها إذا جاءت لا يؤمنون ^(١) .
وقيل : إن (لا) في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة ^(٢) .

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾

ثم بين سبحانه علّة عدم إيمانهم بالآيات بقوله : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ ونحوّل قلوبهم عن قبول الحق إلى إنكاره ، أو نطبع عليها فلا يفهمون وجه الإعجاز في الآيات ، ﴿وَنُقَلِّبُ أَبْصَارَهُمْ﴾ ونعميها عن رؤية ما انزل لفساد استعدادهم ، وخبائة طينتهم ، وسوء أخلاقهم ، فلا يؤمنون به ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ مع كمال ظهوره ﴿أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ وفي بدو الأمر . عن القمي : يعني في الذر والميثاق ^(٣) .

عن الباقر عليه السلام ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ يقول : نقلّب ^(٤) قلوبهم ، فيكون أسفل قلوبهم أعلاها ، ونعمي أبصارهم فلا يبصرون الهدى .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : أول ما يقبلون عنه من الجهاد الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بالسننكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فمن لم يعرف قلبه معروفا ولم ينكر منكرا ، نكس قلبه وجعل أعلاه أسفله ، ولم يقبل خيرا أبدا ^(٥) .

﴿وَتَذَرُهُمْ﴾ وتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وعنوّهم عن قبول دينك حال كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الحق ، ويتحيرون فيه ، عقوبة لهم على ترك إيمانهم بك في أول بعثتك .

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٤٤ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٣٩ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٩ .

(٤) في تفسير القمي وتفسير الصافي : نكس .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٩ .

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

ثم بالغ سبحانه في توضيح شدة إصرارهم على الكفر والعناد ، وعدم إيمانهم بأعظم الآيات بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ شاهدين على صدقك كما اقترحوه ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بعد إحيائهم بدعائك في صدقك ووجوب الإيمان بك ، بل ﴿وَلَوْ﴾ لو ﴿حَشَرْنَا﴾ وجمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من موجودات هذا العالم من الجمادات والنباتات والحيوانات ، أو مما يدب في الأرض ، حال كونهم ﴿قُبُلًا﴾ وأفواجا ، أو كفلاء بصدق دعوتك ، وصحة نبوتك ، وعن القمّي رحمه الله : أي عيانا ^(١) ﴿مَا كَانُوا﴾ مع مشاهدة تلك الآيات ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بك بالطّوع والرغبة أبدا ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم بالقهر والإجبار ، فلا فائدة في إجابة مسؤولهم من إنزال الآيات ، إذ ليس غرضهم من سؤالها إلا التهكم والتعنت ، كما هو معلوم عندك وعند قليل من المؤمنين كعلي رضي الله عنه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لقصورهم ﴿بِجْهَلُونَ﴾ هذه الدرجة من خبث ذاتهم ورذالة أخلاقهم ، فيطمعون في إيمانهم ، أو المراد : أنّ أكثر المشركين الذين يسألون الآيات ، يجهلون أنّها لو جاءتهم لا يؤمنون.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾

ثم لما كان لجاح القوم سببا لملاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، سلى سبحانه قلبه الشريف ببيان كون هذه البلية عامة بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التزيين الذي جعلناه لأعمال الأمم ، أو كذلك العدو الذي جعلناه لك ﴿جَعَلْنَا﴾ في كل عصر ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ ومبغضين ، كانوا هم ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ومردتهما. كما عن ابن عباس ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « من لم يجعله الله من أهل صفة الحق ، فأولئك شياطين الإنس والجن » ^(٣) .
عن الصادق عليه السلام : « ما بعث الله نبيا إلا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلّان الناس بعده ، فأما صاحبنا نوح فيطيفوس وخزام ، وأما صاحبنا إبراهيم فمكتل ورزام ، وأما صاحبنا موسى فالسّامري ومر عقيبا ، وأما صاحبنا عيسى فبولس ومرينون ، وأما صاحبنا محمد فحبتز وزريق » ^(٤) .
قليل : حبتز كتعلب وزنا ومعنى ، كتى به عن رجل كثير الحيلة ، وبزريق عن آخر في عينه زرقه ^(٥) .

(١) تفسير القمي ١ : ٢١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٩ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٤٤ عن الحسن وقتادة ومجاهد .

(٣) الكافي ٨ : ١١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤٩ .

(٥) تفسير الصافي ٢ : ١٥٠ .

ثم بين سبحانه كيفية عداوتهم بقوله : ﴿يُوحِي﴾ ويسر ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لتخريب أمر النبي ﷺ ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ والمزين من الكلام الكذب والباطل ليغره إلى إهلاك نفسه ﴿غُرُورًا﴾ .

قيل : إن من الجن شياطين ومن الإنس شياطين ، وإن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن ذهب إلى متمرّد من الإنس [وهو شيطان الإنس] ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه ^(١) ، وذلك بمشيئة الله لحكمة الامتحان ، وبرز الاستعدادات.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ عدم العداوة ، أو عدم الإيحاء ، أو عدم التزيين للكلام ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ البتة ، فإذا كان فعلهم بمشيئة الله ﴿فَذَرَهُمْ﴾ يا محمد ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الكفر ، أو دعمهم مع ما زين لهم إبليس وغرهم به - كما عن ابن عباس ^(٢) - فإن لهم عندنا عقوبات شديدة ، ولك على تحمل الأذى منهم مشوبات عظيمة . وفيه غاية التهديد . وقيل : منسوخ بآية السيف ^(٣) .

﴿وَلَتَصْغِي إِلَيْهِ أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَّضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣) أ فغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً
والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من
المُمتريين (١١٤)

ثم بعد بيان علّة إجحائهم الأباطيل ، بين سبحانه علّة تزيينها بقوله : ﴿وَلَتَصْغِي﴾ وتميل ﴿إِلَيْهِ أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وترغب إلى استماعه قلوبهم ﴿وَلَيَرَّضُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا﴾ ويكتسبوا ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ومكتسبون من السيئات ، وأما الذين يؤمنون بالآخرة فإنهم لا يميلون إلى استماعه ولا يرضون به لعلمهم ببطلانه وسوء عاقبته.

ثم روي أنّ مشركي مكة بعد اقتراحهم الآيات قالوا : يا محمد ، اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود ، أو من أساقفة النصارى يفصل بين الحق والمبطل ، فإنهم قرأوا الكتب قبلك ^(٤) ، فأمر الله نبيه ﷺ بأن ينكر عليهم ما سألوه بقوله : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ قيل : إنّ التقدير : أميل إلى قولكم ، فغير الله ﴿أَبْتغِي﴾ وأطلب ﴿حَكَمًا﴾ وقاضيا بالحق بيني وبينكم ^(٥) ، يحكم بصحة نبوتي ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي﴾ حكم بها حيث إنّه ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ السماوي المشتغل على وجوه من الإعجاز ، حال كونه ﴿مُفَصَّلًا﴾ ومبيناً فيه الحق والمبطل ، ومع ذلك لا حاجة إلى حكومة أهل الكتاب.

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٥٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ١٥٦ .

(٣) ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه : ٣٣ .

(٤ و ٥) . تفسير روح البيان ٣ : ٩٠ .

ثم بين الله عدم أهلية أهل الكتاب للحكمة لشدة عداوتهم مع النبي ﷺ وكتماهم الحق بقوله : **﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾** وفهمناهم ما فيه من علائم النبي وصفات كتابه **﴿يَعْلَمُونَ﴾** بسبب شهادة كتبهم بصدق كتابك **﴿أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾** متلبسا **﴿بِالْحَقِّ﴾** والصدق ، ومع ذلك يكتمون الشهادة على أنه منزل منه **﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾** يا محمد **﴿مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾** والشاكين في علمهم بصدق كتابك ، وفيه توبيخهم. أو من الممترين في أنه منزل من ربك بسبب جحودهم ، وفيه تهيج للنبي ﷺ على الثبات على يقينه. وقيل : إن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره (١) .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٥) و (١١٦)

ثم أكد سبحانه كون القرآن أعظم شهادة منه تعالى على صدق نبوته بقوله : **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾** وآياته النازلة إليك في الإعجاز والشهادة على صدق دعواك ، وبيان جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ، حال كونها **﴿صِدْقًا﴾** في إخبارها **﴿وَعَدْلًا﴾** مستقيما في حكومتها ؛ لا كذب فيها ، ولا تجاوز عن الحق **﴿لَا مُبَدَّلَ﴾** ولا مغير من خلق الله **﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾** .
قيل : إن المراد : لا يأتي أحد بما هو أصدق وأعدل منها ، بل ولا بما يساويها في الصدق والعدالة ، فكيف يجوز ابتغاء حكم غيره تعالى ؟ ! (٢)

وقيل : إن المعنى : لا خلف فيها ولا نقص ، أو لا تأثير لشبهات الكفار في دلالتها على صدقك (٣) .

ثم هدّد المبتغين للتحكيم بقوله : **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾** لمقال المتحاكمين **﴿الْعَلِيمُ﴾** ببحث ذاتهم وسوء أعمالهم ، فيعاقبهم عليها.

عن الصادق عليه السلام : « أن الإمام يسمع في بطن أمه ، فإذا ولد خطّ بين كتفيه » (٤) وفي رواية : « بين عينيه » (٥) وفي أخرى : « على عضده الأيمن : **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾** الآية (٦) ، فإذا صار الأمر إليه جعل الله له عمودا من نور يبصر به ما يعمل أهل كل بلدة » (٧) . وفي رواية : « فبهذا يحتج الله على خلقه » (٨) .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٥٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ١٧٨ ، تفسير روح البيان ٣ : ٩١ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٦٢ .

(٤) الكافي ١ : ٣١٨ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥١ .

(٥) الكافي ١ : ٣١٩ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥١ .

(٦) الكافي ١ : ٣١٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥١ .

(٧) الكافي ١ : ٣١٨ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥١ .

(٨) الكافي ١ : ٣١٨ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥١ .

ثم لما بين سبحانه أنّ القرآن الذي هو معجزة باهرة حكم الله بصدق نبوتك فلا حاجة بعده إلى تحكيم غيره في ذلك ، بين أنّ موافقة الكفار في ما يطلبونه من التحكيم وغيره صرف الضلال ، بقوله مخاطبا لنبيه ﷺ بطريق (إياك أعني واسمعي يا جارة) : ﴿ وَإِنْ تَطِعْ ﴾ الكفار يا محمد في ما يطلبونه ويشتهون ، نظرا إلى كونهم ﴿ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّونَ ﴾ ويحرفوك ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ودينه الحق ، حيث إنهم مع إصرارهم على دينهم الباطل غير قاطعين به ، بل ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ ﴾ في عقائدهم ومجادلتهم في التوحيد وأعمالهم ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ بصحة ما وجدوا عليه آباءهم ، لا القطع الحاصل من البرهان ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ويكذبون في ادعاء القطع ، أو يقولون عن تخمين واستحسان.

قيل : إنّ أهل مكة كانوا يستحلّون [أكل] الميتة ويدعون المسلمين إلى أكلها ، وكانوا يقولون : إنّما ذلك ذبح الله ، فهو أحلّ ممّا ذبحتم بسكاكينكم ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٧) و (١١٨) ﴾

ثم بعدما بين سبحانه ضلالة أكثر الناس ، بين علمه بأحوال جميعهم بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ ﴾ وأي شخص ينحرف ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ودينه الحق وقيل : أعلم بمعنى : يعلم (٢) ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ إلى الحق.

ثم لما كان من ضلالة المشركين تحليل الميتة وما لم يذكر عليه اسم الله ، أمر الله المؤمنين بعد تحذيرهم من اتباع المضللّين بتخصيصهم المذكي بالأكل بقوله : ﴿ فَكُلُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ حين ذبحه خاصة دون ما مات حتف أنفه ، أو ذكر اسم الأصنام عليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ بكتاب الله و﴿ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإنّ الإيمان بالله وكتابه موجب للاحتراز عن غير ما أحله . ويحتمل أن يكون المراد الأمر بتعميم الأكل بكلّ ما ذكي على اسم الله ، وإن كان سائبة وأخواتها.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا

مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٩٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٩٢ .

ثم أنكر عليهم الاحتراز عن أكل ما حرّمه المشركون على أنفسهم ، وإن ذكر اسم الله عليه ، بقوله : ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ من العذر في ﴿أَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذبحه أو نحره ، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَصَّلَ﴾ وشرح ﴿لَكُمْ﴾ في كتابه بقوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾^(١) الآية ، أو قوله : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾^(٢) الآية ، أو بالوحي على لسان نبيّه ﷺ ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من الحيوانات ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من المحرّمات ، فإنّ الضّرورات تبيح المحذورات ﴿وإنَّ كَثِيرًا﴾ من النَّاس كعمرو بن لحي الذي غير دين إسماعيل ، وحرّم كثيرا من الأنعام ، وأباح الميتة ، ومن بعده من المشركين ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ الضّعفاء عن طريق الحقّ بتزغيبهم إلى عبادة الأصنام ، وأكل الميتة ، والتّحرّج عن أكل السائبة والوصيلة وأخواتهما وإن ذكر اسم الله عليها ، والاحتجاج بالاعتبارات السّخيفة ﴿بِأَهْوَائِهِمْ﴾ الزائغة والشبهات الفاسدة ، و﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وحجّة قاطعة ، واقتباس من الشريعة .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ والمتجاوزين عن حدود الله بتحليل ما حرّم وتحريم ما أحلّ ، فيعاقبهم في الآخرة أشدّ العقاب .

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا
يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)﴾

ثم أنّه تعالى بعد الإشارة إلى حرمة الميتة ، وتفصيل المحرّمات من الحيوان ، نهي عن مطلق معاصيه بقوله : ﴿وَذَرُوا﴾ واتركوا أيّها المؤمنون ﴿ظَاهِرَ﴾ الذّنب وعلنه ممّا يعمل بالجوارح ، فإنّه سبب ﴿الْإِثْمِ﴾ والعقاب ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ وسره ممّا يفعل في القلب ، كإرادة السّوء ، والكبر ، والحسد ، وغيرها .

وقيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا يرون الزّنا في السرّ حلالا ، فحرّم الله تعالى بهذه الآية السرّ منه والعلانية^(٣) .

ثم هدّد سبحانه المرتكبين للذّنب بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون ﴿الْإِثْمَ﴾ والعصيان ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ ويعاقبون في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ ويرتكبون .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

(١) المائدة : ٥ / ٣ .

(٢) الأنعام : ٦ / ١٤٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٦٧ .

ثم بعد الإشارة إلى حرمة ما لم يذكر اسم الله عليه ، صرح سبحانه بما بقوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حال ذبحه أو نحره.

ثم أكد سبحانه حرمة أكله بقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وخروج عن حدود الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ من إبليس وجنده ﴿لِيُؤْخَذُوا﴾ وليوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ وأتباعهم من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ ويعارضوكم في تحليل الميتة ، بأن يقولوا : إنكم تأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون مما قتله الله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام ، وساعدتموهم على باطلهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ إذن ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله غيره في طاعته.

وعن عكرمة : يعني بالشیاطین مرده المجوس ، ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش ، وذلك لأنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش ، وكانت بينهم مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين [من] ذلك [شيء] ، فأنزل الله تعالى هذه [الآية] (١) .

عن أبي عبد الله عليه السلام : « من لم يسم إذا ذبح فلا تأكله » (٢) .

عن الورد بن زيد - في حديث - قال لأبي جعفر عليه السلام : مسلم ذبح ولم يسم ؟ فقال : « لا تأكل ، إن الله يقول : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (٣) ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (٤) .
عن الحلبي : عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - أنه سأله عن الرجل يذبح فينسى أن يسمي ، أتؤكل ذبيحته ؟ قال : نعم ، إذا كان لا يتهم ، وكان يحسن الذبح قبل ذلك » (٥) .

عن محمد بن مسلم ، قال : سألته عن رجل ذبح فسبح أو كثر أو هلل أو حمد الله عز وجل ، قال : « هذا كله من أسماء الله تعالى ، لا بأس به » (٦) .

﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾

ثم لما ذكر أن المؤمنين يساؤون المشركين في صورة موافقتهم في استحلال الحرام ، أنكر عليهم ذلك التساوي مع كثرة لطافه بهم بقوله : ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا﴾ لا حياة له ، قيل : إن التقدير : أنتم أيها

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٧٠ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١١ / ٩٨٠ .

(٣) الأنعام : ٦ / ١١٨ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١٠ / ٩٧٣ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١١ / ٩٧٩ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢١١ / ٩٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٣ .

المؤمنون مثل المشركين ، ومن كان ميتاً ^(١) ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنفخ الروح فيه ، وأعطيناه القوى المتحركة والمدركة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ مع ذلك من الخارج ﴿نُورًا﴾ عظيماً ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ ويسير بسببه ﴿فِي النَّاسِ﴾ آمناً محموداً ، يمكن أن يكون ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ وصفته العجيبة أنه ثابت أو مستقرّ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ العديدة ، و﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ وناجٍ ﴿مِنْهَا﴾ في وقت من الأوقات وحال من الأحوال ، حاشاه من أن يكون مثله ﴿كَذَلِكَ﴾ الزّين الذي يكون للإيمان في قلوبكم من جانب الله ﴿زَيْنٌ﴾ وحسن من قبل الشّيطان وبتسويلاته ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ خصوصاً المشركين منهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي .

فقلوه : ﴿أَوْ مِمَّنْ كَانَ مِثْلًا﴾ تمثيل لمن هداه الله وأنقذه من الضلالة ، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء ، فيميّز بين الحقّ والباطل وأهلها ، وقوله : ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ تمثيل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها .

عن ابن عباس رضي الله عنه : نزلت في حمزة وأبي جهل ، قال : إنّ أبا جهل رمى النبي ﷺ بفرث ، فاخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من الصيد ويده قوس ، وكان يومئذ لم يؤمن [بعد] ، فلقى أبا جهل ، فضرب رأسه بالقوس ، فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به ! سقّه عقولنا وسبّ أهتنا . فقال حمزة : وأنتم أسفّه الناس ، تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله . فنزلت الآية ^(٢) .

وقال مقاتل : نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل ، وذلك أنّه قال : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتّى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : متّنا نبيّ يوحى إليه ، والله لا نؤمن به إلّا أن يأتينا وحي كما يأتيه ^(٣) . وعن عكرمة : أنّها نزلت في عمّار وأبي جهل ^(٤) ، ورواه في (المجمع) عن الباقر عليه السلام ^(٥) . وفي (الكافي) : عنه عليه السلام : ﴿مِثْلًا﴾ لا يعرف شيئاً ، و﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ إماماً يؤتمّ به ، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الذي لا يعرف الإمام ^(٦) .

وعنه عليه السلام : « الميت الذي لا يعرف هذا الشأن ، يعني هذا الأمر ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ إماماً يأتي به ، يعني عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قال بيده [هكذا] : هذا الخلق الذين لا يعرفون شيئاً » ^(٧) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٩٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٩٦ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٣ : ١٧٣ .

(٥) مجمع البيان ٤ : ٥٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٤ .

(٦) الكافي ١ : ١٤٢ / ١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٣ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ١١٧ / ١٤٨٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٣ .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ عَنَّا ، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنا « (١) .

وعن القمي قال : جاهلا عن الحق والولاية ، فهديناه إليها (٢) . قال : التور : الولاية ، و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني ولاية غير الأئمة عليهم السلام (٣) .

وعنه عليه السلام - في حديث - : « قال الله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (٤) فالحي : المؤمن الذي تخرج طينته من طينة الكافر ، والميت : الذي يخرج من الحي [هو] الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن ، فالحي : المؤمن ، والميت : الكافر ، وذلك قوله عز وجل : ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر ، وكانت حياته حين فترق [الله] بينهما بكلمته ، وكذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور ، ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله في النور ، وذلك قوله عز وجل : ﴿لَنُنْزِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥) .

﴿وَكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

ثم لما كان أبو جهل من أكابر قريش ، وكان يفتخر بعظمته بينهم ، نبه سبحانه على أن العظمة والرئاسة من موجبات الفتنة والخذلان بقوله : ﴿وَكذلك﴾ النحو الذي فعلنا في مكة من جعل أكابرها وصناديدها مجرمين ماكرين في إطفاء نور الهداية ﴿جَعَلْنَا﴾ في القرون السالفة ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿أكَابِرَ﴾ ها وأعاضمها ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ ومذنبوها وماكرينها في الإحلال بأمر نبيها ، وقيل : إن المراد : كما زينا للكافرين أعمالهم ، جعلنا مجرمي كل قرية أكابرها ، بأن خليناهم وأنفسهم ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ ويغدروا ﴿فِيهَا﴾ ويحتالوا في إضلال أهلها ، ومعارضة الأنبياء كبرا وحسدا عليهم وحفظا لرئاستهم (٦) .

قيل : إن صنديد قريش أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٢٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٣ .

(٢) في النسخة : إلينا .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٣ .

(٤) يونس : ١٠ / ٣١ .

(٥) الكافي ٢ : ٤ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٤ ، والآية من سورة يس : ٣٦ / ٧٠ .

(٦) تفسير الرازي ١٣ : ١٧٤ .

بمحمّد ﷺ ، وكانوا يقولون لكلّ من يقدم : إيتاك وهذا الرجل ، فإنّه كاهن ساحر كذاب ^(١) .
ثم سلّى سبحانه نبيّه ﷺ بقوله : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنّ وبال مكرهم يحيق بهم ولا يتعدّاهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أصلاً ، بل يزعمون أنّهم يمكرون بك وبالمؤمنين .

ثم بيّن سبحانه بعض جرم الأكابر بقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ من عند الله ﴿آيَةٌ﴾ ومعجزة دالة على صدق نبوتك ﴿قَالُوا﴾ عنادا ولجاجا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ بك وبهذه الآية ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ من جانب الله ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من الوحي ومنصب الرّسالة ، فتكون متبوعا لا تابعا . ففيه دلالة على أنّ إصرارهم على الكفر كان لغاية الحسد لا لطلب الحجّة .

روي أنّ الوليد بن المغيرة قال : والله ، لو كانت التّبوءة حقّا لكنت أحقّ بها ^(٢) . وقد مرّ ما حكى عن أبي جهل من قوله : زاحمنا بنو عبد مناف في الشّرف حتّى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منّا نبيّ اوحى إليه ^(٣) .

قيل : إنّ المراد برسل الله : خصوص النبيّ ﷺ ، والجمع للتّعظيم ^(٤) .
ثم ردّهم الله بقوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من كلّ شيء ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فإنّ استحقاقها ليس بكثرة المال والجاه الدّنيوي ، بل إنّما هو بالفضائل التّفنّائية ، ولذا حصّها بمحمّد ﷺ دون غيره من أكابر مكّة الفاقدين لها .

ثم هدّد سبحانه الأكابر المتكبرين بقوله : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وعصوا الله بالاستكبار والحسد للنبيّ ﷺ ^(٥) ﴿صَغَارٌ﴾ وذلّ وحقارة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآخرة ، أو من عند الله ، مكان ما تمنّوا من عزّ التّبوءة وشرف الرّسالة في الدّنيا ، ﴿وَعَذَابٌ﴾ بالنار ﴿شَدِيدٌ﴾ غايته ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدّنيا ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بالنبيّ ﷺ ويحسدونه .

عن القميّ رحمه الله : « أي يعصون الله في السرّ » ^(٦) .

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٩٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ١٧٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٩٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٩٩ .

(٥) في النسخة : والحسد على النبيّ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٥ .

ثم نبّه سبحانه على كمال سلطنته ببيان أنّ إيمان المؤمن وكفر الكافر بإرادته وتوفيقه وخذلانه بقوله : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ إلى السعادة الأبدية ومقام قربه ورحمته بتعريفه وتوفيقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ﴾ ويوسع صدره ﴿وَقَلْبَهُ﴾ للإسلام بتجليته من الأخلاق الرذيلة ، وتجليه عين بصيرته بنور العقل ، فيرى الحق ويبادر إلى قبوله بسهولة ورغبة .

روي أنّه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر [ما هو] . فقال : « [نور] يقذفه الله في قلب المؤمن ، فيشرح له [صدره] وينفسح » . فقالوا : هل لذلك أمانة يعرف بها ؟ فقال : « نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » ^(١) .

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ ويحرفه عن طريق الحق ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ بسبب تراكم الأخلاق السيئة كالكبر والحسد وحب الجاه والمال فيه ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق بحيث لا يبقى فيه مجال لتمكّن الحق ، أو منسد المنافذ بحيث لا تدخل فيه المواعظ والمعارف .

عن الصادق عليه السلام ، [أنه] قال لموسى بن أسمر ^(٢) : « أتدري ما الحرج ؟ » قال : قلت : لا ، فقال بيده وضّم أصابعه ، كالشيء المصمت الذي لا يدخل فيه شيء ، ولا يخرج منه شيء ^(٣) .

وعنه عليه السلام ، في هذه الآية ، قال : « قد يكون ضيقاً وله منفذ يسمع منه ويبصر ، والحرج هو الملتئم الذي لا منفذ له يسمع به ولا يبصر منه » الخبر ^(٤) ولذا ينبو عن قبول الحق ، ويكون إيمانه في امتناعه منه وثقله عليه ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويعرج إليها ﴿كَذَلِكَ﴾ الضيق الذي جعل الله لصدر الكافر ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ والشك . كما عن الصادق عليه السلام ^(٥) . أو العذاب ، أو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة . وعن ابن عباس رضي الله عنه : هو الشيطان ، أي يسّطه ^(٦) ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ يعلم أنهم بسبب خبث ذاتهم وسوء اختيارهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ ودين الإسلام أبداً .

عن الرضا عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « من ﴿يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ بإيمانه في الدنيا إلى جنته ودار كرامته [في الآخرة] ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ للتسليم لله والثقة به ، والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتّى يطمئنّ إليه ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ حتّى يشكّ في كفره ، ويضطرب من اعتقاده قلبه حتّى يصير ﴿كَأَنَّمَا

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٥ .

(٢) في تفسير العياشي : لموسى بن أشيم .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١١٩ / ١٤٩٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٥ .

(٤) معاني الأخبار : ١٤٥ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٥ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١١٩ / ١٤٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٣ : ١٨٤ .

يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام - في حديث - « واعلموا أنّ الله إذا أراد بعبد خيرا شرح صدره للإسلام ، فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق ، وعقد قلبه عليه فعمل به ، فإذا جمع الله له ذلك تمّ له إسلامه ، وكان عند الله إن مات على ذلك الحال من المسلمين حقا ، وإذا لم يرد الله بعبد خيرا ، وكله إلى نفسه فكان صدره ضيقا حرجا ، فإن جرى على لسانه [حق] لم يعقد قلبه عليه ، وإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به ، فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال ، كان عند الله من المنافقين ، وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يعطه الله أن يعقد عليه قلبه ولم يعطه العمل به حجة عليه ، فأتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام ، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحكمة^(٢) حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك »^(٣) .
وعنه عليه السلام : « أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة من نور ، فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم ، وإذا أراد بعبد سوءا نكت في قلبه نكتة سوداء فأظلم لها سمعه وقلبه » ثم تلا : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ﴾ الآية^(٤) .

وعنه عليه السلام : « أنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة من نور^(٥) ، وفتح مسامع قلبه ، ووكل به ملكا يسدّه ، وإذا أراد بعبد سوءا نكت في قلبه نكتة سوداء ، وسدّ مسامع قلبه ، ووكل به شيطانا يضلّه » ، ثم تلا هذه الآية^(٦) .

﴿ وهذا ﴾ التّشريح لصدور المؤمنين ، والتّضييق لقلوب الكافرين ، وجعل الرّجس عليهم ﴿ صراط ﴾ ربّك ﴿ ودأبه الذي يستمرّ عليه ﴾ ﴿ مستقيما ﴾ لا عوج فيه ولا انحراف عنه ، أو هذا البيان الذي يكون في القرآن صراط ربّك ؛ كما عن ابن مسعود^(٧) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : هذا الذي أنت عليه يا محمّد دين ربّك مستقيما^(٨) .

وعن القميّ : « يعني الطّريق الواضح »^(٩) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ﴾ وشرحنا ﴿ الآيات ﴾ والمطالب الكثيرة واحدا بعد واحد ﴿ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ ويتنبّهون بالآيات والنّذر ، فإنّهم المنتفعون بها .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٣١ / ٢٧ ، التّوحيد : ٢٤٢ / ٤ .

(٢) في الكافي : بالحق .

(٣) الكافي ٨ : ٤٠٨ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٥٦ .

(٤) الكافي ٢ : ١٧٠ / ٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٥٦ .

(٥) في تفسير العياشي : نكتة بيضاء .

(٦) الكافي ١ : ١٢٦ / ٢ ، تفسير العياشي ٢ : ١١٨ / ١٤٨٩ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٥٦ .

(٧) مجمع البيان ٤ : ٥٦٢ .

(٨) تفسير الرازي ١٣ : ١٨٧ .

(٩) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ١٥٧ .

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

ثم بشر سبحانه المتذكرين بقوله : ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ ومنزل مصون من جميع المكاره والآفات ، قيل : إنّ السلام اسم من أسماء الله ^(١) . وإضافة الدار إليه تعالى مبالغة في تشريفها وتعظيمها ، والمراد الجنة.

وعن القمّي : « يعني : [في] الجنة ، والسلام الأمان والعافية والسرور » ^(٢) . وهي معدّة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم حاضرة لديه ، أو المراد أنّه تعالى متكفل بها ، وقيل : عند ربهم كناية عن غاية شرفها وكرامتها ^(٣) .

ثم بالغ سبحانه في التبشير بقوله : ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ ومحبتهم ، أو الناظر في صلاحهم ، وعن القمّي ^(٤) : « يعني : أولى بهم » ^(٤) جزاء ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الخيرات والحسنات.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٨) و (١٢٩)

ثم أنّه تعالى بعد البشارة بغاية لطفه بالمؤمنين ، أوعد بعباته وشدة عذابه للمشركين بقوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ إلى القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ ويقول عتابا وتوبيخا لهم : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ﴾ وجماعة الشياطين ، أنتم ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ وأضفتم إلى جماعتكم كثيرا ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ بإغوائكم وتسويلاتكم ، وصيرتموهم أولياءكم وأتباعكم.

عن القمّي ^(٥) : « من وإلى قوما فهو منهم ، وإن لم يكن من جنسهم » ^(٥) . ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ وأتباعهم ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ بعد استماع العتاب والتوبيخ إظهارا للندامة : ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ﴾ وانتفع ﴿بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أما انتفاع الجنّ بالإنس فبإغوائهم وطاعتهم إياهم ، وأما انتفاع الإنس من الجنّ فبإعانتهم إياهم على نيل الشهوات ﴿وَبَلَّغْنَا﴾ الآن ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ وأدركنا الوقت الذي وقته لنا من يوم القيامة ، بعدما كنّا مكذّبين به طاعة للشياطين وأتباعا للشهوات.

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٨٨ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٨٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٧ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٨ .

ثم كآثم قالوا : ماذا تعامل معنا بعد إفراطنا في عصيانك ؟ **﴿قَالَ﴾** الله لهم وللشياطين الذين والوهم : **﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾** ومنزل إقامتكم ، حال كونكم **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أبدا **﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾** عدم كونكم فيها.

قيل : هو وقت المحاسبة ^(١) ، وقيل : هي الأوقات التي يخرجون منها لشوب من حميم ، ثم يكون مرجعهم إلى الجحيم ^(٢) ، وقيل : هو وقت الانتقال من النار إلى الزمهرير ^(٣) .
روي أنهم يدخلون واديا فيه برد شديد ، فهم يطلبون الرد من ذلك البرد إلى الجحيم ^(٤) .
ويحتمل أن يكون المراد من المستثنى : العصاة من المؤمنين ؛ فإنهم من أولياء الشيطان ، ولا خلود لهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : استثنى الله قوما سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ ^(٥).

ثم لما كان مجال توهم الظلم في تخليد الكفار في النار ، دفعه سبحانه بقوله : **﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾** في فعاله لا يصدر منه الظلم ، وإنما يعاقب على حسب الاستحقاق **﴿عَلَيْهِمْ﴾** بأحوال الثقلين وأعمالهم ، وبما يستحقون من الجزاء **﴿وَكَذَلِكَ﴾** التولي الذي كان بين الجن والإنس ، أو الذي بين الله تعالى وبين المؤمنين **﴿نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾** آخر منهم.

قيل : يعني نجعل المحبة والنصرة بينهم ^(٦) ، وقيل : نكل بعضهم إلى بعض في القيامة ^(٧) ، وقيل : نقرن بينهم في النار ؛ كل ذلك للسِّنْحَةِ التي تكون بينهم طينة وأعتقادا وأخلاقا وعملا ، وقيل : يعني نسلط بعضهم على بعض ، فنأخذ من الظالم بالظالم ^(٨) .
عن (الكافي) : عن الباقر عليه السلام : « ما انتصر الله من ظالم إلا بظالم ، وذلك قول الله عز وجل : **﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾** » ^(٩) .

وعن القمي عليه السلام قال : « نولي كل من تولى أولياءهم فيكونون معهم » ^(١٠) جزاء **﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** ويرتكبون من الظلم والقبائح.

قيل : إن الآية تدل على أن الرعية إذا كانوا ظالمين ، سلط الله عليهم ظلما مثلهم ، وأيضا تدل على أنه لا بد في الخلق من أمير ؛ لأنه تعالى إذا لم يخل أهل الظلم من أمير ظالم ، فبأن لا يخلي أهل

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٠٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٢ ، تفسير روح البيان ٣ : ١٠٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٣ .

(٧) مجمع البيان ٤ : ٥٦٥ .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ١٠٤ .

(٩) تفسير العياشي ٢ : ١١٨ / ١٤٨٧ ، الكافي ٢ : ٢٥١ / ١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٨ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٢١٦ ، وزاد فيه : يوم القيامة ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٨ .

الصَّلاح من أمير يحملهم على زيادة الصَّلاح ، كان أولى ^(١) .

في لزوم وجود السلطان في الأرض ولو كان جائراً والنهي عن سب السلطان

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر » ، فأنكروا قوله : « أو جائر » فقال : « نعم ، يؤمن السبيل ، ويمكّن من إقامة الصَّلاة وحج البيت » ^(٢) .

وعن مالك بن دينار ، [جاء] في بعض كتب الله تعالى : أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، لا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، لكن توبوا إلي اعطفهم عليكم ^(٣) .

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾

ثم نبّه سبحانه على أنّ العذاب في القيامة لا يكون إلا بعد إتمام الحجّة بقوله : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وجماعة الثقلين المنكرين للبعث ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا من قبلنا ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ وأنبياء يجاسونكم حتى تملوا إليهم ، وتستفيدوا منهم ، وهم كانوا ﴿يَقُصُّونَ﴾ ويتلون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ وكتابي ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ ويخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وشدة أهواله وعذابه ؟

قيل : إنّ الله كما أرسل رسلاً من الإنس ، أرسل رسلاً من الجنّ ، وأستدلّ بهذه الآية ويقول : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ^(٤) والأكثر على أنّه ما كان من الجنّ رسول ، وإمّا كان الرسول من الإنس خاصة.

وضمير (منكم) راجع إلى مجموع الثقلين ، فيكفي كونه من الإنس ، أو إلى أحد الثقلين لا كلّ منهما ، أو إلى كلّ منهما ، أو كان رسل الجنّ رسل الإنس ؛ للإجماع على اختصاص الرسل بالإنس ، وما روي من أنّ الله بعث نبياً إلى الجنّ يقال له يوسف فقتلوه ^(٥) ، وأرسل محمداً صلى الله عليه وآله إلى الثقلين ، لا دلالة فيه على أنّ ذلك النبي كان من الجنّ.

ثمّ لما لم يجدوا بداً من الاعتراف بالرسل وتبليغاتهم ﴿قَالُوا﴾ محبين : بلى ﴿شَهِدْنَا﴾ وأعترفنا ﴿عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بالكفر واستحقاق العذاب.

ثمّ بيّن سبحانه علّة كفرهم وشقاقهم مع الرسل بقوله : ﴿وَغَرَّتْهُمْ﴾ وفتنتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

(١ و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٣ : ١٩٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٥ ، والآية من سورة فاطر : ٣٥ / ٢٤ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٤٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٥٨ .

وشهواتها ، فلم يؤمنوا بالرسول ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ في القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالبعث ودار الجزاء.

قيل : تشهد جوارحهم عليهم بالشرك ^(١) وإنكار الحشر.

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١)

ثم أشار سبحانه إلى حكمة بعث الرسول بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إرسال الرسول ، والتبليغ والإنذار ، لأجل ﴿أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ﴾ مع كمال عدله وحكمته ﴿مُهْلِكَ﴾ أهل ﴿الْقُرَى﴾ ومعذبهم بعذاب الاستئصال ﴿بِظُلْمٍ﴾ صادر منهم ، أو متلبساً بظلم منه على القرى ﴿وَوُ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عما يسخطه ويرضاه ، معذورون في عصيان أوامره ونواهيه لجهلهم بها حتى يكون لهم على الله حجة ، ويصح قولهم : ﴿رَبَّنَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢) .

وحاصل الآية أن إرسال الرسول وإنزال الكتاب ، إنما كان لإتمام الحجة على الناس ، ولولاه كان تعذيبهم على مخالفة الأحكام مع جهلهم بما ظلموا ممتنعاً صدورهم من الله ؛ لمنافاته لربوبيته والوهيته.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢)

ثم لما كان بعد إرسال الرسول وإتمام الحجة على الناس تفاوت فاحش بينهم في الإيمان والكفر والطاعة والعصيان ، نبه سبحانه بعلمه بمراتب استحقاقاتهم المختلفة بقوله : ﴿وَلِكُلِّ﴾ من مكلفي الجن والإنس ؛ كفارهم ومؤمنهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ومراتب متفاوتة في القرب من الله والبعد عنه ، وفي مقدار استحقاق المثوبة والعقوبة ، حاصلة تلك الدرجات لهم ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من الحسنات والسيئات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وجاهل بما يرتكبون من الطاعة والعصيان ، ومراتب استحقاقاتهم ؛ فيجزي كل عامل على حسب استحقاقه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا

أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٣)

ثم أعلن سبحانه بغناه عن طاعة الخلق بقوله : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ المطلق بذاته لا حاجة له إلى طاعة

(١) تفسير الرازي ١٣ : ١٩٦ .

(٢) القصص : ٢٨ / ٤٧ .

المطيعين ، ولا ضرر عليه من معصية العاصين ، وإنما كلف الثقلين لأتة ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ الواسعة على خلقه ، ومن رحمته عليهم أن يكلفهم بما يوجب تكميل نفوسهم واستعدادهم للفيوضات الأبدية والتَّعم الدَّائمة ، وتعاليمهم إلى الدَّرجات العالية ، وسعادتهم بالقيام إلى الطَّاعة والتَّحرُّز عن القبائح .

ثم لما أعلن سبحانه بغناه وسعة رحمته ، أردفه بإظهار كمال قدرته ببيان فيه ترهيب للقلوب بقوله : ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ الله أيها النَّاس ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ من وجه الأرض ويهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ ويخلق بدلا منكم ﴿مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ وبعد إهلاككم ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خلقه من قوم يكونون أطوع منكم له تعالى ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ وأوجدكم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ومن نسلهم مع عدم كونهم مثلكم في العصيان ، بل كانوا مطيعين كأصحاب سفينة نوح ، ولكنَّه تعالى لم يشأ إذهابكم ، ولم يجعل في إهلاككم رحمة عليكم .

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي

عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) ﴿

ثم بالغ سبحانه في ترهيب العصاة بقوله : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب على الكفر والعصيان ، والله ﴿لَآتٍ﴾ وكائن لوجود المقتضي وهو الاستحقاق ، والوعد الذي لا خلف فيه ، وعدم فرض المانع عنه إلا قدرتكم على تعجيز الله ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى ، وفائتين منه ، وهارين من سلطانه .

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، تهديدا لقومك العصاة : ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ ما تريدون من الطَّغيان والعصيان مجدين فيه ﴿عَلَى﴾ غاية ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ ومنتهى قدرتكم واستطاعتكم ، أو اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والطَّغيان وعداوة الرِّسول ، ولا تنحرفوا عنه ، و﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضا بما امرت به من الصَّبْر على عداوتكم ، والجد في تبليغ رسالتي على مكاني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ﴾ هذه ﴿الدَّارِ﴾ الفانية التي خلقت لتلك العاقبة ، والنتيجة من الفلاح والنَّعمة والرَّاحة الدَّائمة ، ومن لا تكون له .

ثم صرَّح بحرمان المشركين من العاقبة المحمودة بقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ المشركون الذين هم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالكفر والعصيان ، ولا ينجون أبدا من العذاب ، ولا يفوزون بمقاصدهم .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا

لشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى

شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴿

ثم لما أمرهم تهديدا بالثبات على أعمالهم ، شرع في ذكر بعض أعمالهم القبيحة بقوله : ﴿وَجَعَلُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ وخلق بقدرته الكاملة في الأرض ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ والزرع ﴿وَو﴾ من ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة ؛ الإبل والبقر والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ وسهما ، مع أنّ الكلّ له ، ولأصنامهم التي جعلوها شركاء أنفسهم في أموالهم نصيبا ﴿فَقَالُوا﴾ مشيرين إلى نصيب الله : ﴿هَذَا﴾ النصيب ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة ، وذلك كان ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الفاسد وادّعائهم الباطل ، لا بالحجة والبرهان ﴿وَهَذَا﴾ النصيب الآخر ﴿لِشُرَكَائِنَا﴾ في أموالنا من الأصنام ﴿فَمَا كَانَ﴾ من النصيب ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾ وأصنامهم ﴿فَلَا يَصِلُ﴾ ولا يدفع شيء منه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بل يدفع إلى سدنة ^(١) الأصنام ﴿وَمَا كَانَ﴾ من النصيب ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿فَهُوَ يَصِلُ﴾ ويدفع ﴿إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ بصرفه في سدنتها ، وذبح التّسائك ^(٢) عندها .

ثم ذمهم سبحانه على ذلك التقسيم ، مع أنّ الجميع لله ، ثم صرفهم نصيب الله في مصارف الأصنام ، بقوله : ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشركة الجمادات في ما خلقه الله ، ثم ترجيحها عليه تعالى .
عن ابن عباس رضي الله عنه : كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم نصيبا وللأوثان نصيبا ، فما كان للصنم أنفقوه عليه ، وما كان لله أطعموه الصبيان والمساكين ، ولا يأكلون منه البتة ، ثم إن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا : إنّ الله غنيّ ، وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردّوه إلى نصيب الصنم وقالوا : إنّهُ فقير ^(٣) .

وقيل : كانوا إذا هلك ما لأوثانهم أخذوا بدله مما لله ، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله عَجَلٌ ^(٤) وقيل : إنّهُ إذا انفجر من سقي ما جعلوه للأصنام في نصيب الله سدّوه ، وإن كان على ضدّ ذلك تركوه ^(٥) .

وقيل : إنّهم كانوا إذا أصابهم القحط استعانوا بما لله ، ووقّروا ما جعلوا لشركائهم ^(٦) .
وقيل : إن زكا ونما نصيب الآلهة جعلوه لها وقالوا : لو شاء الله زكّا نصيب نفسه ، وإن زكا نصيب الله ولم يزك نصيب الآلهة قالوا : لا بدّ لأهلنا من نفقة ، فأخذوا نصيب الله وأعطوه السدنة ^(٧) .
أقول : لا تنافي بين الوجوه لإمكان أنّ جميعها كان عملهم ، وبعض الوجوه مروى عن أئمتنا ^(٨) .

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾

(١) أي خدمة الأصنام.

(٢) التّسائك والتّسك : جمع التّسيكة ، وهي الذبيحة.

(٣ و ٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٣ : ٢٠٤ .

(٦ و ٧) . تفسير الرازي ١٣ : ٢٠٤ .

(٨) راجع : مجمع البيان ٤ : ٥٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٠ .

ثم حكى سبحانه عن مشركي العرب مذهباً آخر أقبح من الأول إظهاراً لحقّة عقولهم ، وتحقيراً لهم في أنظار العقلاء بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التزيين الذي يكون في أنظارهم للتشريك بين الله وبين الأصنام في ما خلقه سبحانه من الحرث والأنعام ﴿زَيْنَ لَكثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ الإناث بدفنهنّ أحياء في الأرض خوفاً من الفقر ، أو السّي ، أو عارا من التزويج ، والذكور بنحرهم للحلف عليه ﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ وأولياؤهم من الشيطان ﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ ويهلكوهم إلى الأبد.

وعن ابن عباس رضى الله عنه : ﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ في التار ^(١) ، بالإغواء إلى الأعمال القبيحة ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ ويخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالتسويلات ﴿دِينَهُمْ﴾ الحق الذي كان عليه إسماعيل ، ويضلّوهم عنه. وقيل : إنّ المراد من شركائهم : سدنة آلهتهم ^(٢) ، وعليه يكون المراد : أنّ عاقبة تزيينهم إهلاكهم وتشويش دينهم عليهم ، لظهور أنّه لم يكن قصد السدنة من التزيين ذلك ، وإنّما هو قصد الشياطين. ثم لما كان شيوع تلك القبائح في أولاد إسماعيل ثقيلاً على النبي ﷺ ، سلّى سبحانه قلبه الشريف بأنّ صدور هذا القبيح منهم إنّما كان بمشيئة الله لأنّه خلّاهم وأنفسهم ، وسلّط عليهم الشياطين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم صدوره منهم ألبّاهم على تركه ، أو قوّى عقولهم وصرف قلوبهم عنه ، إذن ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ البتّة ، فإذا علمت أنّ الله شاء عصيانهم ، وأنّه مع كمال قدرته على أخذهم تركهم على ما هم عليه ليزدادوا إثماً ﴿فَذَرَهُمْ﴾ واتركهم أنت أيضاً ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ على الله وكذبهم عليه من قولهم : إنّ الله أمرنا به ، فإنّ لهم في الآخرة عذاباً عظيماً.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ

ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا

يَفْقَرُونَ﴾ (١٣٨)

ثم حكى سبحانه أنّهم قسّموا أنعامهم ثلاثة أقسام ؛ فجعلوا قسماً منها ومن حرثهم لآلهتهم ﴿وَقَالُوا﴾ مشيرين إلى هذه القسمة : ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ﴾ لآهتنا ﴿حِجْرٌ﴾ وممنوعة من التصرف فيها ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾ ولا يذوق منها أحد ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أن يطعمها ، وهم خدمة الآلهة ، وخصوص الرجال دون النساء ، وهذا الحكم يكون ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الباطل وهوى أنفسهم الفاسد ، لا بالحجّة والأخذ من الشريعة ، وقسمة منها جعلوها بحيرة وسائبة وحام ، وقالوا مشيرين إليها : ﴿و﴾ هذه ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ﴾ على الناس ﴿ظُهُورُهَا﴾ وركوبها ، وقسمة منها جعلوها للدّبح على النّصب ، وقالوا مشيرين

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٣ : ٢٠٦.

إليها : ﴿و﴾ هذه ﴿أَنْعَامٌ﴾ للذبح للأصنام ، وهم ﴿لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حين ذبحها أو نحرها ، بل يذكرون عليها اسم الأصنام ، وقيل : يعني لا يحجّون ولا يلبّون عليها ، وهم نسبوا ذلك التقسيم إلى الله ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ تعالى (١) .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿سَيَجْزِيهِمُ﴾ الله ويعاقبهم في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ عليه فيما ينسبون إليه .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩)

ثم حكى سبحانه حكمهم الباطل في أجنّة البحائر والسواكب والحوامي بقوله : ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ من الأجنّة ﴿خَالِصَةٌ﴾ ومحلّة ﴿لِلذُّكُورِنَا﴾ خاصّة وقيل : إن تاء (خالصة) للمبالغة كراوية (٢) .

﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ أكلها من قبل الله ﴿عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وإناثنا ، إن ولدت من أمها حيّة ﴿وَإِنْ يَكُنْ﴾ ما في البطون ﴿مَيْتَةً﴾ حين ولادته ﴿فَهُمْ﴾ جميعا ذكورهم وإناثهم ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ متساوون لا تفاوت بين ذكورهم وإناثهم في حليّة أكله .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿سَيَجْزِيهِمُ﴾ الله في الآخرة ﴿وَصَفَهُمْ﴾ وكذبهم عليه في التحليل والتّحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في فعّاله ، عامل مع خلقه على حسب ما يستحقّون ﴿عَلِيمٌ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ومقدار استحقاقهم .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

ثم أشار سبحانه إلى مفسدة قتل الأولاد وتحريم الانتفاع بالأنعام بقوله : ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وتضرّر أو هلك المشركون ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وفوّتوا على أنفسهم النعمة العظيمة وأعلى الحظوظ البشريّة ، وارتكبوا أعظم الذنوب وأقبح الظلم بالتّوهّمات السّخيفة لأجل أنّ لهم ﴿سَفَهًا﴾ وخفّة عقل ، وكوّنهم ملابسين ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وغاية جهالة ، بشناعة هذا العمل ومضارّه في الدّنيا والآخرة ﴿وَحَرَّمُوا﴾ على أنفسهم الانتفاع بالأنعام التي جعلوها سائبة وحاميا ، مع كونها [من] ﴿مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وأشياء تفضّل عليهم بإيجادها ، وتسليطهم عليها ، وإباحة الانتفاع بها أكلا وركوبا وحملا ، وهم

(١) جوامع الجامع : ١٣٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٢٠٨ ، جوامع الجامع : ١٣٧ .

بنسبة تحريمها إلى الله يفترون ﴿افْتَرَاءً﴾ عظيماً ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ وانحرفوا عن طريق الرشد إلى مصالحهم الدنيوية والآخرية ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه أبداً ، وإن بالغت في هدايتهم .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا

أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا

حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾

ثم لما وثق الله سبحانه المشركين على جعل نصيب من الحرث والأنعام للأصنام ، وتحريم ما رزقهم الله ، عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده الذي هو المقصود الأصلي في السورة المباركة بكونه خالق الزرع والأشجار والأنعام ؛ بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ وأخرج من العدم إلى الوجود ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذوات كروم ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ومحمولات على ما يحملها من الأخشاب وغيرها ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ﴾ .

قيل : هي الجنات التي لا غرس لها ، بل يكون فيها ما ينبت منبسطة على وجه الأرض كالقرع والبطيخ وأمثالهما ^(١) ، وقيل : هي التي فيها الكروم المنبسطة على الأرض ^(٢) ، وقيل : هي التي فيها الأشجار المستغنية عن العريش لاستوائه وذهابه إلى العلو بقوة ساقه ^(٣) .

﴿وَالنَّخْلَ﴾ بأنصافها المختلفة ﴿وَالزَّرْعَ﴾ من الحبوب التي يقتات بها - كما عن ابن عباس ^(٤) - حال كون كلٍّ من النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ وثمره ، ومتفاوتا بعضه مع بعض في الطعم والهيئة ، لكل صنف من ثمرها طعم غير الآخر ، وهيئة غير هيئة الآخر ، ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ﴾ حال كون بعض ثمرها ﴿مُتَشَابِهًا﴾ مع بعض في الطعم والهيئة واللون والجودة والرياءة ، ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ﴾ بعضه ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ من جميع الجهات أو من بعضها ؛ كالرمانتين اللتين لوئهما واحد وطعمهما مختلف .

ثم أنه تعالى بعد بيان مالكيته لجميع النباتات ، أذن للناس بالانتفاع بكل واحد منها بقوله : ﴿كُلُوا﴾ وانتفعوا أيها الناس ﴿مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ واصلح للانتفاع ، وإن لم يدرك ولم ينع لأثمه خلق لكم ، ولا تحرموا على أنفسكم منه شيئا ، ولا تجعلوا للأصنام منه نصيبا ﴿وَلَكِنْ آتُوا الْفُقَرَاءَ وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُ﴾ وما ثبت عليكم فيه من الضعف ^(٥) والحصة ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وحين جذاذه .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢١١ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٢١٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٢١١ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٢١٢ .

(٥) الضَّعْفُ : هو قبضة الحشيش المختلط من الأخضر واليابس .

قيل : اريد بالحق ما يتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة ؛ لأنّ الزكاة فرضت بالمدينة ، والآية
مكية ^(١) . وقيل : بل هو الزكاة ، أي لا تؤخروها عن أوّل وقت يمكن فيه الإيتاء ، والآية مدنيّة ^(٢) .
وفي (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « في الزرع حقان : حق تؤخذ به ، وحق تعطيه ، أمّا الذي
تؤخذ به فالعشر ونصف العشر ، وأمّا الذي تعطيه فقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فالصّغت
تعطيه ثمّ الصّغت حتّى تفرّغ » ^(٣) .
وعن الباقر عليه السلام : « هذا من الصدقة تعطى المسكين القبض بعد القبض ، ومن الجذاذ الحفنة بعد
الحفنة » ^(٤) .
والقميّ : عن الصادق عليه السلام في هذه الآية ، قال : « الصّغت من السنبل ، والكفّ من التمر إذا
خرص » ^(٥) .
وعنه عليه السلام فيها قال : « أعط من حضرك من مشرك وغيره » ^(٦) .
وعنه عليه السلام : « لا تصرم بالليل ، ولا تحصد بالليل - إلى أن قال : - وإن حصدت بالليل لم يأتك
السؤال ، وهو قول الله : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ يعني القبض بعد القبض إذا حصدته ، فإذا خرج
فالحفنة [بعد الحفنة] ، وكذلك عند الصّرام » . الخبر ^(٧) .
وعن الرضا عليه السلام ، سئل : إن لم يحضر المساكين وهو يحصد ؟ قال : « ليس عليه شيء » ^(٨) .
ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بالانتفاع والصدقة ، نهى عن الإسراف بقوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ولا تتجاوزوا
الحّد في الصدقة ، أو في منعها وقيل : يعني لا تضيّعوا ثمرتكم بأن تجعلوا ^(٩) للأصنام فيها نصيبا ، أو لا
تنفقوها في معصية الله ^(١٠) ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ولا يرضى عنهم .
عن الرضا عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « كان أبي يقول : من الإسراف في الحصاد
والجذاذ أن يتصدق الرجل بكفّيه جميعا ، وكان أبي إذا حضر شيئا من هذا فرأى أحدا من غلمان يتصدق
بكفّيه صاح به : أعط بيد واحدة ، القبض بعد القبض ، والصّغت بعد الصّغت من السنبل » ^(١١)
وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « كان فلان بن فلان الأنصاري - ومّمّه -
كان له

(١) تفسير أبي السعود ٣ : ١٩٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ : ١٩٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٢٠ / ١٤٩٦ ، الكافي ٣ : ٥٦٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٢ .

(٤) الكافي ٣ : ٥٦٥ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٢ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٢ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ١١٩ / ١٤٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٢ .

(٧) الكافي ٣ : ٥٦٥ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٣ .

(٨) تفسير القمي ١ : ٢١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٣ .

(٩) في النسخة : تجعلوها .

(١٠) تفسير الرازي ١٣ : ٢١٤ .

(١١) تفسير العياشي ٢ : ١٢١ / ١٥٠١ ، الكافي ٣ : ٥٦٦ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٣ .

حرث ، وكان إذا أخذه تصدق به ويبقى هو وعياله بغير شيء ، فجعل الله عزَّجَل ذلك سرفاً » (١) .
وعنه عليه السلام - في حديث - قال : « وفي غير آية من كتاب [الله] يقول : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير ، ولكن أمر بين أمرين ، لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له » (٢) .

روي أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، عمد إلى خمسمائة نخلة فجذَّها ثم قسمها في يوم واحد ، ولم يدخل منها إلى منزله شيئاً (٣) .

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرُشًا كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)﴾

ثم استدلل سبحانه بأنه خالق الأنعام ومالكها بقوله : ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أنشأ ما تكون ﴿حَمُولَةٌ﴾ تحمل عليها الأثقال ، أو ما تكون صالحة للحمل عليها لطول قوائمها وعظم جثتها ، ﴿وَفَرُشًا﴾ على الأرض ، شبه قسم منها به لقصر قوائمها ودنوها من الأرض ، أو فرشا يفرش للدبح ، أو يفرش ما ينسج من صوفها ووبرها.

ثم لما بين سبحانه أنه مالكها ، أذن في الانتفاع بها بقوله : ﴿كُلُّوا﴾ أيها الناس وانتفعوا من الأنعام الحمولة والفرش لكونها ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وأنعم به عليكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تطيعوه في تسويلاته بجعل الأصنام شريكا فيها ، وتحريم الانتفاع ببعضها يجعله سائبة أو بحيرة أو حاميا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم

الأنثيين أَمَّا اشتملت عليه أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا

اشتملت عليه أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ (١٤٣) و (١٤٤)﴾

(١) الكافي ٤ : ٥٥ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٣ .

(٢) الكافي ٥ : ٦٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٢١٤ .

ثم بيّن الله سبحانه أصناف الأنعام التي رزقها الله عباده بقوله : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وأصناف متصاحبات ، ثم فسرها بقوله : ﴿مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ﴾ الكبش والتعجة ، أو الأهلي والوحشي ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز ، أو الأهلي والوحشي .

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بأن ينكر على المشركين تحريم ما زعموه حراما بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ من الصَّانِ والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْاُنْثَيْنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ﴾ منهما من الأجنّة ، ذكرا كانت الأجنّة أم انثى ، مع أتكّم لا تقرّون برسول من الله إليكم حتّى تدعوا أنّه أخبركم بها .

ثم أمره بمطالبة الحجّة على الحرمة بقوله : ﴿نَبِّئُونِي﴾ وأخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ وحجّة قاطعة على تحريم الله شيئا من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿صَادِقِينَ﴾ في نسبة التّحريم إليه سبحانه .

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ الجمل والتّاقة ، أو العراب والبخاتي^(١) ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ الذّكر والانثى ، أو الأهلي والوحشي ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، إنكارا عليهم وإفحاما لهم : ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ من الأصناف الأربعة ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْاُنْثَيْنِ﴾ منها ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ﴾ .

ثم أنكر عليهم وجود الحجّة على ما أدّعوه من الحرمة بعد عدم اعترافهم برسول وعدم حكم العقل القاطع بها ، بقوله : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضّارا ﴿إِذْ وَصَّاءُكُمْ اللَّهُ﴾ وحكم عليكم ﴿بِهَذَا﴾ الحكم . وحاصل الاحتجاج : أنّ طريق معرفة حكم الله منحصر ببيان الرّسول وحكم العقل والمشاهدة والسّماع من الله ، وأنتم لا تؤمنون برسول ، وليس لكم برهان عقليّ على التّحريم ، ولم تسمعوا من الله هذا الحكم ، فثبت أنّ القول بتحريم الله هذه الأنعام وما في بطونها افتراء عليه .

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام [قال] : « حمل نوح عليه السلام في السفينة الأزواج الثمانية التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ﴾ الآية ، فكان من الصَّانِ [اثنين] : زوج داجنة يربّيها النّاس ، والزّوج الآخر الصَّانِ التي تكون في الجبال الوحشيّة ، أحلّ لهم صيدها ، ومن المعز اثنين : زوج داجنة يربّيها النّاس ، والزّوج الآخر الطّباء التي تكون في المفاوز ، ومن الإبل اثنين : البخاتي والعراب ، ومن البقر اثنين : زوج داجنة للنّاس ، والزّوج الآخر الوحشيّة ، وكلّ طير طيّب وحشي وإنسي »^(٢) .

وفي (الفقيه) : عن داود الرقيّ ، قال : سألي الخوارج عن هذه الآية ﴿مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ﴾ الآية ، ما الذي أحلّ الله من ذلك ، وما الذي حرّم ؟ فلم يكن عندي فيه شيء ، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا

(١) العراب : الإبل العربية ، والبخاتي : الإبل الخراسانية .

(٢) الكافي ٨ : ٢٨٣ / ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٥ .

حاج ، فأخبرته بما كان ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ فِي الْأُضْحِيَّةِ [بِنَى الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَحَرَّمَ أَنْ يَضْحَى فِيهِ بِالْجَبَلِيَّةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ فِي الْأُضْحِيَّةِ بِنَى [الْإِبِلِ الْعَرَابِ وَحَرَّمَ مِنْهَا الْبَحَاتِي ، وَأَحَلَّ الْبَقَرِ الْأَهْلِيَّةَ أَنْ يَضْحَى بِهَا وَحَرَّمَ الْجَبَلِيَّةَ » .
فانصرفت إلى الرَّجُلِ وأخبرته بهذا الجواب ، فقال : هذا شيء حملته الإبل من الحجاز ^(١) .

أقول : الظَّاهِرُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ كَانَ عَلِمًا بِالْحُكْمِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ دَاوُدَ بِمَعْرِفَتِهِ . وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ
عَدَمَ وَجْدَانِ الدَّلِيلِ عَلَى الْحُرْمَةِ كَافٍ فِي الْقَوْلِ بِإِبَاحَةِ مَشْكُوكِ الْحُرْمَةِ .

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ كَوْنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقَوْلِ بِحُرْمَةِ بَعْضِ الْأَنْعَامِ مُفْتَرِينَ عَلَيْهِ ، ذَمَّهُمْ بِكُوفِهِمْ
لَأَجْلِ افْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ أَظْلَمَ النَّاسَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عَلَى نَفْسِهِ بِإِهْلَاكِهَا الْأَبَدِيِّ ، وَعَلَى
رَبِّهِ بِتَضْيِيعِ حَقِّهِ ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ بِنِسْبَةِ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ إِلَيْهِ ﴿كَذِبًا﴾ لِغَيْرِ دِينِهِ الْحَقِّ ، كَعَمْرُو بْنِ
لَحْيٍ الْمَغِيرِ لِدِينِ إِسْمَاعِيلَ حَيْثُ إِنَّهُ بَجَرٍ ^(٢) الْبَحَائِرِ وَسَيِّبِ السَّوَائِبِ ، وَكُفْرَائِهِمْ الْمُقَرَّرُونَ لَذَلِكَ ،
و﴿لِيُضِلَّ﴾ وَيُحْرِفَ ﴿النَّاسَ﴾ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بِسُوءِ عَاقِبَةِ هَذَا التَّغْيِيرِ وَالْإِضْلَالِ . وَقِيلَ
: إِنْ لَمْ (لِيُضِلْ) لَمْ الْعَاقِبَةُ ^(٣) .

ثُمَّ هَدَّدَ سُبْحَانَهُ الْمُفْتَرِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فَكَيْفَ يَقُومُ هُمْ أَظْلَمَ النَّاسَ !

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ
دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ نَبِيِّهِ ﷺ بِمُطَالَبَةِ الْحُجَّةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَا زَعَمُوهُ مِنْ حُرْمَةِ بَعْضِ الْأَنْعَامِ
وَمَا فِي بَطْوَحِهَا ، وَظَهَرَ عَجْزُهُمْ عَنْ إِقَامَتِهَا ، أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى حَلْيَةِ جَمِيعِ الْأَنْعَامِ بِقَوْلِهِ :
﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ مِنْ رَبِّي مِنَ الْأَحْكَامِ طَعَامًا يَكُونُ ﴿مُحَرَّمًا﴾ مِنْ قَبْلِهِ
﴿عَلَى طَاعِمٍ﴾ وَآكَلَ ﴿يَطْعُمُهُ﴾ وَيَأْكُلُهُ ، [سِوَا أ] كَانَ ذَكَرًا أَوْ اُنْثَى ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ ذَلِكَ الطَّعَامُ
﴿مِيتَةً﴾ وَحَيَوَانًا خَرَجَ رُوحُهُ بَغَيْرِ التَّذْكِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وَمُصْبُوبًا مِنَ الْعُرُوقِ بَعْدَ

(١) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ ٢ : ٢٩٣ / ١٤٥١ ، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢ : ١٦٥ .

(٢) بَحْرُ النَّاقَةِ : شَقَّ اذْنَهَا .

(٣) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣ : ١١٣ .

الدَّبْح أو النَّحْر دون الدَّم المتخلف بعد الدَّبْح ، كما في الكبد والطَّحال واللَّحْم ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ﴾ وقذر ، وكلّ قذر نجس وحرام ، وإنّما خصّ حرمة لحمه بالذكر مع أنّ شحمه أيضا حرام لكونه أهمّ ما فيه وعمدة ما يقصد منه بالأكل ﴿أَوْ فَسَقًا﴾ وهو الحيوان الذي ﴿أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ورفع الصَّوت عند ذبحه أو نحره باسم الأصنام ، وإنّما سمّاه فسقا لتوغّله فيه.

عن القمّي رحمه الله : قد احتجّ قوم بهذه الآية على أنّه ليس شيء محرّما إلّا هذا ، وأحلّوا كلّ شيء من البهائم ؛ القردة والكلاب والسباع والدّئاب والاسد والبغال والحمير والدّواب ، وزعموا أنّ ذلك كلّّه حلال وغلطوا في هذا غلطا مبينا ^(١) ، وإنّما هذه الآية ردّ على ما أحلت العرب وحرّمت ؛ لأنّ العرب كانت تحلّل على نفسها [أشياء] وتحرم أشياء ، فحكى الله ذلك لنبيّه ﷺ ما قالوا ^(٢) .

وقال الفاضل المقداد : وهنا سؤال ، وهو أنّه قد وجد كثير من المحرّمات ، وهو غير مذكور في الآية ، فكيف يقول : لا أحد إلّا كذا ... الدّال على الحصر ؟ وكذا في قوله : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ و (إنّما) للحصر .
والجواب : أنّ (اوحى) فعل ماض ، و (أجد) للحال ، فمنطوقها : لا أجد في ما اوحى إليّ في الماضي غير هذه الأربعة ، وليست هذه الآية آخر ما نزل عليه ﷺ ، فجاز أن يكون جاءه تحريم أشياء بعد نزولها ، وكذا الكلام في (إنّما) ، فإنّ الحصر فيها للحكم الحالي ^(٣) .

تحقيق في دفع إشكال

أقول : حكى الوجهان المذكوران لدفع الإشكال عن بعض العامة أيضا ، وفيهما ما لا يخفى من الضّعف ، مع أنّهما منافيان للأخبار العاميّة والخاصيّة . وقد روى العامة أن ابن عبّاس وعائشة استدلاّ بالآية على حليّة لحم الحمار ^(٤) .
وروى أصحابنا عن الصادقين عليه السلام أنّهما قالوا : « ليس الحرام إلّا ما حرّم الله » ، وتلّيا هذه الآية ^(٥) .

فالحقّ في الجواب : أنّ جميع ما في آية المائدة داخل في الميتة ، وجميع التّجاسات داخل في عموم الرّجس ، فإنّ عموم العلة من قوله : ﴿فَإِنَّهُ رَجْسٌ﴾ يوجب عموم الحكم لكلّ رجس ، وأمّا حرمة كلّ ذي ناب من الوحش ، وكلّ ذي مخلب من الطّير ، وكلّ ما لا فلس له من السّمك ، فإن قلنا : بأنّ المراد من الرّجس : الخبيث ، وأنّه ما استخبثه الشّارع ، فبأدلة حرمة الأشياء المذكورة نعلم دخولها في الآية ، لعموم العلة ، وإن قلنا : إنّ الرّجس هو القذر ، فيختصّ بالتّجاسات ، وحينئذ لا بدّ من الالتزام بتخصيص مفهوم الآية بتلك الأدلّة ، أو كونها قرينة على إرادة الحصر الإضافي أو الحصر الحقيقي ، وتنزيل حرمة غير هذه الأربعة منزلة المباح إعظاما لحرمة هذه الأربعة.

(١) في المصدر : بيّنا.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٦ .

(٣ و ٤) . كنز العرفان ٢ : ٣٠٣ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٢٥ / ١٥١٣ و ١٥١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٧ .

ثمَّ بَيَّنَّ أَنَّ هذه الأربعة أيضا مباحة عند الضَّرورة منَّة على العباد بقوله : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ وألجأته الضَّرورة إلى أكل شيء من تلك المحرَّمات ، وكان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ لذَّة ، أو غير متعدٍّ على مضطرٍّ آخر مثله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومتجاوز في الأكل على قدر الضَّرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له لا يؤاخذ به بأكمله ﴿رَحِيمٌ﴾ به لا يرضى بضرره ومشقَّته .

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾

ثمَّ بَيَّنَّ سبحانه أَنَّهُ حَرَّمَ أشياء أخرى على خصوص اليهود بسبب كثرة عصيانهم بقوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ﴾ حيوان ﴿ذِي ظُفْرٍ﴾ وإصبع كالإبل والطيور .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : أَنَّهُ الإبل والنَّعامة ^(١) . وفي رواية أخرى : إِنَّهُ الإبل فقط ^(٢) .

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ وثروبعهما ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ واشتملت به ﴿ظُهُورُهُمَا﴾ من شحم الكتفين إلى الوركين من داخل وخارج . كما قيل ^(٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : إِلَّا مَا علق بالظَّهر من الشَّحم ^(٤) .

وعن قتادة : إِلَّا مَا علق بالظَّهر والجنب من داخل بطونها ^(٥) .

﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ وما التصق بالمباعر ^(٦) والمصارين من الشَّحوم ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ﴾ والتصق ﴿بِعَظْمٍ﴾

كشحم الإلية ، وكان ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم عليهم جزاء ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ وظلمهم على أنفسهم بارتكاب المعاصي من أكل الرِّبَا ، وأخذ أموال النَّاس بالإثم ، وقتل الأنبياء .

قيل : إِنَّهُمْ كُلَّمَا أَتَوْا بِمَعْصِيَةٍ عَاقِبُوا بِتَحْرِيمِ شَيْءٍ مِّمَّا أَحَلَّ لَهُمْ . وفيه ردٌّ على ما ادَّعوا من أَنَّ كُلَّ

ذلك لم يزل محرَّما على الامم الماضية ، وكانوا مصرِّين عليه ؛ ولذا أكَّد سبحانه كذبهم في الدَّعوى بقوله :

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ^(٧) في إخبارنا بتخصيص حرمة تلك الأشياء بعلَّة بغْيهم ، وإِنَّهُمْ لكاذبون في أَنَّهُمْ لم تزل محرَّمة .

(١) (٢) . تفسير الرازي ١٣ : ٢٢٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١١٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٣ : ٢٢٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٣ : ٢٢٣ .

(٦) المباعر : جمع مبعر ، وهو مكان خروج البعر من الأمعاء ، أو المصبران الحاوي للبعر .

(٧) تفسير روح البيان ٣ : ١١٥ .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رُبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بتهديدهم على تكذيبه بقوله : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ، مع شهادتنا بصدقك في اختصاص حرمة الأشياء المذكورة بهم ، أو فيه وفي دعوى الرسالة وتبليغ الأحكام ﴿فَقُلْ﴾ للمكذّبين : حقّ عليكم العذاب ، ولكن ﴿رُبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ للمؤمن والكافر ، ولذا لا يجعل في عقوبتكم على تكذيبكم رسوله ، فلا تغتروا بإمهاله فإنّه يعذبكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ وعذابه إذا جاء وقته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بتكذيب الرّسل ، والإصرار على الكفر ، والعناد مع الحقّ.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾

ثم حكى سبحانه احتجاج المشركين على صحّة قولهم بالشرك وحرمة السّوائب وأخواتها بقوله : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله احتجاجا على صحّة قولهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وأراد منا أن لا نشرك به شيئا ولا نحرم شيئا ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ لقدرته على منعنا عمّا لا يرضاه ، وعدم تمكّنا من التّخلّف عن إرادته ، وكوننا مجبورين فيما يصدر منا - كما يقول الأشاعرة - وحيث رأينا أنّه صدر منا الشرك والتّحريم ولم يمنعنا عنهما ، علمنا ، أنّه أراد منا ذلك ورضي بما نحن عليه من الاعتقاد والعمل ، وأنت كاذب عليه فيما تدّعيه من بغضه إيّاه ونهيه عنه.

ثم ردّهم سبحانه بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ التّكذيب الذي صدر منهم بك على تلك الحجّة ﴿كَذَّبَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ولم يؤمنوا بهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وطعموا طعم عذاب الاستئصال ، فكان تعذيبهم على تكذيب الرّسل وبقائهم على الشرك حجّة قاطعة على عدم رضائنا بما هم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : بعدما ثبت أنّ حجّتكم ضعيفة ظنيّة ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ﴾ غيرها دليل يفيد مرتبة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ برضا الله بما أنتم عليه من الشرك وسائر الأباطيل ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ وتظهره ﴿لَنَا﴾ حتّى نتّبعه ؟ ليس لكم ذلك ، بل ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ فيما تدّعون شيئا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الحاصل لكم من عدم صرف الله قلوبكم من الشرك ، وعدم قهره إيّاكم على التّوحيد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وتخمنون ، أو

تكذبون أقبح أنواع الكذب.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتأكيد الحجة عليهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لهؤلاء المشركين : وإن ثبت أن حجّتكم على صحة الشّرك داحضة ﴿فَلِلَّهِ﴾ على توحيده وعدم رضاه بالشّرك ﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ غاية المتانة ، والبيّنة الواضحة من تعذيبه المشركين ، وآيات كتابه المقرونة بالإعجاز ، والبراهين التي قرّرها رسوله ، وإثما وكلّكم إلى عقولكم وقدرتكم واختياركم لاقتضاء ذلك حكمته ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ بالإرادة التكوينية ، وأقتضت حكمته إجباركم على الهداية والإيمان ﴿لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ البتّة ، وحملكم على الإيمان لا محالة ، فلا يكون منكم ضالّ ولا مشرك.

عن القمي رحمه الله قال : « لو شاء لجعلكم كلّكم على أمر واحد ، ولكن جعلكم على الاختلاف »^(١).

عن الكاظم عليه السلام : « أن الله [على الناس] حجّتين : حجة ظاهرة ، وحجة باطنة ، فأما الظاهرة : فالرسل والأنبياء والأئمة ، وأما الباطنة : فالعقول »^(٢).

وعن الصادق عليه السلام ، سئل عن قوله : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فقال : « إنّ الله تعالى يقول للبعد يوم القيامة : عبدي أكنت عالما ؟ فإن قال : نعم ، قال له : أ فلا عملت [بما علمت] ، وإن كان جاهلا قال له : أ فلا تعلّمت حتّى تعمل ، فيخصمه ، فتلك الحجة البالغة »^(٣).

وعنه عليه السلام : « الحجة البالغة التي تبلغ الجاهل من أهل الكتاب فيعلمها بجهله كما يعلمها العالم بعلمه »^(٤).

﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾

ثم أنّه تعالى بعد إبطال دليل المشركين على صحة مفترياتهم وإنكار مشاهدتهم الله وسماعها منه ، طالب منهم إحضار^(٥) غيرهم ممّن شاهدته وسمع منه بقوله : ﴿قُلْ هَلْمْ﴾ أيّها المشركون وأحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ وقادتكم ﴿الَّذِينَ﴾ ينصرون مذهبكم لأجل أنّهم ﴿يَشْهَدُونَ﴾ عن علم وعيان ﴿أَنَّ

(١) تفسير القمي ١ : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٨ .

(٢) الكافي ١ : ١٣ / ١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٨ .

(٣) أمالي الطوسي ٩ : ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٩ .

(٤) تفسير الصافي ٢ : ١٦٩ .

(٥) كذا ، والظاهر : طالبهم بإحضار .

الله حَرَّمَ هَذَا الذي تدعون حرمة ، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ على سبيل الفرض أنَّ الله حرَّمه ﴿فَلَا تَشْهَدُوا﴾ أنت ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تصدقهم ؛ لأنهم كاذبون متبعون لهوى أنفسهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿وَالَّذِينَ﴾ ينكرون البعث ، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿وَالَّذِينَ﴾ الذين هم برئهم يعدلون غيره ويشركونه خلقه.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

ثم لما أبطل قولهم بجرمة ما حرّموه من قبل أنفسهم ، أمر سبحانه نبيه ﷺ بدعوتهم إلى الإيمان بجرمة ما حرّمه الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لقومك المشركين : ﴿تَعَالَوْا﴾ وحيثوا يا قوم ﴿أَنُلْ﴾ وأقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من الكواكب والأصنام وغيرهما. ثم أردف النهي عن الشرك بالنهي عن إيذاء الوالدين ، لكونهما بعده تعالى أعظم نعمة وحقاً بقوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أحسنوا ﴿إِحْسَانًا﴾ عظيماً. وإنما وضع وجوب الإحسان موضع تحريم الإساءة ، للمبالغة في تحريمها ، وللاشارة إلى عدم جواز الاكتفاء بترك الإساءة في شأنهما. عن القمي رحمه الله قال : « الوالدين رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما » (١).

﴿وَالَّذِينَ﴾ أن ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ بالدفن في الأرض ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ الإناث ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿إِمْلَاقٍ﴾ وفقر ، أو من خشيته ، فإنه ليس عليكم رزقهم ، بل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فكما أنه يجب عليكم الاتكال علينا في رزقكم ، كذلك يجب عليكم الاتكال علينا في رزقهم ؛ فلا تحافوا الفقر والعجز عن الإنفاق عليهم ، ﴿وَالَّذِينَ﴾ أن ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾ ولا ترتكبوا ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ والأعمال الشديدة القباحة ككبائر الذنوب أو الزنا ، سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وما يفعل علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي منها.

عن ابن عباس رضي الله عنه : كانوا يكرهون الزنا علانية ويفعلون ذلك سراً ، فنهاهم [الله] عن الزنا علانية وسراً (٢).

وعن الباقر عليه السلام : « ما ظهر : هو الزنا ، وما بطن : المحالّة » (٣).

(١) تفسير القمي ١ : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٢٣٣ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٥٩٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٩ ، والمحالّة : الصداقة.

وفي (الكافي) : عن السجاد عليه السلام : « ما ظهر نكاح امرأة الأب ، وما بطن : الزنا » (١) .
ثم أنه تعالى بعد النهي عن تضييع حقوق الاصول وهم الوالدان ، وحقوق الفروع وهم الأولاد ،
وحقوق نفسه من حفظها من ارتكاب الفواحش الموجبة لهلاك الأبد ، نهي عن تضييع حقوق الناس بقوله :
﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها بأي علة من العلل ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي جعله الله من حكمه
بوجوب قتلها في الحد ، أو جوازه في القصاص .

عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا يجلّ دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ،
وقتل نفس بغير حق » (٢) . وإثما خصّه سبحانه بالذكر مع دخوله في عموم الفواحش ، للإشعار بعظم
شأنه .

ثم أكد سبحانه التواهي بالحثّ على امتثالها بقوله : ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور من الأحكام ممّا ﴿وَصَّاكُمْ﴾
الله ﴿بِهِ﴾ وأمركم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون منافع دينكم ودنياكم .
وإثما عبّر عن الأمر بالمحافظة بلفظ الوصية ، لما فيه من اللطف والرحمة حتّى يكون المكلف أقرب إلى
القبول والقيام إلى الطاعة .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾

ثم بيّن المحرم السادس بقوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تتصرفوا فيه بمصلحة من الخصال ﴿إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما يفعل به من حفظه وتنميته ، أو أحسن من التّرك كحفظه فقط ، أو تجارة يكون
غيرها أنفع ، واستمروا على ذلك ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ وقوّته ، وهو كناية عن حلمه ورشده .
عن الصادق عليه السلام : « انقطاع يتم اليتيم الاحتلام ، وهو أشدّه ، وإن احتلم ولم يؤنس منه رشد ،
وكان سفيها أو ضعيفا ، فليمسك عنه وليّه [ماله] » (٣) .

عن أبي جعفر عليه السلام - في حديث - قال : « إنّ الجارية ليست مثل الغلام ، إنّ الجارية إذا تزوّجت
ودخل بها ولها تسع [سنين] ، ذهب عنها اليتيم ، ودفع إليها مالها ، وجاز أمرها في الشراء والبيع ،
واقامت عليها الحدود التامة ، واخذت لها بها » قال : « والغلام لا يجوز أمره في الشراء والبيع ، ولا يخرج
من اليتيم حتّى يبلغ خمس عشرة سنة ، أو يحتلم ، أو يشعر ، أو ينبت قبل ذلك » (٤) .

(١) الكافي ٥ : ٥٦٧ / ٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٦٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٣ : ٢٣٣ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤ : ١٦٣ / ٥٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٠ .

(٤) الكافي ٧ : ١٩٨ / ١ .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في المكيّلات ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ في الموزونات ، وأكملوا الحقّ فيهما ، حال كونكم متلبّسين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل والتسوية ، لا ينقص من عليه الحقّ منه شيئاً ، ولا يطلب من له الحقّ زيادة عليه شيئاً ، وإن كان اتّباع العدل عسراً ، فنحن ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا﴾ بعديل يكون ﴿وُسْعَهَا﴾ وميسورها ، وأمّا معسورها فمعفو عنه لا تؤاخذ به .

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوها ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه ولا تجوروا ولا تجاوزوا عن الحقّ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ منكم وصاحب رحم ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ من نذوركهم وإيمانكم ، وما أمركم به من ملازمة العدل والعمل بأحكامه ﴿أَوْفُوا﴾ واعملوا على نحو الكمال ، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فصل لكم من الأحكام ممّا ﴿وَصَّائِكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأمركم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه من الحسن والصّلاح ، وتعملون به .

قيل : إن التّكّة في ختم الآية الأولى بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كون التكاليف الخمسة التي فيها أموراً ظاهرة يكفي في العمل بها التّعقل والفهم ، وفي ختم هذه الآية بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كون التكاليف الأربعة التي فيها أموراً غامضة محتاجة إلى الاجتهاد والفكر حتّى يقف المكلف على موضع الاعتدال ^(١) .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
 ذَلِكَمُ وَصَّائِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

عن ابن عبّاس رضي الله عنه : هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب ، من عمل بهنّ دخل الجنّة ، ومن تركهنّ دخل النار ^(٢) .

﴿وَوَاعِلَمُوا﴾ أنّ هذا الذي ذكرت في السّورة المباركة من التّوحيد والمعاد وأحكام الدّين ﴿صِرَاطِي﴾ ومسلكي وشرعي المؤدّي إلى كلّ خير ، أو إلى جنّتي ورضواني ، حال كونه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ مستويّاً لا عوج فيه ، إذن ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أيّها النّاس ، ولا تعدّلوا عنه إلى غيره ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المتفرقة والمذاهب المختلفة كاليهودية والنّصرانيّة وغيرها من الملل ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ وتباعد ﴿بِكُمْ﴾ أو أمالككم ^(٣) ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الحقّ ودينه المرضي ﴿ذَلِكَمُ﴾ الاتّباع ممّا ﴿وَصَّائِكُمْ﴾ الله وأمركم ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الصّلاوات .

(١) تفسير الرازي ١٣ : ٢٣٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٣ .

(٣) كذا ، والظاهر : تباعد بكم أو تمليككم ...

عن ابن مسعود رضي الله عنه : عن النبي ﷺ أنه لما تلا هذه الآية خطَّ خطًّا ثم قال : « هذا سبيل الرشَد » أو « سبيل الله » ، ثم خطَّ عن يمينه وشماله خطوطا ، ثم قال : « هذه سبيل ، على كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه » (١) .

عن النبي ﷺ ، في هذه الآية : « سألت الله أن يجعلها لعلِّي ففعل » (٢) .
وفي (الاحتجاج) : عنه ﷺ ، في خطبة الغدير : « معاشر الناس ، إنَّ الله [قد] أمرني ونهاني ، وقد أمرت عليًّا ونهيتة فعلم الأمر والنهي من ربِّه ، فاسمعوا لأمره تسلموا ، وأطيعوه تهتدوا ، وانتهوا لنهيته ترشدوا ، وصيروا إلى مراده ، ولا تتفرَّق بكم السبيل عن سبيله .
معاشر الناس ، أنا الصِّراط المستقيم (٣) الذي أمركم باتباعه ، ثم عليٌّ من بعدي ، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٤) .

وعن الباقر عليه السلام ، قال لبريد العجلي : « تدري ما يعني ب ﴿ صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ » ، قال : قلت : لا ، قال : « ولاية عليٍّ والأوصياء » ، قال : « وتدري ما يعني ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ » ، قال : قلت : لا ، قال : « يعني : عليٌّ بن أبي طالب » . قال : « وتدري ما يعني ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ » . قال : قلت : لا ، قال : « ولاية فلان وفلان والله » قال : « وتدري ما يعني ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ » قال : قلت : لا . قال : « يعني سبيل عليٍّ » (٥) .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٤)

ثم لما بيّن الله سبحانه وصاياه بجميع الامم بالالتزام بالمحرمات المفصلة في الآيات غير المتغيرة بتغيير الشرائع ، من على الناس بتكميل شريعته لهم بالأحكام التي شرّعها في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام بقوله : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ المسمّى بالتوراة ، لأجل أن يكون ﴿ تَمَامًا ﴾ ومكملاً للنعمة والكرامة ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ القيام به ، وادّى حق العمل بأحكامه ، واجتهد في تبليغه كائنًا من كان من الأنبياء والمؤمنين ، ﴿ وَ ﴾ ليكون ﴿ تَفْصِيلًا ﴾ كافيا وبيانا وافيا ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من العلوم والأحكام التي يحتاج إليها الناس ، ومنها البشارة بنبوة خاتم الأنبياء وذكر علائمه ونعوته ، ﴿ وَ ﴾ يكون ﴿ هُدًى ﴾ من الضلالة ورشادا إلى كلِّ حق ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ وتفصلاً عظيماً بالمؤمنين به ، العاملين بأحكامه ﴿ لَّعَلَّهُمْ ﴾ بالنظر إلى ظهور قدرة الله وكمال حكمته في إنزال هذا الكتاب ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٣ .

(٢) روضة الواعظين : ١٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧١ .

(٣) في المصدر : صراط الله المستقيم .

(٤) الاحتجاج : ٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧١ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٢٧ / ١٥٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧١ .

والحشر إلى دار الجزاء ، أو بقاء ثوابه وعقابه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ به عن صميم القلب ، ويوقنون حقّ اليقين .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا

أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ

تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ

يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٥) و (١٥٧)﴾

ثمّ لما منّ سبحانه على بني إسرائيل وغيرهم بإتمام النعمة عليهم بإنزال التّوراة ، وبينّ ما لها من الفضائل ، منّ على مشركي أهل مكّة وبني إسماعيل وغيرهم ، واحتجّ عليهم بإنزال القرآن الذي هو أفضل الكتب السماوية بقوله : ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الذي بين أيديكم ﴿كِتَابٌ﴾ كريم عظيم الشأن ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ من السّماء إليكم ، والدليل على أنّه من قبلنا لا من قبل الرّسول كما تزعمون ، أنّه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير النّفع لدينكم ودنياكم . وقيل : يعني : ثابت لا يتطرّق إليه النّسخ ؛ كما تطرّق في الكتابين ^(١) ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ واعملوا بما فيه من الأحكام ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله في تكذيبه ومخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ باتّباعه واتباع مخالفته ، وإنّما كان إنزاله عليكم لأجل كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ يا أهل مكّة يوم القيامة اعتذارا من كفركم وضلالكم واحتجاجا علينا : ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾ التّوراة والإنجيل ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ كائنتين ﴿مِنْ قَبْلِنَا﴾ هما اليهود والنّصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ وتلاوتهم الكتاب ﴿لَغَافِلِينَ﴾ وبما فيه جاهلين ، لكونه على غير لغتنا ، فلم نقدر على قراءته وفهمه ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يوم القيامة : ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من السّماء ﴿الْكِتَابُ﴾ العربيّ كما انزل على الطّائفتين الكتاب العربيّ ﴿لَكُنَّا﴾ بسبب شدّة ذكائنا وقوّة أفهامنا ﴿أَهْدَى﴾ وأرشد ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى كلّ حقّ ، أو إلى ما فيه من العلوم والمعارف والأحكام ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ القرآن الذي هو ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وحجة واضحة قاطعة للعذر ، كائنة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم ﴿وَهُدًى﴾ إلى كلّ حقّ ، وخير ورشاد من الضّلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ونعمة جسيمة للمؤمنين به ، كما كانت التّوراة كذلك .

قيل : الفرق بين البيّنة والهدى ، أنّ البيّنة الواضحة فيما يعلم بالسمع ، والهدى الواضحة فيما يعلم بالسمع والعقل ^(٢) .

ثمّ ذمّهم سبحانه على تكذيبهم القرآن بقوله : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضرّ على نفسه وغيره ﴿مِمَّنْ

كَذَبَ

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٥ .

بآياتِ الله ﴿المنزلة﴾ ، والقرآن الذي هو في درجة الإعجاز ، مع العلم به ﴿وَصَدَفَ﴾ وأعرض ، أو صدّ الناس ﴿عَنْهَا﴾ ومنعهم من الإيمان بها .

ثم هدّدهم بعد إنكار كون أحد أظلم منهم بقوله : ﴿سَنَجْزِي﴾ في الدنيا أو الآخرة أو فيهما الكفار ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ ويعرضون ، أو يصدّون الناس ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ القرآنية ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وأشدّه ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ الناس ويضلّونهم عن الحقّ على التّجذّد والاستمرار .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

ثم لما بيّن سبحانه انقطاع عذر الكفار في عدم إيمانهم بتوحيده ورسالة رسوله بسبب نزول القرآن الذي هو أفضل الكتب السماوية بلغتهم ، أكّد سبحانه ذلك ببيان أنّه لا عذر لهم في عدم الإيمان إلّا انتظار وقوع أحد أمور كلّها من المحالات ، أو بلوغ وقت انقطاع التّكليف ، بقوله إنكارا عليهم : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وينتظرون في إيمانهم برسالتك وصحّة دينك ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من السّماء بصورتهم الملكية ، يشهدون عندهم برسالتك ، أو الملائكة الموكّلون على قبض الأرواح ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ عندهم بتصديقك وهم يشهدون بأعينهم ، أو بالعذاب ، أو بجميع آيات القيامة وأشراط السّاعة والهلاك الكلّي ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ من المعجزات القاهرات أو أشراط السّاعة .

عن الصادق عليه السلام : « الآية المنتظرة : القائم » ^(١) .

مع أنّه ﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ كالدّخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشّمس من مغربها ، وخروج الدّجال ، وغيرها .

وعنهم عليهم السلام : « أنّه العذاب في الدنيا » ^(٢) .

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ لصيرورته ضروريا لها ، ولكن ذلك إذا ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ تلك النفس ﴿آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي حال عدم معاينة الآخرة .

عن الصادق عليه السلام : « يعني [في] الميثاق » ^(٣) .

﴿أَوْ﴾ ما ﴿كَسَبَتْ﴾ وحصلت ﴿فِي﴾ حال ﴿إِيْمَانُهَا﴾ قبل ذلك ﴿خَيْرًا﴾ وعملا صالحا .

(١) كمال الدين : ٣٣٦ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٣ .

(٢) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٢ .

(٣) الكافي ١ : ٣٥٥ / ٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٣ .

عن أحدهما عليه السلام ، في قوله : ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال : « المؤمن العاصي حالت بينه وبين إيمانه كثرة ذنوبه ، وقلة حسناته ، فلم يكسب في إيمانه خيرا » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام ، في حديث ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال : « الإقرار بالأنبياء والأوصياء وأمير المؤمنين خاصة » قال : « لا ينفع إيمانها لأتة سلب » ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث خروج الدجال وقتله ، ودابة الأرض ، وفي آخره : « ثم ترفع الدابة رأسها ، فيراها من بين الخافقين بإذن الله جلّ جلاله ، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها ، فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ، ولا عمل يرفع ، و﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ثم فسّر صعصعة راوي الحديث طلوع الشمس من مغربها بخروج القائم عليه السلام ^(٣) .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله بتهديد المصرين على الكفر بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد : ﴿انْتَظِرُوا﴾ إتيان أحد الأمور الثلاثة ﴿إِنَّا﴾ أيضا ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾ لذلك ، وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل بما حلّ بكم من سوء العاقبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾

ثم أنه تعالى بعد إتمام الحجة على المشركين بنزول القرآن بلسان عربي مبين ، ووعيدهم على تكذيبه ، وتوبيخهم على الإصرار على الكفر ، أمر النبي صلى الله عليه وآله بالتبري منهم وعدم التعرض لهم بالقتال ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا﴾ وشعبوا ﴿دِينَهُمْ﴾ .

عن ابن عباس رضی الله عنه قال : يريد المشركين ، بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله ، وبعضهم يعبدون الأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ^(٤) .

وعن مجاهد : هم اليهود والنصارى ، كلّ منهم تفرّقوا فرقا ، وكفر بعضهم بعضا ^(٥) .

وقيل : هم أهل البدع من هذه الامة ^(٦) ، [وقد] روي عن الباقر عليه السلام ^(٧) .

﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ وأحزابا في الضلالة ، أو كانوا أتباعا لأئمة الضلال ، كلّ فرقة تشايع ^(٨) إماما.

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٢٨ / ١٥٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٣ .

(٢) الكافي ١ : ٣٥٥ / ٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٣ .

(٣) كمال الدين : ٥٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ٧ .

(٦) تفسير الرازي ١٤ : ٨ .

(٧) مجمع البيان ٤ : ٦٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٤ .

(٨) في النسخة : شافع.

والقَمِّي [قال] : فارقوا أمير المؤمنين عليه السلام ، وصاروا أحزابا ^(١) .

﴿لَسْتُ مِنْهُمْ﴾ ومن السَّوَال عن تفرّقهم وعقائدهم ، أو من قتالهم ^(٢) ، أو من عقابهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ وقيل : يعني : أنت برئ منهم ^(٣) ، أو على التّباعّد التّام من الاجتماع معهم في شيء من مذاهبهم الفاسدة ^(٤) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ﴾ في الإمهال والإهلاك في الدّنيا ، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه راجع ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ، لا إليك ولا إلى غيرك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ ويخبرهم يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدّنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من المعاصي والقبائح بأن يعاقبهم على رؤوس الأشهاد.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

ثم أعلن سبحانه بكمال فضله على المحسنين ، وغاية عدله في عقاب العاصين بقوله : ﴿مَنْ جَاءَ﴾ وأتى من المؤمنين يوم القيامة ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ من الإيمان والعمل الصّالح ﴿فَلَهُ﴾ من الثواب ﴿عَشْرُ﴾ حسنات ﴿أَمْثَالِهَا﴾ تفضّلا من الله تعالى . وقيل : إنّ العشر كناية عن مطلق الإضعاف ^(٥) .
﴿وَمَنْ جَاءَ﴾ وأتى في ذلك اليوم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والفعله القبيحة ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ الجائي بها ﴿إِلَّا﴾ سيئة ﴿مِثْلُهَا﴾ عدلا منه تعالى ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة العقاب.

عن الصادق عليه السلام : « لما أعطى الله سبحانه إبليس ما أعطاه من القوّة ، قال آدم : يا ربّ سلّطته على ولدي ، وأجرته فيهم مجرى الدّم في العروق ، وأعطيته ما أعطيته ، فما لي ولولدي ؟ فقال : لك ولولدك السيئة بوحدة ، والحسنة بعشر أمثالها ، قال : ربّ زدني ، قال : التّوبة مبسوطة إلى أن تبلغ النّفس الحلقوم ، فقال : يا ربّ زدني ، قال : أغفر ولا ابالي ، قال : حسبي » ^(٦) .

﴿قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾

ثم أنّه تعالى بعد إثبات التّوحيد ، وإبطال مذهب الشّرك وأباطيل أهل الجاهليّة ، أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله بإعلان النّاس بأنّ توحيدَه في الرّبوبيّة ملّة إبراهيم ، والدّين القويم ، والصّراط المستقيم ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، للمشركين الرّاعمين أنّهم على الدّين الحقّ : ﴿إِنِّي هِدَانِي﴾ وأرشدني ﴿رَبِّي﴾ بلطفه
﴿إِلَى﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٢٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٤ .

(٢) في النسخة : قبالهم .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٨ .

(٤) تفسير الصافي ٢ : ١٧٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ٩ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٦ .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى قربه ورضوانه ، وأوحى إليّ **﴿دِينًا قِيَمًا﴾** قويمًا ، كان هو **﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾** حال كونه **﴿عَاقِلًا﴾** **﴿حَنِيفًا﴾** ومائلًا عن كلِّ باطل ، أو حال كون ملّته حنيفيّة **﴿وَمَا كَانَ﴾** إبراهيم **﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** . وفيه ردّ [على] ما ادّعوه من أنّهم على دين إبراهيم .

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٢) و (١٦٣)

ثمّ أمره سبحانه بالإعلان بتوحيده في العبادة وتمخّضه في الخلوص له تعالى بقوله : **﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾** وخضوعي **﴿وَنُسُكِي﴾** وعبادتي كلّها ، أو قرباني .
وقيل : إنّ الصلّاة : صلاة العيد ، والنسك : الاضحية ^(١) .

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وحياتي وموتي ، أو ما أنا عليه في حياتي وما أكون عليه عند موتي من الإيمان والطّاعة ، خالصة **﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وحده **﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾** فيها ، **﴿وَبِذَلِكَ﴾** التّوحيد أو الإخلاص **﴿أُمِرْتُ﴾** من جانب ربّي **﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** والمنقّادين لعبادته في عالم الذرّ لأنّه أوّل من أجاب ، أو في هذه الامة لأنّ إسلام النبيّ قبل إسلام أمّته .

﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤)

ثمّ أمر سبحانه بأن يبالغ في التزامه بالتّوحيد في التّربويّة والعبادة بإظهار غاية قباحة الشّرك من نفسه ، وإنكاره عليهم بعد قيام البراهين القاطعة على وجوب التّوحيد بقوله : **﴿قُلْ﴾** يا محمّد : **﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** من الملائكة والكواكب والأصنام وغيرها **﴿أَعْبُدُوا﴾** وأطلب لنفسي **﴿رَبًّا وَهُوَ﴾** تعالى **﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾** باعتزاف جميع الفرق ، وبحكم العقل القطعي لبداية وجوب انتهاء وجود الممكن إلى الواجب ، وامتناع تعدّده ، وكون الممكن شريكاً له .

ثمّ نهيهم على أنّ ضرر الشّرك وعقابه عليهم بقوله : **﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾** من الأنفس ضرراً **﴿إِلَّا﴾** كان ذلك الضرر **﴿عَلَيْهَا﴾** لا يتعدّها إلى غيرها **﴿وَلَا تَزِرُ﴾** ولا تحتل نفس **﴿وَازِرَةٌ﴾** وحاملة المعصية **﴿وَزُرَ﴾** نفس **﴿أُخْرَىٰ﴾** وحملها وعقوبتها .
وفيه ردّ على المشركين القائلين للمؤمنين : **﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾** ^(٢) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٢٩ .

(٢) العنكبوت : ٢٩ / ١٢ .

﴿ثُمَّ﴾ أنتم بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ومليكم ، وإلى حكمه ومحضر عدله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم يومئذ ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الرشد والغيّ ، والحق والباطل ، بإعطاء الثواب العظيم للمحقّقين ، والحكم بالعقاب الشّدِيد للمبطلين .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٥)

ثمّ أنّه تعالى لما بدأ في السّورة المباركة ببيان كمال قدرته وحكمته والوهبيّة في عالم الوجود ، ختمها ببيان كمال منّته ورأفته ووفور نعمه ، وشدّة عقابه وسعة رحمته بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ الله القادر ﴿الَّذِي﴾ خلقكم ومنّ عليكم بأنّ ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وساكنيها بعد بني الجان ، أو بعد فناء الامم الماضية ، أو خلفاء نفسه في الأرض تتصرّفون فيها كتصرّف الملاك في أملاكهم ، وتنتفعون بها وبما خلق فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ في القوى الجسمانيّة ، والعقل والعلم ، والشّرف والمال ، وغيرها من الكمالات الوجودية والسّعادات الدّنيويّة والاخرويّة ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ آخر ، وفضّل كلّاً منكم في الصّفات الخلقيّة ، والمحاسن الخلقيّة على الآخر بجوده ورأفته إلى ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة متفاوتة ، لا للجهل والقراة أو غيرهما من الدّواعي النّفسانيّة ، بل ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويعاملكم معاملة الممتحن لطاعتكم وعصيانكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ وجعل عليكم من التّكاليف والأحكام .

ثمّ هدّد سبحانه على عصيانه بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ في الآخرة على عصيانه ومخالفة أحكامه ، ثمّ رغب في طاعته بقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ، وستّار للمعاصي بفضله وكرمه البتّة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المطيعين له بإفاضة نعمه الجسيمة عليهم في الدّنيا والآخرة لا محالة .

في (الكافي) : عن الصادق عليه السلام : « أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة ، شيّعها سبعون ألف ملك حتّى نزلت على محمّد ﷺ ، فعظّموها وبجلّوها ، فإنّ اسم الله عزّ وجلّ فيها في سبعين موضعاً ، ولو يعلم النّاس ما في قراءتها ما تركوها » (١) .

وعن الرضا عليه السلام : « نزلت الأنعام جملة واحدة ، شيّعها سبعون ألف ملك ، لهم زجل بالتّسبيح والتّهلّيل والتّكبير ، فمن قرأها سبحوا له إلى يوم القيامة » (٢) .

(١) الكافي ٢ : ٤٥٥ / ١٢ ، ثواب الأعمال : ١٠٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٨ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٨ .

في تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذَكَرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

ثم لما ختم الله سورة الأنعام - المشتعلة على ردّ المشركين وإبطال بدعهم - بالوعيد بالعقاب السريع ووعد المؤمنين بسعة رحمته وغفرانه ، أردفها بسورة الأعراف المتضمنة للردّ على المشركين ، وتهديدهم بالعقوبات النازلة في الدنيا على الامم الذين كانوا مثلهم في الكفر والطغيان ومعارضة الأنبياء العظام ، وتوعيدهم بالعقوبات الشديدة في الآخرة ، ولمدح المؤمنين بالنصرة والإكرام في الدنيا ، والفوز بالنعم الدائمة في الآخرة.

فافتتحها سبحانه - على دأبه الجاري في الكتاب الكريم - بأسمائه المباركة تيمنا وتعليلًا للعباد ، ليتبركوا بذكرها عند الشروع في كلّ أمر ذي بال بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره. ثم ابتدأ فيها بذكر الحروف المقطّعات بقوله : ﴿المص﴾ توجيهًا للقلوب إلى ما بعدها من المطالب المهمة ، وإرمًا من إسمائه الحسنى ، وإيماء إلى العلوم الكثيرة التي يستنبطها الراسخون في العلم منها. عن الصادق عليه السلام ، في حديث قال : « و ﴿المص﴾ أنا الله المقتدر الصادق » (١) .

وعن العياشي عنه عليه السلام أنّه أتاه رجل من بني أميّة ، وكان زنديقا ، فقال له : قول الله عزّ وجلّ في كتابه : ﴿المص﴾ أي شيء أراد بهذا ؟ وأي شيء فيه من الحلال والحرام ؟ وأي شيء فيه ممّا ينتفع به الناس ؟ قال : فاعتاظ عليه السلام من ذلك فقال : « أمسك ويحك ، الألف : واحد ، واللام : ثلاثون ، والميم : أربعون ، والصاد : تسعون ، كم معك » ؟ فقال الرجل : مائة وواحد وستون ، فقال : « إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة فينقضي ملك أصحابك » ، قال : فنظر ، فلمّا انقضت سنة إحدى وستين ومائة يوم

(١) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٧٩ .

عاشوراء دخل المسوِّدة الكوفة وذهب ملكهم (١) .

وقيل : إنّ (المص) اسم للكتاب العزيز ، وقيل : اسم للسورة (٢) . وكلا القولين مبنيان على الاجتهاد الذي لا اعتماد عليه.

ثم بيّن سبحانه أهمّ المطالب ، وهو صدق الكتاب العزيز الدالّ على صدق النبوّة بقوله : ﴿كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّانِ ، كَافٍ لِإثْبَاتِ نُبُوتِكَ يَا مُحَمَّدُ ، شَاهِدٌ صَدَقَ عَلَى صَدَقِكَ ، وَافٍ بِجَمِيعِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَمْتُكَ ﴿أُنزِلَ﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ بِتَوْسِطِ أَمِينٍ وَحِيهِ ﴿إِلَيْكَ﴾ تَفَضُّلاً مِنْهُ عَلَيْكَ ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ ﴿فَلَا يَكُنْ﴾ وَلَا يُوْجِدُ ﴿فِي صَدْرِكَ﴾ وَقَلْبِكَ ﴿حَرْجٌ﴾ وَضِيقٌ ﴿مِنْهُ﴾ مِنْ جِهَةِ الْخَوْفِ مِنَ التَّكْذِيبِ فِي تَبْلِيغِهِ .
قيل : إنّهُ ﷺ كان يخاف تكذيب قومه وإعراضهم من قبول قوله وأذاهم ، فكان يضيق صدره في الأداء ، فأمنه الله تعالى بهذه الآية (٣) .

أو بسبب الشكّ في أنّه نازل من الله ﴿لِتُنْذِرَ﴾ النَّاسَ وَتُخَوِّفَهُمْ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ عَلَى الشَّرِكِ وَالْعَصِيانِ ﴿بِهِ﴾ وَبآيَاتِهِ ﴿وَو﴾ لِيَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ ﴿ذِكْرًا﴾ وَعِظَةً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ .
﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

ثم أنّه تعالى بعد شهادته بصدق القرآن الذي هو دليل على صدق نبيّه ﷺ ، وأمره رسوله بتبليغه وعدم المبالاة بتكذيب قومه ، أمر الناس باتّباعه والعمل بكتابه ، ودعاهم بذاته المقدّسة إليه بقوله :
﴿اتَّبِعُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ، وَلَا زَمُوا فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿مَا أُنزِلَ﴾ بِتَوْسِطِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿إِلَيْكُمْ﴾ جَمِيعًا ﴿مِنْ﴾ قَبْلِ ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللَّطِيفُ بِكُمْ ، الْمُرَاعِي لِصَلَاحِكُمْ ، مِنَ الْقُرْآنِ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ .
ثمّ بعد أمرهم بالمعروف نهاهم عن الشّرك الذي هو أعظم المنكرات بقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ بِإِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ شَيْئًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وَمِمَّا سِوَاهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٣٥ / ١٥٤٤ ، تفسير الصائفي ٢ : ١٧٩ . قوله ﷺ : « إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ... » استظهر صحتة العلامة المجلسي في بحار الأنوار ١٠ : ١٦٤ ، حسب ترتيب الأجدية عند المغاربة « أجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، صغفص ، قرست ، نخذ ، ظغش » فالصاد المهملة عندهم ستون ، والصاد المعجمة تسعون ، فحينئذ يستقيم ما في أكثر النسخ في عدد المجموع ، ولعل الاشتباه في قوله : والصاد تسعون من النسخ ، لظنهم أنه مبني على المشهور ، وبذلك يصح المجموع المذكور ويطلق سنة اختيار وسقوط دولة بني أمية ، أي سنة ١٣١ هـ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٤ .

﴿أُولِيَاءَ﴾ وآلهة محبوبين ، فاذكروا ما ينفعكم ، واتعظوا بمواعظ الله ، ولكن زمانا أو تذكرنا واتعظوا ﴿فَلْيَا﴾ ما ﴿وفي غاية القلة﴾ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعضون ، لشدة قساوة قلوبكم ، وغلبة شهواتكم .
ويمكن أن يكون توصيف تذكرهم بالقلة بملاحظة قلة المتذكرين .

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤) و (٥)

ثم لما كان التخويف بعذاب الاستئصال في الدنيا أورد لهم من الكفر والقبائح ، شرع سبحانه في تهديد المشركين على شركهم وعدم اتعاضهم واتباعهم لكتاب الله ، ومعارضتهم الرسول وتكذيبه بما نزل على الامم الماضية - المعارضين للرسل ، التابعين للشياطين - من عذاب الاستئصال في الدنيا بقوله : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى ، وكثيرا من بلدة من البلاد ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ وأردنا إفناء أهلها عقوبة على شركهم وإصرارهم على الكفر ، ومعارضة الأنبياء ، وانهماكهم في الشهوات ، وتعرضهم على قبائح الأعمال .
ثم بين سبحانه كيفية إهلاكهم بقوله : ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ وقرب منها عذابنا ، إما ﴿بَيَاتًا﴾ وليلا وهم مستريحون غافلون عنه ، كقوم لوط ﴿أَوْ﴾ نهارا و﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾ نائمون غير متوقعين سوءا ومكروها ، كقوم شعيب ، اهلكوا في وسط النهار وهم قائلون . فلا يغتر هؤلاء الكفرة بحال الأمن والراحة ، فإن عذاب الله يقع دفعة وبغته .

قيل : إن ذكر نزول العذاب في الوقتين ، لاختصاصهما بالراحة ، وعدم توقع العذاب فيهما ، ولذا كان أشد ، كما أن النعمة غير المرتقبة ألد .

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ وتضرعهم ، كما عن ابن عباس ^(١) ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾ ونزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابنا شيئا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ اعترافا باستحقاقهم له وندامة على شركهم وطغيانهم : يا ويلنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ من قبل ﴿ظَالِمِينَ﴾ باختيار الشرك ، وارتكاب السيئات .

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٦) و (٧)

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢١ .

ثم هددهم الله بأهوال يوم القيامة بقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ توبيخا وتقريعا كافة الامم ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل ، عما أجابوهم بعد دعوتهم إلى الهدى ودين الحق ، ونقول : ماذا أجبتهم المرسلين ؟ ﴿وَوَاللَّهِ﴾ ﴿لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تأدية الرسالة ، وعما أجيبوا به من ردّ وتكذيب ، أو قبول وطاعة ، فيقولون تشكيّا من امهم : لا علم لنا إلا ما علمتنا .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى امهم ، فيخبرون أنهم قد أدّوا ذلك إلى امهم ، وتسأل الامم فيجحدون ، كما قال الله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ (١) الآية » . وفائدة هذا السؤال تضعيف (٢) الإكرام للرسل ، والإهانة والفضيحة للكفار .

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ﴾ ولننبئهم (٣) جميعا جميع ما صدر عنهم من التبليغ والإنكار والمعارضة ﴿بِعِلْمٍ﴾ كامل منا بطواهرهم وبواطنهم ، لأننا كنّا شاهدين عليهم ، مطلعين على خفياهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حال من الأحوال ، ولا غافلين عن أعمالهم وأحوالهم في آن من الآتات .

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٨) و (٩)

ثم أنّه تعالى بعد تهديد المشركين بالسؤال عنهم (٤) يوم القيامة ، هددهم بوزن الأعمال وعقائدهم بقوله : ﴿وَالْوَزْنُ﴾ لأعمال الناس وعقائدهم : تعيين راجحها ومرجوحها ، وجيدها ورديها ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الثابت بحيث لا مجال للريب فيه .

في بيان الوجوه والأقوال في الميزان

إنّما الكلام في الميزان والموزون . أمّا الأول : فمجمل القول فيه أنّ الميزان في القيامة حسّي ومعنوي ، أمّا الحسّي : فالحقّ أنّه ينصب ميزان له عمود وكفتان ، في بعض الروايات العاميّة : طول عموده خمسون ألف سنة ، وإحدى كفتيه من نور فيوضع فيها الحسنات ، والاخرى من الظلمة يوضع فيها السيئات (٥) . وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنّه تعالى ينصب ميزانا له لسان وكفتان يوم القيامة يوزن به أعمال العباد خيرها وشرّها (٦) .

وعن عبد الله بن سلام : أنّ ميزان ربّ العالمين [ينصب] بين الجنّ والإنس ، يستقبل به العرش ، إحدى كفتي الميزان على الجنة ، والاخرى على جهنّم ، ولو وضعت السماوات والأرض في إحداها

(١) الاحتجاج : ٢٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٠ .

(٢) أي مضاعفة .

(٣) كذا ، والظاهر : ولننبئهم .

(٤) كذا ، والظاهر : بسؤالهم .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٧ .

(٦) تفسير الرازي ١٤ : ٢٤ .

لوسعتهم ، وجبرئيل أخذ بعموده ينظر إلى لسانه ^(١) . إلى غير ذلك من الروايات .

وأما المعنوي : فهو النبي والوصي والدين ، فميزان أعمال كلّ أمة نبيها وشريعته التي أتى بها .

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَنَصْعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ^(٢) ، قال

: « هم الأنبياء والأوصياء » ^(٣) .

وفي رواية : هم الموازين ^(٤) .

وعن مجاهد والضحاك وكثير من العامة : أنّه العدل والقضاء ^(٥) . وأنكروا الميزان الحسبي ، واستدلّ لقولهم بأنّ الميزان ما يعرف به مقدار الشيء ، ومقادير الثواب والعقاب لا يمكن معرفتها بالميزان ، وأما نفس الأعمال فغير قابلة للوزن ؛ لأنّها أعراض قد فنيّت ، ووزن المعدوم محال ، وعلى تقدير بقائها كان وزنها محالاً .

وعن (الاحتجاج) : عنه عليه السلام ^(٦) أنّه سئل أو ليس توزن الأعمال ؟ قال : « لا ، لأنّ الأعمال ليست أجساماً ، وإنّما هي صفة ما عملوا ، وإنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفّتها ، وإنّ الله لا يخفى عليه شيء » . قيل : فما معنى الميزان ؟ قال : « العدل » . قيل : فما معناه في كتابه ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ قال : « فمن رجع عمله » ^(٧) .

أقول : بناء على ما هو الحقّ من تجسّم الأعمال في الآخرة ، وإمكان تأثير حسن العمل ثقلاً فيه ، وكون الحكمة في الوزن تمهيداً للعاصي وتفضيحة ، وتبشير الميطع وازدياد فرحة ، وإظهار غاية العدل . ففي الرواية وجوه من الإشكال ، فلا بدّ من تأويلها إن أمكن ، وإلا فطرحها أو حملها على التقيّة .

وأما الموزون ، فهو نفس الأعمال وما ينتهي إلى اختيار العباد من الحسنات والسيّئات .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أمّا المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيّئاته ^(٨) .

وقيل : الموزون صحائف ^(٩) .

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه سئل عمّا يوزن يوم القيامة ، فقال : « الصّحف » ^(١٠) .

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢٥ .

(٢) الأنبياء : ٢١ / ٤٧ .

(٣) الكافي ١ : ٣٤٦ / ٣٦ ، معاني الأخبار : ٣١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨١ .

(٤) بحار الأنوار ٧١ : ٢٢٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ٢٥ .

(٦) أي عن الامام الصادق عليه السلام .

(٧) الاحتجاج : ٣٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨١ .

(٨) تفسير الرازي ١٤ : ٢٤ .

(٩) تفسير الرازي ١٤ : ٢٥ .

(١٠) تفسير الرازي ١٤ : ٢٥ .

وعنه ﷺ قال : « يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ، ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلا ، كلّ سجلّ منها مدّ البصر ، فيها خطاياہ وذنوبه ، فتوضع في كفة الميزان ، ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا عبده ورسوله ، يوضع في الاخرى فترجح » (١) .

وقيل : إنّ الموزون بالميزان الحسيّ هو أعمال الجوارح دون الأعمال القلبية ؛ كالعقائد والنيات وغيرها ، فإنّه يقام لها الميزان المعنوي وهو العدل ، فالحسيّ للحسيّ ، والمعنوي للمعنوي .

وقيل : يوزن نفس المؤمن والكافر (٢) ، فيظهر بالميزان عظم قدر الأول وذلّ الثاني ومهانته .

روي أنّه يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل الشروب فيوزن ، فلا يزن جناح بعوضة (٣) .

وقيل : إنّ الوزن لأهل الحقّ والصدق وأصحاب البرّ ، دون الكفار وأهل الباطل ؛ لأنّه لا وزن للباطل وأهله .

عن السجّاد عليه السلام - في حديث - : « اعلموا عباد الله أنّ أهل الشّرك لا ينصب لهم الموازين ، ولا ينشر لهم الدّواوين ، وإنّما يحشرون إلى جهنّم زمرا ، وإنّما نصب الموازين ونشر الدّواوين لأهل الإسلام ، فاتّقوا الله عباد الله » (٤) .

أقول : يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (٥) ، ويمكن حمل الآية والتّواية على أنّه لا ينصب لهم الميزان لتعيين وزن حسناتهم ومقدار ثوابها بالنّسبة إلى سيئاتهم ، لحبط حسناتهم . وأمّا تعيين مقدار عظمة سيئاتهم في أنظار النّاس فيحتاج إلى نصب الميزان .

وقيل : إنّ وزن الأعمال يكون بعد الحساب ؛ لأنّ المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها ، فينبغي أن يكون بعدها .

وعلى أيّ تقدير ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ﴾ ورجحت ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بسبب كثرة الحسنات ، أو عظم قدرها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المؤمنون المحسنون ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ والتّاجون في الآخرة ، الفائزون بالجنة والنّعم الدّائمة والكرامة الأبديّة .

روي أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يريه الميزان الذي ينصب يوم القيامة ، فرأى كل كفة ملء ما بين المشرق والمغرب فغشي عليه ، فلمّا أفاق قال : إلهي من يقدر أن يملأ كفته بالحسنات ؟ فقال الله

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢٥ .

(٢) بحار الأنوار ٧١ : ٢٢٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٧ .

(٤) الكافي ٨ : ٧٥ / ٢٩ .

(٥) الكهف : ١٨ / ١٠٥ .

تعالى : يا داود ، إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة من صدقة ^(١) .

عن النبي ﷺ : « ما وضع في الميزان أثقل من حسن الخلق » ^(٢) .

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكثرة السيئات ، أو شدة قبحها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ خفاف الموازين هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ في الدُّنْيَا وغبنوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن ضيعوا فطرتهم السليمة التي هي بمنزلة رأس مالهم في سوق الدُّنْيَا ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فيها ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا في الألوهية ، وكمال الصفات والمعجزات الشاهدة على صدق نبينا ، والبراهين الواضحة على وجوب طاعة أوليائنا ﴿يُظْلِمُونَ﴾ وحقها يضيعون ، حيث إنَّ حقها أن يصدقوها ، وهم يكذبون.

قيل : إنما قال الله : ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بصيغة الجمع ، لأنَّ كلَّ عبد ينصب له موازين بالقسط تناسب حالاته ، فليدنه ميزان توزن به أوصافه ، ولروحه ميزان توزن به نعوته ، ولسرِّه ميزان توزن به أحواله ، ولخفيِّه ميزان توزن به أخلاقه ^(٣) .

وقيل : إنَّ لأفعال القلوب ميزانا ، ولأفعال الجوارح ميزان ، وللأقوال ميزان ^(٤) .

وعن الزجاج : أنه قد يطلق الجمع على الواحد ، كما يقال : خرج فلان إلى مكة على البغال ^(٥) .

وقيل : إنَّ الموازين جمع موزون ^(٦) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « فأنما يعني الحساب ^(٧) ، توزن الحسنات والسيئات ، والحسنات ثقل الميزان ، والسيئات خفة الميزان » ^(٨) .

وعنه عليه السلام : « هي قلة الحسنات وكثرتها » ^(٩) .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)﴾

ثمَّ أنه تعالى بعد زجر النَّاس عن متابعة الشياطين وعبادة الأصنام ، بتخويفهم من العذاب الدنيوي والآخرى ، شرع سبحانه في ترغيبهم إلى اتباع ذاته المقدسة بتذكيرهم نعمه العظام بقوله : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ وأسكناكم أيها النَّاس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أو أقدرناكم على التصرف فيها بالسكونة ^(١٠) والزرع وغيرهما من وجوه الانتفاعات ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأوجدنا ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما به بقاؤكم وتقوم أموركم من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ، وما به تحصلون الخيرات الدنيوية والآخرى ،

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٣٧ .

(٤ و ٥ و ٦) . تفسير الرازي ١٤ : ٢٦ .

(٧) في النسخة : يعني إنما الحسنات .

(٨) التوحيد : ٢٦٨ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨١ .

(٩) تفسير الصافي ٢ : ١٨١ .

(١٠) كذا ، والظاهر : بالسكن ، أو السكنى .

ومع ذلك ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم العظام. وهو نظير قوله : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا

خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ

تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾

ثم نبّه سبحانه على عدم انحصار نعمه بالتمكين في الأرض وخلق ما يعيشون به ، بل أصل الوجود الذي هو أعظم النعم منه تعالى ، بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأخرجناكم من العدم إلى الوجود ، مبتدئاً بخلق أبيكم آدم من طين ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بأحسن صورة بعد خلق آدم وتصويره ونفخ الروح فيه .
عن الباقر عليه السلام : « أمّا (خلقناكم) فنطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم لحما ، وأمّا (صورناكم) فالعين والأنف والأذنين والفم واليدين والرجلين ، صور هذا ونحوه ، ثم جعل الدّميم^(٢) والوسيم والجسيم والطويل والقصير ، وأشباه هذا »^(٣) .

في أمر الله الملائكة بالسجود لآدم

ثم لما كان خلق الإنسان من آدم عليه السلام ، وكان إكرام الأب مئة على الأبناء ، أتبع نعمة الخلق ببيان إكرام آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة له بقوله : ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ جميعا : ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تكريما له ، وقيل : لما كان خلق نوع البشر بخلق أول فرد منه ، كتّى سبحانه عن خلق أبي البشر بالخطاب إلى النوع ، وعلى أيّ تقدير ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلّهم لآدم من غير ريث ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه وحده خالف أمر ربّه و﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم ، فعاتبه جلّ جلاله ، و﴿قَالَ﴾ : يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ عن طاعتي ، وأي شيء أجراك على ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع الملائكة بالسجود له ، وحين أوجبت عليه .
﴿قَالَ﴾ إبليس : كيف أمرتني بالسجود لآدم و﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وأفضل ؟ ولا يجوز أمر الأفضل بالسجود والتواضع للمفضول ، أمّا فضيلتي على آدم فلائك ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وهي حقيقة لطيفة مشرقة علويّة فعالة ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ كثيف ثقیل ، مظلم منفعل ، ومن الواضح أنّ المخلوق من الأفضل أفضل.

في عدم جواز القياس في الدين

عن ابن عباس أنّه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربّه وقاس ،

(١) سبأ : ٣٤ / ١٣ .

(٢) الدّمامة : قبح المنظر وصغر الجسم .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٢٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٢ .

وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس ^(١) .
وعن الصادق عليه السلام ، في حديث : « فطرده الله عن جواره ، ولعنه وسمّاه رجيمًا ، وأقسم بعزّته : لا يقيس أحد في دينه إلّا قرنه مع عدوّه إبليس في أسفل درك من التّار » ^(٢) .
وعنه عليه السلام أنّه دخل عليه أبو حنيفة ، فقال : « يا أبا حنيفة ، بلغني أنّك تقيس ؟ » ، قال : نعم أقيس ، قال : « لا تقس ، فإنّ أول من قاس إبليس حين قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ففاس ما بين التّار والطّين ، ولو قاس نورية آدم بنورية التّار ، عرف فضل ما بين التّورين وصفاء أحدهما على الآخر » ^(٣) .
﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لابليس وهو في جنة عدن - كما عن ابن عباس ^(٤) - أو في جنة الدنيا : ﴿ فَاهْبِطْ ﴾ وانزل أو انتقل ﴿ مِنْهَا ﴾ إلى الأرض ، أو إلى خارجها ، أو من المنزلة التي أنت عليها ، أو من زمرة الملائكة ﴿ فَمَا يَكُونُ ﴾ جائز ﴿ لَكَ ﴾ يا إبليس ﴿ أَنْ تَتَكَبَّرَ ﴾ وتترفع في وقت من الأوقات ، أو مكان من الأمكنة ، لا سيّما ﴿ فِيهَا ﴾ لأنّها مكان المطهّرين من الرذائل .
ثمّ أكّد الأمر بخروجه بقوله : ﴿ فَاخْرُجْ ﴾ من الجنة ، أو من زمرة الملائكة المكرمين ﴿ إِنَّكَ ﴾ بتكبرك وعصيانك بعد ﴿ مِنَ الصّٰغِرِينَ ﴾ ومن زمرة الأذلاء المهينين .
عن ابن عباس : يريد أنّ أهل السّماوات ملائكة متواضعون خاشعون ، فخرج إنّك من الصّٰغِرِينَ .
والصّغار : الذلّة ^(٥) .

في التواضع وذرّ التكبر

قيل : إنّ إبليس طلب التكبر فابتلاه الله بالذلّة والصّغار ، تنبيهًا على صحّة ما قاله النبي ﷺ : « من تواضع رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله » ^(٦) .
﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٤) و (١٥)
ثمّ لما اشتدّت عداوته لآدم عليه السلام وذريّته طلب الفسحة لإغوائهم و﴿ قَالَ ﴾ بعد طرده من الجنة والرحمة : ربّ ﴿ أَنْظِرْنِي ﴾ وأمهلني في الدّنيا ، وأدم حياتي ﴿ إِلَى يَوْمٍ ﴾ القيامة الذي فيه ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ من قبورهم ويحشرون إليك لجزاء أعمالهم . ولما اقتضت الحكمة ابتلاء آدم وذريّته ، استجاب دعاءه و﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ والممهّلين ، ولكن لا إلى يوم البعث ، وهو التّفخة الثانية ، بل إلى يوم يموتون جميعًا بالتّفخة الأولى .

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٣٤ .

(٢) علل الشرائع : ٦٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٣ .

(٣) الكافي ١ : ٤٧ / ٢٠ ، الاحتجاج : ٣٦٢ ، علل الشرائع : ٨٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٣٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ٣٥ .

(٦) تفسير الرازي ١٤ : ٣٥ .

عن الصادق عليه السلام : « يموت إبليس ما بين التفحة الأولى والثانية » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا » ^(٢) .

عن ابن عباس : أنَّ الدهر يمرّ بإبليس فيهم ، ثمّ يعود ابن ثلاثين ^(٣) .

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَيَسَّرُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ (١٦) وَ (١٧)﴾

ثمّ أنَّ اللعين بعدما رأى إسعاف مسألته ﴿قَالَ﴾ معارضة لله : ﴿فِيمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ وبسبب أن أوقعني في عصيانك بأمرك إيتاي بالسجود ، بعزتك لأغوين آدم وذريته ، و﴿لَأَفْعَدَنَّ﴾ ترصدا ﴿لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وعلى منهجك القويم الموصل لهم إلى كلّ خير ، وهو دين الإسلام . وقيل : إنَّ الباء في قوله : (فيما) للقسم ، والمعنى : فبقدرتك عليّ ونفاذ سلطانك فيّ ^(٤) .

ثمّ أنَّ اللعين بعد إعلانه بترصده لذرية آدم وقعوده على طريقهم إلى الجنة كقعود السراق على طريق العابرين ترصدا لهم ، بيّن تحاجه عليهم من الجهات التي يعتاد الهجوم منها ، ومحاصرته إيّاهم من الجوانب بقوله : ﴿ثُمَّ لَا تَيَسَّرُهُمْ﴾ ولأحملنّ عليهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ وقدامهم ، يعني : أشكّكهم في صحّة البعث ، أو افترهم عن الرّغبة فيما ينفعهم في الآخرة ، أو أزيّن لهم الدّنيا ، أو أبعثهم إلى تكذيب الأنبياء الحاضرين في عصرهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قيل : يعني : أوهمهم أنَّ الدّنيا أزلّة باقية ، وازيّتها في نظرهم ، أو افترهم عن الرّغبة في المنافع الاخرية ، أو أبعثهم إلى تكذيب الماضين من الأنبياء ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قيل : يعني : ارغبهم في الكفر ، أو أصرفهم عن الحقّ ، أو افترهم عن الرّغبة في الآخرة والأعمال الحسنة ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ قيل : يعني : أوقعهم في المعاصي ، وأزيّن لهم السيئات وارغبهم في الباطل .

عن الباقر عليه السلام : ﴿ثُمَّ لَا تَيَسَّرُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه : أهوّن عليهم أمر الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ افسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة ، وتحسين الشبهة ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بتحبيب اللذات إليهم ، وتغليب الشهوات على قلوبهم ^(٥) .

(١) علل الشرائع : ٤٠٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٨ / ٢٣٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٣٨ .

(٥) مجمع البيان ٤ : ٦٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٤ .

وقيل : إنّ الجهات مؤولة بالقوى الأربعة المفوّدة للسّعادات الرّوحانيّة ، فالمراد من قوله : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ القوّة الخياليّة التي تكون في البطن المقدّم من الدّماغ ، ترد عليها صور المحسوسات ، ومن قوله : ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ القوّة الوهميّة التي تكون في البطن المؤخّر منه ، تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات ، ومن قوله : ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ القوّة الشهويّة التي تكون في الكبد ، ومن قوله : ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ القوّة الغضبيّة التي تكون في البطن الأيسر من القلب.

قيل : إنّ النّكتة في تخصيص الأيمان والشّمائل بكلمة (عن) الدّالة على المجاوزة : أنّ الملكين الكاتبين للأعمال لما كانا قاعدين عن اليمين والشّمال ، لا يقرب الشّيطان منهما ، بل يتباعد عنهما. عن النّبي ﷺ أنّه قال : « إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك وتتعرّب ^(١) ، فعصاه وهاجر ، ثمّ قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسّم مالك وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل ^(٢) » .

روي أنّ الشّيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر ، فقالوا : يا إلهنا ، كيف يتخلّص الإنسان من الشّيطان ، مع كونه مستوليا عليه من هذه الجهات الأربع ؟ فأوحى الله تعالى إليهم : إنّ بقي للإنسان جهتان ؛ الفوق والتّحت ، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدّعاء على سبيل الخضوع ، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع ، غفرت له ذنب سبعين سنة ^(٣) .

ثمّ أخبر اللّعين ظلّا بنتيجة حملاته ومحاصرته بني آدم بقوله : ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يا ربّ ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لك ، مطيعين لأحكامك ، عاملين برضاك.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إجهار اللّعين بمعارضته له ، ومعاندته لبني آدم ، عاتبه زجرا ومهانة و﴿قَالَ﴾ له طردا من الجنّة ، أو السّماوات : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ حال كونك ﴿مَذْذُومًا﴾ مذموما عندي وعند ملائكتي وسائر خلقي ﴿مَدْحُورًا﴾ ومطرودا عن جنتي ورحمتي ، فبعزّي ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ واقتفى خطواتك من ذريّة آدم ، وأطاعك ﴿مِنْهُمْ﴾ في الدّنيا ، وخالفني في أحكامي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ البتّة ﴿جَهَنَّمَ﴾ أيّها التّابع والمتبوع ﴿مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لا ينجو منها أحد منكم إذا لم تتوبوا.

(١) في النسخة : وتتعرّب.

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٤ : ٤٢ .

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) **فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠)**

ثمَّ أتته تعالى بعد العتاب على اللعين وطرده من الجنة ووعيده بالنار ، خاطب آدم ﷺ لطفًا به ورحمة عليه بقوله : **﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾** حواء **﴿الْجَنَّةَ﴾** ودار الكرامة **﴿فَكُلَا﴾** وتمتعًا **﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾** ومن أي نوع من الثمار والنعم **﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** - مر تفسيره في البقرة ^(١) - **﴿فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾** وزين في نظرهما قرب الشجرة والأكل منها ببياناته الممّوهة **﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾** ويبرز في نظرهما **﴿مَا وُورِيَ﴾** وستر **﴿عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾** وعوراتهما ، ويخزيهما بانكشافها عند الملائكة.

قيل : إنّ اللعين علم أنّ لهما سوءة ، وأتّهما إن أكلا منها بدت ، بقراءته في كتب الملائكة ، ولم يكن آدم يعلم ذلك. أقول فيه : إنّ الله علّم آدم علم كلّ شيء ، فكيف يمكن أن لا يعلم عورة نفسه ؟ ، مع أنّه يلزم أن يكون إبليس أعلم منه.

وقيل : لم يراها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر.

وعن الصادق عليه السلام : « كانت سواتهما لا تبدو لهما » ، يعني كانت داخلية ^(٢) .

أقول : يحتمل كون التفسير من الراوي.

ثمَّ بيّن سبحانه كيفية وسوسة الشيطان بقوله : **﴿وَقَالَ﴾** اللعين لآدم وزوجته : **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ﴾** الأكل من **﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾** لعلّة من العلل **﴿إِلَّا﴾** كراهة من **﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ﴾** لطيفين قويّين غنيّين عن ما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب وغيرهما **﴿أَوْ تَكُونَا﴾** في الجنة **﴿مِنَ الْخَالِدِينَ﴾** والدائمين ، لا تخرجون منها ولا تموتون.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِينٌ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

(١) تقدم في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٤٠ / ١٥٥٤ ، تفسير القمي ١ : ٢٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٦ .

أَنَّهُكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا

ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٢) و (٢٣) ﴿

ثم أكد اللعين صدق قوله ونصحه بأن حلف بالله لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ كذبا : ﴿إِنِّي لَكُفَّا﴾ فيما أقول ﴿لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ والدالين لكما إلى الخير والصّلاح ﴿فَدَلَاهُمَا﴾ وحطّهما من المنزلة العالية التي كانت لهما بطاعة الله إلى مهوى عصيانه الذي هو أنزل المراتب ، وأجرأهما على أكل الشجرة المنهي عنها ﴿بِغُرُورٍ﴾ وتسويل عظيم.

عن ابن عباس : أي غرّهما باليمين ، وكان آدم عليه السلام يظن أن لا يحلف أحد بالله كاذبا ^(١) .

قيل : إنّ اللعين أوّل من حلف بالله كاذبا.

فأكلا منها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ ووجدا طعم ثمرها أخذتهما العقوبة ، فتهافت عنهما لباسهما فورا ، و﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا﴾ وظهرت عوراتهما بشؤم العصيان .
قيل : كان لباسهما من حلل الجنة .

وقيل : كان ظفرا في أشد اللطافة واللين والبياض ، وكان حاجبا من النظر إلى أصل البدن ، فلما أصابا الخطيئة نزع عن بدنهما ، وبقي على رؤوس الأصابع تذكيرا لما فات من النعم وتحديدًا للندم ^(٢) .
وقيل : كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر إلى البدن ، فلما عصيا زال النور عنهما ^(٣) .
وعلى أي تقدير ، لما انكشفت عورتهم ، استقبحا ذلك واستحييا من الملائكة ﴿وَطَفِقَا﴾ وأحذا ﴿يَخْضِفَانِ﴾ ويرقعان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ وعلى عوراتهما ورقة فوق ورقة ﴿مِنْ وَرَقٍ﴾ أشجار ﴿الْجَنَّةِ﴾ .
قيل : كان ذلك الورق من شجرة التين ، ولم تسترهما شجرة غيرها ، فقال الله تعالى : كما سترت آدم اخرج منك المعنى قبل الدعوى ، وسائر الأشجار يخرج منها الدعوى قبل المعنى ، ولهذا الحكمة يخرج ثمر سائر الأشجار في أكمامها أولا ، ثم تظهر الثمرة من أكمامها ثانيا ، وثمره التين أول ما يبدو يبدو بارزا ^(٤) من غير أكمام ^(٥) .

عن الصادق عليه السلام : « لما أسكنه الله الجنة وأباحها له إلا الشجرة ؛ لأنّه خلق خلقه لا تبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والأكنان والتناكح ، ولا يدرك ما ينفعه ممّا يضرّه إلا بالتوقيف ، فجاءه إبليس »

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٤٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٦ .

(٤) كذا ، الظاهر : أول ما تبدو تبدو بارزة ، والذي في روح البيان : وشجرة التين أول ما يبدو ثمره يبدو بارزا ...

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٦ .

إلى أن قال : « فقبل آدم عليه السلام قوله ، فأكلا من الشجرة ، وكان كما حكى الله ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وسقط عنهما ما ألبسهما الله من لباس الجنة ، وأقبلا يستتران من ورق الجنة » . الخبر (١) .
فدلّت الآية على قبح كشف العورة عقلا من لدن آدم عليه السلام .

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ المالك لأمرهما عتابا وتوبيخا : ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ﴾ مقارنة ﴿تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ﴾ قيل : ثم نادى آدم عليه السلام ربه : أما خلقتك بيدي ، أما نفخت فيك من روحي ، أما أسجدت لك ملائكتي ، أما أسكنتك في جنّتي وفي جوارِي ؟ ! ﴿وَوَلَدَ لَكُمَا﴾ حين أبي الشيطان عن السجود وقال : لأفعدنّ صراطك المستقيم : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ﴾ ولذريّتكما ﴿عَدُوٌّ﴾ ومبغض ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والبغض ؟ ! قيل : كان خجلتهما بهذا العتاب أشدّ عليهما من كلّ محنة (٢) ، فاعترفا بذنبيهما واعتذرا عن خطئهما و ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ وملكنا ، إنّنا ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بإيقاعها في العصيان ، وتعريضها للحرمان من الجنان ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذنبنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بقبول توبتنا بربوبيّتك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنْ﴾ زمرة ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ والمغبونين ، حيث بعنا الجنة ونعيمها بأكلة من الشجرة .

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٤) و (٢٥)

﴿قَالَ﴾ الله تعالى : يا آدم ، ويا حواء ، ويا إبليس ﴿اهْبِطُوا﴾ وانزلوا من الجنة ، أو السماوات إلى الأرض ، في حال ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يكون ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿عَدُوٌّ﴾ ومبغض إلى الأبد - قيل : العداوة ثابتة بين الجن والإنس أبدا - ﴿وَوَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ ومكان وتعيش ﴿إِلَى حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم .

و﴿قَالَ﴾ تعالى تقريرا لما سبق : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وتعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ وتقبرون ﴿وَمِنْهَا﴾ بعد إحيائكم في القبور ﴿تُخْرَجُونَ﴾ لتحزون بما كنتم تعملون .

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ

خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٢٦)

ثمّ لما ذكر الله قضية ابتلاء آدم بكشف العورة واضطراره إلى سترها بأوراق الأشجار ، بيّن منته على ذريّته بخلق اللباس وسائر ما يحتاجون إليه ، مخاطبا لهم بقوله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ المطر

(١) تفسير القمي ١ : ٤٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٦ .

الذي يخرج به القطن ، ويجبي الحيوانات التي لها صوف وشعر ووبر ، فكأنا أنزلنا إليكم ﴿لِبَاسًا﴾ من السماء كي ﴿يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ﴾ ويغنيكم عن أوراق الأشجار ، ويقطع عذرکم في كشف العورة ، ﴿وَو﴾ أنزلنا ﴿رِيشًا﴾ وزينة تتحملون بها بين الناس.

وقيل : إنّ الرّيش كل ما يعيش به الإنسان من المتاع والمأكول.
عن الباقر عليه السلام : « أمّا اللباس : فالثياب التي تلبسون ، وأمّا الریش ^(١) : فالمتاع والمال ^(٢) » انتهى.
﴿وَو﴾ لكن ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ والخوف من الله والالتزام بأحكامه ﴿ذَلِكَ﴾ اللباس ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع لصاحبه ولا بسه ، وأقرب له إلى الله تعالى ممّا خلق من اللباس.
عن الباقر عليه السلام : « ما لباس التقوى : فالعفاف ، إنّ العفيف لا تبدو له عورة وإن كان عاريا من الثياب ، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسيا من الثياب ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول : والعفاف خير ^(٣) .
وعن ابن عباس : لباس التقوى : العمل الصالح ^(٤) .
وعن جماعة من المفسرين هو الإيمان ^(٥) ، وقيل : هو السمّ الحسن ، و[قيل] : هو الحياء ^(٦) ، وقيل : هو السكينة والإخبات والعمل الصالح ^(٧) .
وإنما شبه التقوى باللباس لأنّه يستر عيوب صاحبه ، ويحفظه ممّا يضرّه كما يستر اللباس عورته ويحفظه . وقيل : لأنّه يقيه من العذاب ^(٨) .
وقيل : إنّ المراد من لباس التقوى : مطلق اللباس ، والمراد من قوله : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني : من التعرّي ، فإنّ أهل الجاهليّة كانوا يتعبدون بالتعرّي في الطّواف بالبيت ^(٩) .
وقيل : إنّ ما يلبس في الحروب كالدرع والجواشن والمغافر .
وقيل : إنّ الملبوسات المعدّة للصلاة .
عن القمي : لباس التقوى الثياب البياض ^(١٠) .

(١) في تفسير القمي : الرياش.

(٢) (٣ و) . تفسير القمي ١ : ٢٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٥٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ٥٢ ، عن قتادة والسدي وابن جريج .

(٦ و٧) . تفسير الرازي ١٤ : ٥٢ .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ١٤٨ .

(٩) ورد في حديث عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : « كانت سنة العرب في الحجّ ، أنّه من دخل مكّة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحلّ له إمساكها ، وكانوا يتصدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف ، فكان من واثي مكّة يستعير ثوبا يطوف فيه ثمّ يرده ، ومن لم يجد عارية اكرتري ثيابا ، ومن لم يجد عارية ولا كرى ، ولم يكن له إلا ثوب واحد ، طاف بالبيت عريانا ... » راجع بحار الأنوار ٣٥ : ٢٩١ / ٧ عن تفسير القمي .

ومنه يتبين ما كانوا يتعبدون بالتعرّي في الطواف ، بل كانوا يتعرّون عند الاضطرار ، وقيل : كانوا يطوفون عرا لأنهم يقولون : لا نعبد في ثياب أذنبتا فيها . راجع بحار الأنوار ٨٣ : ١٦٩ ، روح البيان ٣ : ١٥٣ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٢٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٧ .

ثم بين سبحانه أهم منافع خلق اللباس بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الإنزال للباس ، أو خلقه بعض ﴿مِنْ﴾ آياتِ الله ﴿وَدَلَّاهُ الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ عظم نعمه ، ويعرفون غاية فضله وكرمه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

ثم أنه تعالى بعد بيان شدة عداوة الشيطان لآدم ولذريته ونهى تعالى عن اتباعه ، أخذ في نصيح بني آدم تأكيداً لنهي السابق بقوله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ولا يغرتكم بتسويلاته ، ولا يوقعنكم في البلية ، بأن يمنعكم من دخول الجنة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدم وحواء بإغوائه ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾ بعدما كانا فيها ، وعرفتم أنه من شدة عداوته لهما كان ﴿يَنزِعُ﴾ ويسلب ﴿عَنْهُمَا﴾ بإيقاعهما في معصية واحدة ﴿لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ ويخزيهما عند الملائكة ، مع أن الله أكرمهما بغاية الكرامة ، فكيف أنتم ! ولا تتوهما حيث لا ترونه أنه بعيد منكم غافل عنكم ^(١) ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ﴾ بنفسه ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ وجنوده الذين هم من نسله ﴿مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ومن مكان لا تبصرونهم ، ومن المعلوم أن الحذر من عدو يراكم ولا ترونه أصعب ، فكونوا منه على حذر عظيم.

عن مجاهد قال : قال الشيطان : اعطينا أربع خصال : نرى ، ولا نرى ، ونخرج من تحت الثرى ، ويعود شيخنا فتى ^(٢) .

روي « أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم » ^(٣) .

ثم أنه تعالى أكد النهي عن اتباعه وموالاته ، والأمر بالتحرز عنه ، بالتنبيه على عدم المناسبة والسنخية الموجبة للموالاتة بينه وبين المؤمنين ، بقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيدها ، ورسالة رسلنا ، ودار الجزاء ، للتساخ بينهم في الخبائث وسوء الأخلاق ، والتناسب في الطغيان والخذلان ، دون المؤمنين الذين لا يساغونهم ولا يناسبونهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

(١) زاد في النسخة : بأنكم لا ترونه.

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٥٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٥٠ .

ثم شرع في قدح الذين لا يؤمنون بتوحيده بقوله : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ فعلة ﴿فَاحِشَةً﴾ متناهية في القبح ، كعبادة الأصنام وتحريم السَّائِبَةِ وأخواتها ، والطَّوَافِ بالبيت عراة ، واعترض عليهم فيها ﴿قَالُوا﴾ مستدلّين على صحّة عملهم من الفاحشة : إِنَّا ﴿وَجَدْنَا﴾ مرتكبين لتلك الفاحشة مواظبين ﴿عَلَيْهَا أَبَاءَنَا﴾ وكبراءنا ، وهم كانوا أعقل وأعلم ، فعلينا أن نقلّدهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ .

ولما كان استدلالهم بتقليد آبائهم في غاية الفساد ، لأنّه ظنّي ، والظنّ لا يغني عن الحقّ شيئاً ، أعرض سبحانه عن ردّه ، وأمر نبيّه ﷺ برّد دليلهم الثاني بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ حكيم في فعّاله ، علّم بمصالح عباده ، ومن الواضح أنّ الله الحكيم ﴿لَا يَأْمُرُ﴾ عباده ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ والقبائح .

وقد ثبت بحكم العقول السليمة ، وبيان الرّسل أنّ هذه الأعمال من أقبح القبائح ، فكيف يمكن أن يأمر الله بها ، مع أنّكم لا ترون الله ، ولا تسمعون كلامه ، ولا تعترفون برسالة رسوله ؟ فبأيّ دليل علمتم بأمره ؟ ثمّ أنكر عليهم الدّعوى بقوله : ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنّه أمركم بها . عن الصادق عليه السلام قال : « من زعم أنّ الله يأمر بالفحشاء فقد كذب على الله ، ومن زعم أنّ الخير والشرّ إليه فقد كذب على الله » (١) .

عن العبد الصالح عليه السلام قال : « هل رأيت أحدا زعم أنّ الله أمر بالزّنا ، وشرب الخمر ، وشيء من هذه المحارم ؟ » فقليل : لا ، قال : « ما هذه الفاحشة التي يدّعون أنّ الله أمرهم بها ؟ » قيل : الله أعلم ووليّه . فقال : « إنّ هذا في أئمة الجور ؛ ادّعوا أنّ الله أمرهم بالانتماء بقوم لم يأمرهم الله بالانتماء بهم ، فردّ الله عليهم ، فأخبر أنّهم قالوا على الله الكذب » (٢) .

أقول : لعلّ المراد أنّ الإنكار في الآية راجع إلى تقليد آبائهم .

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾

ثمّ بيّن الله ما أمر به من المحسنات العقلية بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين : ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ جميع النّاس ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل في الأمور ، والتوسّط في المعاش من المأكّل والمشرب واللباس وغيرها ، وسائر ما تستحسنه العقول ، عن ابن عبّاس : القسط هو قول : لا إله إلّا الله (٣) ﴿وَأَنْ﴾ ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ واستقبلوا بمقادير أبدانكم إلى القبلة للدّعاء والعبادة ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وفي مكان

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٤١ / ١٥٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٨ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٤٠ / ١٥٥٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٥٧ .

للصلاة ، أو في وقتها.

عن الصادق عليه السلام : « المساجد محدثة ، فامروا أن يقيموا وجوههم شطر المسجد الحرام » (١) .

وعنه عليه السلام : « **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** » يعني : الأئمة » (٢) .

أقول : هذا تأويل ، والأول تفسير .

« **وَادْعُوهُ** » واعبدوه أيها الناس حال كونكم « **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** » والطاعة بصلاتكم وسائر

عباداتكم ، مبرئين عن الشرك فيها.

ثم هددهم على مخالفة أحكامه بقوله : « **كَمَا بَدَأُكُمْ** » الله وأنشأكم أولاً « **تَعُودُونَ** » إليه بأن

يحييكم بعد موتكم ثانيا ، ليجازيكم على أعمالكم وخلوص نياتكم.

عن ابن عباس : كما بدأ خلقكم مؤمناً أو كافراً ، تعودون فيبعث المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، فإن

من خلقه الله في أول الأمر للشقاوة ، أعمله بعمل أهل الشقاوة ، وكانت عاقبته الشقاوة ، وإن [من]

خلقته للسعادة أعمله بعمل أهل السعادة ، وكانت عاقبته السعادة (٣) .

عن القمي عليه السلام : عن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً ، وشقيّاً

وسعيداً ، وكذلك يعودون يوم القيامة مهتد وضالّ » (٤) .

« **فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ**

دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) »

ثم أنّه تعالى بعد بيان ما أمر به من المحسنات المسلمة عند العقول ، بيّن اختلاف الناس في قبوله

ورده بقوله : « **فَرِيقًا** » من الناس « **هَدَى** » هم الله إلى الصواب ، ووقفهم بقبول أوامره بطيب طينتهم وقوة

عقولهم وحسن أخلاقهم « **وَفَرِيقًا** » آخر منهم خذلهم بحب طينتهم وضعف عقولهم ، وسوء أخلاقهم ،

ولذا « **حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** » عن الحق.

ثم بيّن غاية ضلالتهم بقوله : « **إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا** » واختاروا « **الشَّيَاطِينَ** » ومردة الجن والإنس

« **أَوْلِيَاءَ** » وأحباء متبوعين لأنفسهم « **مِنْ دُونِ اللَّهِ** » الذي هو وليهم الحق ، فيخالفونه ويطيعونهم فيما

أمروهم به « **وَيَحْسَبُونَ** » مع ذلك « **إِنَّهُمْ** » في طاعتهم لهم « **مُهْتَدُونَ** » إلى الحق ، والحال أنّهم مخطئون

ضالّون.

(١) التهذيب ٢ : ٤٣ / ١٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٨ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٤١ / ١٥٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٥٨ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٨ .

عن (العلل) : عنه عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني : أئمة دون أئمة الحق ^(١) .

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

ثم لما أمر الله تعالى بالقسط في جميع الأمور من المأكل والمشرب واللباس وغيرها ، وبإقامة الصلاة ، رغب عباده بالتزین في الصلاة ، ونهاهم عن الإسراف في المأكل والمشرب بقوله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا﴾ واستصحبوا ﴿زِينَتَكُمْ﴾ وثيابكم الجيدة الطاهرة ، وسائر ما تتجملون به ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وفي وقت كل صلاة.

في استحباب التزين والتمشيط عند كل صلاة

عن الحسن بن علي عليه السلام أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه ، فقليل له في ذلك ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، فَأَتَجَمَّلُ لِرَبِّي » وقرأ الآية ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « أَيُّ خُذُوا ثِيَابَكُمْ الَّتِي تَتَزَيَّنُونَ بِهَا لِلصَّلَاةِ فِي الْجُمُعَاتِ وَالْأَعْيَادِ » ^(٣) .

والقمي قال : في العيدين والجمعة يغتسل ويلبس ثيابا بيضا ^(٤) .

وعن الرضا عليه السلام : « مِنْ ذَلِكَ التَّمَشُّطُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « تَمَشَّطُوا فَإِنَّ التَّمَشُّطَ يَجْلِبُ الرِّزْقَ ، وَيَحْسِنُ الشَّعْرَ ، وَيَنْجِزُ الْحَاجَةَ ، وَيَزِيدُ

فِي مَاءِ الصَّلْبِ ، وَيَقْطَعُ الْبَلْغَمَ » ^(٦) .

وقيل : إنَّ المراد بالزينة : مطلق اللباس ، وكان أهل الجاهلية من قبائل العرب يطوفون بالبيت عراة ^(٧) ،

وكانوا يقولون : لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب ودنسناها بها ، فكان الرجال يطوفون بالتهار

والنساء بالليل عراة ^(٨) ، فأمرهم الله أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا عند كل مسجد ، سواء دخلوه للصلاة أو

للطواف ، وكانوا قبل ذلك يدعون ثيابهم وراء المسجد عند قصد الطواف ^(٩) .

عن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية. قال : « الْغَسْلُ عِنْدَ لِقَاءِ الْإِمَامِ » ^(١٠) .

(١) علل الشرائع : ٦١٠ / ٨١ عن الصادق عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٤٣ / ١٥٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٦٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ١ : ٧٥ / ٣١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٦) الخصال : ٢٦٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٨٩ .

(٧ و ٨) . في النسخة : عريانا .

(٩) تفسير روح البيان ٣ : ١٥٣ .

(١٠) تهذيب الأحكام ٦ : ١١٠ / ١٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٠ .

ثم قيل : كان من بدع المشركين أنهم لا يأكلون في أيام الحج إلا قوتا ، ويعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون به ، فنزلت ^(١) ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما تشتهون من الطعام والشراب ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بالإفراط في الأكل والشرب ، وإتلاف نعم الله ، وبالتعدي إلى الحرام وتحريم الحلال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لإسرافهم ، ولا ينظر إليهم نظر الرحمة.

نقل أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني ، فقال لعلي بن حسين بن واقد : ليس في كتابكم شيء من علم الطب ؟ فقال له : إن الله جمع الطب كله في نصف آية في كتابنا ، قال : ما هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني : وهل يؤثر عن رسولكم شيء من الطب ؟ قال : نعم ، جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة ، قال : ما هي ؟ قال : قوله : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاده » ، فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئا ^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه : كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأك حصلتان : السرف والمخيلة ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام قال : « من سأل الناس وعنده ما يقوته يوما فهو من المسرفين » ^(٤) .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

ثم لما طاف المسلمون كساة ^(٥) ، وأكلوا اللحم والدسم في أيام الحج ، عيّرهم المشركون لأنهم كانوا يطوفون عراة ، ولا يأكلون اللحم والدسم حال الإحرام ، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يردّهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿حَرَّمَ﴾ على الناس ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الألبسة الفاخرة ﴿الَّتِي أَخْرَجَ﴾ بقدرته ولطفه ﴿لِعِبَادِهِ﴾ من الأرض والحيوانات والمعادن ؛ كالقطن والكتان والحرير والصوف والوبر والدروع وغيرها ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ والمستلذات ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾ كاللحوم والدسم والألبان وغيرها.

عن الصادق عليه السلام : « بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس إلى ابن الكواء وأصحابه وعليه قميص رقيق وحلة ، فلما نظروا إليه قالوا : يا ابن عباس ، أنت خيرنا في أنفسنا ، وأنت تلبس هذا اللباس ! قال : هذا أول ما اخاصمكم فيه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٥٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٥٥ ، وفيه : لجالينوس طبيا .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٥٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٤٣ / ١٥٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٠ .

(٥) في النسخة : كاسيا .

الرَّزَقِ وقال الله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾^(١) .

وعنه عليه السلام ، أنه رآه سفيان الثوري وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان ، فقال : والله ، لا تينّه ولا ينجّنه ، فدنا منه فقال : يا بن رسول الله ، ما لبس رسول الله صلى الله عليه وآله مثل هذا اللباس ، ولا علي ولا أحد من آبائك ؟ فقال [له] : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان قتر مقتر ، وكان يأخذ لقتره وإقتاره ، وإنّ الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها^(٢) ، فأحقّ أهلها بما أبرأها - ثم تلا هذه الآية ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ الآية - فنحن أحقّ من أخذ منها ما أعطاه الله ، غير أنّي يا ثوري ، ما ترى عليّ من ثوب إنّما ألبسه للناس » .

ثم اجتذب يد سفيان فجرحها إليه ، ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا ، فقال : هذا لبسته لنفسه ، وما رأيته للناس . ثم جذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل ذلك الثوب ثوب ليّن ، فقال : « لبست هذا الأعلى للناس ، ولبست هذا لنفسك تسرها »^(٣) .

وعنه عليه السلام ، أنه كان متكئا على بعض أصحابه ، فلقيه عبّاد بن كثير وعليه ثياب مروية^(٤) حسان فقال : يا أبا عبد الله ، إنّك من أهل بيت النبوة ، وكان أبوك من كان^(٥) ، فما هذه الثياب المروية عليك ؟ فلو لبست دون هذه الثياب ؟ فقال له : « ويلك يا عبّاد ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ إنّ الله عزّ وجلّ إذا أنعم على عبد نعمة أحبّ أن يراها عليه ، ليس بها بأس ، ويلك يا عبّاد ، إنّما أنا بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله فلا تؤذني » . وكان عبّاد يلبس ثوبين من قطن^(٦) .

وعنه عليه السلام أنه قيل له : أصلحك الله ، ذكرت أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس [الخشن ، يلبس] القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ، ونرى عليك اللباس الجيّد ؟ فقال له : « إنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر ، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به ، فخير لباس كلّ زمان لباس أهله ، غير أنّ قائمنا إذا قام لبس لباس عليّ عليه السلام وسار بسيرته »^(٧) .

ثم لما لم يكن للمشركين جواب عن السؤال الإنكاري غير السكوت ، أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله بالجواب عن سؤال نفسه بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ما حرّم الله الزينة والطيبات على أحد ، بل ﴿ هِيَ ﴾ حلال ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالأصالة ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وللمشركين والكفار بتبعهم ، وتكون للمؤمنين حال كونها

خَالِصَةٌ

(١) الكافي ٦ : ٤٤١ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩١ .

(٢) العزالي : جمع عزلاء ، وهو مصبّ الماء من القرية ونحوها ، وأرخت الدنيا عزاليها : بمعنى كثر نعيمها .

(٣) الكافي ٦ : ٤٤٢ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩١ .

(٤) نسبة إلى مرو ، وهي بلدة بخراسان .

(٥) في الكافي : وكان .

(٦) الكافي ٦ : ٤٤٣ / ١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٢ ، وفيه : ثوبين قطريين .

(٧) الكافي ٦ : ٤٤٤ / ١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٢ .

ومختصة [بهم] لا يشركهم فيها الكفار ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعالم الآخرة ﴿كَذَلِكَ﴾ التفصيل والتبيين الواضح ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونبين ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على المعارف والأحكام ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ حسن العرفان والطاعة دون غيرهم لعدم أهليتهم للانتفاع بها.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

ثم أنه تعالى بعد إبطال حرمة ما حرم المشركون ، أمر نبيه ﷺ ببيان ما حرم الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ على الناس ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ والقبائح التي بلغ قبحها النهاية ، سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالزنا المعلن به ، وغيره من الكبائر ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي كالزنا في السرر ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما توسط في القبح كالصغائر ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والإضرار بالغير نفساً أو مالا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ومجاوز له ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ في الوهيته وعبادته شيئاً لم يحكم العقل بجواز إشراكه وعبادته ، و﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ إليكم ﴿سُلْطَانًا﴾ وبرهاناً.

عن الكاظم عليه السلام : « أَمَّا ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ فَإِنَّهَا الزَّنا ، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يَعْنِي : الزَّنا المعلن به ونصب الزَّنايات التي كانت ترفعها الفواحش للفواحش في الجاهلية. وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿مَا بَطَنَ﴾ يَعْنِي مَا نَكَحَ مِنْ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ لِلرَّجُلِ زَوْجَةٌ وَمَاتَ عَنْهَا تَزَوَّجَهَا ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمُّهُ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ. وَأَمَّا ﴿الْإِثْمَ﴾ فَإِنَّهَا الْخَمْرُ بَعِينُهَا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (١) . فَأَمَّا ﴿الْإِثْمَ﴾ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهِيَ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ (٢) ، وَإِثْمُهُمَا كَبِيرٌ ، وَأَمَّا ﴿الْبَغْيَ﴾ فَهُوَ الزَّنا سرا « (٣) » .

أقول : في الرواية ما لا يخفى من الخلل ، ولا يبعد حملها على بيان أظهر المصاديق الشائعة بين المشركين في زمان النزول. نعم فسر جمع من المفسرين ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ بخصوص الزنا بدعوى انصراف الفاحشة في العرف إليه ، ولقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (٤) ، و﴿مَا ظَهَرَ﴾ بالزنا العلانية ، أو القبلية والملازمة ، و﴿مَا بَطَنَ﴾ بالسر منه ، أو بالدخول ، و﴿الْإِثْمَ﴾ بخصوص الخمر و﴿الْبَغْيَ﴾ بالكبر والظلم على الغير (٥) . وفي الكل نظر.

(١) البقرة : ٢ / ٢١٩ .

(٢) زاد في تفسير العياشي : فهي الترد.

(٣) الكافي ٦ : ٤٠٦ / ١ ، تفسير العياشي ٢ : ١٤٦ / ١٥٨٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٣ .

(٤) النساء : ٤ / ٢٢ .

(٥) راجع : تفسير الرازي ١٤ : ٦٥ و ٦٦ .

وعلى ما قلنا من عموم الفواحش والإثم ، يكون أفراد البغي بالذكر مع دخوله في الأولين ، للمبالغة في الزجر عنه. وتقييد البغي ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع دخول القيد في مفهومه للتأكيد. وتقييد الاشتراك ب ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ لتهكم وللإشعار بعدم جواز الالتزام بشيء لا حجة عليه.

عن الصادق عليه السلام : « أن القرآن له ظهر وبطن ، فجميع ما حرّم الله في القرآن هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمة الجور ، وجميع ما أحلّ الله في الكتاب هو الظاهر ، والباطن [من ذلك] أئمة الحق » (١) .

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي تتقولوا وتفتروا.

عن الباقر عليه السلام أنه سئل : ما حجة الله على العباد ؟ فقال : « أن يقولوا ما يعلمون ، ويقفوا عند ما لا يعلمون » (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، في وصيته لابنه محمد بن الحنفية : « يا بني ، لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كلّ ما تعلم » (٣) .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

ثم لما بيّن الله تعالى معظم محرماته ، أو بعضها بنحو العموم والإجمال وبعضها بنحو التفصيل ، هدّد الناس على مخالفتها بقوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الامم وطائفة من الطوائف ﴿أَجَلٌ﴾ وأمد معيّن في علم الله واللّوح المحفوظ ، يعيشون فيه ويمهلون إلى انقضائه بمقتضى الحكمة البالغة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ وانقضت مدّة عيشهم ومهلتهم في الدنيا ، أتاهم الموت أو عذاب الاستئصال ، إذا ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا يمهلون ﴿سَاعَةً﴾ وزمانا قليلا ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولا يعجلون ، ولو كانوا طالبين للتأخير والتّقديم ، مشتاقين إليهما. فاستنهضوا الفرصة ولا تأمنوا مكر الله وبأسه.

عن ابن عباس : أنّ معنى الآية أنّ الله أمهل كلّ أمة كدّبت رسولها إلى وقت معيّن ، وهو تعالى لا يعدّهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقّين لعذاب الاستئصال ، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة (٤) .

عن الصادق عليه السلام : « هو الذي سمّي لملك الموت في ليلة القدر » (٥) .

وعنه عليه السلام : « تعدّ السنين ، ثمّ تعدّ الشهور ، ثمّ تعدّ الأيام ، ثمّ تعدّ الأنفاس ، فإذا جاء أجلهم لا

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٤٥ / ١٥٧٨ ، الكافي ١ : ٣٠٥ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٤ .

(٢) التوحيد : ٤٥٩ / ٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٤ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٣٨١ / ١٦٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٦٧ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٤٧ / ١٥٨١ ، ولم يرد فيه : في ليلة القدر ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٤ .

يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» (١) .

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾

ثمّ بعد بيان المحرّمات والتهديد على مخالفتها ، بيّن الله تعالى وجوب متابعة الرّسل ، ووعدهم بالثّواب على طاعتهم والعقاب على تكذيبهم ومخالفتهم بقوله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وإذا جاءكم من قبلي ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ جنسا ؛ ليكون إرشادهم أقطع للعذر ، وأبين للحجّة ، وهم ﴿يَقُصُّونَ﴾ ويتلون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ من الكتب السماويّة ودلائل التّوحيد ، ويبينون أحكام شريعتي ﴿فَمَنْ اتَّقَى﴾ مخالفتي في الإيمان بهم ومخالفتهم في أحكامهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عقائده وأخلاقه وأعماله بامثالته أوامرهم ، وانتهائه عمّا نهوا عنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بوجه من الوجوه ممّا يصيب العصاة من عذاب الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أبدا على ما فاتهم من الدّنيا ، لاستغراقهم في اللذات الروحانيّة في الدّنيا ، والتّعم التي أعدّها الله للمتّقين في الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ الدّالة على توحيددي ورسالة رسلي ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وترفعوا عن الإيمان بها ، وتجاؤا عن قبولها تعظّما ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن رحمتي ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبدا ، لا خلاص لهم منها ولا مناص.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٧) و (٣٩)﴾

(١) الكافي ٣ : ٢٦٢ / ٤٤ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٤ .

ثم بالغ سبحانه في ذم المكذبين للرسل ، والمفترين على الله بالبدع والأحكام الفاسدة الباطلة بقوله : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه ، وأخسر في تجارته ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وتقول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قولا ﴿كَذِبًا﴾ ونسب إليه حكما باطلا ، كحرمة البحيرة وأخواتها ﴿أَوْ كَذَبَ بَيَاتِهِ﴾ وأنكر دلائله الدالة على توحيده في الألوهية والعبادة والعظمة ، ورسالة رسله ، ودار جزائه.

﴿أُولَئِكَ﴾ البالغون في الظلم غايته ﴿يَنَالُهُمُ﴾ ويصل إليهم ﴿نَصِيْبُهُمْ مِنْ﴾ الشقاوة كما عن ابن عباس ^(١) ، أو من العقوبات كما عن القمي ^(٢) ، أو من الأرزاق والأعمار والحظوظ الدنيوية المكتوبة لهم في ﴿الْكِتَابِ﴾ ولوح القضاء.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ ونزلت عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ والمبعوثون من قبلنا من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح ، لأجل أنهم ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويقبضون أرواحهم ، إذن ﴿قَالُوا﴾ لهم توبيخا وتقريعا : ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ في حياتكم ﴿تَدْعُونَ﴾ وتعبّدونه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وبدلا منه ، من الأصنام والكواكب وغيرها ، وترجون نفعه لكم عند الشدائد ؟ فادعوهم الآن لينجوكم من أيدينا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم تحسرا وتندما : إنهم قد ﴿صَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنَّا﴾ ولا ينفعوننا اليوم ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الخبيثة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله ، عابدين لما لا يستحقّ العبادة.

قيل : هذا بيان سوء حالهم في القيامة ، والمراد من (الرسل) ملائكة العذاب ، ومن (التوفية) جمعهم واستكمال عدّهم للحشر إلى النار ، حتى لا ينفلت منهم أحد ^(٣) إذن ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ، أو حازن النار : ﴿ادْخُلُوا﴾ أيتها المشركون اليوم ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ وجماعات مشركين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت تلك الامم في الأزمنة التي كانت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في الدنيا وهم كانوا ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ جنسا ﴿فِي النَّارِ﴾ فيدخلونها فوجا بعد فوج ، وامة بعد امة.

فلما رأوا سوء عاقبة الشرك ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ منهم في النار ﴿لَعَنَتْ﴾ تلك الامة ﴿أُخْتَهَا﴾ وشريكها في الكفر والضلال ، وتبرأت من الجماعة الموافقة لها في الشرك ، فهم يكونون على تلك الحالة ﴿حَتَّى إِذَا دَارَكُوا﴾ وتلاحقوا في النار واجتمعوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ وكافة ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ﴾ دخولا وأدناهم منزلة ، وهم الأتباع والسفلة ، تخفيفا للعذاب عن أنفسهم ، وازديادا ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ دخولا وأعلاهم منزلة في الدنيا من الرؤساء والقادة : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الرؤساء والكبراء ﴿أَصْلُونَا﴾ عن الذين الحق ، بأن سنوا لنا سنة سيئة فافتدينا بهم ، ﴿فَاتَّيَهُمُ﴾ وأنزل بهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفا ﴿مِنْ﴾

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٧١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٧١ .

النَّارِ ﴿ حَيْثُ إِتَّهَمُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ ﴾ **قَالَ** ﴿ اللهُ تَعَالَى أَوْ خَازِنُ جَهَنَّمَ : ﴿لِكُلِّ﴾
 مِنَ الْمُتَّبِعِينَ وَالْمُتَّبَعِ مِنْكُمْ عَذَابٌ ﴿صَغِيرٌ﴾ أَمَّا الرَّؤُوسَاءُ فَبِضَالَتِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ، وَأَمَّا الْأَتْبَاعُ فَبِكُفْرِهِمْ
 وَتَقْلِيدِهِمْ ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَدْرَهُ وَشِدَّتَهُ لِكُلِّ فَرِيقٍ .

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾ وَقَادَتَهُمْ مُخَاطِبِينَ ﴿لِأَخْرَاهُمْ﴾ وَأَتْبَاعَهُمْ بَعْدَ اسْتِمَاعِهِمْ جَوَابَ اللهِ أَوْ الْخَازِنِ :
 ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ إِذْنٌ ﴿عَلَيْنَا﴾ شَيْءٌ ﴿مِنْ فَضْلِ﴾ وَمِزْيَةٍ بِخَفَّةِ عَذَابِكُمْ وَشِدَّةِ عَذَابِنَا ، بَلْ
 كُلُّنَا مُتَسَاوُونَ فِي الْعَذَابِ قَدْرًا وَشِدَّةً ، لِأَنَّا مَا أَلْجَأْنَاكُمْ إِلَى الْكُفْرِ ، بَلْ أَتَيْتُمْ هُوَى أَنْفُسِكُمْ كَمَا أَتَيْتُمَا
 ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وَاطْعَمُوا طَعْمَهُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ .
 عَنْ الْقَمِّي : قَالُوا ذَلِكَ شِمَاتَةً بِهِمْ ^(١) .

**﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
 وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾**

ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي تَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسْلِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةُ عَلَى
 التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ وَالْبَعْثِ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وَامْتَنَعُوا تَرْفَعًا عَنِ الْإِقْرَارِ بِهَا ﴿لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾
 حَتَّى تَرْفَعَ إِلَيْهَا أَدْعِيَتُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَأَرْوَاحُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ .
 عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام : « أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتَرْفَعُ أَعْمَالُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ
 فَيَصْعَدُ بِعَمَلِهِ وَرُوحِهِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ نَادَى مُنَادٌ : اهْبِطُوا إِلَى سَجِّينَ ؛ وَهُوَ وَادٌ بِحُضْرَمُوتٍ يُقَالُ لَهُ
 بَرَهوت » ^(٢) .

وَرَوَى أَنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ يَرْجِعُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي
 الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، وَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، وَيُسْتَفْتَحُ لِرُوحِ الْكَافِرِ فَيُقَالُ لَهَا : ارْجِعِي
 ذَمِيمَةً ^(٣) ، فَإِنَّهُ لَا تَفْتَحُ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ فِي الْآخِرَةِ أَبَدًا ﴿حَتَّى يَلِجَ﴾ وَيَدْخُلَ ﴿الْجَمَلُ﴾ مَعَ عَظَمِ جُنَّتِهِ ﴿فِي سَمِّ
 الْخِيَاطِ﴾ وَثَقْبِ الْإِبْرَةِ ، وَهَذَا مُحَالٌ ، فَدُخُولُ الْكَافِرِ فِي الْجَنَّةِ أَيْضًا مُحَالٌ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْحَرَمَانُ مِنَ الْجَنَّةِ
 ﴿نَجْزِي﴾ فَرْقٌ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وَالْعَصَاةُ .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٦ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٦٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٦٠ .

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤١) و (٤٢)

ثم بين شدة عذابهم بقوله : ﴿لَهُمْ مِنْ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وفرش يقدعون ويضطجعون عليه ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وعلى أجسادهم ﴿غَوَاشٍ﴾ وأغطية من النار فيحيط بهم العذاب من كل جانب ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء الفطيع والعذاب الشديد ﴿نَجْزِي﴾ القوم ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم ^(١) باختيار الشرك ومعارضة الأنبياء.

ثم أنه تعالى على دأبه في الكتاب العظيم بعد وعيد الكفار ، شرع في وعد المؤمنين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وواظبوا على الحسنات وترك السيئات بمقدار وسعة بحيث لا يشق عليهم ^(٢) ، فإننا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ من النفوس ﴿إِلَّا﴾ تكليفا يكون امتثاله والقيام به ﴿وُسْعَهَا﴾ ودون طاقتها ، بحيث لا يكون حرج عليها ، ﴿أُولَئِكَ﴾ العباد المطيعون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وملازمو النعمة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال لنعمهم ولا نفاذ.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

ثم بعدما بشرهم برحمتهم بطيب المسكن ودوام النعمة ، بشرهم بفراغ القلب من الآلام الروحانية ، وصفاء المنظر بقوله : ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وسلبنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿مِنْ غَلٍّ﴾ وحققد كان لهم على المؤمنين في الدنيا ، وحسد على ما أتى الكملين في الآخرة من فضله وإحسانه ، فلا يكون بينهم إلا التوادد والتحاب ، فهم إخوان على سرر متقابلين ، كما لا يكون بين الكفار في جهنم إلا التباغض والتنافر بحيث يلعن بعضهم بعضا.

القَمِّي : عن الباقر عليه السلام : « العداوة تنزع منهم » ، أي من المؤمنين في الجنة ^(٣) .
وأما صفاء منظرهم بأنه ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ وأسفل قصورهم ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، أو الأربعة ، وقيل : إن جريان الأنهار كناية عن المكاشفات والفيوضات الروحانية ﴿وَقَالُوا﴾ بعد مشاهدة منازلهم

(١) كذا ، والظاهر : الظالمين أنفسهم.

(٢) في النسخة : عليه.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٧.

وكثرة فضل الله عليهم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ بفضلِهِ إلى معرفته ، وأرشدنا بتوسط رسوله لهذا الدِّينِ القويم ، وأوصلنا بتوفيقه ﴿لهَذَا﴾ الجزء العظيم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ في الدُّنْيَا ﴿لِنَهْتَدِي﴾ بعقولنا وسعينا ﴿لَوْ لَا أَن هَدَانَا اللَّهُ﴾ بلفظه إليه .

عن (الكافي) : عن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « إذا كان يوم القيامة دعي النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأئمة من ولده عليه السلام فينصبون للناس ، فإذا رأتهم شيعتهم قالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ لهذا الآية ، يعني : هَدَانَا إلى ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليه السلام » (١) .

ثم يذكرون علّة انتساب هدايتهم إلى الله بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا﴾ من جانب الله ﴿بِالْحَقِّ﴾ والذين صدّق ، أو بالمعجزات ودلائل الصدق ، فاهتدنا بإرشادهم ، وصدقناهم واتبعناهم بتوفيقه . وإنما يقولون ذلك نشاطا وسرورا بإنجاز ما وعدهم الله على لسان رسله ، وفرحا بانقلاب يقينهم البرهاني باليقين الشهودي ﴿وَنُودُوا﴾ من قبل الله عند رؤيتهم الجنة ، أو بعد استقرارهم فيها إظهارا للمنة عليهم : ﴿أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ﴾ التي وعد المتّقون وأنتم ﴿أُورِثُوهَا﴾ وملكتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لطاعة الله ومرضاته ، فادخلوها ، أو أقيموا فيها خالدين .

عن النبي صلى الله عليه وآله : « ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، فذلك قوله : ﴿أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ » (٢) .
وعنه عليه السلام : « ليس من كافر ولا مؤمن إلّا وله في الجنة والنار منزل ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، رفعت الجنة لأهل النار ، فنظروا إلى منازلهم فيها فقليل : لهم هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ، ثم يقال لأهل الجنة : رثوهم (٣) بما كنتم تعملون ، فيقسّم بين أهل الجنة منازلهم » (٤) .

وعن الصادق عليه السلام (٥) ، في هذه الآية : « أنّ أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة ، في أصل ساقها عينان ؛ فشربوا من إحداها فينزع ما في صدورهم من غلٍّ ، وهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة التّعيم ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا ، ويشّهرهم خزنة الجنة قبل أن يدخلوها بأن يقولوا لهم : ﴿أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإذا دخلوها فيها قالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ الآية » (٦) .

وفي الخبر : « يقال لهم : جوزوا الصّراط بعفوي ، وادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم » (٧) .

(١) الكافي ١ / ٣٤٦ / ٣٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٧ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٦٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٧ .

(٣) رثوهم : فعل أمر من ورث يرث .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٨٢ .

(٥) في روح البيان : عن السّدي .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ١٦٣ .

(٧) تفسير روح البيان ٣ : ١٦٣ .

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾

ثم لما بين الله تعالى وعيد الكفار بالنار ووعد المؤمنين بالجنة ، ذكر مخاطبة المؤمنين للكفار بقوله :
﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ بعد استقرارهم فيها ، وإشرافهم على جهنم فرحا بما هم فيه من النعم
﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ المنكرين للتوحيد والرسالة والحشر ، توبيخا وشماتة لهم : ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ وشهدنا
بالبيان ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ في الدنيا بلسان رسوله من الثواب والكرامة على الإيمان والطاعة ﴿حَقًّا﴾ وصدقا
﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ﴾ اليوم ، وشاهدتم أيها المكذبون ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العقاب الشديد على الكفر به
وعصيانه وتكذيب رسله ﴿حَقًّا﴾ وإنما لم يقل سبحانه : (ما وعدكم ربكم) إشعارا بعدم قابليتهم لأن
يكونوا طرفا لوعد الله وتوجهه ﴿قَالُوا﴾ وهم في النار تحسرا وتندما : ﴿نَعَمْ﴾ وجدنا جميع ما وعده حقا
﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ من قبل رب العزة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي وسطهم ، أو من بينهم أذانا يسمع الخلائق - كما عن
القمي (١) - ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وعذابه ثابت أو مستقر ﴿عَلَى﴾ الكفارين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم
بتعريضها للهلاك.

عن الكاظم والرضا عليهما السلام : « المؤذن أمير المؤمنين عليهما السلام » (٢) .
وعن أمير المؤمنين عليهما السلام : « أنا ذلك المؤذن » (٣) .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾

ثم ذم الله الظالمين بقوله : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ودين الإسلام ، ويعنعونهم
عن قبوله بالقهر أو التطميع أو غيرها من الحيل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويطلبون فيها ميلا وانحرافا عما هي عليه
من الاستقامة ، بإلقاء الشكوك والشبهات فيها وفي دلائل صحتها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء
﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون. وفيه إشعار بعلة ما سبق من سوء أفعالهم.

﴿وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٧ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٤٧ / ١٥٨٣ ، الكافي ١ : ٣٥٢ / ٧٠ ، تفسير القمي ١ : ٢٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٧ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٦٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٨ .

تَلَقَّاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٦) و (٤٧)

ثم لما حكى الله تعالى مخاطبة أهل الجنة لأهل النار ، وكان مجال توهم القرب بينهما ، وتلذذ أهل النار برائحة الجنة ونعمها ، وتأذي أهل الجنة من نتن الجحيم وحرها ، دفع التوهم بقوله : ﴿وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ﴾ وسور كسور المدينة ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وأعلى ذلك السور - كما عن ابن عباس (١) - أو المأمرون على تعريف الفريقين ﴿رِجَالٌ﴾ من أشرف أهل الإيمان والطاعة قيل : هم الأنبياء يجلسهم الله على أعالي ذلك السور تميزاً لهم عن سائر أهل القيامة ، وإظهاراً لشرفهم وعلو مرتبتهم ، وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ، مطلعين على أحوالهم ومقدار ثوابهم وعقابهم (٢) ، وقيل : هم الشهداء ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلامتهم التي أعلمهم الله بها.

في معنى الأعراف والمراد من أصحابه

عن الصادق عليه السلام : « الأعراف : كتيبان (٤) بين الجنة والنار ، والرجال : الأئمة » (٥) .
وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « نحن نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار ، فمن ينصربنا عرفناه بسيماها فأدخلناه الجنة ، ومن أبغضنا عرفناه بسيماها فأدخلناه النار » (٦) .
وعنه عليه السلام ، في هذه الآية : « نحن على الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم ، ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عز وجل إلا بسبيل معرفتنا ، ونحن الأعراف يوقفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط ، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه ، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه » (٧) .
وعن سلمان رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي عليه السلام أكثر من عشر مرات : « يا علي ، إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار ، ولا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه ، ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه » (٨) . إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة بهذا المضمون ، أو ما يقرب منه.

وفي بعضها : « الرجال هم الأئمة من آل محمد ، والأعراف صراط بين الجنة والنار » (٩) .
وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، فقال : « إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم الأعمال » . الخبر (١٠) .
وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عنهم ، فقال : « قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فإن أدخلهم النار

(١) و ٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٤ : ٨٧ .

(٤) الكتيبان ، جمع الكتيب : هو الرمل المجتمع المحدودب .

(٥) و ٦) . مجمع البيان ٤ : ٦٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٨ .

(٧) الكافي ١ : ١٤١ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٨ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ١٤٨ / ١٥٨٦ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٩ .

(٩) بصائر الدرجات : ٥١٦ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩٩ .

(١٠) تفسير الصافي ٢ : ١٩٩ .

فبذنبهم ، وإن أدخلهم الجنة فبرحمته » ^(١) . وعليه جمع من مفسري العامة ^(٢) .

ويجمع بين الروايات ما في (الجوامع) عن الصادق عليه السلام قال : « الأعراف كثنان بين الجنة والنار ، يوقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه ، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده ، وقد سبق المحسنون إلى الجنة » . الخبر ^(٣) .

ففيه الدلالة على أن الرجال الذين على الأعراف أشرف المؤمنين ، وأسفلهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم.

﴿وَنَادُوا﴾ أولئك السفلة ^(٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والمحسنين الذين سبقوهم إليها ، إذا عابوهم يدخلونها وهم بعد واقفون منتظرون للشفاعة : ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ عن الصادق عليه السلام ، في الرواية السابقة : « فيقول الخليفة للمذنبين الواقفين معه : انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا ^(٥) إلى الجنة ، فيسلم عليهم المذنبون ، وذلك قوله : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ » . الخبر ^(٦) . ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلهم الله أيها بشفاعة النبي والإمام.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ ووقعت ﴿أَنْبَارُهُمْ﴾ - حال كونهم على الأعراف ﴿تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ومقابلهم - عليهم ﴿قَالُوا﴾ تضرعا إلى الله وتعوذا به : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ في النار ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

عن الصادق عليه السلام ، في الرواية السابقة : « وينظر هؤلاء إلى أصحاب النار فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ » . الخبر ^(٧) .

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَائِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٨) و (٤٩)﴾

ثم لما بين الله تعالى إشرف أشرف المؤمنين الذين هم على الأعراف ، حكى توبيخهم أصحاب النار ، وشمايتهم بهم إلّا إذا لأنفسهم ، وازديادا لعذاب هؤلاء الكفرة بقوله : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ

(١) الكافي ٢ : ٢٨٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٨٨ .

(٣) جوامع الجامع : ١٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٠ .

(٤) السفلة : نقيض العلوة ، سفلة الناس أو سفلتهم : أسافلهم .

(٥) في جوامع الجامع : سبقوا .

(٦) جوامع الجامع : ١٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠١ .

(٧) جوامع الجامع : ١٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠١ .

﴿الْأَعْرَافِ﴾ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَافُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿رِجَالًا﴾ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، وَ﴿قَالُوا﴾ : لَقَدْ شَاهَدْتُمْ أَتْيَهَا الرُّؤَسَاءُ أَنَّهُ ﴿مَا أَغْنَى﴾ وَلَمْ يَكْفِ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ ﴿عَنْكُمْ﴾ الْيَوْمَ ﴿جَمْعُكُمْ﴾ الْأَعْوَانُ وَالْأَتْبَاعُ وَالْأَمْوَالُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بِهِ مِنَ النَّسَبِ وَالْجَاهِ ، عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وقيل : إن كلمة (ما) في ﴿مَا أَغْنَى﴾ استفهامية ، و (ما) في ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ مصدرية ^(١) .

ثم بالغوا في تَقْرِيعِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ بقولهم ، مشيرين إلى فقراء المؤمنين : ﴿أَهْؤُلَاءِ﴾ الْفُقَرَاءُ الضَّعَفَاءُ ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وَحَلَفْتُمْ عَلَى أَنَّهُ ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وَلَا يَصِيْبُهُمْ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ مِنْهُ وَفَضْلٌ أَبَدًا ؟ ثُمَّ يَلْتَفِتُونَ إِلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ عَلَى رَغْمِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَيْكُمْ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ حِينَ يَخَافُ الْكُفْرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حِينَ يَحْزَنُ هَؤُلَاءِ .

وعن الصادق عليه السلام ، في الحديث السابق : « وينادي أصحاب الأعراف - وهم الأنبياء والخلفاء - رجالا من أهل النار ورؤساء الكفار ، يقولون لهم مقرعين : ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ واستكباركم ، ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحقرونهم لفقرهم ، ويستطيّلون عليهم بدنياههم ، ويقسمون أنّ [الله] لا يدخلهم الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين ، عن أمر من أمر الله عزّ وجلّ لهم بذلك : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خائفين ولا محزونين » ^(٢) .

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا

رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾

ثم أنّه تعالى بعد بيان مخاطبة أهل الجنة وأصحاب الأعراف لأصحاب النار ، حكى مخاطبة أهل النار لهم بقوله : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بعد استقرارهم فيها ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ بعد استغراقهم في نعمها : ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾ وَصَبُّوا أَتْيَهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿عَلَيْنَا﴾ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ الْبَارِدِ ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِفَضْلِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَشْرِيَةِ ، أَوْ مِنْهَا وَمِنَ الْفَوَاكِهِ وَالْأَطْعَمَةِ لِيخَفَّفَ عَنَّْا بِهِ حَرَّ النَّارِ ، أَوْ الْعَطَشَ وَالْجُوعَ .

عن ابن عباس : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس ^(٣) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٦٩ .

(٢) جوامع الجامع : ١٤٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠١ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٩٢ .

وقيل : إنّ أهل النار لما بقوا فيها جوعاً عطاشاً قالوا : يا ربنا ، إنّ لنا قرابات في الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فأمر الله الجنة فتزحزحت ^(١) فيؤذن في ذلك ، فينظرون إلى قراباتهم في الجنة ، وإلى ما هم فيه من أنواع التعيم ، فيعرفونهم ولا يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم ، فينادون قراباتهم من أهل الجنة بعد إخبارهم بقراباتهم ويقولون : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾ ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد من ما ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الأطعمة والفواكه ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام : « يوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ^(٤) .

عن أحدهما عليه السلام قال : « إنّ أهل النار يموتون عطاشاً ، ويدخلون قبورهم عطاشاً ، ويدخلون جهنم عطاشاً ، فيرفع لهم قراباتهم من أهل الجنة ، فيقولون : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ^(٥) .

روي أنه لا يؤذن لأهل الجنة في الجواب أربعين سنة ^(٦) .

ثم يؤذن لهم في جوابهم ، كما حكى الله تعالى بقوله : ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم : ﴿أَنْ﴾ شراب الجنة وطعامها ممنوعان منكم ؛ لأنّ ﴿اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بأنكم أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تكفرون .

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَلَئِمَّ نَسَاهُمْ كَمَا

نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)

ثم شرع الله تعالى في ذم الكفار وقدهم بأشنع ذمائمهم وصفاتهم ، وتحديدهم بأشدّ العذاب بقوله : ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وجعلوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي أمرهم الله بالتدين به ، وهو دين الإسلام ﴿لَهْوًا﴾ وبطرا ﴿وَلَعِبًا﴾ وعبثاً ، حيث إنهم يحرمون ما شاءوا ، ويحلّون ما شاءوا ، ولا يتبعون أحكام الله ، بل يتبعون هوى أنفسهم التي زيتها الشيطان لهم ، قيل : كان دينهم دين إسماعيل فغيّروه بهوهم . وقيل : إنّ المراد : أنّهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم . وعن ابن عباس : يريد المستهزئين المقتسمين ^(٧) .

﴿وَوَغَرَّتُهُمْ﴾ وشغلّتهم ﴿الدُّنْيَا﴾ ولذاتها وزخارفها عن ذكر الله ، والتدبر في آياته ودلائل توحيده ، والتفكير في عواقبهم ، فصار همّهم في تحصيل الجاه والمال وسائر المشتبهات ﴿فَلَئِمَّ﴾

(١) في النسخة : فتزحزفت .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٩٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٩٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٥٠ / ١٥٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٢ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٤٩ / ١٥٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٢ .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ١٧١ .

(٧) تفسير الرازي ١٤ : ٩٣ .

﴿نَسَاهُمْ﴾ ولا نعتني بهم ، ولا نلتفت إليهم ، كما لا يلتفت الناسي إلى المنسي ، أو نتركهم في النار أبدا
﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ولم يلتفتوا إليه ، ولم يعتنوا بما ينفعهم فيه ، ولم يستعدوا له .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « يعني بالنسيان أنه لم يشبه كما يشيب أوليائه الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين حين آمنوا به وبرسله ، وخافوه في الغيب ، وقد يقول العرب في باب النسيان : قد نسينا فلان فلا يذكرنا ، أي أنه لا يأمر لهم بخير ولا يذكرهم به » ^(١) .

وعن الرضا عليه السلام : « أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا ، وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ^(٢) .

﴿و﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ، ورسالة رسلنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وإياها ينكرون عنادا واستكبارا .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

ثم أنه تعالى بعد شرح أحوال الكفار والمؤمنين في القيامة ببيان معجز ، أعلن بانقطاع عذر الكفار في ترك الإيمان بالنبوة والكتاب بقوله : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ عظيم الشأن ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ وشرحا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ ، وغيرها من العلوم واحدا بعد واحد مبينا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كامل منا بتفاصيله وو اقيعات الأمور ، ومنافع ما فيه ، ليكون ذلك الكتاب ﴿هُدًى﴾ ورشادا إلى الحق ، وسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة تامة وفضلا عظيما ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به ، المصدقين بأنه من الله ، فإنهم المنتفعون والمتدبرون في آياته ، المقتبسون من أنواره .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ

رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ

الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾

ثم وبخهم الله على ترك الإيمان مع انقطاع عذرهم فيه بقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقعون شيئا آخر بعد هذا القرآن يكون باعثا لهم على الإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر ، مع أنه ليس شيء أبعث من

(١) التوحيد : ٢٥٩ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٢٥ / ١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٢ ، والآية من سورة الحشر : ٥٩ / ١٩ .

هذا الكتاب ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ وو قوع ما هددوا به فيه ، من عذاب الاستئصال في الدنيا ، أو مجيء يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَنَسُوهُ﴾ وتركوا العمل بما فيه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا إيماناً واعتراً فابصدق الرسل : ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لهاديتنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والدين القويم ، أو بالمعجزات الباهرات. فلما رأوا أنه لا ينفعهم إيمانهم ، ولا مخلص لهم من العذاب ، قالوا تمنياً وتحسراً : ﴿فَهَلْ لَنَا﴾ اليوم ﴿مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ويدفعوا بشفاعتهم العذاب عنا ؟ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ ونرجع إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ﴾ فيها عملاً ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وتندين بدين غير الذي كنا نندين به ، فإنه لا يمكن الخلاص إلا بأحد هذين الأمرين.

ثم نبه الله سبحانه على امتناع مطلوبهم ومأمولاهم بقوله : ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي كانت بمنزلة رأس ما لهم ، في الكفر والعصيان ﴿وَضَلَّ﴾ وغاب أو فات ﴿عَنْهُمْ﴾ منافع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله أن يقبل شفاعته من الأصنام ، وظهر لهم بطلان الأديان التي كانوا ينصرونها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

ثم لما كان الاعتقاد بالمعاد متوقفاً على معرفة الله بالوحدانية وكمال القدرة والعلم ، عرف ذاته المقدسة بتلك الصفات بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ هو ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ بقدرته الكاملة ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ السبع بما فيها من الكواكب وغيرها ﴿وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن القمي عليه السلام : في ستة أوقات ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « أن الله خلق الخير يوم الأحد ، وما كان ليخلق الشر قبل الخير ، وفي الأحد والاثني خلق الأرضين ، وخلق أقواتها يوم الثلاثاء ، وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس ، وخلق أقواتها يوم الجمعة » ^(٢) . الخير .

أقول : الظاهر أن المراد من الأيام في الرواية : الأوقات التي لو كانت الشمس - التي بطلوعها وغروبها توجد الأيام وتتعدد - موجودة لكانت تلك الأوقات [هي] تلك الأيام. وأما تقدير الأوقات فيحتمل أنه كان إما بنسبة كل موجود إلى الآخر ، وإما بالنسبة إلى حركة فلك الأفلاك. وإرادة غيره من قوله ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ .

وقيل : إن الله خلق الموجودات تدريجاً ، ليعلم العباد التأني في الأمور.

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٣ .

(٢) الكافي ٨ : ١٤٥ / ١١٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٣ .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ولو شاء أن يخلقها في أقل من لمح البصر لخلق ، ولكنه جعل الأناة والمداورة مثالا لا منائيه ، وإيجابا للحجة على خلقه » ^(١) .

وعن الرضا عليه السلام : « وكان قادرا على أن يخلقها في طرفة عين ، ولكنه عَجَّلَ خلقها في ستة أيام ليظهر على الملائكة ما يخلقها منها شيئا بعد شيء ، فيستدل بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرة بعد مرة » ^(٢) .

وقيل : للتنبيه على أن لكل شيء حدا محدودا وو قتا معيناً ، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه ، فتأخير ثواب المطيعين وعقاب العاصين لذلك .
﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ واستولى بعلمه وتديره **﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾** . عن أمير المؤمنين عليه السلام : « استوى تديره ، وعلا أمره » ^(٣) .

وعن الكاظم عليه السلام : « استولى على ما دق وجل » ^(٤) .
وعن الصادق عليه السلام : « استوى على كل شيء ، فليس شيء أقرب إليه من شيء » ^(٥) .
وفي رواية : « لم يبعد منه بعيد ، ولم يقرب منه قريب » ^(٦) .
فحاصل الروايتين ^(٧) : أن المراد بالعرش جميع الموجودات ؛ كما مر في آية الكرسي أنه أحد معنييه .
وقيل : إن المراد بالعرش هو السرير ^(٨) ، كما هو معناه لغة ، وكفى به عن الملك ، فإنه إذا احتل ملك ملك يقال : ثل عرشه ، وإذا استقام ملكه واطرد أمره وحكمه يقال : استوى على عرشه واستقر على سرير ملكه .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « إن الملائكة تحمل العرش ، وليس العرش كما يظن كهيئة السرير ، ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر ، وربك عَجَّلَ مالكة ، لا أنه عليه ؛ ككون الشيء على الشيء » ^(٩) .
ثم استشهد سبحانه على كمال قدرته وتديره بقوله : **﴿يُعْشِي﴾** ويغطي **﴿الَّيْلَ﴾** بظلمته **﴿النَّهَارَ﴾** ويذهب بنوره ، وهو مع ذلك **﴿يَطْلُبُهُ﴾** ويشتاق إلى مجيئه بعده **﴿حَتِيئاً﴾** وسريعا لا يفصل بينهما شيء ، فإن في تنظيم تعاقب الليل والنهار - مع وضوح أن فيه منافع عظيمة ؛ إذ به يتم أمر الحياة ،

(١) الاحتجاج : ٢٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٣٤ / ٣٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٣ .

(٣) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٤ .

(٤) الاحتجاج : ٣٨٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٤ .

(٥) الكافي ١ : ٩٩ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٤ .

(٦) الكافي ١ : ٩٩ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٤ .

(٧) أي اللتين عن الامامين الكاظم والصادق عليهما السلام .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ١٧٤ .

(٩) التوحيد : ٣١٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٥ .

وكمال صلاح الموجودات - دلالة واضحة على كمال قدرته وحكمته.

ثم قرر ذلك بقوله : ﴿وَالشَّمْسُ﴾ التي هي سلطان الكواكب ﴿وَالْقَمَرُ﴾ الذي هو نائبها ﴿وَالنُّجُومُ﴾ التي هي خدمها ، خلقهن حال كونهن ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مقهورات تحت إرادته.

ثم لما كان ما سوى الله إما جسماني له مائدة ومدة وحجم ومقدار ؛ ويسمى بعالم الخلق ، وإما روحاني لا مائدة له ولا مدة له ولا حجم ؛ ويسمى بعالم الأمر ، بالغ سبحانه في تعريف ذاته المقدسة بالوحدانية ، وكمال القدرة والتدبير والسلطنة فيهما بقوله : ﴿أَلَا لَهُ﴾ تعالى خاصة ﴿الْخَلْقُ﴾ وعالم الجسمانيات ﴿وَالْأَمْرُ﴾ وعالم الروحانيات ، إيجادا أو إعداما ، وتصرفا وتديرا ، لا مالك شيء منهما غيره ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى بالوحدانية في الألوهية والقدرة ، وتعظم بالفردانية في السلطنة والربوبية ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وخالقها ومديرها.

ففيه رد على الذين اتخذوا من دون الله أربابا ، ودعوتهم إلى القول بتوحيده في الربوبية لجميع الكائنات ، وتنظيم عالم الوجود ، كالملك المتمكن في ملائكته بتدبيره.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾

ثم لما بين الله سبحانه أن تدبير العالم بيده وجميع الخيرات نازل منه ، أمر الناس بسؤاله ورفع حوائجهم إليه ، وقطع طمعهم عن غيره بقوله : ﴿ادْعُوا﴾ وسئلوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ اللطيف بكم ، السميع لدعائكم ، القادر على إجابتكم جميع حوائكم الدنيوية والآخروية ، وليكن دعاؤكم له ﴿تَضَرُّعًا﴾ وخضوعا وتذللا ﴿وَخُفْيَةً﴾ وسرا بحيث بلا يسمعه غيركم ، فإنه أقرب إلى الخلوص والاستجابة ، ولا تعتدوا في دعائكم ، ولا تجاوزوا فيه عن حد ما امرتم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يرضى عن المتجاوزين عن الحد ؛ بالاقتراح عليه ، وطلب ما لا ينبغي طلبه.

عن النبي ﷺ : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وحسب المرأ أن يقول : اللهم إني أسئلك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » (١) .

في استحباب الاخفات في الدعاء

وعنه ﷺ ، أنه كان في غزاة ، فأشرف على واد ، فجعل الناس يهللون ويكبرون ، ويرفعون أصواتهم ، فقال : « يا أيها الناس ، أربعوا (٢) على أنفسكم ، أما إنكم لا تدعون أصما (٣) ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا إنه معكم » (٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٣ : ٢٣٣ .

(٢) أربعوا : تزيهوا وانتظروا .

(٣) كذا ، وفي الجمع : الأصم ، وفي الصافي : أصم .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٦٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٦ .

وعنه عليه السلام قال : « دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « استعن بالله في جميع امورك تضرعا ^(٢) إليه آناء الليل والنهار ، قال الله : **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** والاعتداء من صفة قراء زماننا هذا وعلامتهم » ^(٣) .

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ

قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان كونه مدبر امور العالم ومصلحها ، نهى الناس عن الإفساد بقوله : **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾** بقتل ونهب ، وهتك عرض ، وإشاعة الكفر **﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** وتنظيم امورها على أحسن نظام.

وقيل : يعني لا تفسدوا فيها باختيار الكفر ، وارتكاب المعاصي بعد إصلاحها ببعث الرسل وتشريع الأحكام.

عن الباقر عليه السلام : « أن الأرض كانت فاسدة ، فأصلحها الله بنبيه عليه السلام . الخبر ^(٤) .

والقمي عليه السلام : أصلحها برسول الله عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام ، فأفسدوها حين تركوا أمير المؤمنين عليه السلام ^(٥) .

ثم لما كان داعي الإفساد تحصيل المنافع الدنيوية ، وهو يكون في الدعاء ، أكد الترغيب إليه بقوله : **﴿وَادْعُوهُ﴾** وسئلوه كل ما تحتاجون إليه من المنافع **﴿خَوْفًا﴾** من أن ترد دعوتكم بسوء أعمالكم **﴿وَطَمَعًا﴾** ورجاء أن يستجاب لسعة رحمته **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** ومن الأعمال الحسنة : الدعاء بأدائه.

وفيه ترجيح للطمع ، وتغليب جانب الرحمة ، وتنبية على وسيلة الإجابة ، وهو القيام بوظائف العبودية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا

سُقْنَاهُ لِيلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ

الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾

(١) تفسير الرازي ١٤ : ١٣١ .

(٢) في مصباح الشريعة : متضرعا .

(٣) مصباح الشريعة : ٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٦ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٥٠ / ١٥٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٦ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٦ .

ثم لما بشر سبحانه بسعة رحمته ، قرره بما أراهم من إنزال الأمطار النافعة التي منها حياة كل شيء ، وفيها الشهادة على سعة رحمته ، وكمال قدرته ، وتديره لمصالح خلقه بقوله : ﴿وَهُوَ الْقَادِرُ الْمُدَبِّرُ الرَّحِيمُ﴾ **﴿الَّذِي يُرْسِلُ﴾** بقدرته وحسن تديره **﴿الرِّيَّاحِ﴾** الأربعة ، حال كونها **﴿بُشْرًا﴾** وإعلاما للناس بما يسرون به **﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾** وقدام المطر الخيي للأرض **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾** الرياح وحملت بسهولة **﴿سَحَابًا﴾** وغماما سارية في العلو ، حال كونها **﴿ثِقَالًا﴾** بحمل الماء **﴿سُقْنَاهُ﴾** وسيرناه **﴿لِبَلَدٍ﴾** وإلى أرض **﴿مَيِّتٍ﴾** حاف ^(١) لا نبات فيها ، أو لأجل الأرض اليابسة **﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾** أي بسبب السحاب أو بالبلد **﴿الْمَاءِ﴾** والمطر النافع **﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾** من الأرض ما تعيشون به **﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** وجميع أنواعها.

ثم استدل سبحانه بإحياء الأرض بعد موتها وإخراج الثمرات منها ، على إحياء الرمم ، وإخراج الموتى منها للحشر ، وجزاء الأعمال بقوله : **﴿كَذَٰلِكَ﴾** الإحياء والإخراج **﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾** من الأرض إلى الحشر بعد إحيائهم في القبور. وإنما ضربنا لكم المثل **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** أيها الناس **﴿تَذَكَّرُونَ﴾** وتنبهون على أن من قدر على ذلك قدر على هذا بلا ريب.

عن ابن عباس رضى الله عنه : إذا مات الناس كلهم في النفخة الاولى مطرت السماء أربعين يوما قبل النفخة الأخيرة مثل مني الرجال ، فينبئون من قبورهم بذلك المطر ، كما ينبئون في بطون أمهاتهم ، وكما ينبت الزرع من الماء ، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ، ثم تلقى عليهم نومة فينائمون في قبورهم ، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية - وهي نفخة البعث - جاشوا وخرجوا من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤسهم كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه ، فعند ذلك يقولون : **﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾** فيناديهم المنادي : **﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾** ^(٢).

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨)

ثم أنه تعالى بعد بيان رحمته العامة بإنزال المطر وإخراج الثمار من الأرض ، نبه على أن عدم نبت الثمار من الأرض الصلبة أو السبخة ليس لعدم نزول المطر عليها ، أو عدم النفع فيه ، بل إنما هو لخباثة الأرض ، وعدم قابليتها للتأثر به بقوله : **﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾** والأرض الحيرة لرخاوتها ، وقوة استعدادها

(١) كذا ، ولعله من قولهم : حفا شاربه ، فهو حاف ، إذا بالغ في قصه. أو تصحيف (جاف) من الجفاف. وينبغي تأنيث هذه الكلمة نظرا إلى قوله : (أرض) ثم قوله : (لا نبات فيها) .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٨٠ ، والآية من سورة يس : ٣٦ / ٥٢ .

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ من الأشجار والزرّوع والرياحين والأزهار ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وقدرته وإرادته ، ﴿وَوَ﴾ البلد
 ﴿الَّذِي حَبِثَ﴾ بأن كان سبخا أو صلبا لا تأثر بنزول المطر عليه ، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته منه ﴿إِلَّا﴾ نباتا
 ﴿نَكِدًا﴾ قليلا غير نافع.

في أن النفوس صنفان طيبة وخبيثة

قيل : هو مثل الاختلاف في الدّات والطّينة وتشبيههما في الطّيب والخبث بالأراضي الطّيبة والخبيثة ، فإنّ النفوس البشريّة بعضها بذاتها وجوهرها طيّبة نقيّة نورانية ، مستعدّة لقبول الحقّ والتأثّر بالمواعظ والحكم ، والتنوّع بآيات القرآن الذي هو ماء الحياة للقلوب الميّتة ؛ كنفوس المؤمنين على اختلاف مراتبهم ، فإنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن وذكّرت لهم دلائل التّوحيد والمعاد ، ظهر منهم الانقياد والخضوع ، وأشرق قلوبهم بأنوار العقائد الحقّة والمعارف الإلهية ، وخرجت من جوارحهم أزهار الطّاعة والأعمال الحسنة .
 وبعضها خبيثة سجيّة ظلمانيّة ، لا تتأثّر بشيء من المواعظ والحكم ، ولا تنقاد لقبول الحقّ ، بل لا تزيد آيات القرآن ودلائل التّوحيد وغيره من المعارف إلّا بعدا وكفرا وطغيانا ؛ كنفوس الكفّار المصّرّين على الكفر . فالنفس الطّيبة الطاهرة يخرج نباتها من المعارف الحقّة ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الصّالحة بإذن ربّها وتوفيقه وتفضّله ، والنفس الخبيثة لا يخرج منها إلّا نباتا نكدا قليل الفائدة .
 وقيل : إنّ المراد من المثل أنّ الأرض الخبيثة مع قلة نفعها لا يهتمها صاحبها ، بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعا في تحصيل ما يليق بها . فمن طلب النّفع اليسير بالمشقة العظيمة كان طلبه للمنافع العظيمة الاخرويّة بالمشقة أولى .

﴿كَذَلِكَ﴾ التصريف البديع ﴿نُصِرَفُ الْآيَاتِ﴾ الدّالة على المعارف والحكم والأحكام ﴿لِقَوْمٍ﴾
 ﴿يَشْكُرُونَ﴾ أظاف الله ونعمه الجسمانيّة والروحانيّة .
 وإنّما ختم سبحانه الآية السابقة بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكونها متضمّنة لدليل صحّة المعاد ، وختم هذه الآية بقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لكونها متضمّنة لبيان النّعمة الجسمانيّة والروحانيّة .
 وإنّما ختم سبحانه الآية السابقة بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكونها متضمّنة لدليل صحّة المعاد ، وختم هذه الآية بقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لكونها متضمّنة لبيان النّعمة الجسمانيّة والروحانيّة .
 عن القمّي رحمه الله : مثل للأئمّة يخرج علمهم بإذن ربهم ، ولأعدائهم لا يخرج علمهم إلّا كدرا فاسدا^(١) .

وفي (المناقب) : قال عمرو بن العاص للحسين عليه السلام : ما بال لحاكم أوفر من لحانا ؟ فقرأ عليه السلام
 هذه الآية (٢) .
 وروي أنّ معاوية سأل الحسن عليه السلام عن ذلك ، فقرأ عليه السلام هذه الآية .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٨ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٨ .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٥٩) و (٦٢)﴾

في قصة نوح وكيفية دعوته

ثمَّ أنَّه تعالى بعد بيان خبث ذات الكفار ، ذكر سبحانه قصص الامم الماضية وسوء عاقبة المصيرين منهم على الكفر ، تهديدا لمشركي عصر النبي ﷺ ، وتسليية لخاطره الشريف ، وإثباتا لنبوته ؛ لأنَّ ذكرها مع اميته من الإخبار بالمغيبات ، فابتدأ سبحانه بذكر معارضة قوم نوح وهلاكهم بقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ لهدايتهم إلى التوحيد ودين الحق ، فدعاهم أولا إلى التوحيد الذي هو أهمُّ الاصول ﴿فَقَالَ﴾ لقومه رحمة وشفقة : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ، وخصَّوه بالخضوع والطاعة ، فإنَّه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ مستحقٍّ للعبادة والطاعة في عالم الوجود ﴿غَيْرُهُ﴾ تعالى .

ثمَّ هددهم على الاشراك ببيان معلن بغاية شفقتهم عليهم بقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن بقيتم على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام من أن ينزل الله عليكم ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال في ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من أيام الدنيا لعظمة عذابه ، أو عذاب النَّار في يوم القيامة الذي هو أعظم الأيام وأشدَّها ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ والأكابر من طائفته : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ ونعتقدك يا نوح منغمرا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عن الحق ، وانحراف واضح عن الصَّواب حيث خالفت العامة في قولك ، وخرجت عن رتبة تقليد آبائنا الأقدمين في رأيك .

﴿قَالَ﴾ نوح مبالغا في استمالتهم بندائهم وإضافتهم إلى نفسه ، بعد تغليظهم عليه في القول المقتضي للتغليظ عليهم في الجواب : ﴿يَا قَوْمِ﴾ كيف تنسبونني إلى الضلال والحال أنَّه ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أبدا وانحراف عن الصَّواب بوجه ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ﴾ رسل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مبعوث من قبله إليكم لارشادكم إلى الحق وأهديكم إلى التوحيد ، فأنا على حسب وظيفتي ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وأؤدي إليكم ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ من توحيده وأحكامه ومواعظه ﴿وَأُنصَحُ لَكُمْ﴾ واشير إليكم ما فيه خيركم وصلاحكم ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ﴾ عقوبة ﴿اللَّهِ﴾ أو من معارفه وأحكامه بوحيه وتعليمه ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قيل : كانوا لم يسمعوا بقوم حلَّ بهم العذاب من قبلهم ، ولذا كانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوح ﷺ .

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرِفْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٣) و (٦٤) ﴿

ثم لما كان القوم تعجبوا من أدعائه الرسالة وبالغوا في تكذيبه ، أنكر عليهم بقوله : ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ -
قيل : إنَّ التقدير : أكذبتم وعجبتم (١) - من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ ونزل عليكم ﴿ذِكْرٌ﴾ وموعظة ، أو وحي ،
أو كتاب ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللطيف بكم ﴿عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ وبشر مثلكم ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾
من بأس الله ، ويخوفكم من عقوبته ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ مخالفة الله ، وتحترزوا سخطه بإنذاره ، ولأجل أنه ﴿وَلَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى ، وتفوزون بأكمل السعادة وأفضل النعم بطاعته.
وفي ذكر (لعل) إشعار بعدم عليّة التقوى لشمول الرحمة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد الإبلاغ والإنذار والإعذار ، وأصروا على معارضة حتى حقّ عليهم العذاب ،
فصنع نوح الفلك وفار التتور ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ﴾ من أهله وغيرهم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ قيل : هم
أربعون (٢) ﴿وَأَعْرِفْنَا﴾ بالطوفان الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأستمروا على التكذيب.
ثم نبّه سبحانه على علة إهلاكهم بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ في البصيرة ، مكفوفين عن
رؤية المعجزات ، قاصرين عن فهم المواعظ ، لم يكونوا يرجي منهم الهداية والإيمان.

﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٥) و (٦٨) ﴿

في قصة هود

ثم أردف سبحانه قصة قوم نوح بقصة هود وتكذيب قومه ، وابتلائهم بالعذاب بقوله : ﴿وَالِىٰ﴾
قوم ﴿عَادٍ﴾ بن إرم بن سام بن نوح ، أو ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، وهم قوم كانوا باليمن بالأحقاف
؛ وهو الرمل الذي كان بين عمان وحضرموت - كذا قيل (٣) - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب كان اسمه
﴿هُودًا﴾ قيل : هو ابن عبد الله بن رباح (٤) بن خلود بن عاد (٥) .

(١) تفسير الرازي ١٤ : ١٥٢ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٣٤٤ ، وفيه : كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ١٥٥ .

(٤) في روح البيان : رباح .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٣٤٤ ، تفسير روح البيان ٣ : ١٨٥ .

عن السجاد عليه السلام أنه قيل له : إِنَّ جَدَّكَ قَالَ : « إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيتهم » ، فقال : « وملك ، أما تقرأ القرآن ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ^(١) ، ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ^(٢) فهو مثلهم ، كانوا إخوانهم في عشيرتهم ، وليسوا إخوانهم في دينهم » ^(٣) .

عن الباقر عليه السلام - في حديث - « وبشّر نوح ساما بهود وقال : إِنَّ الله باعث نبيًا يقال له هود ، وأنه يدعو قومه إلى الله فيكذبونه » . الخبر ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « لما حضرت نوحا الوفاة دعا الشيعة فقال لهم : [اعلّموا] أنه سيكون من بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيب ، وإنّ الله عزّ وجلّ سيفرّج عنكم بالقائم من ولدي ، اسمه هود ، له سمت وسكنة ووقار ، يشبهني في خلقي وخلقي » ^(٥) .

عن الباقر عليه السلام : « أنّ الأنبياء بعثوا خاصّة وعامة ، وأمّا هود فإنّه ارسل إلى [عاد] بنبوة خاصّة » ^(٦) .

في كيفية دعوة هود ومحتاجته

﴿قَالَ﴾ هود لقومه : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ولما كان قومه مطّلعين على واقعة الطوفان وهلاك قوم نوح ، هدّدهم على الشرك بقوله : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بأس الله وعذابه ، أشار به إلى التخويف بمثل واقعة قوم نوح المشهورة عندهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله ورسالة هود ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ في جوابه مغلّطين له في القول : يا هود ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ متمكّنا وراسخا ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ وخفّة العقل ، حيث فارقت الجماعة ، وخالفت العامة ﴿وإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ ألبّنة ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعوى توحيد المعبود ، ورسالتك.

﴿قَالَ﴾ هود لهم بلين وعطوفة ، بعد ما سمع منهم الكلام الشنيع : ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ أبدا ﴿وَلَكِنِّي﴾ لكمال عقلي وغاية رشدي ﴿رَسُولٌ مِنْ﴾ رسل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنّه لا يكون الرسول إلّا من كمل عقله وتمّ رشده وصلاحه ، وما أقول لكم شيئا من قبل نفسي ، بل ﴿أَبْلُغُكُمْ﴾ وأؤدّي إليكم ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ على حسب وظيفتي ﴿وَأَنَا﴾ مع ذلك ﴿لَكُمْ﴾ فيما أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له ﴿نَاصِحٌ﴾ ومشير إلى محض خيركم ﴿أَمِينٌ﴾ وثقة عند الله في تأدية رسالته ، وعندكم في التصحّ ، لا أغش ولا أخون أبدا.

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ

(١) الأعراف : ٧ / ٨٥ .

(٢) هود : ١١ / ٦١ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٥٠ / ١٥٩٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٩ .

(٤) الكافي ٨ : ١١٥ / ٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٩ .

(٥) كمال الدين : ١٣٥ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٩ .

(٦) كمال الدين : ٢١٩ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٠٩ .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

ثم لما كانوا متعجبين من ادعاء الرسالة ، أنكر عليهم تعجبهم بقوله : ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ واستبعدتم ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ ووعظ ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ﴿عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويحذركم من عقوبة الله على الشرك به والطغيان عليه.

ثم أنه ﷺ بعد التهديد والتوعيد بالعذاب على الكفر ، شرع في ترغيبهم إلى الإيمان بالله وطاعته بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ وسكان في الأرضين متمتعين بما فيها ﴿مِنْ﴾ بَعْدَ إهلاك ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بالطوفان عقوبة على شركهم وطغيانهم وتكذيبهم نوحا ﷺ .
وقيل : إنَّ المعنى : أنَّ الله سلَّطكم في محالهم بأن جعلكم ملوكا فيها.

قيل : إنَّ شَدَّاد بن عاد ملك معمورة الأرض ^(١) .

ثم بالغ في ترغيبهم بقوله : ﴿وَرَادُّكُمْ﴾ على سائر الناس ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ والجنَّة ﴿بَصُطَةً﴾ وعظمة من حيث القامة والقوَّة.

قيل : لم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجرام ؛ كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع ، وقامة الصغير ستون ذراعا ^(٢) .

عن الباقر ﷺ : « كانوا كالنخل الطَّوَال ، وكان الرَّجُل منهم ينحو ^(٣) الجبل بيده فيهدم منه قطعة » ^(٤) .

ألا ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ونعمه الجسام عليكم ، كي يبعثكم ذكر نعمه إلى القيام بشكره ، وبذل الجهد في طاعته ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بالمقصد الأعلى ؛ وهو النجاة من العذاب ، والدخول في الجنة والنعم الدائمة.

في (الكافي) : عن الصادق ﷺ : « أتدري ما آلاء الله ؟ » قيل : لا ، قال : « هي أعظم نعم الله على خلقه ؛ وهي ولايتنا » ^(٥) .

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَصَبٌ أَنْتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَضَرُوا إِنِّي مَعَكُمْ

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٨٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ١٥٧ ، تفسير روح البيان ٣ : ١٨٦ .

(٣) في تفسير الصافي : ينحر ، يقال : نحأ إليه ، أي مال إليه ، وأنحى عليه : أقبل عليه ، ويقال : نحى الشيء : قابله .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٦٧٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٠ .

(٥) الكافي ١ : ١٦٩ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١١ .

مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧٠) وَ (٧١)

ثمَّ أَهَمَّ بعدما سمعوا تلك المواعظ البليغة والنصائح الجلييلة ، بالغوا في معارضة وتكذيبه و﴿قَالُوا﴾
 مجيبين عنه إنكارا عليه واستبعادا لقوله بالتوحيد ، حبًا لما ألفوه ، وتمسكا بتقليد الآباء : ﴿أَجْتَنَّا﴾ يا هود
 من مكان اعتزالك ، أو من السماء ؟ ، قالوه استهزاء له ، أو المراد : حضرت في مقابلنا ، أو في محافلنا
 وقلت ما قلت ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ ونخصه بالخضوع والضراعة ﴿وَنَذَرَ﴾ ونترك عبادة ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ﴾
 آبائنا الأقدمون ، من الكواكب أو الأصنام ، ونعرض عن سيرتهم ، ونخرج عن ريقه تقليدهم ، لا يكون
 ذلك أبدا ، فإذا علمت أننا نكون ثابتين على ما نحن عليه من الشرك ، غير معتنين بما تدعونا إليه ﴿فَأَتَيْنَا﴾
 بما تعدُّنا وتهدِّدنا به من العذاب الذي أمرتنا بالاتِّقاء منه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى رسالتك
 ووعيدك ، وكانوا مستهزئين به في سؤالهم نزول العذاب ، مظهرين عدم احتمالهم صدقه.

فلما رآهم مصرِّين على كفرهم ، مجدِّين في تكذيبه ، يئس من إيمانهم و﴿قَالَ﴾ تأسفا عليهم : يا
 قوم ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ ووجب ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ مع سعة رحمته ﴿رَجْسٌ﴾ وعذاب ، أو الرِّين في
 القلوب ﴿وَعُصْبٌ﴾ شديد لأجل كفركم وإصراركم عليه وعلى معارضة رسوله.

ثمَّ بالغ في توبيخهم على عبادة الجمادات وتسميتها آلهة ، ومجادلتهم في ذلك بقوله : ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ وتعارضوني ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَسْمَاءٍ﴾ وألفاظ ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ ووضعتموها للجمادات ﴿أَنْتُمْ﴾
 وآبائكم من قبل أنفسكم ومقتضى شهواتكم ، مع أنَّه لا معنى لها في الحقيقة ولا مسميات ، لعدم إمكان
 تعقُّل تحقق الألوهية في الممكن ولو كان أعلى وأشرف بمراتب من الجمادات فضلا عنها ، مع أنكم لم
 تكفوا بالتسمية ، بل التزمت بعبادتها ، والحال أنَّه ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ وبجوار عبادتها ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ بين ،
 وحجة واضحة ، وبرهان قاطع ، ومن الواضح أنَّه لا ينبغي للعاقل أن يلتزم بدين ليس عليه بيِّنة ساطعة
 وحجة قاطعة ، فإن كنتم مصرِّين على ما أنتم عليه من اللِّجاج وعبادة الجماد ، ومستهزئين بما أدعوكم إليه
 من التوحيد ، وسائلين متى إنزال العذاب ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾ نزوله عليكم و﴿إِنِّي﴾ أيضا ﴿مَعَكُمْ مِنْ﴾
 الْمُنتَظِرِينَ له حتَّى ترون وأرى هلاككم واستئصالكم.

﴿فَأَنْجِيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ (٧٢)

ثم أخبر سبحانه بنزول عذاب الاستئصال عليهم ، وإكرام هود ومن آمن به تسلياً للنبي ﷺ وتهديداً لمعارضيه من مشركي مكة بقوله : ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وآمنوا به من عذاب الخزي ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِنَّا﴾ عليهم ، وإكرامنا إياهم بسبب إيمانهم وطاعتهم ﴿وَقَطَعْنَا﴾ بالعذاب ﴿دَابِرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ﴾ كفروا و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من دلائل التوحيد ومعجزات هود ، واستأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بشيء من الحق ، ولم يرج لهم ^(١) الإيمان أبداً.

وكان هلاكهم بالريح العقيم تخرج من تحت الأرضين السبع ، وما خرجت منها ريح قط إلا على قوم عاد حين غضب الله عليهم ، فأمر الخزان عليهم أن يخرجوا منها مثل سعة الخاتم فعتت على الخزان ، فخرج على مقدار منخر الثور تعيظاً منها على قوم عاد ، فضجّ الخزنة إلى الله تعالى من ذلك فقالوا : ربنا إننا عتت عن أمرنا ونحن نخاف أن يهلك من لم يعصك من خلقك وعمّار بلادك ، فبعث الله إليها جبرئيل فردّها بجناحه فقال لها : اخرجي على ما امرت به ، وأهلكت قوم عاد ومن كان بحضرتهم.

وعن (المجمع) : عنه عليه السلام ^(٢) : « أن الله تعالى بيت ريح مقفل [عليه] لو فتحت لأذرت ^(٣) ما بين السماء والأرض ، فما أرسل إلى عاد إلا قدر خاتم » قال : « وكان هود وصالح وشعيب وإسماعيل ونبينا صلى الله عليهم أجمعين يتكلمون بالعربية » ^(٤) .

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣)﴾

ثم ذكر سبحانه قصة دعوة صالح ومعارضة قومه وهلاكهم بالعذاب بقوله : ﴿وَالِى﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عاد بن إرم بن سام - وقيل : سموا به لقلة ما منهم - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في التسبب ﴿صَالِحًا﴾ .
عن الباقر عليه السلام : « أنه أرسل إلى ثمود ، وهي قرية واحدة لا تكمل أربعين بيتاً على ساحل البحر صغيرة » ^(٦) .

وقيل : كانت مساكنهم بين الحجاز والشّام إلى وادي القرى ، فبعث الله إليهم صالحاً ، وكان من

(١) في النسخة : بهم.

(٢) في مجمع البيان : عن أبي جعفر عليه السلام .

(٣) أذرت الريح التراب : أطارته وفرّقه.

(٤) مجمع البيان ٤ : ٦٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ١٦١ .

(٦) اكمال الدين : ٢٢٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٢ .

أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً ، فدعاهم إلى عبادة الله ، و﴿قَالَ﴾ لهم بلطف وعطوفة : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

في كيفية دعوة صالح ومحاботته ومعارضته قومه

قيل : لما دعاهم إلى التوحيد طالبوه بالمعجزة فقال : ما تريدون ؟ فقالوا : تخرج معنا في عيدنا ، ونخرج أصنامنا ، وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا ، فإذا ظهر دعاؤك اتبعناك ، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعنا ، فخرج معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقه كبيرة من صخرة معينة ، فأخذ مواليقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا به فقبلوا ، فصلى ركعتين ودعا الله ؛ فتمتخت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل ، ثم انفجرت وحركت الناقة من وسطها ، وكانت في غاية الكبر ^(١) .

فبعد ظهور هذه المعجزة قال صالح : يا قوم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة ، وحجة واضحة على صدقي في دعوى الرسالة والتوحيد ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ فلا عذر لكم في ترك الإيمان بعدها ، فإنكم سألتهم أن يخرج من الصخرة ناقه لتكون آية على صدقي ، فانظروا ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ظاهرة ، ومعجزة باهرة ﴿فَذَرُوهَا﴾ ودعوها ﴿تَأْكُلْ﴾ وترتع من الكأ والعشب ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ وأكرموها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تقربوها بإيذاء ومكروه فضلاً عن القتل والجرح ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ ويصيبكم إذن ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ (٧٤) و (٧٦)﴾

ثم أنه بعد تهديدهم على العصيان رغبهم في الطاعة والانقياد بتذكيرهم نعم الله الموجبة لشكره بقوله : ﴿وَادْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ﴾ إهلاكه قوم ﴿عَادٍ﴾ بشركهم وطغيانهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ وأسكنكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي كانوا يسكنونها ، وهي أرض حجر بين الحجاز والشام ، وأنتم ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ وتبنون ﴿مِنْ سُهُولِهَا﴾ والمستطحات اللينات منها لأنفسكم ﴿قُصُورًا﴾ وأبنية رفيعة ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ وتنحرون من ﴿الْجِبَالَ﴾ والصخور ﴿بُيُوتًا﴾ ومسكن.

نقل أنه لما أهلك الله تعالى عاد ، أقام ثمود مقامهم وعمروا بلادهم وأخلفوهم في أرضهم في

(١) تفسير الرازي ١٤ : ١٦٢ .

خصب وسعة ، وطالت أعمارهم وكثرت نعمهم ، وبنوا قصورا في الأرض السهلة لصيفهم ، ونحتوا في الجبال بيوتا لشتائهم.

وقيل : إنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون إلى أن ينحتوا من الجبال بيوتا ؛ لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض.

ثم بالغ صالح في ترغييهم بقوله : ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ ونعمه العظام عليكم ، واجتهدوا في أداء شكرها بالتوحيد والقيام بالطاعة ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ ولا تسعوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ فيها.

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا عن الإيمان به واتباعه ، وهم ﴿مِنْ قَوْمِهِ

لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ﴾ واستحققوا لفقرهم ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ به ﴿مِنْهُمْ﴾ واتبعوه ، إنكارا واستهزاء بهم : ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ﴾ ولما كانت رسالته لشهادة معجزاته واضحة ، عدل المؤمنون عن جواب

سؤالهم ، وأخبروا بإيمانهم بما جاء به و﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ صالح ﴿بِهِ﴾ من التوحيد والأحكام

﴿مُؤْمِنُونَ﴾ مصدقون ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عنادا أو لججا : ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ من رسالة صالح

وصدق دعواه من التوحيد ووعد العذاب ﴿كَافِرُونَ﴾ وجاحدون.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ

الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ

وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِيزُونَ

النَّاصِحِينَ (٧٧) و (٧٩)﴾

في كيفية عقر ناقة صالح

ثم أنه روي أنه زينت عقر الناقة امرأتان لما أضرت بمواشيها ، وكانتا كثيرتي المواشي ، وكانت إحداها جميلة الخلق ، فطلبت ابن عم لها يقال له مصدع ابن دهر ، وجعلت له نفسها إن عقر الناقة ، فأجابها إلى ذلك ، ثم طلبت قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا ، يزعمون أنه ولد زنا ، ولكنه ولد في فراش سالف ، فقالت : يا قدار ، أزوجهك أي بناقي شئت على أن تعقر الناقة ، وكان متبعا في قومه ، فأجابها أيضا ، فانطلق قدار ومصدع فاستعانا بطغاة ثمود ، فأتاهم تسعة رهط فاجتمعوا على عقر الناقة ، فأوحى الله تعالى إلى صالح : أن قومك سيعقرون الناقة ، فقال لهم صالح ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل (١) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٢ .

وقيل : إنّ صالح قال لقومه : يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم بيده ، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم ، ثم ولد العاشر فأبى أبوه أن يذبحه ، فنبت نباتا سريعا ، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيرون من الشراب ، فأرادوا ماء يمزجونه به ؛ وكان يوم شرب الناقة ، فما وجدوا الماء واشتد ذلك عليهم ، فقال الغلام : هل لكم في أن أعقر الناقة ؟ فشدد عليها ، فلما بصرت به شدت عليه فهرب منها إلى خلف ، فأحاشوها عليه ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فسقطت ^(١) .

﴿وَعَتُوا﴾ وتحافوا ﴿عَن﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بترك مسّ الناقة بسوء. قيل : إن مصدعا وقدارا وأصحابهما التسعة رصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، فكمن لها مصدع في أصل صخرة ، فمرت الناقة عليه فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، ثم خرج قدار فعقرها بالسيف فخرت ترغو ^(٢) ، ثم طعنها في لبتها ^(٣) ونحرها ، وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها ^(٤) .

﴿وَقَالُوا﴾ استهزاء : ﴿يَا صَالِحُ انْبِثَا بِمَا﴾ كنت ﴿تَعِدُنَا﴾ من العذاب على مسّ الناقة بسوء ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإنّ الرسول لا بدّ من أن يكون صادق القول والوعد.

روي أنّهم لما عقروا الناقة هرب ولدها إلى جبل فرغا ثلاثا ، وكان صالح قال لهم بعد بلوغه خبر قتل الناقة : ادركوا الفصيل عيسى أن يدفع عنكم العذاب ، فلم يقدرُوا عليه ، فانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال صالح : لكلّ رغبة أجل يوم ، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام. وقد عقروا الناقة يوم الأبعاء ، فقال لهم صالح : ابشروا بعذاب الله ونقمته ، فقالوا : ما علامته ؟ فقال : تصبحون غداة يوم الخميس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم حمرة ، ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة ، ثم يصبّحكم العذاب أول يوم الأحد.

فكان الأمر كما وصف ، حيث أصبحوا يوم الخميس كأنّ وجوههم طليت بالزعفران ؛ صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وانثاهم ، فأيقنوا بالعذاب ، فطلبوا صالحا ليقتلوه ، فهرب منهم واختفى في موضع فلم يجده ، فجعلوا يعدّون أصحابه ليدلّوهم عليه ، فلما أصبحوا يوم الجمعة أصبحت وجوههم حمرة كأنّما خضبّت بالدماء ، فصاحوا بأجمعهم وضجّوا وبكوا وعرفوا أنّ العذاب قد دنا إليهم ، وجعل كلّ واحد يخبر الآخر بما يرى في وجهه ، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة كأنّما طليت بالقار والتيل ^(٥) ، فصاحوا جميعا : ألا قد حضر العذاب ، فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح ومن آمن معه

(١) تفسير الرازي ١٤ : ١٦٢ .

(٢) رغت الناقة : إذا صوّتت وضجّت .

(٣) اللّبة : موضع النحر من عنق الناقة .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٣ .

(٥) القار : الرّفت ، والتيل : مادة زرقاء للصبّاغ تستخرج من ورق نبات بنفس الاسم .

من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين.

فلما كان يوم الأحد وهو اليوم الرابع وارتفع النهار ، تحنطوا بالصبر ^(١) لئلا يتعرض لهم السباع لمرارته ، وتكفّنوا بالأنطاع ^(٢) ، وألقوا نفوسهم على الأرض يقلّبون أبصارهم إلى السماء مرّة وإلى الأرض أخرى ، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب ، فأنتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت ^(٣) .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بعد تلك ، ومن أثرها ﴿الرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة من الأرض ، فانقطعت قلوبهم في صدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ كبيرهم وصغيرهم ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ وبلدهم ﴿جَائِمِينَ﴾ موتى غير متحركين.

في ذكر قصة ثمود وهلاكهم

عن الصادق عليه السلام ، في قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ^(٤) : « هذا فيما كذبوا صالحا ، وما أهلك الله تعالى قوما قطّ حتّى يبعث إليهم قبل ذلك الرّسل فيحتجوا عليهم ، فبعث الله إليهم صالحا ، فدعاهم إلى الله فلم يجيبوا وعتوا عليه وقالوا : لن نؤمن لك حتّى تخرج لنا من هذه الصّخرة ناقة عشراء ^(٥) ، وكانت الصّخرة يعظّمونها ويعبدونها ، ويذبحون عندها في رأس كلّ سنة ، ويجتمعون عندها ، فقالوا له : إن كنت كما تزعم نبيا رسولا ، فادع إلهك حتّى يخرج لنا من هذه الصّخرة الصّماء ناقة عشراء ، فأخرجها الله كما طلبوا منه ، ثمّ أوحى الله إليه : أن يا صالح ، قل لهم : إنّ الله قد جعل لهذه النّاقة من الماء شرب يوم ولكم شرب يوم ، وكانت النّاقة إذا كان يوم شربها شربت ذلك اليوم الماء ، فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلّا شرب من لبنها يومهم ذلك ، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب النّاقة ذلك اليوم ، فمكثوا بذلك ما شاء الله .

ثمّ أمّهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض فقالوا : اعقروا هذه النّاقة واستريحوا منها ، لا نرضى أن يكون لها شرب يوم ولنا شرب [يوم] ، ثمّ قالوا : من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلا ^(٦) ما أحبّ ، فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا ، لا يعرف له أب يقال له قذار ، شقيّ من الأشقياء مشؤوم عليهم ، فجعلوا له جعلا ، فلما توجّهت النّاقة إلى الماء الذي كانت ترده ، تركها حتّى شربت ذلك الماء وأقبلت راجعة ، فقعد لها في طريقها فضربها بالسّيف ضربة فلم تعمل شيئا ، فضربها ضربة أخرى فقتلها وحرّت إلى الأرض على جنبها ، وهرب فصيلها حتّى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرّات إلى

(١) الصّبر : عصارة شجر مرّ ، واحدته : صبرة.

(٢) الأنطاع ، جمع نطع ، وهو بساط من جلد.

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٤ .

(٤) القمر : ٥٤ / ٢٣ .

(٥) العشراء : النّاقة التي مضى على حملها عشرة أشهر.

(٦) الجعل : ما يجعل على العمل من أجر ورشوة ، وكذا الجعالة والجعل.

السَّماء ، وأقبل قوم صالح فلم يبق أحد منهم إلا شركه في ضربته ، واقتسموا لحمها فيما بينهم ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها.

فلَمَّا رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال : يا قوم ، ما دعاكم إلى ما صنعتم ، أعصيتُم ربَّكم ؟ ! فأوحى الله إلى صالح : إنَّ قومك قد طغوا وبغوا ، وقتلوا ناقة بعثتها إليهم حجة عليهم ، ولم يكن عليهم منها ضرر ، وكان لهم فيها أعظم المنفعة ، فقل لهم : إنِّي مرسل إليكم عذابي إلى ثلاثة أيام ، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم ، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث ، فاتاهم صالح فقال لهم : يا قوم ، إنِّي رسول الله ربكم إليكم ، وهو يقول لكم : إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتُم غفرت لكم وتبت عليكم ، فلَمَّا قال لهم ذلك كانوا أعتى ما كانوا وأخبت ، وقالوا : يا صالح ، إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، قال : يا قوم ، إنكم تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة ، [واليوم الثاني وجوهكم حمرة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودة .

فلَمَّا أن كان أوَّل يوم أصبحوا ووجوههم مصفرة] ، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيما ، فلَمَّا كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم حمرة ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح ، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ، ولم يتوبوا ولم يرجعوا ، فلَمَّا كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة ، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : يا قوم ، قد أتاكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لا نقبل ^(١) ما قال لنا صالح ، فلَمَّا كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم ، وفلقت قلوبهم ، وصدعت أكبادهم ، وقد كانوا في تلك الثلاثة أيام قد تحنطوا وتكفَّنوا وعلموا أنَّ العذاب نازل بهم ، فماتوا أجمعون في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم » . إلى أن قال : « ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين » ^(٢) .

﴿فَتَوَلَّى﴾ صالح وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ بعد هلاكهم ﴿وَقَالَ﴾ تحسَّرا وتحزنا عليهم : ﴿يَا قَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ ودعوتكم إلى الحق ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بالرَّغيب والرَّهيب ، وبذلت جهدي في هدايتكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ﴿وَلَكِنْ﴾ لمرارة الحق وثقل النَّصح عليكم ، كنتم ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وتستهنئون بي وبالمؤمنين .

عن جابر بن عبد الله أنَّه قال : لما مرَّ النَّبيُّ ﷺ بالحجر في غزوة تبوك - يعني : مواضع ثمود -

قال

(١) في الكافي : قد أتانا .

(٢) الكافي ٨ : ١٨٧ / ٢١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٥ .

لأصحابه : « لا يدخلن أحد منكم هذه القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعدّين ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . ثم قال : « لا تسألوا رسولكم الآيات ، فإن هؤلاء قوم صالح ، سألوا رسولهم الآية ، فبعث الله إليهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها » وأراهم مرتقى الفصيل [حيث ارتقى] ، ثم أسرع رسول الله ﷺ السير حتى جاوز الوادي ^(١) .

في ذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام

روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام : « يا علي ، أتدري من أشقى الأولين ؟ » قال : « الله ورسوله أعلم » ، قال : « عاقر ناقة صالح » ، ثم قال : « أتدري من أشقى الآخرين ؟ » قال : « الله ورسوله أعلم » . قال : « قاتلك » ^(٢) .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٠) و (٨٤)﴾

ثم ذكر سبحانه قصة قوم لوط وهلاكهم بقوله : ﴿وَلُوطًا﴾ أرسلنا إلى قومه . قيل : كان ابن هاران أخي إبراهيم ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن أم إبراهيم وأم لوط كانتا اختين ، وهما ابنتا لاجح ، وكان اللاحج نبيا منذرا ولم يكن رسولا » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « كان لوط ابن خالة إبراهيم ، وكانت سارة امرأة إبراهيم اخت لوط ، وكان لوط وإبراهيم نبيين منذرين » ^(٥) .

في كيفية دعوة لوط

وعن الصادق عليه السلام : « أن إبراهيم خرج من بلاد غمرود ومعه لوط لا يفارقه وسارة ، إلى أن نزل بأعلى الشامات ، وخلف لوطا بأدنى الشامات » ^(٦) .

وقيل : إن لوطا هاجر مع إبراهيم إلى الشام ، ونزل الاردن - وهو كورة بالشام - فأرسله

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ١٦٣ ، تفسير روح البيان ٣ : ١٩٥ ، تفسير الكشاف ٢ : ١٢١ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٥ .

(٤) الكافي ٨ : ٣٧٠ / ٥٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٧ .

(٥) علل الشرائع : ٥٤٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٧ .

(٦) الكافي ٨ : ٣٧١ و ٣٧٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٧ .

الله إلى أهل سدوم وهو بلد بجمص ^(١) .

وقيل : ارسل إلى خمسة بلاد أعظمها سدوم ، وكان في كل بلد أربعة ألف ألف نفس ، وكان لوط يأمرهم بالخيرات وينهاهم عن الفواحش ^(٢) .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ توبيخا لهم وإنكارا لعملهم القبيح عليهم : ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون الفعلية ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ واللواط البالغة في القبح الغاية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ وما بادر قبلكم إليها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من بني آدم ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ والقرون الأولين.

ثم صرح بمراده من الفاحشة بقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وتنكحون ﴿الرِّجَالَ﴾ والذكران ﴿شَهْوَةً﴾ وطلبا للذة النفس ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ومتجاوزين عن الزوجات اللاتي خلقن لقضاء الشهوة بهن ، وإباح التمتع منهن. ثم أضرب عن التوبيخ وذمهم ببحث الذات وخفة العقل بقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ومتجاوزون عن حدود العقل والشرع ، أو متجاوزون في الفساد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس ، فإنه أمكن من نفسه » ^(٣) .
و [في] (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام ، في قوم لوط : « أن إبليس أتاهم في صورة حسنة فيها تأنيث ، وعليه ثياب حسنة ، فجاء إلى شبان منهم ، فأمرهم أن يقعدوا به ، ولو طلب إليهم أن يقعد بهم لأبوا عليه ؛ ولكن طلب إليهم أن يقعدوا به ، فلمّا وقعوا به التذوّ ، ثم ذهب [عنهم] وتركهم ، فأحال بعضهم على بعض » ^(٤) .

في قصة قوم لوط

في (الجمع) : عن الباقر عليه السلام : أن لوطا لبث في قومه ثلاثين سنة ، وكان نازلا فيهم ولم يكن منهم ، يدعوهم إلى الله ، وينهاهم عن الفواحش ، ويحثهم على الطاعة ، فلم يجيبوه ولم يطيعوه ، وكانوا لا يتطهّرون من الجناية ، بخلاء أشقاء على الطعام ^(٥) ، فأعقبتهم البخل الداء الذي لا دواء له في فروجهم ، وذلك أنهم كانوا على طريق السيّارة إلى الشام ومصر ، وكان ينزل بهم الضيفان ، فدعاهم البخل إلى أن كانوا إذا نزل بهم الضيف فضحوه ، وإمّا فعلوا ذلك لتكنل ^(٦) النازلة عليهم من غير شهوة بهم إلى ذلك ، فأوردتهم البخل هذا الداء حتّى صاروا يطلبونه من الرجال ويعطون عليه الجعل ، وكان لوط سخيّا كريما ، يقري الضيف إذا نزل به ، فنهوه عن ذلك ، فقالوا : (لا تقري ضيفا ينزل بك) ، فإنّك إن فعلت فضحنا ضيفك ، فكان لوط إذا نزل به الضيف كتم

(١) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٥ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٢١٧ .

(٤) الكافي ٥ : ٥٤٤ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢١٧ .

(٥) في النسخة : على الضيافة .

(٦) أي تدفع عنهم .

أمره مخافة أن يفضحه قومه ، وذلك أنه لم يكن للوط عشيرة فيهم ^(١) .

وعن (العلل) و (العياشي) : مثله ^(٢) .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ لوط وأتباعه التّاهين عن الفاحشة من ﴿قَوْمِهِ﴾ بعد إبلاغهم النّصح شيئا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ فيما بينهم تخلّصا من مواعظ لوط وأتباعه : يا قوم ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ جميعا ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ وبلدكم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ﴾ وجماعة ﴿يَسْتَطْهَرُونَ﴾ من الرّذائل ، ويتنزهون من الخبائث والفواحش ، قيل : كانوا مستهزئين بهم ^(٣) بهذا القول ، فاستحقّوا العذاب بطغيانهم وكفرهم واستخفافهم بلوط ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأتباعه المؤمنين به ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وزوجته الكافرة إنّما ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والباقيين في القرية غير المدركين للنّجاة. قيل : كانت تبطن الكفر وتغري الكفار على إنكار لوط ^(٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من السّماء ﴿مَطَرًا﴾ معجبا ؛ لأنّه كان من الحجارة ﴿فَانْظُرْ﴾ وتأمل أيّها العاقل ، النّاظر في العواقب ، والمتأمل في الأمور ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بالكفر وتكذيب الرّسل حتّى تعتبر بحالهم ، وتحترز من أعمالهم.

في هلاك قوم لوط

قيل : لما كثرت فيهم اللّوطة زمانا عجّت الأرض إلى ربّها ، فسمعت السّماء فعجّت إلى ربّها ، فسمع العرش فعجّ إلى ربّه ، فأمر الله السّماء أن تحصبهم ، والأرض أن تحسف بهم ، فأمطروا أولا بالحجارة ، ثمّ حسفت بهم الأرض. وقيل : حسف بالمقيمين وامطرت الحجارة على مسافريهم. روي أنّ تاجرا منهم كان في الحرم ، فوقف له الحجر أربعين يوما حتّى قضى تجارته ، وخرج من الحرم فوقع عليه ^(٥) .

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)﴾

في قصة شعيب وقومه

ثمّ ذكر سبحانه قصّة دعوة شعيب ومعارضة قومه له وهلاكهم بقوله : ﴿وَالِى﴾ قبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾ بن إبراهيم أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في التّسب ، وكان اسمه ﴿شُعَيْبًا﴾ قيل : هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين ، وإنّ مدين تزوّج ريثا بنت لوط فولدت له وكثر نسله ،

(١) جمع البيان ٤ : ٦٨٥ ، تفسير الصّافي ٢ : ٢١٨ .

(٢) علل الشرائع : ٥٤٨ / ٤ ، تفسير العياشي ٢ : ٤٣٢ / ٢٣٣٩ ، تفسير الصّافي ٢ : ٢١٨ .

(٣) في النسخة : هم .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ١٩٧ ، تفسير أبي السعود ٣ : ٢٤٦ .

فصاروا قبيلة سموا باسم أبيهم ، وإنّ شعيبا بكى من خشية الله حتّى ذهب عيناه ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه ، وكانوا أهل بخس للمكيال والميزان ^(١) ، فدعاهم شعيب أولا إلى التّوحيد و﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فإنّه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ وخالق مستحقّ للعبادة ﴿غَيْرُهُ﴾ ثم استدلّ على صحّة نبوّته وصدق دعوته بمعجزته التي لا بدّ لكلّ نبيّ من إثباتها إثباتا لنبوّته بقوله : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ وظهرت لكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ ومعجزة باهرة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ تصديقا لنبوّتيّ.

أقول : لم نعر على تفصيل معجزاته.

وقيل : إنّ كان إذا أراد الصّعود على الجبل العظيم انخطّ الجبل ليصعد عليه بسهولة ، وكان يخبر

بالمعّيّات.

ثمّ لما كان القبيح الشائع في زمانه في قومه البخس في المكيال والميزان ، بدأ بعد الدّعوة إلى التّوحيد بالتهني عن البخس بقوله : ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ إذا أدبتم حقوق النّاس به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ إذا وزنتموها ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وحقوقهم مطلقا [سواء أ كانت في المكيلات والموزونات ، أو في غيرهما ﴿وَلَا تَفْسِدُوا﴾ بالشّرك وتضييع الحقوق ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تشيعوا الظّلم فيها ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ من جانب الله ببعث الرّسل ، وتشريع الأحكام ، وإيجاب العدل ﴿ذَلِكَ﴾ الإيفاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع في الدّنيا لإيجابه رغبة النّاس في معاملتكم وكثرة أرباحكم ، وفي الآخرة بغاية إكرامكم وإحزال ثوابكم على التّوحيد والعدل في الحقوق ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بي وبار الجزاء.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا

عُوجًا وَادْغُرًا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

ثمّ أنّه قيل : إنّ القوم كانوا إذا رأوا أحدا يريد شعيبا يقولون له : لا يفتنّك شعيب عن دينك فإنّه كذّاب ، وكانوا يتوعّدون من آمن به ، وقيل : إنّهم يقطعون الطّريق ، فنهاهم عن ذلك بقوله : ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وفي كلّ طريق ، حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتهدّدون النّاس على الإيمان بي ، أو تخوّفونهم على أنفسهم وأموالهم وقيل : إنّ المراد : ولا تقتدوا بالشّيطان في قوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ^(٢) .

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتمنعون عن السّلولك في طريق عبوديته بتحصيل معارفه والمداومة

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٠٠ .

(٢) الأعراف : ٧ / ١٦ .

على العمل بأحكامه ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ وصدق بربوبيته وتوحيده ﴿وَتَبِعُونَهَا﴾ وتطلبون لها ﴿عَوَجًا﴾ وميلاً وانحرافاً عن الاستقامة التي تكون للحق بإلقاء الشبهات والحيل والتسويات.

في كيفية دعوة شعيب ومحاботته

ثم رغبهم في الإيمان والطاعة بقوله : ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ في بدو الأمر ﴿قَلِيلًا﴾ من حيث النسل والمال ﴿فَكَثُرْتُمْ﴾ فيهما بفضلته ورحمته.
ثم وعظهم وهددهم على الكفر والمخالفة بقوله : ﴿وَانْظُرُوا﴾ وتفكروا في الأمم الماضية أنه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض منهم ؛ كقوم نوح وعاد وثمود ، واعتبروا بهم ، واحذروا أن تكونوا مثلهم في الكفر والشقاق مع الرسل واستحقاق عذاب الاستئصال.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا

لَخَاسِرُونَ (٨٧) و (٩٠)

ثم لما كان الكفار يطعنون على المؤمنين بالفقر ويقولون لهم : لو كنتم على الحق لكان لكم القوة والثروة ، وحيث إن لنا الغنى والشوكة كان الحق معنا ، رددهم بأن الحق لمن كان له حسن العاقبة ، وسلى قلوب المؤمنين به ، وهدد الكفار بالعذاب بقوله : ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من التوحيد ودار الجزاء وأحكام الله وقوانينه المقررة في شرعه ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أخرى منكم ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بما جئت به إصراراً على الكفر ، ولجأوا مع الحق ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يا قوم وترتصوا ، ولا تغتروا بما آتاكم الله في الدنيا ﴿حَتَّى﴾ يأتي الوقت الموعود ، وهو يوم القيامة ، أو وقت نزول عذاب الاستئصال ، إذن ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم بالحق من نصري ونصر من معي وإعلاء درجاتنا ، وخزي الكافرين وتعذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل القاضين ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه.

في محاجة شعيب مع قومه وكيفية هلاك القوم

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا عن قبول الحق ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ بعد المواعظ الشافية والتصائح البالغة : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ بالأصالة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾

تبعا لك ﴿مِنْ قَرِينِنَا﴾ وبلدنا بغضا لكم ، وتخلصا من زحمتكم وفنتكم ﴿أَوْ لِنَعُودَنَّ﴾ ولترجعن ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ من عبادة الأصنام.

وإنما عبروا عن الدخول في ملتهم بالعود - مع أنّ شعبي لم يكن على ملتهم قط ، لعدم جواز الكفر على الأنبياء - لاعتقادهم في حقه الكفر قبل إظهاره الدعوة إلى التوحيد.

فلما سمع شعيب منهم هذا الكلام الشنيع ﴿قَالَ﴾ إنكارا عليهم وتعجبا من قولهم : أنعود ﴿أَوَّلُو كُنَّا كَارِهِينَ﴾ لملئتكم ، متنفّرين من الدخول في دينكم ؟ ! لا يكون ذلك أبدا ، فإنه بعد حكم العقل الفطري بالتوحيد ، وشهادة جميع الموجودات ، وانتظام العالم أحسن نظام ، واتفاق جميع الأنبياء من أول الدنيا عليه ، وعلى بطلان الشرك وعبادة الأصنام ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ عظيما ﴿إِنْ﴾ أشركنا و﴿عُدْنَا﴾ كما تزعمون ﴿فِي مِلَّتِكُمْ﴾ الباطلة ، وقلنا بأن الله اتخذ لنفسه ندا ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ بتكميل عقولنا ، وتهذيب أخلاقنا ، وإلهامه إيانا أنه ليس كمثله شيء ، وأنّ الأصنام لا تضر ولا تنفع.

ثم بالغ في الإنكار بقوله : ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ جائزا ﴿لَنَا﴾ بحكم العقل السليم ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ وتنديّن بها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ضالنا وخزيها ، ولا يشاء ذلك أبدا ؛ لأنّه ﴿رَبُّنَا﴾ اللطيف بنا وبجميع عباده ، لا يريد لنا إلّا ما يقرّنا إليه ، ويؤهلنا لفضله ورحمته. وفيه الاعتراف بعجز نفسه عن تحصيل كلّ خير ، وأنّ الهداية والضلالة بتوفيق الله وخذلانه.

ثم لما كان فضله متوقفا على القابلية والاستعداد ، وإثابته وتعذيبه على الإيمان والكفر ، والطاعة والعصيان ، وكلّها منوطة بعلمه بحقائق الأشياء وضمائر عباده وأحوالهم وأعمالهم ، أعلن بسعة علمه بقوله : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من القابليات والضمائر والظواهر ﴿عِلْمًا﴾^(١) لا يعزب عنه مثقال ذرة.

ثم لما وعده الكفار أن يخرجوه من بلدهم ، أو يعيدوه في ملتهم ، أظهر اعتماده على الله بقوله : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ واحكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وبما نستحقّه ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وأعدل الحاكمين تحلّ المضلات وتفصل الأمور ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ تشبيطا للناس عن اتباعه : أيها الناس ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وأمتثلتم ما أمركم به من الإيمان بتوحيد الله ، وترك البخس ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ ألبتة ﴿لِحَاسِرُونَ﴾ ومتضرّرون في دنياكم لفوات نفع البخس عنكم ، وفي دينكم لترككم ما كان عليه آبائكم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ﴾ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ

(١) لم يرد في النسخة تفسير قوله تعالى : ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ
لَقَدْ أُنْزِلَتْكُمْ رِسَالَاتُ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَافِرِينَ (٩١) وَ (٩٣)

فلَمَّا بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا عذاب الاستئصال ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة الشديدة
الحاصلة من الصيحة. عن ابن عباس رضي الله عنه : رجفت بهم الأرض وأصابهم حرّ شديد ، فرفعت لهم
سحابة فخرجوا إليها يطلبون الروح منها ، فلَمَّا كانوا تحتها سألت عليهم بالعذاب ومعه صيحة جبرئيل ^(١)
فأحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ وبلد أمنهم ﴿جَائِمِينَ﴾
خامدين ساكنين لا حراك لهم.

عن الصادق عليه السلام : « بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا » ^(٢) .

ثم بيّن الله تعالى أن جثومهم كان على قولهم : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعْبُ﴾ ^(٣) بقوله : ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا
شُعْبًا﴾ وهدّده بأن يخرجوه من القرية ، أخرجهم الله منها بالإهلاك فصاروا ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ ولم
يقيموا بها مع قوتهم وشوكتهم ، فهم المخرجون منها بحيث أضمحلت آثارهم منها دون شعيب.
ثم ردّ الله عليهم قولهم : ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعْبًا﴾ ^(٤) بقوله : ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرِينَ﴾ دنيا وآخرة ، لا الذين اتبعوا شعيبا ﴿فَتَوَلَّى﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ شعيب بعد هلاكهم. وقيل :
قبل ذلك. ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أُنْزِلَتْكُمْ﴾ وأدّيت إليكم ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ بأوفى بيان ، بحيث لم
يبق لكم العذر في ترك الإيمان ، فلم تصدّقوني ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أبلغ نصح ، فلم تقبلوا مني ، وأنذرتكم
من سوء عاقبة الكفر والعصيان ، فلم تعتنوا بقولي ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ وأتخزن بعد ذلك كلّ ﴿عَلَى﴾ هلاك
﴿قَوْمِ﴾ استحقوا ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال لكونهم ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله ورسوله ودار الجزاء.
قيل : إنّه اشتدّ حزنه على قومه لكثرتهم ، وقرابتهم ، وطول الألفة ^(٥) بهم ، وتوقعه إجابتهم إلى
قبول قوله ^(٦) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّغُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا
الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٤) وَ (٩٥)﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٠٣ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٦٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٠ .

(٣) الأعراف ٧ : ٨٨ .

(٤) الأعراف ٧ : ٩٠ .

(٥) في النسخة : الفتنة.

(٦) تفسير الرازي ١٤ : ١٨٣ .

ثم عَزَى نفسه بأَهم أَهلَكوا أَنفُسهم بسوء اختيارهم وإصرارهم على الكفر ، ومشاقَّة الله ورسوله ، فليسوا بأهل لأن يأسى ويحزن عليهم ، ثم بيَّن الله تعالى غاية لطفه بعباده ، وأَنَّهُ لا يكتفي في هدايتهم بإرسال الرِّسل ، بل كان يوجد لهم منبِّهات آخر بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ مِّنذِر لِّهَدَايَتِهِمْ ، فَكَذَّبُوا أَهْلَهَا﴾ **﴿إِلَّا أَخَذْنَا﴾** وابتلينا **﴿أَهْلَهَا﴾** وساكنيها **﴿بِالْبَاسَاءِ﴾** والشَّدائد من الفقر والفاقة **﴿وَالضَّرَاءِ﴾** من الأمراض والأوجاع. وقيل في تفسيرهما على العكس ؛ لأجل أَنَّهُ **﴿لَعَلَّهُمْ يَصْزَعُونَ﴾** ورجاء أَنَّهُم يخشعون لنا وينقادون لأوامرنا ، فإنَّ البلياء من الفقر والمرض ترقِّ القلوب وتؤثِّر الانكسار والتواضع في النفوس.

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يتأدَّبوا بالبلاء **﴿يَدُلُّنَا﴾** ما كان من حالهم بأن أعطيناهم **﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾** والبليَّة التي كانت أصابتهُم **﴿الْحَسَنَةَ﴾** من الرِّخاء والسَّعة والصَّحَّة ، لتدعوهم النِّعمة بعد النِّعمة والرِّخاء بعد الشَّدَّة إلى الشُّكر والخضوع والطَّاعة ، فلم ينفعهم ذلك وبقوا على كفرهم وطغيانهم **﴿حَتَّى عَفَّوْا﴾** وكثروا عددا وعدة ونعمة **﴿وَقَالُوا﴾** جهلا بأنَّ الشَّدائد كانت لتأديبهم ، والإحسان إليهم بالنِّعم كان لتنبههم : إنَّ هذه التَّغييرات من عادة الزمان في أهله ، و**﴿قَدْ مَسَّ﴾** وأصاب **﴿آبَاءَنَا﴾** وأجدادنا في سالف الزَّمان البأساء مرَّة ، و**﴿الضَّرَاءِ﴾** أخرى **﴿وَالسَّرَاءِ﴾** من النِّعمة والرِّخاء ثالثة ، فلم ينتقلوا عمَّا كانوا عليه ، فكونوا أنتم كما كان آباؤكم.

فلَمَّا لم ينتفعوا بتلك الأحوال المختلفة ، ولم ينقادوا ، بل اصروا على ما هم عليه من الكفر والطَّغيان وتكذيب الرِّسل **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾** بالعذاب **﴿بِعَذَّةٍ﴾** وفجأة **﴿وَهُمْ﴾** حال نزوله **﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾** به ولا يحتملون ابتلاءهم به ، فكان عذابهم لعدم انتظارهم له أشدَّ عليهم نكالا وأعظم حسرة.

**﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦)**

ثم دعا سبحانه النَّاس إلى الإيمان ورغَّبهم فيه بتنبيههم على فوائده بقوله : **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾** المهلكة بكفرهم وعصيانهم **﴿آمَنُوا﴾** بي وبوحدانيَّتِي ، وصدَّقوا رسلي الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْهِمْ لَهْدَايَتِهِمْ ، بدل كفرهم وتكذيبهم **﴿وَاتَّقَوْا﴾** المعاصي والسيِّئات بدل ارتكابهم لها وانغمارهم فيها ، والله **﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾** كثيرة **﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾** بالأمطار النافعة **﴿وَوَ﴾** من **﴿الْأَرْضِ﴾** بإنبات التَّبَّاتات الكثيرة والثَّمار والزَّروع ، وإكثار المواشي وإدامة الأمن والسَّلامة ، ولوسَّعنا عليهم جميع

(١) الرِّستاق : معرَّب « روستاه » وهي القرية بالفارسية.

الخيرات ، ويسترنها لهم من كل جانب ﴿وَلَكِنَّ﴾ الأسف كل الأسف أنهم ﴿كَذَّبُوا﴾ الرسل فيما جاءوا به من التوحيد والشرائع ، واستكبروا عن الإيمان بهم ، وعتوا على ربهم ﴿فَأَحْذَنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ، وأهلكناهم عن آخرهم ، لا للتشقي ؛ لأنه محال علينا ، بل كان هلاكهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسعيهم من الكفر والمعاصي العظام الموجبين لاستحقاقهم ذلك في الدنيا.

﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٧) و (٩٩)﴾

ثم هدّد الله تعالى الناس على كفرهم وعصيانهم بعذاب الاستئصال بأن أنكر عليهم الأمن منه بقوله : ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى﴾ من الكفار ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وينزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ وليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ مستريحون لا يحتملون وقوع العذاب عليهم ﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ وحال ارتفاع الشمس ﴿وَهُمْ﴾ من غاية غفلتهم ﴿يُلْعَبُونَ﴾ ويشغلون بما لا ينفعهم في الدين والدنيا ، بل يضرهم كإنكار التوحيد وتكذيب الرسل ، أو يصرفون همهم في تحصيل الدنيا.

ثم بالغ سبحانه في إنكار الأمن عليهم بقوله : ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ هؤلاء المكذبون للرسل ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ وعذابه البغي أو استدراجه لهم ^(١) ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وأخذة فجأة ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمضرون على أنفسهم بجهلهم بالله وقدرته ، وتركهم النظر في عواقب الأمور ، وعدم اعتبارهم من حال الامم الماضية والمهلكة ، فإنهم الذين لا يخافون الله وعذابه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

ثم نبّه الله تعالى على أنّ ذكر قصص الأنبياء وعصيان اممهم وإنزال العذاب على معارضيتهم ، كان لعيبة الناس بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ ولم يتضح ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ ويسكنونها ويعيشون فيها ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إهلاك ﴿أَهْلِهَا﴾ الذين كانوا ساكنين فيها ، فعذبوا بذنوبهم وطغيانهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أهلكناهم بكفرهم و﴿أَصْبَنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا بالعذاب من قبلهم ؟ لا والله لا يهتدون ؛ لأننا نختتم على أفئدتهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بكفرهم وإصرارهم عليها ^(٢) ﴿فَهُمْ﴾ إذن ﴿لَا

(١) في النسخة : بهم.

(٢) في النسخة : عليهم.

يَسْمَعُونَ ﴿مواظ الله وآياته ، وما يقصّ عليهم من العبر سماع القبول ، أو لا يعتنون بها كي ينتفعوا بها ويعتبروا منها ، فكأنهم لا يسمعونها.﴾

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا

لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾

ثم بيّن الله تعالى كيفية الطبع على القلوب بقوله : ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الخمس التي ﴿نَقُصُّ﴾ وتتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ بعضها ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ وأخبارها التي فيها الغبطة والتذكير ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك طبع على قلوبهم ﴿فَمَا كَانُوا﴾ بعد مجيء الرسل ، ومشاهدة المعجزات ، واستماع المواظ والتهديدات ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بل استمروا على كفرهم السابق ، وأصروا على ما كانوا عليه من التكذيب ﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع الذي كان على قلوب أهالي القرى الخمس المهلكة الذين مرّ ذكرهم ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾ جميع ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المصرّين على كفرهم من أهل عصرهم وغيرهم ، فلا يدخل في قلوبهم الإيمان ، ولا تؤثر فيها الآيات والتندر ، فلا يحزنك تكذيبهم وإعراضهم.

في ذكر بعض اخبار عالم الدر والطينة

عن القمّي رحمه الله : لا يؤمنون في الدّنيا بما كذبوا في الدّر ، وهو ردّ على من أنكر الميثاق في الدّر الأول (١) .

عن (الكافي) عن الباقر عليه السلام : « أن الله خلق الخلق ، فخلق من أحبّ ممّا أحبّ ، وكان ما أحبّ أن خلقه من طينة الجنة ، وخلق من أبغض ممّا أبغض ، [وكان ما أبغض] أن خلقه من طينة النار ، ثم بعثهم في الظلال » . فقيل : وأي شيء الظلال ؟ قال : « ألم تر إلى ظلك في الشمس ؛ شيء وليس بشيء ، ثم بعث منهم النبيّين فدعاهم إلى الإقرار بالله ، وهو قوله : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢) ، ثم دعاهم إلى الإقرار بالنبيّين ، فأقرّ بعضهم وأنكر بعض ، ثم دعاهم إلى ولايتنا ، فأقرّ بها والله من أحبّ وأنكرها من أبغض ، وهو قوله : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ثم قال : « كان التكذيب ثم » (٣) .

وفي رواية أخرى : « فمنهم من أقرّ بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، فقال الله : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ » (٤) .

وعنهما عليه السلام : « بعث الله الرسل إلى الخلق وهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فمن صدّق

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٢ .

(٢) الزخرف : ٤٣ / ٨٧ .

(٣) الكافي ٢ : ٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٢ .

حينئذ صدق بعد ذلك ، ومن كذب حينئذ كذب بعد ذلك » (١) .

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

ثم لما كان الكفار عند مساس البأساء والضراء ، يعاهدون الله بقولهم : ﴿لَسْنَا أَنْجِيتُنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢) ، غيرهم سبحانه على نقض العهد بقوله : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ وفاء بعد ﴿عَهْدٍ﴾ عاهدوه مع حكم العقل بوجوبه .

ثم أكد ذلك التعيين بقوله : ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وخارجين من حدود العقل والدّين ، وعلمنا أغلبهم عن شكر ربهم وطاعته آيين .

وقيل : إنّ المراد من العهد : نصب الأدلة الدالة على توحيده ورسالة رسوله .

وعن ابن مسعود قال : العهد هنا الإيمان ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٣) يعني : آمن وقال : لا إله إلا الله (٤) .

وقيل : إنّ المراد به : العهد الذي أخذه الله منهم في عالم الذرّ .

عن ابن عباس قال : يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم حيث قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (٥) ، فلما أخذ الله منهم هذا العهد وأقرّوا به ثم خالفوا ذلك ، صار كأنه ما كان لهم عهد ، فلهذا قال : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ (٦)

العباشي : عن أبي ذرّ رضوان الله عليه قال : والله ، ما صدق أحد ممّن أخذ ميثاقه فوق بعهد الله غير أهل بيت نبيهم وعصابة قليلة من شيعتهم ، وذلك قول الله : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (٧) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنه قال لأبي بصير : يا أبا بصير ، إنكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا ، وإنكم لم تبدّلوا بنا غيرنا ، ولو لم تفعلوا لعيركم الله كما عيرهم حيث يقول جلّ ذكره : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (٨) .

وعن الكاظم عليه السلام : « أنّها نزلت في الشاك » (٩) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٢ / ١٩٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٣ .

(٢) يونس : ١٠ / ٢٢ .

(٣) مريم : ١٩ / ٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ١٨٨ .

(٥) الأعراف : ٧ / ١٧٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٤ : ١٨٨ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ١٥٤ / ١٦٠١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٣ .

(٨) الكافي ٨ : ٣٥ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٣ .

(٩) الكافي ٢ : ٢٩٣ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٣ .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة موسى ودعوته ، ومخالفة فرعون وغرقه بجنوده ، ولما كان موسى أكثر معجزة وأقواها من سائر الأنبياء ، وقصته أشد تأثيرا في نفوس اليهود والنصارى ، بسطها بقوله : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ في بني إسرائيل ومملكة مصر ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ملتبسا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر ، قيل : اسمه وليد بن مصعب ، وقيل : قابوس ^(١) ﴿وَمَلَئِهِ﴾ وأشرف مملكته ، وإنما خصّهم بالذكر مع عموم رسالته لكون غيرهم تبعاً لهم ﴿فَظَلَمُوا﴾ بالمعجزات والآيات ، وكفروا ﴿بِهَا﴾ حيث نسبوها إلى السحر ، وسعوا في الإفساد في أمر نبوته وفي الأرض ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد ، أو أيها العاقل بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالإفساد في أمر الرسل.

ثم أنه روى الصدوق عن الباقر عليه السلام - في حديث - : « ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ الْأَسْبَاطَ اثْنِي عَشَرَ بَعْدَ يُوسُفَ ، ثُمَّ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِلَى مِصْرَ وَحَدَّاهَا » ^(٢) .

وروى العياشي : « أَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى سَبْعَ مَدَائِنَ يَتَحَصَّنُ فِيهَا مِنْ مُوسَى عليه السلام ، وَجَعَلَ فِيهَا بَيْنَهَا آجَامًا وَغِيَاضًا » ^(٣) ، وَجَعَلَ فِيهَا الْأَسَدَ لِيَتَحَصَّنَ بِهَا مِنْ مُوسَى ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى عليه السلام إِلَى فِرْعَوْنَ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَسَدَ تَبَصَّصَتْ ^(٤) وَوَلَّتْ مَدْبَرَةً ، وَلَمْ يَأْتِ مَدِينَةَ إِلَّا انْفَتَحَ لَهُ بَابُهَا ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَصْرِ فِرْعَوْنَ الَّذِي هُوَ فِيهِ . قَالَ : فَقَعَدَ عَلَى بَابِهِ وَعَلَيْهِ مَدْرَعَةٌ ^(٥) مِنْ صُوفٍ وَمَعَهُ عَصَاهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ الْأَذْنَ قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى فِرْعَوْنَ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَمَكَثَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَهُ ، قَالَ : فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : أَمَا وَجَدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ مِنْ يَرْسِلُ غَيْرَكَ ؟ ! قَالَ : فَغَضِبَ مُوسَى عليه السلام فَضْرَبَ الْبَابَ بَعْضَاهُ ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ بَابٌ إِلَّا انْفَتَحَ ، حَتَّى نَظَرَ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ ، فَقَالَ : ادْخُلْهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي قَبَّةٍ لَهُ مَرْتَفَعَةٌ كَثِيرَةٌ الارتفاع ثمانون ذراعاً ^(٦) .

وفي رواية : « أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ أَتَيَا بَابَ فِرْعَوْنَ ، فَضْرَبَ عَصَاهُ بِالْبَابِ ، فَفَزِعَ فِرْعَوْنَ فَشَابَ رَأْسُهُ فَاسْتَحْيَى فَخَضِبَ بِالسَّوَادِ ^(٧) ، فَأَذِنَ لِمُوسَى فِي الدَّخُولِ ، فَدَخَلَ هُوَ وَأَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ » .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٠ .

(٢) كمال الدين : ٢٢٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٣ .

(٣) الآجام : جمع أجمة ، وهي الشجر الكثير الملتف ، والغياض : جمع غيضة ، مجتمع الشجر في مغيض ماء .

(٤) تبصص الكلب : حرك ذنبه .

(٥) المدرعة : حبة من صوف مشقوقة المقدم .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ١٥٤ / ١٦٠٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٤ .

(٧) تفسير الرازي ١٤ : ١٨٩ ، تفسير روح البيان ٣ : ٢١٠ .

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٤) و (١٠٨)﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ من الرسل مبعوث إليك ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأدعوك إلى عبادته ، وأنهاك عن دعوى الألوهية ، فقال فرعون : كذبت ، ما أنت برسول ، فقال موسى عليه السلام : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ﴾ قولا ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ والصدق .

ثم أخبر بأن له معجزة دالة على صدقه بقوله : ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ وأتيت إليكم ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة ومعجزة باهرة دالة على صدقي ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ فإذا تبين لك صدق رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وفكّهم من قيد العبودية ، وخلّهم حتى أذهب بهم إلى الأرض المقدسة التي هي موطن آبائهم . قيل : كان يستعملهم في الأعمال الشاقة لعدم اعترافهم بربوبيته .

﴿قَالَ﴾ فرعون : ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزة من عند إلهك الذي أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ وأظهرها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى رسالتك حتى نعلم بصدقك ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ وحية ^(١) عظيمة ﴿مُبِينٌ﴾ لا يشك أحد في أنها ثعبان .

في رواية العياشي : « كان لها شعبتان ، فإذا هي حية قد وقع إحدى الشعبتين في الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبة ، قال : فنظر فرعون إلى جوفها وهو يلتهب نيرانا ، قال : وأهوت إليه فأحدث وصاح : يا موسى خذها » ^(٢) .

﴿وَنَزَعَ﴾ موسى عليه السلام بعد معجزة العصا ﴿يَدَهُ﴾ وأخرجها من جيبه أو جناحه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ بياضا خارقا للعادة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها .

روي أنّ موسى أرى فرعون يده وقال : ما هذه ؟ فقال : يدك ، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها ، فإذا هي بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس . وكان عليه السلام آدم ^(٣) شديد الأدمة ^(٤) .

وعن ابن عباس قال : كان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ^(٥)

(١) في النسخة : وجثة .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٥٥ / ١٦٠٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٤ .

(٣) آدم : اشتدت سمرة ، فهو آدم .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢١١ .

(٥) تفسير الرازي ١٤ : ١٩٦ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَغْفَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١٠٩) و (١١٦)﴾

فلما رأى فرعون هاتين المعجزتين وشاور مع أشرف^(١) قومه في أمر موسى عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشرف ﴿مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ في مجلس المشورة : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الرجل المدعي للرسالة ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر ماهر فيه ، يطلب السلطنة ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾ بوسيلة سحره ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ ومملكته ، ويجعل الحكومة فيها لبني إسرائيل ، فلما سمع فرعون ذلك منهم قال لهم : ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وبأي شيء تشيرون عليّ ؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ وأخر أمرهما ، ولا تعجل في شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ﴾ الرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ والبلاد التي فيها السحرة ، حال كون رسلك ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين من له علم بالسحر ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر حاذق فيه.

عن العياشي : روي أنه لم يكن في جلسائه يومئذ ولد سفاح ، ولو كان لأمر بقتلهما. الخبر^(٢) . قيل : كان له مدائن فيها السحرة المعدة لوقت الحاجة إليهم ، ولم يكن في زمان السحرة أكثر من زمان موسى عليه السلام .

في معارضة السحرة مع موسى عليه السلام

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد إرسال الشرطة إليهم وإحضارهم ﴿قَالُوا﴾ : يا فرعون ﴿إِنَّ لَنَا﴾ عندك ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيما ألبتة ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى في عمل السحر ﴿قَالَ﴾ فرعون : ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم لأجرا جزيلا عندي ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي منزلة ومقاما. قيل : إنه قال لهم : تكونون أول من يدخل مجلسي ، وآخر من يخرج منه. نقل أنه كان في المدائن أخوان ماهران في السحر ، فلما بلغهم أن فرعون طلبهم لمعارضة موسى عليه السلام جاءوا إلى قبر أبيهم وقالوا : يا أبة ، إن فرعون طلبنا لنعارض رجلين معهما عصا إذا ألقياها تصير ثعبانا يأكل كل ما يراه ، ولذا ضيقا على فرعون ، قال أبوهم : انظروا هل تصير ثعبانا حال نوم

(١) كذا ، والظاهر : شاور أشرف.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٥٦ / ١٦٠٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٥ .

صاحبها ، فإن صارت ثعبانا عند نومهما فإنه ليس من السحر ، ولا يقدر أهل العالم على معارضة الرجلين. ثم حضر الأخوان مع أصحابهما - وكانوا اثني عشر ألفا ، وقيل : سبعين ألفا - عند فرعون وقالوا ما قالوا ، ثم ذكر الأخوان لأصحابهما ما وقع بينهما وبين أبيهما من السؤال والجواب ، ففتش السحرة عن حال العصا وقت نوم موسى عليه السلام ، فعلموا أن موسى عليه السلام إذا نام تصير العصا حيّة وتحرسه ، فتزد القوم وفتروا عن معارضته.

فجلس فرعون في قصره ، وطلب موسى عليه السلام ، وأحضر السحرة كي يعارضوه ، وحضر عامة أهل مصر ، فاصطف السحرة في جانب وقام ، موسى وهارون عليه السلام في جانب آخر ، فتقدم السحرة إليهما^(١) و﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ أَوَّلًا وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ حبالنا وعصيتنا أولا ، فجعلوا الاختيار لموسى في السبقة إلى الإلقاء.

قيل : كان سبب إيمانهم تأذّبهم مع موسى عليه السلام^(٢) .

قيل : في تغيير النظم إشعار بميلهم إلى كونهم السابقين في الإلقاء^(٣) .

﴿قَالَ﴾ لهم موسى تأكيداً لأمر المعجزة : ﴿أَلْقُوا﴾ انتم ، أولا حبالكم وعصيتكم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما معهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ وخيلوا إليهم ما لا حقيقة له ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وبالغوا في إرعابهم ﴿وَجَاؤُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ .

روي أنهم جمعوا حبالا غلاظا وخشباً طويلاً كأثما حيّات جسام غلاظ ، ولطّخوا تلك الحبال بالزئبق ، وجعلوا الزئبق داخل تلك العصي ، فلما أثّرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض ، وكانت كثيرة جداً ، فتخيّل الناس أنها تتحرك وتلتوي باختيارها ، وصار الميدان كأنه مملوء بالحيّات^(٤) .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ

وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * أَلْقَى السَّحَرَةُ

سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١١٧) و (١٢٢)﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ من يدك ، فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ صارت حيّة عظيمة

﴿تَلْقَفُ﴾ وتبلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ويزورون.

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٢ و ٢١٣.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٣.

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٢٠٢.

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٣.

روي [أُنْهَا] لما تلَقَّتْ جبالهم وعصيتهم وابتلعتها بأسرها ، أقبلت على الحاضرين فهربوا ، وازدحموا حتّى هلك منهم جمع كثير لا يعلم عددهم إلّا الله . ثمّ أخذها موسى وصارت عصا كما كانت ، وأعدم الله بقدرته القاهرة تلك الأجرام العظام ، وقيل : فرّقها أجزاء لطيفة ، فقالت السحرة : لو كان هذا سحرا لبقيت جبالنا وعصيتنا ^(١) .

﴿فَوَقَّعَ﴾ ما هو ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت في الواقع ، وظهر صدق موسى ﷺ ﴿وَبَطَلَ﴾ وأُضمحلَّ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر ، وأمّا فرعون وملؤه ﴿فَعَلُوا﴾ في مجلسهم ﴿هُنَالِكَ﴾ بحيث لم تكن غلبته أظهر من ذلك ﴿وَأَنقَلَبُوا﴾ ورجعوا عن معارضته إلى محالهم ﴿صَاغِرِينَ﴾ بحيث لا صغار ولا ذلّ في حقّ مبطل مثل ذلك ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ وخرّوا على الأرض ﴿سَاجِدِينَ﴾ بالشدة كأنّه ألقاهم ملق ، إظهارا لبهور الحقّ وعدم تمالكهم من قبوله ، وإعلاما بكسر فرعون بإيمان الذين أتى بهم لكسر موسى ﷺ ، وانقلاب الأمر عليه .

استدلّ المتكلّمون بهذه الآية على غاية فضيلة العلم ؛ لأنّ السحرة لعلمهم بحقيقة السحر ومنتهاه علموا أنّ ما أتاه موسى ﷺ خارج عن السحر ، وأتته من المعجزات الإلهية لا من التمويهات البشرية ، ولذا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولو لم يكونوا كاملين في علم السحر لم يمكنهم الاستدلال بتلك المعجزة لاحتمال كونها السحر الكامل .

ثمّ لما كان في كلامهم « ربّ العالمين » ، وكان فرعون مدّعيًا للتبويّة أوضحوه بقوله : ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فإنّ فرعون وإنّ ربّي موسى في صغره فإنّه لم يربّ هارون .

قيل : إنهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال فرعون : إياي عنوا ، فلمّا قالوا : ﴿رَبِّ مُوسَى﴾ قال : إيتاي عنوا ، لأنّي ربّيت موسى ، فلمّا قالوا : ﴿وَهَارُونَ﴾ زالت الشبهة ، وعرف الكلّ أنّهم كفروا بفرعون ^(٢) .

وقيل : إنّما خصّوهما بالذكر تفضيلا وتشريفا لهما ^(٣) .

عن ابن عبّاس : أمنت السحرة وأتبع موسى ﷺ من بني إسرائيل ستمائة ألف ^(٤) .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ

لُتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٢٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٢٠٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٤ .

ثم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للسحرة بعد إيمانهم لموسى ﷺ إنكارا عليهم وتوبيخا لهم : ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وصدّقتموه في دعوى رسالته ﴿قَبِلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان به ، مع أنكم عبيدي ، ولم يجز لكم عمل غير إذني ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الصنيع البتة ﴿لَمَكْرٌ﴾ عظيم ﴿مَكْرُتُمْوهُ﴾ وحيلة واضحة احتلتتموها أنتم وموسى ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْمَدِينَةِ﴾ قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا﴾ بذلك المكر ﴿أَهْلَهَا﴾ وساكنيها من القبط وتخلّى لكم ولبنى إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جزاء مكركم وصنيعكم ، وعن قريب تدرون سوء عاقبة عملكم.

قيل : إنّ فرعون لما رأى إيمان السحرة بموسى ﷺ حجة قوية على صحة نبوته ، ألقى الشبهة في ذلك بقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ﴾ يعني أنّ إيمانهم به ليس إلّا لتواطئهم مع موسى على ذلك ، وغرضهم منه انقراض سلطنة القبط ، وإخراجهم من مصر.

وعن ابن مسعود ، وابن عباس : أنّ موسى وأمير السحرة الثقيا ، فقال له موسى ﷺ : أ رأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أنّ ما جئت به الحق ؟ قال السّاحر : لآتينّ غدا بسحر لا يغلبه سحر ، فو الله لئن غلبتني لأؤمننّ بك ، وفرعون ينظر إليهما ويسمع قولها. فهذا هو قول فرعون ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ﴾^(١).

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نَنْفَعُ مَنَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِكَ قَالَ سَتُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٤) و (١٢٧)

ثم فصل ما أجمله أولا من التهديد بقوله : ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ من طرف ﴿وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ ذلك الطّرف ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النّخل تفضيحا لكم ، وتنكيلا وعبرة لأمثالكم.

قيل : هو أول من سنّ ذلك ، فشرعة الله تعالى لقطاع الطّريق تعظيما لجرمهم^(٢) .

ثم لما سمع السحرة هذا التهديد الشديد ﴿قَالُوا﴾ إعلاما بشأهم على دينهم ، وعدم مبالاتهم بالموت ، والقتل ، بل شغفهم على لقاء الله : ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا﴾ ورحمته الواسعة ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون ، إن

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢٠٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٤ .

فعلت بنا ذلك.

قيل : إنَّ المراد : أنا نموت لا محالة قتلنا أم لا ، فلا نبالي بوعيدك ^(١) ، أو أننا وإيتاكم جميعا ننقلب إلى الله ، فيحكم بيننا وبينكم ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ ولا تغضب علينا ، أو لا تنكر منا ولا تعيب علينا لجهة من الجهات ﴿إِلَّا﴾ لأجل ﴿أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ومعجزاته التي أجراها على يد موسى ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وشاهدناها ، وهذا الإيمان بحكم العقل عين الصواب وكل المنقبة.

عن ابن عباس : يريد : ما أتينا بذنب تعدبنا عليه إلا أن آمنا بآيات ربنا من المعجزات الجارية على يد موسى ﷺ ^(٢) .

ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ وأفض ﴿عَلَيْنَا﴾ وصب في قلوبنا ﴿صَبْرًا﴾ كاملا كثيرا - كما يصب الماء في الإناء - حين القطع والصلب ﴿وَتَوْفَّنَا﴾ وأقبض أرواحنا حال كوننا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ولأوامرك وأوامر رسولك منقادين ، وبتوحيذك وبما جاء به موسى ﷺ متدينين.

عن ابن عباس رضي الله عنه : أنَّ فرعون قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ثم صلبهم على شاطئ نيل مصر ^(٣) .

ثم روي أنَّ فرعون بعد ما رأى من موسى ﷺ ما رأى من معجزة العصا واليد البيضاء ، خافه خوفا شديدا ، ولذا لم يجب ولم يتعرض له بسوء ، بل خلى سبيله ^(٤) .

﴿و﴾ لذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ اعتراضا وإنكارا عليه : ﴿أَ تَذَرُ﴾ وتترك ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ من بني إسرائيل الذين تبعوه على دينه ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ على الناس دينهم ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وهذا البلد ﴿وَيَذَرُكَ﴾ ويتركك ﴿وَالْهَيْكَلُ﴾ ومعبداتك - قيل : كان يعبد الكواكب ^(٥) ، وقيل : إنه صنع لقومه أصناما على صورته ، وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه ^(٦) - فأجابهم فرعون و﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ كما كنا نقتلهم قبل مجيء موسى ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ ونبقي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ أحياء لنستخدمهن كما [كنا] نستخدمهن فيما قبل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وعلى ما يزيد في حقهم مقتدون ، وعلى مملكة مصر مستقلون ، كما كنا كذلك من قبل ، وبنو إسرائيل تحت أيدينا في ذل الأسر والهوان كما كانوا كذلك ، فلم تتغير حالنا وحالهم بغلبة موسى علينا بالسحر. فلما فشا هذا

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٤.

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٢٠٩.

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٥.

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٥.

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٥.

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٥.

التهديد من فرعون في بني إسرائيل خافوا منه خوفا شديدا.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وأتباعه تسليية لهم ، وتقوية لقلوبهم : يا قوم ، لا تخافوا ولا تحزنوا ، و﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ واستنصروا منه في دفع تعدّيات فرعون وقومه ، وتوكلوا على الله ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على ما أصابكم في سبيله ، ولا تصغوا إلى ما قال فرعون من الأباطيل ﴿إِنَّ﴾ هذه ﴿الْأَرْضُ﴾ التي يدّعي فرعون السّلطنة فيها ﴿لِلَّهِ﴾ خاصّة لا لفرعون وغيره ، وهو تعالى ﴿يُورِثُهَا﴾ ويسلّط على التصرف فيها ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ سلطنته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ إلى أجل معلوم ، ليس الأمر بيد فرعون ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودّة من الغلبة والنصرة وخير الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمنزهين من الشّرك والعصيان ، وأنتم منهم ، وفيه وعد بالتّصر وإهلاك القبط.

عن الباقر عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب علي عليه السلام : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ، ونحن المتّقون ، والأرض كلّها لنا ، فمن أحيا أرضا من المسلمين فعمرها فليؤدّ خراجها إلى الإمام من أهل بيتي ، وله ما أكل منها حتّى يظهر القائم من أهل بيتي » الخبر (١) .

فلم تستكن قلوب بني إسرائيل من الاضطراب ، ولذا ﴿قَالُوا﴾ : يا موسى ، قد كنّا ﴿أَوْذَيْنَا﴾ من ظلم فرعون وقومه ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ رسولا .
عن القمّي عليه السلام قال : قال الذين آمنوا بموسى عليه السلام : قد أؤذينا قبل مجيئك يا موسى بقتل أولادنا ، ومن بعد ما جئتنا . لما حبسهم فرعون لإيمانهم بموسى عليه السلام (٢) .

فلما رأى موسى شدّة خوف قومه من تهديدات فرعون ، وعدم تسكين قلوبهم بما أشعر به في كلامه السّابق من الوعد بهلاك فرعون ونصرتهم عليه ، صرّح بما كتّى عنه بقوله : ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ﴾ اللّطيف بكم ، وأرجو منه ﴿أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ ويمكّنكم بعد إهلاكه ﴿فِي﴾

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٥٧ / ١٦٠٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٨ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٨ .

هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي تمكّن فيها ، وتستريحون في محلّ راحتته من بأسه ﴿فَيَنْظُرُ﴾ ويرى أنكم بعد تلك النعمة العظيمة عليكم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أطيعونه أو تعصونه ، أو تشكرونه أو تكفرونه ؟ فيجازيكم حسبما يظهر منكم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠)

ثم بيّن الله تعالى غاية لطفه بفرعون وقومه بإنزال الحن والشدائد عليهم حالا بعد حال ليؤدّبهم ويردعهم عن ما هم عليه من الكفر والطغيان بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ وابتلينا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه ﴿بِالسِّنِينَ﴾ المجذبة - كما عن القمي (١) - أو القحط ﴿وَنَقْصٍ﴾ كثير ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بإنزال الآفات الكثيرة على بساتينهم وأشجارهم ، تأديبا لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ويتنبّهون أنّ ذلك بشؤم ما هم عليه من التمرّد والطغيان والكفر والعصيان.

قيل : إنّ السنين والقحط والجوع كان لأهل البوادي ، ونقص من الثمرات كان لأهل القرى (٢) .

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

ثم بيّن الله تعالى أنّ تلك الحن مع أنّها لم توجب تنبّهم واتّعاظهم ، ولم تؤثر في قلوبهم الرقة والخشوع ، زادتهم عتوا بقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة والصحة ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ الحسنة ، وبحسن إقبالنا ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من قحط ومرض وضرر ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ ويتشاءموا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وتبعه في الدين - القمي رحمه الله قال : الحسنة هاهنا : الصحة والسلامة والأمن والسعة ، والسيئة هنا الجوع والخوف والمرض (٣) .

﴿أَلَا إِنَّمَا﴾ يكون ﴿طَائِرُهُمْ﴾ وما به خيرهم وشرهم ونفعهم وضرهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وإرادته ومشيتته ، لا فاعل لها غيره تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ما يصيبهم بقضاء الله وإرادته وبشؤم أعمالهم ، ومن يعلمه قليل منهم ، ولكن لا يعلمون بمقتضاه.

وعن ابن عباس قال : إنّما طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم (٤) .

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢١٧ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٢١٦ .

عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَى إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٢) و (١٣٥)

ثمَّ أنه تعالى بعد حكاية إسنادهم الحوادث إلى عادة الدَّهر وشؤم موسى ، حكى مبالغتهم في الإصرار على تكذيب موسى ﷺ ، ولجاجهم معه ، وإنكار معجزاته وإسنادها إلى السَّحر بقوله : ﴿وَقَالُوا﴾ بعد مشاهدتهم المعجزات ، من العصا واليد البيضاء والقحط ونقص الثمرات وغيرها : يا موسى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ﴾ وأيَّ ما تظهر لنا ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وفعلة عجيبة ﴿لِنَسْحَرَنَّ بِهَا﴾ وتسكَّر أبصارنا وتموَّه علينا ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ﴾ في دعوى رسالتك وإعجاز ما أتيت به ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومصدِّقين ، فغضب موسى فدعا عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بدعائه ﴿عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالْدَّمَ﴾ حال كون المذكورات ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وعلامات بيّنة بحيث لم يكن يشكَّ فيها أحد.

وقيل عني بالمفصَّلات متفرقات منفصلات لامتحان أحوالهم قيل : كان امتداد كلِّ اسبوعا ، وبين كلِّ آيتين سنة ، وقيل : شهر.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وترفعوا مع ذلك على الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ومعاندين للحقّ. عن ابن عباس أنّه قال : إنّ القوم لما قالوا [لموسى ﷺ] : مهما تأتينا به من آية من ربك ، فهي عندنا من باب السَّحر ، ونحن لا نُؤمن بها البتّة ، وكان موسى ﷺ رجلا حديدا ^(١) ، فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له ، فأرسل عليهم الطُّوفان الدائم ليلا ونهارا سبّا إلى سبت ، حتّى كان الرّجل منهم لا يرى شمسا ولا قمرا ، ولا يستطيع الخروج من داره ، وجاءهم الغرق فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به ، فأرسل إلى موسى ﷺ وقال : اكشف عَنّا العذاب ، فقد صارت مصر بحرا واحدا ، فإن كشفت هذا العذاب آمنا بك ، فأزال الله عنهم المطر ، وأرسل الرّيح فحجّفت الأرض ، وخرج من النبات ما لم يروا مثله قطّ.

فقالوا : هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنّا لا نشعر ، فلا والله لا نُؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل ، فنكثوا العهد ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الثّبات ، وعظم الأمر عليهم ، حتّى صارت عند طيرانها تغطّي الشَّمس ، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعا فأكلت الثّبات ، فصرخ أهل مصر ، فدعا

(١) الحديد من الحدة : ما يعتري الإنسان من الغضب.

موسى ﷺ فأرسل الله ريحا فاحتملت الجراد فألقته في البحر.

فنظر أهل مصر إلى أنّ بقية من كلهم وزرعهم تكفيهم فقالوا : هذا الذي بقي يكفيننا ولا نؤمن بك ، فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل سبّا إلى سبت ، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلّا أكلته ، فصاحوا ، فسأل موسى ﷺ ربه فأرسل الله عليها ريحا حارّة فأحرقتها واحتملتها الرياح إلى البحر ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك ، فخرجت من البحر مثل الليل الدّامس ، ووقعت في الثّياب والأطعمة ، فكان الرّجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضّفادع ، فصرخوا إلى موسى ﷺ وحلفوا بالله : لئن رفعت عنّا هذا العذاب لنؤمننّ بك ، فدعا الله تعالى فأمات الضّفادع ، وأرسل عليها المطر فاحتملها إلى البحر.

ثمّ أظهروا الكفر والفساد ، فأرسل الله عليهم الدّم فجرت أنهارهم دما ، فلم يقدرُوا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل يجذون الماء العذب الطّيب ، حتّى بلغ منهم الجهد فصرخوا ، وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل ، فجعل يدخل الرّجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دما ، ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلّا الدّم ، فقال فرعون : ﴿لَئِنْ كَشَفْتُ عَنْآ الرّجْزَ﴾ الآية (١) .

وعن الباقر ﷺ قال : « لما سجد السّحرة وآمن به النّاس ، قال هامان لفرعون : إنّ النّاس قد آمنوا بموسى ، فانظر من دخل في دينه فاحبسه ، فحبس كلّ من آمن به من بني إسرائيل ، فجاء إليه موسى ﷺ فقال له : خلّ عن بني إسرائيل ، فلم يفعل ، فأنزّل الله عليهم في تلك السّنة الطّوفان ، فخرّب دورهم ومساكنهم حتّى خرجوا إلى البريّة وضربوا الخيام ، فقال فرعون لموسى : ادع [لنا] ربّك حتّى يكفّ عنّا الطّوفان حتّى اخليّ عن بني إسرائيل وأصحابك ، فدعا موسى ﷺ ربه ، فكفّ عنهم الطّوفان ، وهم فرعون أن يخليّ عن بني إسرائيل ، فقال له هامان : إن خليت عن بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك ، فقبل منه ولم يخلّ عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السّنة الثّانية الجراد ، فجردت كلّ شيء كان لهم من الثّبت والشّجر حتّى كانت تجرد شعرهم ولحاهم ، فجزع فرعون من ذلك جزعا شديدا وقال : يا موسى ، ادع ربّك أن يكفّ عنّا الجراد حتّى اخليّ عن بني إسرائيل وأصحابك ، فدعا موسى ﷺ ربه فكفّ عنهم الجراد ، فلم يدعه هامان أن يخليّ عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمل ، فذهبت زروعهم وأصابتهم الجاعة ، فقال فرعون لموسى ﷺ : إن دفعت عنّا القمل كففت عن بني إسرائيل ، فدعا موسى ﷺ ربه حتّى ذهب القمل .

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢١٧ .

وقال : « أول ما خلق الله القمّل في ذلك الزّمان ، فلم يخلّ عن بني إسرائيل ، فأرسل الله عليهم بعد ذلك الضّفادع ، فكانت تكون في طعامهم وشرابهم ويقال إنّها تخرج من أدبارهم وآذانهم وأنفهم ، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا ، فجاءوا إلى موسى عليه السلام فقالوا : ادع الله يذهب عنا الضّفادع ، فإننا نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا موسى عليه السلام ربّه ، فرفع الله عنهم ذلك.

فلما أبوا أن يخلّوا عن بني إسرائيل حوّل الله ماء النيل دما ، فكان القبطيّ يراه دما ، والاسرائيلي يراه ماء ، فإذا شربه الاسرائيلي كان ماء ، وإذا شربه القبطيّ يشربه دما ، فكان القبطيّ يقول للاسرائيلي : خذ الماء في فيك وصبّه في فيّ ، فكان إذا صبّه في فم القبطيّ تحوّل دما ، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا فقالوا لموسى عليه السلام : لئن رفع عنا الدّم لنرسلنّ معك بني إسرائيل ، فلما رفع الله عنهم الدّم غدروا ولم يخلّوا عن بني إسرائيل » (١) الخبر.

وقيل : إنّ المراد بالطّوفان الموت (٢) .

وروي عن النبي ﷺ أنّه قال : « الطّوفان هو الموت » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل ما الطّوفان ؟ فقال : « هو طوفان الماء والطّاعون » (٤) .

وعن سعيد بن جبّير : كان إلى جنبهم كتيب أعفر (٥) ، فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قمّلا ، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنّهم الجدرى ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى عليه السلام فرفع عنهم فقالوا : قد تيقّنا الآن أنّك ساحر عليم ، وعزّة فرعون لا نؤمن لك أبدا (٦) .

وقيل : إنّ المراد بالقمّل الجراد الصّغار الذي لا أجنحة له (٧) .

وقيل : إنّ المراد بالدّم أنّه تعالى سلّط عليهم الرّعاف (٨) .

ثمّ أنّه روي أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السّحرة عشرين سنة يريهم الآيات ، ثمّ لما أصروا على الكفر والطّغيان نزل عليهم الرّجز ، قيل : هو الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب ، وقيل : هو الطّاعون ، قال به سعيد بن جبّير ، وقال : فمات به من القبط تسعون (٩) ألف إنسان في يوم واحد ، فتركوا غير مدفونين (١٠) .

وفي الرّواية السابقة ، عن الباقر عليه السلام : « فأرسل الله عليهم الرّجز ؛ وهو التّلح ، ولم يروه قبل ذلك

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٧ ، وفي مجمع البيان ٤ : ٧٢١ ، وتفسير الصافي ٢ : ٢٣٠ عن الباقر والصادق عليه السلام .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٤ : ٢١٨ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٥٧ / ١٦٠٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٢٩ .

(٥) الكتيب الأعفر : الرّمّل الأحمر ، أو الأبيض القليل البياض .

(٦ - ٧) . تفسير الرازي ١٤ : ٢١٨ .

(٩) في تفسير الرازي : سبعون .

(١٠) تفسير الرازي ١٤ : ٢١٩ .

فماتوا فيه وجزعوا وأصاحم ما لم يعهدوه قبله « الخبر ^(١) .

﴿وَلَمَّا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ من السماء فزعوا إلى موسى ﷺ فرع الامة إلى نبيها و﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ متوسلا ﴿بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ﴾ من التوبة. وقيل : إِنَّ (الباء) للقسم ، والمعنى : نقسمك بعهد الله الذي عندك ^(٢) ، أو نقسم به ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ﴾ ورفعت ﴿عَنَّا الرِّجْزَ﴾ والعذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ البتة ، ونصدقك في رسالتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تذهب بهم أينما شئت ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ ولكن لا مطلقا ، بل ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ وحدّ معيّن من الزّمان ﴿هُم بِالْغَوَةِ﴾ فإذا بلغوه هلكهم ، ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ وينقضون العهد بمبادرين إليه.

وفي الحديث السابق عن الباقر ﷺ : « فدعا ربه فكشف عنهم الثلج ، فخلّى عن بني إسرائيل ، فلمّا خلّى عنهم اجتمعوا إلى موسى ﷺ ، وخرج موسى من مصر واجتمع إليه من كان هرب من فرعون ، فبلغ فرعون ذلك فقال له هامان : قد نهيتك عن أن تخلّي عن بني إسرائيل فقد اجتمعوا إليه ، فجزع فرعون وبعث في المدائن حاشرين وخرج في طلب موسى » ^(٣) ، فال أمره إلى الغرق.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾
﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٦) و (١٣٧)

ثم أخبر الله تعالى بإنجازه وعد موسى ﷺ لبني إسرائيل من قوله : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في أرض مصر » بقوله : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وأخذناهم بذنب نكثهم العهد ، أو سلبنا عنهم النعمة بالعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وبحر القلزم ، وكان قريبا من مصر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وبراهين توحيدنا ، ومعجزات رسولنا ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ معرضين كأهم كانوا عنها ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ وملكنا ﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ ويقهرون ويستذلون بذبح أبنائهم واستخدام نسائهم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ المقدسة من الشام ومصر ﴿وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب ووفور النعم والأمن ، فتملكوها بعد الفراعنة وتمكنوا فيها بالتصرف والاستراحة ﴿وَتَمَّتْ﴾ وانجزت

(١) تفسير القمي ١ : ٢٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣١ .

(٢) كذا ، وفي تفسير الرازي ١٤ : ٢٢٠ أقسمنا بعهد الله عندك .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣١ .

بذلك الإهلاك والتورث ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ ووعدته بالتّصر ، والغلبة على الأعداء ، وتورث الأراضي المقدّسات ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مع غاية ضعفهم وذلهم وأسرهم في أيدي الفراعنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الشّدائد والخن التي أصابوها منهم ﴿وَدَمَرْنَا﴾ وخرّبنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القبط من العمارات والقصور العالية ﴿وَمَا كَانُوا يَغْرِشُونَ﴾ ويرفعون من جنّات الكروم والأشجار المحتاجة إلى العريش ، أو من الأبنية الرّفيعّة.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان نعمه الجسام على بني إسرائيل ، ذكر نعمة مجاوزتهم من البحر مع السّلامة ، وكفراهم لتلك النّعم لغاية جهلهم ؛ بقوله : ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ وعبرنا بإعجاز موسى ﷺ وكرامته ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ القلزم بعد إغراق فرعون وقومه فيه ، وإهلاكهم ﴿فَأَتَوْا﴾ ومروا ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العمالقة الكنعايّين - على قول - أو على قبيلة في نواحي مصر ، فأروهم ﴿يَعْكُفُونَ﴾ ويواظبون ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿أَصْنَامٍ﴾ كانت ﴿لَهُمْ﴾ فلمّا شاهدوهم على ذلك ﴿قَالُوا﴾ لفرط جهلهم ، وغاية سفههم : ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا﴾ صنما أيضا ليكون لنا ﴿إِلَهًا﴾ ومعبودا نعبده ﴿كَمَا﴾ يكون ﴿لَهُمْ﴾ من الأصنام ﴿آلِهَةٌ﴾ ومعبودات يعبدونها. فغضب موسى من قولهم و﴿قَالَ﴾ لهم : يا قوم ﴿إِنَّكُمْ﴾ في الحقيقة ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وتفرطون في السّفه ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ القوم العاكفين على الأصنام ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ ومهلك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الدّين الفاسد ، حيث إنّ الله يذهب به ويبيد أصنامهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾ ومضمحل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها ، لا يترتّب عليه نفع في الدّنيا ولا في الآخرة ، وإن كانوا متقرّبين به الى الله ، لأنّه محض الكفر. والحاصل أنّه لا أصنامهم تبقى ولا دينهم ينفع.

﴿قَالَ أَعِزَّ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤٠) وَ (١٤١)﴾

ثمّ أنكر عليهم عبادة الأصنام بعد مشاهدتهم آيات وحدانية الله وعظام نعمه بقوله : ﴿قَالَ أَعِزَّ اللَّهُ﴾ من الأصنام والجمادات ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلب لكم ﴿إِلَهًا﴾ ومعبودا ﴿وَهُوَ﴾ الذي خصّكم بنعمه

الجسام ، و﴿فَضَّلَكُمْ﴾ بتلك الخصائص ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فإنه تعالى لم يعط أحدا من الخلق ما أعطاكم من الآيات الباهرات والمعجزات القاهرة ، لا والله لا يجوز لي الابتغاء ولا لكم الاشتراك به .
ثم ذكّره أعظم نعم الله بقوله : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ وخلصناكم بقدرة الله ورحمته ﴿مِنْ﴾ أسركم في أيدي ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه من القبط ، فأنهم كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويطلبون لكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديده .

ثم ذكّره أشدّ عذابهم بقوله : ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويكثرون في ذبحهم وإهلاكهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ ويستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ وبناتكم ليستخدموهنّ ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الإنحاء ، أو سوء العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ وفوز بالنعمة ، أو محنة وكره ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ، والمالك لاموركم ﴿عَظِيمٌ﴾ في الغاية .

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أُنْظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ (١٤٢) و (١٤٣)

ثم أنّه روي أنّ موسى ﷺ وعد بني إسرائيل وهو بمصر : إن أهلك الله عدوّهم أتاهاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون ويذرون ، فلما هلك فرعون سأل الله ربّه ذلك الكتاب ، فبيّن الله كيفية نزول التّوراة ^(١) بقوله : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ ودعوناها إلى الطّور ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأيّامها ليمقاتنا والوقت الذي وقّتناه ، كي يصوم في تمامها ، ويجتهد في العبادة فيها ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا﴾ بعد وأكملناها ﴿بِعَشْرِ﴾ من ليالي ذي الحجة ﴿فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ﴾ والوقت المضروب لعبادة مليكه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ من أوّل ذي القعدة إلى العيد الأضحى .

روي أنّ الله أمر موسى ﷺ بصوم ثلاثين يوما ؛ وهو شهر ذي القعدة ، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف ^(٢) فيه فتسوّك ، فقالت الملائكة : كنّا نشمّ من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسّواك ، فأوحى الله إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، فأمره الله أن يزيد عليها عشرة

(١) تفسير الرازي ١٤ : ٢٢٦ .

(٢) خلف الشيء خلّوفا : تغيّر وفسد ، والخلوف : رائحة فم الصائم .

أيام من ذي الحجة لهذا السبب ^(١) ، وهذه حكمة زيادة العشر على الثلاثين .
وقيل : إن الله أمره أن يصوم ثلاثين يوما ، وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله ، ثم انزلت التوراة [عليه]
في العشر البواقي ، وكلّمه فيه أيضا . وهذه حكمة تعبير الأربعين بثلاثين وعشر ^(٢) .
﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين ذهابه إلى ميقات ربه ﴿لَأُخِيهِ هَارُونَ﴾ الذي كان شريكا له في النبوة وتابعا
له : ﴿اخْلُفْنِي﴾ وقم مقامي ﴿فِي قَوْمِي﴾ بني إسرائيل ، وسر فيهم بسيرتي . ثم أكد وصيته بهم بقوله :
﴿وَأَصْلِحْ﴾ جميع ما يجب أن يصلح من أمورهم ودينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعِ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تسلك
طريقتهم في الإفساد ، ولا تساعدهم ولا تجبهم إليه .
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ وحضر في الوقت الذي وقّنه لحضوره ، أو إلى المكان الذي واعدناه
فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ مشافهة بلا واسطة ملك ﴿قَالَ﴾ بعد استماع كلامه : ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ نفسك ومكنني
من رؤيتك ﴿أَنْظُرْ﴾ بعين رأسي ﴿إِلَيْكَ﴾ .
عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : « وسأل موسى ، وجرى على لسانه من حمد الله عز وجل ﴿رَبِّ
أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فكانت مسألته تلك أمرا عظيما ، وسأل أمرا جسيما فعوقب » ^(٣) .
﴿قَالَ﴾ الله تعالى : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَلَكِنْ﴾ إن أردت أن تراني في
الدنيا ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي أنت عليه - قيل : هو أعظم جبل بمدين ، يقال له زبير ^(٤) - وأنا أتجلى
بجلوة من جلواتي ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ﴾ الجبل وثبت ﴿مَكَانَهُ﴾ ولم يتفتت بذلك التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ .
قيل : لما سمعت الجبال ذلك تعازمت رجاء أن يتجلى لها ، وجعل طور أو زبير يتواضع ، فلما رأى
الله تواضعه رفعه من بينها وخصّه بالتجلي ^(٥) .
عن ابن عباس قال : لما قال موسى عليه السلام : ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كشف الحجاب ، وأبرز له الجبل
وقال : انظر ، فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون [ألف] نبي ، محرمين ملبّين ، كلّهم يقولون :
أرني أرني ^(٦) .
﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قيل : كشف نوره من حجه قدر ما بين الخنصر والإبهام ^(٧) ، وظهرت

له

(١ و ٢) . تفسير الرازي ١٤ : ٢٢٦ .

(٣) التوحيد : ٢٦٢ / ٥ ، وفيه : فعوتب بدل : فعوقب ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣١ .

(٧) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣٤ .

عظمته واقتداره - وعن سهل بن سعد : أَنَّ الله أظهر من تسعين ^(١) أَلْف حجاب نورا قدر الدرهم ^(٢) - إذا ﴿جَعَلَهُ دَكَّا﴾ مفتتا كأن لم يكن ﴿وَحَرَّ مُوسَى﴾ وسقط على الأرض ﴿صَعِقًا﴾ ومغشيا عليه.
عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ موسى بن عمران عليه السلام لما سأل ربّه النَّظَرَ إليه وعده الله أن يقعد في موضع ، ثم أمر الملائكة أن يمرّوا عليه موكبا بعد موكب بالبرق والرعد والريح والصّواعق ، فكلمّا مرّ به موكب من الموكب ارتعدت فرائضه فيرفع رأسه فيسأل : أفیکم ربّي ؟ فيجاب : هو آت ، وقد سألت عظيما يا بن عمران » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « لما سأل موسى عليه السلام ربّه تعالى وقال : ﴿رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فلما صعد موسى عليه السلام على الجبل فتحت أبواب السماء ، وأقبلت الملائكة أفواجا في أيديهم العمد وفي رأسها النور ، يمرّون به فوجا بعد فوج ، يقولون : يا بن عمران ، اثبت فقد سألت عظيما. قال : فلم يزل موسى عليه السلام واقفا حتّى تجلّى ربّنا جلّ جلاله ، فجعل الجبل دكا وحرّ موسى صعقا ﴿فَلَمَّا﴾ أن ردّ الله عليه روحه و﴿أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٤) .

وعن القمي عليه السلام قال : فرجع الله الحجاب ونظر إلى الجبل ، فساخ الجبل في البحر ، فهو يهوي حتّى الساعة ، [ونزلت الملائكة وفتحت أبواب السماء ، فأوحى الله إلى الملائكة : أدركوا موسى لا يهرب ، فنزلت الملائكة وأحاطت بموسى عليه السلام ، وقالوا : تب يا بن عمران ، فقد سألت الله عظيما ، فلما نظر موسى عليه السلام إلى الجبل قد ساخ] . والملائكة قد نزلت فوق موسى عليه السلام على وجهه من خشية الله وهول ما رأى ، فردّ الله عليه روحه ، فرفع رأسه وأفاق وقال : ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أول المصدّقين بأنك لا ترى ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أَنَّ الكرويين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل ، جعلهم الله خلف العرش ، لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم » ثم قال : « إِنَّ موسى عليه السلام لما سأل ربّه ما سأل ، أمر واحدا من الكريين فتجلّى للجبل وجعله دكا » ^(٦) .

عن الرضا عليه السلام : أنّه سئل : كيف يجوز أن يكون كلم الله موسى بن عمران لا يعلم أنّ الله لا يجوز عليه الرّؤية حتّى يسأله هذا السؤال ؟

(١) في تفسير روح البيان : سبعين.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣٤.

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٥٩ / ١٦١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٤.

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٥٨ / ١٦١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٤.

(٥) تفسير القمي ٢ : ٢٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٥.

(٦) بصائر الدرجات : ٨٩ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٥.

فقال ﷺ : « إِنَّ كَلِيمَ اللَّهِ عَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ مَنْزَرَهُ عَنْ أَنْ يَرَى بِالْأَبْصَارِ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ ، فَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَهُ ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ أَلْفٍ [ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِمِائَةَ] ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ ، فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ ، وَصَعِدَ مُوسَى ﷺ إِلَى الطُّورِ ، وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكَلِّمَهُ وَيَسْمَعَهُمْ كَلَامَهُ ، فَكَلَّمَهُمُ اللَّهُ وَسَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقِ وَأَسْفَلِ ، وَيَمِينِ وَشِمَالِ ، وَوَرَاءَ وَأَمَامَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَحْدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ جَعَلَهُ مَنبَعًا مِنْهَا حَتَّى يَسْمَعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ، فَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامَ اللَّهِ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .

فَلَمَّا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ الْعَظِيمَ وَاسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَاعِقَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمَتِهِمْ فَمَاتُوا ، فَقَالَ مُوسَى ﷺ : يَا رَبِّ ، مَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَقَالُوا : إِنَّكَ ذَهَبْتَ بِهِمْ فَتَقْتُلْتَهُمْ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ مِنْ مَنَاجَاةِ اللَّهِ إِلَيْكَ ؛ فَأَحْيَاهُمْ وَبَعَثْتَهُمْ مَعَهُ ، فَقَالُوا : إِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يَرِيكَ تَنْظُرَ إِلَيْهِ لِأَرَاكَ ^(١) ، فَتَخْبِرُنَا كَيْفَ هُوَ وَنَعْرِفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ .

فَقَالَ مُوسَى ﷺ : يَا قَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَرَى بِالْأَبْصَارِ ، وَلَا كَيْفِيَّةَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ بِآيَاتِهِ ، وَيَعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ ، فَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ .

فَقَالَ مُوسَى ﷺ : يَا رَبِّ ، إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ مَقَالَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ ، فَأَوْحِ إِلَهُ إِلَيْهِ : يَا مُوسَى ، سَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَمْ أُؤَاخِذْكَ بِجَهْلِهِمْ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى ﷺ : ﴿ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ [وَهُوَ يَهْوِي] ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ يَقُولُ : رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ جَهْلِ قَوْمِي ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تَرَى « ^(٢) .

أَقُولُ : مَا فِي الرَّوَايَةِ مِنَ التَّوْجِيهِ ، وَإِنْ كَانَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ فِي دَفْعِ الْإِشْكَالِ ، إِلَّا أَنَّ الظَّاهِرَ بِلِ الْمُتَيَقِّنَ أَنَّ قَضِيَّةَ اخْتِيَارِ مُوسَى ﷺ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ كَانَ بَعْدَ هَذَا الْمِيقَاتِ الَّذِي سَأَلَ فِيهِ الرُّؤْيَا وَاعْطِيَ فِيهِ التَّوْرَةَ .

وَمَا نَقَلَهُ الطَّبْرَسِي - مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ ارْنِي أَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ عَرَفَنِي نَفْسَكَ تَعْرِيفًا وَاضِحًا جَلِيًّا بِإِظْهَارِ بَعْضِ آيَاتِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَضَطَّرَّ الْخَلْقُ إِلَى مَعْرِفَتِكَ ﴿ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ يَعْنِي : أَعْرِفْكَ مَعْرِفَةً

(١) فِي عَيُونِ أَخْبَارِ الرِّضَا ﷺ : لِأَجَابِكَ .

(٢) عَيُونِ أَخْبَارِ الرِّضَا ﷺ ١ : ٢٠٠ / ١ ، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢ : ٢٣٣ .

ضرورة كأني أنظر إليك ؛ كما جاء في الحديث : « سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » بمعنى : ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء مثل إبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى بدرا ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة ، ولن تحتمل قوتك تلك الآية ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فإني أورد عليه آية من تلك الآيات ، فإن ثبت لتحليلها واستقر مكانه ، فسوف تثبت لها وتطيقها ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ فلما ظهرت للجبل آية من آيات ربه ﴿جَعَلَهُ دُكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ لعظم ما رأى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مما اقترحت ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك. انتهى (١) .

وبه قال بعض العامة حيث قال : إنه سأل المعرفة الضرورية ، أو الآيات الباهرات التي تنزل عندها الخواطر والوساوس ، انتهى (٢) - مخالف لظاهر الآية وصريح الروايات المروية بطريق العامة والخاصة. وقيل : إنه الرؤية ، وأراد تأكيد الدليل العقلي الدال على امتناع الرؤية بالدليل السمعي من قوله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ .

وفيه ما لا يخفى من الضعف ، فالأولى الكف عن التكلم في توجيه الآية وإيكال علمه إلى الراسخين في العلم.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ

وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد إفاقة موسى عليه السلام وتوبته من سؤال الرؤية في يوم عرفة - على رواية - أظهر غاية لطفه به و﴿قَالَ﴾ له في يوم النحر - كما روي (٣) - : ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ وفضلتك أو آثرتك ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ جميعا من الأولين والآخرين ﴿بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي﴾ ومخاطبتي إيتاك مشافهة في الأرض بلا واسطة ملك ، فإن مجموع الأمرين لم يكن ولا يكون لأحد غيرك ﴿فَخُذْ﴾ الآن ﴿مَا آتَيْتُكَ﴾ وأعطيتك من التوراة ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمي عليك.

(١) جوامع الجامع : ١٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٤ : ٢٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٤ : ٢٣٦ .

الفهرس

- [٥٧] وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ ٥
- [٥٨] ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥
- [٥٩ - ٦١] إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥
- [٦٢ و ٦٣] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠
- [٦٤] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ١٠
- [٦٥] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ ١٣
- [٦٦ و ٦٧] هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ وَاللَّهُ ١٤
- [٦٨] إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ ١٤
- [٦٩] وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٤
- [٧٠] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ١٥
- [٧١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥
- [٧٢ و ٧٣] وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ ١٥
- [٧٤] يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١٧
- [٧٥] وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنُ إِن تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنُ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ ١٧
- [٧٦] بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ١٨
- [٧٧] إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ١٨
- [٧٨] وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ ١٩
- [٧٩ و ٨٠] مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا ... ٢٠
- [٨١ و ٨٢] وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ٢٢
- [٨٣] أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ٢٤
- [٨٤] قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ٢٥

- [٨٥] وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ٢٦
- [٨٦] كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ ٢٧
- [٨٧ و ٨٨] أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ ٢٨
- [٨٩] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٨
- [٩٠] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ ٢٩
- [٩١] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا ٣٠
- [٩٢] لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ ٣٠
- [٩٣] كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ ٣٢
- [٩٤] فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٣٤
- [٩٥] قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣٤
- [٩٦ و ٩٧] إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ ٣٤
- [٩٨] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ٤٠
- [٩٩] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ ٤١
- [١٠٠ و ١٠١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ ٤٢
- [١٠٣] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ ٤٣
- [١٠٤ و ١٠٥] وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٤٦
- [١٠٦ و ١٠٧] يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ ٥٠
- [١٠٨ و ١٠٩] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ وَلِلَّهِ مَا فِي ... ٥٢
- [١١٠] كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ٥٣
- [١١١] لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُواكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ٥٥
- [١١٢] ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ ٥٦
- [١١٣ و ١١٤] يُسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ ٥٨
- [١١٥] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ٦٠
- [١١٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ ٦٠
- [١١٧] مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ ٦١
- [١١٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا ٦٢
- [١١٩] هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوكُمْ قَالُوا ٦٣
- [١٢٠] إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا ٦٤

- [١٢٣ - ١٢١] وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ ٦٥
- [١٢٤ و ١٢٥] إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ٦٩
- [١٢٦] وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ٧٠
- [١٢٧] لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَتِيقُلُوا خَائِبِينَ ٧١
- [١٢٨] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ٧١
- [١٢٩] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ٧٣
- [١٣٠ - ١٣٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ ٧٣
- [١٣٣] وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ ٧٤
- [١٣٤] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ٧٦
- [١٣٥] وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ٧٧
- [١٣٦] أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ ٨٢
- [١٣٧ و ١٣٨] قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٨٢
- [١٣٩ و ١٤٠] وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ ٨٣
- [١٤١] وَلِيَمَّخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ ٨٤
- [١٤٢] أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٨٥
- [١٤٣] وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ ٨٧
- [١٤٤] وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ ٩٠
- [١٤٥] وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا ٩٦
- [١٤٦] وَوَكَايَيْنَ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ٩٧
- [١٤٧ و ١٤٨] وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ ٩٩
- [١٤٩ و ١٥٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُزِدُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا ١٠٠
- [١٥١] سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ١٠٠
- [١٥٢] وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ١٠١
- [١٥٣] إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ ١٠٣
- [١٥٤] ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ ١٠٥
- [١٥٥] إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا ١٠٨
- [١٥٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ١٠٩
- [١٥٧] وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا ١١٠

- [١٥٨] وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ ١١١
- [١٥٩] فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ١١١
- [١٦٠] إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ١١٧
- [١٦١] وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلْ مِمْثَلًا وَلَا يَفْلُحَ بِمَا يَفْلُحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ١١٨
- [١٦٢] أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ١٢١
- [١٦٣] هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٢١
- [١٦٤] لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ١٢٢
- [١٦٥] أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ١٢٥
- [١٦٦ و ١٦٧] وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَيَعْلَمَ ١٢٦
- [١٦٨] الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ ١٢٧
- [١٦٩] وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ١٢٨
- [١٧٠] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ ١٢٩
- [١٧١] يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ١٣٠
- [١٧٢-١٧٤] الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ١٣١
- [١٧٥] إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ ١٣٤
- [١٧٦] وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا ١٣٥
- [١٧٧] إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ ١٣٥
- [١٧٨] لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ ١٣٦
- [١٧٩] مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ١٣٧
- [١٨٠] لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ ١٣٨
- [١٨١] لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۚ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ١٣٩
- [١٨٢] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ١٤١
- [١٨٣] الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ١٤١
- [١٨٤] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ ١٤٢
- [١٨٥] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِزَ عَنِ ١٤٣
- [١٨٦] لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ١٤٤
- [١٨٧] وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ ١٤٥
- [١٨٨] لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا ١٤٦

- ١٨٩] لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٧
- ١٩٠] إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ١٤٧
- ١٩١] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ١٤٩
- ١٩٢] رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ١٥١
- ١٩٣] رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ١٥٢
- ١٩٤] رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ١٥٣
- ١٩٥] فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِئَ بَعْضُكُمْ ١٥٤
- ١٩٦ و ١٩٧] لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ١٥٦
- ١٩٨] كِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ١٥٧
- ١٩٩] وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ١٥٨
- ٢٠٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ ١٥٩
- في تفسير سورة النساء ١٦٥
- ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ١٦٥
- ٢] وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى ١٦٩
- ٣] وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي ١٧٠
- ٤] وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ بِنَخْلَةٍ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا ١٧٢
- ٥] وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ١٧٣
- ٦] وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ ١٧٥
- ٧] لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ١٧٧
- ٨] وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ١٧٩
- ٩] وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ١٧٩
- ١٠] إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ١٨١
- ١١] وَصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ١٨٢
- ١٢] وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ ١٨٥
- ١٣] تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ١٨٨
- ١٤] وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ ١٨٩
- ١٥] وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ ١٨٩
- ١٦] وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ ١٩٠

- [١٧] إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ١٩٠
- [١٨] وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ ١٩٢
- [١٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ ١٩٣
- [٢٠] وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا ١٩٤
- [٢١] وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا ١٩٥
- [٢٢] وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا ١٩٦
- [٢٣] حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ١٩٧
- [٢٤] وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ١٩٨
- [٢٥] وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا ٢٠٠
- [٢٦] يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ ٢٠٢
- [٢٧] وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا ٢٠٢
- [٢٨] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٢٠٢
- [٢٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً ٢٠٣
- [٣٠] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ غَدَوَاتًا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ٢٠٤
- [٣١] إِنْ تَجَسَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا ٢٠٥
- [٣٢] وَلَا تَتَمَتَّعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ٢٠٦
- [٣٣] وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ ٢٠٧
- [٣٤] الرِّجَالِ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا ٢٠٩
- [٣٥] وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا ٢١١
- [٣٦] وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى ٢١٢
- [٣٧] الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ٢١٤
- [٣٨] وَالَّذِينَ يَفْقَهُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ ٢١٥
- [٣٩] وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ ٢١٦
- [٤٠] إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا ٢١٦
- [٤١] فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ٢١٦
- [٤٢] وَمِمَّنْ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٢١٧
- [٤٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٢١٨
- [٤٤] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ ٢٢٢

- [٤٥] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ٢٢٣
- [٤٦] مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ٢٢٣
- [٤٧] أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن ٢٢٤
- [٤٨] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ٢٢٥
- [٤٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ ٢٢٦
- [٥٠] انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ٢٢٧
- [٥١] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ٢٢٧
- [٥٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ٢٢٨
- [٥٣] أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ٢٢٨
- [٥٤] أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٢٢٨
- [٥٥] فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٢٢٩
- [٥٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ ٢٢٩
- [٥٧] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٢٣٠
- [٥٨] إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ ٢٣٠
- [٥٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن ٢٣١
- [٦٠] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ ٢٤٠
- [٦١] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ ٢٤١
- [٦٢] فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ ٢٤١
- [٦٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي ٢٤٢
- [٦٤] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ٢٤٢
- [٦٥] فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي ٢٤٣
- [٦٦ - ٦٨] وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا ٢٤٤
- [٦٩ و ٧٠] وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ ٢٤٥
- [٧١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ٢٤٦
- [٧٢ و ٧٣] وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ ٢٤٦
- [٧٤] لِّيُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي ٢٤٧
- [٧٥] وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ٢٤٧
- [٧٦] الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٢٤٨

- [٧٧] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا ٢٤٨
- [٧٨] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ٢٤٩
- [٧٩] مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ ٢٥٠
- [٨٠] مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ٢٥١
- [٨١] وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ ٢٥٢
- [٨٢] أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ٢٥٢
- [٨٣] وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ ٢٥٣
- [٨٤] فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ ٢٥٤
- [٨٥] مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ ٢٥٥
- [٨٦] وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٢٥٦
- [٨٧] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ ٢٥٧
- [٨٨] فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا ٢٥٧
- [٨٩] وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى ٢٥٨
- [٩٠] إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ ٢٥٩
- [٩١] سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ ٢٦١
- [٩٢] وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ٢٦٢
- [٩٣] وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ٢٦٤
- [٩٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّسُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى ٢٦٦
- [٩٥ و ٩٦] لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي ٢٦٨
- [٩٧] إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا ٢٦٩
- [٩٨] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا ٢٧١
- [٩٩] فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٢٧٢
- [١٠٠] مَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ ٢٧٣
- [١٠١] وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ ٢٧٣
- [١٠٢] وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا ٢٧٥
- [١٠٣] إِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ ٢٧٧
- [١٠٤] وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ٢٨٠
- [١٠٥ و ١٠٦] إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ ٢٨١

- ٢٨١ [١٠٧] وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا
- ٢٨٣ [١٠٨] يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا
- ٢٨٣ [١٠٩] هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
- ٢٨٤ [١١٠] وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا
- ٢٨٤ [١١١] وَمَن يَكْسِبْ إِنَّمَا فَاِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
- ٢٨٤ [١١٢] وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِنَّمَا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا
- ٢٨٤ [١١٣] وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضْلُوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا
- ٢٨٥ [١١٤] لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجَوَاهُم إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
- ٢٨٦ [١١٥] وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
- ٢٨٧ [١١٦] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ
- ٢٨٧ [١١٧ و ١١٨] إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ
- ٢٨٨ [١١٩] لَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَنِيئَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَسْتَكِنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ
- ٢٨٩ [١٢٠] يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا
- ٢٨٩ [١٢١] أُولَٰئِكَ مَاوَاهُم جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا
- ٢٩٠ [١٢٢] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
- ٢٩٠ [١٢٣] يَسَّرَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ
- ٢٩١ [١٢٤ و ١٢٥] وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مَن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
- ٢٩٢ [١٢٦] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا
- ٢٩٣ [١٢٧] وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُم فِي الْكِتَابِ
- ٢٩٣ [١٢٨] وَإِن امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا
- ٢٩٥ [١٢٩] وَلَكِن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
- ٢٩٦ [١٣٠] وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاَ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا
- ٢٩٧ [١٣١] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن
- ٢٩٧ [١٣٢ و ١٣٣] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
- ٢٩٨ [١٣٤] مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا
- ٢٩٩ [١٣٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوْ
- ٢٩٩ [١٣٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ
- ٣٠٠ [١٣٧ و ١٣٨] إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ

- [١٣٩] الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ ٣٠١
- [١٤٠] وَوَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ٣٠٢
- [١٤١] الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ ٣٠٣
- [١٤٢ و ١٤٣] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا ٣٠٥
- [١٤٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ ٣٠٦
- [١٤٥ و ١٤٦] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ ٣٠٦
- [١٤٧] مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ٣٠٧
- [١٤٨] لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا ٣٠٧
- [١٤٩] إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ٣٠٨
- [١٥٠ و ١٥١] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ .. ٣٠٩
- [١٥٢] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ٣٠٩
- [١٥٣] نَسْأَلُكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى ٣٠٩
- [١٥٤] وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا ٣١٠
- [١٥٥] فَبِمَا نَفْضِهِمْ مِّثْقَالَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ ٣١١
- [١٥٦] وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ٣١١
- [١٥٧] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ٣١٢
- [١٥٨] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٣١٣
- [١٥٩] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ ٣١٤
- [١٦٠ و ١٦١] فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ ٣١٥
- [١٦٢] لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ ٣١٦
- [١٦٣] إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى ٣١٦
- [١٦٤] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ ٣١٨
- [١٦٥] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّنَا لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ ٣١٨
- [١٦٦] لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ ٣١٩
- [١٦٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ٣١٩
- [١٦٨ و ١٦٩] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا ٣١٩
- [١٧٠] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۖ وَإِنْ ٣٢٠
- [١٧١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٣٢٠

- ١٧٢] لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ ٣٢٢
- ١٧٣] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ٣٢٢
- ١٧٤] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ٣٢٣
- ١٧٥] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ٣٢٣
- ١٧٦] يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ ٣٢٤
- في تفسير سورة المائدة ٣٢٧
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ٣٢٧
- [٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا ٣٢٨
- [٣] حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِعَیْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ٣٣٠
- [٤] يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ٣٣٣
- [٥] الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ ٣٣٥
- [٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٣٣٦
- [٧] اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ٣٤٢
- [٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ ٣٤٣
- [٩ و ١٠] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ ٣٤٤
- [١١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ ٣٤٤
- [١٢] وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ ٣٤٦
- [١٣] فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ ٣٤٧
- [١٤] وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ ٣٤٨
- [١٥] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٣٥٠
- [١٦] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى ٣٥٢
- [١٧] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ ٣٥٢
- [١٨] وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ ٣٥٣
- [١٩] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ٣٥٤
- [٢٠] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ٣٥٥
- [٢١] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى ٣٥٥
- [٢٢ و ٢٣] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ ٣٥٦
- [٢٤] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا ٣٥٧

- [٢٥] قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ ٣٥٧
- [٢٦] قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۖ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٣٥٨
- [٢٧ - ٢٩] وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ لَ ٣٦٠
- [٣٠] فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٦٢
- [٣١] بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سُوءَ أَخِيهِ قَالَ ٣٦٣
- [٣٢] مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ ٣٦٥
- [٣٣] إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ ٣٦٧
- [٣٤] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٧٠
- [٣٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ٣٧٠
- [٣٦] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ ٣٧١
- [٣٧] يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ الثَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ ٣٧١
- [٣٨] وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ٣٧١
- [٣٩] فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٧٣
- [٤٠] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ ٣٧٣
- [٤١] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا ٣٧٤
- [٤٢] سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْرِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ ٣٧٦
- [٤٣] وَوَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ٣٧٨
- [٤٤] إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ ٣٧٨
- [٤٥] وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ٣٨٠
- [٤٦] وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ٣٨١
- [٤٧] وَلِيُحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ ٣٨١
- [٤٨] وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا ٣٨١
- [٤٩] وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ ٣٨٣
- [٥٠] أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ ٣٨٤
- [٥١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ٣٨٥
- [٥٢] فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا ٣٨٦
- [٥٣] وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ٣٨٦
- [٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ٣٨٧

- [٥٥] إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ٣٩٣
- [٥٦] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ٤٠١
- [٥٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ ٤٠٢
- [٥٨] وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ٤٠٢
- [٥٩] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ ٤٠٣
- [٦٠] قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ ٤٠٣
- [٦١] وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا ٤٠٤
- [٦٢ و ٦٣] وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا ٤٠٥
- [٦٤] وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ ٤٠٦
- [٦٥] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ ٤٠٧
- [٦٦] وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ٤٠٨
- [٦٧] يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ٤٠٨
- [٦٨] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا ٤١٢
- [٦٩] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٤١٣
- [٧٠] لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا ٤١٣
- [٧١] حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا ٤١٤
- [٧٢] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي ٤١٤
- [٧٣] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا ٤١٥
- [٧٤] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٤١٥
- [٧٥] مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا ٤١٥
- [٧٦] قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٤١٦
- [٧٧] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ٤١٧
- [٧٨ و ٧٩] لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ ٤١٧
- [٨٠] تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٤١٩
- [٨١] وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا ٤١٩
- [٨٢] لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ ٤١٩
- [٨٣ - ٨٥] وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا ٤٢٠
- [٨٦] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٤٢١

- [٨٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا ٤٢١
- [٨٨] وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٤٢٤
- [٨٩] لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ٤٢٤
- [٩٠ و ٩١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ ٤٢٦
- [٩٢] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى ٤٢٩
- [٩٣] يَسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ٤٢٩
- [٩٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ٤٣٢
- [٩٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا ٤٣٣
- [٩٦] أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلنَّاسِ وَلِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ ٤٣٧
- [٩٧] جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ ٤٣٨
- [٩٨] اْعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٤٤٠
- [٩٩] مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ٤٤٠
- [١٠٠] قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ٤٤٠
- [١٠١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا ٤٤١
- [١٠٢] قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ٤٤٢
- [١٠٣] مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ٤٤٣
- [١٠٤] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا ٤٤٤
- [١٠٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ ٤٤٤
- [١٠٦ و ١٠٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ٤٤٥
- [١٠٨] ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ ٤٤٨
- [١٠٩] يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٤٤٩
- [١١٠ - ١١٣] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ ٤٥٠
- [١١٤ و ١١٥] قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ... ٤٥٢
- [١١٦] وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن ٤٥٥
- [١١٧] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ٤٥٦
- [١١٨] إِن تَعَذَّبْتُمْ فَاتَّبَعُوا عِبَادَكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٥٧
- [١١٩] قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٤٥٧
- [١٢٠] لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤٥٩

- في تفسير سورة الأنعام ٤٦١
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ ٤٦١
- [٢] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَالًا وَأَجَلًا مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ ٤٦٢
- [٣] وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا ٤٦٣
- [٤ و ٥] وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا ٤٦٣
- [٦] أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ ٤٦٤
- [٧] وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسْنَاهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ٤٦٤
- [٨ و ٩] وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ ٤٦٥
- [١٠] وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ ٤٦٦
- [١١] قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ٤٦٧
- [١٢] قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ٤٦٧
- [١٣ و ١٤] وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا ٤٦٨
- [١٥] قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٤٦٩
- [١٦] مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يُؤْمِنُ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ٤٦٩
- [١٧] وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ ٤٧٠
- [١٨] وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ٤٧٠
- [١٩] قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ٤٧٠
- [٢٠] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا ٤٧١
- [٢١] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٤٧٢
- [٢٢ و ٢٣] وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ ٤٧٣
- [٢٤] انظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٤٧٣
- [٢٥] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ ٤٧٤
- [٢٦] وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٤٧٥
- [٢٧] وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ ٤٧٥
- [٢٨] بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ ٤٧٥
- [٢٩ و ٣٠] وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُّوا عَلَى ٤٧٦
- [٣١] قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا ٤٧٦
- [٣٢] وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا ٤٧٧

- [٣٣] قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ ٤٧٧
- [٣٤] وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ٤٧٩
- [٣٥] وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ ٤٧٩
- [٣٦] إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۖ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٤٨٠
- [٣٧] وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ ٤٨٠
- [٣٨] وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا ٤٨١
- [٣٩] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءِ ٤٨٢
- [٤٠ ٤١] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ ٤٨٢
- [٤٢] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ ٤٨٣
- [٤٣-٤٥] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا ٤٨٣
- [٤٦] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ ٤٨٥
- [٤٧] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ ٤٨٥
- [٤٨ ٤٩] وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ ٤٨٦
- [٥٠] قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ٤٨٦
- [٥١] وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا ٤٨٨
- [٥٢] وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ ٤٨٨
- [٥٣] وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ ٤٩٠
- [٥٤] وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٤٩٠
- [٥٥] وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ٤٩١
- [٥٦] قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ٤٩١
- [٥٧] قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ ٤٩٢
- [٥٨] قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ٤٩٢
- [٥٩] وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ ٤٩٣
- [٦٠] وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ ٤٩٤
- [٦١ و ٦٢] وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ٤٩٥
- [٦٣ و ٦٤] قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا ٤٩٦
- [٦٥] قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ٤٩٧
- [٦٦ و ٦٧] وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ٤٩٨

- [٦٨ و ٦٩] وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي ٤٩٨
- [٧٠] وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ ٤٩٩
- [٧١ و ٧٢] قُلْ أُنَدِّعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ ٥٠٠
- [٧٣] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٥٠١
- [٧٤] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ ٥٠٢
- [٧٥] وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٥٠٣
- [٧٦-٧٨] فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ٥٠٤
- [٧٩] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٥٠٥
- [٨٠] وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا ٥٠٨
- [٨١] وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ٥٠٨
- [٨٢] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ٥٠٩
- [٨٣] وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ ٥١٠
- [٨٤ و ٨٥] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ ٥١٠
- [٨٦ و ٨٧] وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمَنْ آتَيْنَاهُمْ ٥١١
- [٨٨] ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا ٥١٣
- [٨٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ ٥١٣
- [٩٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدَاهُمْ ائْتَدَاهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ٥١٤
- [٩١] وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ ٥١٤
- [٩٢] وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ ٥١٦
- [٩٣] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ٥١٧
- [٩٤] وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ٥١٩
- [٩٥] إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ٥٢٠
- [٩٦ و ٩٧] فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ ٥٢٢
- [٩٨] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ٥٢٣
- [٩٩] وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ٥٢٤
- [١٠٠ و ١٠١] وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ ... ٥٢٦
- [١٠٢] ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٥٢٧
- [١٠٣] لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ٥٢٧

- [١٠٤] قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا ٥٢٩
- [١٠٥] وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢٩
- [١٠٦ و ١٠٧] اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ ٥٢٩
- [١٠٨] وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا ٥٣٠
- [١٠٩] لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٣٢
- [١١٠] وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ٥٣٣
- [١١١] وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ٥٣٣
- [١١٢] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ ٥٣٤
- [١١٣ و ١١٤] وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ ٥٣٥
- [١١٥ و ١١٦] وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥٣٦
- [١١٧ و ١١٨] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ٥٣٧
- [١١٩] وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا ٥٣٧
- [١٢٠] وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا ٥٣٨
- [١٢١] وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ ٥٣٨
- [١٢٢] أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي ٥٣٩
- [١٢٣ و ١٢٤] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا ٥٤١
- [١٢٥ و ١٢٦] فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ ٥٤٢
- [١٢٧] لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٤٥
- [١٢٨ و ١٢٩] يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ ٥٤٥
- [١٣٠] يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ٥٤٧
- [١٣١] ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ٥٤٨
- [١٣٢] وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ٥٤٨
- [١٣٣] وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا ٥٤٨
- [١٣٤ و ١٣٥] إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ... ٥٤٩
- [١٣٦] وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا ٥٤٩
- [١٣٧] وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ ٥٥٠
- [١٣٨] وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ ٥٥١
- [١٣٩] وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ ٥٥٢

- [١٤٠] يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ..... ٥٥٢
- [١٤١] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا ٥٥٣
- [١٤٢] وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ ٥٥٥
- [١٤٣ و ١٤٤] ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم ٥٥٥
- [١٤٥] قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ ٥٥٧
- [١٤٦] وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ..... ٥٥٩
- [١٤٧] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ ٥٦٠
- [١٤٨] سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ٥٦٠
- [١٤٩] قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ..... ٥٦١
- [١٥٠] قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا ٥٦١
- [١٥١] قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ٥٦٢
- [١٥٢] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ٥٦٣
- [١٥٣] وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ٥٦٤
- [١٥٤] ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ٥٦٥
- [١٥٥ - ١٥٧] وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا ٥٦٦
- [١٥٨] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ٥٦٧
- [١٥٩] إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ٥٦٨
- [١٦٠] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ٥٦٩
- [١٦١] قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا ٥٦٩
- [١٦٢ و ١٦٣] قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ... ٥٧٠
- [١٦٤] قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنِيعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا ٥٧٠
- [١٦٥] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ٥٧١
- في تفسير سورة الأعراف ٥٧٣
- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ٥٧٣
- [٣] اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا ٥٧٤
- [٤ و ٥] وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ٥٧٥
- [٦ و ٧] فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا ٥٧٥
- [٨ و ٩] وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن ٥٧٦

- [١٠] وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٥٧٩
- [١١ - ١٣] وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا ٥٨٠
- [١٤ و ١٥] قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٥٨١
- [١٦ و ١٧] قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ ٥٨٢
- [١٨] قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ ٥٨٣
- [١٩ و ٢٠] وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ٥٨٤
- [٢١ - ٢٣] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ٥٨٤
- [٢٤ و ٢٥] قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٥٨٦
- [٢٦] يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ٥٨٦
- [٢٧] يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا ٥٨٨
- [٢٨] وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ ٥٨٨
- [٢٩] قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ ٥٨٩
- [٣٠] فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ ٥٩٠
- [٣١] يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ ٥٩١
- [٣٢] قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ٥٩٢
- [٣٣] قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ ٥٩٤
- [٣٤] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٥٩٥
- [٣٥ و ٣٦] يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ٥٩٦
- [٣٧ - ٣٩] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ ٥٩٦
- [٤٠] إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ٥٩٨
- [٤١ و ٤٢] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ ٥٩٩
- [٤٣] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ٥٩٩
- [٤٤] وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ ٦٠١
- [٤٥] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ٦٠١
- [٤٦ و ٤٧] وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا ٦٠١
- [٤٨ و ٤٩] وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ ٦٠٣
- [٥٠] وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا ٦٠٤
- [٥١] الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا ٦٠٥

- [٥٢] وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٠٦
- [٥٣] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ ٦٠٦
- [٥٤] إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ ٦٠٧
- [٥٥] ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٦٠٩
- [٥٦] وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ ٦١٠
- [٥٧] وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا ٦١٠
- [٥٨] وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ ٦١١
- [٥٩ و ٦٢] لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي ٦١٣
- [٦٣ و ٦٤] أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ٦١٤
- [٦٥ - ٦٨] وَوَالِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦١٤
- [٦٩] أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَادْكُرُوا إِذْ ٦١٥
- [٧٠ و ٧١] فَقَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ ٦١٦
- [٧٢] فَانْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا ٦١٧
- [٧٣] وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ ٦١٨
- [٧٤ - ٧٦] وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ ٦١٩
- [٧٧ - ٧٩] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ .. ٦٢٠
- [٨٠ - ٨٤] وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ٦٢٤
- [٨٥] وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ٦٢٦
- [٨٦] وَلَا تَفْعَلُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ٦٢٧
- [٨٧ - ٩٠] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا ٦٢٨
- [٩١ - ٩٣] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا ٦٢٩
- [٩٤ و ٩٥] وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ ٦٣٠
- [٩٦] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ٦٣١
- [٩٧ - ٩٩] أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ٦٣٢
- [١٠٠] أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ ٦٣٢
- [١٠١] تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا ٦٣٣
- [١٠٢] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ٦٣٤
- [١٠٣] ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ ٦٣٥

- [١٠٤-١٠٨] وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا ٦٣٦
- [١٠٨ - ١١٦] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ ٦٣٧
- [١١٧-١٢٢] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَفُوقَ الْحَقِّ ... ٦٣٨
- [١٢٣] قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ٦٣٩
- [١٢٤ - ١٢٧] لَا قُطْعَنَ أَيَّدِيكُم وَأَرْجُلَكُم مِّن خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا ... ٦٤٠
- [١٢٨و١٢٩] قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ ... ٦٤٢
- [١٣٠] وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٦٤٣
- [١٣١] فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ ٦٤٣
- [١٣٢ - ١٣٥] وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا .. ٦٤٣
- [١٣٦ و١٣٧] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ٦٤٧
- [١٣٨ و١٣٩] وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا .. ٦٤٨
- [١٤٠و١٤١] قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّن آلِ ٦٤٨
- [١٤٢ و١٤٣] وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ٦٤٩
- [١٤٤] قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ ٦٥٣
- الفهرس ٦٥٥